المن بالإمامة

تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين

تأليف

عبد الملك بن صاحب الصلاة

(594 هـ - 1198 م)

تحقيق

الدكتور عبد الهادي التازي



دار الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى 1964
الطبعة الثانية 1979
الطبعة الثالثة 1987



دار الغرب الإسلامي
ص . ب : 5787 - 113
بيروت - لبنان

تقديم

عبد الهادي التازي

كان في صدر الذين نعوا على المغاربة إهمالهم تاريخ أعلامهم ومعالمهم وإغفالهم تخليد مفاخرهم ومآثرهم ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي من رجال القرن السادس الهجري . . ونعتقد أن ذلك الشعور منه كان بمناسبة عزمه على تأليف موسوعته المشهورة : «**الذيل والتكملة**» ، فعندئذ أحس بالفراغ المهول حول الموضوع ، ومن هنا نقل عنه صاحب كتاب «**مفاخر البربر**» هذه الكلمات : «لقد كان بفاس من الفقهاء الأعلام الأجلة أعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام ، إذ هي قاعدة المغرب ودار العلم والأدب ، لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم وأغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم»[1] .

وربما كان - أي عبد الملك - هو المقصود عندما ردد العلّامة سيدي العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن قوله عن جماعة من العلماء «وسموا المغاربة بالإهمال ، وبدفنهم فضلاءهم في قبري تراب وإخمال ، فكم فيهم - يقول صاحب المرآة : - من فاضل نبيه ، طوى ذكره عدم التنبيه ، فصار اسمه مهجوراً ، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً »[2] ، وقد شعر بصدق هذا العتاب وإدراك دواعيه سائر الذين قدّر لهم أن يتحدثوا عن المغرب ، وهكذا قرأنا لأبي علي اليوسي في محاضراته بعد نصف قرن ترديداً لكلام شيخه سيدي العربي مضيفاً

(1) نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول الاسم ألف سنة 712 - نشر ليفي بروفنصال ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، الجزء 1 . الرباط 1352 — 1934 .

(2) المرآة ص ٤ .

الى ذلك « أن الأعتناء بالأخبار والوقائع والمساند ضعيف جداً في المغاربة إذ غلب عليهم الاعتناء بالدراية دون الرواية » [1] ثم قرأنا للكتاني في «السلوة » : «أنه لقلة اعتناء أهل هذا المغرب بالتاريخ ضاع أكثرهم وخفي على كثير من الناس جمهورهم ومعظمهم » وقد عزز صاحب السلوة هذه الفكرة بنقول عن سيدي عبد السلام القادري في تقييده حول التعرف بابن أبي زرع ، وبكلام صاحب (كتاب التنبيه على من لم يقع به من فضلاء فاس تنويه) [2] .

ثم كانت هذه لازمة الذين عنوا بالبحث في مصادر التاريخ المغربي سواء من الأساتذة المغاربة أو المستشرقين على السواء[3] . . . والحقيقة أنها رواية من صاحب المرآة ، مبعثها إحساسه وقلبه اللذان كانا يتوقان إلى الاطلاع على أخبار الماضين من هذا المغرب . . . لكن المزيد من المرارة التي كان يشعر بها أولئك العلماء في ذلك التاريخ قد خفت وطأتها على عهدنا فيما نظن ، فلو أتيح لهم أن يطلعوا على ما نشر لحد الآن عن تاريخ المغرب وبأيدٍ مغربية لكان عتابهم أخف وألطف ، فلقد اكتشفت بالفعل عيون جديدة أروت إلى حد ما ظمأ المتعطشين ، وظهرت منذ فجر هذا القرن وثائق تاريخية جعلت تبعة المؤرخين المغاربة أقل مما كان يتصور ، وقد تأكد فعلاً أنهم كانوا «يعتنون ويهتمون » وأنهم أصحاب «دراية ورواية » وأنهم بالرغم مما يعوق المؤرخ أحياناً عن تسجيل انطباعاته لداعٍ ما[4] من الدواعي ، بالرغم من كل ذلك ظهرت وتظهر مخطوطات هنا وهناك ، كانت الى الأمس القريب في حكم المعدوم ، وبفضل همة رجال البحث أمست اليوم في متناول الجميع وربما بلغات أخرى غير اللغة العربية .

---

(1) المحاضرات ص 59.

(2) السلوة أول ص 3 .

(3) أقرأ مقدمة الاستاذ محمد الفاسي عن كتاب المعجب ، واقرأ مقدمة الأستاذ بروفنصال لكتابه بالفرنسية (مؤرخو الشرفاء Les Historiens des Chorfa) . ترجمة عبد القادر الخلادي مطبعة الرباط 1397-1977 ص 37.

(4) لاننسى أن المرابطين كانوا يفرضون رقابة صارمة على المؤلفات ، كما لا ننسى ما قد يستهدف له المؤرخ من « معوقات » تحول بينه وبين الكلام . . أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ص 261 .

وإن في أولئك الذين شعروا بتبعتهم هذا المؤرخ الكبير الذي نقدمه اليوم :

عبد الملك بن صاحب الصلاة

عرفت التعاليم الإسلامية في الشرق والغرب نظاماً دقيقاً لضبط سير البلاد الاجتماعي ، وهكذا أنشئت وظائف عديدة كان في أهمها خطة الشورى والأحكام[1] ، كما كان من بينها صاحب الأحباس ، وصاحب السوق ، وصاحب الردِ ، وصاحب الشرطة ، وصاحب الخُمس[2] ، وصاحب الصلاة والخطبة ، وصاحب المظلة[3] ، وقد عرف إلى الآن نظام الدولة المغربية صاحب الوضوء ، وصاحب السجادة[4] ، وإن أقدم تاريخ ردد فيه هذا اللقب ـ فيما

---

(1) ابن الآبار: التكملة لكتاب الصلة نشر كوديرا رقم -891 -936-984-1057-1381-1565-1755 753-536 .

حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين 1957 صفحة 368 — 369 .

(2) ذكر القاضي عياض في الغنية في ترجمة مجيُرة خلف بن خلف بن محمد الأنصاري ، المعروف بابن العربي من أهل المرية (508) إن من شيوخه ابن صاحب الأحباس ، وذكر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن سعيد اللَّخمي اللورقي المتوفى سنة 516 . إنه سمع ابن صاحب الأحباس وقال في ترجمة الحافظ أبي بكر غالب بن عطية (518) إنه سمع بالأندلس من أبي بكر ابن صاحب الأحباس ، كما ذكر في ترجمة شيخه أبي القاسم عبد الرحمن المعافري السبتي (502) إنه لقي ابن صاحب الخمس بصقلية ، وقد تكلم شراح الزقاقية ومحشوها في أولها على بعض أصحاب الخطة كصاحب المظالم وصاحب السوق وصاحب الرد وصاحب الشرطة . الغنية ص 25 . الزقاقية ص 8 .

(3) ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد صفحة 24 — 51 .

(4) يوجد في النظام المغربي صاحب الوضوء وصاحب السجادة وقد أدركنا من وظائف أصحاب الوضوء أنهم يخبرون الوزراء بخروج الملك من داخل قصره ، الى قبة النصر أو الى مكتبه بالمنزه ، وهم الذين يبعثون من لدن العاهل لطلب الوزراء والكبراء . كما أنهم هم الذين يحملون اليه الرسائل والتقارير من مختلف بنائق الوزراء ، وأخيراً بواسطتهم أيضاً يعلم موظفو القصر أن السلطان قد رجع الى قصره ، أما صاحب السجادة فإنه الذي يحمل السجادة التي يصلي عليها السلطان ويفرشها في المسجد عند أوقات الصلاة ، وغالباً ما يكون أفراد هذه المهنة من أعيان الفضلاء .

ابن زيدان ـ الاتحاف جزء 2 صفحة 529 — 537 — 539 ، العز والصولة لنفس المؤلف 1 ـ صفحة 128 — 129 .

نعلم ـ : صاحب الصلاة ، يرجع لأواسط القرن الثالث الهجري [1] ، وانتشر بعد ذلك سواء في الأندلس أو أفريقية والمغرب[2] ، ويعني به بكل وضوح الذي يؤم بالناس في صلواتهم [3] ، ولعلهم عدلوا عن لقب الإمام المعهود حتى لا يشتبه بالإمام الحاكم . وليس من الصواب في شيء أن ندّعي أن مدلول صاحب الصلاة يعني شخصاً ألّف كتاباً يحمل اسم الصلاة [4] ، كما أنه ليس صحيحاً ضبط الصلاة بكسر الصاد مع التشديد وحذف الألف كما وقع فيه بعض المستشرقين [5] .

وعبد الملك هو ابن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المكنى أبا مروان ، وأبا محمد[6] كذلك والمعروف بابن صاحب الصلاة ، ونظراً لكونه ينتسب لمدينة باجة فإن أصل أسرته ـ كما يظهر ـ كان باجة التي كانت تضم نخبة

(1) ورد عند ابن الخشني : بينما محمد بن سحنون (ت 255) يمشي يوماً مع جماعة من أصحابه لقيه ابن صاحب الصلاة في ذلك الوقت المعروف بابن الحواجب ، فأومأ الى أذن ابن سحنون : « يا زاني ! يابن الزانية ! الى آخر القصة » .
ابن الخشني : قضاة قرطبة وعلماء أفريقية صفحة 180 .
ابن الآبار : التكملة نشر العطار الترجمة رقم 1029 .

(2) ابن بشكوال : الصلة (نشر العطار) رقم 434 — 501 — 515 — ابن الآبار : التكملة نشر كوديرا رقم 907 — 914 — 916 — 979 — 1291 ـ ونشر العطار رقم 162 — 136 — 1029 ـ ابن عذاري : البيان المغرب (مخطوط) صفحة 92 ـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، الثاني صفحة 134 . الحلل الموشية . . ابن خلدون سادس ص 467 . عباس بن إبراهيم : الإعلام ثالث صفحة 68 .

(3) المصدر السابق رقم 140 — 157 .

(4) هكذا يترجمه الاستاذ الاسباني كوندي (Conde) .
Pons Boigues : **Ensayo Biobibliografico Sobre los Historiadores, y, Geografos arabi-go — Espanoles,** ed, Madrid 1898, pp. 245 — 246 N : 199 .

(5) هكذا قرأها الأستاذ فلوجيل Fluegel في ترجمته اللاتينية لكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة معتقداً فيما يظهر انها كتاب يحمل اسم الصلة ، ولعل مصدر الخطأ ما يوجد من تحريف في بعض نسخ القرطاس ونفح الطيب. ابن أبي زرع : الأنيس المطرب طبعه فاس 2 ـ صفحة 127-128، المقرّي : النفح الطبعة الجديدة 3 ـ صفحة 100.

(6) يذكر كايانكوس أن المؤلف قال أكثر من مرة : « قال المؤلف ابو عبد الله محمد بن صاحب الصلاة » ولهذا ـ يقول كايانكوس ـ يظهر أن اسمه محمد لا عبد الملك ، بيد أننا نؤكد أنه لا يوجد أثر لهذا التعبير في النسخة التي بين أيدينا من كتاب المن بالإمامة .

لامعة ممن حملوا هذا اللقب الشريف[1] ، وقد نعته ابن الآبار أحياناً بالأشبيلي نظراً ـ فيما يلوح ـ لكونه استوطن اشبيلية بعد[2] ثم لا يدري أي شيء عن أوليته ولا كذلك عن نشأته وتربيته ، فإن معاجم رجال العصر الموحدي ظلت صامتة اللهم إلا ما كان من ابن الأبار الذي ترجم لهُ في كلمة لا تتجاوز سطرين فقط لم يضف فيهما شيئاً زائداً على اسمه وكنيته ولقبه ، وإلا ما كان أيضاً من ابن عبد الملك المراكشي الذي أضاف إلى هذا أنه روي عن أبي بكر بن هرون وأبي . . ابن مالك، وأبي عبد الله بن عميرة وأبي علي بن الأشيري، وهكذا لم يتعرضا لتاريخ ميلاده ، ولا كذلك لتاريخ وفاته ولا لحياته العملية . . وقد اقتصر الأول على التذكير بأنه صاحب التاريخ » ، بينما ذكر الثاني أنه صنّف تاريخ ثورة المريدين بالأندلس ودولة عبد المؤمن ومن أدرك بحياته من بنيه [3] .

غير أن دراسة كتاب «المن بالإمامة على المستضعفين » أو بالحري دراسة السفر الثاني من هذا الكتاب تضفي بعض الضوء على حياة هذا المؤرخ الكبير ، ومن حسن الحظ أن هذا المجلد ـ الذي بين أيدينا الآن ـ هو الذي يصادف طموح ابن صاحب الصلاة ودخوله الميدان ، ولذلك فهو من هذه الناحية ذو فائدة كبرى ، ومن المؤكد أن كلاً من السفر الأول والثاني كانا يتضمنان شيئاً عن حياته ، فقد تضمن كتاب البيان المغرب[4] معلومات إضافية عن حياة هذا

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ص 93— 94— 95 .

(2) ابن الآبار : الحلة السيراء نشر الأستاذ دوزي ص 235 .

(3) ابن الآبار : التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1726 ، ابن عبد الملك : الذيل والتكملة (مخطوط) الخزانة العامة ـ الرباط رقم 2646 (د) ورقة 14، تحقيق د. محمد بن شريفة ـ 9 أكاديمية المملكة المغربية 1984، ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب الأقصى صفحة 135 - 136.

(4) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذاري كان معروفاً ـ قبل توفق رجال البحث لمعرفة حقيقته ـ تحت اسم : التاريخ الغفل La Chronique Anonyme أو (مخطوط مدريد كوبنهاغن) وهذا المخطوط جاهز الآن للطبع بمعهد مولاي الحسن بتطوان ، ويقوم بنشره السيد امبروسي هويسي مرانده بمساهمة الاستاذين محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني .
Dozy: Recherches sur L'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen age , page 310 ; provençal : Documents inéd , p 93 ; Basset — Terrasse : **Hes,** 1924, t **IV,** p . 17 — 28 ; Provençal : **Hes.** t X, 1930, p. 49, Melchor Antuna : **Sevilla y sus monumentos,** pp.25 — 38

المؤرخ كانت مستمدة فعلاً من السفر الأول والثالث ، هذا بـالإضافـة الى بعض المعلومـات التي أمكن تصيـدهـا من خـلال بعض المـراجـع التي اعتمــدت ابن صاحب الصلاة في نقولها .

حياته :

لقد ظهر عبد الملك أول ما ظهر في كتابه المن بالإمـامة أوائـل المحرم من سنة ٥٥٧ (أواخر دجنبـر ١١٦١) في مدينـة قرمـونة عـلى مقربـة من أشبيلية ، وكان ذلك لما فتحها الشيخ أبو محمـد عبد الله بن أبي حفص شهيـد موقعـة مرج الرقاد ، فعنـدما دخـل الشيخ عبـد الله هذا مسجـد المدينـة وأمر بغسله بعـد أن تخلص من الأسر ، وبينما هو جالس مستند الى الحائط الشرقي من جامع قرمونـة والرجال يغسلون الجامع بمرأى منه ، تقـدم اليه عبـد الملك بن صاحب الصـلاة وهنّـأه بالفتـح [1]، فهل في امكـاننـا أن نستشف من خـلال هـذا الخبـر تـاريـخ ميـلاده ؟ إن جل المثقفـين في الأنـدلس والمغـرب كـان ممن نبـغ وهـو لم يتجـاوز العشرين كما يدل لذلك تاريخ كثير منهم ، فهل يكون ميلاد ابن صاحب الصلاة حوالي سنة سبع وثلاثين وخمس مائة ؟ ثم بعد هذا أليس من حقنا أن نفترض أن الشاب كان آنذاك من سكان أشبيلية [2] وشارك في حروب قرمونة صحبـة الجيش الذي ذهب تحت إشارة والي أشبيلية بالنيابة : أبي محمد عبد الله بن أبي حفص ؟

وقد ظهر ابن صاحب الصلاة في هذه السنة مرة أخرى عندما صـدر الأمر باتخاذ قرطبة (مـوسطة الأنـدلس) مركـزاً للحكم على نهج مـا كان في عهـد بني أمية ، وذلك عـلى إثر المحنـة التي استهدفت لهـا قـرطبـة من قبـل الثـوار فلقـد استدعيت بهذه المناسبة «جماعة كبيرة مشهورة من أعيـان أشبيلية وأعيـان جهاتهـا لملء الأطرُ التي يتـطلبها تعمـير قرطبـة ، وكان ابن صـاحب الصلاة في جملة من عين للأشغال [3] ورشح للكتابة بدوائر الحكم ، غير أنه استعفى واعتـذر في حين قبِل فيه غيره التزام العمل ، ولكنه ـ مع هذا الاستعفاء ـ أقام في قرطبة معـدوداً

(1) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة صفحة 49 .
(2) لا ننسى ان ابن الأبار نعته بالاشبيلي في الحلة السيراء .
(3) أنظر المن بالإمامة ص 64 .

في جملة الكتاب المرموقين ولما قدم عـلى قرطبـة السيدان أبـو يعقوب وأبـو سعيد ضحـوة يوم الأحـد الثـاني عشر من شـوال ٥٥٧ (٢٤ شتنمبر ١١٦٢) صحبـة الشيخ أبي يعقوب كان في عداد وفد كتّاب اشبيلية الذين خرجوا للتبرك [1] بمقدم السادة .

ويخفي عنا نشاط عبد الملك ابن صاحب الصلاة منذ سنـة ٥٥٧ لنجده في سنة ٥٦٠ يصحب موكب السيد أبي سعيد والي قـرطبة لينـزل جبل طـارق حيث تم هناك الاجتماع العظيم بين السيد أبي سعيد ، وأخيه السيد أبي حفص الـذي ورد لإحيـاء وشائـج «التعاون والتـواصل » بعـد أن كان طـرأ بعض الفتور عـلى العلاقات بين أبي سعيد والخليفـة أبي يعقوب عـلى أثر تنصيب هـذا الأخير أميـراً على البلاد بعد وفاة والده الخليفة عبد المؤمن ، لقد ورد ابن صـاحب الصلاة في جملة الـواردين مع طلبـة الحضر للتيمن بطلعـة السيد ابي حفص ، وقـد تقـدّم ـ ضمن الشعراء الذين هنأوا ـ بقطعة شعره ، وكان الذي تـولى تقديمـه للسيد أبي حفص هو الكاتب أبو الحسن بن عياش الـذي « بين عنـد السيد الأعـلى مسألـة وفـود عبد الملك وقصـوده » فوعـد السيد الأعـلى في شـأنـه «بعدة جميلة وبـآمـال كفيلة »[2] وما من شك في أنه يسرت لابن صاحب الصلاة وسائل النزول للعدوة لـزيارة الحضرة العلية صحبة السيـد أبي حفص . سيما وقـد كان اقتنـع بنصيحة القاضي ابن العربي بصحبة أولياء الأمر !

ومن مدينة سبتة أخذوا طريقهم على مدينة فاس حيث كانت له دون ريب اتصـالات ببعض الشيوخ من سكـان فاس [3] . . . ومن هنـا اتجـه نحـو مـدينـة

(1) انظر ص 65 من المن بالإمامة .
(2) أنظر صفحة 104 — 106 — 110 — 111.
(3) يذكر صاحب الحلل الموشية ان ابن صاحب الصـلاة حكى عن عبد الله بن عبـد الرحمن العـراقي أحد شيوخ فاس قال : كنت ببغداد بمدرسة الغزالي فدخل عليه رجل فقال أبو حامد : ممن الرجل؟ قال : من المغرب إلى آخر الحكاية ، فيظهر أن ابن صاحب الصلاة سمع هذه الحكاية مباشـرة وأن هذا السماع تم هـذه السنة 560 ، هنـا يعتقد دوزي أن عبـد الملك بن صاحب الصـلاة كان ورد على العدوة منذ سنة 542 صحبة الوفـد الذي ورد بـرئاسـة ابي بكر بن العـربي لمبايعـة عبد المؤمن وتهنئته لكن الذي نجزم به أن الذي قدم آنذاك هو أبو الحسن أو أبو بكر بن صاحب الصلاة لا أبو مروان أو أبو محمد ، وإن كان كل منهما مؤرخاً.

مراكش حيث تم اللقاء بين الأمير أبي يعقوب ، والأخوين السيدين أبي حفص وأبي سعيد خارج المدينة فاتح رجب من سنة ستين وخمس مائة (14 مايه 1165) على أكمل غاية الظهور والبروز[1]، وقد أقام بالحضرة العلية ردحاً من الزمان مكنه ذلك من الاستفادة من بعض كبار العلماء الذين يعملون في البلاط الموحدي من أمثال الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن الأشبيلي[2]، لقد سمع عليه قراءة عقيدة التوحيد[3] ، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة[4] ، وكتاب أعز ما يطلب[5] ، وقد كان أبو الحسن يخص عبد الملك من بين الطلبة بالسؤال ويحتبل به غاية الأحتبال ، وإذا سمع بذكره نبّه عليه بأحسن تنبيه ، ونوه به غاية التنوية[6] .

وقد استمر ابن صاحب الصلاة مقيماً بمدينة مراكش بعد أن غادرها كل من السيد أبي حفص والسيد أبي سعيد إلى جزيرة الأندلس أوائل رمضان 560 (12 يوليه 1165) حيث شاهدا موقعة الجلاب[7] ، وقد ظل مرتبطاً بالقصر

- عباس بن إبراهيم : الأعلام ثالث ص 68 . ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ثان ص 143 (التعليق) .
ابن خلدون سادس : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول نشر الاستاذ يسوع علوش 1936 ص 85 — 86 — 122
Dozy : **Recherches p 112**
Huici : **H . Es — Tamuda,** Vol II, Fasc 1961 , p . 111

(1) المن بالإمامة ص 112.
(2) هو علي بن محمد بن خليل المكنى بأبي الحصن ، كان من المبرزين في علم الأصول الى جانب أنه كان يعد من الخطباء المفوهين . ابن الآبار : التكملة ـ كوديرا ـ ص 668 — 669 رقم 1862 .
(3) هي المسماة بالمرشدة وهي مكتوبة باللسان العربي . بروفنصال : رسائل موحدية ص 132 . الحلل الموشية ص 89 . الاستقصاء ثان 73 — 77 .
(4) مجموعة أحاديث مختارة ضمنها المهدي كتابه الطهارة . المعجب : المراكشي ، نشر سعيد العريان ص 279 .
(5) تبتدىء أول رسالة من هذا الكتاب بقول المؤلف : « أعز ما يطلب » وقد نشر سنة 1903 ، وقدم له بالألمانية العالم المجري جولد زيهر . الحلل الموشية ص 125 ـ أحمد بلافريج ـ محمد الفاسي . أزهار البساتين ص 109 — 110 .
(6) انظر صفحة 85 من المن بالإمامة .
(7) المن بالإمامة ص 125 .

يلازم « السقائف » التي خصصت للكتاب والأشياخ ، ويذكر ابن صاحب الصلاة انه حضر وصول البشرى بإنتصار الموحدين على ابن مردنيش في هذه الموقعة صباح الأحد 23 ذي الحجة 560(31 أكتوبر 1165) ، ويحكى أنه تنبأ في هذا اليوم بالذات بهذا النصر ، فلقد رأى قطاً على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه ، فقال لمن معه من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هزم والله ابن مردنيش ! فقالوا : بم تقول هذا ؟ فقال لهم : « هذا القط هو شبه الأسد ، والأسد عدوي والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدون العجم وافترسوهم كافتراس هذا القط للفرخ[1] ! » .

ولا نعلم بعد هذا شيئاً عن مقام ابن صاحب الصلاة في مدينة مراكش ، ولكنا نعلم أن أمير المؤمنين قرر أن ينصب والياً على مدينة أشبيلية ، ولما هذه المدينة من الأهمية فقد وقع اختياره على الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم[2] نظراً لبلائه الحسن في الجهاد والدين ، ونظراً كذلك لمكانته العلمية الكبيرة ومشاركته في علوم الآداب والتاريخ ، وهمته العليا في اقتناء الكتب ، وقع أختياره على هذه الشخصية فنصب يوم الجمعة الحادي والعشرين من جمادي الأولى 561 (25 مارس 1166) في احتفال بهيج عظيم ، وتوجه غرة جمادي الأخير من مراكش وقد عقدت له الرايات وبرز لوداعه سائر الأعيان ، وصحبه إلى أشبيلية عدد من «أهل خمسين »[3] وجملة مهمة من الكتاب كان في بينهم دون شك عبد الملك ابن صاحب الصلاة الذي سبق له أن تعرف بالشيخ في مسجد قرمونة[4] . . نعم ظهر ابن صاحب الصلاة مرة أخرى بالأندلس سنة 564 (1169) بغرناطة المدينة التي أسندت ولايتها الى الشيخ محمد بن أبي إبراهيم

(1) انظر صفحة 127 — 128 من المن بالإمامة .
(2) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من أصدقاء ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته . كان من المتضلعين من كتب التواريخ والمشاركين في علوم الأدب ، هذا الى هواية زائدة في اقتناء الكتب حتى ليعتبر من أصحاب الخزائن العظيمة التي تضم شتى الفنون . المن بالإمامة ص 152 .
(3) البيذق : أخبار المهدي 29-32 . المراكشي : المعجب طبعة مصر ص 188 . ابن القطان : نظم الجمان (مخطوط). الحلل الموشية ص 88-89 ـ الناصري : الاستقصا ثان ص 86 . Hésperis t. IV, 1924, p.28
(4) المن بالإمامة : ص49 .

بعد أن تولى باشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، لقد كان ابن صاحب الصلاة من الجلساء المقربين للشيخ محمد بن أبي إبراهيم إن لم يكن كاتم سره ، وهو يحكي أنه وجد في نفسه غصة الفراق عندما دعي للشيخ ابن أبي إبراهيم لمراكش من قبل أمير المؤمنين في هذه السنة بالذات ، ولذلك فقد خرج ذات يوم إلى ضواحي مدينة غرناطة ، إلى مكان تُزينه «جداول كالصلال ، ولا تكاد ترمقه الشمس من تكاثف الظلال» ، كان هذا المكان مجلساً للشيخ ابن أبي إبراهيم ، فتحركت نوازع شوقه ، وأنشد شعراً في الموضوع يذكر فيه أيام اتصاله بالشيخ ويتمنى أن تسمح الأيام بلقاء قريب[3] .

ويختفي ابن صاحب الصلاة مرة أخرى لنسمع به أوائل سنة 566 (1170) بحضرة مراكش عندما أنعم الله بالشفاء على أمير المؤمنين ، وفي أغلب الظن أنه أي ابن صاحب الصلاة ورد على العاصمة في مهمة خاصة من رجال الحكم بالجزيرة ، قد يكون ورد ليقدم التهاني بشفاء أمير المؤمنين ، وهكذا نراه يمثل بين يدي أبي يعقوب يوم الأثنين 19ربيع الأول (30 نوفنبر 1170) ، وقد تولى تقديمه هذه المرة لأمير المؤمنين الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، والفقيه أبو محمد عبد الله المالقي ، ويصف ابن صاحب الصلاة مجلس أمير المؤمنين وصفاً دقيقاً وهو « متكيء على مخاد كثيرة وثيرة قد فرشت تحته وحواليه تعينه على القعود[1] » .

وكانت هذه مناسبة للاعتراف بخدمات ابن صاحب الصلاة الكاتب المجاهد وللوفاء له «بالعدات الجميلة والآمال الكفيلة » ، وهكذا خص من بين المتقدمين من طلبة الحضر «بظهير كريم بإسهام ومواساة» أعانته على الزمان وأغنته عن الناس ، ووسم في هذا الظهير «بميسم الأولياء للأمر العزيز[2] » . .
وقد ظل ابن صاحب الصلاة بمراكش طيلة أيام الأفراح التي أعقبت شفاء أمير المؤمنين وكان يتحدث عنها حديث المهتم بالأمور المتتبع للأحوال ، فوصف

(1) المن بالإمامة ص 152 — 152 .
(2) المن بالإمامة ص 288 .
(3) راجع ص 289 من كتاب المن بالإمامة .

مبايعة أشياخ العرب وعامتهم وحضر الإطعام الذي قدم للوافدين بالبحيرة[1] خارج مراكش، ثم رأى رؤيا عين مشهد «تمييز»[2] العرب والموحدين بقصر الخليفة بدار الحجر[3] داخل مراكش، وتحدث عن تهافت العرب على الثياب والآلات وتسامح الخليفة وتكرمه .

ولما كان الأستعداد قد تم للغزو ، تحرك أمير المؤمنين من الحضرة بمراكش صباح السبت الرابع من شهر رجب من سنة 566 (13 مارس 1171) ، ومن دون ريب كان ابن صاحب الصلاة في ركب أبي يعقوب ، فهو يعد المراحل الواحدة تلو الأخرى ، ويسجل أدق الملاحظات في طريقه ، ويصف مصحف عثمان بن عفان وما يحمله من ياقوت وجوهر بل ويدفعه الاستطلاع إلى أن يسأل الناظمين للجواهر عن أصولها وقيمتها ، وهو بالاضافة الى هذا لا يغفل ذكر حالات السعر التي تتعرض لها «السوق المتنقلة » مع الركب الأميري ، وعندما نزلت المحلة بالمهدية - رباط الفتح - حكى ابن صاحب الصلاة عن البذل السخي الذي نال كل قبيل من لدن أمير المؤمنين فحكى عن رؤيته لشيخ من أهل بطليوس استمنح الخليفة فأعطاه مائتي دينار وثلاثمائة[4] مثقال .

ويصل ابن صاحب الصلاة الى الأندلس ، ويستمر صحبة أمير المؤمنين ويحضر تنقلاته واستقبالاته واحتفالاته وتشييده وتدشينه للمباني التاريخية بأشبيلية[5] ، ولما تقررت مناهضة مدينة (وبذة)[6] ارضاء لاقتراح أصحاب

(1) عرفت البحيرة في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين ، لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكاناً لتجمعهم .
البيذق - أخبار المهدي نشر بروفنصال (الترجمة الفرنسية تعليق رقم 2 ص 232 — 233) .
المراكشي: المعجب ص 192 -
Gaston Deverdun : **Marrakech des Origines a 1912,** Texte, pp. 194 — 196.
(2) التمييز في اصطلاح الخلفاء الموحدين يعني استعراض القوم فرقة فرقة وقبيلة قبيلة .
(3) يعني بها القصبة المعروفة بقصر الحجر أو دار الحجر - الادريسي : نزهة المشتاق ص 69 - الحلل الموشية ص 114 . **Deverdun : Marrakech, 196** .
(4) المن بالإمامة ص 300 — 301 — 303 — 305 — 308 .
(5) المصدر السابق ص 320 — 321 .
(6) وبذة (Huette) حصن يقع على وادي على مقربة من أقليش في الشمال الغربي لمدينة قونكة على*

هلال ابن مردنيش الذي استسلم للموحدين ، كان ابن صاحب الصلاة في جملة من له «اسم ورسم في الزمام»[1] في هذا الركب العظيم وقد حضر جميع مراحل هذه الوقعة وشاهد ظروفها جميعاً، وصادفه عيد الأضحى من سنة 567 (3 غشت 1172) ـ أثناء رجوع الجيش من وبذة ـ بقنطرة أغربالة[2] حيث قضوا هناك صباح العيد في حالة مضنية ، وفي ثالث عشر ذي الحجة كان ابن صاحب الصلاة فيمن تقدم الى حصن بنيول[3] طلباً للقوت لكنه لم يجد غير تين أخضر تساوي الحبة الواحدة منه درهماً كاملاً وكان ممن استطاع ان يشتريها ، لكنها لم تغنه عن الجوع الذي كان يعض على شرسوفه فتقدم نحو بلنسية حيث انتعش وتزود والتحق بالمحلة[4] بعد ثلاثة أيام ووصل أمير المؤمنين الى مرسية أواخر ذي الحجة ، وبالرغم من أن كثيراً ممن كان يضمهم الجيش قد أذن له في الانصراف فقد ظل هو بمرسية صحبة الركب الخليفي . . ثم انصرف الأمير من مرسية إلى أشبيلية حيث وصلها في الثامن عشر من ربيع الأول سنة 568 (7 نونبر 1173) . ويقيم ابن صاحب الصلاة هنا حيث يحكي اهتمام أمير المؤمنين بمتابعة بناء الجامع الكبير ، والقصور الموحدية خارج باب جهور ، ولما ذهب الجيش لمنازلة شان[5] منوس عظيم النصارى بـابلة[6] ورجع يحيى بن أبي العلى[7] برأس هذا «العظيم» أواخر شعبان سنة 568 (15 أبريل 1173) ، كان ابن صاحب

ـ بعد خمسين كيلو متراً غرب المدينة جنوب شنتمرية . الحميري : الروض المعطار ص 194 .

(1) انظر صفحة 370 من المن بالإمامة .

(2) قنطرة أغربالة (El Puente de Gabril) المن بالإمامة ـ .Huici : **Historia** , p. 256

(3) حصن بنيول (Bunol) صفحة 370 من المن بالإمامة .

(4) يعني بها في الاصطلاح المغربي كتاب الجيش المتنقلة لقضاء الأغراض الرسمية برئاسة الأمير او ولده أو ولي عهده أو أحد ولاته وقواده . ص 370 — 371 من المن بالإمامة .

(5) شان منوس (Jimero Sancho) يعرف أحياناً بالقومس الأحدب وأحياناً بأبي بردغة . وأحياناً باسم شان منوس ، وقد كثر الحديث التعرف بهذا القائد وتحدثت بعض المخطوطات المسيحية عن هذا القائد الأبلي أيام الموحدين . المن بالإمامة ص 377 ـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ثان ص 187 ـ ابن خلدون سادس ص 500 — 501 .

(6) أبلة (A vila) تقع شمال غربي مدريد .

(7) هو يحيى ابن الوزير أبي العلاء أدريس بن أبي إسحاق إبراهيم ابن جامع . راجع صفحة 384 من المن بالإمامة .

الصلاة حاضراً عندما كان يحيى يشرح لأمير المؤمنين ظروف الحملة الموحدية ويصف كيف تم النصر على خصوم الدولة ، الأمر الذي يدل على أنه أمسى ملازماً لمجلس الخليفة بل يظهر أن ابن صاحب الصلاة غدا ينعم بمركز مرموق في البلاط الموحدي فإننا نراه بعد ثمان سنوات من هذا التاريخ يقف الى جانب ابن الجد[1] مهنئاً للسيد أبي إسحاق والي أشبيلية بالنصر الذي أحرز عليه أمير المؤمنين سنة 576 (1181) في أفريقية ، وذلك بقصيدة ميمية[2] . . . ويختفي ابن صاحب الصلاة عنا سنتين لنجده ببلاد المغرب مرة أخرى في حملة الخليفة أبي يعقوب الى بلاد السوس لحماية المعدن من سيطرة المتمردين سنة 578[3] (1182) مما يؤكد أنه ظل ـ منذ تسلمه لظهير الولاية ـ ملازماً لركاب الموحدين سواء في الأندلس أو العدوة ، وليس فقط هذا ، ولكنه اكتسب منزلة سامية لا تقل عن مكانة الطبيب أبي بكر بن زهر ، والفيلسوف أبي الوليد بن رشد فلقد زار بمعيتها ـ عند الإياب من حملة السوس ورفقة الخليفة ـ زاروا قبر المهدي ، وقبر عبد المؤمن بتينملل ثم يرجع ابن صاحب الصلاة الى أشبيلية ليستقبل الخليفة عندما برز هذا الأخير إليها[4] يوم الجمعة 13 صفر سنة 580 (26 مايه 1184) ولعله كان يحاول أن يقول شعراً بهذه المناسبة لكن ازدحام الناس حال دون ذلك[5]، وبعد هذا نراه يرافق الخليفة مرافقةً في حملته الشهيرة على شنترين[6] بالبرتغال وقد كان يتحدث في هذه المرة أيضاً في دقة عن انطباعاته وعن الأسعار في أثناء هذه الوقعة كما ينقل ابن عذاري[7] .

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد الفهري سمع ببلده لبلة كتاب سيبويه ، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد ، نال حظوة عند الملوك وكان حافظ المغرب لمذهب مالك ، توفي باشبيلية سنة 586 . ابن الآبار ، التكملة كوديرا ـ رقم 825 ـ الحلل الموشية ص 34 — 122ـ البستاني ـ دائرة المعارف ثان ص 403

(2) ابن عذاري : البيان المغرب (مخطوط) ص 108 .

(3) المصدر السابق ص 113 — 114 .

(4) المصدر السابق 126 .

(5) المصدر السابق الصفحة السابقة .

(6) شنترين (Santaren) وتقع شمال أشبونة . الحميري : الروض المعطار ص 113 — 114 .

(7) ابن عذاري 127 — 128 .

وبفضل استطراد عابر ـ وما كان أجلّه : ـ استطعنا أن نعرف من خلال كتاب المن بالإمامة أنه استمر على صلة ببلاط الموحدين حتى بعد استشهاد أبي يعقوب ، ولذلك فهو يتتبع بناء مسجد أشبيلية وبناء صومعته الشهيرة ثم تركيب التفافيح بأعلى المنار بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور وبمحضر ولي عهده سنة 594[1] (1198) ، وأخيراً فإن « أبا مروان » نظراً ـ فيما يظهر ـ لكبر سنه من جهة ، وتقديراً لمركزه كعالم مجاهد من جهة أخرى نرى الخليفة أبا يوسف المنصور يشركه في الخطبة مع أبي الحكم عبد الرحمن ابن حجاج[2] بالجامع الأعظم من أشبيلية في هذه السنة نفسها[3] .

وفاته :

ولم يستطيع ابن الآبار ولا كذلك ابن عبد الملك أن يذكر تاريخاً محدداً لوفاة ابن صاحب الصلاة كما سلف أن قلت لكن الأول ذكره بين ترجمة عبد الملك بن أحمد بن نهيك الزهري الذي حدث وأخذ عنه في سنة 580 وبين ترجمة عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الذي أجيز سنة 608 ، الأمر الذي يفيد أنه كان بين هذين التاريخين [4] ، فمتى توفي ؟ نقل سائر رجال الاستشراق ممن عنوا بتاريخ ابن صاحب الصلاة من أمثال بروكلمان[5] ، وأماري[6] ، وبونس بويكس[7] ،

(1) كتاب المن بالإمامة ص 329 — 332 — 334 — 336 —33— 339 .

(2) هو عبد الرحمن بن عمرو بن أحمد بن حجاج اللخمي من أهل اشبيلية ، أخذ عن أبيه وجده ، كما أخذ أيضاً عن أبي مروان الباجي وناوله ، معرما احتوت عليه خزانته ، وقد كان خطيباً بجامع اشبيلية القديم سنين طويلة ثم استعفى فأعفي ، وكان له حظ من النظم ورغبة في مجالسة الأدباء ، ولد سنة 522 ، وتوفي سنة 601 .
ابن الآبار : التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1626 ورقم 1723 . ابن عذاري البيان المغرب صفحة 201
. Melchor Antuna **Religion et Cultura** p. 25 — 38

(3) المصدران السابقان .

(4) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين طبعة معهد مولاي الحسن صفحة 72 .

(5) (Brochelmann : **G.A.L.** Supll. Ip, p. 554)

(6) (Amari : Biblioteca **Arabo Sicula** I,p. X L I V)

(7) (pons Boigues : **Ensayo biobibliografico — 1898 pp.245 — 246**)

وبروفنصال[1] ، أنه توفي سنة 578 (1182) وقد أعتمدت هذا التاريخ بعض الوثائق المنشورة حديثاً بالمغرب[2] ، والمشرق[3] ، لكن الذي يلوح أنه أفتراض خطأ بل إنه ليخيل الى أنه التبس عليهم عبد الله بن صاحب الصلاة[4] ، بعبد الملك بن صاحب الصلاة ! والحقيقة أن عبد الملك امتد به العمر الى ما بعد سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فإن ابن الآبار ينقل عنه تحقيقاً حول وفاة نجبة التي كانت سنة 591[5] ؛ بل إن المقري ينقل عنه ثناء على محمد بن عبد الملك بن سعيد صاحب أعمال غرناطة وأشبيلية الذي تعرض عام ثلاثة وتسعين وخمسمائه لأمتحان مؤقت من طرف المنصور الموحدي[6] .

وأدق من هذا وأقوى أن ابن صاحب الصلاة . . . . بفضل الأستطراد الذي ركبه في ثنايا هذا الكتاب ـ يؤرخ لحوادث وقعت سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وذلك كتركيب تفافيح الصومعة المتقدم قريباً[7]، فهل بعد هذا يصح أن نتمسك بالقول الذي يدعي أنه توفي سنة 578!

إن أقرب الاحتمالات لديّ أن يكون توفي أواخر المائة السادسة نظراً لصنيع ابن الآبار عند ترجمته ونظراً من جهة أخرى لكون النقل عنه اختفى

(1) بالينثيا : تاريخ الفكر الأندلسي 242 (Provençal : **Documents, p.693**) .

(2) قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين بفاس بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة . إصدار الخزانة العامة بالرباط سنة 1960 .

(3) عبد الله الطباع : كتاب الحلة السيراء ، دار النشر للجامعيين (بيروت 1962) .

(4) هو ابو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح بن عبد الله الحضرمي المعروف بابن صاحب الصلاة ، درس الأدب والنحو زماناً ثم نقله السلطان الى بلنسية لبنيه . ، وكان مشاركاً في الفقه والشعر محفوظ في معاجم الأدباء المتقدمين ، وقد توفي سنة 578 . ابن الآبار التكملة (كوديرا) صفحة 489 .

(5) ابن الآبار : التكملة : نشر العطار 1955 ، الترجمة رقم 1879 .

(6) المقري : نفح الطيب، إحسان عباس، ج 2، ص 336، وقد وقفت بمكتبة سمو الأمير المولى عبدالله تغمده الله برحمته على أصل ما نقل صاحب النفح بعضه في مخطوطة نادرة على مؤلفات أبي علي بن موسى بن سعيد المغربي المتوفى بتونس سنة 685. غير كتاب (المغرب في حلى المغرب) الذي نشره الدكتور شوقي ضيف سنة 1953-1955.

(7) يذكر المؤرخ الألماني يوسف أشباخ أن أبا مروان عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، وأنت ترى أنه عاش في القرن الثاني عشر . أشباخ : تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ، طبعة ثانية صفحة 505 .

أواخر القرن السادس[1] ، وأخذت تعوضه نقول عن أبي الحجاج يوسف بن عمر مؤرخ البلاط الموحدي الجديد[2] .

ومن دون شك فقد كان لابن صاحب الصلاة تلامذة رووا عنه ، فإن شخصية كشخصيته لا يمكن أن تنصرف ، دون أن تكون لها مدرسة ، وقد عرفنا في جملة الذين أخذوا عن أبي مروان الباجي أبو محمد عبد الله بن مغيث الأنصاري القرطبي المعروف بأبي الصفار[3] (516 — 576) وكذا أبو الحكم عبد الرحمن بن حجاج[4] .

ويظهر من خلال الكتاب أن ابن صاحب الصلاة كان يتصف بأخلاق كريمة طيبة وهو في الأغلب[5] لا يتناول الدول التي سبقت حكم الموحدين بشتائم أو نقائص ، وطبيعي أن يكون هذا نتيجة تدينه وتقواه ، أما عقائده فيتأكد أنه كان يعتنق مذهب الموحدين في الاعتماد على الأصول من الكتاب والسنة ونبذ كتب الفروع[6] ، ولم يخف عنا حفظه لمدونات المهدي ، وروايته لكتاب «أعز ما يطلب» .

---

(1) لقد كنت حبرت كل هذا ، ثم وقفت على مقالة للأب ميلتشور انطونيا حول ابن صاحب الصلاة ، وقد شجعني جداً أن الأب ميلتشور - وقد اطلع على الكتاب - زيف ما صدر عن جل رجال الاستشراق . Melchor : Sevilla p. 25 — 38

(2) راجع النبذة اليسيرة في تواريخ المغرب التي كتبها الأستاذ عبد الكريم ابن الحسني تصديراً لاتحاف النقيب ابن زيدان المطبوع بالرباط سنة 1342 صفحة 1 — 8 ، وقد أثنى على هذه النبذة الأمير شكيب ارسلان وخصصها بمقال في تقريظه لهذا الكتاب، كان نشره بجريدة كوكب الشرق ، والشيء بالشيء يذكر ، فلقد وجدت بالصدفة النسخة التي أهداها النقيب ابن زيدان بخطه عام 1349 للأمير شكيب أرسلان عند الأستاذ قاسم محمد الرجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد عندما حللت بها ، وتتميماً للحديث عن أبي الحجاج الأشبيلي ، أذكر انني وقفت على لائحة في معرض المخطوطات بغرناطة (25— 10 — 62) تضمنت مؤلفات تاريخية هامة وكان من بينها تاريخ الموحدين لأبي الحجاج هذا .

(3) ابن الأبار : التكملة . . . سنة 1962 رقم 23— 17 .

(4) ابن عذاري : البيان المغرب صفحة 201 - التنبكتي : نيل الابتهاج .

(5) نقول في الأغلب لأنه - وهذا قليل - لم يفته أن عرض بتكاسل الأولين وتهالكهم في الملذات . راجع صفحة 320 — 331

(6) المعجب ص 278 — 279 - القرطاس ثان ص 154 - ابن خلدون سادس 471الاستقصا ثان ص 112 .

ثم الى جانب آثاره النثرية - التي سنعرض لها - له آثار في الشعر ، وهو يتحدث في صراحة عن مذهبه في الشعر وأنه «على رأي عمر بن الخطاب »[1] أي أنه : « لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظل من المنطق ولا يقول إلا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه » . وقد ذكر هذا بمناسبة تقدمه - ضمن الشعراء - بقصيدة في جبل طارق عند اجتماع السيد أبي حفص بأخيه أبي سعيد سنة 560 .

وهو - وإن لم يثبت هذا الشعر مع الأسف - قد احتفظ لنا بنموذج من نظمه ، وذلك عندما غادر غرناطة الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم إلى مراكش فقد نطق بقطعة شعر يحن فيها إلى الأيام التي كانت تجمعه بوالي غرناطة . وهي ليست طويلة إذ لا تتعدى تسعة أبيات[2] ، ولذلك فإن الحكم على شاعرية الرجل من خلالها يكون حكماً غير صواب ، ومع هذا فهو يعتبر من الشعراء الذين يتأثرون بموازين ديوان الحماسة ، ونفس شعرائها كذلك ، ولقد تحسبه الصمة[3] بن عبد الله حينما يقول في هذه القطعة :

طمعتُ بنفسي أن أرد دموعها   فمهما زجرتُ العين أسبلتا معا !

ويظهر أنه استمر في إنشاء الشعر ولو أن بضاعته فيه مزجاة بل إن شعره أخذ يُقدَّم مع شعر ابن طفيل وانتاج ابن الجد ، وقد ساق له ابن عذاري طرفاً من قطعة شعر قيمة بالنسبة لشعره المتقدم في تهنئة السيد أبي إسحاق بمناسبة فتح قفصة سنة 576 [4] ، لكنها هي الأخرى ليست مما يجعلنا نعتبر ابن صاحب

---

(1) أنظر صفحة 110 من المن بالإمامة .
الأصفهاني : الأغاني طبعة بيروت جزء 9 ص 295 .

(2) راجع صفحة 153 من المن بالإمامة .

(3) يقول الصمة بن عبد الله في باب النسيب من الحماسة :

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معاً !

(4) قال أبو مروان في مطلعها :

فتح يفوت مدارك الأوهام   ويعجز الاحصاء . بالأقلام

الى أن يقول :

وافت كما ابتسم الأمان لخائف   وانهلَّ إثر المحل سكب غمام

الصلاة في عداد الشعراء المبرزين على أننا لا ننسى أن ابن الآبار في الحلة السيراء لم يفته أن ينتقد[1] الذوق الأدبي لدى ابن صاحب الصلاة .

مؤلفاته :

وإذا كانت قيمة المرء رهينةً بآثاره فإن آثار عبد الملك كانت - على قلتها - في منتهى ما يأمله الإنسان من شخص تمكن من الامتزاج بصانعي تاريخ الغرب الإسلامي في القرون الوسطى ، وقد رددت المصادر القديمة أن له كتابين يتناولان معاً موضوع التاريخ الأول ثورة المريدين ، والثاني : المن بالإمامة[2] .

ثورة المريدين :

في كثير من مقاطع السفر الثاني من كتاب (المن بالإمامة)، وخاصة عندما يتعلق الأمر بحديث حول المتمردين على الحكم، أقول في سبع[3] مرات متتابعة أشار لكتاب له ألّفه قبل (المن بالإمامة) ذلك كتاب (ثورة المريدين)، وقد نقرأ في المخطوط (تاريخ المريدين)[4] أو (ثورة المريدين) فما هو كتاب ثورة المريدين؟

---

(1) قال ابن الآبار في الحلة السيراء لدى سوقه لبيتين من الشعر :

(وزنجيٍّ ألم بغض نور وقد زفت لنا بنت الكروم)
(فقال فتى من الندماء: صفه فقلت الليل أقبل بالنجوم!)

قال : وغلط أبو مروان ابن صاحب الصلاة فزعم ان بعض الأمراء قالهما في حبشي بيده شمعة ولا يليق هذا التشبيه بذلك . انظر ص 235 من الحلة السيراء .

(2) ينقل المقري مرة عن ابن صاحب الصلاة في كتاب (تاريخ الموحدين) ويذكر مرة أخرى أن لابن صاحب الصلاة تاريخاً في الدولة اللمتونية ، وإني على مثل اليقين من أن المقصود بهذا الكتاب الثاني هو (ثورة المريدين) وإن تحريفاً وقع للناسخين بدليل أن أحداً من المؤرخين ممن استمدوا من ابن صاحب الصلاة لم ينقل عنه في تاريخ اللمتونيين وكيف وهو ينعتهم بالمجسمة الحلل الموشية صفحة 85 . المقري : نفح الطيب مطبعة السعادة ثالث ص 100 ورابع ص 172 .

(3) انظر صفحة 3-20-54-230-249-271 من المن بالإمامة .

(4) يرى بعض الباحثين أن الصواب ربما كان هو المرتدين بالتاء بدل الياء ، نظراً لكون المؤلف يتحدث عن قوم خرجوا عن (الأمر العزيز) و (ارتدوا) عن دعوة الموحدين ، هذا الى ما ورد في ثنايا الكتاب (صفحة 6— 13 — 14 — 46 — 167 — 223 — 278) مما يفهم منه نعت =

لقد شاهدنا في أعقاب دولة المرابطين شبوب الفتن في كل الجهات ، لكن أبرز ما يلفت أنظار المتبعين للتاريخ ظهور (طائفة دينية) خاصة تستشعر التقشف والتزهد ، وقد كان زعيم هذه الطائفة أبا العباس أحمد بن قسي[1] الذي استطاع بفضل دهائه وذكائه أن يجمع حوله أنصاراً آمنوا بأفكاره ، ولم يلبث أن أخذ يزاول تدريس كتب أبي حامد الغزالي بأشبيلية نفسها واتخذ من تلاميذه ورواده هيئة جعلها أركان حزبه ، وتسمى بالإمام ، ولما أهلت سنة تسع وثلاثين وخمس مائة (4 يوليه 1144) أشار على أصحابه «المريدين»[2] أن يسيروا مع ابن

= الخارجين عن الطاعة بالردة والمروق ، سيما أيضاً وقد ورد في رسائل المهدي في حق خصومه هذا النعت : المرتدين والمجسمين ، وقد شجع على اعتقاد هذا إغفال الناسخ - أو سقوط - تنقيط الحرف الذي يلي الراء في صفحة 13 من كتاب ابن صاحب الصلاة . وإن الذي يجعلني أجنح الى أن القصد هو المريدون لا المرتدون هو :

أولاً : ما يوجد في باقي أجزاء الكتاب من تنقيط الحرف الذي يلي الراء من تحت .

ثانياً: ان المصدرين الوحيدين اللذين رددا ذكر هذا الكتاب وهما الحلة السيراء لابن الآبار ، والذيل والتكملة لابن عبد الملك ، كلٌّ منهما نجده يذكر المريدين وليس المرتدين ، وليس يكفي موقف الموحدين من المرابطين حجة لقراءته على النحو الذي يراه اولئك الفضلاء ، فقد يكون ابن صاحب الصلاة . وهذا قريب من الواقع - ألف كتابه (ثورة المريدين) في ظروف متقدمة كان فيها بعيداً عن كل مؤثر ، وإنه كان يحكي فعلاً عن طائفة المريدين التي يتزعمها اذن قسي ، وليس بغريب أن يتعرض المؤلف في أثناء حديثه عن هؤلاء المريدين لبعض المنافقين والانتهازيين من أمثال ابن همشك وابن مردنيش .

البيذق : صفحة (2) - الحلة السيراء مخطوط بالاسكوريال رقم 1694 - ورقة 147 ب 163 أ - ابن عبد الملك : الذيل والتكملة مخطوط مصور في الخزانة العامة الرباط رقم D 2646 ورقة 14 .

الطباع : الحلة السيراء ص 70 .

(1) نعت المراكشي أبا العباس هذا بأنه « صاحب حيل ورب شعوذة » وإنه الى جانب هذا كان يتعاطى صنعة البيان ، وينتحل طريق البلاغة لكن ابن خلدون لم يضف شيئاً على الإخبار بأنه أي ابن قسي أجاز الى المغرب عند ظهور الموحدين لتقديم طاعته ، وينقل أشباخ إن ابن قسي من أصل قوطي وإنه كان أول الأمر تاجراً ثم حدثته نفسه بالتشبه بالرسول فوهب أملاكه واعتزل الحياة . . البيذق ص 125 ، المراكشي : المعجب طبعه مصر ص 212 — 213 - ابن خلدون سادس ص 485 ، أشباخ : تاريخ الأندلس ص 206 — 208 .

(2) قبل أن يعطي ابن قسي لقب (المريدين) لأتباعه نجد أن اللفظ في القديم استعمل لتعيين الصوفية الذين كانوا يلقبون بأهل الأرادة وفي كتبهم بيان لآداب المريدين . =

الفـابلة [1] كاتبـه الخـاص الى قلعـة ميـرتلة [2] في وقت خـاص رسمـه لهم ، ثم سقطت في يده يابرة [3]، وشلب [4] . . وكـان أن توالت الحـال بابن قسي الى أن هاجر الى الموحدين ووصلهم بمدينة سلا متبرئاً من دعاويه [5] وتائباً مما قدمت يداه ثم انصرف في شهر المحـرم من سنة إحـدى وأربعين وخمسمـائة (يـونيه 1146) صحبة الجيش الموحـدي الذي افتتح طريف [6]، ولمـا فتحت مدينـة شلب من جديد تـرك ابن قسي عليها واليـاً بيد أنـه لم يلبث أن تنكر لتعهـداته للمـوحدين وداخل ابن الرنك (Enriquez) [7] صاحب قلمرية ، وهنا ثار عليه أهل شلب وفتكوا به في قصر الشراجب في « قصة طويلة [8] وأعلنوا بدعوة المـريدين ، وقـد كان من كتّابه أبو عمر أحمد بن حـربون [9] ، وكـان من أنصاره كـذلك أبـو محمد سيـد راي بن وزيـر الثـائـر [10] بيـابـرة وغـير هؤلاء ممن نصبـوا أنفسهم ولاة هنـا

Dozy : **Recherchs :** P. 376.
Asin Palacios : **Aben Masarra y Suescuela** pp. 109 — 110

(1) هو محمد بن يحيى الشلطيشي، وقد كان يسميه أبو العباس بالمصطفى لاختصاصه بكتابته واطلاعه على أموره لكنـه قتله بعـد ذلـك. ـ ابن الآبـار: الحلة السيـراء نشر دوزي ص 119 ـ أشباخ ص 207.

(2) ميرتلة (Mértola) قال عنها ياقوت : انها أحمى الحصون وأمنعها وتقع على نهر آنا . المعجم .

(3) يابرة (Evora) تقع شمال باجة . الروض المعطار ص 197 .

(4) شلب Silves وتقع على مقربة من شاطيء المحيط الأطلسي غربي جنـوب باجـة ، الروض المعـطار ص 106 .

(5) على هذا اقتصر ابن خلدون (سادس) ص 485 .

(6) جزيرة طريف (Tarifa) أول نقطة من جـزيـرة الأنـدلس تسـامت قصر مصمـودة من العـدوة المغربية . 225 — 224 , **Huici** .

(7) هـو الفونسـو هنريكيـز (Alfonso Enriquez) وقد تسميـه بعض المصادر ابن الـريق أو صاحب قلمـرية (Coimbra) عـاصمة البـرتغال . المعجب ص 320 ابن الخـطيب : الأعمال ص 251 ـ أشباخ : تاريخ الأندلس ص 242 .

(8) ابن الأبار : الحلة السيراء ص 200 .

(9) يعتبر ابن حربون هذا من الشعراء الذين أورد لهم ابن صاحب الصلاة عدة قصائد . ابن الآبار ـ التكملة كوديرا ـ رقم 1427 . الحلة السيـراء ص 200 — 201 ـ صفوان ابن ادريس : زاد المسـافر ص 89 ـ المراكشي : المعجب ص 293 — 295 ـ ابن عذاري ص 46 .

(10) يعتبر ابن وزير هذا من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة في كتابه المن بالإمامـة وقد =

وهنـاك ، فهذه المـرحلة « القلقـة » من تـاريـخ الأنـدلس هي التي عـالجهـا ابن صـاحب الصلاة في كتـابه (ثـورة المريـدين) . وأغلب ظننـا أن المؤلف كـان في بداية الأمر ينوي أن يقصر حـديثه عـلى هذا الكتـاب ، لكنه وقـد تمكنت قدمـه واتسعت آفاقه طمع الىَ تدوين تاريخ شامل عام للدولة المـوحديـة ـ وخاصـة أبا يعقوب ـ فأمسى (ثـورة المريـدين) كمقدمـة وطليعة . . . ومن المؤسف حقـاً أن يلقى (ثورة المريدين) نفس المصير الـذي لقيه السفـر الأول والثالث من كتـاب المن بـالإمامـة ومع أننـا كنا نعلم من خـلال السطور التي ردد فيهـا ابن صاحب الصلاة اسم كتابه (ثورة المريدين) ، كنا نعلم فحوى الكتاب وموضـوعه لكنهـا كانت معرفة قاصرة رغم كل حدس ، وأن الفضل كل الفضل يرجع لابن الآبار في كتـابه (الحلة السيـراء) وابن عبـد الملك في كتـابـه (الـذيـل والتكملة) كـما تقدم ، فهما اللذان أماطا اللثام عن الكتاب المفقـود وأعطيا وخاصة الأول فكـرةً تقـريبية [1] عن محتـواه وإن كان هـذا يُحيلُ عليـه في بعض التفصيلات التي كـان يعتقدها غـير ضروريـة . . . ومن دون ما شـك فإن كتـاب (ثورة المـريدين) [2] تضمن عـدة آثار أدبيـة مما صـدر عن المريـدين سـواء في النصـرة لمـذهبهم أو في موضوع تبادل العواطف فيما بينهم أو في آدابهم كذلك [3] .

لكن الكتـاب الذي لمسنـا مواضيعـه ، وأستطعنـا أن نقف عـلى أسـاليبـه

= استنام الى الموحدين وحضر معهم عدة حملات . الحلة السيراء 202 — 239 ـ أشباخ 207 .

(1) نقول تقريبية لأن هناك عناصر أخرى عالجها تاريخ ثورة المريدين ولم يعرض لهـا ابن الآبار ، فقـد تحـدث الكتاب عن كتـاب مفتعل من سيـد رأي بن وزير كتبـه كل من القـاضي أخيل بن أدريس ووالي قرطبة عبد الرحمن بن تيجيت حينما حاصر ابن مردنيش قرطبة سنة 554، وتحدث عن غدر أصحاب ابن همشك بمدينة قرمونة سنة 555 ، كـما تحدث عن مـوقعة مـرج الرقـاد على مقـربة من غرناطة وأسر الموحدين من قبل ابن همشـك ، وتحدث تـاريخ المـريدين عن حصـار طبيرة من قبـل الموحدين سنة 563 . وأخيراً عن قتل ابن مردنيش لابن صاحب الصلاة الغرناطي جوعاً . . انـظر صفحة 3 — 20 — 54 — 230 — 249 — 271 من المن بالإمامة .

(2) لا ننسى أن نـذكر ان هنـاك كتابـاً بعنـوان (ثورة المـريدين) بتقـديم الراء عـلى الواو لأبي الـوليد اسماعيل بن عمر الملقب بالشواش ، المتوفى بمراكش سنة 569 . السيوطي بغية الوعاة طبعـة 1326 ص 16 .

(3) الحلة السيراء ص 200 — 201 — 205 — 206 — 207 — 223 .

ومناهجه هو السفر الثاني من كتاب (المن بالإمامة) الذي عالج فيه فترة هامة من تاريخ الموحدين من سنة 554 الى سنة 659 [1] .

وأغلب الظن أن ابن الآبار في «التكملة لكتاب الصلة » يعني بقوله : «صاحب التاريخ » بالإضافة الى «كتاب ثورة المريدين » (كتاب المن بالإمامة)[2] كذلك .

وقد صرح ابن أبي زرع في بعض المقاطع مع القرطاس بتعيين اسم الكتاب ذاكراً أنه (كتاب المن بالإمامة)[3] . أما المقري في حديثه عن ابن صاحب الصلاة فقد سماه تارة باسم (تاريخ الموحدين) ولكنه في معرض الحديث عن التواريخ ذكره باسم (تاريخ الدولة اللمتونية)[4] .

وإذا كنا نجهل الأسباب التي دعته الى تأليف كتاب «ثورة المريدين » فإننا على علم من الحافز الذي جعله يقوم بتدوين كتاب المن بالإمامة . . . فقد شعر بمناسبة حديثه عن أحد الأستقبالات التي شرفه بها الخليفة أبو يعقوب والتي أغدق فيها عليه من خيراته وعداته شعر بأن الواجب يفرض عليه ان « يدوّن أخبار ابي يعقوب الخليفة الهمام »[5] . وأنت تشعر من خلال هذا السفر الذي بين أيدينا وبما بقي من حياة أبي يعقوب في السفر الثالث أن الأسفار الثلاثة كانت في الواقع على شرف أبي يعقوب[6] .

---

(1) يذكر كايانكوس ان الكتاب يستمر في سرد الأحداث الى سنة 580 وهو تساهل منه .
(2) ابن الآبار: كتاب التكملة ، المجلد الثاني ص 620 رقم 1726 .
(3) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ـ نشر محمد الهاشمي الفيلالي طبعة الرباط 1936 (ثاني) ص 122 ـ عندما قال : والصحيح في بيعة المهدي ووفاته ما ذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه (المن بالإمامة) وكذا في طبعة فاس ص 127 .
(4) سلف أن ذكرت ان ابن صاحب الصلاة ليس له مؤلف في تاريخ الدولة اللمتونية ، وإنما ـ كما أعتقد ـ وقع تحريف للناسخين وإنهم عوض ان يقولوا الدولة الموحدية ، أو (المريدين) مثلاً قالوا (اللمتونية) اللهم إذا كان المقري يقصد حديث ابن صاحب الصلاة عن آخر ايام اللمتونيين الذي أثاره ـ دون شك ـ عرضاً فقط في مؤلفه ثورة المريدين .
(5) انظر المن بالإمامة صفحة 289 .
(6) يذكر ابن عبد الملك أن ابن صاحب الصلاة صنف تاريخ دولة عبد المؤمن ومن أدرك بحياته من بنيه .

وإن أبرز ما يلفت النظر هذا العنوان الطويل الذي اختاره المؤلف لكتابه بعد ذلك العنوان القصير والخفيف الذي عرفنا به (ثورة المريدين) فهو : « كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين ، وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخير[1] الخلفاء الراشدين » .

هكذا بهذا الطول يعنون الكتاب ، وهو لذلك يعطي نظرة على محتوياته كلها ، ولا يحتاج الى التنبيه على ما في هذه التسمية من تلميح صريح الى الآية الشريفة : ﴿ **ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾ ، وما في هذا الاقتباس من إشارة للمنقبية[2] التي يُضفيها أنصار الموحدين على دولتهم ، ومن هذا العنوان يتأكد أن السفر الأول من كتاب المن كان مقدمة فقط تناول فيها المؤلف ظهور الإمام المهدي كما يتأكد أن السفر الثالث تناول فيه خاتمة حياة أبي يعقوب . . .

المخطوط في أكسفورد :

وهذا السفر لا توجد منه ـ على ما في علمنا ـ إلا نسخة تعتبر الوحيدة في العالم كله ، وهي ضمن المخطوطات النفيسة التي تضمُّها مكتبة البودليان بأكسفورد: وقفت عليها بنفسها أثناء رحلة خاصة[3] وهي تحمل اسم ورقم

---

(1) هنا كشط في أصل المخطوط والراجح ان الأصل : (وأخير) ويعني بالخلفاء الراشدين الحكام من بني عبد المؤمن لا الخلفاء الراشدين الأولين .
(2) إن الذي يدرس تاريخ الموحدين سيقف دون شك وبصفة مستمرة على ما يشعر « بالقداسة » التي يريد رجال الدولة أن تكون لحكومتهم ، فهم كثيراً ما يتشبهون بالرسول في تصرفاته وفي أعماله ، وكثيراً ما يحاولون في بعض الآيات والأحاديث أن تكون مصداقاً عليهم وهم في نظام الوحدات لم يخرجوا كذلك عن نظام أصحاب رسول الله على العموم ، ثم ان الذين يبايعون منهم خلفاء يحملون لقب امراء المؤمنين ، لقب سادة .
(3) توجد بالخزانة العامة بالرباط نسخة مصورة من هذا المخطوط تحت رقم 2649 (د) وقد كتب عنها في السجل المحفوظ بالخزانة بخط الأستاذ ابراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات : « عن ميكرو فيلم الاستاذ هويسي الأسباني المأجور عن النسخة الفريدة بلندرة » وقد أخذت صور الميكرو فيلم المشار اليه بتاريخ 20 يناير 1960 ، وقد أخبرني الأستاذ هويسي انه بعث بهذا الشريط حوالي ـ

(Marsh 433: catal d'uri No 758) وتتألف من عشرين كراسة طبقاً للرقم المرسوم على اللوحة الأولى بالخط الفاسي[1]: ست عشرة كراسة من عشرة أوراق، والكراسة الخامسة والسابعة من ثمانية أوراق، والسادسة من اثنتي عشرة ورقة، والعشرون من ست: تلك أربع وتسعون ومائة ورقة (388 صفحة) التي يتألف منها المخطوط[2]، وهذا العدد قد رسم أيضاً على اللوحة الأخيرة بالقلم الفاسي وإن كان قد كشط جله، بيد أنه في استطاعتك أن تقرأ بدايته (ـر لح صى) وهو مكتوب على الورق وبنفس المداد الذي كتبت به مخطوطات العصر الوسيط[3]، مسطرة الورقة 29 على 19 سانتيمتراً وتحتوي الورقة على تسعة عشر سطراً متى لم تتضمن عنواناً بارزاً أو طويلاً[4]، والمخطوط يتمتع بسلامة

- سنة 1956 ـ 1957 استجابة لرغبة أبداها الاستاذ دي جياكمو الأستاذ آنذاك بمعهد الدروس العليا وذلك ليزود بها خزانة المعهد المذكور، فعلى هذا الشريط، وتلك النسخة المصورة اعتمدتُ في خطواتي الأولى، بيد انني تأكدت ان الاعتماد عليهما لا يكفي، ولذلك رحلت الى أكسفورد والاسكوريال في شهر مارس وابريل من سنة 1962 .

واغتنم هذه الفرصة لأجدد الشكر لسمو الأمير مولاي الحسن بن المهدي سفير المغرب بانجلترا، وسعادة الدكتور مولاي أحمد العراقي سفيرنا في أسبانيا .

(1) يعني بالخط الفاسي أشكال عليها اصطلح علماء فاس لكتابة الأرقام بين الأوساط المثقفة حتى لا يستطيع أحد التدليس فيها، وقد كثر أستعمالها في الوثائق الوقفية بالمغرب، وخاصة بفاس وتصدى للتأليف فيها جماعة من الباحثين .

سكيرج : إرشاد المتعلم والناسي في أشكال القلم الفاسي :

E . Viala : **le Mécanisme du partage des successions en droit musulman** .

Dr . Renaud : L'enseignement Des Sciences Exactes au Maroc ; **Héspéris** 1932, tome XIV , p 7

التازي : الأرقام العربية : مجلة التربية الوطنية أبريل 1961 صفحة 45 - 46 - 47 - 48 . دعوة الحق : نونبر 1971 .

(2) كتب عن المخطوط المصور أنه يحتوي على 417 ورقة، والحقيقة أن بعض الصفحات المصورة فيه مكررة . راجع نسخة الخزانة العامة وما كتب عليها .

(3) يذكر كايانكوس أن هذه النسخة كتبت أواسط القرن السادس عشر (حوالي 956 هـ) ولا أدري مستنده في ذلك، وفي اعتقادي انه مجرد ادعاء .

(4) يمتاز ابن صاحب الصلاة بعناوينه البارزة والطويلة وقد تصل أحياناً الى بضعة سطور . أنظر مثلاً صفحة 70، وصفحة 265، 266.

جيدة ويحتفظ به غاية الاحتفاظ باستثناء الورقة الأولى كما هي العادة في المخطوطات، وباستثناء ص 23 (الورقة 12 أ) المتآكلة من يمينها و ص 24 (الورقة 12 ب) المتآكلة من شمالها، وباستثناء الخروم المقلقة التي لحقت بعض الورقات فكانت ـ في الأشرطة المصورة بصفة خاصة ـ تدلس على القارىء: لأخذها بالتصوير ورقة مخرومة على ورقة أخرى ـ دون حاجز ـ فتملأ حروف السفلى فراغ التي قبلها ويقع اللبس والالتباس[1].

ولا يفوتنا أن ننبه الى أنه وقع عند تجليد المخطوط تساهل يستحق التعقيب، فقد تقدم عن محله من الكراسة السابعة ـ وهي ذات ثمان ورقات كما علمنا ـ أقول تقدمت الورقات الست الأولى: 61 - 62 - 63 - 64 - 65 - 66 التي أصبحت تحمل رقم 56 - 57 - 58 - 59 - 60 - 61 . وهكذا احتلت هذه الستة مكان الورقات الخمس المكملة للكراسة السادسة. ووردت هذه «الخمس» مباشرة بعد الستة المتسرعة، ولكنها بعد أن كانت تحمل في الحقيقة رقم 56-57-58-59-50 أمست ذات رقم 62-63-64-65-66. ثم بعد هذا تأتي الورقتان الباقيتان من الكراسة السابعة اللتان تحملان طبعاً رقم 67-68 ومن هنا يسترجع المخطوط صوابه، ودليلنا على العطب أن كنا نحتاج إلى دليل أكثر من تنافر المعنى والسياق واختلال توقيت التاريخ ـ أن جل[2] الكراسات تحول في أعلاها بخط ـ قد يصعب تميزه ـ ما يشير إلى عدد الكراسات.

ومن العجب أن بعض المستشرقين كدوزي[3] ويسي[4] ممن علّقوا على

(1) كما وقع مثلاً بصفحة 17 و 18 وكما وقع كذلك في صفحة 429 حيث يقرأ عوض حصن قطنيانه: قطمنيانه بإضافة الميم التي هي في الواقع ثقبة وقعت على صفحة أخرى فخيل أنها ميم!

(2) أغلب ظني أن الكراسات كلها كانت تحمل على رأسها رقم الكراسة، لكنه عند تجليد الكتاب وتقطيع الأوراق اعتدي على الطرر المتطرفة، وهذا تساهل آخر يضاف الى التساهل في تخييط الكتاب على غير صواب .

(3) انظر ترجمة دوزي المجملة للفصل الذي يبتدىء من صفحة 50 الى 61 من ابن صاحب الصلاة في كتابه : Recherches sur L'histoire et la Littérature de L'espagne pendant le moyen âge . p.380

(4) انظر ويسي عند نقله عن صفحة 62 من ابن صاحب الصلاة التي تحمل بعد التجليد رقم 57 . =

بعض فصول الكتاب غرر بهم التجليد الخاطىء فراحوا يرقمون تبعاً لما هو موجود ، وقد يكون هذا « القلق » في الكتاب مما «زهد»[1] في أسلوبه والابتعاد عن دراسته .

ولكثرة العناية بالكتاب تصدى بعض المتقدمين لاختصاره إذ كان يرى إن الكتاب في استطراداته واحالاته يخرج أحياناً عن الموضوعية المنشودة . وكان الذي تولى هذا قدوة البلغاء وعمدة العلماء وصدر الجلة الفضلاء أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي مؤرخ ميورقة وقاضي الرباط ومكناس (ت 658) فقد حرر اختصاراً نبيلاً لتاريخ ابن صاحب الصلاة ، لكنه ضاع في جملة ما ضاع من تراث[2] .

وإن إلقاء نظرات على الكتاب لمغرية حقّاً بمحاولة الاشتغال به ، فهو زاخر بما يرضي كل الهوايات ، فقد ذكر الأستاذ بلنثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ، أن المن بالإمامة مهيّأ للطبع من قبل الأستاذ غارسيا غوميث بيد أن اضطلاع هذا السيد بمهامه الدبلوماسية ، حالت دون تحقيق هذه البغية ، فيما بلغني . . وقد ذكر لي الاستاذ جيبس المستشرق الأنجليزي المشهور « أنه كان ينوي هو الآخر نشر الكتاب وأنه انتسخه بالفعل، ولكنه على حد تعبير هذا الأستاذ الجليل ـ لم يرض أن يكتفي بنشر الكتاب للناس دون تقديم ولا تعليق ، وحيث أن تحقيق الكتاب كان ينتظر منه استنفاذ وقت كبير ، فقد عدل عن الفكرة » وقد علمت أن الأستاذ دي جياكمو كان يعتزم نشره كذلك وأنه قد استنسخه لكن ظروفاً خاصة ذهبت بآمال دي جياكمو . . ، ثم بلغني أن بعض السادة تحركت همتهم لنشر المخطوط[3] .

---

(1) Historia politica del imperio almohade, pp.225 - 226 =
Dozy : Recherches , p. 372

(2) المقري : نفح الطيب مطبعة القاهرة 1949 جزء أول صحفة 293
بوجندار : الاغتباط (مخطوط) الخزانة العامة رقم 1287 .
Pons Boigues : No 250 , Melchor Antuna , pp. 25 - 38

(3) كنت أمام كل هذا متردداً في الاشتغال بالمخطوط ولذا فقد كنت أستشير بعض الزملاء ممن يهتمون بالتاريخ ، وقد تلقيت رسائل في هذا الصدد من مختلف الجهات وكلها حث وتشجيع ، وقد جاء في رسالة للأستاذ ويسي مراندة « انك بمبادرتك الى نشر هذا المخطوط ستسد فراغاً كبيراً في المكتبة=

أما عن وقت تبيض الكتاب من طرف المؤلف فيتأكد انه لم يتم في وقت واحد ، ولكنه ـ بعد سنة 571 ـ[1] أخذ يكتب في كل مناسة طرفاً منه ثم بعيد سنة 594 لما تفرغ للإمامة والخطبة بالجامع الكبير جمعه الجمع النهائي ، ونعتقد أن ذلك تم باشبيلية . . أما عن النسخة التي وقفت عليها باكسفورد فيترجح لدي أنها نسخت بالمغرب[2] . وقد كانت ملكاً بالشراء لأحد الفضلاء ممن يحمل اسم « علي بن عبد الله بن علي » كما يوجد ذلك بطرة في آخر الكتاب . . . ثم أمست ملكاً للاسقف مارش[3] الذي وهبها ضمن كتبه لخزانة البودليان ، وقد ذكر لي البروفيسور بيستون Beeston الاستاذ بجامعة أكسفورد أن الأسقف

= العربية ، فقد أتيحت لي الفرصة ـ يقول الأستاذ ويسي ـ لأن استفيد من هذا الكتاب كثيراً في تأليفي ، (التاريخ السياسي للامبراطورية الموحدية) » .

وجاء في رسالة للأستاذ الكبير محمد العابد الفاسي محافظ خزانة جامع القرويين : « وبالكتاب المشار اليه في طليعة القائمة الجديرة بالنشر والتحقيق ، ومَن لها غير الاستاذ عبد الهادي التازي المحقق صاحب القلم السيال ، ولقد وجدته كتاباً غريباً في بابه خاصة من ناحية الأدب والوقائع . . من أجل هذا لا أزال ألح على أخوتكم في القيام بهذه العملية وأخشى أن يتسارع اليها من لا يحسن ولا يتقن » .

بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة حسين مؤنس صفحة 242 .

راجع ما قلناه لدى حديثنا عن بواعث الرحلة الى أكسفورد ص 35 - 36 .

(1) الذي جعلنا نفترض انه لم يبدأ بتبييض كتابه إلا بعد هذا التاريخ انه ينعت أبا حفص عمر بن يحيى الهنتاتي بالمرحوم من أول الكتاب (ص 80 . ومعلوم أن هذا توفي سنة 571 . ابن عذاري : البيان المغرب ص 101 . وانظر كذلك ص 289 - 337 - 345 - 382 . من المن بالإمامة .

(2) ذلك لأنها مكتوبة بنفس الشكل الذي كتبت عليه سائر المخطوطات المغربية التي وقفنا عليها ، وفي أبرز ما يطبع هذا الشكل ان تجد ضبط الحروف فيه يخالف قليلاً ما عهدناه . فمثلاً نعهد الآن نقاط الحروف توجد مباشرة على أو تحت الحروف وفوق النقاط الشكلة من فتحة أو كسرة لكن الأمر في المخطوطات المغربية على عهد العصور الوسطى يخالف هذا فالشكلة تباشر الحرف والنقطة فوق الشكلة هذا علاوة على وجود أشكال « الخط الفاسي » على الصفحة الأولى والأخيرة . أرجوزة ابن طفيل في الطلب بخزانة جامع القرويين تحت رقم 3158 / 40 ل . البعقيلي : سلك فرائد اليواقيت الطبعة الحجرية فاس ص 28 .

(3) هو نارسيوس مارش (Narcissus Marsh) المولود سنة 1638 وقد كان من الباحثين في الشؤون الشرقية .
Richard Bagwell Marsh (Dictionary of National Bilgraphy) .

اشترى بعض مخطوطاته من مكتبة المستشرق الهولاندي كوليوس (Golius) ، وقد عاش هذا بالمغرب عام 1032 — 1623 ضمن بعثة دبلوماسية هولاندية برئاسة ألبير رويل (Albert Ruyl)[1].

ومن المحقق ان الكتاب لم ينسخ بخط المؤلف نفسه لأن الخط الذي كتب به العنوان وكتبت به بعض الطرر هو نفس الخط الذي كتب به باقي الكتاب ، وورقة العنوان تدعو للمؤلف برحمة الله مما يؤكد انها كتبت بعد وفاته ، ومع هذا فإن الذي انتسخها ليس ناسخاً عادياً ، ولكنه يحتاط في أغلب الأحيان : تارة بتصحيح الكلمة المحرفة بطرة[2] الورقة ، وأحياناً بترك المكان شاغراً إذ لم يتأكد من اللفظ الذي[3] ينقله ، وفي بعض المرات يعلق تعليقاً مفيداً ولكن خفيفاً على بعض المقاطع الشعرية[4] . والناسخ مع هذا وقع - ولكن نادراً - في بعض أخطاء الرسم[5] أو هفوات تبدو في مخالفة مذهب الجمهور في النحو أو في بعض الأسماء أو في تكرار السطور .

(1) كانت للعاهل المغربي زيدان بن المنصور السعدي علاقات جدّ وثيقة بالولايات العامّة (هولاندا) ويعتبر المغرب في صدر الدول التي ساعدتها على بناء استقلالها عن أسبانيا ، ونتيجة لهذا الإتصال تعرضت الثغور المغربية لحملات هوجاء من طرف هذه الأخيرة ، وقد اتجه تفكير زيدان لبناء ميناء بقصبة شمال مدينة الجديدة، على مقربة من (الوليدية) التي تنسب لابنه الوليد . . . فكان هدف السفارة درس الموضوع في عين المكان ، وهكذا وجدنا (جاكوب فان كوول) أو كوليوس الذي كان يقرأ العربية ويكتبها والذي نال حُظوة لدى زيدان وتمكن من لفت علماء فاس اليه ، وكان المقام بالنسبة اليه فرصة للحصول على بعض المخطوطات المغربية التي كان يستعين بها أثناء أستاذيته العربية في جامعة ليدن . . . وقد كان مما قام به تخطيط تصميم للقصر الملكي بفاس بما فيه قبة الذهب على نحو ما كان يوجد بقصر البديع في مراكش .

Windus: a **Journey to Mequinez,** p. 219.

Les Sources Inédites de L'histoire du Maroc (Saadiens (0 I; T .3 p . 227

Jacques Caillé : Ambassade et missions marocaines au pays - Bas **Hespérls** - **Tamuda ,** vol IV, fasc 1.

- عبد الهادي التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب .وطبعة فضالة 1406 = 1986 ج 1 ص 215 .

(2) ص 1280 من متن المن بالإمامة .

(3) انظر صفحة 45 - 49 - 51 - 296 - 331 .

(4) انظر صفحة 29 من المن بالإمامة .

(5) من أخطاء الرسم : كتابة أربعة وسبعين عوض أربعة وستين ص 80 - 81 وديبر عوض دينار ، =

أسلوبه ومنهاجه :

وقد استطاع ابن صاحب الصلاة أن يبرهن في مقاطع كتابه على أنه المؤرخ والأديب معاً[1] ، فقد اتى بالبديع من القول ، لكن تعابير البلاغيين تجرفه في كثير من الأحيان ولذلك فهو يسجع ويقتبس ويلمح، وقد يتم هذا غالباً[2] دون تكلف ولا تعنت، والمؤلف - وهو متضلع من علوم الأولين - كثيراً ما يعنى بضرب مثل أو تلويح لحادثة ، أو تاريخ قديم[3] حتى يعطي الدليل على أنه قدير بالحاق هذا بذاك والمقارنة بين الأشياء ، والحكم عليها ، وبذلك يبرهن على هذه الهواية الأدبية التي تطغى عليه في تاريخه، وهو لايلبث هائماً بإيراد الشعر في كل مناسبة تسنح ، ثم هو ينتقي - أحياناً - منه ما يراه سائغاً عذباً ويتفق مع ميوله ، ويلاحظ المتتبع لغضون الكتاب أن ابن صاحب الصلاة ضابط جداً لما قال ولما يقول وسيقول في مؤلفاته ، ولذلك فما ينفك متثبتاً في كلامه ، يحكي الحقيقة التاريخية في هذا الفصل ولا يتردد أن يعزز كلامه بقوله مثلاً : « على ما ذكرته » أو على « على ما أذكره » . إن هذه اللازمة قد تكثر في بعض الأحيان لقد بلغت في هذا السفر الثاني بالذات زهاء الخمسين إحالة[4] ! ومع هذا فإن هذه

= (الغزل) عوض الغزال (ص 210) . والمصحف عوض المصحفين ص 305 ، ورمضان عوض شعبان (ص 327) ومما خولف به مذهب الجمهور : قوله « استولوا الموحدون » (ص 199) « ولا طالت مدته » (ص 94) بإدخال لا على الماضي والقصد غير دعاء. ومن تحريف الأسماء أبو إسحق إبراهيم عوض أبي إبراهيم إسماعيل ص 334. ومن التكرار ما ورد في صفحة 238-346 .

(1) ينعته ابن عبد الملك بأنه « الأديب الكاتب المحسن ، وبأنه عني بحفظ التواريخ وتقييدها » .

(2) نقول غالباً لأنه في بعض الأحيان لم يسلم من الإفراط في استهلاك الكلمات الفائضة التي لا تشعر بأي داع لحشرها سوى أن لها قافية استهوته. راجع الورقة 60-80-164-171-173-175-232

Dozy : Recherches Page 372 .

(3) راجع صفحة 38 - 92 - 94 - 96 - 129 - 215 - 304 - 322 - 341 - 384

(4) أنظر مثلاً صفحة 22_39_41_45_47_49_50_53_61_64_65_69_77_80_91_92_93_110_111_117_121_144_154_161_187_214_215_232_234_235_244_245_244_250_257_259_260_269_270_272_300_306_311_329_334_337_338_375_377_379_386 .

الإحالات ـ سواء منها ما كان إحالة على كتابه ثورة المريدين ، أو كتابه المن بالإمامة ـ أحياناً تميط اللثام عن بعض الأسرار التي ظلت غائبة عنا ، فقد كان في أوائل السفر الثاني يشير الى بعض الأحداث ويذكر بأن الكلام عنها قد سبق فاستنفدنا بذلك بعض محتويات السفر الأول مما جرى قبل سنة 554 ، وكذا كان الشأن في آخر السفر المذكور عندما أخذ يستعجل ذكر بعض المسائل ويطمئن القارىء بأن تفصيلها سيأتي . فبالتتبع عرفنا أيضاً بعض محتويات السفر الثالث مما حدث بعد سنة 569 . هذا الى تصيدنا لبعض العناصر التي احتواها كتاب ثورة المريدين[1] .

والمعلومات التي يتضمنها كتاب (المن بالإمامة) على أقسام ثلاثة : معلومات استقاها من الرواة الذين تحدثوا اليه ، وهؤلاء طائفتان فيهم من ذكر اسمه كأبي القاسم بن أبي هرون ، وأبي محمد سيد راي ابن وزير ، وأبي العلاء بن عزون[2]، بيد أن في رواته من ظل مجهول الاسم ، ففي ثماني[3] عشرة موضعاً نقل عن « الراوي » ، ومن المرجح أن الراوية في الثماني عشرة مرة كان متعدداً ، ففي كل حادثة كان يروي عمن يوليه ثقته[4] .

أما القسم الثاني من معلوماته ـ وهذا أهم ـ فإنه شاهد له هو بنفسه ، ولذلك فهو يقول بين الحين والآخر : « قال المؤلف . . . أو قال المؤلف عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة » وكثيراً ما يكون في هذه الحالة قد عاش الظروف التي يحكي عنها سواء في العدوة أو الجزيرة وهو عندما يحكي تلاحظ الأمانة في قوله ، والنزاهة في أحكامه ، ويكفي أن نسجل عليه أنه كان في بعض

(1) راجع صفحة : 3 - 20 - 54 - 230 - 249 - من المن بالإمامة .

(2) انظر صفحة 38 - 78 - 139 - 236 - 352 من المن بالإمامة .

(3) ص 5 - 21 - 29 - 39 - 44 - 74 - 76 - 79 - 81 - 83 هذا وقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أن ابن صاحب الصلاة روى عن أبي عبد الله بن عميدة وأبي علي الأشيري .

(4) ذكر من شيوخ ابن صاحب الصلاة على ما قاله ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة أبو القاسم محمد بن ثوابة الاشبيلي الذي يمكن أن يكون من المقصودين بكلمة الراوي . الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ـ تقديم الدكتور بن شريفة ـ مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، سنة 1984. صفحة 79.

الحالات يقف موقف المنتقد الذي لا يخشى اللوم ولا يتهيب المصير[1] ، ولقد اعتمد في ثلاث عشرة مرة[2] على مشاهداته الخاصة ، وكان في هذه المرات كلها دقيق الملاحظة ضابطاً للحوادث . أما القسم الثالث فهو ما ينقله عن بعض المؤلفين المعروفين كابن حيان[3] وابن العربي[4] أو عن بعض الوثائق الرسمية للدولة مما استأثر به على سائر المؤرخين[5] .

ويظهر أن عبد الملك كان يحاول أن يكتب تاريخه مرتباً سنة سنة على طريقة الطبري[6] ، ولهذا نراه في كثير من الأحيان يعنون هكذا : (وفي سنة كذا . . .) لكنه ـ وقد اصطدم أحياناً بمساوئ طريقة السنويات ـ وجد نفسه مضطراً لتناسي هذه الترتيبات ، وذلك في حالة ما إذا كان هناك قطع للحوادث قد يسيء الى الغرض المتوخي من تسلسلها . ولهذا نلاحظ أنه في أوائل هذا السفر الثاني مثلاً لم يلتزم هذه الطريقة إذا كان من شأن ذلك أن يحمل القارئ قطعات ـ قد تضنيه ـ في سبيل الإتيان على تمام الحادثة .

ولم يسلم المؤلف مما يقع فيه كثير من المؤلفين القدامى ممن يستسلمون لتداعي الأفكار فيستطردون بذكر بعض الأشياء في غير مكانها لمناسبة ما من المناسبات ، وقد شعر في أغلب هذه الاستطرادات بأنه يأتي شيئاً قد لا يغفره

(1) يعتقد الأستاذ دوزي ان ابن صاحب الصلاة كان يغدق الاطراء على الموحدين دائماً ، لكن بعض مقاطع الكتاب لا تسمح بقبول هذا الاعتقاد . راجع ص 351 - 352 .

(2) ص 21 - 102 - 121 - 127 - 145 - 152 - 197 - 229 - 249 - 271 - 300 - 334 - 336 ـ من المن بالإمامة .

(3) راجع صفحة 63 من المن بالإمامة .

(4) راجع صفحة ص 111 من المن بالإمامة .

(5) استأثر ابن صاحب الصلاة بذكر رسائل موحدية لـ (يوجد لها ذكر في غير كتابه كما ستتحدث عن ذلك) . ولا تخفي قيمة هذه الرسائل من الوجهة التاريخية فإنها الشيء الوحيد الذي كتب مجرداً عن « الغرض » الذي قد يؤثر على المؤرخ . . .

(6) توفي الإمام الطبري سنة 310 (923) وقد اشتهر باسلوبه الذي يتبع فيه طريقة السنويات . أنظر كتابه (تاريخ الرسل والملوك) .

القارىء ، ولذلك فهو - أكثر من مرة - يقول كالمعتذر : « قال المؤلف : وفي المثل الحديث شجون[1] . . . » ومع كل هذا فقد كان لاستطراده فائدة ، إذ أنه ألقى الضوء على معلومات ظل المؤرخون يتعطشون اليها منذ القدم[2] ، ولا ينسى ابن صاحب الصلاة عندما يستيقظ من استطراده أو استرساله أن ينبه القراء باللازمة السائرة في مثل هذه الأحوال : « رجع الخبر » « فلنرجع الى ذكر . . . » وقد « رجع » إلى أصول حديثه في عشر مرات[3] .

(وكتاب المن) - تقليداً لبعض من سبقه من المؤرخين - حرص على أن يذكر التاريخ القمري مقروناً - في كثير من المرات - بالتاريخ الجولياني ، فهو في أوائل الكتاب يذكر أن الجمعة 10 محرم 557 ، توافق 26 يناير العجمي ويستمر في ذكر الموافقات الى أواخر الكتاب إلا أن ابن صاحب الصلاة في جل هذه الموافقات لا يتفق مع الجداول الموضوعة في هذا الصدد[4] وقد حاولت بشتى الطرق أن أصل الى « تعزيز » أرقامه ، لكنه كان بالفعل متساهلاً في كثير هذه الموافقات .

والمتتبع للغة ابن صاحب الصلاة سيعثر أحياناً على بعض الألفاظ الأجنبية كالببوج[5] والقومس أو القمط[6] والمركطال[7] ، وسيجد مرات أخرى ألفاظاً

---

(1) راجع صفحة 334 - 335

(2) راجع مثلاً الاستطراد الخاص بذكر تاريخ مدينة الرباط وتاريخ مسجد ابن ثمديس باشبيلية .

(3) راجع صفحة 8 - 39 - 45 - 65 - 93 - 104 - 254 - 269 - 324 - 342

(4) ابرز هذه الجداول وأكثرها رواجاً ما وضعه الدكتور كاطنوز .

H . G. Cattenoz : **Tables de concordance de eres chrétienne et Hégirienne** .

(5) أصلها بالأسباني (El Baboso) بمعنى الكثير اللعاب ، وقد كان لقباً لفرنانده الثاني (Fernando II de Lion)

(6) القومس كلمة مشتقة من اللاتينية Comes وهي الكونت ، وأحياناً يعبر عنها بالقمط وتجمع على قوامس . أشباخ : ترجمة عبد الله عنان ص 61 - 71 - 127 .

(7) المركطال : أصله باللاتيني Mercatellum وهو السوق الذي تباع فيه الثياب المستعملة .

«بربرية» كالمزوار والغفارة «ومنتيقيمي»[1]، على أنه يردد ألفاظاً مغربيةً ما تزال إلى الآن محتفظة بجدتها في الاستعمال المغربي كالظهير والمخزن والرقاص والمحلة[2] .

* * *

ونظراً للقيمة التي ينعم بها الكتاب فقد كان مرجعاً لجل المؤرخين المتقدمين منهم والمتأخرين، وهكذا نرى كلاًّ من ابن القطان في نظم الجمان[3] وابن عذاري في البيان المغرب[4] ، وابن الآبار[5]، وابن عبد الملك في الذيل والتكملة[6] ، وابن أبي زرع في الأنيس المطرب[7] والجزنائي في زهرة الآس[8] ، وابن الخطيب في الإحاطة[9] ، وابن خلدون في العبر[10]، والمقري في نفح

---

(1) المزوار : رئيس فرقة ، والغفارة : نوع من الكساء ، ومنتقيمي بمعنى: باب الدار.
Dozy : sup. aux dic. I page 613 II, page 218 Laouste : Note et choses berbères page 1 .

(2) الظهير بمعنى المرسوم الملكي . والمخزن بمعنى الحكومة ، والرقاص بمعنى ساعي البريد والمحلة بمعنى الجيش . راجع صفحة 9 - 19 - 64 - 107 - 288 من المن بالإمامة . ابن زيدان : كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة . الاول مطبوعات القصر الملكي 1961 .

(3) منظم الجمان لابن القطان نشر الدكتور محمود علي مكي ص 39 وما بعدها .

(4) يعتبر ابن عذاري أكثر المصادر استمداداً من ابن صاحب الصلاة ، فقد ذكره عند الصفحة الأولى من « اختصاره » منذ احداث سنة 534 ، واستمر ينقل عنه ، ويكاد في بعض المقاطع يذكر بالحروف ما حبّره ابن صاحب الصلاة دون ذكر اسمه كأنه كان يخجل من كثرة ترديده ، ولذا فإننا نرجح أن ابن صاحب الصلاة كان العمدة الأولى لصاحب البيان المغرب في جل ما ذكر عن أيام الموحدين.

(5) نقل ابن الآبار في بعض التراجم عن ابن صاحب الصلاة في الحلة السيراء، وفي (التكملة) رقم 1394 نشر كوديرا ورقم 162ذجظظ ورقم 1879 نشر العطار.

(6) السفر الرابع ، مخطوط الخزانة العامة . الرباط رقم 2646 . الورقة رقم 15 .

(7) الانيس المطرب (الرباط 1936) ص 122 - 155 - وطبعة فاس ص 127 - 138 .

(8) زهرة الآس طبعة الجزائر نشر بيل ص 74 .

(9) مخطوطة الاسكوريال رقم 1673 ورقة 158 أ . السفر الثاني : وذلك عند ترجمة محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد ، وقد أضاف ابن الخطيب قائلاً « ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه في الموحدين » وقد كان هذا المخطوط متملكاً للعاهل المغربي زيدان ابن أمير المؤمنين أحمد المنصور الذهبي وأمسى كما ترى في الاسكوريال . .

(10) بالرغم من أن ابن خلدون لم يذكر ابن صاحب الصلاة كراوٍ من الرواة الذين اعتمدهم لكنه=

الطيب(1)، وصاحب الحلل الموشية(2) كذلك ، وغير هؤلاء(3) ، نراهم يعتمدونه ويذكرونه كمرجع من مراجعهم ، وبالرغم من أنه لم يصل لنا إلا السفر الثاني فإن من المؤكد أن في المؤرخين المتقدمين من رأي السفر الأول والثالث بدليل ما ينقلونه عن ابن صاحب الصلاة مما لا يوجد له أثر في السفر الثاني(4) .

وإلى جانب أولئك الذين رجعوا إليه من المتقدمين نرى طائفة هامة من المستشرقين ينتبهون إليه ويولونه كبير عنايتهم تارة بمحاولة التعريف بالكتاب ومؤلفه ، وتارة بترجمة بعض مقاطعه ، ولهذا نرى أولئك من المستشرقين الهولاندي دوزي(5) (Dozy)، والمستشرق البرتغالي دافيد لوبيس(6) (David Lopez)، وكوديرا(7) (Codera)، وميشل أماري(8) (Amari)،

= بعض المعلومات التي استأثر بذكرها ابن صاحب الصلاة فيما نقله القرطاس خاصة حول وفاة المهدي . ابن خلدون سادس ص 472 .

. Gayangos p. 411

(1) المقري : نفح الطيب (ثالث) مطبعة السعادة 1949 ص 100 .

(2) الحلل الموشية نشر علوش ص - 85 - 95 - 118 .

(3) ليس صحيحاً أن ابن مرزوق استمد منه في « المسند الصحيح الحسن » (مخطوط رقم 666) فقد وقفت عليه في الاسكوريال ووجدت انه ينقل عن ابن عبد الملك وليس عبد الملك ، كما وليس صحيحاً ان الروض المعطار استفاد منه لأن حديثه حول بعض الأشياء - كمدينة جبل طارق - حديث من لم يقف على المخطوط .

(4) راجع التكملة لأبن الأبار ، وابن عذاري والأنيس المطرب لابن ابي زرع والحلل الموشية والنفح في الصفحات الماضية .

(5) ترجم دوزي قطعة من المخطوط في كتابه :

Recherches : **sur ce qui se passa a Grenade en 1162, pp. 364 - 388,**

(6) وذلك في كتابه :

Os Arabes nas obras de Alexandro Herculano, p. 123.

(7) وذلك في كتابه عن انحلال الدولة المرابطية :

Decadencia y desaparicion de los almorvides en Espana.

(8) وذلك في المكتبة الصقلية العربية Biblioteca Arabo Sicula I,XLIV.

ودو كايانكوس(1) (de Gayangos)، والأب ميلشور انطونيا(2) (Melchor Antuna)، وبالباس(3) (Babas)، وكارسيا كوميز(4) (Garcia Gomez)، وويسي ميراندا(5) (Huici Miranda) .

المن بالإمامة والمؤلفات المعاصرة :

ولا بد للباحث أن يلتفت الى ما حوالي ابن صاحب الصلاة من مؤرخين أو جغرافيين عاشوا نفس الظروف التي عاشها ليتأكد - بعد المقارنات والمفارقات - من قيمة الكتاب التاريخية والجغرافية .

وأول ما نريد المقارنة به كتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسي ، لقد ذكر صاحب النزهة في معرض حديثه عن شبكة الطرق التي كانت تربط بين أجزاء المغرب وأفريقية والأندلس في العصر الوسيط ، أقول ذكر أسماء أمكنة كانت غريبة بالنسبة الى الذين يهتمون اليوم بدراسة المدن الأثرية ، لكن (المن بالإمامة) ردد نفس تلك الأسماء فاستطاع بهذا أن يؤكد حقائق جغرافية فريدة(9)

(1) في ترجمته الانجليزية لنفح الطيب المجلد الثاني صفحة 519

(2) وذلك في كتابه (حملات الموحدين في اسبانيا) و (أشبيلية وآثارها العربية) :

Campanas **de los Almohades, en Espana - Sevilla y Sus monu mentos arabes** 1930, p.160

(3) (Al - Andalus) vol VII 1942 p. 74

(4) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد عدد 1953 ص 25 - 32 .

(5) كان ويسي آخر من استفاد من ابن صاحب الصلاة استفادة جيدة وذلك في كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان : Historia **Politica del imperio Almohade**

هذا وقد استفاد من المن بالإمامة باحثون آخرون بواسطة هؤلاء وذلك كالأستاذ بروفنصال في حديثه عن ابن عبدون انظر (Journal Asiatique) عدد أبريل 1934 صفحة 185 - 186 والأستاذ هنري طيراس في تاريخه عن المغرب ، ودوفيردان في تاريخه عن مراكش .

Deverdum : p .202

(6) راجع مثلاً ما يتعلق بالطريق التي تربط بين مدينة مراكش ومدينة سلا فستجد من بين الأمكنة تونين وتوقطين والجيسيل وقرية مكول ، مما لم يوجد سوى في ابن صاحب الصلاة والأمر كذلك فيما يتعلق ببعض الأقاليم الأندلسية وبعض الحصون والقرى هناك . الأدريسي : النزهة ص 69 — 70 — 173 — 177 .

تأكيد من سلك المراحل على قدميه ، وبعد هذا نتناول أخبار المهدي عند البيذق لنجد أن سائر المعلومات التي التقى فيها بابن صاحب الصلاة كلها كانت كأنها مكتوبة بمداد واحد وقلم واحد[1]، وبعد هذا نتناول كتاب الاستبصار المكتوب حوالي سنة 587 فسنجد أن الأوصاف التي أعطاها لبعض الأمكنة تتفق تماماً مع ما يحكيه ابن صاحب الصلاة ونذكر على الخصوص ما يتعلق بمدينة مراكش وقنطرة سلا والرباط[2] ، ولو أنك أيضاً قارنت بين المعلومات التي تضمنتها الرسائل الموحدية التي نشرها بروفنصال ، والتي عالجت نفس الموضوع الذي تحدث عنه ابن صاحب الصلاة لوثقت بأنه كان يطلع عليها قبل ان يتناول قلمه لتدوين تاريخه[3] .

لكن الذي نعجب له حقيقة هو وجود بعض الخلاف في الرواية التاريخية بين المراكشي في (المعجب) وبين ابن صاحب الصلاة في (المن بالإمامة) مع أنهما متقاربان كما لا يخفى، ومن أمثلة ذلك ما يتعلق بأمر اقصاء محمد بن عبد المؤمن عن ولاية العهد . فقد نص ابن صاحب الصلاة على أن عزله عن الولاية كان في حياة أبيه وبأمر منه[4] لما ضبط عليه من سلوك لا يليق ومقام الخلافة ، وهكذا « أسقط من الخطبة » ابتداء من يوم الجمعة الثاني من جمادي الأخيرة من عام 558 ، لكن المعجب ينص على أنه «لما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافاً كبيراً . فاتفقوا على خلعه في شهر شعبان من هذه

---

(1) راجع مثلاً ما يتعلق بعادة قراءة الحزب والتمييز، وبناء جبل طارق . البيذق 48-114-116-121 المن بالإمامة 17-18-88-145 .

(2) راجع صفحة 140-241-208-209 من الاستبصار وص 143-209 من المن بالإمامة .

(3) راجع مثلاً الحملة ضد شان منوس ابي بردعة التي تمت سنة 568 والتي وصفها كل من ابن صاحب الصلاة وابي القاسم القالمي منشيء الرسالة الثانية والعشرين ص 121 - 122 - 123 من الرسائل ، وص 179 - 378 من المن بالإمامة وكذا راجع التعريف بالسليطن امير النصارى كذلك ص 71 - 75 - 77 من الرسائل ؛ وص 230 من المن بالإمامة ، هذا ولا يفوت التنبيه على ان الأستاذ بروفنصال قدَّم الرسالة عن محلها إذ جعلها في أحداث سنة 555 ، وقد علمت ان الحملة على عظيم ابلة بالكتبانية كانت سنة 568 .

(4) وهذه هي الرواية التي اعتمدها القرطاس وابن الأثير . ابن صاحب الصلاة ص 97-80-81 .

السنة[1] » هذا إلى مخالفة المعجب لابن صاحب الصلاة في نسبة بعض الشعر للخليفة ، وعند تعديد أولاد الخليفة[2] كذلك .

وقد فضلنا أن لا نتزل في المقارنة بين المن بالإمامة ونظم الجمان ، والبيان المغرب ، والأنيس المطرب ، ومسالك الأبصار والحلل الموشية بالرغم من وجود بعض الفروق البسيطة في بعضها[3] وذلك حرصاً على التزامات المقارنة مع المعاصرين أو الذين أوشكوا أن يكونوا مقاربين .

جهاز الدولة ونظامها من خلال الكتاب :

والمتصفح لكتاب المن بالإمامة سيلمس نواحي جد هامة من تاريخ دولة الموحدين ظلت في معظمها مجهولة أو تكاد من لدن الذين يتطلعون لأخبار بني عبد المؤمن ، فمن خلال الكتاب نقف على نظام « المخزن »[4] على ذلك العهد ، فنظام المراتب «الهيرارشية » (Hierarcjie) استمر محترماً معمولاً به عند الخلفاء المتعاقبين ، فالسادة ـ وهم أعضاء الأسرة الحاكمة ـ يُعَزَّزون[5] في ولاياتهم دائماً بالشيوخ[6] والحفاظ[7] ، وأهل الخمسين[8]، وأبناء الجماعة[9]

---

(1) وهي الرواية التي اعتمدها ابن خلكان . المراكشي ص 236 - 245 .

(2) ينقص المراكشي من العدد واحداً ويزيد بعض الاسماء كما انه ينسب قصيدة لعبد المؤمن مع ان قائلها ابن عياش في ايام ابي يعقوب المعجب 225 - 226 المن بالإمامة 276 - 278 وعندي ان ابن صاحب الصلاة يجب ان يظل هو العمدة نظراً لكون المراكشي كتب مؤلفه خارج المغرب الأمر الذي استهدف به الى الغفلة والنسيان .

(3) ينص ابن صاحب الصلاة مثلاً عند الحديث عن مسجد اشبيلية ان زنة العمود مائة وأربعون بينما يذكر ابن أبي زرع اربعين ربعاً ، وكما ينص صاحب الحلل مثلاً أن مسجد اشبيلية شيد سنة 572 لا سنة 567 كما يؤكد ابن صاحب الصلاة . المن بالإمامة ص 339 ، القرطاس 186 ، الحلل 131 - 132 .

(4) أنظر صفحة 305 من المن بالإمامة .

(5) صفحة 255 - 256 - 257

(6) صفحة 13 - 58 - 144 - 147

(7) صفحة 4 - 41 - 145 - 146 - 147

(8) صفحة 146 - 256 - 261 - 248

(9) صفحة - 22 - 260 - 313 - 314

وأهل الدار[1] وطلبة الحضر[2] وطلبة الموحدين[3] ، وكلّ من هاته الطبقات لها مركزها الخاص بها ، ومن هؤلاء تتكون إطارات «المملكة الخلافية»[4] في شتى الميادين فمنهم في الأغلب الكتاب على اختلاف درجاتهم ، والعمال والقضاة والأمناء والسدنة والمزاوير والمشارف ، والمقدمون وأصحاب الزمام[5] . وقد كانت ولاية العهد لا تخضع عندهم إلا لشرطين اثنين : الكفاءة والصلاح ، ولهذا فمن الممكن ان لا يحجم الخليفة في إقصاء ولي عهده وتبديله بآخر متى ظهر أنه غير مصيب في ترشيحه الأول[6] .

وكانت الدولة تعتمد في مداخيلها على الزكوات التي يؤديها المسلمون عن طواعية سواء على حرثهم أو ماشيتهم[7] ، وكذا على الجبايات والخراجات والأعشار ، وعلى الغنائم الحربية والجزية والمصادرات[8] .

ونتيجة لهذا كانت أسلاك الموظفين ـ وجلهم مجند ـ تتقاضى « بركة » كل رأس شهر[9] وعند كل مناسبة[10]. وكانت هذه البركة كريمة في كثير من الأحيان ، فلقد بلغ عطاؤه ذات مرة لجنده زهاء نصف المليون من الدنانير الموحدية[11] ونتيجة لهذا وذاك انتشر الأمن في البلاد فأصبح المرء لا يخاف إلا الله أو الذيب[12] .

(1) صفحة 348
(2) صفحة 84 - 79 - 213
(3) صفحة 21 - 22 .
(4) صفحة 328
(5) صفحة 64 - 91 - 164 - 279 - 297 - 309 - 358 - 371 - 373
(6) صفحة 77
(7) صفحة 64 - 139 - 214 - 280
(8) صفحة 41 - 61 - 90 - 130 - 148 - 219 - 341 - 361 - 383 -
(9) صفحة 286
(10) صفحة 280 - 299
(11) من المعلوم أن وزن الدينار الموحدي ذهباً أربعة غرامات و 729 ميلي كرام ، فإذا ضربت هذا العدد في نصف مليون دينار وجدت الوزن الذهبي الذي تكشف لنا قيمته اليوم بالعملة الحالية « البركة » الممنوحة ومقدارها ثلاثة عشر مليوناً ومائة وثلاثة وتسعون ألفاً وتسعمائة وعشرة دراهم مغربية. راجع صفحة 280-299 مع صفحة 309.
(12) صفحة 139

وكان في أبرز ما يُعرف به الموحدون التكثير من اتخاذ «الطبول»[1] ولا يتعلق الأمر في نظرنا باستعمالها للإيذان بنشوب الملاحم فقط لصك أسماع الخصوم[2] ، ولكن أيضاً ـ كما تدل على ذلك نصوص الكتاب باستعمالها عند أوقات البشرى والمسرات والطرب[3] ، وقد اتخذت الطبول مختلف الأحجام والأشكال ففيها المربع الذي يرجع لعهد المهدي[4] ، وفيها المستدير الكبير[5] كذلك .

وقد كان اللون السياسي والأساسي للأمبراطورية الموحدية هو البياض[6] بيد أنهم اتخذوا اللون الأحمر للقبة التي يقيم فيها الخليفة[3] كما أنهم عمدوا الى اتخاذ أعلام ثانوية أربعة ملونة بالأحمر والأبيض والأصفر ، وجملوا بها أركان خزانة المصحف العثماني[8] عند الدخول الى مدينة الرباط . وقد كانت أدوات الحرب المستعملة إذ ذاك تتمثل في السيوف والقيسي والرماح والترسة ، والبيضات[9] ، كما أن اللباس الشائع للجند يقتصر على الأكسية والغفائر والبرانس والقبطيات والعمائم والمقاطع ، أما العبيد فيلبسون ثياباً مصنفة الألوان[10] ، وللعسكرية بما فيها من جند نظامي أو حرس وعبيد ديوان في منتهى الضبط يسهر على إحصاء الجند ومعرفة حاجاته المتجددة[11] .

ومن عادة رجال الحكم في الأمبراطورية الموحدية أنهم لا يأتون عملاً مهما إلا إذا جمعوا « الطبقات » و « الهيئات » من أجل الاستشارة ، وهكذا فهم لا

(1) صفحة 112 - 143 - 147 - 348 - 351 - 367
(2) صفحة 134
(3) كما وقع مثلاً عند استقبال بعض السادة وعند الإبتهاج بإنجاز خزان الماء بإشبيلية ص 143 - 144 - 324 - 361
(4) راجع صفحة 290 .
(5) صفحة 359
(6) صفحة 301 .
(7) صفحة 348 - 358
(8) صفحة 304
(9) صفحة 63 - 75 - 102 - 143 - 243
(10) صفحة 144 - 242 - 299 - 308
(11) صفحة 208 - 288 - 311

يقدمون على غزوة إلا بعد أن يقرر المجلس الحربي ذلك ، كما أنهم لا يقومون بتشييد منشآت في الدولة إلا بعد أخذ رأي الأعيان في ذلك[1]، وكانت موافقة الشعب على القرارات المتخذة من طرف الدولة تتجلى في شكل رسائل تمهرها الطبقة الواعية في البلاد وتبعث بها إلى السادة[2] .

ومن عادة الموحدين دائماً في حركاتهم ان يخصص الخليفة يوماً أو أياماً يقوم فيها باستعراض سائر القبائل المتقدمة للغزو سواء من العرب أو من الموحدين ، ويخصون هذه العملية باسم « التمييز » تتقدم قبيلة هرغة وتينملل وهنتاتة وكدميوه وجنفيسة ، ويتقدم من العرب بنو زغبة والهلاليون والرياحيون والجشميون[3] .

كما أن من عادة البلاد أن تتجمع لاستقبال الخليفة أو توديعه إظهاراً للطاعة وتعبيراً عن المحبة وكثيراً ما يسمون هذا بالتبريز ، لا يبقى من أعيان البلاد وأدبائها وشعرائها من لا « يبرز » للتملي والتبرك[4] .

وإذا كان الباحثون قد تلقفوا بإعجاب المعلومات التي أعطاها المراكشي في المعجب عن عادات الموحدين في إقامة الجمعة[5] والمعلومات التي أعطاها صاحب الحلل الموشية عن ترتيب السفر فإنهم سيشعرون بمتعة زائدة وهم يقرأون عند ابن صاحب الصلاة « التشريفات » الخاصة بمناسبة الأعياد[6] ، والحفلات[7] وبمناسبة تنصيب العمال الجدد ، وعند خروجه للغزو وتلقي البيعة ، وعند أداء اليمين من الأنصار الجدد . . وكذا جلوس الخليفة في الصباح المبكر مجلس التهنئة ، وتقديم الوزير الحاجب للاشياخ والكبراء وأبناء الجماعة وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب والولاة والشعراء وكذا عند الضيافات الخليفية

(1) انظر صفحة 17 - 78 - 79 - 122 - 142 - 142 - 261 - 353 - 365 - 379
(2) انظر صفحة 379
(3) ص 151 - 307
(4) ص 309
(5) المراكشي : المعجب ، طبعة القاهرة ، ص 343 - 344 . الحلل ص127-128 .
(6) ص 313 - 314
(7) ص 292 - 301

الفخمة التي كانت تجري في بحيرة مراكش بل والعادات عند ما يلازم الخليفة الفراش .

إن الخليفة في استقبالاته للعرب الوافدين من أفريقية ، خرج وتتقدمه زهاء مائة طبل ، وقد ركب على صهوة فرسه الأشقر وحاجبه ووزيره يمشي على قدميه بين يديه ، وعلى مقربة من فرس الخليفة أخوه الأكبر وإلى جانب الأخ الأكبر سائر الأخوة ، ثم الأمراء الصغار وفي ساقته ست عشرة راية من كبار البنود . . . وتدوم الضيافات نحواً من نصف الشهر يتهالك فيها الواردون على شراب الرب ، أما عند تعب الخليفة فإن الاستقبالات تمنع ويقتصر على الأتصال به حاجبه ووزيره الأول بالأضافة إلى هيئة الأطباء التي تسهر على صحته[1] .

وكان من عادة الدولة كلما ظهرت مناسبة جديدة أن تشعر سائر المواطنين بظروف الحادث ولذلك فهي تقوم بإطلاق سراح جل المعتقلين والمخالفين ، وتغدق من خيراتها على الضعفاء والمحتاجين ، والخليفة بمناسبة شفائه ، وبمناسبة قدوم العرب من أفريقية منح « البركة » الموحدين والعرب وسائر الأجناد بما فيهم الرماة والرجالة[2] .

والخلفاء الى جانب هذا أخذوا على عاتقهم أن يقمعوا بشدة كل وال أو مسؤول يبدو عليه التعنت والأنحراف والزيغ ولو كان هذا الوالي أقرب الناس اليهم ، وقد يلجأ الخليفة الى تحويل الولاة من مكان إلى مكان ، ويسمح لكل من له شكاية أن يعلن ذلك على مرأى ومسمع من الناس بمحضر الخليفة إثر صلاة الجمعة وذلك ليتمكن الخليفة من متابعة قضيته وإنصافه إن كان يستحق الأنصاف[3] .

ومن ثنايا الموضوعات التي عرض لها الكتاب نقف على ناحية أخرى من حياتهم ، تلك سياستهم حيال الثوار الأندلسيين ، وحيال القادة كذلك من

(1) صفحة - 5 - 23 - 142 - 147 - 280 - 281 - 291 - 292 - 294 - 314 - 313 - 314 - 328 - 329 - 385
(2) صفحة 208 - 310 - 311 - 311 - 213 - 214 - 218 - 283 - 293
(3) صفحة 43 - 281 - 255 - 256

الأسبانيين ثم معاملتهم لعرب أفريقية ، لقد كانوا في طابعهم العام أصدقاء حلفاء لمن يعرض عليهم صداقته ووفاءه ، كما أنهم كانوا يناصبون العداء لكل من يحاول أن يمس من مركزهم ، وإذا ما عفوا أو صادقوا فإنهم ينسون كل ما مر بالأمس القريب[1] . ورد عليهم فرنانده رودريكيز (Fernando Rodriguez) صاحب ترجالة يعرض عليهم السلم والصلح فرحبوا به بل واستضافوه في العاصمة : مراكش نحواً من خمسة أشهر[2] ، وورد عليهم فرنانده الثاني صاحب ليون (Fernando II) يطلب النجدة ضد ابن أخيه فأجابه الخليفة لمطلبه وبعث معه بأفضل عناصر الجيش الموحدي[3] ، وأرضى كذلك رغبة إبراهيم بن همشك ، الذي أمسى صديقاً مقرباً للدولة[4] ، وتطارح هلال بن مردنيش فاستقبله بل وأنزله في القصور الخليفية وقبل منه هداياه[5] ، وبالإضافة الى هؤلاء قبل محالفة القومس نونيه (Nuno) صاحب طليطلة ، ثم ابن الرنك[6] (Enriquez) وقد كان يستفيد من حلف هؤلاء في الدلالة على نقاط الضعف في الجهات التي لم تستسلم بعد [7] .

أما موقفهم مع أعراب أفريقة ، فقد ظلوا - على العموم - حريصين على مجاملتهم ومشيدين بأواصر «القربى» التي تجمعهم في قيس عيلان ، وبالرغم من بعض المؤاخذات التي يسجلها ابن صاحب الصلاة على العرب في بعض المواقف[8] فإننا نجد الخليفة يخرج بنفسه لاستقبالهم بظاهر المدينة في يوم مشهود

(1) صفحة 223 - 325
(2) أنظر صفحة 230 من المن بالإمامة .
(3) راجع صفحة - 231 - 233
(4) صفحة 249 - 250
(5) ص 327 - 373 - 376
(6) ص 387 من المخطوط .
(7) صفحة 265
(8) لم يفت ابن صاحب الصلاة أن يسجل بعض « الهفوات » التي بدت من العرب ، بل وانه ليفهم منه أحياناً وسمهم بالفوضى واللامبالاة : فلقد عتب على « الجهال من الأعراب تحزبهم بالأحزاب » كما يسجل عليهم أيام « التمييز » أنهم كانوا لا يهابون أحداً ولا امرأ وإنهم كانوا يتهافتون على الثياب دون أحترام للمقام ، هذا الى ما أتسم به يومهم عندما أرادوا أجتياز قنطرة =

على أفضل تبريز ، ونراه كذلك يقدمهم عند التمييز ويؤثرهم بأجمل العطاء[1] .

وكان الموحدون أكثر الناس استعمالا للحيل الحربية ، فقد يختلقون « الرسائل » وقد يتجاهلون بعض الأشياء حرصاً على الوصول الى الحقيقة[2] ومن مناهجهم الاعتماد على « الجواسيس » الذين يختلطون بالأصدقاء والأعداء على السواء لينقلوا أو يبثوا ما فيه المصلحة للدولة علاوة على سلك التراجمة الذين لا تخلو منهم أجهزة الحكومة[3] ولكثر ما كانوا « يتحيلون » ظلت بعض المواقف الحربية منهم غير مفهومة المغزى[4] وكانوا - وهم يغارون على سمعة الدولة - لا يترددون في فكاك أسراهم أو المحاصرين من أنصارهم مهما كان الثمن وقد وصلت قيمة فداء الشخص الواحد الى ثلاثمائة دينار[5] كما بلغ الإمداد لبلدة واحدة في مرة واحدة خمسة آلاف دابة[6] ، والمعتاد عند الموحدين في كل غزوة يقررونها انهم يمهدون لوصول الجيش بإرسال كتائب للاستطلاع والمناورة[7] .

النشاط الفكري :

وإذا كانت الحياة الأدبية على عهد المرابطين قد استهدفت بتهجمات بعض رجالات الاستشراق[8] ، فإن ما يوجد ضمن هذا المخطوط من منظوم ومنثور

= أم الربيع من « تزاحم وتقاتل وفتنة . . . » ثم ما ظهر على العرب عند قصد (وبذة) « من رواح وميل » وما ظهر عليهم عند الانصراف منها من « جبن عن اللقاء والدعوى بأن حربهم تحتاج الى انفساح في الأرض » ! راجع صفحة 294 - 296 - 297 - 304 - 347 - 365

(1) صفحة 292 وصفحة 297 - 299
(2) انظر صفحة 3 - 124 - 243 - 264
(3) أنظر صفحة 3 - 264
(4) لقد دعى الموحدون للصلح في موقعة وبذة في ظروف عصيبة بالنسبة لهم بحيث لم يكن من المتوقع ان يرفضوا العرض أولاً وثانياً وثالثاً ولكنهم فعلاً أبوه وأكيد أنهم كانوا يعتمدون على « حيلة » في هذا الرفض . راجع صفحة 3 - 126 - 353 - 357
(5) ص 91 - 254 - 308 .
(6) ص 258
(7) أنظر صفحة : 121 - 187 - 260 - 236 - 346
(8) Provençal : **Conférences sur L'Espagne Musulmane** , Caire 1951, pp.17-18 =

أيام الموحدين لمما يؤكد أن تلك «التهجمات» كانت خاطئة حيث أن هذا التراث - كما نعتقد - ليس إلا «استمراراً» لازدهار أدبي عرف الحياة في أحضان الدولة الذاهبة .

وقبل كل شيء نستعرض قليلاً هذه المجموعة الجديدة من «الرسائل الموحدية» التي استأثر بها[1] كتاب المن ، فعلاوة على قيمتها التاريخية ، فإنها تعتبر بحق من أجمل الآثار الأدبية المغربية الرفيعة ، وهذه الرسائل وإن كانت في مجموعها لا تخرج عن الوصف الذي أعطاه لها صبح الأعشى[2] لكنها أحياناً تخالف القاعدة بعض المخالفة[3] ، ولقد اسهم في هذا التراث : تراث الرسائل ، عبد المؤمن نفسه وابنه أبو يعقوب ، ثم الكاتب عبد الملك بن عياش وأبو القاسم المواعيني وأحمد بن محمد والكاتب ابن مصادق[4] .

وإلى جانب هذا الأثر الأدبي المنثور يتضمن المن بالإمامة ديواناً من الشعر المتين السليم شارك فيه كل من عبد المؤمن وابن حبوس وابن سيد المالقي، وابن المنخل الشلبي وأبي العباس اللص والشاعر الطليق وأبي الحسين ابن صاحب الصلاة وأبي الوليد الشواش ، وابن المسيفر وابن ميمون واليكي وابن حربون وأبي عبد الله الشاطبي وأبي مروان بن صاحب الصلاة والمواعيني وابن طفيل

- أحمد بلا فريج عبد الجليل خليفة : الأدب الاندلسي ص 70 - 72 محمد رضا الشبيبي : أدب المغاربة والأندلسيين . دكتور جودت الركابي : في الأدب الاندلسي .

(1) نشر الأستاذ بروفنصال مجموعة رسائل موحدية عثر عليها في المغرب وأضاف إليها رسالة نقلها من صبح الأعشى للقلقشندي .

(2) يذكر القلقشندي ان الرسائل الموحدية على اسلوبين : الأول ان تفتتح المكاتبة بلفظ من فلان الى فلان ، والثاني ان تفتتح بلفظ أما بعد . أما الأول فكان الرسم في المكاتبة أن يقال : (من امير المؤمنين) ويدعي له بما يليق به ثم يؤتي بالسلام ويؤتي بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي ﷺ والترضية على أصحابه ثم على امامهم المهدي ثم يؤتي بالمقصود ويختم بالسلام ، والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وبميم الجمع عن المكتوب اليه ، هذا وكثيراً ما تذكر في صلب الرسالة الجهة التي صدرت منها كما انه كثيراً ما لا يغفل عن ذكر التاريخ . صبح الأعشى مجلد سادس ص 443 - بروفنصال : رسائل موحدية صفحة جـ . د .

(3) أنظر صفحة 10 - 15 - 198 - 201 - 251

(4) أنظر صفحة 4 - 8 - 128 - 154 - 164 - 180 - 183 - 198 - 201 - 204 - 207 - 215 - 219 - 222 - 237 - 251

وابن عياش وأبي الحكم البلنسي[1] ، وأكثر هذا «الشعر الرسمي» متأثر بالأسلوب والوزن المعروفين في المشرق على عهد أبي تمام والمتنبي ، فجلُّه من بحر الكامل والطويل والبسيط ، ومع هذا ففيه أوزان أخرى كالوافر والمتقارب والخفيف ، وجلها كذلك يدور حول الشعر السياسي والمدح وإن كان فيه كذلك - بقلة - التغزل والتشوق والهجاء ، والفرق الوحيد بين قصائد المدح لدى المتنبي مثلاً وقصائد هؤلاء الشعراء أن هؤلاء يتجنبون بداية مدائحهم بالتشبيب وذلك تأثراً بالظروف التي تعيشها «الدولة المهدية» . وقد كانت الدولة تغدق على الأدباء والشعراء والمؤرخين من أموالها وكان يخصص لهم من الجوائز السنية والهبات الجزلة ما كان يذكي من حماسهم ويقوي من نشاطهم[2] علاوة على مساهمة الحاكمين أنفسهم في النقد والتوجيه[3] ، ولكثر الأنتاج نجد أن الوقت يضيق في بعض الأحيان عن سماع الكل وأن الجوائز العظيمة تقسم على ثلاث طبقات[4] .

وإذا انتقلنا من ميدان الرسائل والقصائد الى الميادين الأخرى حول النشاط الفكري فسنجد أن الأمبراطورية كانت تنعم بسلك هام من الأطباء والصيادلة[5] والفلاسفة والفقهاء والفنانين والمهندسين والموسيقيين[6] فقد عاش ابن رشد وابن زهر وابن طفيل وأضرابهم من العلماء يترددون على المجالس سواء داخل القصر أو خارجه بل أنهم كانوا يشاركون في المغازي والحملات[7] .

(1) انظر صفحة 5 - 6 - 9 - 12 - 24 - 12 - 24 - 27 - 30 - 33 - 36 - 64 - 71 - 83 - 95 - 98 - 101 - 107 - 109 - 112 - 115 - 117 - 118 - 136 - 141 - 153 - 154 - 158 - 188 - 191 - 193 - 194 - 201 - 212 - 213 - 223 - 226 - 245 - 274 - 284 - 311 - 314

(2) صفحة 8 - 38 - 111 - 140

(3) أنظر صفحة 29 - 33 - 110 - 226

(4) صفحة 385 - 386

(5) إقرأ صفحة 45 مادة (المحمودة)

(6) كانت الطبول تضرب على المسرات وعلى الطرب كما يوجد في النص ومن غير المعقول أن تكون المسرة بمجرد نقرات هوجاء . راجع تعليق رقم 20 صفحة 24، راجع صفحات 7 - 292 - 348 من المن بالإمامة .

(7) أنظر صفحة 79 - 273 - 350 - 359 - 360

وقد كثرت المجالس العلمية على عهد الموحدين ، ومن الطريف أن نتعرف على حلقة من حلقات الدرس في ذلك العهد حيث يتلو السادة فقرات من المتن ثم يردفها الشيخ بشرح لما غمض من النصوص[1] ، وكثيراً ما نقف على أن الخليفة كان يقف بنفسه على اختيار التلاميذ وامتحانهم[2] وقد عرف المشايخ أياماً للعطلة يستروحون بها ويتخلصون من عناء الكد بحيث كان لهم يوم خاص بالنزهة والراحة[3] .

وازدهرت على هذا العهد الخزانات العلمية وكثر اقتناء الكتب وانتساخها وسواء في ذلك الخزانات الخاصة أو خزانات الدولة[4] وقد كثر كذلك الاشتغال بالتنجيم وعلم الهيئة ، الأمر الذي ينبيء عنه تلاعب الشعراء والناشرين بالعبارات الفنية الخاصة بعلم الفلك[5] ، وكانت اللغة المستعملة طبعاً كما تشهد بذلك الرسائل الديوانية وما أثر من شعر هي اللغة العربية لكن الموحدين - وهم يهيمون بايثار الفائدة العاجلة - كانوا لا يتهيبون الاستعانة باللسان الغربي - كما يسميه المؤرخون القدامى - من أجل إفهام القوم في الوقت المناسب بما يروج في الدنيا[6] . .

وكان من رأي الموحدين - على العموم - ان لا يحجروا على الناس في تفكيرهم ، ولذلك فقد ازدهرت الفلسفة وارتفعت رؤوس المفكرين في كل

(1) انظر صفحة 85

(2) أنظر صفحة 146 .

(3) راجع صفحة 152-153 .

(4) ص 152 - وص 335 . محمد العابد الفاسي : الخزانة العلمية المغرب ص 12 .

(5) ص 18 - 97 - 135 - 185 - 192 - 209 - 212 - 336

(6) يخيل الي أنهم كانوا يعيشون تقريباً نفس الظروف التي نعيشها نحن في مشروعات التعريب ، فإننا عوض ما ننتظر تعلم الناس كلمة « الهاتف » لا بد أن نتقبل كلمة التليفون . . وهكذا فإن الموحدين وجلهم كما أسلفنا مجند ، كان من غير اللائق ان يخاطبوا في ساحات الوغى او في مقامات الجد بلغة لم يتعلموها بعد ، فكان استعمال اللسان البزبري اذن بوحي من إرادة الفائدة العاجلة . انظر صفحة 143 - 357

زاوية[1] ، بل إن افقهم كان لا يضيق عن سماع النقد[2] ، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلوا رجال الفكر والعلم ، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون ، ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات والظهائر السامية[3] .

الازدهار الاقتصادي والمعماري :

والمتتبع للكتاب سيمكنه أن يقف على المنشآت الاقتصادية على العهد الموحدي ، وإن في أول ما نقرأه في هذا السفر الثاني الوصف الدقيق والفريد كذلك لمدينة جبل طارق التي كانت مضرب المثل وفاقت كما يقول ابن صاحب الصلاة قصور الخورنق والسدير ، لقد تضافرت عليه جهود المهندسين المعماريين سواء منهم من ورد من المغرب أو الأندلس كالحاج يعيش وبُراز ، ابن باسة[4] ، واستنفروا جميع العملة من البنائين والنجارين والعرفاء والاختصاصيين في الغراسة ، وهكذا أمسى الجبل بعد بضعة شهور فقط جنة فيحاء تشتمل على « جميع الفواكه » : التين ، والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والإجاص والأترج والموز وغير ذلك الى ماء عذب زلال سلسال » . لكن الذي يلفت النظر أكثر من كل هذا إن المهندس الحاج يعيش « صنع في أعلى الجبل رحى تسير بالهواء لطحن الأقوات فأعطى بذلك مظهراً من مظاهر النهضة الميكانيكية[5] ، وبعد جبل طارق كان بناء مدينة « المهدية »[6] (رباط الفتح) وما تزال آثارها الى الآن شاهدة بعظمة الموحدين واستطاعوا أن يجلبوا اليها الماء من مكان بعيد حتى تتوفر فيها شروط الراحة وزودوا المدينة بقنطرة هامة ربطت الصلة بينها وبين

(1) ظل كل من ابن رشد وابن زهر وابن طفيل متنقلاً بين الاندلس وفاس ومراكش وظلوا في مجلس الخليفة يثيرون اسمى النظرات وأدق المشاكل . المعجب طبعة القاهرة ص 242 . الدكتور محمد عزيز الحبابي : مفكرو الاسلام ص 186 , 187

(2) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ص 351

(3) صفحات 257 - 288 - 375

(4) Dr . Renaud : Les Ibn Baso p.1 , **Hespéris . Tome XXIV, Année 1937**

(5) صفحة 18 - 19 .

(6) صفحة 305

مدينة سلا ، أما مراكش العاصمة فقد نالت من عنايتهم الشيء الكثير نظراً لكون الاستقبالات و « التمييزات » الرسمية كانت تجري في قصر دار الحجر ، والمدينة الثانية وفي البحيرات التي كانت تسع أزيد من ثلاثة آلاف[1] . وفي الأندلس أعادوا الحياة من جديد إلى مدينة قرطبة وجندوا البنائين والفعلة لبنيان قصورها ودورها[2] ، ثم اتجهوا نحو أشبيلية فشيدوا فيها معالمهم الأثرية التي طبقت شهرتها الآفاق ، فالقصور الموحدية هناك ، والجسر العظيم ذو القنطرة العظيمة الهندسة الممسوكة بالمراكز والتي كانت تربط بين المدينة وقرية الشرف المجاورة لها ، وقصبة أشبيلية الداخلية « والبرانية » وبناء الأسواق المختلفة كل هذا نقرأ عنها الكثير في المخطوط[3] ، لكن المعلومات التي انفرد بها ابن صاحب الصلاة بحق هي المعلومات الدقيقة المتعلقة بالمسجد العظيم باشبيلية بما تحتويه من منبر ومقصورة[4] وصومعة فلقد ظل مجهولاً اسم ابن باسة المهندس العربي الذي أشرف على بناء المنارة ذات السمعة العالمية حتى كشفت عنه صفحات المن بالإمامة ، وظل مجهولاً كذلك أن مدينة فاس ومراكش اسهمت كل منها في بناء جامع أشبيلية .

وبصرف النظر عن مبانيهم وصناعة الغراسة[5] وتسريب الماء وبناء[6]

(1) صفحة 143 - 209 - 294

(2) صفحة 64 - 65 - 66 - 68

(3) ص 89 - 90 - 91 - 318 - 320 - 336 - 337 - 340

(4) لم يتحدث المؤرخون عن وصف المقصورة ومن المؤكد انها كانت على نحو المقصورة بالمغرب التي كانت تسع نحو الف شخص وكانت تتحرك بواسطة عجلات تثبت في أسفلها وقد صنعت هذه العجلات بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت بل تدور جميعها في أتم سكون ونظمت المحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعها في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين الى المسجد وكانت المقصورة تبرز من جانب ويبرز المنبر من الجانب الثاني وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس امير المؤمنين . . .
المن بالإمامة ص 333 - 336 المنوني ص107 .

(5) جاء في أحد المقاطع : انهم جلبوا من أنواع الزيتون المختارة من الألوان نحواً من عشرة آلاف وغرست على نسق عاماً بعد عام .

(6) انظر صفحة 18 - 90 - 224 - 253 - 306 - 307 - 332 .

الخزانات لديهم ، نراهم يهتمون اهتماماً عظيماً بالأسطول ، فالموجدون وهم مضطرون للاتصال كل لحظة وحين لربط الصلة بين أفريقية والأندلس ونقل المئات من الجند بين الفترة والأخرى ، ولهذا فإن الكتاب يصور القوة البحرية الهائلة التي كان ينعم بها المغرب في العصور الوسطى ، لقد كانت « القطائع » من مختلف الضروب والأشكال ، وفيها الغراب الطيار وفيها المراكب الثقيلة ، ونتيجة لهذا كانت المصانع منتشرة في كل جهة من جهات المغرب والأندلس[1] وتمت ناحية تشهد حقيقة بحرصهم على العمل على ازدهار الحركة في بلادهم فبالإضافة الى شبكة الطرق التي تضمن المواصلات بين مختلف أجزاء الأمبراطورية في ظروف يسيرة[2]، وبالإضافة إلى عمليات الاحصاء[3] التي أعتادوها لكل مدينة وقرية ، بالإضافة الى ذلك فقد ضمنوا البريد بشكل بديع وسريع معاً وفي الليل والنهار كذلك وفي البر والبحار[4] ، وإذا كان ابن صاحب الصلاة اكتفى بالإشارة الى القانون الذي يحدد مسؤولية المكلفين بالبريد فإننا نعلم ان الدولة كانت تتحرى جداً في إختيار هؤلاء « الرقاصين » وكانت تمنع عليهم منعاً باتاً الإساءة الى سمعة وظيفتهم الذي يعتبر من أشرف الوظائف[5] .

ولكثرة ما عم الرخاء مرافق الحياة نرى بأن القواعد الحربية الكبرى كقاعدة المعمورة مثلاً تتوفر على جميع ما يمكن ان تحتاج اليه الأساطيل المغربية بل إن المواد الغذائية المخزونة فيها قد تفي دون الحاجة اليها[6] . ويمكنك أن تلاحظ الترف الذي كانت تعيشه البلاد عندما تقرأ عن وصف المصحف العثماني وما

(1) أنظر صفحة - 19 - 20 - 40 - 106 - 110 - 147 - 337

(2) ص 302 - 303 - 304

(3) صفحة 363

(4) كان الرقاص يأخذ مركبه من مدينة بجاية سابحاً في البحر فيخرج في المدينة « في أقرب تاريخ دون تعب في مرساه » وربما كان هناك رقاص استثنائي لحمل الأشياء الهامة ، فقد قطع هذا الرقاص في ظرف 30 ساعة المسافة بين كركوي (جنوب طليطلة) وإشبيلية . انظر صفحة 9 - 10 - 52 .

(5) يشير ابن صاحب الصلاة الى رسالة موحدية هامة كان في جملة ما عالجته قضية الرقاصين ، وقد وقفت على نص الرسالة في نظم الجمان لابن القطان بين ورقة 56 (ب) و65 (أ) أنظر المن بالإمامة.ص 161 .

(6) أنظر صفحة 75 - 209

احتواه من جوهر نفيس وزمرد وياقوت أحمر وأصفر وأخضر [1] .

وقد كان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي ، وربما أستعمل المثقال الذي له نفس وزن الدينار ، وأستعملت الأوقية التي لها نفس وزن الدرهم[2] ، وإن أهم ما يعطي فكرة عن الرخاء الذي كان يعم البلاد أن نقرأ أن « البركة » التي نفح بها الجنود ذات يوم فاقت بكثير مليارا من الفرنكات المغربية الحالية [3] .

الحياة الدينية :

وفي كل فصل من فصول الكتاب تشعر بالروح الدينية التي كانت تهيمن على دولة « الطلبة » فهم جميعهم يقومون بالشعائر الدينية في وقتها المعين ، لا يمنعهم سفر أو غزو[4] واعتادوا منذ الأيام الأولى ان يوزعوا القرآن أحزاباً ليقرأوا منه يومياً حصة معينة[5] ، وقد قاموا في كل مكان بتشييد المؤسسات الدينية وترددت كثيراً الألفاظ التي تقترن عادة بشعائر الحج الأمر الذي يدل على امتزاج العقيدة بالناس[6] ولكن فكرة التقشف التي ظهر بها الموحدون أول الأمر والتي أضطرت علماء فاس لطمس معالم المرابطين في جامع القرويين[7] ، ذهبت بموت المهدي ، وأمست المساجد آية من آيات الفن المعماري لا يترددون في الإنفاق على ذلك مهما كان الثمن ، وقد عهدوا بالإشراف على فنون جامع أشبيلية للطبيب ابن زهر[8] ، كما أنهم جملوا بعض المساجد بالنواقيس التي غنموها في

(1) أنظر صفحة 301
(2) 299 - 339 - 363 - 374 - 367
(3) راجع التعليق رقم 16 ص 24 من المقدمة .
(4) صفحة 43 - 87 - 280 - 341 - 353 - 325
(5) أنظر صفحة 88 - 349
(6) أنظر صفحة 117 - 120 - 141 - 191 - 195 - 210 - 211
(7) يذكر ابن أبي زرع ان فقهاء فاس خافوا من انتقاد الموحدين على النقش والزخرف الذي يوجد فوق محراب جامع القرويين ولذلك فإنهم طمسوا معالمه . ابن أبي زرع : الانيس المطرب طبعة الرباط أول ص 87 التازي : تاريخ جامع القرويين طبعة بيروت 1972، 3 مجلدات .
(8) صفحة 338 من المن بالإمامة .

بعض حروبهم بعد أن أدخلوا عليها بعض التحويرات الفنية[1] ، وكتاب المن وثيقة تنفع المهتمين بتاريخ التشريع الإسلامي ، فإذا كنا لم نجد أثراً لذكر إحراق كتب الفروع ، فإننا نقف ، على أن الموحدين كانوا لا يأبهون إلا بالكتابين : القرآن والسنة[2] ، وقد كانت العلوم الدينية التي يزاولها الطلبة على ذلك العهد في أنحاء الأمبراطورية علاوة على علوم المهدي : عقيدة التوحيد ، وكتاب الطهارة وأعز ما يطلب[3] ، بالإضافة الى ذلك يدرس علم الأصول بما فيه الناسخ والمنسوخ [4] وعلوم القراءات[5] وعلوم الحديث[6] وكتاب الموطأ للإمام[7] مالك ، وكتب الفقه بما فيها فصول المعاملات والدماء[8] ، ومذاهب الأئمة بمنطوقها ومفهومها[9] ، هذا طبعاً الى كتب الأدب[10] العربي التي يعتبرونها المفتاح الحقيقي لمعرفة أسرار كتاب الله ، وبهذا يتأكد أن الدولة كانت حريصة على إشاعة الثقافة الدينية بمعناها الصحيح ، وقد ظلت « العصمة المهدية »[11] مسيطرة في كل الرسائل الرسمية التي توجه بها الحكام لأطراف البلاد . وقد حرص الموحدون حتى في تصرفاتهم السياسية على أن يظلوا دائماً مقتدين بعمل السلف الصالح ولذلك نراهم عندما يقررون تسمية الخليفة بأمير المؤمنين برروا

(1) يذكر بعض المؤرخين ان « النواقيس » التي توجد بجامع القرويين حمل بعضها بنو مرين لكنا على مثل اليقين من أن بعضها منذ أيام الموحدين .
ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص 43 - 46
التازي : القرويين في أحد عشر قرناً طبعة فضالة 1960 فضالة 18 - 19 - 20
(2) أثر عن الحافظ ابن الجد ان ابا يعقوب قال له : « ليس إلا هذا وهذا أو السيف » يعني القرآن والسنة وإلا السيف . المعجب : طبعة القاهرة ص 279 ـ الاستقصا ثان ص 112
(3) أقرأ صفحة 85 المن بالإمامة
(4) صفحة 88 - 99
(5) صفحة 88 - 152
(6) صفحة 99
(7) صفحة 156
(8) صفحة 159
(9) صفحة 257
(10) صفحة 152
(11) انظر صفحة 61 - 201 - 204 - 207 - 220

ذلك بأنه عمل كان اقتداءً بصنيع عمر بن الخطاب(1) .

وإظهاراً منهم لاحترام الدين وتقديسه نجد أن كل المراسيم التي تصدر عن الدولة لا بد لكي تأخذ طريق التنفيذ ان تتلى على منابر المساجد وبين أساطينها(2) ، وكانت حدود الله تقام على العابثين والمخالفين فقد كانوا يتشددون في ضرب أهل الفسق ، وكانوا يعتبرون الخمور مما يتأذى به ويتشكى(3) منه ، وقد كان الفقهاء رجال دين وعمل معاً وهي ظاهرة ممتازة نلاحظها عندما نقرأ أن الفقهاء كانوا يشرفون بانفسهم على التكسير والفلاحة والمساحة(4) ، ولكثرة ما سيطرت الروحيات عليهم نرى أن القادة كانوا لا يأتون عملاً مهما إلا بعد أن يقوموا بشعار الاستخارة(5) المأثور في سنة الرسول ، ومع كل هذا فإننا نلاحظ أن «الفكرة» التي دشن بها المهدي دولته أخذت سورتها تقل مع الزمان فالخليفة يستطيب إهداء الجواري الكعاب والسراري ذوات الحسن والشباب(6) ، والنساء اللاتي كن في مذهب المهدي ملازمات لعقر البيت أمسين « يبدين اصواتهن بالفرح وينطقن بألسنتهن بكل لفظ منشرح »(7) .

* * *

إن كتاب المن بالإمامة يضيف إلى مصادر التاريخ الموحدي القليلة والقليلة جداً مادة خصبة ثرية ، فإلى جانب أخبار المهدي للبيذق و « رسائل موحدية » وكتاب الاستبصار ، ونظم الجمان لابن القطان ، والمعجب للمراكشي والبيان المغرب لابن عذاري . . الى جانب كل هذا نستطيع ان نعد هذا المجلد الثاني في أبرز الوثائق التي تتحدث عن التاريخ الموحدي حديث معاينة ومشاهدة . .

(1) صفحة 199-202.

(2) صفحة 148

(3) انظر صفحة 40 - 41 - 87 - 281

(4) انظر صفحة س، 321.

(5) انظر صفحة 261.

(6) راجع صفحة 373

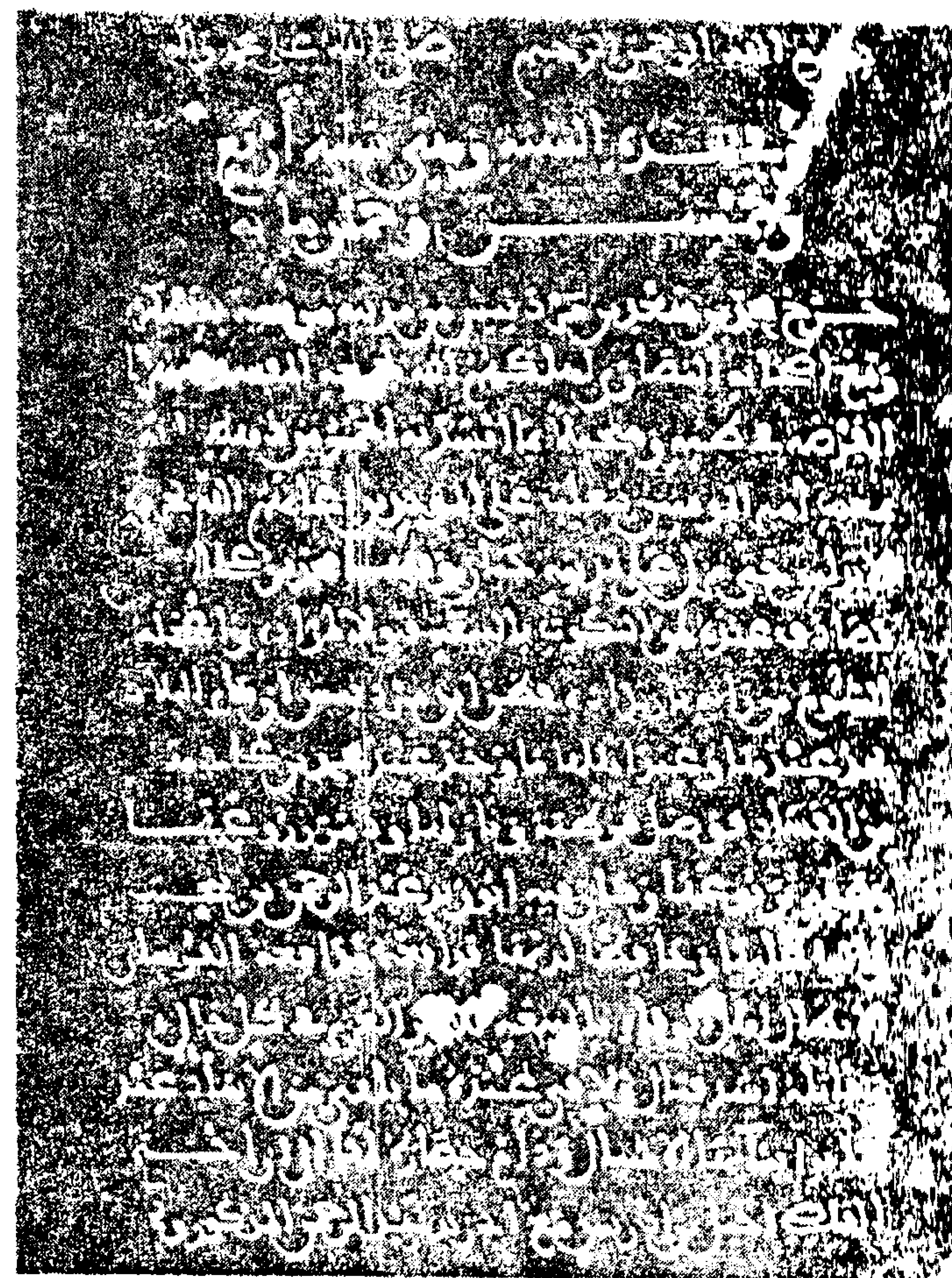
(7) راجع صفحة 514 .

فلعل نشره اليوم يكون عاملاً على استكمال العناصر لبحث المدرسة الموحدية وعاملاً في الوقت نفسه على سد الفراغ الذي شعرنا به في بعض النواحي ، ولعل هواة التاريخ ، وهواة الآثار ، وهواة الشعر والترسل يجدون فيه ما كنا نؤمل أن يجدوا فيه من المتعة . إن هذا هو الرجاء الذي كان سلوتنا في الانقطاع الى تحقيقه وجعله في متناول المهتمين بالتاريخ .

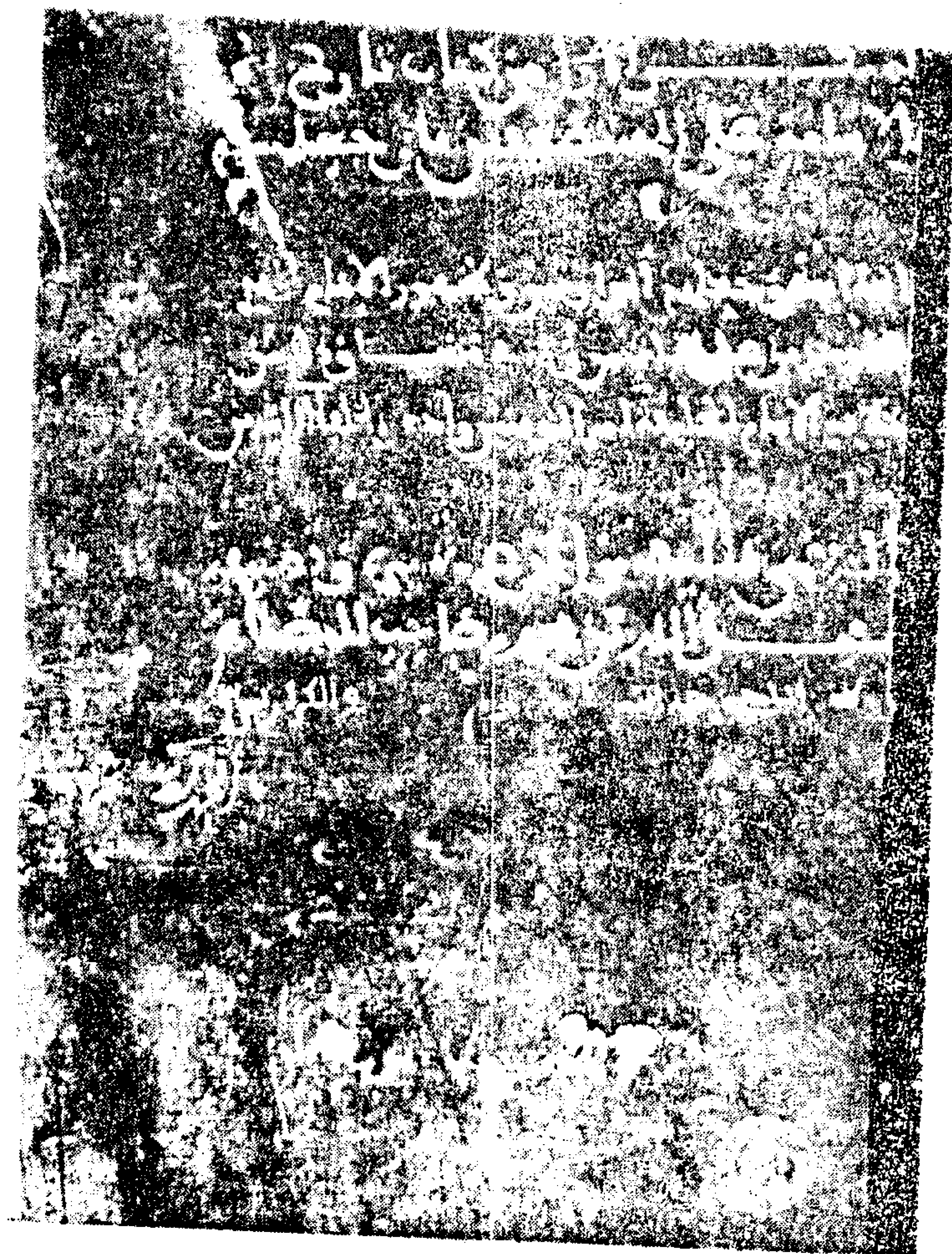
السفر الثاني من كتاب

تاريخ المن بالامامة على المستضعفين
بان جعلهم الله ائمة وجعلهم الوارثين،
وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملثمين
وما في مساق ذلك من خلافة الامام
الخليفة امير المومنين وآخر الخلفاء الراشدين

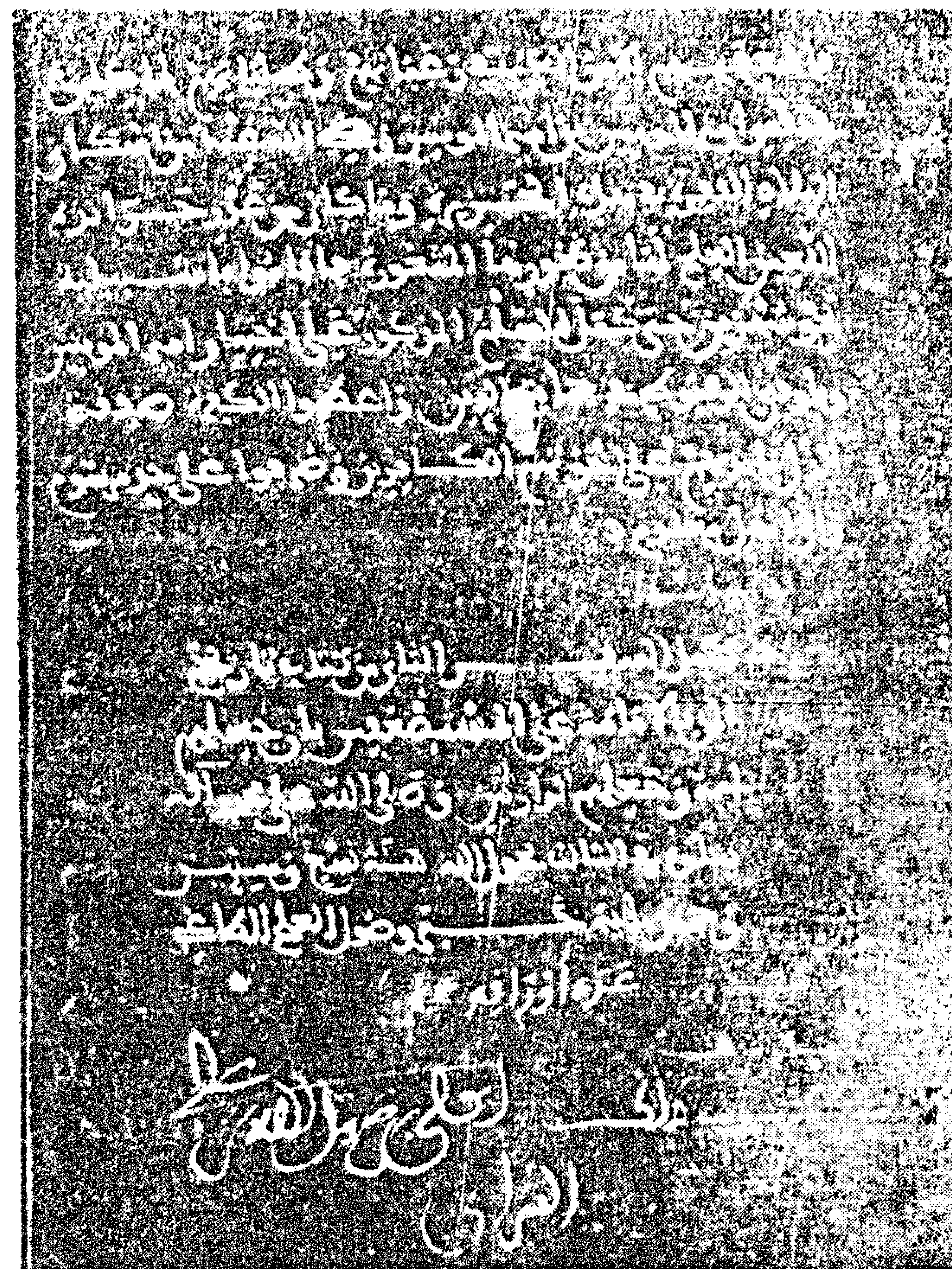
انهى تاليفه وابدع تحبيره وتصنيفه
عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي
رحمه الله



الصفحة الأولى من المخطوط



صورة لعنوان الكتاب



الصفحة الاخيرة من المخطوط

NCS/GH

DEPARTMENT OF ORIENTAL BOOKS
BODLEIAN LIBRARY
OXFORD

25 April, 1963.

Dear Sir,

I am sorry not to have replied earlier to your letter of 21 March 1963 in reference to MS. Marsh 433, of which you obtained photographs from us some time ago.

We gladly give you permission to use this manuscript for your forthcoming edition of the work. We should, however, be very grateful if you would refer to it in your edition by the full reference MS. Marsh 433. You should also at some suitable point in the edition make acknowledgments to the Curators of the Bodleian Library.

We look forward to receiving from you in due course the copies of the publication which you promise us.

Yours truly,

N.C. Sainsbury

Keeper of Oriental Books

Monsieur Tazi Abdelhadi,
Chef division Affaires Culturelles,
Le Ministre de l'Education Nationale,
RABAT,
Morocco.

صورة إذن مكتبة البودليان (اوكسفورد) بالنشر

تنبيـــه

الارقام التي سترد بارزة، وبيـــن حاصرتين [ ] ابتداء من صفحة 65 تشير لرقم ورقات المخطوط في الأصل. وقد نحيل عليها في التعاليق.

[2] بسم الله الرّحمن الرّحيم صلّى الله على محمّد وآله

(منازلة ابن مردنيش لمدينة جيان ومحاصرته لقرطبة سنة 554)

وفي هـذه السنة وهي سنـة أربع وخمسين وخمسمـائة خـرج محمـد بن سعد بن مردنيش(1) من مدينة مرسية(2) بعسكره ومع أصحابه النصـارى أهلكهم الله بجيشـه المفسد منتهـزاً الفرصـة في ظنه ومتخيـلاً بما أفسـدتـه الخمـر من ذهنه، أنه بمغيب(3) أمير المؤمنين يتغلب على الموحدين ـ أعانهم الله ـ بجزيرة

(1) أحد الثائرين الذين ظهروا بالأندلس في أعقاب دولة المرابطين ممن لم يترددوا في طلب العون من المسيحيين ضد الموحدين، وقد أنكر بعض الباحثين نسبه في العرب وأرجعوه لأصل اسباني ذاكرين أن جده الأعلى (مردنيش) محرف عن: Martinez. وتسميه المراجع النصرانية بالملك لوبو El Rey Lobo وقد منحه البابا لقب «صاحب الذكر الحميد»، توفي سنة 567 ـ ابن الابار، الحلة السيراء ص 220 ـ ابن الخطيب، أعمال الاعلام، نشر بروفنصال، طبعة لبنان 1954 ص 259.

Dozy: **Recherches sur l'Histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, T. I 198, page 365 - 66.**

Melchor - Antuna: **Campanas de los Almohades en Espana, Fasc. I (Religion y cultura)**P. 13, Note 5.

(2) مرسية (Murcia) بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة 216 لا تبعد إلا يسيراً عن شاطىء المتوسط شمال قرطاجنة تبعد عنها بـ 48 ك.م.

الحميري: الروض المعطار، نشر بروفنصال - 1937 طبعة القاهرة ص 181-182-183.

شكيب ارسلان ـ الحلل السندسية؛ جزء ثالث، طبعة 1936، ص 533.

(3) تحرك عبد المؤمن من حضرة مراكش في أول شوال من سنة 553 متجهاً نحو رباط الفتح، وبعد أن نظم الأحوال تحرك من سلا في العاشر من شهر صفر من عام أربعة وخمسين وخمسمائة قاصداً المهدية وطرابلس بإفريقية ليفكهما من جَوْرِ روجي الثاني أو عاليالم الذي حاول أن يخلق جواً من العداء بين طرابلس وعبد المؤمن الموحدي. أنظر رحلة الحشائشي ص 36. ابن غلبون:=

الأندلس حتى نزل على مدينة (جيان[1])، وفيها محمد بن علي الكومي [2]، فصادف عنده من النكوث بالبيعة قبولاً لمراده، وأعجله الشؤم من رأيه بارتداده، فظن ابن مردنيش أن سائر البلاد يجد عندها وعند أهلها ما وجد عند محمد بن علي في هذه من الفساد، فوصل قرطبة[3] ونازلها ودمَّر زروعها، وعفَّى ربوعها، وكان فيه[4] أبو زيد عبد الرحمن بن تيجيت [5] والياً عليها، وحافظاً لديها، فدافعه مدافعة الفرسان الأبطال، أهل الوفاء بالبيعة للأمر العزيز في كل حال، وقاتله أشد قتال، ولاقى عنده ما يلقى من الآساد عند حماية أبنائها الأشبال.

= التذكار فيمَن ملك طرابلس من الأخيار، ص 58. ابن عذاري: البيان المغرب في اختِصَار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (من مخطوطات وزارة الأوقاف) الخزانة العامة، الرباط ـ مسجل تحت رقم ق: - 200 ص 19-20. وهذا المخطوط ماثل الآن للطبع في معهد الأمير مولاي الحسن بن المهدي بتطوان، وذلك بعناية المستشرق الاسباني السيد امبروسيو ويسي ميراندا ومساهمة الأستاذين محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني.

(1) جيان (Jaen) تقع شرقي قرطبة على بعد 108ك.م منها، من علمائها أبو ذر الخشني أحد رجالات جامع القرويين.
ابن أبي زرع، القرطاس نشر الهاشمي الفيلالي ـ الرباط 1936. الحميري؛ الروض المعطار - 70 .72-71

(2) تتضافر المصادر على أن محمداً بن علي الكومي كان والياً على مدينة جيان ولكنها لم تشر لتاريخ توليه هذا المنصب.
ابن عذاري: البيان المغرب ص 22 ـ ابن خلدون، المجلد السادس طبعة بيروت 1959.
الناصري: الاستقصاء، طبعة دار الكتاب بالدار البيضاء سنة - 2 - 1954 ص 126.

(3) قرطبة (Cordoba) قاعدة بلاد الأندلس وتمتاز بجامعها الشهير، تقع شرقي مدينة اشبيلية على بعد 138 ك.م.
الحميري: الروض المعطار من صفحة 153 لى 158.

(4) كذا يوجد في الأصل ويظهر أن الصواب (فيها) وفي ابن عذاري (بها) أنظر: البيان المغرب ص 22.

(5) بعض المصادر تكتبه هكذا: ابن بكيت؛ وبعضها ابن يكيت، وبعضها يخيت، وقد عينه والياً على قرطبة عبد المؤمن سنة 550، وتيجيت كلمة بربرية معناها شجرة صغيرة.
ابن عذاري: البيان المغرب ص 11 ـ ابن خلدون - 492:6 الناصري: الاستقصا. ثان. ص 110 - 126.

(التحيـل لاقصاء ابن مردنيش عن قرطبة ومقامه على أبواب اشبيلية)

ودام حصاره لها، إلى أن اجتمع القاضي أخيل بن إدريس[1] مع أبي زيد عبد الرحمن المذكور وتحيل[2] [3] بحيلة من حيل الحرب وكتبا كتاباً على لسان **سيد راي بن وزير[3] من اشبيلية**[4] ودفعاه لرجل زيات على ثيابه أثر الزيت، وكان الرجل من خَوَل القاضي، فأمره أن يغير لباسه كأنه زيات من أهل الشرف [5]، ويسير بالكتاب إلى ابن مردنيش بمحلته ويدفعه له. وفي الكتاب من ابن وزير فصلٌ مستفعل عليه مكتوب أن يعجل بالإقلاع عن قرطبة ويسير إلى اشبيلية فهو ضامن له دخولها، فحين قرأ الكتاب ابن مردنيش أمر بالإقلاع والإسراع، واتفق من قدر الله تعالى أن الموحدين ـ أعانهم الله ـ كانوا

(1) ممن كتب للملثمين وقد اتصل بعد بالوزير ابن عطية فكانت له وظيفة مع الموحدين انظر ص - 82 83 من (المن بالامامة) ـ الحلة السيراء 222. المقري: نفح الطيب، طبعة 1949 خامس ص 19.
الزركلي: الاعلام 1:265.

(2) هناك كشط في المخطوط والأصل: تحيلا، ابن عذاري، البيان المغرب ص 22.

(3) يكنى أبا محمد وهو من الرواة الذين اعتمدهم ابن صاحب الصلاة مراراً، وممن لهم خطوة سامية في العصر الموحدي، كان من أشياخ الثوار في الأندلس، ثم سكن مراكش، وقد حضر عدة غزوات وذهب في سفارة فرنانده البيوج وكان يجيد اللسان العجمي. وبعض المصادر تكتب اسمه هكذا (سيداري) و(سيدارن) باللهجة البربرية معناها: على رجليه. أنظر ص 263 من متن ابن صاحب الصلاة، الحلة السيراء ص 202-239 ، أشباخ: تاريخ الأندلس ص 207، الاستقصا. الجزء ص 107.
وعلى بعد ثلاثة كيلومترات شرق مدينة باجة يوجد جبل «سيداري» ويبدو أن هذا أثر لا جدال فيه لسكنى سيداري، وذلك على ما يرى العالم البرتغالي مارتيم فولحو (Martin Velho) في الإفادة الخاصة التي أدلى لنا بها مشكوراً بمناسبة زيارتي الأخيرة للبرتغال.

(4) اشبيلية (Sevilla) تقع جنوب غربي قرطبة بينهما 138ك.م، مدينة أزلية ظلت محل عناية من الفاتحين وخاصة بني عبد المؤمن. الحميري، الروض المعطار من صفحة 18 إلى 22.

(5) الشَّرف (Aljarfe) يقع في الشمال الغربي من اشبيلية على بعد ثلاثة أميال منها ويعرف بزيته الشهير، ويسمى كذلك لأنه مشرف على ناحية اشبيلية. الشريف الادريسي، نزهة المشتاق، طبعة ليدن 1864 ص 173-178. الحميري، الروض المعطار ص 101-102. المقري، النفح، طبعة 1949 جزء 1 ص 103-150-160. علي نصوح الطاهر: شجر الزيتون، طبعة 1947 ص - 11 .165-164-12

قد وجّهوا جاسوساً إلى المحلة من اشبيلية فحين علم الخبر، وشاع وانتشر، رجع من ليلته إلى اشبيلية وأعلم بإقلاع المحلة وبخبر كتاب ابن وزير الذي سمع. فصدقوه، وتغيّروا على ابن وزير وسجنوه، فوصل ابن مردنيش بجمعه ونزل على مقربة من أشبيليّة بالموضع المعروف بألفونت[1] على ميلٍ منها وقاتلها ببعضٍ من أجناده حتى وصل إلىُ باب قرمونة [2]، وأقام على اشبيلية ثلاثة أيام، فلما لم يرَ شيئاً مما كان في الكتاب علم أنها خدعة وأقلع خاسراً، وقد شرحت هذا الخبر في (تاريخ المريدين[3]) ولقيت اشبيلية عظيم الخطب، وجماع الرعب، وحل بها وبأهلها كرب وحرب، وضبطها السيد[4] الأعلى ابو يعقوب [4] - رضي الله عنه - بسعده. وحزمه وجده وعلو جده وبمن كان عنده من حفاظ[5] الموحدين الكبراء وطلبتهم أعزهم الله وبالأجناد الأولياء

---

(1) الفونت (Al-Funt) على ميل شرقي اشبيلية وقد روى ابن الابار عن بعض أصحابه أنه قال: رايت منقوشاً في حجر الفونت من خارج اشبيلية:

حَلف الجودُ يا سُلَيمى وأقسَم ... ما فتاه سوى الوزير أبي أرقم
عاش ما عاش ثم مَات جميداً ... رحِم الله مَن عليه ترحَّمْ

التكملة، نشر بيل وابن ابي شنب.
Ambrosio Huici Miranda: **Historia Politica del Imperio Almohade,** 1957, page. 196.

(2) باب قرمونة (La puerta de Carmona) تقع في الجنوب الشرقي من اشبيلية في اتجاه مدينة قرمونة.

(3) هذا كتاب آخر لابن صاحب الصلاة ورد ذكره مراراً، وقد أغفل الناسخ في هذا الموضع تنقيط الحرف الذي يلي الراء فاحتمل الياء والتاء لكنه في المواضع التالية: ص 20-54-230-271 وضّح الياء، والكتاب في المرة الأخيرة ورد باسم ثورة المريدين. راجع المقدمة حول هذا الكتاب.

(4) كان بنو عبد المؤمن يُسّمون بالسادة، وقد عين أبو يعقوب والياً على مدينة اشبيلية سنة إحدى وخمسين وخمسمائة باقتراح من القاضي ابن الجدّ الذي ورد على الحضرة العلية ضمن شيوخ اشبيلية. ابن عذاري: ص 13-14 المقري: نفح الطيب طبعة مصر 1949-1-420. الناصري: الاستقصاء 2-100.

(5) امتاز نظام الموحدين منذ ظهور المهدي، بارتكازه على (وحدات) معينة، تأخذ كل منها ترتيباً خاصاً، والظاهر أن هذه الطبقات تزايدت وتنوعت بحسب الحاجة والزمن، وقد تعرضت جل مصادر التاريخ الموحدي لهاته الأصناف وتعدادها. بما في ذلك كتاب البيذق، والمعجب للمراكشي، والقرطاس، ونظم الجمان. وكتاب العبر، والحلل الموشية، ورقم الحلل إلى آخره... إلا أن هذه المصادر تختلف قليلاً حول الترتيب المعروف لهاته الفئات وعددها ونوعها. فالبيذق مثلاً =

المُحبين كأبي العلاء بن عزون[1] وأصحابه وكأبي بكر الغافقي[2] وأشياخ

= يكتفي بذكر (أهل الدار): دار المهدي، وأهل الخمسين، الذين هم في عداد صحابته الأولين من أهل القبائل التي تسارعت إلى الاستجابة لدعوته: هرغة وتينملل وهنتاته وجدميوه، كما يذكر عبيد المخزن والحفاظ وأهل الحزب...

بينما تولى المراكشي الحديث عن (العشرة) الذين يسمون بأهل الجماعة، ثم طبقة أهل الخمسين الذين يسميهم ابن خلدون آيت الخمسين، وذكر المراكشي أن الموحدين خصوا العلماء المستجلبين باسم طلبة الحضر، كما أطلقوا على علماء المصامدة طلبة الموحدين. وإن هؤلاء الطلبة هم (الأشياخ) بالذات، وقد أعطى ابن القطان تفسيرات لبعض مهمة الطبقات الموحدية، حيث ذكر أن أهل الدار يختصون بالخليفة في ليله ونهاره، كما ذكر ابن الخطيب في رقم الحلل أن أهل الجماعة كان يخصهم للتفاوض والتشاور، والطلبة والحفاظ لحمل العلم والتلقي، وأهل القبائل لمدافعة العدو.

هذا وورد في الحلل الموشية ذكر (أهل سبعين) نقلاً عن ابن اليسع، وقد أنكر وجود هذه الطبقة ابن القطان في نظم الجمان، ذاكراً أنه لا يعرف غير العشرة وأهل الخمسين، ويؤيد هذا خلو البيذق، وابن صاحب الصلاة، وابن خلدون مثلاً من ذكر السبعين. وتتميماً للحديث نشير إلى أن بعض الكتب المذكورة لا تخلو من اضطراب عند محاولة استقصاء عدد الخمسين مثلاً. فقد لا يتجاوز المعدود في بعضها تسعة وثلاثين وقد يتجاوز الخمسة والخمسين.

البيذق: أخبار المهدي بن تومرت، نشر بروفنصال صفحة 29-32-33-34-35.
المراكشي: المعجب طبعة القاهرة سنة 1949 صفحة 188-342.
ابن القطان: نظم الجمان (مخطوط) نشر الدكتور محمود علي مكي، وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد بمساعدة المعهد الجامعي للبحث العلمي الرباط.
ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، طبعة الرباط صفحة 113-114-116.
ابن خلدون: العبر، طبعة بيروت، الجزء السادس صفحة 470.
الحلل الموشية: نشر الأستاذ علوش: الرباط 1936 صفحة 87-88-89.
ابن الخطيب: رقم الحلل في نظم الدول صفحة 57.
الناصري: الاستقصاء صفحة 86.
Basset et Terrasse: Sanctuaires et foteresses. Almohades. Hespéris, t. IV, 1924, p.26 - 27 - 28.

(1) شيخ الرؤساء بالأندلس والمستشار الناصح لعبد المؤمن ولابنه من بعده، وقد انتدب لعدة مهمات اذْ كان ينعت بناصح الدولة المهدية، وقد حضر غزوة (وبذة) مع الخليفة أبي يعقوب وهو من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة. أنظر ص 351 من كتاب (المن بالامامة).

(2) هو قاضي مدينة اشبيلية من الذين كان يعتمدهم أيضاً عبد المؤمن وقد كان في صدر الذين يدخلون عليه، وقد كان من أهل العلم والنباهة، وكان أحد الوافدين على الخليفة سنة 555 وقد ولي بعده قضاء اشبيلية أبو القاسم الحوفي. توفي في نحو السبعين وخمسمائة. التكملة - العطار رقم 192.

اشبيلية، وأعيانها المحبين المخلصين لهذا الأمر العزيز، يسمرون طول ليلهم على الأسوار ويثقفون أبواب المدينة بالثقاف طول النهار ويتعوذ الجار من شر الجار، وساء ظن الموحدين - أعانهم الله - بالناس فسجن منهم من اتهم، وأمضى السيف والنكال على من صح عليه أنه غش الأمر وأجرم، وسلم من لازم الطاعة واستسلم، ودام ذلك كله حتى طلع الفجر الصادق بالفتوح والبشار بكل جذل، فجذع أنف الكفر وأرغم بالكتب الواردة عليه بالفتوح المتصلة المتناسقة المشتملة فمنها:

ذكر ورود الكتابين العزيزين المبشّرين بالفتوح الماضية والمستقبلة

الواحد منها مؤرخ بالثاني من ذي الحجة من عام أربعة وخمسين بظاهر المهدية[1] يعلم فيه بكل سرور[2] وجذل، ومنال إقبال وأمل والكتاب الثاني، الجامع لجميع أشْتات [5] الفتوح والأماني، مبشراً بفتح[3] مدينة المهدية في يوم عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة، وتاريخه بيوم عاشوراء.

قال الراوية [4]: ولما فتح الله تعالى مدينة المهدية بتيسيره الغريب،

(1) منسوبة إلى عبيد الله المهدي الذي بناها على شاطىء شرقي القيروان سنة 300 (916م) وكانت تسمى جزيرة الفاو: وفيها يقول الشاعر ابن حبوس الفاسي في الخليفة الموحدي:

بطالع الأسد اختطّ البناء بها … لكنك الأسد الدامي الأظافير
باب حديد وأبراج ثمانية … تسخر العقل فيه أي تسخير

البكري: المسالك والممالك ص 29. نشر البارون دوسلان، الجزائر 1857.
الاستبصار في عجائب الامصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد طبعة الاسكندرية 1958 ص 117. ابن حماد: أخبار ملوك بني عُبيد وسيرتهم ص 9-10.

(2) اكتفى ابن صاحب الصلاة بالإشارة فقط إلى موضوع هذه الرسالة وإنها كانت «بشرى» من غير أن يورد نصها الكامل.

(3) يقتصر أيضاً ابن صاحب الصلاة في الكتاب الثاني على وصف «فصول الكتاب الرفيعة» ومقارنته بأساليب البلاغيين المشهورين. وإذا ما اعتمدنا ما ورد في صفحة 7 فإنه من إنشاء الخليفة، ولا بُدّ من التقدم إلى صفحة 40 للوقوف على مزيد تفصيل لأخبار المهدية.

(4) لم نهتد إلى معرفة اسم راوية ابن صاحب الصلاة وأغلب الظن أنه كان يستقي أخباره في كل =

اليمن القريب، ونزل النصارى - أهلكهم الله - عنها، وصفت للإسلام بسعد سيدنا الخليفة الإمام جلس أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه للموحدين أجمعين مجلس التهنئة والشكر لله تعالى على ذلك ودخل إليه الفقيه العلامة أبو محمد المالقي[1] شيخ طلبة الحضر فقبّل يده وهنّأه على ذلك، فقال الخليفة له رضي الله عنه يا أبا محمد: هل قال أحدٌ في هذا الفتح شيئاً؟ قال: فيه . . . [2] ابن حبوس[3] قصيداً حسناً أوله: (كامل)

(شُدَّت إلَيْكَ عَلى الرِّياحِ سُروجُ … أيْنَ الفِرار بأهلكم يَاجُوجُ)[4]

قال الخليفة: يكفيه هذا البيت وأمر له بجائزة.

= مناسبة من الشخص المختص، على أنه ذكر أحياناً اسم الذين حدَّثوه كأبي محمد سيد راي (ص 236) وأبي العلاء ابن عزون ص 352.

(1) هو عبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري المالقي، أخذ في صغره عن أبي الحكم بن برجان، واختلف إليه بقريته من نظر طلياطة من شرف اشبيلية، كان فقيهاً نظاراً خطيباً مفوهاً ذا حظ من الأدب وافر، وقد نال مركزاً مهماً لدى الخليفة إذ كان أمينه ووزيره وكان شيخ طلبة الحضر عنده. توفي بمراكش سنة 574. ابن الابار: العكملة كوديرا رقم 1394. . . المراكشي، المعجب طبعة 1949 ص 200-245.

(2) هنا بياض. التنبكتي: نيل الابتهاج صفحة 134، ولعل الأصل هكذا: فيه قال ابن حبوس.

(3) هو محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس بالباء الموحدة المخففة، كان يسكن بدرب السراجين من فاس. كان عالماً وشاعراً ملفقاً يتقدم في ذلك أهل زمانه ولد سنة 500 وتوفي سنة 570.
ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة رقم 1055 طبع كوديرا.
المعجب، طبعة القاهرة 1949 ص 213-214.
Pérés: La poesie - Fès sous les Almoravides et les Almohades Hespéris. T. (XV3) 1934 page 18 - 33.
محمد الفاسي: الشاعر ابن حبوس (مجلة الثقافة المغربية) نونبر - دجنبر 1941 ص 153-162.

(4) بيت من قصيدة نظمت في بجاية، ونعرف منها بيتين أوردهما صفوان بن ادريس:

عصفت بدعوتك الرياح الهوج … وسطا بأمرك ذابل ووشيج
وتقدمتك إلى العدو مهابة … يشقى بها في سده ماجوج

والقصيدة كما ترى خطاب لعبد المؤمن وليست خطاباً لأبي يعقوب يوسف.
انظر صفوان بن ادريس، زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد. طبعة بيروت 1939. ص 1 - 2، سنة 1934. المجلد 18 ص 32. الجراري «دعوة الحق» مارس 1961ص 56. ثم لا يخفى ما في البيتين من تلميح لتاريخ الاسكندر الأكبر وياجوج وماجوج، المذكور في القرآن السورة 18 آية 90-91. ابن جزي، كتاب التسهيل المجلد الأول، الجزء الثاني ص 194-195.

وفي الكتاب من وصف الفتوح والجذل الممنوح بما أربى على وصف الصاحب بن عباد[1] أو البليغ عبد الحميد[2]، وأطنب وطرب النفوس بمجاجات مسرات أعجزت في النثر كتابة أبي الفضل بن العميد[3]. فيا له من كتاب أقبل والنفوس من علل الفتنة تسُوق، وأحيى بريح طيبة الظفر خالطه[4]. من ريح النصر خلوق، سرح باتصال فتح إفريقية[5] وطوع [6] العرب ثم ارتدادهم. ثم تيسير الفتح الأعظم في هزيمتهم وغنيمتهم. وتغلغلت فصول الكتاب العزيز في فصوله الرفيعة، وأوصافه البديعة، في آثار الوقائع بالسيوف الحداد، في ذكر الخبيث المخبث جرثومة الضلالة والعناد، الكذوب الطاعة والانقياد، المتسمى بمحرز بن زياد[6]، وأمثاله وأقياله بما أعجز الأسماع، وملأ بالسحر الحلال الرقاع.

وفي آخر الكتاب قطعة شعر أُعلنت بقضاء الله تعالى بالبيعة في بلوغ الأوطار، وفتح المشارق، وإتمام مراد الله في غلبة الكفار، والمرتدين الأشقياء

---

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة للدكتور عبد الحليم النجار، طبعة دار المعارف مصر 1961، المصدر السابق جزء أول ص 261.

(2) بروكلمان، المصدر السابق جزء أول ص 261.

(3) بروكلمان، المصدر السابق جزء ثان ص 119.

(4) هكذا في الأصل، ويظهر أن الصواب خالطها لأن الريح لفظ مؤنث أو أن هناك لفظة (الذي) محذوفة: الظفر الذي خالطه.

(5) يذكر صاحب الاستبصار - وهو ما يقوله أبو عبيد الله البكري الاندلسي - أن حد أفريقية طولاً من برقة شرقاً إلى مدينة طنجة غرباً، وأن عرضها من البحر إلى الرمال التي هي حاجز بين بلاد أفريقية وبلاد السودان، لكن ياقوت في معجمة يجد أفريقية من طرابلس الغرب إلى بجاية، ويؤخذ من ابن صاحب الصلاة أن أفريقية تشمل طرابلس الغرب، وهو ما تؤيده المصادر التاريخية القديمة.

الاستبصار ص 111-112، معجم البلدان: طبعة بيروت 1955 أول صفحة 228، المن بالامامة ص -43 - 300 - 302 جلاء الكرب عن طرابلس الغرب: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، تحقيق الطاهر الزاوي. ص 58-59.

(6) هو محرز بن زياد الفارغي أو الفادغي أمير بني علي من بطون رياح ابن خلدون - 44:6 - 332-336 - 494. التجاني: الرحلة. ص 341. ابن غليون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار ص. 53.

الفجار، ونيل الغلبة لأولياء الله الموحدين الأبرار، وعِدَةٍ بنصر معجل، وفتح قريب في يوم أغر محجل، وهي [1]: (طويل)

وَلَمَّا قضيْنَا بالمشارقِ أمرَنَا ... وَتم مراد الله في كلِّ مطلبِ
وأشرقتِ الشمسُ المنيرة موهناً[2] ... وأصبح وجهُ الحق غيرَ محجَّبِ
وطُهِّر هذا السّقعُ[3] من كلِ كافرٍ ... وعادَ بها الإسلامُ بعدَ تغيُّب
وكسرتِ الصُّلبانُ في كلِّ بيعةٍ ... ونادى منادي الحق في كلِّ مرقب
أشرنا بأعناق المطيِّ إليكُم ... فطارَ بها شأْو السُّرور بمغربِ[4]
فابْشِر أبا حفص[5] بنصرٍ مؤزَّر ... كفيلٍ بما تبغيه في كلِّ مذْهَب
ولا بدَّ من يومٍ أغرَّ محجَّلٍ ... يُسيل دماءَ الكفر في كل مذْنَب
وتُشفى صدورُ المؤمنين بغزوةٍ ... تكون على حكم الحُسام المدرَّب
[7] ويغزُو بلاد الروم جيشٌ عرمرمٌ ... تُخُيِّرَ من قيسٍ[6] وأبناء يعْرُب[7]

---

(1) القصيدة - إذا ما اعتمدنا ما ورد هنا في صفحة 8 وما في ص 23من ابن عذاري - من شعر الخليفة عبد المؤمن، وقد كان بالفعل شاعراً. الحلل ص 131.

(2) قرىء في ابن عذاري هكذا (فوقنا) انظر ص 23.

(3) يكتب الصَّقْع دائماً عنده بالسين وهي - وإن كانت لغة - لكنها غير مشهورة.

(4) فيه إشارة إلى قول الشاعر:

أخذنا بأطراف الحديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

(5) هو السيد عمر ولد عبد المؤمن من زوجته صفية بنت أبي عمران، حاكم تلمسان ثم حاكم اشبيلية.

(6) يعني قيس بن عيلان، ويذكر بعض النسابة أن البربر ينحدرون منه، وفي ذلك ينشد علماء البربر لعبيدة بن قيس العقيلي:

أبونا أبوهم قيس عيلان في الذرى ... له حرمة تشفي غليل المحارب
وقيس قوام الدين في كل بلدة ... وخير معد عند حفظ المناسب
وقيس لها المجد الذي يقتدى به ... وقيس لها سيفٌ حديد المضارب

ومما ينسب أيضاً ليزيد بن خالد:

أيها السائل عنا أصلنا ... قيس عيلان بنو العز الأول
إن قيساً قيس عيلان لهم ... معدن الحق على الخير دلل

لكن المحققين من المؤرخين يعتبرون هذا النسبة (منكراً من القول) على حد تعبير ابن خلدون.

ابن خلدون 186:6-187-190-191. الناصري: الاستقصاء 62:1-63.

(7) يعني يعرب بن قحطان وقد كان من أعظم ملوك العرب، ويقال إن العرب إنما سميت عرباً به=

تصـول بـه من عصبــة الحق مَعْشَرٌ ... نخيـلة[1] مـا أبقـاه مـيـر مجـرّب
فيـدمـغ بـالصمصـام كـلَّ مُجَـاهِـرٍ ... ويقـطـع بـالبـرهـان كـلَّ مشغِّب
فـطوبى لأهل الغـرب[2] ماذا يـرونـه ... من النَّصـر والفتـح المبين المقـرَّب

(الاحتفالات في اشبيلية ببشائر النصر في المهدية)

وكان وصول هذا الكتاب الكريم إلى اشبيلية والأبيات المعجزة المبشـرة النيـرة، التي تركت ألبـاب المنافقين متحيـرة، في شهر صفـر من عـام خمسـة وخمسين وخمسمـائة، فـأمر سيـدنا الأمير الأجل أبـو يعقـوب ـ أميـر المؤمنين بعدُ ـ أن يكتبها الناس والطلبة باشبيليـة ويحفظونهـا ويسردونهـا على ألسنتهم. وذكر أنها من إنشاء الأمر العزيز فـامتثل النـاس ذلك، ودعـوا إلى الله أن يخلد لأمير المؤمنين الأوامر العـزيزة والممـالك، وقـرئت الرسـالة والأبيـات الواصلة وتليت، وارتقيت بها ذوائيب المنابر، واسمع بها الحاضر والبادي بجميـع هذه البشائر، وبثت مسراتها في الرعايا والعشاير، وطارت الـركبان بـأبياتهـا العذبـة المبشرة مطارها إلى الجهات والعمـاير، وقـرعت أخبارهـا الصادقـة، وأنباؤهـا المتلاحقة، سمع كل كـافر، والحمـد لله. وأمر الأمير السيد بقـرع الطبـول[3] على هذه المسار التي استلذت بهـا المقل وحمـدت غيابـات الكرى، وتمتعت

= وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا بها وتناسلوا.
عمررضا كحالة: معجم قبائل العرب :3 ص 1266.

(1) يرويه ابن عذاري «بجملة ما يلقاه خير مجرب» وعلى هذا يكون المعنى أن هـذا المعشر خير مجرب لكل ما يلقاه.

(2) يعني بالغرب هنا البلاد التي تقع غرب المشارق التي «انجز الله فيها وعده» فتشمل اذن بلاد المغرب والأندلس...

(3) جرت عادة استعمال الطبول عند الموحدين سواء عند البشـرى أو الايذان بـالحرب، والحقيقـة أنها عـادة عرفت منـذ أيام المـرابطين فلقـد استعملها يـوسف بن تاشفـين منذ سنـة 454، ويظهـر أن «الطبول» نقلت في أغلب الظن من افريقيا، وإن الذي يزور دول افريقيا اليوم يمكنه أن يتأكـد من هذا الافتراض.
الاستبصار ص - 220 الحلل الموشية ص 41. أشباخ: تاريخ الاندلس ص 103.
الناصري، الاستقصاء: - 2 ص 45. دكتور أحمد مختار عبادي: دراسة حول كتاب الحلل الموشية مجلة تطوان عدد 1960 ص 153.

بها الآذان بنعيم [8] البشرى. وأطعم الموحدين والناس كافة وخاصـة من أهل إشبيلية والأجناد مدة ثلاثين يـوماً، وقـرع الطبـول مع الأطعـام متصل، والبشـر مشتمـل، والشعـراء ينشـدون أشعـارهم بـالتهـاني ويتممـون[1] الثلج بصحيـح الأماني.

(استشهاد عبد الرحمن بن تيجيت بضواحي قرطبة)

وفي هذه الأيام ورد خبر كارث من قرطبة أن إبراهيم بن همشك[2] صهـر ابن مردنيش نازل قـرطبة ودمَّـر زروعها وقـطانيها وأن أبـا زيد عبـد الرحمن بن تيجيت حافظهـا وشيخها استشهـد عليها، وذلـك أن ابن همشك لمـا أقلع من منازلتها وانتشاف ما كان بخارجها أكمن بخيله ورجالـه على مقربـة منها بقـرية (أطابة[3]) وهي قفرة، فخرج أبو زيد عبد الرحمن في جملة من فرسانه ليتطلع الحـال فخرج عليـه الكمين، فقاتـل حتى استشهد على مقـربة من قـرطبة في الموضع المعروف «بالدَّارات[4]». رجع الخبر.

(استنجاد والي اشبيلية بأبيه عبد المؤمن واستعجاله في القدوم)

فجـاوب السيد الأمير الأعلى أبـو يعقـوب، حضـرة أبيـه الخليفـة أمير المؤمنين رضي الله عنـه على الكتـاب العـزيـز الـواصـل بمـا اقتضـاه النشـر، واستـوجبه من الـدعاء والتـأميل الأمـر، ووصـف الفتنة واستغـاث إلى الحضـرة

(1) هكذا في الأصل: ويتممون الثلج، وفي البيان المغـرب: ويتمون الثلج ص 42. وثلجب نفسه ـ كدخل وطرب ـ: اطمأنت...

(2) إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك، وهمشك جده نصـراني أسلم على يـد بني هود بسـرقسطة، كان في جملة الثوار الذين كانوا يطمعون في اقصاء الموحدين عن الجزيرة، وقد داخل ابن مـردنيش حتى زوَّجه بنته ثم اختلفا فيها بعـد. وتسميه بعض المصـادر عبد الله. المـراكشي: المعجب، طبعة سلا سنة 1938، نشر محمد الفاسي ص 126. Dozy: Recherches. T. IP. 368 — 69.

(3) اطابة: قرية قريبة من قرطبة، وقد اكتفى ويسي بنقل اللفظ هكذا (Atâba).

(4) الدارات: موضع قريب من قرطبة وقد فعل به ويسي ما فعله بالسابق (Al - Darât).

العلية أن يستعجل منها النصر، وكان عنده باشبيلية الأستاذ أبو العباس ابن سيد المالقي[1] فأمره الأمير السيد الأجل [9] المذكور أن يجاوب بشعر على معنى الشّعر الواصل، ويذكر حال الفتنة، وبعث بهذا الشعر مع الجواب الذي يشرح فيه أحوال ابن مردنيش وإلحاح فتنته فقال: (طويل).

هُـو الأمـرُ أمـرُ الله لـيس لـه ردُّ … يـؤيـدهُ أيـدٌ ويـسـمـو بـه جَـد
وقـد وضـحـت آيـاتُـه وأبـاتـه … وقـد أفحمتْ رُعْباً بـه ألسنٌ لُـد
ومـا اشتبهت مُـذ حُـمَّ إلا لـزائـغ … عـقيـدتُـه كـفـرٌ وإقـرارهُ جحـدُ
فمَن يبـغ فيهـا الغيَّ بعـد اجتلائـه … فـإن حسام الهِنْـد فيه لَـهُ رُشْـد
وهـذي[2] ريـاحٌ ريحـه عصفتْ بِهِمْ … فعـادوا كعـادٍ[3] حين جلّلها الرمْـدُ
ولم يُنْجِهم حصْنٌ حصينٌ إذا انـزووا … ولم يُغنِهم ذاكَ العـديـدُ ولا العَـدُّ
ولم يَجِدُوا النَّصْر العتيدَ بـزَعْمِهِمْ … من اللّات بل رُدُّوا حديثاً كما أُردوا
وكـانت سبيـلُ الرُّشْـدِ واضحـةً لهُم … فمـا منهُم فيهـا وسيمٌ ولا وَخْـدُ
ولا سَـلَكُـوا فيـهـا سـلوكَ مُـعـذِّرٍ … ولا انتضَحَت فيهـا الشكـائمُ واللّبْـدُ
ولكنهُم مـالُـوا إلـى الكفْـرِ ميـلَةً … فصـالتْ بِهِمْ منكُمْ يَـدٌ ولهـا الأيْـدُ
إليكُم أميـرَ المؤمنيـن تـوجَّهَـتْ … بنـا الـرَّغبَـات الجمّ يحثُّها جهْـدُ
لـعـلَّ عيـانـاً منكُمُ لعبيـدِكُمْ … وقـربـاً لكم منهُمْ يُـدالُ بـهِ البُعْـدُ!
فقـد عضَّهُم نابٌ من الكُفْرِ معْضِـلٌ … وكـانُـوا بكمْ دَهْـراً وأنيـابُـهُ دُرْدُ!
بـكُمْ يـعصُـم اللهُ العـليّ جميعَـهم … بكم تعـظُم الآمالُ بَـلْ يكثـرُ الـرِّفْـدُ

(1) أحد الادباء الذين عاشوا في البلاط الموحدي، وهو أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، درس النحو والأدب كثيراً وكان شاعراً كاتباً بليغاً، وقد تحول من مالقة إلى قرطبة... ثم صار إلى مراكش فأدب بني عبد المؤمن وبها توفي بعد الستين وخمسمائة، وليس هذا بابن سيد اللص كما أنَّهُ ليس هو أحمد الجراوي، انظر ص 311 من (المن بالامامة). نفح الطيب: طبعة 1949جزء 5ص 166. عباس بن ابراهيم. الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام طبعة فاس 1936 ص 226 - 227. محمد الفاسي: شاعر الخلافة الموحدية، ص 3.

(2) من القبائل العربية التي زحفت إلى افريقية وهي فيما ذكره ابن الكلبي رياح ابن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. ابن خلدون ـ 6:69-70-71... الناصري: الاستقصا 2:151.

(3) هي قبيلة نبي الله هود، وقد أرسل الله عليها ريحاً صرصراً عاتية دمرت كل شيء فيها، والرمد: الهلاك. عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، طبعة ثانية ص 69-78.

بكم يعتلي الإسْلامُ شرقاً ومغْرِباً … فلله فيهـا دائبـاً وَلـكَ الـحَمْـدُ!

ونهض الرقاص[1] بالجواب وبهذا الشعر وطال أمد السَّفر في الورود [10] والصَّدَر، والعدو يلح بالفتنة والضرر، ويستعين باخوانه النصارى وبالمنافقين أصحابه الأخر، واشبيلية في مثل الحلقة من الفتن، قد نهل بالغصص ساكنها، وذهل خوفاً من القنص متحركها وساكنُها، وينتظر الفرج من الله، ـ تعالى ـ ومن عدة منجزة في كتاب، ويستمطر الغيث بأن يرفع الله الغيثَ بآيات الله المتلوَّة في الكتاب، إلى أن سنَّى الله وصول الجواب من الخليفة أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ من مضرب محلته المنصورة على مقربة من القسطنطينية[2] بتاريخ ربيع الأول من عام خمسة وخمسين وخمسماية يُعرف فيه بصحيح الإياب، وما ثنى فيه من أعِنَّة خيل الله لهذه الاسقاع، وحماية ذلكم الجَناب. وفيه فتح الله قفصة[3] ومخاطبة بني سُلَيم[4] بالتوحيد،

(1) الرقاص: لفظ معروف منذ القدم إلى الآن في المغرب، ويطلق على الشخص الذي يقوم بالبريد، وللرقاصة أمين يسهر على الحرفة، وقد كانت تسند لرجال أقوياء مدربين على الركض والعدو، وكان فيهم الرقاص العادي، ورقاص الشرط، وهذا هو ساعي البريد المستعجل ينقله بين المدن على الخيل والجياد بمنتهى السرعة، وكان يجد في كل محطّة حصاناً مسرجاً يمتطيه إلى المحطة التي تليها.. وقد حددت بعض الرسائل الموحدية منذ سنة 543 واجبات الرقاصة تحديداً دقيقاً حتى لا يسيئوا استعمال نفوذهم. ومما ورد في ظهير لعبد المؤمن الموحدي مؤرخ في شهر ربيع الأول سنة 543 بهذا الشأن ما يلي: «... وتخيروا لرسائلكم ارسالا، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيء والانصراف، ويقطع شأنهم في التكليف والالحاق، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد، معلومة الأمد لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة...» أنظر ابن القطان، نظم الجمان، نشر الدكتور محمود علي مكي بمساعدة المعهد الجامعي للبحث العلمي، ص 151 - 162.

(2) القسطنطينية: وتسمى قسنطينة، مدينة جبلية، تقع جنوب مدينة سكيكدة، وشرقي مدينة بجاية، وهي قديمة حصينة لا يعرف بافريقية أمنع منها...
الاستبصار: ص 127-165-166.

(3) تقع قفصة غربي مدينة صفاقس الساحلية، وشمال قابس وجنوب القيروان وهي مدينة كبيرة قديمة أزلية كان لها سور حصين من صخر جليل بأحكم صناعة، وكان اسمها مدينة الحنية.
الاستبصار: ص 150-151-152.

(4) بنو سليم: بطن متسع من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعاً وكانت منازلهم بنجد وهم بنو =

وركب الرقاص بالجواب المذكور مركباً من مدينة بجاية(1) سابحاً في البحر في طريق غير يَبس، ويسر الله له ـ بسعد الأمر العزيز ـ أن ساعدت الريح بنفس، وسار أسرع من كوكب إذا خَنَس، وخرج في (ألمرية(2)) مرساه، وحمد سُبْحَه في غدُوه وممساه، ووصل إشبيلية وغرناطة(3) في أقرب تاريخ دون تعب في مسراه، وفي الكتاب الكريم الواصل في طيه مدرج نصُّه هذا(4) مع الشعر المجاوب به على شعر الأستاذ ابن سيد المتقدم:

[11] بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده (5)، أعزكم الله، وجعلنا وإياكم من الشاكرين لنعماه، إن من الواجب

= سليم بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، وفيهم شعوب كثيرة. ابن خلدون: 6:-141-142-143-144-145. الاستقصاء 146:2.

(1) بجاية: مدينة عظيمة على ضفة البحر المتوسط في الشمال الغربي من القسطنطينية وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة، بناها المنصور بن حماد على إثر عيث العرب في افريقية والقيروان وقد سماها المنصورية، وتحيط بها الجبال والبحر منها في ثلاث جهات، لها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق... الاستبصار ص 128 - 129. ابن خلدون 357:6-358. وفي علمائها في المائة السابعة ألّف الغبريني كتابه عنوان الدراية.

(2) المرية: (Al Meria) تقع على شاطىء المتوسط جنوب شرقي غرناطة، وفيها الف أبو جعفر بن خاتمة (مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية) وفي فاجعتها الف أبو المطرف بن عميرة.

(3) غرناطة (Cranada): يقال غرناطة كما يقال اغرناطة، وكلاهما اعجمي، تقع جنوب مدينة جيان، وشمال مدينة مالقة، فيها يقول وزيرها الشاعر ابن زمرك:

عقيلة تاجها السبيكة ... تطل بالرقب المنيف
كأنها فوقه مليكة ... كرسيها جنة العريف

ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة ـ المجلد الأول نشر محمد عبد الله عنان ص 99.

(4) يلاحظ من الآن أن جميع الرسائل التي يتضمنها (كتاب المن بالامامة) لم يذكرها الأستاذ ليفي بروفنصال في «مجموع رسائل موحدية» الذي نشره برباط الفتح سنة 1941.

(5) سنرى في صفحة 99 أن الموحدين اتفقوا على وضع علامة «والحمد لله وحده» منذ رمضان 561، وذلك ـ على ما يقول ابن خلدون ـ اقتداء بالامام المهدي إذ وجدوها في بعض مخاطباته ولعل إثبات العلامة هنا ـ ونحن في سنة ـ 555 كان تمهيداً لذلك الاتفاق ـ ومما قالته الأديبة المغربية حفصة الركونية تخاطب عبد المؤمن:

يا سيد الناس يا من ... يؤمل الناس رفده
امنن على بطرس ... يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه ... (الحمد لله وحده) =

الحتم، والمفترض الجزم، على من لزمه شكر النعم لمسديها ممهد الآلاء لمهديها أن يقدر أولاً النعمة بكمالها، ويعمّر خاطره بتفصيل إجمالها، ويحضر في ذهنه بهجة جمالها، ويسرح عين اعتباره في مناقل أحوالها، حتى يفيض على باطنه نور إشراقها، وتهمي ينابيع مقوله بهاطل غيداقها، وتتبارى له نفحات الشكر في ميدان استباقها، وهو الفتح الذي برز في الأعجام والأعراب، وأضحى نسيج وحده في الاشباه والأتراب، وعقم عن مثله الزمن السالف، وخلت عن وصف نظير له الكتب والصحائف، تتأكد بمحله وجوه الاعتبار، ولا يزال موقعه يعظم بزيادة الاستيضاح والاستبصار (1)، وقد أبرزت لكم صوره، وتليت عليكم آياته وسوره، ووراء ذلك من تفاصيله مطلعات لا تنتهي إليها الأوصاف، وغايات لا تحيط ببعضها الأكناف، فاجعلوا لأنفسكم حظاً من الاعتمال في وزنه لميزانه، وقدره على حقيقة كنهه وكيانه، واعلموا أن هذه الجمرة التي أطفأ الله تعالى لهبها، والجمهرة التي أبادها الله وأذهبها، وقطع بحبله القوي وسببه المتين حولها وسنمها، هي شوكة الأمة التي لم تزل [12] للأمم صالية بنيرانها، والجن والأنس مستعيذين من شيطانها، ومردة كل طائفة متحيرة من تمردها وطغيانها، قد دوّخت الملوك والممالك، واستحقت المسارح والمسالك، واقتحمت بأسها المتالف والمهالك، ومرت عليها قرون لم يهض لها جناح، ولا ريع لها صباح، ولا قارنها في مطالبها الغوية إسجاح، حتى ظنت أن الحتوف تهابها، وأمر الله لا يطرقها ولا ينتابها، اغتراراً بعددها وعديدها، وثقة بأن الأيام لا تتقل فيهم عن معهودها، وقد خبّأ الله لأوليائه الموحدين من الفتح فيهم صنعاً اختصهم به من بين الأنام، وأجراه عدة لهم

= ابن خلدون: العبر: سادس 498. محمد المنوني ـ العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين، طبعة معهد مولاي الحسن تطوان ص 34.
Luis de Giacomo: une poétesse Andalouse du temps des Almohades Hesps TXXXIV - 1947. P. 49.

(1) أورد ابن عذاري بعض الرسالة معتذراً عن ذكر باقيها للاختصار، وقد ساقها قبل التاريخ الذي أوردها فيه ابن صاحب الصلاة، أي أنه ذكرها في أحداث سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. ابن عذاري: المخطوط ص 21.

في مأثور كلام نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام [1]. فلما حقت عليهم كلمة عذابه، وأراد الله إنقاذ حكمه فيهم بما تقدم من أسبابه. (طويل).

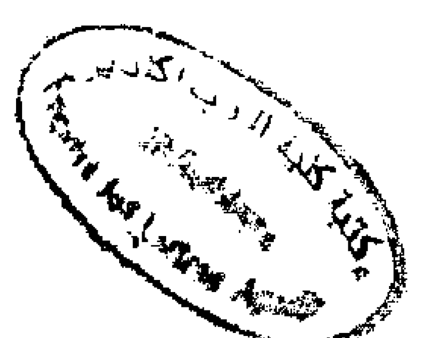
تَسَنَّى لأهـل الحقِّ نيـلُ مُـرادِهـم   وطاب لهم فيما يَـرُومُونَـه الـوِرْدُ
ويُسرت الأسبابُ فاختيرت المُنَى   وأُحكِمتِ الآمـالُ فـانتضى الجِـدُّ
ودبّـر رأيٌ فـالـتقـتْ عَـزمـاتـه   عَلى حُكم ما قد أُحكمت ضَربهُ الهِنْدُ
فسـار بـأمْـر الله جيشٌ عـرمـرَمٌ   يقـودُ به سعْـدٌ ويَحدُو بـه سَعْـدُ
بكـلّ بسيطِ الشَّـأو منقبضِ النَّسَـا   يصُولُ عليه في الـوَغى أسَدٌ وَرْدُ
سَروا، وريـاح النَّصْـر تحـردُ بينَهُم   فـأضحتْ رياحٌ ما لهَا منهم حَـرْدُ
بضرب يـزيـلُ الهام عن سكنـاتِـهِ   وطعنٍ شتيتـاتُ القـلوب بـه سَـردُ
[13] شَفى كـلَّ صـدرٍ نـوّر الله قلبَـه   وأشقى صُدُوراً ما لها بالهُـدَى عَهْدُ
وطُهّـرتِ الآفـاقُ من كـلّ كـافـرٍ   فحصحص حقُّ اللهِ واستُحكم العَقْدُ
ولما طغت جهلاً ريـاحٌ وصـرصرت   دهـتْـهـا بـأمْـر الله داهـيـة إدُّ
فلم تُغْن عنها اللاَّت شيئاً ولا حمى   نـفـوسَـهـم عـنَّـا سُـواعٌ، ولا ودُّ
وقـد مُـزّقـوا في الأرض كـلَّ ممـزِّق   . فمن فـاتـه قَـدٌّ أحـاطَ بـه قـد!
وهــذا هُـو الفتـحُ الـذي بكمـالِـهِ   تكـامـل أمـرُ الله وانتجِزَ الـوَعْـد
بـه تفتـح الـدنيـا بـه يبلغ المنى   بـه يسجح العـاصي به يقـرب البُعد
لقـد جَـلّ قـدراً أن يحيط بـوصفـه   لسـانٌ وأن يُحصي معـانيَـه عَـدُّ
ولله سـرٌّ فـيـه لا بـدَّ يـجـتـلَى   بـآثـاره في كـلِّ مفتـتـح بُـعْـد
ستلقى بـلادُ الرُّوم منـه حتـوفَهـا   ويغشى أُولِي الإلحاد من ذِكْرِه جهـد
ومـا كـانَ هـذا الغـزو إلَّا من أجْلِهِ   فلمَّـا تجلَّى صُبْحُـه كمُـلَ القصـد

---

(1) يقصد دون شك الحديث الشريف: «لا تـزال طائفـة بالمغـرب ظاهـرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله» وقد تضافرت روايات المؤرخين على الاشادة بشهامة الافارقة وأقدامهم، فقد روي أيضاً عن الرسول (ص) أنه «ينقطع الجهاد من جميع الجهات ولا يبقى إلا ببلاد افريقية... والحديث أخرجه مسلم في صحيحه وعبد الواحد المراكشي في المعجب وطريقه عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً بلفظ (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة). كتاب أعز من طلب نشر جولدزيهر سنة 1903. الجزائر صفحة 269. الاستبصار 112.

وقـد صُرِفتْ نحـوَ المغـارب عـزمـةٌ   يبين لهـا فـي كـلِّ نـاحيـةٍ وَقْـدُ
مـعــوّدةٌ ألا تــهُــمَّ بـمـطْلَب   فيُلْفى لَـهُ من دُونِهـا أبـداً بُـد
وَجـدَّ لأهْـلِ الحقِّ أوْبٌ معجَّـلٌ   فلله ذَاكَ الـرأْي والمـذْهَبُ الجِـدُّ
وحـاجاتُهم بـالشَّرق قـد قُضِيَتْ لَهُمْ   فـآمـالُهمْ نحْـوَ المغـاربِ تمْتَـدُّ
إلى الأفُقِ الغـربي صُرْنـا صُدورَهـا   خفافاً كما طارتْ بجرعاتها الرُّبْـد
فيـا مَعْشرَ الأشيـاخِ من كـلّ طـالِبٍ   ومن حـافظٍ للذِّكْرِ ألفـاظُه سَـرد
نبشـركُم أنـا اهتمْمْنـا بـأمْـركُم   فلْتَبتْكُم منـا المسـوّمَـةُ الجُـرد
ويَصْحَبنـا من خالصِ العُـرْب معشَرٌ   أنـابوا فمـا رُدّوا وتابُـوا فمـا ارتـدُّوا!
[14] رَأَوا في ذويهم عبـرةً فتيَقـظُوا   وكـان لَهُم في غي غـيْـرهم رُشْـدُ
ستغـزُو بـلاد الـرُّوم منهم عصـائبٌ   وتحمي حمى التَّوحيد من خَيْلهُم جندُ
فطوبى لأهـل الغَـرْب مـاذا يَـرَوْنَـهُ   لقـد جـل قـدراً أن يُحيط بـه حـدُّ
جيـوش بنصـر الله تهـمي عـليكُـمُ   يـروق بها وَهْـد، ويـزهى بهـا نجْـدُ
ويشجى بمرآهـا الأعـادي كـأنمَّـا   عليكم بهـا صمُّ الشـوامـخ تنهَـدُّ
سـتعـلم أرضُ الـروم أيَّ فـوَارسٍ   على ظَهْرهـا منهم إذا وفـد الـوَفْـدُ
وأيَّ رجـال لـلحـروب إذا بَـدَتْ   أسـود شَرَى يخشى ترايبها الأسْـدُ!
وإنـا وإيـاهـم لـحتْـمٌ غـلابـنـا   لهم وكـلام الـوَحْي ليسَ لَـه ردا!
وإنَّـا لنـرجـو الله في كـلّ حـالـةٍ   فيـوسعنا فضـلاً لَـهُ الشُّكْـرُ والحَمْـدُ

وهذه الفتوح التي تفتحت لها السماء، وأشرقت بأنوارها دياجير الظلماء إنما صُلي بنيران سيوفها، ودارت أرحية حتوفها، على الرياحين ومن انضاف إليهم من الذين خلعوا عن أعناقهم ربقة الإيمان، ونبذوا وراء ظهورهم أسباب الأمان، وآثروا ناعق الشيطان، على داعي الرحمن، وأما سائر الأعراب فالرجاء فيهم متمكِّن، وطريق إحدى الخطتين لهم متبيِّن، والقصد إليهم بحسب نفيرهم أو نفورهم متعيِّن، لا محيص لهم عن إحدى السبيلين، ولا بدّ لهم من ركوب إحدى الطريقتين، فأما من ظلم نفسه، واعتزل الحق وأهله، فسيدوق من العذاب الأدنى مراً، ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذاباً [15] نكراً، وأما



من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يُسراً. الوعد بفتحهم وملكهم سابق، وخبر الوَحي لا محالة صادق، والنظر في أمرهم متدارك متلاحق، والعمل على شاكلة الصواب بحسب ما يكون منهمْ متناسِق. فاستبشروا وفقكم الله لما تستقبلونه من المواهب الجسمية، والفتوح العميمة، فإنها لهذه التي بين اليد - وإن عظم خطرها، وجلَّ في النفوس أثرها - بمنزلة الجملة للعنوان، أوالروح من الجثمان والله تعالى يجعلنا وإياكم ممّن شكر انعمه، وآثر العمل الصالح وقدمه بمنه والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

(وصول جواب عبد المؤمن لابنه)

وعند وصول المدرج وهذا الشعر المبشر انشرحت صدور الموحدين، وتحققوا نصر الله وفتحه القريب بأوفى اليقين، وقريء على المنابر، وتكررت المسارّ في الرعايا والعشاير، وانتسخ الناس والطلبة والموحدون والعامة نُسخاً من الشعر المبشر المدرج المذكور فحفظوه، وصانوه وحفّظوه ودوّنوه، واستقبلت السيد الأجل المعظم أبا يعقوب - رضي الله عنه - وجميع الموحدين - أعانهم الله - بإشبيلية وأنظارها هذه البشائر بغررها، وجلبت لديه محاسن صورها، وتليت على التمام والكمال آيات سورها وعرضت [16] على الأفكار والبصائر أشتات عبرها، واتخذ الجميع التحدث ببركاتها أسمارهم وذهبوا إلى النزهة[1] في أنفسهم سرحة أبهجت بها أزهارهم، وأيقنوا أمنهم من المخاوف وقرارهم، ثم ترادف الكتاب العزيز الثاني لهذا المدرج من أحواز «بجاية» مبشراً بتمادي السير والانصراف، وقرع الظنابيب[2] للصراخ والغوث

(1) هنا لفظ يقرب كثيراً إلى كلمة: النزهة.

(2) جمع ظنبوب حرف الساق، يقال قرع لذلك الأمر ظنبوبه: تهيأ له، قال سلامة ابن جندل:

(كـنـا إذا مـا أتـانـا صـارخ فـزع ... كـان الصـراخ لـه قـرع الـظنـابيب)

«لسان العرب»

بالانعطاف، فارتدفت المسار المؤذنة ببسطة الأرجاء والأكناف.

ولما وصل تلمسان[1] أوقع بوزيره عبد السلام الكومي[2] ثم تلى أثر ذلك الأمر ببناء[3] جبل طارق على ما أذكره.

(1) تلمسان تقع في الشمال الشرقي من مدينة وجدة، وهي مدينة أزلية عظيمة فيها آثار كثيرة، كانت دار مملكة زناتة. هذا ومن الغريب أن لا يشير ابن صاحب الصلاة لمدينة وجدة مع أنها كانت طريق المار والصادر من بلاد المشرق إلى المغرب وسجلماسة وغيرها. ولعل ما استهدفت إليه من تخريب مستمر كان من بواعث عدم التعريج عليها. وفي رجال تلمسان ألف ابن أبي مريم كتابه «البستان»... الاستبصار ص 176-177.

(2) كان عبد السلام من أقرب الناس إلى الخليفة بعد مقتل الوزير ابن عطية، وقد كانت له مصاهرة مع الأسرة الملكية حيث أن والد عبد المؤمن تزوّج من أم عبد السلام وكانت له معها بنت اسمها (بندة) وعلى هذه القرابة كان يعتمد في «تصرفاته» الأمر الذي استوجب الإيقاع به بعد فتح المهدية والوصول إلى تلمسان بطريقة مناولته - وهو في السجن - مسهلاً أفقده قواه «حتى لم يبق فيه إلا عيناه» على حد تعبير ابن صاحب الصلاة. انظر ورقة 43 - 45 من المن بالامامة. (المخطوط)

(3) يلوح من هذا النص أن الأمر ببناء جبل طارق نفذ بعد الرجوع من المهدية وبعد الوصول إلى تلمسان والإيقاع بالوزير عبد السلام الكومي وذلك في الرسالة المؤرخة بالتاسع من ربيع الأول عام خمسة وخمسين وخمسمائة على ما يأتي قريباً، بيد أن هناك رسالة موحدية - نقل الأستاذ بروفنصال خطأ أنها من انشاء أبي جعفر بن عطية المتوفى سنة — 553 مكتوبة في العشرين من ذي القعدة سنة أربع وخمسين وخمسمائة تفيد أن الأمر المشار إليه ورد لغرناطة من ظاهر المهدية بعد فتح قفصة، وتذكر أن النية انصرفت إلى «اختطاط مدينة عتيقة بجبل طارق» وللجمع بين راوية ابن صاحب الصلاة والرسالة الموجودة نعتقد أنه كانت هناك رسالتان متتابعتان في معنى واحد، إحداها صدرت أواخر سنة 554، والثانية مؤكدة أوائل 555. وعلى ذكر الرسالتين نرجح أن منشئهما أحد شخصين إما ابن المرخي أو القالمي فقد كانا معاً منشئين في هذه الفترة. هذا وغير صحيح أن الأمر بالبناء صدر من أحد خلفاء بني عبد المؤمن ولكنه كما يتأكد كان أولاً وثانياً من عبد المؤمن نفسه. وبهذا تكون رواية الحميري في الروض المعطار محتاجةً إلى شيء من التحرير والتحقيق. ليفي بروفنصال: رسائل موحدية ص 95. الحميري: الروض المعطار نشر وترجمة بروفنصال ص 121.

C. F. Seybold Encyclopédie de L'Islam Tome II: Gibraltar p. 179.

(ذكر الأمر العزيز في الكتاب الكريم، الواصل بما ألهم الله تعالى به الخواطر، ونوّر له الضمائر، بناء مدينة كبرى[1] في جبل طارق ومؤرخ بالتاسع من ربيع الأول عام خمسة وخمسين وخمسمائة)

ووصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى ياكل (؟) بإذن الله تعالى ومعونته من ناضها من المدن والقرى بالجبل الميمون القديم[2] البركة على جزيرة الأندلس السامق الشاهق[3]: جبل طارق المفتتح منه دانيها وقاصيها وطائعها وعاصيها، تكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند إجازة العساكر المنصورة ومحلا[4] ريثما تتقدّم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم [17]

(1) يظهر من النعت «كبرى» أنه كانت بالجبل مدينة سابقة لكنها لم تكن «كبرى» وقد ذكر ابن جزي، مسجل رحلات ابن بطوطة أنه شاهد بقايا السور الذي بناه طارق وأنها كانت تحمل اسم «سور العرب» كما ذكر أيضاً أنه كان هناك «برج صغير» قبل مباني أبي الحسن المريني في الجبل وإن هذا البرج تهدم بأحجار المجانيق إلا أنه لم يذكر هل هذا «البرج» أثر عربي أو أثر موحدي، وإن كنا نميل إلى التقدير الأخير، فإن ما استهدف له الجبل من تغييرات جوهرية يجعلنا نعتقد أنه لم يبق به من آثار طارق ما يستحق الذكر. وقد كان في الإمكان أن نتيقن من جلية الأمر لو أن النقوش العربية التي كانت بالجبل احتفظت بهيئتها، فلقد كان هناك نقشان الأول على الباب الجنوبي للقصبة، والثاني على جدار مبنى صغير قريب من «القلعة الحرة» لكن هذه النقوش بين متعذر القراءة وبين متلاش ضائع، وفيها ما يحمل لقب «أمير المسلمين» وفيها ما يحمل عبارة «لله العاقبة الباقية». رحلة ابن بطوطة ترجمة .Sanguinetti, Derementy المجلد الرابع ص 356. الاستقصا الجزء 3. ص 122.
Norris: The Early Islamic Settlement in Gibratar - (Reprinted from the journal of the Rydal Anthropological Institute vol 90 port 2 1960 page 40, 45).

(2) يشير إلى أن منه كان فتح بلاد الأندلس لأول مرة من قبل طارق بن زياد.

(3) يبلغ علو جبل طارق عن سطح البحر 425 ميتر.
La Grande Encyclopédie To 18 page 919.

(4) صريح جداً في الباعث الذي جعل عبد المؤمن يقدم على بناء هذه المدينة في الجبل، وقد كان الموحدون فعلاً أول من أدرك الأهمية الكبرى للجبل كموقع حربي هام للاحتفاظ ببلاد «الروم». وضبط الملة بين المغرب والأندلس.

وكان في الكتاب الكريم أمر جزم إلى السيد الأجل أبي سعيد عثمان[1] بن الخليفة أمير المؤمنين - رضي الله عنه - بالمشي من غرناطة بنفسه وأصحابه وجملة عسكره إلى جبل طارق المذكور والاجتماع فيه مع الطلبة الذين باشبيلية، للالتقاء والاجتماع فيه بالشيخ الأجل أبي حفص[2] إن أمكنه[3]، وبأبي اسحق برّاز بن محمد[4]، وبالحاج يعيش[5] وبالقائد عبد الله بن خيار الجياني[6] والمشاورة معهم، والتراوض حيث يكون البناء المذكور المأمور به من الجبل وأمره في الكتاب الكريم وكذلك للسيد الأجل أبي يعقوب باشبيلية

(1) أبو سعيد عثمان والي غرناطة أحد أبناء عبد المؤمن الثمانية عشر، من الذين اتفقت عليهم رواية ابن صاحب الصلاة، وعبد الواحد المراكشي، وابن أبي زرع

(2) هو أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني من أبرز خاصة المهدي بن تومرت، وقد خصه بقيادة كتيبة الدرقة (Adarga) وإليه يرجع الفضل في تثبيت مركز الدولة الموحدية واستقرار سلطانها، وهو بطل موقعة السبطاط سنة 568 وجدُّ الملوك الحفصيين أصحاب تونس وإفريقية، توفي عند منصرفه من قرطبة في طريقه برباط الفتح من سلا سنة 571 وبها دُفِن.
البيذق: أخبار المهدي 32-33. ابن صاحب الصلاة: 384. ابن عذاري: البيان المغرب ص 101. ابن أبي زرع: الأنيس ثان ص 113. الاستقصا 2:77-99-100.

(3) ورد في نص الرسالة الموحدية: «وقد خاطبنا الشيخ الأجل أبا حفص - أعزه الله - ليصل إلى ذلك المكان إن تمكن له». وهو يدل على المركز الذي كان ينعم به الشيخ أبو حفص حيث أنه لم يؤمر بالالتحاق بالجبل إلا إذا كان ذلك لا يزعجه. . بروفنصال: رسائل موحدية ص 98.

(4) الشيخ أبو اسحاق هذا ورد ذكره في «الرسالة الموحدية» مرتين، وقد توفي متأثراً بعلة النقرس La goutte عام 559. بروفنصال: رسائل موحدية ص 97 - 98. ابن صاحب الصلاة ص 65.

(5) الحاج يعيش المالقي من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم على عهد الموحدين وقد كانوا يلجأون إليه في كل المشاريع الهامة، فهو الذي صنع بأمر من عبد المؤمن بمدينة مراكش مقصورة المسجد الجامع التي حيّر وصفها سائر المهتمين بالآثار الموحدية وخاصة منهم الذين يعنون بالنهضة الميكانيكية على ذلك العهد «فلقد وضعت على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله. .» وهو الذي قام سنة 567 في اشبيلية بعملية تسريب الماء لسقي البحيرة الملكية، وتوصيله إلى داخل اشبيلية من قلعة جابر، كما قام ببناء خزان للماء داخل المدينة، منه كان الماء يتوزع على مختلف أحيائها. الحلل الموشية نشر الأستاذ علوش 1936 ص 119 - 120. ابن صاحب الصلاة: المن بالامامة ص 323. — 324.

(6) يكنى أبا محمد، ويعتبر في عداد المتأدبين، وقد كان «مشرفاً» على مدينة فاس أيام الملثمين، وكان الصحراوي واليها، لكنه - وقد شب بينهما خصام - تآمر على الصحراوي في ليلة تعريسه بامرأة من قبيلته، ودعا للموحدين سنة 540. البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ص 146. ابن عذاري: ص 19 - 20.

أن يستنفروا جميع الفعلة من البنايين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس، التي تحت نظر الموحدين - أعانهم الله - ويستعجلوا بالوصول إلى الجبل لامتثال الأمر الكريم، فاحتفل النظر وانجفل البشر لذلك من الأجناد والقواد والكتاب وأهل الحساب لتقييد الأشغال، والإنفاق على الأعمال، وبالتعجيل في ذلك والكمال.

وتقدم السيد الأجل أبو سعيد على ما أمر به من موضعه بغرناطة إليه، ومشى من اشبيلية العريف أحمد بن باسه[1] بجميع البنائين ومن يشاكلهم، ومن يعاونهم من الرجال ويماثلهم، ونزلوا فيه وابتدأوا البناء في الموضع الذي وقع الجمع عليه والاتفاق من نواحيه، بسيف البحر مما يلاصقه ويليه، [18] وزادت آمال أهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل، وتحققوا اليمن والسعد والفتح في بنيان هذا الجبل، وكان من اشتغال السيد الأعلى أبي يعقوب رضي الله عنه باشبيلية في إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور.

وأحكم البناؤون فيه بناء من القصور المشيدة والديار[2]، واخترعوا في أسسها طيقاناً والحنايا لتعتدل بها الأرض مبنية بالحجر المنجور والجيار، مما هو عجيب في الآثار، وكما قيل: «الملوك تبني على قدرها من الأقدار»[3] وبما

(1) يعتبر ابن باسه من أبرز الخبراء الذين اعتمدهم الموحدون في مشاريعهم المعمارية الكبرى، وقد استفادوا من خبرته بالإضافة إلى ما هنا عند اتخاذ القرار بجعل قرطبة مقراً لصدور الأوامر، وعند صدور الأمر ببناء القصور الملكية بإشبيلية، وقد كان «شيخ العرفاء» وهو الذي قام بتشييد جامع إشبيلية الأعظم (الخير الدا)، وما تزال هذه الأسرة معروفة إلى الآن بالمغرب وإليها تنتسب فيما سمعت أسرة باسة المعروفة بالقيادة في ناحية تادلة ويوجد منها إلى الآن بمدينة فاس بعض البنائين المهرة من يعتمدهم القصر الملكي في مبانيه ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة ص 66-322-330.

أنظر: P.J. Renoud. Notes critiques d'histoire des sciences chez les musulmans-I. Les Ibn Baso. p 1 HESPERIS. Tome XXIV Année 1937.

(2) تنص بعض المصادر على أنه بالإضافة إلى القصر الخاص الذي شيد للخليفة عبد المؤمن شيدت قصور أخرى في جوار قصر الخليفة للسادة بنيه، وإنه كذلك أقطع أعيان وجوه البلاد دياراً ومنازل في الجبل بالإضافة إلى الجامع الذي تقام فيه الصلوات. الحميري: الروض المعطار ص 121.

(3) تلميح لقول الناصر المرواني باني الزهراء:

همُ الملوكِ إذا أرادوا ذِكْرَها ... مِنْ بعْدِهِم فبالسُنِ البُنْيَان =

لو عاينها المتقدمون من آل عاد بن[1] شداد، لأقروا لهم بالعجز وفضولهم على الذين بنوا القصر من سنداد[2].

وجبل طارق هذا شريف البقعة، كريم التربة، عظيم المنعة، باسق مع أعنان السماء، يكاد في المسامتة إلى الجوزاء[3]، وكلما استودع في أرضه من البطحة المنبسطة من بعضه، نما وزكا وفضل، وجل وأثمر عن قرب لغرسه وأكمل،- واستقل من جميع الفواكه كشجر التين والعنب والتفاح والكمثري والسفرجل والمشمش والاجاص[4] والأترج والموز وغير ذلك على ضيق ضفته

= إن البناءَ إذا تعاظَم قَدْرُه ... أضْحَى يدُلُّ على عظَيم الشَّانِ!

المقري؛ نفح الطيب 62:2.

(1) كذا في نص المخطوط: «عاد بن شداد» وهو دون شك سبق قلم من الناسخ والصواب شداد بن عاد، ويذكر المفسرون من أمثال الطبري والثعالبي والزمخشري أنه كان لعاد بن عوص ابنان هما شديد وشداد، وإن الملك خلص لشداد من بعد ودانت له الملوك وسمع وصف الجنَّة فقال: «لأبنينَّ مثلها» فبنى إرم في صحاري عدن، وإنها كانت مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة. ومعلوم موقف العلامة ابن خلدون من أساطير إرم ذات العماد. ابن خلدون، 1:20-21-22. ابن جزي: التفسير جزء 4 ص 197. النجار: قصص الأنبياء: ص 70-71.

(2) سنداد نهر فيما بين الحيرة إلى الابلة، به كانت منازل اياد، وكان عليه قصر عظيم تحج العرب إليه وهو القصر الذي ذكره الأسود بن يعفر في شعره:

ماذا أومل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد

أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

ياقوت، معجم البلدان، طبعة بيروت 1957 مجلد ثالث ص 266.

(3) الجوزاء: نجم يعترض في جوز السماء، ويظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ والأصل: يكاد في المسامته يصل إلى الجوزاء، وقد علمنا أن ارتفاعه عن سطح البحر يصل إلى 425م.

(4) يذكر ابن صاحب الصلاة الاجاص على أنه شيء غير الكمثري، وأفاد في موضع آخر من الكتاب أن الاجاص فيه ضروب، منها النوع المعروف عند الأطباء بالكمثري، ومنها الاجاص المعروف بالعقر، والنوع المعروف عند أهل بلنسية بالازرة، وقد ذكر ابن الحشاء أن الاجاص هو المعروف بالمغرب بعين البقر، وبهذا يلوح أن الإجاص هنا يقصد به العبقر الذي هو تحريف لكلمة عين البقر، وقد ذكرت بعض المصادر أن الإجاص عند الأطباء يشمل البرقوق. ابن صاحب الصلاة ص 322، ابن العوام، كتاب الفلاحة: الجزء 1 ص 1802، مدريد ص 260-263 أنظر ص 181 من كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس لمؤلف مجهول. نشر ويثي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 9-15. السنة 1961-1962.

الممتـدة كالحبْـل، المستمدة من الـطل والوبْـل. وماؤه عـذب[1] زلال، مروق سلسال، وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على مـا ذكرتـه فبه قـد صنع في أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح[2] عاينها الثقات مدة البناء المذكور، فلما رجع إلى مراكش[3] [19] عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى لعدم الاهتبال بها. واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور



(1) تتحـدث بعض المصادر التـاريخية عن تـزويد الجبـل بالمياه الجاريـة الكافيـة، وفيها مـا يـذكـر أن المهندسين «حفروا في سفح الجبـل مواضـع نبع فيهـا الماء، وجمـع بعضها إلى بعض حتى سـال منها جـدول عم المدينـة كلها، من أعـذب الماء وأطيبـه، يصب في صحن عظيم اتخـذ لـه وأجـري إلى الجنات المغترسة بالجبـل...». الادريسي: نزهـة المشتاق ص 177. الحميـري: الروض المعـطار ص 121.

(2) قد يكون هذا هو المصدر الوحيد الذي ينص على وجود رحى ريح تطحن الأقوات بجبل طارق في تلك العصور القديمة وقد تحدث عن هذا الرحى (De Gayangos) دو كاينكوس نقلاً عن ابن صاحب الصلاة كما تحدث عن رحى الريح هذه: (Balbas) بالباس نقلاً كذلك، وبعدهما الأستاذ توريس.. وإذا صح أن أقدم رحى ريح تحدث في هنغاريا ترجع للقرن الثامن فإن أقدم رحى ريح توجد بالجهة الغربية هي - فيما نعلم - هذه.

Grande Encyclipédie Tome 23 P. 823 Al Maqqari Adpt Pascual de Gayangos T II. P. 314-315. Torres Balbas (Al Andalus) Vol VII Gibraltar llave y Guarda de Espana 1: 1942 P. 174.

(3) مراكش مدينة عظيمة تقع جنوب المغرب أسست سنة اثنتين وستين وأربعمائة 462، وقد اتخذها اللمتونيون ثم المصامدة من بعدهم كرسياً للملكة نظراً لقربها من صحراء لمتونة وجبال المصامدة.

الاستبصار ص 208-209-210. المراكشي: المعجب، نشر الفاسي 1938 ص 221-222. ابن خلدون سادس ص 377. العباس بن ابراهيم: تاريخ مراكش (أول) ص 63.

Provençal: la Fondation de Marrakech (Melangc, d'Histoire et d'archéologie de l'occident Musulman. Tome II. Page 117.

بناء السور[1] والباب المسمى بباب الفتوح[2] في الفرجة التي كانت يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدق به من كلا جانبيه، فجاء فرداً في المعاقـل التي لا يتمكن لطامع فيه طمع، ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بـر ولا بحر، إذ هو معقل أشِب، ومنزلٌ للسماك منتسب.

واشتغل السيد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيليـة مدة شهـور في هذه الأوامر العلية، النافذة من الحضرة الإمامية، ولازم فيهـا الاجتهاد، وقـاوم في ذلك الجهاد، يتطلع مع الساعات مبلغ أحوال المباني، وكيف التعـاون في جميع المعاني، والفَعَلة يجتهـدون في أعمالهم، وينصحـون في الأشغال قـدر طاقتهم من أحوالهم، فظهر البناء في أقرب مدة، وأبدى العـامل عليـه جهده، وأظهر نصحه بأعظم قدرة ما عنده.

والسيد الأعلى مع ذلـك يرتقب وصـول الأخبار بقـرب الخليفة من هـذه الأقـطار، فوَصله الـرقـاص بـالتحقيق، من إيـابـه والتصـديق، أنـه في أحـواز

(1) كثر الحديث عن مصير هذا السـور الموحـدي، كما كـثر الحديث عن مـا آل إليه «سـور العرب»، ويقول الماجور جنرال كينيو (1938) أن ثمة أطلالاً مهدمة قائمة إلى الآن على الصخرة العلوية تهبط متعرجة إلى القمة الوسطى وتنتهي عند حافة الهاوية المطلة على الرمال، بيد أن البروفسـور نوريس يشك في هذه الأقوال، ويرى أن طـارقاً لم يكن هـو الذي بنى الســور وإنما هـو من عمل المـوحدين الذين كانوا يهيمون بـاحاطـة المدن بـالأسوار كـما فعلوا في سور فـاس والربـاط وأسفي، لكن هذا السور الموحدي تلاشى بـدوره وحل مَحَلَّهُ سـور أبي الحسن المريني، ويتـأكد أن آثـار البناء المـوجودة الآن حوالى الموريش كاسطل: (Castle Moorish) أو القلعـة الحرة (La Calahorra) هي مـزيج بين عمل الموحدين وعمل بني مرين كما تدل على ذلك تحـليلات مواد البناء التي أجـريت من طرف بعض الخبراء. ونأسـف لعدم احتفاظ الأيام بالصـورة المجسمة (المـاكيط) التي صنعها السلطان أبـو عنان لشكل الجبل بأبراجه ومخازنه ومساجده، فلو احتفظت بها قصور بني مزين بفاس لتوفرنا عـلى معلومـات مفيدة عن الجبـل. الحميري: ص 121. ابن بـطوطـة مجلد رابـع ص 355 - 360. محمد الكانوني: اسفي وما إليه ص 79.

(2) باب الفتـوح: تجمع المصادر على أنه لم يكن هناك مدخل لمدينة جبل طـارق إلا من موضـع واحد، وهذا المدخل هو الذي يسميه ابنُ صاحب الصلاة «باب الفتوح» هذا ونعرف أن القائد جوهر جعل للقاهرة أربعة أبواب منها باب تحمل اسم باب الفتوح كما نعرف أن بمدينة فاس باباً تحمل هذا الاسم، وكذا بمدينة صبرة أو المنصورية باب الفتوح.

ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم صفحة 23-37.

فـاس [1]، وقـد استـاق في أتبـاعـه من العـرب بني ريـاح وبني جشم[2] وبني عـدي[3] وقبائلهم مـا يضيق بهم الفضا، على عـدد الـذبـاب وعـدد الحصى، فاستخار الله تعالى على النداء والحركة إلى التبرك بلقياه، وتقبيل يمناه والتيمن بمحيَّاه وعزم على السفـر في قطعـة [20] من قطع البحـر[4] ليعاين في مسيـره أحوال البناء بجبـل طارق، ويعبـر البحر الـزقاق[5] إلى العـدوة [6]، ويكون في قبّاء الأمر العزيز قد سابق السباق، وأدى البيعة والميثـاق، واجتنى اليمن الحلو المذاق.

(غدْر ابن همشك بمدينة قرمونة)

فلما كان يوم الجمعة من اليوم الذي عزم فيه بعد الصلاة ان يسيـر، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول وبموافقة اليـوم الثاني والعشـرين من مارس

(1)تقع فاس على مقربـة من وادي سبو شمـال الأطلس المتوسط، وقـد ظلت الطريق الـطبيعي الذي يربط بين العاصمة الموحدية وجزيرة الأندلس من جهة وبين إفريقية وباقي أطراف الامبراطورية من جهة أخرى. . . وقد كان عبد المؤمن يتعمد التعريج عليها جيئةً وذهاباً بالرغم من وجود طرق ثانوية أخرى إذ أنه كان من طلبة العلم بها أيام شبابه. الإدريسي: نزهة المشتاق 64.
الاستبصار ص 181. ابن عذاري: البيان المغرب، المخطوط ص 37-125-126. الاستقصاء: ثـان ص 63.
Celerier: L'Atlas et la Circulation au Maroc Hes 1927 T VII P.442 محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص 10-11.

(2)كان أصل دخول بني جشم إلى المغرب أن الموحدين ـ كـما ترى ـ لما غلبوا عـلى أفريقيـة أَذْعَنَ لهم هؤلاء بالطوع والكراهية كـذلك. وعن أصلهم ونسبهم، أنـظر ابن خلدون، المجلد السادس ص 58 - 68. الاستقصا ثان ص 146.

(3)من بني هلال. ابن خلدون سادس ص 355-356-357-913.

(4)اشتهر المسلمون في العصور الوسطى بقوة أساطيلهم ووفرتها، وكان لهم كما يحكي التـاريخ في كـل جهـة (دار صنعة) للقـطائع البحـرية، ولكـثر ما ذاع ذلـك يرى بعض البـاحثين أن كلمـة ارسنال (Arsenal) تحريف فقط عن (دار الصنعة) المعهودة لدى المسلمين لصنع الأساطيل البحرية.

(5)بحر الزقاق، هو البحر المتوسط وربـما سمي بحر الشـام، وبحر الـروم وبحر الاسكـنـدرية وبحـر القسطنطينية، وبحر الافرنج، وتذكر بعض الأخبـار أنه كـانت هناك قـنـطرة بين سـاحل الأنـدلس وطنجة من بناء ذي القرنين طولها اثنـا عشر ميلاً. معجم البلدان أول ص 345. الـروض المعطار ص 83.

(6)يعني عدوة المغرب.

العجمي[1] عام خمسة وخمسين وخمسمائة خرج من الصلاة من الجامع فحين انفتل منها، ودخل في القطعة المذكورة، ووصله الخبر بغدر الفسقة أصحـاب ابن همشك مدينة قرمونة[2] بتدليس الشقيّ عبد الله بن شـراحيل[3] فيهـا، وبأن الموحدين الذين بها احتضنـوا وامتنعوا بقبَّتهـا، فخرج السيـد الأعلى المذكـرر من القطعة في تلك الساعة وكان باقي ذلك اليوم باشبيلية يوماً عصيباً.

أحدث هذا الخبر فيها حوادث سوء وخطوباً، وفتنـاً وحروبـاً، وردّ الولـد ان من عظيم الأزمات شيباً، وامتنع السيـد الأعلى من سفره، ورجـع إلى مقره وحضره، ووجه عسكراً إليها على ما ذكرته في (التاريخ[4])، وتكدرت الأحوال بهذا الطارىء من الخبر وكدره، ونظر السيد الأعلى ـ أعلا الله أمره ـ في مقابلة هذا العدوّ بما وعد الله تعالى هذا الأمر العزيز في العاجل والآجل من عـواقب

(1)اعتاد ابن صاحب الصلاة اقتداءً ببعض من سبقـه من المؤرخين القـدامى، أن يوفق بـين التاريـخ القمري والسنوات الجـوليانيـة، لكنه في أغلب الأحيـان لا يوافق الجـداول الجاري بهـا العمل من أمثـال جداول الـدكتور: Cattenoz والمـوافق هنا هـو 25 مارس 1160. هذا ويلوح من النص أن السيد أبا يعقوب كان يريد أن ينزل كما نزل أخوه إلى جبـل طارق لـولا غدر أصحـاب ابن همشك بمدينة قرمونة، كما تستفاد من النص السرعة المتناهية التي استقبل بهـا مشروع بنـاء المدينـة الكبرى على جبل طارق فإن الرسالة الثانية أُرِّخت في التاسع من ربيع الأول 555 وحملت «في أقرب تاريـخ عن طريق البحر». انظر المن بالامامة ص 10-20.

(2)قرمونة (Carmona)، تقع عـلى مقربـة من اشبيلية في الشمـال الشرقي منهـا، وهي مدينـة كبيرة قديمة في سفح جبل، وجنباتها حصينة ممتنعة، ومن أبوابها باب يرني، وبـاب قرطبـة وباب قلشـانة وباب اشبيلية، وبها جامع من سبع بلاطات على أعمدة رخام وأرجل صخر وبداخلهـا آثار كثيـرة للأول إلا أن جله اندثر. . .
الـروض المعطار: ص 158 - 159. أحمـد بن المهـدي الغــزال، نتيجـة الاجتهـاد في المهـادنـة والجهاد، نشر الفريد البستاني طبعة تطوان 1941 ص 34.

(3)نفس ما عند ابن عذاري، وابن الخطيب. انظر البيان المغرب ص 29 وكتاب أعمال الاعلام ص 261.

(4)يعني تاريخ المريدين كما سيؤكد بعد سطور، ومن حسن الحظ أن يعتمـد ابن صاحب الصـلاة على هذه الإحـالة وأن يفيد هنا ذكر أخبار قرمونة ص 45 فان المصـدرين الوحيـدين اللذين ردَّدا صدى كتـاب (تاريـخ المريـدين) ـ فيما نعلم ـ هـو الحلة السيراء لابن الأبـار والذيـل والتكملة لابن عبـد الملك، ولكن ابن الآبار بالرغم من تعرضه لبعض الثوار نقـلاً عن ابن صاحب الصـلاة أهمل ذكـر أخبار قرمونة في أحداث المائة السادسة: الحلة السيراء 199-202-206-213-223.

النصر حسب ما قد ذكرته في (تاريخ المريدين) وحسب [21] ما أعيد ذكره في «هذا التاريخ»[1] بعد الفراغ من ذكر الورود السعيد الميمون الطالع بالتأمين والفتح المبين: ورود سيدنا ومولانا الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه وعبوره البحر الزقاق إلى جبل طارق.

ذكر عبور الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبي محمد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه البحر من سبته[2] إلى الأندلس ونزوله منها في مرفأ[3] جبل طارق

وذلك في شهر ذي القعدة من عام خمسة وخمسين وخمسمائة الموافق لشهر ينير[4] العجمي من العام المؤرخ به عند إيابه من غزوته المهدية وفتح جميع إفريقية ليجتمع بطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم والمحاربين في نواحيها.

قال الراوية: وبرز إليه يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم، وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدم في سالف الأزمان، ولا تخيل مرآه في الأذهان.

---

(1) عبارة صريحة في أن لابن صاحب الصلاة كتابين: الأول سابق وهو تاريخ المريدين، والثاني لاحق وهو هذا التاريخ، هذا وسيذكر أخبار قرمونة ص 45 كما سلف قريباً.

(2) سبتة من العدوة المغربية تقع على شاطىء المتوسط يُحيط بها البحر من ثلاث جهات وهي قديمة فيها آثار كثيرة، وعن مدرستها تخرج علماء جلة، وعلى مقربة منها تقع قرية بليونش حيث يوجد (جبل موسى بن نصير) الذي كان منه عبوره لأول مرة إلى ساحل طريف.. الادريسي ص 167. الاستبصار ص 138 - 137.

(3) كذا كتب في الأصل ولعل الصواب مرفأ بالفا أو المرقى بالياء، هذا وقد تعود الجيش الموحدي أن ينزل غالباً بجبل طارق كلما كان إبحاره من سبتة كما اعتاد أن يقصد طريف كلما تحرك من قصر مصمودة أو القصر الصغير، دوكاستري، فرنسا السلسلة الأولى. المجلد الأوّل ص 124. تعليق 3.

(4) ذو القعدة يوافق في الواقع نونبر - دجنبر 1160.

قال المؤلف[1]: ولما أنارت الآفاق بالعدوة والأندلس بالبشائر الواصلة بقرب الخليفة في الإياب من المسير، على أوفى الظفر والتيسير، أنفذ السيد الأجل الأعلى أبو يعقوب [22] عزمه الأول بالإسراع، والوخد والذميل لبركة اللقاء والاجتماع، واستناب باشبيلية من طلبة الموحدين - أعانهم الله - من ينوب منابه في محاربة أهل قرمونة الأشقياء أصحاب ابن همشك، على ما أذكره بعد فراغي[2] من ذكر هذا العبور السعيد. وتقدم وواصل سيره للقاء وأبرم بجملة أصحابه من أبناء الجماعة الجلة أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي[3]، وأخيه أبي يحيى[4]، وأبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم[5] وأبي يحيى بن أبي حفص ابن يحيى[6] وأصحابهم الموحدين وشيخ الرؤساء بالأندلس أبي العلاء بن عزون وأشياخ الأجناد والقواد الأندلسيين.

ووفد السيد الأجل أبو سعيد بجميع أشياخه من الموحدين وأبناء الجماعة أصحابه وحفاظه وأشياخ غرناطة وأنظارها ووصل الجبل المذكور يوم وصول السيد الأعلى أبي يعقوب. ونفر الناس عند مشي هذا السيد الضخم

---

(1) أخذ المؤلف يعتمد على ما شاهده هو من أحداث وهو في الأندلس.

(2) ابتداء من صفحة 36.

(3) هذا هو أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الذي عُيِّنَ والياً على اشبيلية من لدن عبد المؤمن في الوقت الذي عين فيه عبد الرحمن بن تيجيت، وذلك سنة خمسين وخمس مائة، وقد استمر في مهمته مجاهداً مخلصاً إلى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة عندما ولد أشياخ الأندلس - وهو من ضمنهم - على الحضرة يقترحون على الخليفة تشريفهم بوال من السادة وآنذاك تم تعيين ولده السيد أبي يعقوب يوسف، وقد استشهد أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي في موقعة مرج الرقاد عام 557.
ابن صاحب الصلاة ص 53-54 ابن عذاري ص 11-12-13.
Dozy: Recherches.. Page 375.

(4) أبو يحيى بن أبي حفص بن علي، وقد اختفى ذكره باختفاء أخيه الوالي الشهيد.

(5) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من رفاق ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته، وقد ترجم له ترجمة كاملة صفحة 152.

(6) من الوفد الذي بعث به أبو يعقوب يوسف إلى قرطبة للاتصال بأخيه أبي سعيد عثمان في شأن الحصول على طاعته لأخيه وذلك إثر وفاة عبد المؤمن، ثم رافق الوفد لجبل طارق عندما تم إصلاح ذات البين.

من أهل اشبيلية من شيوخها وطلبتها وأعيانها وقاضيها أبي بكر الغافقي والشيخ الحافظ أبي بكر بن الجد [1]، وابنيه [2]، وسائر أهل النباهة باشبيلية من الكبراء والشعراء وكذلك أهل قرطبة وجميع الأقطار والأنظار التي تحت طاعة الموحدين أيدهم الله ووفد إلى ذلك أهل غرب[3] اشبيلية من كبرائهم وشيوخهم وطلبتهم وشعرائهم [23]. . .[4] ادهم وأجنادهم ووصل هذا الجمع على أوفى العموم إلى الجبل بذلك المشهد العظيم، والمسلك الكريم.

وعلم الخليفة رضي الله عنه بوصولهم وحلولهم وبيدارهم وإسراعهم واجتماعهم فأمر وزيره ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يجمع الوفود من كلّ البلاد وأن يدخلهم إليه بمجلسه العالي للسلام ولتجديد البيعة الكريمة وتقبيل اليد المباركة منه والاستسلام. فدخلوا على ترتيب وتأديب وسلموا سلام جماعة وتكلّموا اقراراً بالطاعة، وتقدم أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي [5]مع القاضي أبي بكر الغافقي لتعيين أهل اشبيلية وتسميتهم وأهل الغرب، وكذلك قاضي قرطبة في تعيين أهل قرطبة ونظرها. وقام الخطيب أبو

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد الفهري، سمع ببلده لبلة كتاب سيبويه، وأخذ كتب اللغات، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد فناوله هذا كتاب البيان والمقدمات، نال حظوة عند الملوك، وكان حافظ المغرب لمذهب مالك وقد كان في جملة الوفد الذي قدم على عبد المؤمن صحبة أبي بكر بن العربي. توفي باشبيلية في شوال من سنة 586. ابن الابار: التكملة لكتاب الصلة (كوديرا) رقم 825. الحلل الموشية ص 34 - 122. البستاني: دائرة المعارف مجلد ثان ص 403.

(2) لعله يعني بهما ولديه عبد الرحمن وأحمد اللذين كانا أول القادمين لفاس من عائلة بني الجد المجيدة، نعرف له ولداً آخر اسمه عبد الملك. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 953. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب. تعليق الهاشمي الفيلالي 182:2 الرباط 1936.

(3) الغرب (Algarve) يعني غرب الأندلس. . . وتعرف به ناحية لشبونة ويابرة. انظر خريطة بروفنصال.

(4) الخطوط السبعة التي توجد تحت الكلمات التالية تُشير لكشط يوجد أوائل السطور السبعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا في ملئها بكلمات مناسبة.

(5) تقدم في التعليق رقم 3 ص 93 أنه كان والياً على اشبيلية قبل تعيين السيد أبي يعقوب، لكنه ظل محل تشريف وظل كأنه الوالي الشرفي، ولذلك نراه اليوم يقوم - مع قاضي اشبيلية - بمهمة تقديم الوفود للخليفة عبد المؤمن.

الحسين بن الاشبيلي [1] وصاحبه أبو محمد بن جبل [2]وأبو محمد المالقي[3] وخطبوا على انفراد، كل واحد منهم خطبة في حق البيعة ولزومها، وربط الشرع لعهودها ورسومها، وأفصحوا بما خطبوا، وجاؤا من كلامهم بالسحر الحلال وأطنبوا، ثم أذن لهم بالقرب بتقبيل إليد المباركة على ما بين من البيعة على الإيمان والأمانة، ولزوم الوفاء بالطاعة والديانة، وأذن للشُّعراء في[4] الانشاد، بذلك المجلس العالي الشريف العماد، فأوردوا ما نظموه من فكرهم بمحضر الوارد والرواد، واحتفال الوفود [24] والاشهاد، فقال أبو بكر بن المنخل الشلبي[5] مهنئاً مادحاً، وفي ذلك الجمع منشداً مادحاً وقال: (طويل)

فتحتمْ بلادَ الشرقَ فاعتمدُوا الغرْبَا ... فإن نسيمَ النصر بالفتْح قد هبَّا[6]
أصَرتم إليه الخيلَ وهي أجادلُ ... فسالتْ بكم بحراً وطارتْ بكم ركبا[7]

(1) هو علي بن محمد بن خليل أبو الحسين عرف بابن الاشبيلي، سكن المرية وأخذ عن أبي القاسم بن ورد وقد كان خطيباً مفوهاً، وقد أخذ عنه أبو القاسم بن الملجوم وأبو عمرو بن عثمان بن عبد الله وكذا عبد الملك ابن صاحب الصلاة، توفي بمراكش سنة 567. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1862، المن بالامامة ص 85.

(2) هو عبد الله بن جبل صاحب ابن الاشبيلي والخطيب بعده، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان. المراكشي: المعجب طبعة 1949 ص 200. المن بالامامة ص 85-86.

(3) انظر التعليق رقم (1) صفحة 71.

(4) يذكر المراكشي أن العادة المتبعة لدى الخليفة عبد المؤمن في مناسبات التهنئة أن يستأذن الشعراء في الانشاد «فيؤذن لهم» لكنه هذه المرة - مناسبة بناء مدينة جبل الفتح - استدعاهم ابتداءً. المراكشي: المعجب، طبعة 1949 ص 213.

(5) محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن المنخل الفهري، يكنى أبا بكر، كان من الأدباء المتقدمين والشعراء المجيدين مشاركاً في علم الكلام، من شعره:

مضَتْ لِي ستٌ بعد سبعين حجةً ... ولي حركاتٌ بعدها وسُكُون
فيا ليتَ شِعْري أيْن أو كَيْفَ أو مَتَى ... يَكُونُ الَّذي لا بُدَّ أنْ سَيكُون؟!

وقد توفي في حدود الستين وخمسمائة.
ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 730، ورقم 1427. الحلة السيراء 205.
المقري، النفح، 5:213-254.

(6) الخطوط الأربعة التي توجد تحت الكلمات تشير لكشط يوجد أواخر السطور الأربعة الأولى من الصفحة وقد اجتهدنا لملئها متى غلب الظن.

(7) في ابن عذاري (شهبا) ص 24.

ودسْتُم بها هاماتِ كلّ مضلّلِ   ولم تتركُوا عجماً هناك ولا عُرْبا
رميتُم بها مثلَ السِّهام فأصبحتْ   كُماتُهم صرعى وأموالُهم نهْبَا
اتوكم يجرون الحَديدَ سوابغاً   كأنهم البحرُ الغَمالط قد عبَّا
وظنوا - وفي الظن الجهالةُ - أنَّهُمْ   يفلُّون من أجنادك الصارم العضبا
فلما تلاقيتم وبيَّنَت الوغى   تولوا وقد طارتْ قلوبُهم رُعْبا
اضلَّتهم البيضُ الصوارم والقَنَا   فكانت لهم رفعاً وكانوا لَها نَصْبا!
وقادتُهُم تلك السيوفُ إلى الرَّدَى   وما غادرتْ سهْلَ القِيادِ ولا صَعْبا!
ورامُوا فِراراً والرماحُ تنوشُهُم   فما قَطَعُوا فجّاً ولا سَلَكُوا شعبا
وخَرُّوا جميعاً هامدين كأنَّهُمْ   ندامى تساقوا بينهم أكؤسَ الصَّهبا
تَغَشَّتْهُمُ سُودُ المنايا فأصبحت   مفارقُهم تغشى الجنادِلَ والتُّرْبَا!
وهبَّت عليهمْ ريحُ بأسِكَ حَرْجَفاً   فما تركتْ نَبْعاً عليهم ولا قضْبَا
لقد حكّمت فيهِمْ ظُبَى الهِنْدِ رأيها   تقتِّلهُم ضرْباً وتُوسِرهم سِرْبَا
وكانوا لكم جُنْداً فصارُوا غنيمَة   كذلك من يُزهي بآرائه عُجْبَا
فروكم عتاقاً شُزَّباً وعواتقاً   بما قد قَراهم جيشُك الطَّعنَ والضَّربا
اقيموا إلى ابن الرِّيق[1] بعد صدورها   وليس عَلَيْكم أن ترى ضُمَّراً قُبّا[2]
[25] رعتْها الفيافي فاستدقت جسومها   بما قَد رعتْ فيها الكلا يَابساً رطْبا
عليها رجالٌ كالقِداح، وإنَّما   يكونُونَ في الهيجَاءِ هِنْديةً قضْبا
فإن تَبْدؤا بالغَرْبِ فالفتحُ واضحٍ   وإنَّ نجومَ الدِّين طالعةٌ غربا
ضمان عليكم أن تبيحوا حَريمَهُ   وأن تكسروا فيها التماثيلَ والصلبا
وأن تُوردوها نهر (دُويْرُ[3]) صواديا   فتأنف أن تسقى بها البارِدَ العذبا.

(1) ابن الريق هذا هو الفونسو هنريكيز (Alflnso Enriquez) وقد تسميه المصادر كذلك ابن الرنك، او صاحب قلمرية، أي صاحب البرتغال لأن قلمرية آنئذ عاصمة البرتغال. المراكشي: المعجب 320. ابن الخطيب: الاعلام ص 251. أشباخ: تاريخ الأندلس، ترجمة عبد الله عنان طبعة 1958 ص 242-245-279. - Terrasse: Histoire du Maroc II P. 321

(2) القب: العظم الناتيء من الظهرين، ويكني الشاعر بهذا عن هيف المطايا.

(3) نهر دُويرُه (Duero) من الأودية الأربعة التي تصب في المحيط، وادي مينو، وتاجه، وآنه، وهو ينحدر من جبال قشتالة القديمة ويصب عند البرتغال في بورتو (Porto) غربي الجزيرة، وتسميه =

تعافُ غيرَ الماء صفواً، فإنْ جَرَى   بِهِ من دَم الأعداء أفنَيْتَه شُرْبا!
ومَن تَخِذَ الآسادَ حرْبِه   أعد مُجَاجات الكُلوم له شِرْبَا
يلوذُونَ في الهَيْجَا بأروعَ ماجِدٍ   إذا دَارتِ الهيْجَاءُ كانَ لَها قُطْبا
وان عصفت ريح الوغى أحْدَقُوا بِهِ   فكانوا لَهُ جِسْماً وكان لَهُم قَلْبا
مليكٌ كأنَّ الأرض قبضةُ كفِّهِ   فلا بُعْدَ فيما ينتحِيه ولا قُرْبَا
لِكفَّيْه فضْلٌ بانَ عن كلِّ فاضِلٍ   إذا شَدَّ عقْدَ السِّلْم أو بَعَثَ الحرْبا!
إذا أجْدَبت أرضٌ نحاها بجُودِهِ   فما أغْزَرَ السُّقْيا وما أكْثَر الخصْبا!
وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ الخفياتِ أمْرَه   لما دَرَسُوا صُحْفاً ولا صَنَّفوا كتبا!
وَقدْ كان هَذَا الدّينُ ولَّى شبَابُه   فلمَّا تولَّى الدِّينُ لم يعْدُ أن شَبَّا
إذَا ما ذكرناه وقد ضاق أمرُنَا   تفرَّج حتَّى صَارَ متَّسعاً رحْبا!
كذلك مَن يَلقى الخَلِيفَة تلْقَه   بَشائِرُ يستجْلِي بِها السَّهْلَ والرَّحْبا!
نسيْنَا بِهِ ابناءنا وديارنا   فها نَحْنُ لا نرتاح إن ذَكَرُوا شِلبا[1]
بلادٌ قضى فيها الشَّبَاب مآربِي   وأبقى لنفسي ما بقيت بها إربَا[2]
تبشِّرُنا عنه الصَّباحُ بغُرَّة   إذا طَلَعَتْ حيّت ببهجتِها الركبا
[26] فقل لابنِ رَيمُنْد[3] تأهَّب لغزوة   يُسدُّ عليكُمْ جَيْشُها الأفتحُ السُّهبا!

= العرب بالوادي الجوفي. هذا ويضبط الاسم بضم الدال وتسكين الياء وضم الراء ليستقيم وزن البيت. ابن الخطيب، أعمال الاعلام ص 67. أشباخ: تاريخ الأندلس ص 236. شكيب ارسلان: الحلل السندسية، الأول 28.

(1) شلب (Silves) تقع على مقربة من شاطىء المحيط الأطلسي غربي جنوب مدينة باجة، وشمال غربي شنتمرية، عليها سور حصين ولها غلات وجنات.
الحميري: الروض المعطار ص 106-107-108.

(2) البيت يميل لقول الشاعر:

بلد صحبت به الصبابة والصبا   ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثّل في الضمير رأيته   وعليه أغصان الشباب تميد

ويشير لقول ابن الرومي:

وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضّاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم   عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا

(3) ابن ريمند يعني به - والشاعر يتكلم سنة 555 (1160) - ريمند بيرانكير الرابع (Raimundo Berenguer IV) المتولي بعد وفاة أبيه ريمند الثالث سنة 525 (1131)، وقد تلقب بالقديس واتفق مع =

إذا جرِّدتْ فيها السيـوفُ حسِبْتَها ... جَداوِلَ رَوْضٍ، والرماحَ بـهِ قضْبا

كـأن نَعام الـدوِّ بـاضَتْ بـأفقِـه ... وقد لقحتْ هُوجُ الرياح بِـه سُحْبا!

وإن عثـرت أعـلامُـه لمُحـارِبٍ ... جـرى دَمُه من تحْتِهَا وابلاً سَكْبَا

وإن لقيت هِضْبـاً حـوافـرُ خَيْلِهِ ... أصارتْه سَهْلاً لا ترى فَـوْقَه هَضْبا

إذا جـاوزت دَرْبـاً إليكـم فـإنَّمـا ... يجُـوزُ وشيكُ المـوتِ نحوَكمُ دَرْبَـا!

وان يقض نحْبـاً منهم ذُو بَسـالـةٍ ... فمن نفْس جبَّارٍ لكم يقْتَضي النَّحْبَا!

ويسْتنْشِدُ البطريقُ[1] في عـرصاتِكم: ... «فدَيْناكَ من رَبْعٍ وإن زدتنا كـرْبا[2]»

امـرسلَها شُعْثَ النـواصِي سَـوَاهِمـا ... ومُصْدرهـا شُقْراً وقـد ورَدَتْ شُهْبـا

تـرفَّقْ علينـا إنهـا خَيْـر مَكْسَبٍ ... وأفضَـلُ مَـال المَـرْءِ أَفْضَله كَسْبـا

فَلوْ لم تُجِزْهَا السُّنُ نَحْو عـدوِّهـا ... لجَـازَتْ إليـه البَحْـرَ تقـطعُـه وثْبَـا!

فمـا اعـطت العُـرْبُ القِيـادَ طَـواعَـةً ... ولا أسْمَحت ودّاً، ولا أذْعَنت حُبّـا!

ولكن رأتْ شُهْبَ الهُـدَى مُسْتَنيـرَةً ... فخَـافَتْ رُجُـوماً مِنْ أسنَّتِـه شُهْبـا!

رأوا بـكَ دينَ الله كيْـف اعتـزَازُه ... وانتُم لـه حربٌ فكـانـوا لَـهُ حَـرْبَـا.

= رامير الثاني ملك أرغون، على أن يتزوج بالأميرة بِتْرُنيلّة (Petronilla) وارثه مملكة أرغـون، ثم لما خلع رامير نفسه من ملك أرغون واختار الـرهبانيـة بايـع أهل أرغـون ريمند الـرابع ملكـاً عليهم، فصارت في يده قوة عظيمة وتحالف مع اذفونش ملك قشتمالة واستمر ملكاً إلى سنة (1162) 557. هذا وليس ببعيد ـ كذلك ـ أن يكون القصد بابن ريمند أذفونش الصغير حفيد ريمند المعروف تحت اسم الفونسو الثامن (El Rey Chico)، هذا بالإضافة إلى إمكانيةاحتمال الابـن الحقيقي لريمـوند وهو فرنـانده البيـوج فهي اعتبارات ثـلاثة. تـرقَّب تعليقاً ص 230 من المن ابن الخـطيب: أعلام الاعلام ص 337. الحميري: الـروض المعطار ص 43 - 42 التـرجمة الفـرنسية ص 54. أشبـاخ: تاريخ الأندلس ص 258 - 254. شكيب ارسلان: الحلل الهندسية جزء ثان ص 220.

Melchor Antuna: Al Andalus Vol 1 1933 P. 105 - 153.

ابن خلدون: رابع ص 397.

Dozy: Recherches P. 115.

(1) البطريق (Patriarche): رئيس الأساقفة وقبل انفصال الكنيسـة الشرقية عن الكنيسة الغربيـة كان يوجد خمسة بطارقة، وبعد انفصالها بقيت الكنيسـة الشرقيـة تنقسم إدارياً إلى أربعـة بطارقـة بينما صار لقب البطريق في الكنيسة الغربية لقباً تشريفياً فقط.

(2) فيه من البديـع الايداع وهـو من أنواع التضمـين، فلقد أودع فيـه ابن المنخل من شعـر المتنبي في مَدح سيف الدولة:

فـديْنـاك من ربـعٍ وإن زدتَنا كـربـاً ... فـإنك كنت الشَّرق للشمس والغربـا..

وقام محمد بن المدهور وأنشدَ لأبي العباس الأستاذ بن سيد[1] الإشبيلي ـ عـرف باللص ـ هـذا أبو العبـاس يعرف بـاللص وإنما سمي بـاللص لقولـه:

(مضارع)

[27] جَـلَبْتَ قـلبـي بـطَرْف ... أبـا الـحُسَـيْـن خَـلُوب

فـلِمْ أُسَـمـى بِـلصٍّ؟ ... وأنْـتَ لِصُّ الـقُلوب[2]!

يعني أبـا الحسين فَنْدَلـة[2] في أيام الفتـوة، قصيـدة بعثهـا معـه إذ كـان ضعيفاً عن الوصول بها: (بسيط)

غـمِّضْ عن الـشَّمْسِ واستَقْصِـر مَـدَى زُحَـل[3] ... وانـظُرْ إلى الـجَبَـل الـرَّاسِي عـلى الـجَبَـل؟

أنَّى استـقـرَّ لـهُ أنَّى اسْتَقَـلَّ بِـهِ ... أنَّى رأى شخصَه العَالِي وَلَمْ يَـزل[5]

إنَّى أطاقَ لـه حَمْلاً وقـد عَجَـزَتْ ... عنـه الصُّـدُورُ، وفيهـا كـلُّ مُحْتَمـل

وَمَـنْ تَكُـنْ رُحُبُ الأذْهَـانِ ضَيِّقَـةً ... عن حَمْلِهِ لم يَسعْـهُ أرْحب السُّهُـل!

لـكِنْ رَأى جـارَه ذا الـلُّج يـحمِـلُه ... فكـانَ ما كـان بَين العَجْزِ والفشَـل[6]

لِتَـهْـن أنْـدَلُـسـاً أن زَارَهـا مَـلِكٌ ... أحْيَى وأنـشَـر فيـهـا ميّـتَ الأمَـل

وَمَنْ تَكُـن عـادةُ الإحيـاءِ عـادتـهُ ... هـانَتْ على راحَتَيْـه جمْلةُ الـعِلَل!

خلِيفَـةُ اللهِ مَـا جَـاء الـزَّمَـانُ بِـه ... إلَّا لـيـرفُـوَّ مـا فِيـه مِنَ الـخَلَل

تغَنَى بعَـزْمـتِـه الأقْـدَارُ مُجْلِيَـةً ... عَنْ حَادِث جَللٍ في الحادِث الجَلل

(1) هو أحمد بن سيد الاشبيلي، وهو غير ابن سيد المالقي، أقرأ العربية والآداب واللغات، وكـان قائماً عليها متحققاً بصناعتها شاعراً مع ذلك مفلقاً، وقد توفي سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمس مائة، التكملة طبعة بيل - ابن أبي شنب ص 98 رقم 212. المراكشي: المعجب ص 217. المقري: النفخ 17:5 - 18 - 325. ابن سعيد: المُغرب نشر شوقي ضيف أول ص 202.

(2) صفوان بن ادريس، زاد المسافر نشر عبد القادر محداد بيروت 1939 ص 52. انظر نفح الطيب جزء خامس ص 332-335.

(3) المقري: نفح الطيب تعليق عبد الحميد جزء خامس ص 22.

(4) زحل: كوكب تحيط به منطقة نيرة يضرب به المثل في العلو والبعد كما قال الطغرائي:

وإن عـلاني مـن دوني فـلا عـجـب ... لي أسـوة بانحـطاط الشمس عن زُحـل!

(5) لم يزد المراكشي في المعجب على هذين البيتين ص 217.

(6) أضاف صاحب زاد المسافر هذا البيت على البيتين الأولين ولكن فيه عوض العجز (اللعي).

دُون الخِلافَة في أجْفانِه زَمَعٌ، | مذهَّبٌ سيفُه لمْ يَهْدِ في الخلل
فاستله قَبساً تزكو لَهُ شُعَلٌ | تكادُ تَحْرق دِرْعَ الفارس البَطَل
كالظُّلَّةِ التَهبتْ من كلِّ ناحيةٍ | حتَّى رمَتْ بالتي تَرْمِي عن الطَّلَل
عجِبْتُ أن يَتَصدَّى المُمْحِلونَ لَهُ | وما بأعطافه نَضْحٌ من البَلَل.

[28] وأن يُقِيمَ مِنَ المَيْلِ المُبينِ ولا | يُقيم ما بعرارِيِّه من الهَبَل
ملك إذا تَشْغَل الدُّنْيا أخا تَرَفٍ | ألفَيتَه بالمَعَالي جَدَّ مُشْتَغِل!
وإن نظَرتَ إليه وهو مُنْفَرِدٌ | رأيتَ فيه جميعَ النَّاسِ في رَجُلِ!
مَا زَال يُغْضي فيُعْطي صافحا كرما | والصَّفْحُ قدْ يَحمِلُ العاصي على الزَّلل
حتَّى إذا خطرَ العَاصي بخاطِرِه | لم تَرْجُ فِتْراً لهُ الأيام في الطَّوَل!
وكَمْ لـه وقْعَةٍ في كلِّ طَاغيةٍ | عَلَتْ على وَقعاتِ الأعْصُرِ الأوَل
يعرُوا المُحَدِّقَ في تَردادِها نظَراً | ما لَيْس يعْرُوه من صفِّين [1] والجمل [3]
سَمَا إلى الشَّرق يجتابُ اليبابَ به | عُتْقُ المَهارة والمَهْرِيَةِ الذُّلُل
والمُلك ليسَ بمُرسَاةٍ قَواعِدُهُ | ما لَمْ يقُمْ بين أيْدي الخَيْلِ والإبْل!
وجَحْفَلٍ لِجب سُدَّ الفَجَاجُ بِهِ | وأعثرَ الطَّيْرَ منهُ في ذرى الأَسَل
تعدُو ذكَاءُ وهْي قد نهبتْ | فتستجِدُّ أناةً من سَنَى المُقَل
مصاحباً مِثْلَه في اليَمّ متَّصلاً | منْه بحَزْمٍ وعَزْمٍ غَيْر مُنْفَصِل
مِنْ كلِّ عائمَةٍ في شَكْلِ طائرَةٍ | تَشاكَل الأمْرُ فيها كلَّ منتكل
هِيَ الأسَاودُ إلاَّ أنَّها خُشبيَتْ | أسْداً فطالَتْ ولَوْلا الأسْد لم تطُلْ
فدوَّخ الأرضَ لم يعْتَص لهُ مَلِكٌ | إلاَّ وصيَّرهُ أعْفى من الطَّلَل!
ولا تَمنَّعَ جيْشٌ أن يَدِينَ لَهُ | إلاَّ توزَّعَ بَيْن القتْلِ والنَّفَل
تُزْهى بملكٍ قديرٍ كلُّ مَمْلكةٍ | ويَزْدهي ربُّها إنْ عُدَّ في الخَول!

(1) صفّين: موضع بقرب مدينة الرقة تقع غربيها حيث كانت الواقعة الشهيرة بين علي رضي الله عنه ومعاوية سنة 37.
ابن خلدون: المجلد الثاني صفحة 1096-1114.

(2) يعني الوقعة العظمى المعروفة بوقعة الجمل التي كانت سنة 36 في البصرة. ابن خلدون، 2: ص 1961-1090.

حتَّى إذا اسْتَوْسَق الأمْرُ العلي لهُ | بالشَّرْقِ كَرَّ لنصْر الغَرْب في عجَل!
فكان كالنَّوْم في أجْفَانِ ذي سُهُدٍ | أو كالأمَان على أحْشاء ذِي وَجَل!
[29] أضْحى بكرته الإسلامُ في جَذَلٍ | والمُشركون وأهْلُ الكُفر في جَدَل:
كُلٌّ يُولِّي صريحَ العَدْل صَاحِبَه | والسَّيفُ يَسْبِق مَا يَأتي من العَذَل
اسْتأسَدُوا عِنْدَ منْآه! وغرَّهُمُ | أنْ عَادَلُوا بين مُشْتَعِلٍ ومستفِل!
أيعدل الغيمُ غُرَّ المزن لَوْ عَقَلُوا | أو يُجْعَل السَّمَل المشفوه، كالسَّبَل [1]
أبلغْ ذَوي الشِّرْكِ والإلْحادِ قاطبةً | أنْ مَا لَهُم من جُنودِ اللهِ من قِبَل!
أتاكم الجَيْشُ محفوفاً جوانبُه | بالمَشْرَفيَّةِ [2] والخطيّة [3] الذُّبُل
ريعُوا إلى السِّلْمِ والاسْلام ويحكُم | لا تَحْسبُوا دَولَة التَّوحيدِ كالدُّول!
فإن اتيتُم حقنْتُم مِن دِمَائِكُمُ | وإن أبيتُم فخَلفُوا فَجْأة الأجَل
والله يُخلد مولانا وسيّدنا | حتّى يبلّغ فيكم غايَةَ الأمَل!

قال الراوية لما أنشد المنشد هذه القصيدة بين يدي أمير المؤمنين أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر: «غمّضْ عن الشمس» وقال على مسمع من الناس: «غمِّضْ! غمِّض!» منكراً لها [4] لأنه كان يحب الفأل

(1) السمل: بقية الماء في الحوض، والسَّبل: المطر بين السَّحاب والأرض، وماء مشفوه: كثيرُ الشاربة، كذا في لسان العرب. وقد كتب الناسخ طرة تعليقاً على هذه المفردات يقول فيها - فيما قرأنا - «كذا في أصل المؤلف» ذكر صاحب العين: (السمل بالميم: الماء القليل، والسبل بالباء: الكثير من الماء، المشفوه: يعني بالشفة) وهو يعني بصاحب العين الخليل الفراهيدي في كتابه المسمى «العين» (مخطوط). انظر مقدمة كتاب مختصر العين، تحقيق علال الفاسي ومحمد بن تاويت. طبع 1963.

(2) أي السيوف المشرفية نسبة إلى قرى من أرض العرب تدنو من الريف اسمها مشارف الشام ويقال أيضاً أن النسبة إلى موضع باليمن.

(3) أي الرماح نسبة إلى الخط: موضع باليمامة، خط هجر، تنسب إليه الرماح الخطية لأنها تحمل من بلاد الهند فتقوَّم به، ومنه:

وهل يُنْبت الخطّي إلا وشيجه

(4) في المعجب أن عبد المؤمن توجه إلى الشاعر - الذي يعتقد المراكشي أنه كان حاضراً بنفسه - قائلاً: لقد ثقلتنا يا رجل! فأمر به، فأجلس، قال المراكشي: وهذه القصيدة من خيار ما مدح به لولا أنه كدّر صفوها بهذه الفاتحة. المعجب، القاهرة ص 217.

الحسن، لكنه أمر له بعشرة دنانير عليه، كما أمر لكل شاعر، وأمر بعشرين مثقالاً لكل من وفد إليه من قاصد لرؤيته وزائر.

وقام القرشي الأمي القرطبي المعروف بالطليق[1] ـ عرف بالطليق بسبب جده الذي أطلقه رسول الله ﷺ[2] ـ فأنشد وأجاد، واستحسَن [30] شعره، وكان الكاتب أبو الحسن عبد الملك بن عياش القرطبي[3] كاتب الخليفة واقفاً يحسن أبياته ويكررها، وأولها: (بسيط)

مـا للعِـدا جُنَّـةٌ أوقى من الهَـرَب   كيف المفرُّ وخَيْلُ اللهِ في الطَّلب[4]
لو بُـدِّلُـوا قُـدمـاً زلَّتْ بقـادمـه   لَأصْبَـحَ الكـلُّ طيَّـاراً من الـرعب
وأيْنَ يَـذْهَـبُ مَنْ في رأسِ شـاهقـةٍ   إذا رَمَتْـهُ سَمـاء اللهِ بـالـشُّهُـب[4]
قدْ لاذَ بدْرُ الـدُّجَى منكم بهـالتِـه   واكتَنَّ ليثُ الشَّـرى في غِيلِهِ الأشِب
حَـدَّثْ عن الرُّوم في أقْطار أندَلُسٍ   والبحْـرَ قدْ مَـلأَ العَبْرَيْنِ بـالعَـرب[4]
مِن كـلِّ مَن يترك الهيجـاءَ في حلكٍ   جمْـرٍ إذا اخضرَّت الغَبْـراء بـالعُشْب
مقـلّب بـين مـشْتـاةٍ وهـاجـرَةٍ   تقلُّبَ الـسَّيْـفِ بَيْـن المـاء والـلَّهب
يـرْمي بهم ظَهْر طـرفٍ بطْنَ سـابِحَةٍ   فـالبر في شُغُـلٍ والبَحْـرُ في صَخَب

(1) يسميه المقري بالأصم المرواني، وقد أورد المراكشي بعضاً من القصيدة المذكورة هنا كما فعل المقرّي. المعجب ص 215. زاد المسافر: الترجمة رقم 39. نفح الطيب جزء خامس ص 130.
(2) ترى أن سبب تسمية هذا الشاعر بالطليق لأن الرسول عليه السلام أطلق جده والمراكشي يعلل التسمية بأن جده كان طليق أبي عامر محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور وأن سبب الافراج كان أسطورة نعامة فلذلك يعرف بطليق النعامة. المعجب: ص216 - 217.
(3) عبد الملك بن عياش بن فرج بن عبد الملك بن هرون الازدي القرطبي وأصله من مدينة يابرة بالأندلس، صحب بني حمدين بقرطبة ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك في الكتابة، وكان مع تقدمه في الآداب وتصرفه مشاركاً في النظم من أبرع الناس خطاً وكانت له من الولاة منزلة جليلة ومن شعره:

عصيت هـوى نفسي صغيراً فبعـد مـا   رمتني الـليـالي بـالمشيب وبـالكـبر
اطعتُ الهـوى عكس القضيـة ليتني   خُلِقت كبيـراً وانتقلت إلى الصغـر!

وكانت وفاته سنة 568. ابن الابار: التكملة (كوديرا) رقم 1721.
(4) الأبيات الثلاثة التي اكتفى بها المراكشي (ص 216) واقتصر ابن عذاري على البيتين الأولين، انظر ص 24 منه.

وتعْبـرُ المـاء منهم نـارُ عَـادِيـة   يَصْلى بهَـا عـابـدُ الأوثـان والصُلُب
وطـودُ طَـارق قَـدْ حَـلَّ الإمَـامُ بِـهِ   كالطّور[1] كان لموسى أيمنَ الرُّتب[2]!
لَـوْ يعرف الـطود مـا غشـاه من كـرم   لم يبسط الغور فيه الكفَّ للسحب[2]
ولـو تيـقَّنَ بـاسـا حـل ذِروتـه   لعادَ كالعِهْن من خَوْف ومن رهب[2]!
مِنْـه يعـاود هـذا الفتـحَ ثـانِيـةً   أضْعاف ما حَدَّثوا في سَالِف الحِقَب[2]
ويُلبِسُ الـدّينَ غضّـاً ثـوبَ عـزتـه   كـأن أيـامَ بـدر[3] عَنْـه لَمْ تَغِبِ!
تـدبير من قَـارعَ الأيـامَ واختلطَتْ   آراؤه في الـوَغى بـالسُّمْـر والقُضُب
إن آبَ من غـزْوةٍ أفنت أعـاديَـه   كـان الإيـابُ لأخْرَى أعـظم النَّصَب
سمـا إلى الشَّـرَف الأقْصَى بهمَّتِـهِ   ديـن مـريـحٌ وعـزْم دائمُ الـتَّعب

[31] وحينَ جلَّى تدلَّى فوْق أندلس   وجَـارحُ الـطَّيـرِ لا يَنْفَـكُّ عن كثَبِ
ملْكٌ إذا مـا دعتْـه الحـرْبُ من بُعُـد   طـار السَّفِين أمـام الجَحْفَـل اللّجب
مـا بين مخضـرَّة الأقْـطار نـازِحـة   وأخْضَـرٍ في غِمار الـرّيـح مضْطَرِب
والجيشُ تختـطف الأرواح رَاحتُـه   من سـابـقٍ زبـد أو عـائـم دَرب
كـتـائـبٌ صـفُّـهـا والالُ أردِيَـةٌ   بيض فـأشبهَتِ الأسطارَ في لكُتبِ
دَاسَتْ جِبَال دِيار القيـروان[4] فَلمْ   يَثْنِ الأعـنَّـةَ إلَّا وهْـي كـالـكُثُـب
حتَّى أنـاخ بـأُمّ الشـرك مـرضعـة   أولادَهـا حلبـا جمّـاً عَـلى حلب
حسْنـاء يفتَـر للخـطَّاب مبسَمُهـا   عن جَوْهَر السَّيْف لا عن مبسم شَنِب
مَنيعـة من ذُرى سُـور تـكنَّفَهـا   وزاخِـر مُـرْبِـدُ الأمْـواجِ من غضب
تَغَلْغَلت في خِنـاق الجوّ صـاعـدةً   حتى حسبنـا مـدارَ النَّجْم في صَبَب

(1) الطور: الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، وقد ذكر بعض العلماء أنه الجبل المشرف على نابلس. . . ياقوت، معجم البلدان.
(2) الأبيات التي تحمل رقم 2 زادها المقري على المراكشي. الخامس ص 130 من نفح الطيب.
(3) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار ـ وهو ساحل البحر ـ ليلة، وبه كانت الوقعة المشهورة.
(4) القيروان: المدينة العظيمة الشهيرة التي مُصّرت في الإسلام على عهد معاوية بن أبي سفيان، الاستبصار ص 113-114.

وحِينَ غـادرَهـا طـولُ الحِصار لَهـا ... كـأنَّهـا مـركب أشفى عَلى العَـطَب
ألقت إليـك بـأيْـدي الـذلّ طـائعـةً ... ومكنتـك مِنَ المسْلوبِ والسلب
سَـار الـعُلوج وفـي أعْنـاقِـهم مـنن ... من عَفْـو مقتـدِرٍ للغـزْو منتـدب
مَدُّوا الأكفَّ لِلَمْسِ النَّجْم من فَرح ... وشمَّروا لـوُثـوب البَحْر من طَـرَب
خفَّتْ صِقليـةٌ[1] جهْـلاً فـوقَّـرَهـا[2] ... خَوْفُ الحُسَام وطيشٌ في القَنا السلب!
وشيَّعتْ مُلكهـا للحـرْب مُحْتـفـلا ... لمـا دَعَتْ اختَها بـالـوَيْـل والحرب
وإنَّمـا بعثَت من جَيْشِهـا نـفـلا ... ألـقى نـفـائسَـه في كفِّ منتهب
صدرت بالعَرَب العَرباءِ وانقلبتْ ... عن الحُسـامِ (رِيـاحٌ) شـرَّ منقَلب
فكـان سيفُـك نقـاداً لَـهُ بَصَـرٌ ... نَقَّى الـزُّيوف وأبْقَى خـالصَ الذَّهب
[32] وردَّ رأسَ زيـادٍ[3] مالـهُ جَسدٌ ... من مَـارِنٍ بـالـدَّم المَـوَّار مختضِب
ألقتْه عن ظهـرهـا جـرداءُ جـامحـة ... لـو أنَّهـا مسحَت من خَدّه التُّرب[4]
جَلَّى إيـابُـك عنَّـا كـل مـظلمـةٍ ... وأنَس الـدَّين من إيحاشِ مُغْتَـرب
إن الجـزيـرَة مِنْ طُـول انـتـظارِكمُ ... لَهـا بكـلِّ طـريـقٍ لحظُ مـرتـقب
صـافِحْ بتلك اليـدِ البيضـاء قُبَّتَهـا ... فـإنَّهـا أصبحَتْ مسـودَّة الـطُّنُب
وامْنَحْ جزيـل العـطايا حَـانيـاً ابـداً ... على الحُماة حُنوَّ المُشْفِق الحَدِب
يَـا وَافـداً علقت من يُمْنِ مقـدمـه ... أيدِي الأمـاني بحَبْلٍ غَيْـرِ منقضب
ودَانـيـاً لـعُـلاه مـنـكِـبٌ عَـمَـمٌ ... يُـزاحِم النَّجْم في الآفـاق والحُجُب

(1) صقلية: جزيرة تقع شرقي افريقية يحيط بها البحر اليوني شرقاً والبحر التيريني شمالاً والبحر الصقلي أو المتوسط جنوباً وغرباً، عاصمتها بلرم. مارتينو ماريومورينو، المسلمون في صقلية ص 1 - 2 - 3، امبيرتو ريزيطانو: مجلة المشرق (روما) عدد سبتمبر 1961.

(2) وقُرها: بمعنى رزَّتها وثقَّلها، وهي تقابل (خَفَّت) بمعنى خف عقلها وحمقت فوزَّتها خرق السهام.

(3) لم نهتد للمعنى الذي يقصد إليه الشاعر، ولعله يشير لمقتل محرز بن زياد الفارغي رئيس الاعراب بافريقية وأحد بني علي من بطون رياح، والمارن: الرمح الصلب اللدن.. فتكون المعنى أن رمح الخليفة أطاح برأس هذا المتمرد.

(4) اي أن مطية هذا المتمرد لفظت به عن ظهرها... ثم يتمنى على سبيل التهكم: «يا ليت هذه المطية استطاعت أن تزيح التراب عن خد هذا المتمرد المعفر بالثرى(؟)»

جمُّ المَـواهـب لـلزوَّار مبتسـمٌ ... يستغرب النَّاسُ وقتـاً فَيـهِ لَمْ يهَب
مـا بَيْن راحَتِـه الـطُّولى وخـاطـره ... يفيضُ بحْـرُ النَّـدَى بـالعِلْمِ والأدَب
كـأنمـا بِشْـرُه والـجُـودُ متَّـصِـلٌ ... بَـرْقٌ تـألَّقَ فَـوْقَ الـرَّاكِب السُّـرب
خـليفـة الله بَـادي العلم مبتسـمٌ ... عن جَوْهَرٍ من بـديع النَّظْم منتخَب
قـد أسْربت منـه أثواب الصبـا أرَجـاً ... لـولاه عَرْفُ نَسِيم الـرَّوْض لَمْ يـطِب
ألقتْ عُصَيَّ النَّـوى أشياخُ قـرطبـة ... في منبت العِزِّ والحاجـاتِ والـطَّلَب
أتتْـك تَشْكُـرُ مـا أوليتَ من نِـعَمٍ ... وإنَّـمـا أرَج الـنـوار لـلسُّـحـب
تـزداد نـوراً إذا اسـوَدَّ الـزَّمـان بهـا ... كـأنها سُـرُج في حَـالِـك النُّـوَب
والصَّبْر في كل خـطب طعْمُه صبر ... لكن عَـواقِبُـه أحْلى مـن الضَّـرَب
جَـرَتْ معـارِفكم في النَّـاسَ كلهم ... جَرْيَ الصَّقال عَلى الهِنْدِيَّة القُضُب
ودُمتـم تـأخـذُ الأيـامُ زينـتَـهـا ... مِنْكم وَتـرْفُل في أبْرادِهـا القُشب!

[33] وعند إكمال هذه القصيدة بالإنشاد، تهلَّل وجه أمير المؤمنين رضي الله عنه لها ولحسن أغراضها وهزَّته أريحية المعارف بما فيها من الأوصاف وتبلج فلق مجده عن هبةٍ جزلة للقرشي الطليق، أبدت لقوله القبول وسفرت له عن وجه طليق.

وقام الشيخ أبو عبيد[1] الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي منشداً تالياً للقرشي المذكور في مجلس أمير المؤمنين رضي الله عنه بالجبَل المذكور وقال: (طويل)

تَـلألأ مـن نُـور الخـلافـة بَـارِقُ ... أضـاءَتْ بـه الآفـاقُ واللَّيـلُ غـاسِق
وأشـرقتِ الـدُّنيـا بـهِ فكـأنَّهـا ... مِن البِشـر في كُلِّ الجِهـاتِ مشارق
وهـبَّ بـرَيَّـاهُ النَّسِـيم فـخِلتُـه ... بـخَبِّـرنـا أن الـخليـفـة لاحِق

(1) كنَّاه كلٌّ من ابن عذاري وابن الخطيب أبا عبد الله ثم أورد الأول أربعة أبيات منها، بينما أورد الثاني البيتين الأولين. البيان المغرب ص 240 - أعمال الاعلام ص 306.

إلى جَبلٍ قدْ كان للفتح منْزِلاً ... ولاذَ بهِ بالفتح مُوسى[1] وطارق[2]
سما بأمير المؤمنين إلى العُلا ... مخافةً أن تَسمو إليه العوائق
إذا أمَّ أرضاً لِلنزول تضوَّعت ... منابتُها مسكاً لمَن هُوَ ناشِق
وإن طالَتِ البيدَاءُ قصَّر بُعدَها ... حديثُ الأماني والرجاءِ المرافقُ
تكادُ الرُّبى تنحطُّ عندَ لقائِه ... وتُسْرِع نهضاً لِلِقاء السَّمالِقُ
فلَوْ شاء لم يرْكَب جواداً بجَحْفَل ... ولا حَملتْه في السفار الأيانِق
لهُ شرفٌ يسمُو به فتخالُهُ ... لذاك بَعيداً وهْو بالقرب لاصِقُ
[34] مُجيبٌ لمن ناداهُ في يوم أزْمَةٍ ... رفيقٌ لمن قلَّتْ لديه المرافق
جَوادٌ إذا ضنَّ الغمام بوبْله ... وَصُولٌ إذا صدّ الصَّديق المُصادق
أزاحَ الرَّدَى عن مَنْ يلوذ بظلّه ... وبث النَّدَى فاسترزقته الخلائق
ففِي ظلّه أمْنٌ مِنَ الخوف مانِعٌ ... وفي كفه بَحْرٌ من الجُودِ رازق
له شيمة ترتاح للبَذْلِ والنَّدَى ... وكف لِتَفْليق الجَماجِمِ وامِق
تُقسِّم أجسامَ العداة سيوفُه ... ولُذْنٌ بأيدي الطاعنين بَواسق
وخيلٌ تسوق الأسدَ فوق مُتونها ... وَتسْبق لمح البرْق والبرقُ خافِق
تَخيَّرها التَّوفيق من كل ضامرٍ ... وأركبَها الأبطال سَعْد مُطابق

(1) هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء المكنى أبا عبد الرحمن فاتح الأندلس، أصله من وادي القرى بالحجاز، كان أبوه نصير على حرس معاوية، ونشأ موسى في دمشق فخدم بني مروان ونُبه شأنه ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ولاّه افريقية وما وراءها من المغرب سنة 88 فأقام في القيروان... ووجه ابنيه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر واستعمل مولاه طارق بن زياد الليثي على طنجة، ثم أمره بغزو شواطىء أوربة فزحف طارق واحتل سنة 92 جبل كالبي Calpe الذي سمي بعد ذلك جبل طارق..
الزركلي، الاعلام - الثامن ص 285-286.

(2) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء أصله من البربر وقد أسلم على يد موسى بن نصير، ولما تم لموسى فتح طنجة ولى عليها طارقاً سنة 89 فلما كانت سنة 92 جهّز موسى جيشاً معظمه من البربر لغزو الأندلس وولى طارقاً قيادتهم فنزل البحر واستولى على الجبل وفتح حصن قرطاجنة وتغلغل في أرض الأندلس وحاربه الملك رودريك Rodrigo فقتله طارق وافتتح اشبيلية واستجة، وأرسل من استولى على قرطبة ومالقة، ثم احتل طليطلة (العاصمة)... ثم فتح مدينة سرقسطة واحتل طرطوشة وبلنسية وشاطبة ودانية. الزركلي، الاعلام، مجلد ثالث ص 313-314.

رجَالٌ ولكن في الحُروب ضَراغِمٌ ... وخَيلٌ ولكِن في السِّباق شَوائِق
قدِ انتخبُوا من نخبة العُرْب كلّها ... شبابٌ وخَلْق كامل وخلائِق!
إذا عطشتْ في الحرب افئدةُ العِدَى ... وَقد فرغوا للصَّبر وهو مُفارِقُ
سَقَوْهم بعَضْبِ السَّيف عضباً كأنَّما ... لَهُ من مُروق المُرْهَفات أمارق
وأسْمَرَ في كفيه أسْمَرُ نافذٌ ... وأبيض في كفَّيْه أبيض فالقُ

ومنها:

بسَعْدِك يفري السَّيفُ ما عزَّ قطْعه ... وينفذُ حد السَّهْم ما هُوَ راشق[1]
لَولاك لم يَقْطَع حسامٌ لضَارِب ... ولا فَتقَ الخطّيُّ ما هُوَ فاتِق
ملكتَ قلوبَ النَّاسِ حبّاً ورهبةً ... فدَانَ بكَ الصِّنفان برٌّ وَفاسِق
فلا ذُو يَدٍ إلَّا لأمْرِك ناصِرٌ ... ولا ذُو فَمٍ إلَّا لِشُكرك ناطِقُ
إذا هَمَّ أمراً لم يلحُ بحقيقةٍ ... وغابَ دليلٌ لِلتفهُّم صَادِق
[35] بَدا من ضِياء العَقْل هدْي يدُلُّه ... عَليْه ومن نور البَصيرةِ سَابق
وَمَن جَعل التَّقوى سِراجاً لقلْبه ... أضاء ولم تُحْجَبْ لديه الحقائقُ

ومنها:

فطافَ بأرْضِ الكفْر حتَّى أعادَها ... إلى الحقِّ وانقادَ الأبيُّ المُشاقِق
وكرَّ إلى نَصْرِ الجَزيرة بَعْدَ ما ... أتاهُ مَعَ الرُّكْبانِ ناعٍ وناعِق
بجَيْشٍ تَضيق الأرْضُ عنه بطُولها ... وترْهَبُه لوْ عاينتْه العَمالِق
وأبْيَض ورْديّ القميصِ كأنَّما ... تفتَّح فوْق النَّصل منْهُ شَقائِقُ
تُجرِّدُه أيدي الأحِبَّةِ في الوَغى ... وتُغْمِدُه هامُ العِدَى والمفارِقُ

ومنها:

ولما أثار النَّقع ليل عجاجه ... وقد حجبتْ فيه العُيون الرَّوامِق
تطلع من قَيْسٍ ضياءُ تلألأت ... لمطلعه آفاقُها والفيالِق

(1) في ابن عذاري: راتق ص 24.

فلاحَ ومن جُنْد المَهَابَةِ دونَه   وِقاءٌ ومن حفظ الإلاه سرادق
تْنام عيونُ الرُّوم عنْه وإنَّما   تنامُ وسعدٌ للخليفةِ طارق
تنوِّمهم بيضُ الخدود نَواعمٌ   وتُوقظُهمْ سُمْرُ القنى والسَّوابِقُ
كأنَّ بهم والسيف يأكل وفْرَهُم   وما جمعوا للنائبات مُفارق
فما ولَدوا للمسلمين غنائِمٌ!   وما جَمعوا للنايبات[1] طوالِق
ولا زال أمر الله للدّين هادياً   وأنتَ لِدينِ الكفر ماحٍ وماحِقُ

وقال الأستاذ أبو العباس أحمد بن سيّد [36] الأشبيلي الشاعر[2] - عرف باللص - يمدح الأمير الكريم ويهنئه بهزيمة العرب المذكورين: (بسيط)

صعِّد بفكركَ بَعْدَها أوْ صوِّب   ما دُونَ أمْر اللهِ مِنْ مترقِّبِ
الشَّمْسُ تحجبُ في الطُّلوع وبَعدَه   واذا تطلع نورُها لم تُحْجَب
هذي الخلافة لا خلافة بعدها   جاءت على الهدي القويم الأوجب
أخْنَى على مَن حَاد من صَرْف الرَّدَى!   أحنى على مَن هادَ من عَطْف الأب!
أضْحَى به السّرحان رَاعِيَ ثُلَّةٍ   أمْناً وبات الصَّقْرُ ضَيْف الثَّعْلَب!
عصفتْ بأقْصَى الشَّرق منه عزمةٌ   حنَّت لشرْواهَا بأقْصَى المَغرِب!
يا طيبَها معنىً وطيبَ حديثها   والنَّفسُ يلهَجُ بالحدِيثِ الطيِّب!
فأتتْ على شِيَعِ الضَّلاَل كما أتَى   ضَوْءُ الصَّباح على سَواد الغَيْهَب
ومضَتْ على حدِّ الحُسَام أعَارِبٌ   نَكَثوا عُهُوداً أُبْرِمَتْ في يَعْرُب
لما حَدَاهم للجهاد مُشَمِّرٌ   ذهَبُوا من التأويل أخْبَثَ مذْهَبِ
فكأنما أُلقي الكتابُ إليهم   «أنَّ الجِهاد عليهم لم يُكتَب!»
ورأوا غماماً لم يشكُّوا ضلةً   في أنَّ مسراها لبرق خُلَّبِ
غطَّى على أبْصَارهم قدرُ الرَّدَى   فَاستَنْزَرُوها وهي مَلءُ السَّبْسَبِ
والمَرْءُ يطمعَ ما دَنَتْ   مِنْهُ ويُؤيْسُه بعَيدُ المطلب!
ولربّما حسبَ الفتى أطماعَه   بالتُّرب وهي منوطة بالكَوْكَب!

(1) هنا فضاء، ولعل محله حرف التاء. هذا وقد كتب في الطرة ما يأتي: (وذيل له)؟
(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 99 .

ولو أنَّ غدرَهُم لذُلَّ نالَهُمّ   مِنْهُ لكان الغَدْرُ صعْبَ المركب
لكِنَّه أرقَاهُم من عِزَّةٍ   أعْلى المراقي في الجَنَاب الأقْرَب!
[37] بَدَرُوا بطوعٍ كالحَيافي طيِّهِ   خلف كذَاكِي بَرْقِه المتلهِّب
كالرَّوضِ إلَّا أنَّ في أحْشَائِه   أفْعَى اليبابِ استجمعتْ لتوثّب!
أوْلى لَهُم من بطشةٍ قيْسيَةٍ   أخذ البريءُ بها بذَنْب المُذْنِب
قَدْ كَان في أُولى الوقائع زَاجرٌ   فيهم لذي القلب الذكي الغُلّب
لِمْ لاَ؟ وما ذكرتْ رياحُ يَومَها   إلا أراها الطفلَ مثْلَ الأشْيَب
هَلَّا اقْتَدَوا بسَراةِ قيْسٍ إنَّهَا   جَازَتْ بمنسَمِها كريمَ المنْصِب
تَرْضَى إذا رَضِيَ الخليفة دَائماً   وكَذاك إن يغضَب لحقٍّ تغضَب
وربيعةٍ[1] وكفائها من زغبةٍ[2]   أهْلَ المعالي في الجَنَاب الأقْرَب
من كلِّ أزهر للحياءِ بوَجْهِه   في السّلْم رقراق اللُّجين المذهب
يرتاحُ للموْتِ ارتياحَ قَناتِهِ   للّطعن أو صَمْصَامه للمضرب
مرِحٌ بمعترك الهِياج كأنَّه   في ضنْكه متقلب في مَلْعبِ
أبداً يَهِيم من الظبا بأزاهِرٍ   ومن الجياد بكلِّ ثَغْر اشنب
تتوهَّم الكفار وقْعَ سلاحهم   فتهمٌّ عن أوطارهم بتغَرُّبُ
وتحدَّث المران عن عَزَماتِهِمْ   فتظلُّ تحثي فوقَها بالأثلبِ
ضَرَبُوا القِداح على النفّاق ضلالةً   فإذا بهِمْ ظفِرُوا بقِدْحٍ أخْيَب
لا أيْنَ يا آلَ الصَّلِيب وحزْبَه   حتَّى يعم القَتْلُ كلَّ مُصَلَّب
ويورّث التوحيد عَرْض بلادكم   من بَعْد بحثٍ عنكم وتنقّب!

ومنها بعض أبيات:

حتَّى تقر عيوُننا في أرْضِنَا   وتقر عين نبيِّنا في يَثْرِب

(1) ربيعة من القبائل العربية التي كانت محلاتهم بالصعيد - ابن خلدون، العبر، مجلد سادس ص 30.
(2) تعتبر زغبة في أول القبائل العربية التي تتقدم في التشريفات الموحدية عند حفلات التميز التي تجري بين الحين والآخر عند العرب، وذلك لأنها أول القبائل التي اقتنعت بمذهب الإمام المهدي، انظر صفحة 296 من (المن بالإمامة) ابن خلدون 6 صفحة 30.

[38] حدثني الأستاذ أبو القاسم بن أبي هرون[1] قال: كنت واحداً من جميع الوفد الذين بـادروا بقصدهم ووفـدهم مع أهـل إشبيلية ومن كـان تحت طاعة التوحيد من أهل الأندلس إلى أميـر المؤمنين رضي الله عنه بجبـل طارق وأقمنا معه نحو عشرين يوماً، أمر للناس الـوافدين في مـدة هذه الأيـام، ثلاث مـرات بالبـركة، ونـال جميع النـاس معه الإنعـام الـذي عـوده وسلكـه وأجـاز الشعراء[2]. وأنال خيراته الفقهاء والكبراء، والموحدين والأولياء الطهراء، وأقام الوفد المذكور تحت أنعـامه إلى أن عيـد الخليفة رضي الله عنـه عيد الأضحى بالجبل السعيد على أوفى الظهور، وأذن للناس بـالانصراف إلى أوطـانهم وقد رأوا الآمال بالتبرك به في زمانهم، وكذلك أنال الفَعَلَة والبنَّائين والصناع بركات وخيرات حين استحسن ما صنَعوه ووضعوه، وجاءوا فيه على الغرض الذي نفذ به الأمر المطاع بالوصف الذي سمعوه، واستقر في أفهامهم فانـطبعوا في بنـائه واطبعوا له، وشاءوا في ذلك بناء الخورنق[3] والسدير[4] وأبـدوه للناظـر كالبـدر المنير فحسن لهم جهة الأمر العالي ما وفقوا فيه من البناء وحسْن التدبير.

---

(1) أحد رواة ابن صاحب الصلاة، ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من معـاجم الأدباء المـوحدين ولم نتمكن من معرفة شيء عنه من خلال كتاب المن بالامامة سيما ولم يذكر غير هذه المرة. هذا وقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة ان ابن صاحب الصلاة روى عن أبي بكر بن هرون، فهـل يوجد لابن هرون كنيتان أم أن الرواية كانت عن هذا وذاك أم أن الكنية المذكورة في الذيل خطأ؟ الذيل مخطوط خزانة الرباط 16-2646.

(2) بالإضافة إلى أبي بكر بن المنخل الشلبي، وأبي العباس بن سيد الاشبيلي، والقـرشي الطليق، وأبي الحسين بن صاحب الصـلاة، بالإضـافة إلى هؤلاء أنشـد في ندوة جبـل طارق الشـاعر محمـد بن حبوس الفاسي، وأبو عبد الله الرصافي شاعر الأندلس، وأبو جعفر بن سعيد العنسي وأبـو العباس الجـراوي صاحب الحمـاسة المغـربيـة في أغلب ظننـا. المـراكشي، المعجب ص 213 ـ ص - 217 218 - 219. ابن عذاري: البيان المغرب ص 25 - 26. ابن الخطيب، اعمـال الاعلام ص - 166 267 - 268. الحلل الموشية ص 130. ابن بطوطة، المجلد الرابع ص 361 ـ أحمد بلافريج، عبـد الجليل خليفة. الأدب الأندلـسي ص 178.

(3) الخورنق ذكر كثيراً في أشعار العرب وضربت به الأمثال في الأخبـار، وهو قصر كـان بظاهـر الحيرة وقد قيل أن الذي أمر ببناء الخورنق هو النعمان، وإن الذي بناه له رجل من الروم يقال له سنمار وهو الذي أثر عقابه من قبل النعمان على أثر إنهاء البناء في أسطورة معروفة.
المعجم، المجلد الثاني 401-402-403.

(4) السـدير: يذكر بعض الرواة أن السـدير قصر قريب من الخورنق كان النعمـان الأكبر اتخـذه لبعض =

(صد سرية وردت لتطلع أخبار الموحدين)

وفي خلال هذه الإقامة المؤيّدة طرأ فتح في الكفرة بـأن وصلت من جهة جيان سرية من النصارى لتتطلع الأخبار، فخرج الأمر العزيز باتباعهم فأدركهم [39] المـوحدون أنجـدهم الله فغزَوهم وسبوهم ووصل الفتـح فيهم، فـزادت الخيرات والمسرّات والحمـد لله. وقضيت مسائـل الناس وحـوائجهم ومآربهم ومطالبهم وأنصف المظلوم من الظالم. ووعدوا بالنظر العميم في نصرهم على الأعاجم.

وبعد هذا كان انصراف سيدنا أميـر المؤمنين رضي الله عنه في أول عـام ستة وخمسين وخمس مائة وأجاز البحر[1] منصرفـاً إلى حضرة مـراكش حرسهـا الله. ونظر إلى الأندلس بتجهيز العساكر بما أذكره بعد[2] هـذا في موضعـه إن شـاء الله تعالى. واتـدع فيها أميـر المؤمنين رضي الله عنه سنـة ست وخمسين المذكورة متوفراً على تمهيد أمره العزيز وسلطانه، وتألَّف العرب الذين جلبهم[3]

= ملوك العجم وقد ذكره الأسود بن يعفر بقوله:

أهـل الخـورنـق والسـديـر وبـارق والـقصْر ذي الشـرفـات مـن سِنْـدادِ

وذكره عبد المسيح بن عمرو عند غلبة خالد بْن الوليد على الحيرة في خلافة أبي بكر الصديق:

أبـعـد المـنـذريـن أرى سـوامـاً تـروُح بـالخـورنـق والـسُّـديـر

الأبيات، انظر التعليق رقم 2 صفحة 87. المعجم ثالث ص 201 - 202. هـذا ويوجـد في الجهة الغربية الجنوبية من مدينة كربلا بعيداً عنها بنحو 55 كلم قصر تاريخي يحمـل اسم «الاخيضر» ربما كان هو «السدير» أنـظر كتاب الاخيضر، مـطبعة الحكـومة. بغـداد صفحة 40 وقـد وقفت عليه. لكن هناك من يرى أن فيه ليست ساسانية، وإنما هي عربية.

(1) يستأثر ابن عذاري هنا بذكر موقعة فحص بلقـون التي حقق فيها المـوحدون انتصـاراً عظيـماً، وقد أنشد أبو العباس الجراوي في هذه المناسبة رائية بديعة يقول في مطلعها:

أعـلَيْـتَ ديـنَ الـواحـدِ الـقـهـار بـالمـشـرفـيـةِ والـقَـنـا الخـطّارِ

البيان المغرب ص 25-26-27.

(2) ابتداء من ص 45.

(3) يلوح من النص أن عبد المؤمن كان أول من عمل على جلب العرب من افريقيـة، وقد اقتفى أثـره ولده أبو يعقوب يوسف كما سنرى في صفحة 259، هذا وقد أثر عن يعقـوبْ المنصور ولـد يوسف وحفيد عبد المؤمن أنّهٌ أدخل العرب للمغرب وأنه ندم عـلى ذلك، ومن المهم أن نعـرف أن هناك فرقاً بين تصرف عبد المؤمن وولده من جهـة، وتصرف الحفيـد يعقوب المنصـور من جهة أخـرى، =

لحماية[3] رعيته وأن يكونوا من جملة أجناده وأعوانه، لما أمله من غزو الكفر وكسر صلبانه.

رجع الخبر الى ذكر عبد السلام [1] ووفاته

ذكر ما دار من الأوامر العلية في هذه الغزوة المنصورة، غزوة المهدية وفتح افريقية وأخبار عبد السلام في وزارته الى حين الايقاع به فيها وميتته.

قال الراوية الثقة: لمَّا خرج أميرُ المؤمنين رضي الله عنه من حضْرته مراكش الى غزوته [40] الحافلة المؤيدة غزْوة المهدية، كان خروجُه في أول شهر شوال من عام ثلاثة وخمسين وخمس مائة على ما ذكرته[2] واستوزر عبد السلام بن محمد الكومي ووصل إلى سلى[3] برباط الفتح[4] بها، وَجَّه منها

= فالأولان كان جلبهما للقرب تقرباً وتآلفاً بينما كان عمل الثالث سنة 584 بدافع إرادة تغريبهم وعقابهم وذلك لما ضربوه من الخلف وناصروا علي بن إسحاق بن يوسف المعروف بابن غانية أحد أعيان المثمين الذين كانوا ملوك المغرب والذي كان عميلاً لقراقوش مولي تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الأيوبي، ففرق إذن بين الحالين. الناصري، الاستقصاء. ثان 151 - 150، ابن أبي زرع، القرطاس، طبعة فاس، ص 164. ابن القاضي: جذوة الاقتباس طبعة فاس ص 349، محمد بن عبد السلام السائح: الغص المهصور (مخطوط) ورقة 13 - 14. محمد الرشيد ملين: عصر المنصور الموحدي، المطبعة المحمدية، الرباط 1946 ث 242. إقرأ ص 273 وص 67 من التذكار لابن غلبون، وانظر أيضاً الفاشوش في أخبار قراقوش للسيوطي.

(1) يعني به الوزير المقرب عبد السلام الكومي وسنقف على ترجمة له وافية، وانظر مع هذا البيذق، أخبار المهدي ص 147. الاستقصاء ثان ص 125.

(2) يعني دون شك في السفر الأول من كتاب المن بالإمامة.

(3) سلى: يذكر ابو القاسم الزياني في الترجمانة الكبرى أن أول بناء بناه البربر لما دخلوا المغرب مدينة سلا، ويذكر صاحب الاستبصار أن الذي اتخذها مدينةً هم أرباب البلد العشريون، وقد كانت تحتوي - في جملة ما تحوي عليه - قصراً بديعاً يعرف بدار ابن عشرة بناه أبو العباس أحمد بن القاسم من بني عشرة، وتقع سلا هذه على شاطىء المحيط الأطلسي يفصلها عن رباط الفتح الوادي الذي يصب في المحيط. البيذق 66. الادريسي 72. الاستبصار ص 149. الروض المعطار ص 197 - 198. ياقوت معجم البلدان. بوجندار: تاريخ رباط الفتح، طبعة الرباط 1345 هجرية ص 18 - 19. السائح: الغصن المهصور (مخطوط)

(4) رباط الفتح أو (المهدية) كما يسمى في العصر الموحدي: يقع على شاطىء المحيط وقد كان في=

عبد السلام المذكور في قطعة من قطع البحر إلى جزيرة الأندلس ليتطلع أحوالها في أقرب مدة فوصل إلى إشبيلية ثم إلى قرطبة ثم إلى غرناطة وتطلع أحوال الأندلس كلها وأنهى إلى الطلبة الذين فيها الأوامر العزيزة التي حملها، وانصرف إلى أمير المؤمنين بسلى في خمسة عشر يوماً غاب عنه.

فلما تحرك أمير المؤمنين رضي الله عنه أثر ذلك الى غزوته على ما قدمته ووصل الى مدينة تلمسان أمر ابنه السيد الأعلى أبا حفص أن يصحبه في غزاته وكان والياً عليها فامتثل ذلك.

ولما وصل أيضاً إلى مدينة بجاية كان ابنُه السيد الأجل أبو محمد عبدالله والياً عليها فأمره أيضاً بصحبته والمشي في الغزاة المذكورة ومشيا مع أبيهما في العساكر المنصورة وتغلب عبد السلام على الحال كلّها في هذه الغزاة وطال السّادات وضايقهُم ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال، من الراحات والبطالات بالنهار وطول الليال، وقد كان قديماً قبل هذه الحركة المنصورة يقصر بهم ويُسيء العشرة معهم فرفع الى أمير المؤمنين رضي الله عنه أنهم يشرَبون الخمر [41] المحرمة وقرر ذلك وكرّر المطالبة لهم هنالك، فتأثر الخليفة لقوله وبحث عليهم وبعث شيوخ الموحدين الثقات اليهم ودخلوا موضعهم ومجتمعهم عليهم دون إذن ولا مشورة فوجدوهم يأكلون طعاماً وبين يدهم مشروب مطبوخ من الرُّب[1] الحلال الذي لا مرية فيه ولا ريبة

= القديم يتكوَّن من برج للسكنى وكل ما حواليه أرض حراثية، وكان هذا البرج متملكاً لثلاثة: بعضه لأهل سلى أعني بني العشرة وبعضه لابن وجاد من أهل إشبيلية، وجانب للمخزن فاشتراه الخلفاء من أربابه وخلص لهم، وهكذا لما وصل الخليفة إلى سلا سنة 545 بنى القصبة الحصينة المعروفة الى الآن على فم البحر، وأجرى لها الماء من عين غبولة بواسطة المهندسين. الاستبصار ص 140 - 141.

Jean Léon L'africain :

Description de L'afrique 1956 **page 164 - 165** .

راجع صفحة 305 - 306 من ابن صاحب الصلاة والتعليقات التي تمس تأسيس (المهدية).

(1) الرُّب - كما في لسان العرب -: الطبيخ الخاثر من عصير العنب، وقد وقفت في رجز مخطوط يوجد=

فرجعوا إلى أمير المؤمنين وشهدوا عنده بالحال، وزوّروا عنده كلام كل مطالب وحيلة كل محتال ، فتيقن أمير المؤمنين رضي الله عنه مطالبته لهم ، ولم يُظهر له شيئاً مما به نحلهم ، فلما نازل أمير المؤمنين رضي الله عنه المهدية وأقام عليها المدة الطايلة المذكورة وخاطبه أهل مدينة قابس[1] بالتوحيد بعث عبد السلام المذكور من المحلة بعسكر ضخم من الموحدين أعزّهم الله مقدماً عليهم مع جملة طلبة وحفاظ ، فلما وصلوا على ثمانية أميال من قابس ، بادر أهلها مع قاضيهم بالخروج ، الى الموحدين وتلقيهم بالطاعة ، والتزام أمر الدّين والجماعة[2] ، فأعملوا السير في الحين الى المدينة المذكورة فانهزم من

= بمكتبة جامعة غرناطة يقع في نحو 1333 بيت من نظم أبي عثمان ابن الشيخ ابي جعفر بن ليون التجيبي على كيفية عمل الرُّب ، وهو يقول :

« الرُّب طبخ صفو ماء العنب ... بعد قعود ثفله المجتنب
للثلث في الطيب ، أو للرُّبع ... في العنب الرديء ذا البياني رع
واطبخه مع ماءٍ يزاد وتُزال ... رغوته مدّة طبخه اتصال »

وهذا المخطوط تعمل الآن الدكتورة إكواراس Iguaras على نشره وقد أوقفتني - مشكورةً - على نصوصه الاصلية وقد ذكر لي أن اسم (الرُّب) معروف الى الآن في إسبانيا لنوعٍ من المتناولات : Arrope ، وقد كان شربه معهوداً - أول الأمر - لشدة برد الجبل وثلجه كما ترى . لكن الموحدين لم يلبثوا أن انتبهوا الى أن مفعوله ، لا يختلف عن مفعول الخمر الحرام فأصدروا الأوامر بمنعه ، وهكذا فبعد أن كان الرُّب يقدم في الاحتفالات الرسمية وبعد أن كان يباع بمكان خاص بمدينة مراكش (باب الرُّب) بعد ذلك صُودر في سائر أطراف المملكة سنة 580 ورجع الناس إلى مبدأ ابن تومرت . الاستبصار ص 211 . بروفنصال : رسائل موحدية ، الرسالة 28 صفحة 164 . الاستقصاء ثاني ص 188 . ابن إبراهيم ، تاريخ مراكش أول ، 109 .

Allain et Deverden :

Les portes anciennes de Marrakche : Hespers T. 44 - 1957 page 121 - 123

(1) قابس : مدينة كبيرة قديمة أزلية تقع غربي جزيرة جربة جنوب صفاقس وقد كان عليها سور من صخر من بناء الأوائل ، وقد أحاط بها خندق كبير يجرون اليه الماء إذا خافوا من نزول عدو إليهم ، وهي كثيرة الموز والتوت . الاستبصار ص 112 ياقوت معجم البلدان .

(2) قال عبد الله التجاني :

« فارتحل (عبد المؤمن) إلى تونس ، وكان نزوله عليها يوم السبت العاشر من جمادي الأولى من السنة المذكورة (سنة 554 هـ أ مايه 1159 م) واتصلت الأخبية من الحنايا إلى حلق الوادي ، =

كان في جوانبها من العرب[1] القاطنين بها وقُتلوا واستؤصلوا على ما تقدم الشرح به في هذا التاريخ بالرسالة الواصلة[2] من سيّدنا أمير المؤمنين في وصف هذا الفتح . واستبدَّ عبد السلام بجمع الغنائم والأموال ، وتنفيل ما شاء من الأنفال ، ولم يعلم بما فتح الله من الآمال ، وأدل [42] بقرابته ووزارته غاية الإدلال ، فنسب إليه في الأموال الاحتجان ، والإنكار والكتمان .

وفي مدة مغيبه عن المجلس المذكور تكلم أشياخ الموحدين الناصحون لهذا الأمر العزيز بعضهم مع بعض في حال عبد السلام المذكور واستعلائه عليهم وتقصيره بأولاد أمير المؤمنين السادة ومطالبته لهم وتشكى السادة الى الأشياخ بحالهم وبما دهوا به من عبد السلام من الاذاية ، فقال لهم الشيخ أبو محمد برزيجن[3] وكان من أهل الرأي والدهاء والعقل والفضل : « الذي أرى من

= وعاين أهل تونس أمراً عظيماً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأقام العسكر ثلاثة أيام لا يقاتلون ، فنزل إلى عبد المؤمن أشياخ لطلب السلم من أهل تونس ، منهم بنو عبد السيد : عمر ومعاوية ، وعبد السيد ، ومنهم أبنا منصور بن إسماعيل وابن عمه عتيق ، ومنهم الخارجي محمد ، وحمزة بن حمزة ، وعبد العزيز القمودي وغيرهم ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، فوصلوا الى عبد المؤمن فطلبوا العفو منه ، فأسعفوا به ، بعد مكايدة شديدة وامتناع عظيم من عبد المؤمن . » الخ . . (من رحلة التجاني ، طبع تونس (المطبعة الرسمية) سنة1377 - 1958 ص 345) ويذكر من جملة الذين وردوا على عبد المؤمن من طرابلس الغرب الشيخ ابن مطروح سفيراً عن المدينة . انظر رحلة الحشائشي المسماة جلاء الكرب عن طرابلس الغرب ، ص 36 .

(1) يحكي ابن عذاري هنا انه لدى سنة 554 ظهر على العرب من بني سُليم المعتدين على مدينة قابس ما أوجب استدعاءهم ، وأن عبد المؤمن خاطبهم بشعر طويل للقاضي أبي عمران منه قوله :

أسُلَيمُ دعوة ذي أخاء مرشد ... هادٍ إلى الحق المُبين المسعد

كما خاطبهم بشعر ثان لابن طُفيل إلا أنه لم يثبت منه شيئاً .

ابن عذاري ، البيان ص 21 .

(2) لم يسق ابن صاحب الصلاة - كما سلف - نص الرسالة وإنما اكتفى بوصف بعض العناصر فيها . (انظر صفحة 5) وليس من شك في أن يكون السفر الأول قد تضمن الحديث كذلك عن فتح أفريقية كما يؤخذ من ابن عذاري الذي أخذ ينقل عن ابن صاحب الصلاة منذ أحداث سنة 534 ، البيان المغرب ص 2 .

(3) يظهر من سياق الكلام أن للشيخ أبي محمد هذا مركزاً هاماً في البلاط الموحدي غير أننا لم نعثر على ذكر له بعد هذا ، وربما كان الأسم (يرزيجن) أو (برزيكن) ، وهما اسمان وردا في بعض=

الرأي والنصيحة لله وللخليفة أن نتكلم اليه بجميعنا معشر الموحدين والطلبة ، وأن يجعل بيننا وبينه من يوصل اليه كلامنا من بيننا واحداً » فقبلوا رأيه واجتمعوا وتكلّموا إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه في أن يكون ابنهُ السيد أبو حفص الذي يوصل كلامهم اليه فأجابهم الى ذلك ، ووزر السيد الأعلى أبو حفص في ذلك اليوم ، وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه لأشياخ الموحدين أعزهم الله ولجميع طلبة الحضر : إن الله تبارك وتعالى يقول على لسان نبيه موسى : ﴿ واجعل لي وزيراً من أهلي هرون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ فاستبشر الموحدون أعزهم الله بالأمر الذي أمر ، وكمل لهم الرأي الذي دبر .

فلما انصرف عبد السلام من الحركة المذكورة [43] وفتح الله المهدية، ورحل أمير المؤمنين عنها الى إفريقية وفتحها وهزم العرب واستقاهم على ما ذكر ، كان عبد السلام يماشي على ظهر من حاله فلما انصرف أمير المؤمنين رضي الله عنه ، ووصل مدينة تلمسان ، تشكى أهل العدوة بعمال عبد السلام من حملهم على الرعية وظلمهم وتعديهم ، ومن كومية[1] أصحابه ووصفهم باحتجان الأموال والخيانة للأمر في جميع الأعمال ، وأطنبوا في التشكيّ بالتبكي وأضافوا ذلك الى الرضى من عبد السلام بجورهم[2] فأمَر أمير المؤمنين بجمع المشتكين وحضور أشياخ

- المراجع الموحدية . ابن الزيات ، التشوف الى رجال التصوف نشر الأستاذ أدولف فور طبعة الرباط 1958 ، ص 434 . ابن خلدون : العبر ، المجلد السادس ص 710 .

(1) كومية : معلوم أن البربر جذعان عظيمان : البرانس والبتر ، وأن كلا منهما تتفرع عنه قبائل فمن القبائل التي تتفرع عن البتر قبيلة ضرية أو ضريسة ، وتضم فرقتين بني فاتن ، وبني يحى . فمن بطون بني فاتن مطماطة وهطفورة ، وتضم كومية ومغيلة الخ فكومية إذن إحدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر . ابن خلدون ، سادس 176 - 178 . الاستقصا أول 64 - 65 .

(2) كان عبد المؤمن ـ وبنوه كذلك ـ يمقت كل المقت طغيان الولاة ، ولذلك فقد كان يصيخ بأسماعه لكل شكوى تجنباً لكمون البغضاء والحقد . ابن عذاري 125 ، تأريخ الأندلس ، ترجمة الأستاذ عنان ص 304 .
محمد المرير : المحاكم الإسلامية طبعة تطوان 1952 ص 35 .

الموحدين وطلبة الحضر والقاضي لسماع أقوالهم ، وتبيين تشكيهم بما كلفوا من حمل أنفالهم ، فبينوا وقالوا وأطنبوا ، ووصل كلامهم الى أمير المؤمنين على أبيَن التوصل والتفصيل فتغيّر وتأثر وقال : « عجباً من هذا الأمر وسعته ، وعدم المال عند مأمنه ، كانت لمتونة[1] إنما يملكون الى تلمسان هذه وكانوا ينصفون أجنادهم ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائداً على ما كان بأيديهم : إفريقية كلها ولا عندنا ما نُعطي للموحدين ، هذا من عجب العجب » وعبد السلام واقفٌ يسمع . فقال له عبد الحق بن وانودين[2] وأخوه تميم بن وانودين[3] : يا أمير المؤمنين : ذلك لتضيع المخازن والدّين قال أمير المؤمنين : والدين يكرر هذه الكلمة . قالا : نعم فقام أمير المؤمنين من مجلسه مغضباً ليدخل [44] موضع مقره ، فبادر عبد السلام بتقديم نعله ، فتركها أمير المؤمنين ولم يلبسها ومشى حافياً إلى موضعه .

قال الشيخ أبو يحيى زكريا بن سنان[4] حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد[5] بن يوسف بن وانودين قال : كان عبد السلام من بعض أصحابي

(1) لمتونة : من القبائل التي تتفرع عن البرانس صنهاجةُ التي تصل بطونها الى نحو السبعين منهم لمتونة وكدالة ومسوفة ، وقد كانت لهم دولتان عظيمتان الزيريون بأفريقية والملثمون بالجزائر والمغرب وبلاد السودان ، وقد كان موطنهم الأول بالصحراء وسط مملكتهم أعني بين بلاد البربر وبلاد السودان ، وقد أسلموا بعد فتح الأندلس ثم كانت لهم صلة وثيقة بأراضي السودان دشنت منذ الأيام الأولى ببعثه عبد الله بن ياسين الاستبصار ص 213 . ابن خلدون سادس 176 - 177 . الاستقصاء ثان 66 . . .

(2) هذا من أصحاب المهدي المستدركين بعد التمييز وهو أبو محمد عبد الحق بن وانودين الهنتاتي ويظهر أن له صلة بسليمان بن وانودين والي تلمسان. البيذق: أخبار المهدي ص 33-34-35. الاستقصاء ثان ص 95. محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص 20.

(3) هو الشيخ أبو الطاهر تميم بن وانودين من أصحاب المهدي كذلك . المصادر السابقة .

(4) أحد الرواة الحفاظ الذين تردد ذكرهم عند ابن صاحب الصلاة ، وأبوه هو الشيخ يحى من أهل خمسين ، وقد عهد الى الابن خمسة وستين وخمس مائة بالولاية على طبيرة وشنترية والعليا ، انظر ورقة 146 من المن بالإمامة .

(5) هو ابو عبد الله محمد بن أبي يعقوب يوسف بن وانودين من أهل هنتاتة البيذق : أخبار المهدي 33 - 34 - 35 .

فرغبت فيه إلى عمي عبد الحق وتميم ابني وانودين أن لا يزيدا في الشهادة عليه ، فقالا لي : والله لئن لم تترك يدك عنه لنقتلنّك ، فسكتّ فلما كان في ظهر ذلك اليوم قبض على عبد السلام وسجن في موضع محْبسه ووصل السادة رأيهم والموحدون فيه .

قال الراوية : فلما أقلع أمير المؤمنين من تلمسان تلطف لعبد السلام المذكور في السراح فكأنّ أمير المؤمنين رضي الله عنه أنعطف لَهُ وعُلِم بذلك فخُوطب مَن في تلمسان ممن يختص بالأمر أن يُتحيل في ميتة عبد السلام فاجتمع الرجل الذي وصل إليه الأمر بالسجان وصنع له السجان ثُردة في فروج جعل فيها سُماً ، ورغب لعبد السلام أن يأكلها وخدعه بأن قال له : قد وصل الأمر بسراحك ورغبتي منك أن تجازيني على حسن تلطُّفي بك . فقدم له الطعام والثردة فأكلها وتشعر في الحين بالسم فيها فرمى باللقمة التي كانت في يده في وجه السجان وقال : خذ ثردتك أهلكك الله ! ومات من ليلته وحدثني أبو العيش الكومي[1] أحد أشياخ كومية قال لي : كان [45] الخديم الذي يعجن له الخبز الذي يأكل كلّ يوم عبد السلام يجعل له فيه مقداراً من المحمودة[2] فيسهل في كل يوم لحمه وينسل عظمه حتى لم يبق فيه إلا عيناه .

---

(1) ممن ذهب الى إشبيلية في حاشية أبي عبد الله بن الشيخ أبي إبراهيم لما عيّن والياً عليها سنة إحدى وستين وخمسمائة . أنظر ص 147 من المن بالإمامة .

راجع كتاب الطبخ في المغرب والأندلس نشر . ويتي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية المجلد 9 و10 سنة 61 - 1962 أنظر هناك أنواع الثردة التي كانت أنذاك خاصة ص 115 - 116 .

(2) المحمودة : نوع من اليتوع : له نفس المفعول الذي للسَّقمونيا ، من خصائصه كثرة الاسهال ، وقد ذكرت بعض المصادر أنه صمغ الفربيون ، كما جعلته بعض القواميس مرادفاً لاسم تاكوت ، وقد اعتيد الانتقام في القديم بطريق الاسهال كما يحدث التاريخ . وقد ورد ذكر (المحمودة) في كتب الصيدلة والطب كما ورد ذكرها في كتب الحسبة ، وقد ذكروا أن أفضل أنواع المحمودة هو ما يرد من أنطاكية (Sacammonée d'Antioche) . دوزي مادة (المحمودة) . محمد النجاري بك . قاموس عربي - فرنسي مادة سَقَمونيا . الوزير الغساني : حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار - مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 35 ج ص 13 .

Renaud : Trois études de la mèdecine arabe en occident . Hes 1931 T X II Fas. 2 P. 219

وكان السبب الذي كثر إدلال عبد السلام به على الأمر أن كان والد أمير المؤمنين قد زوج أيام السّيرات والدة عبد السلام فولدت له ابنة تسمى بندة[1] فكان يرى لنفسه حقّاً ولم يعلم أن الملك عقيم وأن مسراته هموم ، ومرعفاته كلوم ، وكانت تلك الاخت (بندة) قد زوجها أمير المؤمنين رضي الله عنه من الشيخ الموحدي أبي حفص فلم تحسن عشرته فطلقّها برأي أمير المؤمنين حين أساءت الزوجية معه وهجر أمير المؤمنين بندة وعوضه خيراً منها . وأعقب عبد السلام من البنين . . . . .[2] .

رجع الخبر الى تبيين ما قدّمته من حرب قرمونة حتى فتحها الله :

ذكر انصراف السيّد الأعلى أبي يعقوب رضي الله عنه من جبل طارق إلى إشبيلية وانصراف السيّد الأسني أبي سعيد إلى غرناطة بعد إجازة أمير المؤمنين رضي الله عنه البحر منصرفاً إلى حضرة مراكش على ما ذكرته :

[46] ولما انصرف السيد الأعلى أبو يعقوب إلى إشبيلية من مُوادعة أبيه رضي الله عنهما ، وذلك في أوائل عام ستة وخمسين الموافق لشهر[3] فبراير العجمي رتب المقانب والسّرايا على حرب الأشقياء الشرقيين الكافرين أهل قرمونة يغادونهم ويراوحونهم بساحتها فلاذ الأشقياء المرتدون فيها بالجدران والأسوار ، واحتجبوا بحيطانهم راضين بحالة الضيم والحصار ، ظانين بأنهم مانعتهم حصانتها وأنى لهم هذا الامتناع من أمر الله الغالب القهار ، فعم

---

(1) كتبت في البيذق بالفاء بدل الباء : فندة . انظر صفحة 24 و ص 44 من البيان المغرب لابن عذارى .

(2) نبه الناسخ في الطرة إلى أن «هنا بياضاً»، وقد عرفنا من بنيه محمد الذي ظهر في وساطة بين والي المهدية وبين الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص.

التيجاني: الرحلة ص 350.

(3) أوائل عام ستة وخمسين وخمسمائة توافق يناير العجمي 1161

أنظر جداول الدكتور كاطنوز (Cattenoz)

جهتهم الحصار ، وظلوا من ضيقة الإسار ، بحال من لا يسرح له بالصبح مال ولا توقد له بالليل نار ، وسنّى الله تعالى ببركة الأمر العزيز أدامه الله أن مكن الله الغزاة الموحدين من الغادر الشقي الكافر عبد الله بن شراحيل الذي غَدَرَ مدينة قرمونة[1] ومكّن منها بدلسه محمد بن همشك ، وسيق أسيراً مكتوفاً الى السيد الأعلى أبي يعقوب بإشبيلية فغزاه وغزا أصحابه وأتباعه وأشياعه المنافقين .

وفي أثناء هذا الغزو وصل الشيخ المرحوم الفاضل أبو يعقوب يوسف بن سليمان[2] بعسكر ضخم إلى إشبيلية من الموحدين أنجدهم الله وأعانهم من تجهيز سيدنا الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه عند وصوله إلى مراكش من انصرافه المذكور [47] فاتصلت آمالُ الناس ببلاد الموحدين عند وصولهم وحلت المسرات بحلولهم وأدخل الشيخ بهم الميرة والأقوات والآلات إلى قرطبة ، وحييت وقويت وأقام بإشبيلية الى أن ظهر النصر على الأعداء ، واستمر الظفر بالأشقياء وتحصلت صيفة أهل إشبيلية عند أهلها ورعيتها على أوفى الأمن في الجهات والأرجاء . وكان إنصراف الشيخ المرحوم المذكور معلماً الحضرة العلية بجهاده واجتهاده . ثم أن السيد الأعلى أبا يعقوب رضي الله عنه مشى عن إشبيلية إلى زيارة أبيه الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه حين اتّدع بحضرة مراكش على ما ذكرته ناظراً في غزوة الروم الذي أضمره في نفسه من الاحتفال في ترتيب العساكر للغزو العظيم . واستخلف السيد الأعلى أبو يعقوب رضي الله عنه بإشبيلية لحرب قرمونة الشيخ الحافظ الشهيد أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي[3] ، ومنازلة الأشقياء الذين بها من رجل محرب ، فارس مقدام في الحروب مجرب ، حافظ قاصل درب بالفتنة سايس

(1) انظر التعليق رقم 3 ص 145 من المن بالإمامة .

(2) يُعد أبو يعقوب هذا من أهل خمسين ، وهو من تينملل كان زعيماً للموحدين وخالصة أمير المؤمنين . البيذق ـ أخبار المهدي ص 33 - 34 - 35

(3) من شيوخ الموحدين المبرزين وقد استشهد في موقعة مرج الرقاد انظر التعليق رقم 3 صفحة 93 .

ذي ناب في الفتن ومخلب ، خطيب باللسان العَربي المعرب ، فتجهّز بذلك الجيش الى حرب قرمونة المذكورة ، وسكن قلعة جابر[1] على بُعد أميال منها يغاديها ويراوحها بالغزو كل يوم ، ويسري بالغارات نحوها طول ليلها حتى يصبح صباح [48] القوم ، فخامر الرَّوع لابن همشك في مدينة جيان وفي بلاده ، ولم يغثها ولا أمدّها بعون من استمداده ، وأسلمها وأفردها من نظره عند عجزه الذي عجّزه الله بنيته وفساده . فسار أبو محمد عبد الله بن أبي حفص المذكور من قلعة (جابر) ونزل عليها لصق سورها بالموضع المعروف بحصن ابن سلام[2] بعسكره المؤيد ، وفي صحبته الشيخ أبو العلاء بن عزون نصيح الأمر العزيز ، ومعه أصحابه الجند الأندلسيون المرسومون في زِمَام الأمر الكريم حتى ضاق حال مَن في داخلها من الرعية والشرذمة بالحصار ، ويئسوا من أصحابهم الأشقياء من الغوث والانتصار ، فقيض الله رجلاً من أهل قرمونة اسمه « شراحيل »[3] ، ليس من أهل قرمونة ، وليس من الغادر الكافر المسمى أولاً ، المذكور الذي غدرها ، المعروف بعبد الله بن شراحيل في حسب ولا نسب إلا اسم اتفق فيهما ، فداخل الموحدين ـ أعزهم الله ـ بالليل سراً في محلتهم وطلب منهم الأمان في نفسه ورعية بَلده والإحسان له إن هو أدخلهم المدينة ويسّر الله له الأمنية الثمينة ، فأنعموا له فيما طلب ورغب فاجتمع بأصحابه وارتبطوا له لما ارتبط ، وضمن لهم الأمان والشرط الذي شرط ، وأدخلوا الموحدين ـ أعزهم الله ـ المدينة من البرج المعروف « بقرن

(1) قلعة جابر (Alcalà de Guadaira) تقع جنوب قرمونة على مقربة منها ولا تبعد كذلك عن إشبيلية ، واليها ينسب الشاعر عامر بن خدوش القلعي القائل :

ألا يا سقى الرحمان قلعة جابر — فكم لي فيها من لَيَالٍ زواهر!

ابن عذاري 171 : ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب أول ص 291 .

Huici : Historia . P . 245 - 253

(2) (حصن ابن سلام) لم نقف على معالم هذا الحصن في « الأندلسيات » التي بين أيدينا وإن كنا نعلم أنه كان على مقربة من قرمونة .

(3) لم نقف على ما يميز شراحيل هذا في الأخبار المتعلقة بقرمونة في المصادر التاريخية .

المعزة »[1] كما فعل أولاً بالغدر من ذلك الموضع .

[49] وفتحوا باب المدينة للموحدين ، وتملكوها في الحين ، وانحصر الشقي القائد الشرقي ابن أبي جعفر[2] بالقصبة مع أصحابه ثم نزل على الحكم فيه وفتحها الله ضحوة يوم الجمعة العاشر من شهر المحرم وبموافقة اليوم[3] السادس والعشرين من ينير العجمي من عام سبعة وخمسين وخمس مائة ، وكان غدرها على ما تقدم في التاريخ به[4] ضحوة يوم الجمعة أيضاً الخامس عشر من ربيع الأول ، وبموافقة اليوم[5] الثاني والعشرين من مارس العجمي عام خمسة وخمسين وخمس مائة على ما ذكرته في التاريخ[6] . وتقبض يوم فتحها على القائد الشرقي ابن أبي جعفر وسير مكبولاً في الحديد الى سجن إشبيلية وبقي إلى أن نفذ الأمر المطاع أدامه الله من الحضرة العلية بصلبه فصلب في الرملة[7] تحت قصر ابن عباد من إشبيلية وارتفعت فتنة قرمونة على ما ذكرتها في التاريخ .

ولما دخل الشيخ الشهيد أبو محمد بن أبي حفص بن علي قرمونة غسل جامعها بالماء من . . . . . . [8] ولقد مشيت[9] اليه فيها وهنّيته على الفتح وهو

(1) قرن المعزة برجٌ بقرمونة ولم نقف على ذكر له في آثار غرناطة .

(2) ابن أبي جعفر : قا د حامية قرمونة وقد كان مصيره الأسر ثم القتل والتصليب تحت قصر ابن عباد ولعل له صلةً بابن أبي جعفر الذي ثار بمرسية وقتل سنة 540 .
الحلة السيراء ص 208 - 209 - 218

(3) الموافق لليوم العاشر من المحرم من عام 557 هو 30 دجنبر 1161 لا 26 من يناير .

(4) راجع ص 20

(5) الموافق كما تقدم ـ حسب جداول الدكتور كاطنوز 25 مارس 1160 .

(6) انظر ص 20 .

(7) الرملة (Rambla) يظهر أنه ميدان تحت قصر ابن عباد . محمد الفاسي : الاعلام الجغرافية الأندلسية (البينة) يوليوز 62 ص 57 .

(8) هنا بياض في أصل المخطوط ثم إن هذا المسجد هو ـ بدون شك ـ الجامع الذي ورد وصفه عند الحميري صاحب الروض المعطار والذي يحتوي على سبع بلاطات تقوم على أعمدة رخام وقواعد من صخر . الحميري ص 159 .

(9) لأول مرة يظهر ابن صاحب الصلاة بالأندلس بقرمونة، ويظهر انه كان في ركب المجاهدين .

في الجامع يغسله وهو جالس مستندُ الى الحائط الشرقي من جامع قرمونة والرجال يغسلون الجامع بمرأى منه ، وأقام فيها حتى أصلحها وأمنها وانصرف إلى إشبيلية ، وأعلم في خبر فتحها حضرة الخليفة [50] بما فتح الله له فشكر وحمد لكن الأيام عدت عليه إثر ذلك حسب ما أذكره من استشهاده[1] رحمه الله .

الخبر[2] عن غدر إبراهيم بن همشك مدينة غرناطة بمداخلة الغوي ابن دهري[3] مع اليهود الإسلاميين الساكنين بها الذين أسلموا على كره وما حدث عليها من الوقائع

قد تقدم التاريخ في قبيح نكاية إبراهيم بن همشك لمدينة قرطبة باصطلامه وصلمه في كل صيفة زروعها ، وتعفيته جنباتها وربوعها ، مدة الأعوام التي غاب فيها سيدنا أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى غزوته مدينة المهدية وفتحها وفتح أفريقية ، وأنه استولى بغدره وشرذمته على مدينة قرمونة ، ولم يبق من البلاد المجاورة لإشبيلية إلا قليل نبّه الله نفوس أهلها

(1) كان ذلك بوقعة (مرج الرقاد) انظر صفحة 154 من (المن بالإمامة) راجع التعليق رقم 3 صفحة 93 .

(2) عني المستشرق الهولاندي الشهير دوزي بترجمة هذه القطعة من كتاب المن بالإمامة التي تبتدىء من هذه الصفحة 50 الى صفحة 62 ولكنه ـ وقد أزعجه أسلوب ابن صاحب الصلاة ـ اكتفى بترجمة المقصود ، وقد كانت مناسبة للحديث عن « الضغط » الذي استهدف له ـ في نظره ـ بعض الأسبانيين وخاصة اليهود منهم الأمر الذي جعلهم يتظاهرون بالإسلام بالرغم من أنهم ليسوا كذلك . . ولم يفته أن يتحامل على ابن صاحب الصلاة الذي يعتبر في نظره مسرفاً مغالياً ومغرضاً متعصباً . . .

Dozy : (Recherches) sur ce qui passa a Grenade en II 62 page 364 - 372

(3) كان ابن دهري صهراً لابن زيد مشرف غرناطة ، وقد استطاع أن يجمع حوله طائفة من اليهود المتظاهرين بالإسلام ، وعليه اعتمد ابن همشك في التآمر على غرناطة ، وإذا ما أعتبرنا ما ورد في بعض المصادر فإن المسيحيين أسهموا بدورهم في محاولة الأجهاز على ظهور الموحدين . المصدر السابق ص 361 .

بالتوحيد ، والإقامة بالطاعة على الأمر السعيد ، فلما كان البشر الميمون باياب سيدنا رضي الله عنه وعبوره البحر الى جبل طارق ، ثم انصرف الى حضرة مراكش على ما ذكرته[1] ، لازمت العساكر من الموحدين أعانهم الله حصار قرمونة على ما شرحته[2] ، حتى فتحها الله تعالى فأسف عليها إبراهيم بن همشك وهو بمدينة جيان ، فاضطرمت الفتنة في قلبه ، وعزمت [51] طويته المنافقة أن يغدر مدينة غرناطة إذْ هي على قربه . وداخل من فيها من اليهود الإسلاميين مع حليفهم المعروف بابن دهري الفاسق المنافق الذي كان صهر[3] ابن زيد مشرفها[4] قبل ، وكان السيد الأسني أبو سعيد بن الخليفة رضي الله عنهما قد غاب عن غرناطة للزيارة ، فمشى هذا الفاسق ابن دهري سراً من ابن همشك في ليلة معينة يصلهم فيها الى باب الربض[5] بغرناطة ، ويكسرون قفل الباب ويدخلونه فوصلهم في ليلة ـ . . . . . من شهر . . . . .[6] من سبعة وخمسين وخمس مائة ، واتفق من سعد هذا الأمر العزيز وأهله أن كانت القصبة[7] من غرناطة محصنة بالرجال ، مجلوة بالأقوات والآلات واتحاد

(1) انظر صفحة 39 من ابن صاحب الصلاة .

(2) انظر صفحة 46 من المؤلف .

(3) هكذا في أصل المخطوط وهو الصواب، وقد حرفت الكلمة عند دوكايانكوس (De Cayangos) فصارت هكذا صحر بن زيد. Dozzy : Recherches page 380 - 381 .

(4) المُشرِّف بالاسبانية (Almojarife) كان هو الذي يتوصل بكل الواجبات والحقوق اللازمة عند الإيراد والإصدار للسلع فهو بمثابة المفتش العام للديوانة ، ومن الممكن ان يكون ابن زيد هذا كانت له هذه الوظيفة على عهد المرابطين ، فإن وزيراً للمالية في أيام تاشفين الصغير كان يحمل اسم أبي محمد الحسين بن زيد . Dozy : Page 381 .

(5) باب الربض : أحد أبواب غرناطة ويقصد دون شك ربض البيازين حيث كانت تقوم سوق البزاة (Albaicin) الذي يقع في شمال المدينة في العدوة الغربية منها .

Dozy : 382. Huici : p . 201 - 200 .

(6) هكذا بياض ، ولعل المؤلف كان ينوي أن يتأكد من اليوم والشهر ليملأ الفراغ الذي تركه ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، وقد نقل ابن الخطيب أن ذلك كان في شهر جمادي الأولى لكنه ذكر سنة ستة وخمسين وخمسمائة . الأحاطة ص 309 .

(7) القصبة يعني بها القصبة القديمة التي توجد في العدوة الغربية جنوب ربض البيازين .

A Gallego Burin : Grenade . 1954 P. 124 . Huici : P. 201 - 200

الموحدين الأبطال ، فوصل الغادر ابن همشك على ما تووعد معه ، وقد أجمع الكفر مجمعه ، وكسروا القفل والباب ، وتنادوا بالصياح بالأصحاب ، فلما تسامع الناس بالمدينة الصياح والكفاح ، بادر من كان له ولاء ، واعتقاد في الدين واحتماء بالفرار بأنفسهم إلى القصبّة ، والمعاونة والمعاضدة الى أخوانهم الموحدين الخَبيّة فلما أصبح الله بالصباح من تلك الليلة المزؤودْة وقد تملك ابن همشك المدينة ، خاطب المنافقُ أميرَه ابن مردنيش بمرسية يعلمه بما اتفق له ، وأطمعه أنه إذا وصل بشرذمته وعسكريته ينزل بالطوع من [52] في القصبة من الموحدين قبله . فاحتشد ابن مردنيش مَن في بلاده ، من جميع أجناده ، واستدعى النصارى[1] أصحابه ووصلوا اليه وخرج في جمعه الذميم ، طامعاً فيما ضمن له الغادر ابن همشك من شيطانه الرجيم ، واحتل ابن همشك يوم دخوله غرناطة بالقصبة الحمراء[2] التي في جبل السَّبِكة[3]

(1) كان القواد المسيحيون الذين أسهموا في هذه الموقعة ثلاثة الأول :
الفار رُودْ ريكيث (Alvar Rodriguez) الذي عُرف في المصادر الإسلامية تحت لقب الأقرع ، والثاني أيرمانكو السابع .Ermengaud VII الذي سماه ابن صاحب الصلاة القمط أرجال Urgel والثالث هو أخ أيرمانكو السابع المسمى كوسيران دوصال Caucerand de Sales وسنقف على تاريخ مصرع « الأقرع » أما هذان الأخوان فقد توفيا معاً في سنة 579 (1083) .

(2) « الحمراء » تقع في العدوة الشرقية من غرناطة يفصلها عن القصبة القديمة نهر (حداره) ولا نتوفر حول التاريخ القديم للحمراء على معلومات كثيرة ، وكل ما نعرف عنها انه ورد ذكرها أول ما ذكر عند الكلام على وقعة سنة 277 في عهد عبد الله الأموي ، وقد يكون بناؤها تم بعيد بناء القصبة القديمة ، وبها كان قصر ابن باديس لكن تاريخها ازداد وضوحاً بظهور بني نصر عام 689 . هذا ويظهر أن القصبة القديمة لم تكن لتحتمل الجيش المتحدث عنه ، ولذلك فإن الاستعانة برواية ابن الأثير مما يوضح المقام فلقد ذكر أن القلعة كانت تحتوي فقط أنصار ابن همشك من الأندلس ، أما المسيحيون ـ وعددهم الفان ـ فقد كانوا يعسكرون بظاهر القلعة الحمرا .
انظر آخر بيت في قصيدة ص 153 .
ابن الأثير : الكامل في التاريخ المجلد التاسع طبعة القاهرة 1348 ص 78 .

Dozy : Recherches page 385,
A . Schaade : Alhambra : Encyclopédie de L'Islam Tome I page 280 - 281
A . Gallego Burin : Grenade 1859 . page 26 .

(3) كذا رسم بدون ياء بعد الباء لكن الياء تثبت في كثير من المصادر الأخرى وقد ورد ذكر السبيكة في=

الموازنة لقصبة غرناطة[1] غرناطة وشرع منها في القتال ، وإقامة المنجنيقات لرمي الحجارة على الموحدين في قصبتهم بأعظم الاحتفال ، وعذب من حصل في يده من الموحدين وعبث فيهم ورماهم في كفة المنجنيق ، واستخف بالخالق في عيثه بالمخلوق ، وهزأ بجهله بكل فريق ، وأمد الله تعالى الموحدين بالقصبة ، وأعانهم وثبتهم بمعونته ونُصرته وكانت عندهم الأقوات والآلات فعدوها مع عون الله عدتهم ، وقطعوا الساباط[2] المتصلة بينهم وبين القصبة الحمراء حذراً من قتال الأعداء فيه اليهم واستغاثوا بأمير المؤمنين رضي الله عنه ، وبالموحدين الذين بإشبيلية : أبي محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الشهيد ، وشاعت الأخبار ، وسرى الرقاصون بالاستغاثة الليل والنهار .

= عدة أشعار فقد قال أبو الحجاج من شعر يحنّ فيه لغرناطة :

واعلامُ نجْدٍ والسبيكة قد علت ... وللشفق الأعلى تلوح بُرُوق

وقال أبو إسحاق النميري وقد اشتاق الى السبيكة :

لما نزلت من السبيكة صادفي ... ظبيٌ وددت لديه ان لم أنزل
فاعجَبْ لظبيٍ صَادَ ليثاً لم يكن ... من قبلها متخبّطاً في أحْبل

هذا وقد نقلت بعض المصادر الإسلامية أن نزول ابن مردنيش كان على الأكمة التي تحمل اسم « كدية مردنيش » ونقل عن الاستاذ ايكيلاز Ecuilaz أن المكان يسمى في بعض الوثائق بكدية ابن سعد ، ويقتصر ابن الأثير على القول بأن ابن مردنيش استقر خارج غرناطة في موضع الشريعة ، ومما أثر عن المصادر المسيحية بعض الأهازيج الشعبية الأسبانية التي تتعلق بهذه الموقعة وتذكر « القصبة » و « الشريعة » .

ابن الأثير : الكامل ، مجلد تاسع صفحة 79 .

ابن الخطيب : الأحاطة ، نشر عبد الله عنان ص 123 - 358 .

Dozy : Recherches, page 381 - 382 - 384 - 385 .

(1) يعني بها القصبة القديمة التي تقدم ذكرها والتي تقع في العدوة الغربية من غرناطة .

(2) الساباط هو - على ما يفهم ايكيلاز - Eguilaz الذي يحمل اسم « قنطرة القاضي » التي كانت تجمع بين القصبتين الحمراء ، والقديمة ، وقد ذكر في التاريخ أن قنطرة القاضي هذه شيدت حوالي سنة 447 هـ (1055 - 1056) وأن القاضي الذي تنسب اليه هو علي بن ثوبة الذي ولي القضاء لباديس بن حبوس ، والذي على يديه كذلك عُمل منبر جامعها . وقد اندثرت معالم هذه =

ذكر حركة أمير المؤمنين

وكان أمير المؤمنين رضي الله عنه قد تحرك من حضرة مراكش [53] على عادته وطيب نيته للغزو - رضي الله عنه - وجعل الجنَّة مأواه في عام سبعة وخمسين المذكور وعساكره المؤيدة تابعة له فوصله الخبر بغدر غرناطة وهو بوادي كساس[1] على مرحلتين من مدينة رباط الفتح بسلا فأقلقه ذلك ، وتأثر لما هنالك ، فلما وصل رباط الفتح بسلا المذكورة تقدم السيد أبو سعيد بمن كان معه من أصحاب الخاصين به مسرعاً بالسير ليلاً ونهاراً إلى الأندلس لعله يدخل قصبة غرناطة ويفر ابنُ همشك عن القصبة الحمراء من المدينة بدخوله ، والسيد قد قرر عنده أن ابن همشك إنما هو في جملته الذميمة المشهورة له وإذا ابن مردنيش قد وجه لابن همشك المذكور عسكراً ذميماً من النصارى عليهم العلج الذميم الأقرع حفيد البرهانس[2] لعنهما الله ، في الفي فارس

= القنطرة الآن ، وأكد البحث خطأ الذين ظنوها الأثر الذي يوجد على مقربة من الحمام المغربي هناك .

Provençal : Hes . T.X page 121 - 122 .

Ambrosio Huici Miranda, Historia Politica . Page 200 - 201 .

(1) وادي كساس : لم يضف دوزي ولا كذلك ويسي شيئاً على ذكر الوادي (Wadi - Kesas, Rio Kassas) وقد ورد ذكره هكذا في ابن عذاري (كسس) كمكان يوجد في منتصف الطريق بين الرباط ومراكش كما ورد ذكره في التشوف كذلك ، وهو كما ترى على بعد مرحلتين من الرباط ، فبالمقارنة مع المراحل التي ذكرها الأدريسي وابن صاحب الصلاة نجد أن رأس المرحلتين من الرباط هو لجيسل (Guisser) فيكون هذا الوادي هو : « وادي التويمي » بالشاوية جنوب مدينة سطات .

الأدريسي ، نزهة المشتاق ص 70 . المن بالإمامة ص 304 ابن عذاري ص 8 . التشوف ص 274 .

Dozy : P. 374

Les Cuides Bleus (Marco) 1925 . Carte. Page 112 - 113 page 120 . Huici P. 248 . C . 4

(2) هو Alvar Rodriguez حفيد ألفار فانيز Alvar Fanez ، هذا الذي لم تتحدث عنه المصادر المسيحية إلا مرة واحدة فيما يذكر ، وذلك سنة 542 (1147) في تاريخ الفونس السابع ، وقد =

ورجالة كثيرة . فلما وصل أبو سعيد الى قصر مصمودة[1] وأجاز البحر الزقاق ووصل مالقة[2] استدعى من موضعه الشيخ الحافظ الشهيد أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن الوالي على إشبيلية أن يصله بعسكر إشبيلية وأنظارها أسرع ما يمكنه واستعجله في ذلك بحسب ما ظنه من حال عدوه ، فنهض أبو محمد عبد الله المذكور والتقى بالسيد أبي سعيد ، وتجمعوا بجميعهم وصَمَدُوا الى غرناطة والنصارى أهلكهم الله قد وصلوا قبل ذلك على ما ذكرته فتقدم السيد [54] بالموحدين والجُنْد الأندلسيين حتى وصل فحص أغرناطة[3] حيث السواقي الجارية بالماء لسقي أرضها في الموضع المعروف

= كانت له مواقف أباد فيها بحياة كثير من الناس لذلك فإن اسمه قد رسخ ولا يعرف ابناؤه وحفدته إلا به . . وهو معروف في المصادر الإسلامية باقرع بل ان القرطاس لم يدعه إلا بلقبه هذا .

ابن أبي زرع : القرطاس ، طبعة سلا . ص 155 جزء ثاني .

Huici : P. 200

(1) قصر مصمودة هو قصر المجاز لا يبعد عن طنجة ، تقابله جزيرة طريف من الأندلس ، أسسه أمير مصمودة أيام ولاية طارق بن زياد الليثي بطنجّة ، ومنه كان جوازه لجبل طارقٍ عام تسعين ، ومنه غالباً كان يتم عبور الجيش الى الأندلس ، وهو المسمى بالقصر الصغير . دوكا ستري . فرنسا السلسلة الأولى . المجلد الأول . 174 تعليق3

الأدريسي : نزهة المشتاق طبع ليدن ص 166 . المراكشي : (المعجب) ص 353-367.

بوجندار : مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح 1345 هجرية ص 22 . أحمد المكناسي خريطة المغرب الأركيولوجية طبع تطوان 1961 ص 20 .

Huici : Page 224 - 225

(2) مالَقة : مدينة على شاطىء البحر جنوب غرناطة . وفيها استدار بها من جميع جهاتها شجرُ التين المنسوب إليها وقد كان تينها يحمل الى مصر والشام والعراق وربما وصل الى الهند وهي من تأسيس الأول وجامعها بالمدينة من خمس بلاطات ، وقد كان لها خمسة أبواب : بابان إلى البحر . . . ومما أنشده القاضي بن حوط الله فيها :

مالَقة حييتَ يا تِينَها ! الفُلك من أجلكِ يا تينَها
نَهى طبيبيَ عنْكِ في علَّتي ما لطبيبيَ عَنْ حَيَاتي نَهى

الحميري : الروض المعطار ص 177 - 178 - 179 :

(3) فحص غرناطة (Vega de Granada) يقصد به السهل الأخضر الذي تشرف عليه غرناطة .
الأحاطة ص 105 . Dozy : 375 .

بمرج الرقاد[1] على نحو أربعة أميال من أغرناطة المذكورة فخرج إليهم إبراهيم بن همشك بالنصارى وأصحابه ودارت الحرب بينهم في الموضع المذكور ، وظهر عدد النصارى، وراع الناس مددهم وعددهم بظهور الكمين عليهم فانهزم الناس بالموضع المذكور وولوا فارين وقطعت بهم عند فرارهم تلك السواقي فسقطوا فيها بخيلهم، وكانت من أقوى أسباب الانهزام وقتل واستشهد ذلك اليوم الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي المذكور وتخلص السيد أبو سعيد ووصل مدينة مالقة ، واستشهد في ذلك اليوم العصيب كثير من الموحدين رحمهم الله ، ومن الأندلسيين ، وكان هذا الرزء عظيماً ، وخطباً جسيماً ، وثبت الله الموحدين المحصورين في قصبة أغرناطة وفي ضبطها إذ كان هذا الخطب بمرأى منهم من القصبة لأخوانهم بإطلالها على الفحص المذكور وانصرف ابن همشك من هذه الوقيعة مع أصحابه النصارى الى القصبة الحمراء بأغرناطة وأسرى الموحدين بين يديه يقتلهم ويعبث فيهم على مرأى من أخوانهم حسب ما قد ذكرته في تاريخ المريدين[2] قبل .

(1) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد بضعة كيلو مترات من قرية الطرف (Atarfe) في سفح جبل البيرة (Sierra de Elvira) على مقربة من نهر شنيل ، ومقابلها الحديث هو (Majorrocal) أو (Merrojal) . البيذق 126 . الحلة السيراء 230 . الإحاطة في أخبار غرناطة ص 309 نشر عبد الله عنان تعليق رقم 5 . أعمال الأعلام ص 261 .

Huici : 201 نقلاً عن دي لوثينا Seco de Lucena : Notas Sobre (Al Andalus)

Topnimia Arabigo Granadina 1944 . P. 201

(2) صريح كما ترى في ان لابن صاحب الصلاة كتاباً متقدماً أسماه (تاريخ المريدين) وعندما كان دوزي يترجم هذه القطعة من الكتاب لم يكن قد وقف بعد على ما أوردته الحلة السيراء حول كتاب تاريخ المريدين ، هذا الكتاب الذي نشره كما هو معلوم ، ولذلك فقد اكتفى بالإحالة على كتابه :

(Suppl . aux dict. ar). Recherches page 376 .

[55] ذكر وصول الخبر الحادث بمرج الرقاد على الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه

وأنه لما وصل خبر هذه الوقعية الى حضرة الأمير الأعز أدامه الله برباط الفتح بسلى ، وكانت العساكر المؤدية من الموحدين أعانهم الله والعرب المجلوبين والأجناد المرسومين قد تلاحقت بالمقر الكريم على نية ما تحركوا اليه من الغزو لأهل الشقاء والروم اختار منهم الأمر الكريم أدامه الله عسكراً ضخماً ، فخماً شهماً ، من أعيان كل قبيل من أهل الشهامة والنجدة الذين تعودوا دلج الليل وإيطاء القتيل وجمعهم ووعظهم وعرفهم ما لهم في نصر الحق وقمع الباطل عند الله تعالى من الزلفى والأجر الدائم الكفيل الأوفى ، واجتمع في عدد الفرسان والرجال زهاء عشرين الفاً عاهدوا الله تعالى وبايعوا الخليفة أمير المؤمنين - أدام الله أوامره ، وحاز مفاخره ، على مناجزة الأعداء الأشقياء - والكفار الأعداء والروم الكافرين وحماية لله تعالى في الدين وعوناً لإخوانهم الموحدين الصابرين المحصورين بقصبة غرناطة ، وأمر عليهم أمير المؤمنين رضي الله عنه ابنه الرضي الأمير المرتضى أبا يعقوب يوسف رضي الله عنه وأصحبه الشيخ الفاضل العاقل أبا يعقوب [56] يوسف بن سليمان[1] زعيم الموحدين ، وخالصة أمير المؤمنين ، لتجربته بالحروب ، ودهيه في الخطوب ، ومقارعته قديماً وحديثاً بهم الأبطال المتدرعين بالقلوب ، تيمناً به بما خص في هذا الأمر من النصر العجيب ، والرأي الناصح المصيب ، فتحركوا منه من رباط الفتح بسلى نافرين ، مسارعين بالسير مواصلين ، إلى أن وصلوا مجاز[2] البحر الزقاق فاجازوا منه الى الخضراء[3] ونزلوا فيها ، ولم

---

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 182

(2) لم ندر هل يقصد قصر مصمودة أو سبتة أو مركزاً ثالثاً ولكنا اعتدنا أنه عندما يكون النزول في طريف يكون الإبحار من قصر مصمودة . . راجع التعليق رقم 2 ص 191 .

(3) يعني الجزيرة الخضراء ، وتقع في الشمال الشرقي من جزيرة طريف غربي جبل طارق .
'Huici. P. 224

تزل العساكر تتلاحق ، وتتبادر في الإجازة وتتسابق ، حتى أكملوا إجازتهم ثم تحركوا من «الجزيرة الخضراء» على تعبية ، وطيب سريرة وفية ، صحبة الأمير والشيخ الفاضل المدبر وأموا على شاطىء البحر في الطريق السالك الى مالقة فاجتمعوا بمالقة مع السيد أبي سعيد .

ذكر الرأي السديد المرفق من الشيخ المرحوم أبي يعقوب إلى عساكر الموحدين

وتحرك السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد والشيخ المرحوم أبو يعقوب المذكور من مدينة مالقة بالعساكر المظفرة بعد تزودهم من الدقيق والعلوفات، وأدرار النعم عليهم بالبركات، ومعونتهم على غزوهم بأكمل الخيرات، ونهدوا إلى أعدائهم بعون الله تعالى وبرأي الشيخ المرحوم [57] أبي يعقوب، يرحل بهم كل يوم مرحلة رفيقة، ويقيم بحسب ما يرى أن الرفق يعين فريقه، قد سلك الطريق حيث اجتمع رأيه مع رأي الأدلاء من الرفق بالضعفاء، والنهضة بأهل الحزم والنجدة والوفاء، آل غرناطة بمحلة الأشقياء. وابن مردنيش قد وصل بحشده وعسكريته، وبالنصارى شيعته، طامعاً فيما اطمعه الشيطان، واستاقه التباب والخسران، ونزل في الجبل المتصل بقصبة غرناطة، وابن همشك بجبل السبيكة[1] بالقصبة الحمراء مع النصارى وأميرهم العلج الأقرع حفيد البرهانس لعنه الله ومعه ابن القمط أرجال[2]

---

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 189.

(2) تذكر المصادر المسيحية ان القمط ارجال (Comte d'Urgel) كان سنة 1162 (517) هو ايرمانكو السابع (Ermengaud VII) الذي خلف اباه إيرمانكو السادس الملقب بدو كاستي (De Castille) سنة 1154 (548) وايرمانكو السابع هذا مات سنة 578 (1183) وخلفه ولده البكر ايرمانكو الثامن وأن النص الذي بين أيدينا يؤكد أن المقصود هو ايرمانكو السابع فهو الذي كان سنة 557 قمطا. . هذا ونرى أن ابن صاحب الصلاة يسميه ابن القمط أرجال عوض القمط أرجال لنفس السبب الذي حمله على أن لا يعطي ألفار رودْكيز عروفي اسمه الحقيقي وإنما حفيد البرهانس أي أن هذين الرجلين إيرمانكو السادس المدعو دو كاستي والفار فانيز كانا =

النصراني (و)[1] أخوه أيضاً في عدد أكثر من ثمانية آلاف فارس من النصارى أهلكهم الله سوى عسكريته الذميمة. وابن مردنيش في أكْثَر من هذا العدد وبين العسكرين وادي[2] حَدَارُّه المتصل بغرناطة وقصبتها يفصل ما بينهما من الأرض في الاتصال، كما كان والحمد لله مهلكا لهم بالتردّي فيه يوم الحرب والنضال، وهم ينتظرون كل يوم وصول العساكر، ويظنون ظنوناً سيقت من الله تعالى حتوفهم فيها في ساعة ملاقاتهم بالسيوف البواتر، والموحدون أعانهم الله يمشون في طريقهم على تؤدتهم بصفا طَوِيّتهم، ونصر الله تحقق في أعلى الويتهم، حتى وصلوا الموضع المعروف بوادي دلر[3] القريب من قرية الهمدان[4] فأقاموا [58] عليه ثم ارتحلوا إلى وادي شنيل[5] على قرب من غرناطة، والكفرة بعجبهم يظنون أنهم لا يقربون إليهم وأنهم على عادتهم في التبّطي من حركتهم. فلما كان يوم الخميس[6] السابع والعشرين من رجب

= معروفين جداً لدى المسلمين ولذلك فانهم لم يسمعوا الابن والحفيد منهم إلا بهما. راجع التعليق رقم 1 ص 125؛ Dozy: Recherches page 387

(1) لا توجد في أصل المخطوط - مع انها اعتبار لما ورد في المصادر المسيحية وتمشياً مع ما يُعطيه المعنى - ضرورية ولذلك أقحمناها بين هلالين، أما أخو القمط المشار إليه من قبل ابن صاحب الصلاة فهو كوسيران دوصال: (Caucerand de Sales) الذي مات سنة 1183 قريباً من بلنسية. انظر التعليق رقم 1 صفحة 125. Dozy: 387

(2) وادي حداره (Darro) اسم النهر الذي يخترق مدينة غرناطة وهو فرع صغير من نهر شنيل وقد كان في القديم يحمل اسم بحر القلزم!

ياقوت: معجم البلدان، المجلد الرابع ص 195 - 388 - الاحاطة ص 532.

Dozy: quelques anciennes Localités de L'Andalousie (Recherches) page: 342

(3) وادي دِلَـر (Rio Dilar) قرية ما تزال إلى الآن، وتقع جنوب غرناطة على مقربة من قرية «البذول». الاحاطة: 310. Dozy: P. 345 - Huici P. 202.

(4) قرية الهمدان (Alhendin) تقع كذلك جنوب غرناطة قريباً من دلر، وقد استعارت هذا الاسم من القبيلة العربية المشهورة همدان وقد حرفت عن ويسي إلى (المهدان)؟ الاحاطة ص 118.

Dozy: Recherched. page: 345.

(5) وادي شنيل (Rio Genil) يقع جنوب غرناطة وهو متفرع من نهر الوادي الكبير. الاحاطة ص 124. الحلل السندسية أول ص 129. Huici: 202 - 203.

(6) الموافق حسب جداول الدكتور كاطنوز هو 12 يوليه 1162 وهو ما عند دوزي في كتابه (Recherches).

الفرد عام سبعة وخمسين وخمس مائة جمع الشيخ المرحوم أبو يعقوب جميع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ الأجناد والانجاد من مسوفة[1] ولمتونة والقبائل وأشياخ العرب الجائزين ووعظهم وأعاد التكرار بالموعظة بما لهم من الأجر عند الله تعالى في جهاد الكفرة أعدائه وعدوهم وأن الجنة مضمونة لهم عند الله إذا صدقوا، ووفوا بما بايعوا به ونطقوا. فجددوا في الجهاد النية. وأخلصوا الله الطوية. وأعلفوا خيلهم بعد صلاة الظهر من يومهم وعزموا على أن يسروا في الجهاد ليلهم واستلأموا السِّلاح وركبوا خيلهم بعد صَلاةِ العشاء من ليلة الجمعة الذي كان الفتح في صباحه الثامن والعشرين من رَجَب المؤرخ وقدموا أمامهم الأدلاء والرجالة المصامدة[2]، أهل النجدة المحامدة، وتسنموا في الجبل[3] من أعلاه الذي على وادي شنّيل المتصل بجبل السبكة والقصبة الحمراء حيث النصارى أهلكهم الله وصاحبهم ابن همشك ومشوا طول ليلتهم على تؤدةٍ في الجبل المذكور على شواهقه وأحجاره [59] وقد سهل الله عليهم الطريق، على وعره وقرب لديهم البعيد السحيق، ووعدهم بنصره، وكانت الليلة نيرة في وصفها، مقمرة في آخر نصفها.

فلما فرق ضوء الفجر بالصباح من يوم الجمعة الثامن والعشرين المؤرخ المذكور أطلوا على محلاّت الكفرة في ذلك الصباح، فبدؤوهم في مضاجعهم بالكفاح، وخلطوا أحشاءهم بالسيوف والرماح، فلم يلحقوا أن يركبوا خيلهم إلا وقد أجاز الله بهم ويلهم، ثم كانت منهم بعد موافقات وحملات ومدافعات على عادة كفرهم وطغيانهم وعبدتهم لصلبانهم. وضياء النور بالنصر قد انتشر، والصباح قد ميز العدو بصفته والجو بالقتام قد أظلم وأغبر، فلا تسمع إلا ضربة سيف بحتف أو صوت غمغمة، أو جر جمجمة. وقد أذهل الله

(1) مسوفة: احدى القبائل المتفرغة من صنهاجة التي تنتسب للبرانس. راجع التعليق رقم 1 صفحة 117.

(2) المصامدة هم المنتسبون لقبيلة مصمودة احدى القبائل السبع التي تفرعت عن البرانس. راجع التعليق رقم 1 صفحة 116 والتعليق رقم 1 صفحة 117 وكتاب «اسفي وما اليه» للعبدي.

(3) قد علمت أنه يُسمى كدية مردنيش أو كدية ابن سعد - راجع التعليق رقم 1 صفحة 189.

الكفرة وابن همشك وأنساهم، فظنوا أن الأرض من جبل السبيكة إلى محلة صاحبهم ابن مردنيش متصلة! وأعماهم في بصيرتهم وهي بوادي حدَارّه[1] منفصلة، فولوا أدبارهم عند الدفاع والانهزام، وتردّوا في وادي حدَارّه عند إظلام ذلك القتام، فتقطعت في حافات ذلك الوادي أجسامهم، وحان في ذلك الصباح السعيد حمامهم، وهزمهم الله تعالى ونصر أولياءه الموحدين. وقتل في المعركة الاقرع النصراني حفيد البرهانس[2] وحزّ رأسه وسيق بعد أيام من الهزيمة إلى [60] قرطبة وعلق بباب القنطرة[3]. وتردّى في الوادي المذكور ابن عُبَيد صهر[4] ابن مردنيش وقواده الأكابر وفرسانه المشاهير، وكان ابن مردنيش بالجبل المتصل بغرناطة على ما ذكرته يرى قتل إخوته ويعاين حسرته ويندب شيعته وكفرته. واتصلت الوقعية، السامعة المطيعة، في الأشقياء والنصارى من كل جانب. واستولوا[5] الموحدون أعانهم الله عليهم يقتلونهم بتحكيم الرماح والسيوف القواضب، في السهل والجبل بنصر الله الواحد الغالب، ودخلوا مدينة غرناطة وسط النهار، على أتم النصر والاظهار. وخرج الموحدون المحصورون من القصبة في الحين، قاتلين لمن في داخل المدينة من الأشقياء القاطنين، وأقلع ابن مردنيش منهزماً من موضع محلّته

(1) من المعلوم أن وادي حداره ليس الا مجرى هزيلاً، ولهذا يعتقد الأستاذ سيموني Simmonet أن القشتاليين عندما أرادوا النزول من المكان المسمى (La Cuesta de los muertos) سالكين طرقاً ضيقة ووعرة، سقطوا من أعلى إلى أسفل حيث وادي حدارة الذي يكثر عمقه في هذا المكان بالذات Recherches: page 379 com. 1

(2) عبارة ابن أبي زرع: «وقال ابن صاحب الصلاة: كان فتح غرناطة وقتل الاقرع النصراني عام سبعة وخمسين». القرطاس ثاني طبعة سلا ص 155.

(3) باب القنطرة أحد أبواب قرطبة ومنها باب اليهود والباب الجديد وباب عامر، ويذكر ابن عذاري أنه علق بباب القصر.
البيان المغرب ص 33. المقري: نفح الطيب 1949 ثان ص 13. الحميري: الروض — 153 156. الغزال: نتيجة الاجتهاد ص 37 - 36.. Huici: p. 204.

(4) إياه يقصد أبو الحكم بن رضى البلنسي والى الاقرع حفيد البرهانس يشير في لاميته:
(حالَتْ على ابن عُبَيْدٍ بعد أقرعِه فأردَتْهُما. رجراجةٌ جُـول)
انظر صفحة 283-287.

(5) كذا على اللغة الضعيفة..

بباقي شرذمته وترك أخبيته وأسلابه، كما أفرد في ذلك أصحابه واقتفى الموحدون أعانهم الله أثره وقتلوا من أدركوه وأخبر خبره، وأخذوا حاله وأثقاله، وسرى فارّاً بنفسه في تلك الجبال والأرجا، واسئله كيف نجا! وكان هذا الفتح من أعظم الفتوح التي يسّر الله لأهل الأندلس، ورفع عنهم الفتنة وردّ بارحهم إلى السّبيح[1] (؟) وأنعم عليهم بخيره ويسره الممنوح، وانتسب هذا الفتح بالعدوة والأندلس إلى سعد السيد الأعلى أبي يعقوب واستقر في نفوس [61] الناس ذلك، وعند أشياخ الموحدين أعزهم الله هنالك، وكان ذلك سبباً أن ينال الأمر العزيز والمماليك[2]. وأعلم السيدان المذكوران والشيخ المرحوم أبو يعقوب بن سليمان حضرة الخليفة رضي الله عنه في حين ذلك اليوم بالفتح العظيمْ الذي يسّره الله بيمنه ودعائه وحسن طويته في أهل الكفر، ووصلهم بعد ذلك دعاه رضي الله عنه لهم بالثواب على جهادهمْ الكريم، ثم أنالهم من بركاته وهباته ما أربى على التكميل والتميم. وما استسره ووعاه من الإمام المهدي المعصوم[3]، وسر بذلك سروراً تاماً، وشكر الله تعالى شكراً عاماً،

(1) كذا في الأصل، ولعله تحريف لكلمة التّسبيح، ويكون القصد أن حالتهم تغيرت من تباريح إلى تسابيح شكراً لله وحمداً.

(2) كذا في أصل المخطوط، والمعنى أن هذا النصر كان من البواعث التي مكنت السيد أبا يعقوب وأنالته الأمر (الأمر هنا بمعنى النفوذ والجاه لا بمعنى الأمير) العزيز كما أنالته المماليك وهكذا حذف حرف الجر قبل للفظ «أن» كما هو الشائع نحويًا ويؤكد لك هذا تصرف ابن عذاري هنا حيث يقول: «وكان ذلك سبباً في نيله الأمر العزيز».
ابن عذاري صفحة 33.

(3) كذا ظل الموحدون الأول يلقبون المهدي بن تومرت، وسترى أن هذا اللقب لم يعد مُستاغاً خصوصاً من قبل المأمون بن المنصور بن عبد المؤمن بل إن تلك الهالة من القداسة التي كان يُضفيها الأوائل على المهدي أمست مدعاة للنقمة عليه، فقد روى التاريخ أن المأمون لما دخل مراكش سنة 627 صعد المنبر بجامع المنصور ـ وكان علامة أديباً بليغاً ـ فخطب في الناس ولعن المهدي على المنبر وقال: «لا تدعوه بالمهدي المعصوم ولكن ادعوه بالغويّ المذموم، ألا لا مهديَّ إلا عيسى.... ولما نزل على المنبر أمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سننه التي ابتدعها للموحدين. ونعى عليه النداء للصلاة باللغة البربرية وغير ذلك من «السنن» التي اختص بها المهدي بل انه أمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال: ان كل ما فعله المهدي ـ مما هو بدعة ـ لا سبيل إلى اقراره.

واجتمع الموحدون أعانهم الله باخوانهم المحصورين في القصبة خير اجتماع، وشكروا الله تعالى على نصره لأمره المطاع، وإن غلبوا عدوهم فجازوهم صاعاً بصاع.

ولما أكمل الله هذا الفتح بعونه لم تبق بلد في البلاد المجاورة لغرناطة إلا وصل أهله تائبين، وبالطوع راغبين مذعنين متضرعين، فصفح عنهم بالعدل، وتفضل عليهم بما عود الله من الفضل، وتمشت الحال في ضم أموال المنافقين للمخزن، بما وجب عليهم من نفاقهم وارتدادهم إلى الفتن، ثم نظر في صلاح البلدة لمعنى التسكين والعمارة لجوانبها والتوطين، والتفتت[1] أحوال الموحدين المحصورين بالقصبة في ضيقتهم وجبر الله عليهم أموالهم التي انتهبت، ويسر الأمر [62] العزيز إليهم من الخيرات والاعطيات ما استكثرت لديهم واستغربت.

ثم عزم الرأي السديد بعد هذه السياسة، وإكمال فتح الله للرياسة، أن يتحرك العسكر المنصور لحصار ابن همشك بمدينة جيان، وأن يستأصل في جميع جنباته من فيها من أهل النفاق والعصيان، وأن يخص هو بالنكاية والانتقام منه بأوفى الخسران، فنزل الموحدون أعانهم الله بساحة قريته المذكورة الظالم أهلها، السابق أخذها بما اقتضاه جهله وجهلها، فلاذ هو ومن فيها من الأشقياء والكفار بالجدران والاطام، وأصبحوا بأسوارهم راضين بحالة الضيم والاهتضام، ظانين بأنهم مانعتهم حصونهم وانى لهم من الامتناع من أمر الله والاعتصام. فانتسف كل ما وجد حواليها من الأموال، وخرب عامرها حتى رجع قفراً تندبه البُوم بسوء الأحوال، وعاين الخاسر الغادر ما عاين من سورة الأبطال، ودام بذلك إلى أن وصل الأمر العزيز باستيطان قرطبة واليها بالارتحال، على ما أذكره[2].

* المراكشي: المعجب طبعة القاهرة ص 291.
الاستقصا ـ الجزء 2. طبعة دار الكتاب بالبيضاء ص 212.

(1) كذا في الأصل ويظهر أن الصواب التأمت.

(2) يعني في صفحة 64.

واتصل في أثر هذا الفتح العظيم نظر الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه لمدينة غرناطة وقصبتها سنام الأندلس، فملأ مخازنها في القصبة بها بالقمح والشعير والملح وآلات الحرب من الرماح والدرق والسيوف والقسي والسهام والترسة بما ابهت الناظرين، وقصر عن وصف الواصفين، وأوصل [63] أمره العزيز ذلك كله إليها من العدوة في المراكب في البحر إلى «حصن المنكب[1]» وانتقل جميع ذلك من المنكب إلى غرناطة وتحصل في قصبتها مَخْزوناً، فحييت بعد موتها بهذا النظر الجميل والحزم الموصول، والنيل المبذول، واستنفذ مَن كان فيها من الموحدين من علة الحصار، وبعد الانتصار، وأجزل لهم الزيادة في بركاتهم، والنماء لهم فيَ مواساتهم وأنعم عليهم بالإحسان إحساناً، ووالاهم رفقاً وحناناً، ورتَّب في غرناطة جماعة من الأجناد الأندلسيين، الموثوقين في التوحيد مع الموحدين، فدافعوا عنها مَن جاورهم من الأعداء حتى عاد قفرُها عامراً، وخرابها ساكناً آمناً، أمراً ظاهراً متظاهراً، فقطع ابن مردنيش امله عنها وكل ثائر، متقدم أو متأخر في الفتنة من ظالم جائر، وبقيت في أيدي الموحدين، أعانهم الله على الطاعة وصحة اليقين، بعد عظيم الفتنة لأهلها البائسين، واتصل إخزان المخازن المذكورة من جميع الأقوات فيها من عام سبعة وخمسين إلى عام ثلاثة وستين وخمس مائة حتى فني وقسم على الموحدين في مواساتهم، والإحسان اليهم في اعطياتهم. وهذه المدينة ذكر ابن حيان[2] في خبرها أنها لم يملكها أحد من

(1) حصن المنكب (Almunêcar) مرسى صيفي يقع غربي ألمرية وشرقي مالقة، له نهر يريق في البحر المتوسط، وبه نزل الامام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس وذلك في ربيع الأول من سنة 138... الحميري: الروض المعطار ص 186. Huici: P. 204.

(2) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي سلطان المؤرخين في عصره، وعمدة جل الذين كتبوا عن الأندلس من المتقدمين، ولد سنة 377 وتوفي سنة 469، من كتبه المقتبس، في تاريخ الأندلس يقع في عشر مجلدات ضاع معظمها ولم يبق إلا بعض القطع. نشر منها الأستاذ ميلشور انطونية قسما عثر عليه في البودليان، ويوجد منها في مكتبة جامعة القرويين قطعة تتعلق بتاريخ الأندلس في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد، يعمل الآن على نشرها وتحقيقها الدكتور مكي والدكتور حسين مؤنس. وهناك منه قطعة ثالثة تتعلق بتاريخ الأندلس في=

الصنف الأندلسي من آخر دولة آل محمد بن أبي عامر إلا الصنف العدوي[1].

وفي أثـر هذا الفتـح أمر اميـر المؤمنين رضي الله عنه أن يكـون استقرار الأمر بمدينة قرطبة. [64]

ذكر وصول الأمر العزيز باستيطان السيدين الأجلين المذكورين قرطبة واستقرار الأوامر والعساكر بها، والاعتناء بجانبها

ووصلهم الأمر العزيز بسكنى قرطبة، وهم بظاهـر جيان محـاصرين بهـا على ما ذكرته، وأن تكون مقرّاً للأمـر بالأنـدلس كفعل بني أميـة بها في قـديم حقبهـا، إذ هي موسـطة الأندلس، وأن تكـون اشغال الأعمـال مستقـرة فيهـا، صـادرة إلى النـواحي من نـاحيتهـا، فـوصلهـا أبـو إسحـاق بـراز بن محمـد المسـوفي[2] بالأمـر العزيـز واستقر داخلهـا واستـدعى الكتـاب والمشـارف من اشبيلية وأنظارها، فبادر إليه ابو القاسم بن عساكر[3]، وأبو بكر المراني[4]، وأبو

= عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر يقوم على نشرها الأستاذ غارسية غوميس. هـذا وقد عثر مؤخراً على قطعة فريدة يترجح أنها منه تبتدىء من سنة 299 إلى سنة 330 في خزانة المغفور لـه جلالة محمـد الخامس طيّب الله ثـراه، ومن المعروف أن جـلالة الحسن الثـاني أصدر أمـره الكريم بفهرسة الخزانة المحمدية والعمل على نشر الفريد منها. . . ومن كتبه كذلك المتين. ويظهر أن نقله هنا من كتابه «في أخبار الدولة العامرية».

الحميدي: جذوة المقتبس. نشر ابن تاويت الطنجي رقم 397. ابن الابـار: التكملة، رقم 148. الحلة السيراء ص 119 - 149 - 154. ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص 80 - 84. دائـرة المعارف الاسلامية أول ص 146.

تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص 208 - 209.

(1) العدوى نسبة إلى العدوة أي المغرب الواقع على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

(2) انظر ص 85 تعليق رقم 4.

(3) أحد الكتاب المبرزين في البلاط الموحدي ممن كان يُعين أحياناً لمحاسبة المتصرفين في أموال المخزن انظر ص 311.

(4) لم نقف على ذكر لأبي بكر هذا في غير هذه المرة.

بكـر الحصار[1]، ومشـوا إليه راحلين عن اشبيليـة، ومعهم من الكتّاب جمـاعة كبيرة مشهورة من أعيـان اشبيلية وأعيـان جهاتهـا، وكنت[2] في جملة من كتب من الكتاب، وعين للاشتغال بذلـك الباب، فـاستعفيت وقنعت، والتزم غيـري ممن كتب لتقييد أموال المخزن بها وبأنظارها وبالبـلاد المفتتحة المـرتجعة من أيـدي المنـافقين، ولضـم الـزكـوات والفـرائض المفـروضـات، فقـربهم عنـد وصولهم إليه وأدنـاهم وأنزلهم في الـديار للسكنى وسنّى لهم الخيـرات [65] وأسنـاهم، ووالاهم بـالمبـرات واستعملهم على الأشغـال وولّاهم، وعمـرت قرطبة بعد قفزها، وأمِنَت من كربها بالفتنـة وذعرهـا، وتلاحق النـاس والكتاب لهـذه الآمال، وشغلوا بـالتصرف في الأعمـال، وأظهر أبـو اسحاق عـادتـه في النصـح لجميع المخـازن، في داخل قـرطبة وخـارجهـا وجميـع الأقـطار التي للموحدين والمواطن، واستعمل على اشبيلية من أصحابـه من وثقه، واختصـه وصدقه، ولم يزل في عمله من النصح، وشغله البين الوضوح كـالصبح، مـدة حياته إلى أن توفي بقرطبة بعد ذلـك في عام تسعـة وخمسين وخمس مائـة من علة النقرس[3] المزمنة به.

فلنرجع إلى ذكر قدوم السيدين على قرطبة:

وقدم السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين رضي الله

(1) الحصار هو أبو بكر محمد بن علي الحصار الاشبيلي توفي بمراكش سنة 579. ابن عذاري ص 122 ـ المغرب في حلى المغرب، نشر الدكتور شوقي ضيف 1 ص 279.

(2) يقدم ابن صاحب الصلاة نفسه هنا لأول مرة على أنه كان في عداد الكتـاب وان كان قـد استعفى من الوظيف أول الأمر. . . (اقرأ صفحة 65 كذلك).

(3) النقرس: ورم يحدث في مفاصل اليدين والقدمين، وفي الابهام منهما بصفة خاصة، يقـولون: إنـه مرض الملوك ويعزونه للافراط في المآكل، وهو الذي يعرف بالفرنسية باسم لاكوت La Goutte

وكتب أيضـاً أبو مـروان عبد الملك بن زهـر بصدد هـذا الداء يقـول: «. . . ويحـدث في الاقـدام النقرس، وذلك ورم يحدث في القدمين أو إحداهما وحق ذلك لهما فإنهما يطبعهما أسفل موضعـاً من سائر أعضاء اليدين. . وأكثر ما يكون النقرس ممن التزم المشي من غير اعتياد . . » كتاب التيسير في المداواة والتدبير. لأبي مروان عبـد الملك بن زهر. تحقيق ميشـال خوري نشر المنـظمة العـربية للتربية والثقافة والعلوم. سنة 1983 ص 375-376.

عنهم على قرطبة من غزوتهم المنصورة ضحوة يوم الأحد الثاني عشر من شوال سنة سبع وخمسين وخمس مائة، ومعهم الشيخ المرحوم أبو يعقوب على الأمر الكريم الذي ذكرته، فخرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم وكنت أحد من خرج للتبرك بهم مع وفد الكتاب أهل اشبيلية الذين ذكرتهم إلى باب القنطرة[1] المتصل بالفحص إلى طريق جيان وأعيان قرطبة الباقون منهم في الفتنة مع أهل اشبيلية على أقدامهم بادرين إليهم مع النظارة من أهل قرطبة فكان عدد أهل [66] قرطبة اثنين وثمانين رجلاً لجلائهم من الفتنة عن البلاد، وبما كان حل ببلدتهم من القفر بغورها والنّجاد، وقد ظهر على هيأتهم وصورهم البُؤس، واستمر على بلدتهم وعليهم من الفتنة الدّروس، قد لبسوا من الثياب اطمارا، واستبشروا على حالهم بذلك اللقاء، ودعوا إلى الله أن يزيدهم في عمرهم أعماراً، فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من بؤس هذه الفتنة الأندلسية، ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية[2]، بإلحاح ابن همشك وقساوته القصية العجمية، فسبحان من أحياهم بعد ذلك من مماتهم، وأعادهم بالنصر والعدل الإمامي إلى حياتهم، واستقر السيدان والشيخ أبو يعقوب بقرطبة فأمروا ببنيان قصورها، وعمارتها وحماية ثغورها، وجلبوا البنائين والعرفاء والفعلة لبنيان القصور والدور من خرابها، واعادتها على ترفيع قبابها، وصرف حالتها من مشيبها إلى شبابها، وتفرد العريف أحمد بن باسه[3] إلى ذلك، وجدد ما وَهَى هنالك، وانجلب أهلها إليها في أقرب مدة، وتجددت آمالهم وصلحت أحوالهم أحسن جدة.

ثم انصرف الشيخ المرحوم أبو يعقوب بمن أمر له من العسكر المؤيد من الموحدين والمجاهدين والعرب الجائزين، إلى حضرة أمير المؤمنين،

---

(1) راجع التعليق رقم 3 صفحة 134

(2) نسبة إلى بني حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب، وحول دولهم.
انظر ابن الخطيب في أعمال الاعلام ص 128-137.

(3) انظر التعليق رقم 1 ص 86 والصفحة 322 من نص الكتاب.

لشرح الفتح والظفر [67] المكين، وأقام السيدان بباقي الموحدين من العسكر لالتزام الأمور، وصلاح الجمهور، فوصلتهم من الأقطار الوفود بالتهاني، واتصلت بهم السعود والأماني، وأصبحت بهم قرطبة بعد بؤسها مطمحاً للهمم، ومسرَحاً لآمال الأمم، وتراجع أهل قرطبة من البلاد إلى موطنهم، وتسامح الشاسع والقريب منهم بالفتح الذي كان فعادوا إلى مسكنهم، وأحسن السيدان الاجلان للطلبة من أهل قرطبة المذكورة فأثبتوا أسماءهم في زمام العسكرية للمواساة، ورتبوا الأجناد وجلبوهم من كل بلد للسكنى فيها وأظهروا الاغتباط بنواحيها، فظهر العمران، واتصل الأمن وسكنت الأوطان، وكأن الفتنة لم تكن اذ حلَّ بدارها النصر والأمان.

وأقام السيد الأعلى أبو يعقوب بها وأخوه أبو سعيد معه فيها من تاريخ قدومهما المذكور إلى أول المحرم من عام ثمانية وخمسين وخمس مائة ووصله الاستدعاء السعيد من الحضرة الجلية بالوصول إليها فتحرك من قرطبة وأعمل طريقه على اشبيلية ووصلها يوم الأربعاء العاشر من شهر المحرم من عام ثمانية وخمسين المؤرخ ولم يقم بإشبيلية إلا خمسة أيام ووصل سيره إلى الحضرة على ما وعده الله تعالى أن يكون الأمر أمره ويزيل غيره بخلع المخلوع[1] واتفاق [68] الأمر العلي والموحدين أعزهم الله على إمامته، وإصفاقهم على تصويب خلافته، حسبما أذكر ذلك بعد[2] هذا. وأقام السيد أبو سعيد بقرطبة على الحالة المأمور بها فزادها تمصيراً، ومهّدها تمهيداً وتبشيراً، ومشى الأوامر العلية بالتسكين والتوطين، والاحسان والتأمين، حسب ما كان مع أخيه من اجتماعهما. والنظر الموفق من تباعهما، ونيل الناس من فضلهما وكرم طباعهما، وانضافت اشبيلية ونظرها في الأشغال السلطانية من الولاية والعزل، والتقديم والتأخير في العقد والحل، إلى نظر السيد الأجل بقرطبة بمن فيها.

---

(1) يشير لأخيه محمد بن عبد المؤمن وسيمر بنا قريباً انه أسقط عن الخلافة من قبل والده لما لوحظ عليه من استهتار بمبادىء الدين.

(2) صفحة 79-80.

وكذلك أشغال المخزن أنماه الله إلى نظر أبي اسحاق براز بن محمد المسوفي: فكان باشبيلية على شغل الموحدين أعزهم الله أبو داود يلول بن جَلداسن[1] وكان على شغل المخزن بها محمد بن المعلم الإيلاني[2] يجتمعان كل غدوة على المصالح، ثم يفترقان إلى النصائح، داما على هذا من تاريخ مشي السيدْ الأعلى أبي يعقوب إلى الحضرة بالاستدعاء مدة إلى أن كانت وفاة الخليفة الرضي خليفة المهدي رضي الله عنهما، وكان الاتفاق والاصفاق بولاية العهد الكريم والمبايعة لأمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فأفرد أمره العالي أبا عبد الله محمد بن أبي [69] سعيد المعروف بابن المعلم الايلاني بإشراف الأعمال على إشبيلية وبقي أبو داود على نظرة في الأشغال، وأضاف إليه النظر في الاسهام، فداما على ذلك إلى وفاتهما على ما أذكره ان شاء الله تعالى[3]. وكان من حديث محمد بن أبي سعيد بن المعلم المذكور ما أذكره أيضاً إن شاء الله تعالى[4]، ووفد الشعراء لتهنئة سيدنا أمير المؤمنين رضي الله عنه على هذا الفتح الذي أحيى جزيرة الأندلس، ورفع عنها الفتنة المهلكة لها بالنُّجُس، فقال في ذلك الأستاذ أبو الوليد اسماعيل بن عمر المعروف بالشواش الشبلي[5] وأنشدها بنفسه: (الكامل)

(1) بفتح الجيم وضم السين، هكذا ضبطت هذه الأسرة في بعض معاجم الموحدين، وقد ورد في بحث للأستاذ نارسي أن آيت جلداسن (Jellidasen) قبيلة بربرية من فخذة آيت ورايين التي تقع جنوب مدينة تازة المغربية. .Hes. 1929 T IX 1 Trim وقد توفي أبو داود هذا سنة 580. المن بالامامة ص 336 - 337. ابن عذاري ص 104. ابن الزيات: التشوف ص 251.
(2) أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد الايلاني المعروف بابن المعلم، وقد استمر بقية حياة عبد المؤمن ومعظم أيام أبي يعقوب مشرفاً على الأعمال باشبيلية إلى أن كانت سنة 573 فانتقم منه ولما انتقد عليه من أخبار شنيعة وأحوال فظيعة، وأمر بسجنه وصودرت أمواله وضربت بعد محنةٍ طويلة عنقه. المن بالامامة ص310 - 311 - 320 ابن عذاري ص 104.
(3) هذا مما كان عليه أن يذكره في السفر الثالث وانظر مع هذا ص 320 فيما يتعلق بابن المعلم. وص 337 فيما يتعلق بجلداسن.
(4) في السفر الثالث.
(5) سماه السيوطي محمداً، وقال عنه ابن الزبير: إنه كان أستاذاً مجيداً في إقراء القرآن والعربية والأدب، وإنه كان شاعراً كاتباً، ونقل أن له كتاباً يحمل اسم (ثروة المريدين بالأندلس) بتقديم=

عَزماتُ منصور العزائم غالب ضمنتْ فتُوح مشارقٍ ومغَارِب
يا سعدَ دين الله أُفلح حزبُه وهَوَتْ عِداه في عَذابٍ واصِبِ
أُولى لأشياع الغَواية والرَّدى ووراءَ نارِ الحقِّ أنْجحُ طالِب
يمْضِي لأمْر الله غير معرِّجٍ متوجّهاً بالنّصر ضرْبة لازب
عادَات مخترم العُدَاة مظفّرٍ مغتال كل مُعَانِدٍ ومحارِبِ
امنت كتائبهُ مَكيداتِ العِدَى واسْتصحَبتْ للنَّصر الزَم صاحبِ
واستنجدَتْ بنجاحِه وَبِيُمْنِه فقطعْن عرض البيدِ غيْر لواغِبِ
[70] بسوابقٍ كبوارقٍ، ومواكِبِ كَكَواكبٍ، وجنائبٍ كخبائبِ[1]
كاثرْن أعداد الحَصَى وتضاءلَتْ منها فِساحُ أجارعٍ وأخَاشِبِ[2]
طلعَتْ على الأعْداء سحْباً للرَّدَى سالتْ دَماً بأباطحٍ ومَذانبِ
تلكَ المَخَايلُ أغْدَقَت وكافَةً فحَذَارِ من زَجل الرَّواعد صَائب
تلك السُّيُول تغولُ من تَسْطُو بِهِ فاطلُبْ أماناً من هزبرٍ غاضِب
خُلُجٌ من البَحْرِ الطّموح هوتْ بِهِم جيّاشةً بزواجرٍ وغَوَارب
يوم العروبة أعْربت فتكاتُه في الكُفْر عن فتْحٍ مبينٍ راتب
وتيقَّن الأعْداءُ أن حِماهُم من بَعْدِ هذا اليوم نهبُ النّاهب!
ما بَعْدَها إلا مقادَةُ صاغِرٍ يلقى يداً، أو تَوْبةٌ من تائِب
من لم تبصِّرْهُ بصيرةُ مهتَدٍ فليهْدِه للرُّشْد عَقْل تَجَارِبِ
الحقُّ عندْ إمامِ حق مجْتَبَى يهْدي الأنام إلى الطَّريق اللاَّحِب

= الراء على الواو حتى لا يلتبس بثورة المريدين لابن صاحب الصلاة وقد توفي بمراكش في شوال سنة 569.
السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، طبعة 1326 ص 86. العباس ابن ابراهيم: الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام جـ 3 ص 24.
(1) الجنائب: ج جنيبة: الناقة التي تحمل الميرة؛ قال الحسن بن مزرد:
رخو الحبال مائل الحقائب ركابه في الحي كالجنائب
والخبائب ج خبيبة: الخط من السحاب أو الرمل، يشبه قطار هذه النوق بالطريقة من السحاب أو الرمل. كذا أقدر.
(2) الاجارع ج أجرع: الأرض المستوية من الرمل، والأخاشب من الجبال: الغليظة الخشنة.

يقضي فيُمْضِي كـلَّ حقّ واجب ✱ إلا إذا أعـطَى فـفـوْقَ الـوَاجـب
يغني ويُغني راضِيـاً أو سـاطيـاً ✱ ويَفي ببَـذْلِ مـواهبٍ ونـوائبِ
ضـمن الالـه لكفّـه ولسيفِـه ✱ رزقَ الأنيس وكـلَّ وحْش سَـاغِب
لـو تعلمُ الوحشُ العَـوادِي بأَسَـهُ ✱ لم تستعِـدّ لصيـدِهـا بمخـالِب
تحـوي نـداهُ الـطَّيرُ في وُكنـاتِها ✱ فتَـرنُّ تَـرْجيعـاً بشكـرٍ دَائبِ
عـرفتْ عـوارفَـه فتشكـر فضْلَهُ ✱ وتـدين إعظامـاً بحُكْم الـواجب
فتمـرُّ يُمْنـاً بـالـرضـا لمُسَـالمٍ ✱ وتمـرُّ برْحـاً بـالـرَّدى لمُحَـارِب
نُصِـرت كتـائبـه بمنْصُـور اللِّوَا ✱ غـلَّاب كل قـريعِ جيْشٍ غـالِب
[71] تلقـاهُ آسـادُ الـوَغَى وكماتُهـا ✱ فكـأنمـا يلقـاهُ سِـرْبُ كَـوَاعِب
واظنُّ جيْشَ الـلَّيـل خـافَ مَغـاره ✱ عِنْدَ الصَّباح فجدَّ عزْمَـة هـارب
أمْضَى إلى الشَّرق القصِّي عزيمـةً ✱ نـالتْ قِيـادَ أعـاجـمٍ وأعَـارِب
تبْـدُو بهـا شمسُ النَّهار سقيمـةً ✱ تشْكُـو الضَّنى منهـا بلَوْنٍ شـاحِب
وكـأنَّ جُنْحَ اللَّيْـل حـاذَرَ هَـوْلَها ✱ ولـذاك مَـا أبْـدَى ذوائبَ شَـائِب
عَـجِـب الـوَرَى مِـن شَـامِـخٍ سـامـي الـذُّرَى ✱ قَـلِقِ الـمـطـايـا مُـدْلـجٍ أو سَـارِب
تـدعُـوه داعِيـةُ السَّعَـادةِ والعُلَى ✱ فيخِفُّ منـه وقـارُ طَـود راسِب
في اللهِ أعْملهـا عَلَى بُعْد المَـدَى ✱ فجَـزِعْنَ غـوْلَ مَفَـاوزٍ وسَبَـاسِب
إن أعـوزت ورْداً بقَفْـزٍ مُمْحِـلٍ ✱ ورَدَتْ شمـائل منـه غيْـر نـوَاضِب
أو اخـلفتْهـا مـزْنَـةٌ بتـنـوفَـةٍ ✱ فـاضَتْ أنـامِلُه بقَـطْرٍ سـاكِب
عش يـا أميـرَ المُـؤمنينَ بغِبْـطةٍ ✱ ووَقَـاكَ سعْدُك كـلَّ خَطْبٍ نـائِب
واهْنأ ببُشرَى طـالعتْك سُعُـودُهـا ✱ تجْلُو ظـلامَ حَنَـادِسٍ وغَيَـاهِب

وله فيه تهنئةٌ بعيد الفطر بعد الوقيعة المذكورة وفي عامها: (الوافر)

بـامْـرِكَ أسْمـع الـدَّاعي المُهيب ✱ وَسعْـدِك يُسِّـرَ الفَتْـحُ القَـريب
ومـلكُـك مهَّـد الـدُّنيـا فقـرَّتْ ✱ وقـدْ قلِقَتْ بمضجَعِهـا الجُنُـوب
وهـذَّيـك مـلْك الأهـواء طـوْعـاً ✱ فحنَّـت أنفسٌ وصبَـتْ قُـلُوب

وَعـدْ لـك ألف الأشْتَـات حَتّى ✱ تـوادَّ الـذِيبُ والـرَّشـأ الـرَّبيب!
[72] وحلمُك أرْجَحَ الشُّمَّ الرَّواسِي ✱ فمنْـهُ في شَـوامِخِهـا رُسُـوب
ورَوْحُـك وارتيـاحُـكَ للمعَـالي ✱ تمـايَـلَ عنْهُمـا الغُصْنُ الـرَّطيب
وربْـعُـك لـلعُـفَـاة إذا الَـمُّـوا ✱ كـصَـدْرِك، إنَّـه أبـداً رحيـب!
تفـادتْ من سماحَتِـك العَـطَايَـا ✱ وعَـاذَتْ من بسَـالِتـك الحُـرُوب
قتلتَ صُـروفَهـا قَسْـراً فمنْهَـا ✱ عَلى شَفَـق الـدُّجَـا عَلَقٌ صبِيب
وخـافتْ مِنْك قـاصِيـةُ الـذَّرَاري ✱ فـيَلزَمُ قـلبَهـا ذَاكَ الـوجِـيـبُ
وُجـودُكَ في الـوَرَى شيءُ عجيبٌ ✱ يُـرجِّـمُ ظنَّـه فيـه الـلَّبـيـبُ
ومَـا فِي أمْـرِكَ الصِّـدقِ امتْـرَاءُ ✱ ولاكِنّي بخُـلْفِـك أسْتَـريب!
أميـرَ المُـؤمنينَ جَـزَتْـكَ عنَّـا ✱ جـوازي الخَيْـرِ مـا جَنَبَتْ جَنـوب
ألا للهِ مـنـك إمـام صِـدْقٍ ✱ تَـقَـدَّس لا يُـلِيـمُ ولا يَـخُـوب
إمَـام الـدِّيـن والـدُّنيـا بجِـدٍّ ✱ وَجـدّ لا يَـمِـيـلُ ولا يَـخِـيـب
بـِهِ رُعِبتْ رعـايلهـا، وكـانَـتْ ✱ سُـدىً وأريحَ سـارحُها الغَـريب
وصـحَّ بـه الـزمـانُ فكلُّ دَاءٍ ✱ عَـيَـاءٍ عـالـهُ مـنْـهُ طَـبِـيـب
ودَلَّ الـحَـائـريـن عَـلَى نَـدَاهُ ✱ فـكُـلُّ مضـلَّةٍ لـقَـمٌ(1) رَكُـوب
وعـمَّ فـذُو التَّبـاعُـد والتَّـداني ✱ سَـواءٌ والـحـزُونـة والسُّـهُـوب
مـفـيـدٌ أو مـبـيـدٌ مـسْـتـمِـرٌّ ✱ لـحـالَيْـه كُـسُـوبٌ أو نُـهُـوب
تُنـافِسُ جـودَه السُّحبُ الغَـوادي ✱ فيبـدُو فَـوْقَ أوجُـهِهـا قُـطُوب
ويـحسُـد نـورَه بـدرُ الـدَّيـاجي ✱ فتَعـرُوه الضَّمـانَـةُ والشُّحُـوب
وكيْفَ وبيْنهـم قُـرْبَى تُـراعَـى ✱ وكـلُّهـم حـليـفٌ أو نَـسِـيـب
[73] امينَ الله قـد وفَّيتَ عَـدْلا ✱ وفـضْـلاً، والإلاهُ هـو المُـثـيب
وقـد وَهَـب الـرِّضـا لَـكُم، وايُّ ✱ أراه إلـى إرادتـكـم يُـجِـيـب
دَعـوْتَ إلـى الإلاه فـفـاز فـوْزاً ✱ عـظيـمـاً سـامـعٌ لـك مُسْتَجِيب

(1) اللقم: وسط الطريق وواضحه، أي أن الأمكنة التي يضل فيها المرء تمسي بفضل نداه واضحة مسلوكة.

وعلَّمتَ الجَهُول فليْسَ إلَّا — عَليمٌ راشِدٌ فطِن لبيبُ
فاوْسعت الأنام هُدىً يُريهم — معالمَ دِينهِم ونَدىً يَصُوب
فانتُمْ للجَميع ابٌ عَطُوفٌ — وكلٌّ في كفالتكُمْ رَبِيبُ
تقضي شَهْرَ صومْك مستديماً — وِصَالك والمقامُ له حَبِيب
وفَارق غيْر مختار، فحَرُّ — الهجيرةِ[1] من جوانحهِ لهِيبُ
وبشَّر أنْ يُعاودَكم، فعَنْهُ — تبسَّمَ للضُّحَى ثغرٌ شَنِيب
ووافَى العِيدُ والأيامُ عيدٌ — يروقُ بكُم ودُنياكم عَرُوب
وانتُم للسَّماحةِ بحْرُ جدْوَى — يفيضُ ولا يلمُّ بِهِ نُضُوب
ليهنِ الدهرَ والأعيادَ بُقْيَا — زمانِك إنَّه الزَّمن الخصيب
ستصحبُها مُدَاومةٌ بنَصْرٍ — عزيزٍ ضمنُه عمْرٌ قشِيب
وتَبْقَى مثلَ مَا تَبْقَى اللَّيَالي — وقد شمطَتْ ولاحَ بِها المَشِيب
فَدَاك سِواك أن تُمْنَى بخَطْبٍ — وان تَحْتَلَّ شعبَكم شُعُوب
ترامتْ بي إليك نَوَى ندوفٌ — ورَأيي في اعتمادِكم مُصِيبُ
وما لي أن يقال قصِيٌّ دار — نأى عنها وعرْبي غَرِيب!
وعدتُ وعَوْدَتي أولى وأجدى — وأحمد في حياةٍ استطيب
وسالمني زمانِي في ذُرَاكم — وقد سلفَتْ لهُ عندي ذُنوب
[74] فاعتبَ خائفاً ممَّا جَناهُ — واقْسَم أنَّه منها يَتُوبُ
فعَفْواً أيُّها المَوْلى وصَفْحاً — فكم جَانٍ ومجْتَرِمٍ يُنِيبُ

(1) كان رمضان 557 يوافق غشت 1162 وهو وقت حر كما يشير إلى ذلك الشعر.

ذكر انصراف سيدنا الخليفة أمير المؤمنين - رضي الله عنه - من رباط الفتح بسلى الى حضرته مراكش بعد الفتح في هزيمة ابن مردنيش وابن همشك والنصارى اهلكهم الله على غرناطة والظفر بهم.

قال الراوية: وان أمير المؤمنين رضي الله عنه نظر لله تعالى وجدد عزمه وحزمه وصفى سره لربه، في بعده وفي قربه، في غزو الروم بجزيرة الأندلس واضمر غزوة عظمى براً وبحراً ليلقى الله بها يوم القيامة بالفوز لديه والرجاء، فأمر بانشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس فصنع منها زهاء مائتي[1] قطعة، أعد منها في مرسى المعمورة[2] بحلق البحر على وادي سبو[3] بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة[4]، وقفت عليها وعددتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوة - والأندلس. وأمر بكتب الرجال

(1) شاهد القرن الثاني عشر ثلاث انتفاضات في ثلاثة من مراكز القوى البحرية في عالم البحر المتوسط فقد استجمع المسلمون في الغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة أفريقية أندلسية متحدة هي دولة المرابطين ثم دولة الموحدين الذين أعادت أفريقية في أيامهم بناء الأساطيل الهامة. أرشيبالويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال، طبعة القاهرة 1960 ص 387-399.

(2) المعمورة يقصد بها المدينة التي تحمل اليوم اسم المهدية على الضفة اليسرى لمصب وادي سبو شمال سلا على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً منها على خط مستقيم، ولم يكن هناك وجود لاسم «المهدية» إلا أيام السلطان اسماعيل سنة 1092 م(1681)عندما حاصر المرسى وضيق على جيش الاسبان المحتل، فقد خرج راهبها مستسلماً وبيده مفاتيح المدينة، جاء بها هدية للمولى إسماعيل فأمنه ودخل المدينة وسماها بالمهدية.

Caille: La ville de Rabat: 63 Coindreau: la casbah de Mehdia.

عبد الهادي التازي: مهدية المولى إسماعيل «مجلة المغرب» مايه 1963 ص 7-9.

(3) وادي سبو: منبعه من الأطلس المتوسط، طوله 600 كلم يتراوح عرضه ما بين 150 إلى 300 ميتر ويصب في المحيط بالمعمورة «المهدية الحالية» قرب مدينة القنيطرة.

(4) بعض المصادر تذكر أن عدد القطع المنشأة أربعمائة قطعة: 120 في المعموزة، وبالريف 100 وببلاد أفريقية 100 وببلاد الأندلس 80.

ابن أبي زرع: الأنيس، جزء ثان ص 164 - الناصري، الاستقصا جزء ثان ص 128.

والرؤساء الأبطال لعِمارتها، والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها، وأعدَّ من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة [75] المذكورة ما عاينته مكدَّسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع معداً من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمس مائة، حتى فني في أكداسه وعاد تراباً ورماداً باحتراقه بعضه في بعض وإفساد الزمان له فساداً، ونظر رضي الله عنه في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وافريقية وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة، والرماح الطوال على أجمل الهيئات، والدروع والبيضات والترسة إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس[1] ما استغربته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان، وقسم ذلك كلَّه على الموحدين أعانهم الله على أشياخهم وعامتهم وعلى العرب أجمعين بجميع قبائلهم الحاضرين وعلى الأجناد المرسومين المعينين، وكان له رضي الله عنه من النظر الحافل لهذه الغزوة ما لم يتقدم له قبل ولا رئي له مثل، وحرض الناس ووعظهم وذكر ما لهم من جهاد الروم من الأجر عند الله تعالى، وأقام بمراكش ناظراً معداً في الذي وصفته من هذا الاستعداد إلى الجهاد إلى أول عام ثمانية وخمسين المؤرخ. وأخذ في الحركة في إلى الزيارة.

(1) البرنس: كساء يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به وكانت مدينة نول في القديم مركزاً مقصوداً لاقتناء البرانس. الإدريسي، نزهة المشتاق ص 60.

DOZY: Sup: T. I Page 79

[76] ذكر حركة امير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش الى زيارة قبر المهدي رضي الله عنه بتينملل[1] ووداعه، لما يؤمله من زماعه من غزو النصارى اهلكهم الله.

قال الراوية: وتحرك أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى الزيارة المذكورة في فصل الشتاء والبرد، واتصال الأمطار بالأنواء والجهد، وقد انبسط على الأرض من جهات الطول والعرض من الصقيع ما ملأ الاسقاع، وغمر البقيع والبقاع، والناس معهم قد أصابهم الجهد والبرد، فلما وصل إلى أحد الأودية[2] التي بين حصن كيك[3] وبين مدينة تنملّل حرسها الله وجده حاملاً قد امتلأ من ضفّتيه وعبر به بالماء، وازلعبَّ فيه السيل الجُحَاف الراعب من الثّلْج بالجبال ومطَر السماء، فرأى رضي الله عنه أن الإقامة عليه إلى أن نخوض تصعُب وتبعد، وربما جادت السماء وتسكب. فاقتحم موضع المخاضة[4] بدليلٍ في ذلك الوادي. فطلع معه الماء في سرجه، وبل ثيابه وآذاه ببرده وثلجه[5]، وأجاز الناس بعده على اقتحام، وترادف وزحام، ونالهم من

(1) تينملل، وقد تكتب هكذا تينمل أو تانملت، وقد رسمها أحياناً ابن صاحب الصلاة كلمتين: تين ملل وهي فعلاً مؤلفة بالبربرية من تين، بمعنى ذات وايمل بمعنى الحواجز «الصرايم» التي توضع في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقي، وهو الجبل الذي كان مهد دولة الموحدين أول الأمر، وبها بنى الإمام داره ومسجده، ومدنها ثم حصنها الخليفة حتى غدت أمنع حصن، هذا إلى وعورة مسالكها الأمر الذي يجعل الوصول إليها من أصعب المحاولات. الادريسي ص 64 - الاستبصار 208 - الاستقصا، ثان ص 78.

Les Guides Bleus 1925 page 156 - Basset et Terrasse: Tinmel Hespéris 1924 page15.

محمد الفاسي مجلة البينة عدد ماية سنة 1962 ص 50.

(2) يقصد وادي نفيس الذي يصب في وادي تانسيفت، الاستبصار ص 209.

(3) حصن كيك: يقع بين سكتانة وهنتانة.

البيذق، أخبار المهدي خرائط بروفنصال. (Provençal).

(4) المخاضة من الوادي المكان الذي يخاض أي يعبر منه، ومن المعلوم أنه توجد في الأودية أمكنة لا سبيل لاجتيازها نظراً لبعد غورها بينما توجد أمكنة يرتفع سطحه فيها فتلك هي المخاضات.

(5) كان الوقت أول عام 558 وهو يوافق أول يناير 1163 فالوقت وقت شتاء وثلج.

البلل كثير، ثم نزل رضي الله عنه بالمحلّة في فسحة من الأرض، وأوقَدُوا فيها النيرانَ للتَّدفي، والتَّداوي بما يشفي. ثم اقلع ووصل المنسك الكريم، وزار وودع [77] وانصرف وقد نال الأجر العظيم، وعند الانصراف منها في الطريق ظهر من جرحة محمد المخلوع بما وجب عليه في اثر ذلك الخلع، وذهب في جانبه الصدع من شرب الخمر المحرمة وظهور السكر عليه[1]، وذلك انه تقياها على ثيابه وأطنابه وسرجه وهو راكب على فرسه في المحلة على مرأى من عظماء الموحدين، وأشياخهم والعالم من المؤمنين الزائرين، فصح عند الخليفة أبيه نكره، وتخليطه وسكره. فأسقط[2] هو بفعله من الأمر نفسه، وكسف بالنهار شمسه، على ما أذكره بعد هذا. ولما رجع أمير المؤمنين رضي الله عنه أنفذ العزم في غزوته على نيته.

(1) لا ننسى أن الوزير عبد السلام الكومي كان وجه تهمة في هذا الصدد لبعض أولاد عبد المؤمن. راجع صفحة 41 من المن بالإمامة. وانظر ابن عذاري ص 44.

(2) يلوح من نص ابن صاحب الصلاة بوضوح أن خلع محمد هذا كان في حياة عبد المؤمن نظراً لما ثبت عليه من استهتار وانحلال، الأمر الذي أظهر للخليفة من الآن عجز ولي العهد عن تحمل الأمانة، وهذا ما في القرطاس وابن الأثير، أما ابن خلكان والمراكشي فيذكرون أن الخلع لمحمد كان بعد وفاة والده، فبعد أن تربع على كرسي الامارة ظهرت عليه أشياء لا تليق بأولياء الأمر كتناول الخمور، وفي الرواة من نسب إليه أنه كان مصاباً بضرب من الجذام، ولذلك فان مدة ملكه استمرت خمسة وأربعين يوماً ولكنها لم تزد على ذلك نظراً لمعارضة أخويه أبي يعقوب وأبي حفص..

المراكشي: المعجب تصحيح سعيد العريان 1949 ص 236 ـ ابنَ أبي زرع جزء ثان 167، تعليق رقم 1 أشباخ: تاريخ الأندلس ص 313 ـ الناصري الاستقصا ثان 128.

ذكر حركته الى رباط الفتح بسلا على النية الصادقة من الغزو والجهاد، والنظر والاستعداد

خرج أمير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش إلى ما ذكرته يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول بموافقة[2] التاسع عشر من شهر فبراير العجمي من عام ثمانية وخمسين وخمس مائة واتصل سيره وعزمه، وأمره العزيز وحكمه، على عادته المعلومة الكريمة من المشي الرفيق، ومراحله إلى منازله المبنية في الطريق[3]، والرفق المعوَّد [78] منه لكلّ فريق، والعساكر الميمونة المتقدمة معه، قد رأت أن اليمن لها صحبته ومجمعه، فساروا صحبته على الوفور والكمال، والظهور والاقبال، في أحسن حال وأتم آمال، حتى وصل رباط الفتح، ومناط النجح، بسلى المذكورة، فأراح بها منتظراً لاستيفاء المتأخر من العساكر إلى المتقدم، ووفاء عدة الفتى المعتذر المتلوم، واكتفاء الشيخ الطائع المجاهد المنهزم. فتلاحقوا، واستوفوا بجمعهم وتسابقوا، مبادرين بحسن الطوع الذي بين ضلوعهم، ونزلوا بمحلّاتهم خارج سلى بالفحص المتصل بغبولة[4] فضاقتْ عنهم الأرض فاتَّصلوا حتى إلى أرض

(1) صفحة 79 - 80 من المن بالامامة.

(2) الموافق 21 يبراير 1163. ويلاحظ أنه لا أثر إلى الآن في المغرب للاحتفال بالمَوْلد.

(3) لم يذكر ابن صاحب الصلاة المنازل مفصلة كما فعل في مناسبات مماثلة لأنه لم يحضر هذه التنقلات بنفسه ولذلك فقد طوى ذكر وادي تانسيفت ودشر الحطابة، وتونين وتوقطين وأم الربيع والجيسل أو وادي كساس ومكول.
انظر ابن صاحب الصلاة 53-303-304.

(4) تقع عين غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بعد تسعة عشر كيلومتر منها، ابن أبي زرع: القرطاس ثان ص 167 ـ الاستقصا ثان ص 128. Caillé: **la ville de Rabat**, p. 27.

(بندغل)[1] في عدد ازيد من مائة ألف فارس ومائة ألف راجل[2] قد عم جميعهم الاحسان، وتم لهم الانعام والامتنان. حدثني أبو محمد سيد رأي بن وزير[3]، قال: لما استوفت العساكر على محلّ امير المؤمنين رضي الله عنه، جَمَع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ العرب وأشياخ القبائل من الأجناد، أهل الحروب ممن تعوّدوا الغزوات من أهل الرأي وأكابر القواد. قال: وكنت ممن اختصني فيهم، وسألني عن جزيرة الأندلس وقال للجميع من الأشياخ: اشيروا علينا كيف تكون هذه الغزوة إلى بلاد الروم فقد عزمنا عليها براً وبحراً، وسرّحنا بها اعلاناً وجهراً، [79] وقال رضي الله عنه: وإن العساكر - والحمد لله وحده - على مَا ترون من وفور الاعداد، وظهور الاستعداد، وطريق واحدٌ ولا يسعهم ولا يحملهم. فقولوا رأيكم، فقال له أشياخ الموحدين - أعزهم الله - وجميعُ الناس: يا سيدنا يا أمير المؤمنين الرأي السعيد، المنصور السديد، هو رأيكم، فأشار إليَّ أن أقول، فقلت له: سيدنا ومولانا رأيكم الموفق أعلى وأجلى، فقال رضي الله عنه: نقسم العساكر على روم جزيرة

(1) إذا ما حاولنا أن نجمع بين روايات المؤرخين في هذا الصدد، فسنجد أن المكان الذي يحمل هنا اسم «بندغل» هو نفس المكان الذي يحمل اسم عين خميس عند القرطاس والاستقصا، وقد حاولت أن أقف على تحديد أرض بندغل لكني لم أجد أثراً لهذا الاسم اللهم فيما يحكى في القولة السائرة «قسمة بن دغل: واحد أخذ الشكيمة وواحد أخذ البغل»! يضربونها في القسمة الجائرة فهذا الرجل الذي هو «ابن دغل» لا يسوي بين الناس ولذلك فهو يعطي أحدهم جواداً بينما لا ينال الثاني سوى لجام! وحاولت بعد هذا أن أقف على عين خميس لكنها هي الأخرى مجهولة، والمفروض أن يكون موقعها في الشمال الشرقي من عين غبولة، ومن المهم أن نشير إلى أن هذه الأمكنة إنما تعني المواقع التي كان الجيش يعسكر بينها. القرطاس ص 167 - الاستقصا 128.
Caille: **La ville de Rabat,** page: 64.

(2) ترى أن ابن صاحب الصلاة يذكر أن عدد الفرسان زهاء مائة ألف، وأن عدد الرجالة كذلك مائة ألف بينما ذكر صاحب القرطاس - وتبعه في ذلك الاستقصا - أن عدد الفرسان زهاء ثلاثمائة ألف فارس وأنه علاوة على مائة ألف راجل توجد ثمانون ألف متطوع فالفرق بينهما كبير كما ترى، ولذلك فإننا نرجح أن خطأ في النسخ وقع في أحدهما، ونميل إلى أنه في القرطاس.
القرطاس ثاني ص 167 - الاستقصا ثان 128. Caillé: **La ville de Rabat,** p. 63.

(3) راجع التعليق رقم 3 ص 67.

الأندلس إلى أربع جهات، وقلت له: نعم يا سيدنا ومولانا أدام الله. أمركم، تكون جهة ابن الرنك[1] بقلمرية[2] أولاً، وجهة البيوج[3] بالسبطاط[4] ثانية، وجهة أدفونش[5] بطليطلَة[6] ثالثة، وجهة برشلونة[7] رابعة، فقال: أحسنت يا

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 96.

(2) قلمرية: (Coimbra) عاصمة بلاد البرتغال القديمة تقع في أقصى غرب الأندلس شمال شنترين تكثر بها فاكهة «حب الملوك».
الروض المعطار ص 164 وراجع التعليق 1 ص 96.

(3) هو بالذات «Fernando II de León»، والبيوج «EL Baboso» لقب له ومعناها: الكثير اللعاب كما يفسر ذلك صاحب المعجب، وقد كان هذا اللقب في العصور الوسطى تحقيرياً إذ كان مرادفاً للأحمق، وقد دفع هذا النعت ببعض الباحثين للتساؤل عن مصدره وهل أنه يستحق حقيقة هذا الوصف الذي ينم عن العته وضعف النظر، وقد أشار المؤرخ اللاتيني ليكاس دي تي «Lucas de Tuy» الذي كان يعيش على عهد ولده، عندما كان يصفه إلى أنه كان في حركاته على فرسه وببذلته العسكرية ينبيء عن ضراوة وشراسة أكثر مما ينبيء عن الشجاعة والإقدام وأنه يغضب في الحين لدرجة أن صوته يستحيل إلى زئير أسد، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى حال الرجل الذي يكون مضرب المثل في دماثة الأخلاق ويعتقد الباحثون أن هذا الوصف من «ليكاس» كاف للتعبير عن المعنى الذي يوحي به التلقيب بالبيوج، وقد حضر البيوج هذا وقعة الأرك سنة 592 وغدر بالناصر عام العقاب سنة 609 فقد ورد في ترجمة ابن الحسن بن القطان أنه أي ابن القطان جمع مقاله في «معاملة الكافر» للناصر من بني عبد المؤمن حين وفد عليه البيوج سوغ له فيها القيام اليه عند معاينته . . . فلم يرضها العاهل الموحدي الخ . . .
المعجب: طبعة القاهرة ص 320 ابن عذاري ص 95 - 103 ابن عبد الملك الذيل والتكملة خامس مخطوط الخزانة «الرباط» D. 1705 - ابن خلدون الرابع ص 392 - الاستقصا ثان ص 171-197.

Dozy: Recherches page 106 - 107
Huici: 233 - 235 - 370 - 372.

أشياخ: تاريخ الأندلس ص 350 التعليق رقم 1.

(4) يقصد هنا «Ciudad Rodrigo de Leon» الذي يقع شرقي قلمرية وغربي إبلة، وليس القصد إلى Ciudad Real الواقع جنوب طليطلة. Huici: 272 - 279 - 364.

(5) اذفونش الصغير هذا هو الفونس الثامن «Alfonso VIII de Castilla» ملك قشتالة «EL - REY CHICO» Huici: 240 - 255 - 263 - 625. وراجع التعليق رقم 3 ص 97.

(6) طليطلة «Toledo» تقع جنوب مجريط شرقي طلبيرة على نهر تاجة، مركز يجمع بلاد الأندلس. أخذها النصارى كما يقول الحميري في المحرم من سنة 478، وتعتبر عاصمة قشتالة Castilla
الروض المعطار ص 130-131-135.

(7) برشلونة «Barcelona» مدينة تقع على شاطىء المتوسط شرقي الأندلس، يتم الدخول إليها=

أبا محمد! وقمت وقبلت يده المباركة، وبايعه جميع الأشياخ من جميع القبائل على ذلك وصوَّبوا الرأي الذي رآه، وتبركوا بمسراه.

(مرض الخليفة واسقاط محمد عن ولاية العهد)

قـال الراويـة : ثم بعـد هـذا المجتمـع في المجلس الكـريم ، والعـزم العـظيم ، مرض أميـر المؤمنين رضي الله عنه وأخـذَهُ وجعُه الـذي تـوفي ودام ذلك به ، والناس مقيمون ينتظرون من الله تعالى شفايته ، ويـرتقبون عـافيته ، والأطباء يدخلون كل يوم ، ويسئلون ولا طبيب إلا الله تعـالى وحده لا شـريك له . ولما تمادى المرض أمرَ[1] اميرُ المؤمنين - رضي الله عنه - بإسقـاط محمد الذي كان ولي العهد من الخطبة [80] يوم الجمعة الثاني من جمادى الأخيرة من العام المؤرخ، وفهم الناس أن الجرحة المـوصوفـة قد قضى بهـا، وأسقط من الخطبة بسببها، تمادى المرض أياماً ودخل الشيخ المرحوم أبو حفص إليـه وتكلم معه وواصاه، ووَعَى منه السرَّ الذي أوعاه، والسيـد الأعلى أبو حفص[2] ابن أمير المؤمنين قد ملك الأمر كله مما جعل له أبوه قديماً وحديثاً[3]، وحكمه تحكيماً، وخصَّه بوزارته خصـوصاً لـلأمر وعمـوماً، وعلم أنـه سَيَحمي الحمى ويحمي الحريما[4]، واستـوثق وصيته عنـد السيد الأعلى أبي حفص المـذكور

= والخروج عنها إلى الأندلس على بـاب الجبل المسمى بهيكـل الزهـرة، ويعبر ابن الخـطيب عن هذه المنطقة بمنطقة أرغون وبرجلونـة، كما يعبـر عنها ويسي بـاراغون «Aragon» الـروض المعطار - 42 - 43 ـ أعيان الأعلام ص 337.

(1) تـرى من خلال النص أن أمـير المؤمنين هـو الذي أمـر بخلع ولده ولما يزل عـلى قيد الحيـاة راجع التعليق رقم 2 ص 150 .

(2) انظر التعليق رقم 2 ص 85 .

(3) في أغلب الظن أن الأصل حديثاً وقديماً حتى ينسجم مع السـجع الذي اختاره.

(4) لا يخفى ما في إثبات الألف من مجـاملة للسجع فـإنه كـالقافيـة، وقد تكـرر هذا من ابن صـاحب الصلاة «وأسكنا بالتصافي بينهما الأرواح والأجساما. . الأسراج والإلجـاما. . (ص 319) وهـو جار على سنن الأسلوب العربي في الموضوع: راجع ما كتب على الآيتينَ الشـريفتين «أطعنـا الله وأطعنا الرسولا. . . وتظنون بالله الظنونا. . ».

ولم يزل الألم والوجع يشتد به وهو يذكر الله تعالى على ما ذكر النبي والمهدي والصدّيقون والشهداء والصالحون رضي الله عنهم وعنه. فلما كان ليلة الجمعة خُلع[1] وَحظَ محمد عن العهد ووُلي أمير المؤمنين ابو يعقوب رضي الله عنـه حسب ما أذكـره في أيامه إن شاءَ الله تعالى، وذلك بجد أخيه شقيقه السيد الأعلى أبي حفص إليه وسعيـه وجده هـوَ في نفسـه، وبما ظهـر عليـه من الفضـل في أمـره ونهْيه، وحمـل[2] أميـر المؤمنين إلى مـدينـة تينملل، ودفن بجانب قبر المهـدي رضي الله عنهما. وكـان الذي احتمله ابنـه أبو الحسن علي، وكان له من السنّ حين توفي ثلاثة وستـون سنة على مـا رواه الشيخ الحافظ أبـو يحيى زكريـا بن سنان. وقـال غيره: أربعـةٌ [81] وسبْعون عاماً[3].

(بنو الخليفة وبناته وكتابه ووزراؤه وقضاته)

قال الراوية : وخلَّف من البنين أميرُ المؤمنين أبو محمَّد عبد المؤمن بن علي رضي الله عنه : الخليفة أبو يعقوب . الخليفةُ بعده . شقيقه أبو حفص ، أبو عبد الله محمد المخلوع . أبو محمـد عبد الله صـاحب بجاية . أبو سعيـد عثمان ، أبو علي الحسن ، أبو علي الحسين شقيقهما ، سليمان المكنيّ بأبي الربيع . أبو زكريا يحيى . . . أبو إبراهيم إسماعيل . . أبو إسحاق إبراهيم . .

(1) وبهذا فسخ عبد المؤمن الرسالة الملكية التي بعث بها في شأن تنصيب محمد هـذا كولي للعهـد قبل الثاني عشر من ربيع الأول من سنة 551. رسائل موحدية، نشر بروفنصال ص 55-61.

(2) لم يفصح ابن صاحب الصـلاة عن حـل عبد المؤمن، هـل كـان وهـو محتضر أو ميت! ويصـرح صاحب الحلل بأنه توفي بالرباط. ويذكر ابن خلدون أن منيته أدركته بسلا. الحلل ص 131 - ابن خلدون مجلد 6 ص 496.

(3) هكذا بخط الناسخ «سبعون» وهو دون شك خـطأ والصواب ستـون والذي يؤيـد هذا أن ابن أبي زرع نقل عن ابن صاحب الصلاة، في كتابه المن بالإمامة «أربع وستون سنة». فالغالب على الظن أن ابن أبي زرع وقف على نسخة أخرى مصححة. ابن عـذاري، البيان ص 36 ـ ابن أبي زرع، الثاني طبعة الرباط ص 168.

أبو يوسف يعقوب ، أبو الحسن علي . . أبو زيد عبد الرحمن . . أبو سليمان داود . . أبو موسى عيسى . أبو العباس أحمد(1) .

البنات : صفية ، عائشة .

كتابه أيام خلافته : ميمون الهواري(2) ، أبو محمد عبد الله بن جَبَل(3) ، أبو جعفر بن عطية(4) ، عطية بن عطية(5) ، أبو الحسن بن عياش(6) .

الوزراء في خلافته : أبو جعفر بن عطية ، أبو محمد عبد السلام بن

---

(1) يتفق ابن أبي زرع وما يوجد هنا عند ابن صاحب الصلاة من أن لعبد المؤمن سبعة عشر ولداً بيد أن المراكشي صاحب المعجب ـ وهو معاصر لصاحب المن بالإمامة ـ يذكر أن أبناء عبد المؤمن فقط ستة عشر، ويلاحظ أن المراكشي حذف من أبناء عبد المؤمن أبا سليمان داود وأبا العباس أحمد لكنه أضاف ولداً لم يذكره صاحب المن في هذه اللائحة هنا وهو أبو عمران موسى، لم يذكره هنا وإن كان قد ذكره بعد مرتين في أثناء سرد الحوادث ص 279 و292. وهكذا يتضح أن عدد أولاده ثمانية عشر ولداً. البيذق جدول بروفنصال ص 225 ـ المعجب ص 198 ـ ابن أبي زرع 168 . 169

(2) ميمون الهواري من سكان قرطبة كان أديباً فقيهاً وله شعر فيما جرى بين أبي الوليد بن رشد وأبي محمد بن أبي جعفر في التفضيل بين الهيللة والحمدلة آثر فيها قول ابن رشد.
ابن الآبار، التكملة «كوديرا» رقم 1136 .

(3) انظر تعليق رقم 2 ص 95 .

(4) ولد بمراكش في سنة 517 وكتب للسلطانين على بن يوسف وابنه تاشفين، ثم لما انقضت دولة المرابطين دخل في لفيف الناس وأخفى نفسه إلى أن استكتبه واستوزره بعد حين الخليفة عبد المؤمن في ظروف نبه عليها مترجموه، وقد كان في كتابته بليغاً سهل المأخذ منقاد القريحة سيال الطبع، وبعد أن أدرك مكانة مرموقة عند عبد المؤمن جرت له محنة، وقتل هو وأخوه أبو عقيل عطية أواخر سنة 553.
ابن عذاري، البيان ص 16. المراكشي، المعجب، طبعة مصر ص 198 - 234 ـ ابن الأبار، الحلة السيراء، طبعة دوزي سنة 1847 ـ ص 198 - 199. ابن الخطيب، الأحاطة طبعة القاهرة جزء أول ص 132 - 139.

(5) هو أبو عقيل عطية بن عطية أخو أبي جعفر القضاعي المراكشي واصله ـ القديم كأخيه ـ من قرية بناحية طرطوشة بشرق الأندلس وقد ترك بعض الآثار النثرية.
رسائل موحدية ـ نشر بروفنصال ص 22 - 71.

(6) راجع تعليق رقم 3 صفحة 102.

محمد(1) ، السيد الأعلى أبو حفص ، أبو العلي إدريس(2) بين يدي(3) أبي حفص . [82] السيد الأعلى المذكور .

القضاة له : أبو عمران موسى(4) صهره من أهل تينملل ، حجّاج بن يوسف(5) .

(ترجمة أبي القاسم أخيل بن إدريس)

ومن الكتاب : أبو القاسم أخيل بن إدريس الرندي هو أحد الكتاب البلغاء والشعراء كتب في فتوته لآل الملثمين(6) ثم بعد ذلك في أول الفتنة لابن حمدين(7) ، ثم تحول في الفتنة الى بلده ومسكنه على معنى النظر

---

(1) هو عبد السلام الكومي وقد ترجم له بإسهاب ابن صاحب الصلاة ـ راجع صفحات - 41 - 42 . 45

(2) نال حظوة سامية في البلاط الموحدي إلى أن قبض عليه واستصفيت أمواله في شهور سنة 573 أو سنة 577. وقد تردد ذكره في كتاب المن بالإمامة. المراكشي: المعجب ص 244 ابن عذاري ص . 104

(3) يعني أنه كان وزيراً مسؤولاً لدى السيد أبي حفص وابن أبي زرع، جزء ثان ص 174.

(4) ممن اعتمد عليهم عبد المؤمن في استدعاء غرب افريقية بشعر طويل يقول في أوله:

أسليم دعوة ذي إخاء مرشد ... هاد إلى الحق المبين المسعد
ومذكر ما كان أسلاف لكم ... فضلوا به أفعال كل مسدد

وهو غير أبي عمران موسى التازي الذي كان قاضياً للجماعة أيام أبي يعقوب وأيام أبي يوسف كذلك. ابن عذاري، البيان ص 21 ـ المراكشي، المعجب ص 246 - 313، ابن أبي زرع جزء ثان ص 175.

(5) يكنى أبا يوسف، ابن أبي زرع، الأنيس جزء ثان ص 175.

(6) آل الملثمين: يعني دولة المرابطين، وقد كانوا يتلثمون ولا يكشفون عن وجوههم، قال ابن خلكان توارثوا هذه السنة خلفا عن سلف، وقد اختلفوا في أصل هذه العادة فمن قائل إن المناخ هو سببها ومن قائل غير ذلك، وفي تلثمهم يقول أبو محمد بن حامد الكاتب:

قومٌ لهم شرفُ العُلا من حِمْيَرٍ ... وإذا انتمُوا صنْهَاجة فهُمُ هُم
لَمَّا حَوَوْا احْرازَ كلِّ فضيلَةٍ ... غَلَبَ الحَيَاءُ عليهِمُ فتلثَّمُوا

الاستقصا ثان ص 3 - 4. وانظر التعليق رقم 1 صفحة 67. حول أخيل الذي نعت هناك بالقاضي.

(7) أبو جعفر حمدين بن محمد بن حمدين. ابن الآبار الحلة السيراء ـ ص 222 ـ ابن الخطيب اعمال الاعلام ص 176.

والاحتياط لأهله وولده فلما تغلب أبو الغَمْر بن عزون[1] على (رندة)[2] تقبض عليه وسجنه ، فاستقر بمالقة مخرجاً عند ابن حسون[3] يبكي سجنه ، ثم إنه رحل الى حضرة مراكش حرسها الله بعد فتحها وقرارها ، واتصال التمكين للموحدين في دارها وجوارها ، فاتصل بالوزير أبي جعفر بن عطية ، وعرف بحديثه مقر الخلافة العلية ، فكتب له عن الأمرّ العلي إلى أبي الغمر بن عزون برندة بصرف ماله والحفاية بأهله وقضا أوطاره وآماله . ولم يزل أبو جعفر يعتني به ، ويحسن جميل مذهبه ، فسكن مراكش وخلط ، وقصر بنفسه فانحطّ عن منزلته وسقط ! فقال فيه إبراهيم بن المسفر[4] الشّاعر يهجوه : (متقارب)

[83] تخيَّلتُ أخْيَل ذا عفّةٍ	فبان التخيل عيْن الغَبَن
إذا بالمَحَلّ الذي احْتلتّهُ	به المُومساتُ على كلّ فَنّ !
وقد أكثر القولَ جيرانُه	وهمّوا بشَكْوى ولكن لِمَن؟!

(1) هو أخ لأبي العلاء بن السائب بن عزون وكان صاحب مدينة شريش ورندة فلما أجاز الموحدون إلى الأندلس نزلوا به، فكان أول بلد فتحوا من الأندلس شريش، خرج اليهم صاحبها أبو الغمر فيمَن معه من المرابطين وبايعهم لعبد المؤمن، فكان ملوك الموحدين إذا قدم عليهم وفود الأندلس كان أول من ينادي منهم.
البيذق، أخبار المهدي ص 125 ـ الحلة السيراء 222 ـ ابن خلدون، سادس 486 - 487.
الناصري، الاستقصاء ثان 104 - 107.

(2) رندة: (RONDA) مدينة قديمة تقع شمال جبل طارق على نهر ينسب إليها وبقربها عين تعرف بالبراوة.
الروض المعطار ص 79.

(3) أبو الحكم الحسين بن الحسين بن عبد الله بن الحسين الكلبي بن حسون وقد اشتهر بكنيْة أبي حسون ولي القضاء بمالقة سنة 538 ثم دعا إلى نفسه ـ الحلة السيراء 222 ـ ابن الخطيب اعمال الاعلام، ص 254 - 255.

(4) لم نقف على ترجمة ابراهيم هذا، وقد تكون له صلة بأبي الحسن المسفر الفيلسوف المغربي، عبد الله كنون، فلاسفة الاسلام في الغرب، ص 119.

(ترجمة أبي بكر بن ميمون القرطبي)

ومن الأساتيذ بمراكش أبو بكر بن ميمون القرطبي[1] وصل الى الحضرة العلية واستوطنها واشتهر بمعرفته عند الخلافة حتى نسي قرطبة ومواطنها وقطينها وقطنها ، وانحلت اليه الطلبة من كل مكان، ودرت أخلاف الأرزاق عليه بالحقيقة والامكان ، فقال يتغزل في أبي القاسم بن تيسيت[2] من أهل فتيان مدينة أغمات[3] : (المتقارب)

أبا قاسمٍ والهوَى جِنَّةٌ	وها أنا من مَسِّها لم أفق
تبوّأتَ جاحِمَ نار الضُلوعْ	كما خضت بحر دُمُوع الحَدق
أكنت الخليل ؟ أكنتَ الكَليم ؟	أمنْتَ الحريق أمنتَ الغَرق[4]

(1) هو محمد بن عبد الله بن ميمون ابن ادريس بن محمد بن عبد الله العبدري وقد كان متقدماً في علم اللسان بليغاً متصرفاً في سائر الفنون حافظاً حافلاً شاعراً فكه المحاضرة ظريف الدعابة خرج من بلده قرطبة في أيام الفتنة فنزل مراكش وأقرأ بها العربية والآداب، وله مقطعات في الغزل شرحها في سفر ضخم، وممن أخذ عنه حسنُ بن محمد الانصاري، وقد روى هو عن أبي بكر بن العربي وأبي الوليد بن رشد، وقد كان يحضر مجلس عبد المؤمن في جملة العلماء ويبدي ما عنده من المعارف إلى أن أنشد في المجلس الأبيات التالية التي نظمها في أبي القاسم عبد المنعم بن محمد بن تيسيت . . . فهجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور في مجلسه وصرف بنيه عن القراءة عليه. مات بمراكش يوم الثلاثاء في جمادى الأخير سنة 567 عن سن يناهز التسعين.
ابن الآبار، التكملة (كوديرا) رقم 751 ـ السيوطي : بغية الوعاة طبعة 326 ص 61-62.
صفوان بن ادريس: زاد المسافر نشر محداد ص 6 - 7. العباس بن ابراهيم المراكشي : الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام، ثالث ص 23.

(2) راجع التعليق السابق.

(3) اغمات: هي في الواقع مدينتان تقعان جنوب مدينة مراكش، احداهما تسمى اغمات وريكة والأخرى اغمات هيلانة، وبينهما نحو من ثمانية أميال، وبأغمات وريكة يسكن الأعيان وينزل التجار لأنها دار التجهيز للصحراء بها نهر يشق بعضه المدينة، يقال له تاقيروت، فيها قضى المعتمد ابن عباد أيام منفاه ومما قيل فيها وفي ابن عباد :

انفض يدَيْك من الدُّنيا وساكِنها	والأرض قد اقفرتْ والنَّاسُ قد ماتوا
وقُل لِعَالَمها الأرضي قد كتمت	سَريرةَ العالَم العلوي أغمات

الاستبصار ص 207 ـ العباس بن إبراهيم : تاريخ مراكش واغمات أول ص 110-111-112-114.

(4) لا يخفى ما في البيت من «تلميح» لقصة إبراهيم الخليل لما القي به في الجحيم «وقصة موسى كليم الله لما ألقي به في اليم». النجار : قصص الأنبياء ص 93-189.

قال الراوية : وإن هذه الأبيات وصلت إلى الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه فأمر أن يدخل مجلسه قائلها المذكور[1] . وكان الأستاذ يتهاجى مع اليكي الفاسي[2] الشاعر، وممّا قال فيه اليكي : (البسيط)

قالوا : هجاكَ ابنُ ميمونٍ فقلتُ لهم ... يا ليتَ شِعْري مَنِ الهاجي فأدْريه
قالوا : الفقيهُ الذي مِنْ أرضِ قرطبةٍ ... قلتُ الفَطِيم ؟ فقالوا كلُّهم : إيه

(ترجمة أبي الحسن بن الإشبيلي)

الفقيه الخطيب أبو الحسن بن الإشبيلي[3] شيخ [84] طلبة الحضر هو الخطيب المصقع بين يدي الخليفة الرضي أمير المؤمنين عند حضور الوفود ، الناطق بالفصاحة والبلاغة المنظومة نظم العقود ، بادر إلى الأمر العالي على قدره وسبق إلى نيل علم الخلافة فناله حين ابتدر ، واستيقظ أن يتشرف بالبساط العالي والناس نيام ، وورد بحرَ العلم فارتوى منه بالسبق وهم خيام ، فقرَّبه الخليفة واستدْناه ، ونال من الآمال مُنَاه ، فتجلَّت لَهُ من العُلوم بحور ، وتجلَّت له منها عِينٌ وحور ، فصار عند الخليفة في العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج ، عالم فاضل يتكلم في المجلس العالي مسترسلاً بالمذاكرة متمهلاً على حسن أدبٍ في المناظرة ، فإذا خرج منه تذاكر مع طلبة الحضر بما وعى من الخليفة من علم « المهدي »[4] وبين لهم ما ناله من العلم

(1) راجع التعليق رقم 1 صفحة 159 .

(2) هو أبو عبد الله ابن سهل اليكي ، ينسب إلى يكة بالياء مدينة ما زالت إلى الآن بشمال مرسية (YECLA) لا إلى بكة بالباء . صفوان بن ادريس : زاد المسافر ص 77 ـ : Pérès: la poesie à Fes sous les Almoravides Hes. TXVIII. 1934. P. 33 - 34 و معجم ياقوت مجلد رابع ص 231 كلمة (فاس) .

(3) علي بن محمد بن خليل المكنى بأبي الحسن والمعروف بابن الاشبيلي ، سكن المرية ، وأخذ عن أبي القاسم بن ورد ولازمه واتقن علم الأصول وبرع فيها وكان خطيباً مفوهاً ، أخذ عنه أبو القاسم بن الملجوم وأبو عمرو عثمان بن عبد الله ، توفي بمراكش سنة 567 ابن الآبار ـ التكملة (نشر كوديرا) ص 668-669 ـ رقم 1862 .

(4) كان المهدي على رأي الاشعرية في أكثر مسائل الاعتقاد فقد كان يعتمد القول بتأويل المتشابه من القرآن والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب مقتدين بالسلف في ترك التاويل واقرار المتشابهات كما جاءت ، ومن أجل =

النبوي ، إلى فضل قد طبع عليه في ذاته وحنان ، ووصل لجميع غرباء الناس والطلبة بخيراته ، يوصل عنهم كلَّ خير ، ويدفع عنهم كل ضير ، يشفع فيهم عند الأمر العالي فيشفع ، ويتكلم فيصغي لكلامه ويستمع . دام على علوّ مكانته عند الخليفة رضيَ الله عَنْه فاسهمهُ الأسهام والديار ، وأناله الاكرام والاوطار وتزوَّج بنت القاضي ابن الملجوم[1] وخدمته في ذلك المطالع السعيدة من بروج النجوم ، ولم يزل [85] على ما ذكرته ، مدة أيام الخلافة إلى أن ولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه فمشاه على منزلته ، ووالاه جميلِ رتبته . لقيته[2] بحضرة مراكش حرسها الله سنة ستين وخمس مائة وسمعتُ عليه قراءة عقيدة التوحيد[3] ، والعقيد المباركة المسماة بالطهارة[4] ،

= هذا كان يسمي أصحابه بالموحدين تعريضاً باللمتونيين في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم في نظره ـ إلى التجسيم ، ولهذا فقد كان يرى أن في نسبة الصفات إلى الله شبهة اشراك غيره معه هذا إلى قوله بعصمة الإمام . . .
الناصري الاستقصا ، ثان 73 ـ راجع التعليق رقم 1 ص 61 ـ أحمد بلا فريج : عبد المؤمن وتأسيس الدولة الموحدية ، مجلة السلام (تطوان) عدد نونبر دجنبر 1933 ص 24 وما يليها .

(1) أسرة ابن الملجوم شهيرة بفاس على عهد المرابطين والموحدين كان منها العالم والأديب والقاضي وقد اشتهر بعضهم باقتنائه للكتب وملك الخزائن العظيمة ، ويكتفي ابن صاحب الصلاة هنا بوصف ابن الملجوم هذا بالقاضي ، واني على مثل اليقين من أنه يقصد به أبا الحجاج يوسف بن عيسى بن علي بن يوسف بن عيسى بن قاسم (الملقب بالملجوم) الازدي الفاسي ، فقد تفقه بأبيه ، وروى عن جماعة من الأجلاء ، وولّى قضاء مدينة القرويين من فاس ثم صرفه عنها يوسف بن تاشفين . . . ثم ولاه بعد قضاء مراكش وكان رئيساً في الفتيا والحديث والأدب حدث عنه ابنه أبو موسى عيسى وقد توفي عن بضع وستين سنة في شهر ذي الحجة سنة 492 ، ولعله أنجب السيدة التي تزوج بها ابن الاشبيلي في آخر حياته بعد أخيها عيسى ، ومنهم أبو القاسم ابن الملجوم الذي عوقب من قبل المنصور لما بنى قصراً مشرفاً على حمام عمومي بفاس . ابن عذاري (مخطوط) ص 153 ـ ابن القاضي الجذوة ص 345 . ابن الآبار ، التكملة رقم 1674-1930-2097 .

(2) يلاحظ أن ابن صاحب الصلاة أمسى بمدينة مراكش وقد عرفناه قبل بمدينة قرمونة ثم مرشحاً للكتابة بقرطبة ، راجع ترجمته في المقدمة .

(3) هي عقيدة ابن تومرت باللسان العربي : (المرشدة) وهناك عقيدة له أخرى باللسان الغربي . بروفنصال ، رسالة موحدية ص 132 ـ الحلل الموشية 89 . الاستقصا ثان 73-77 .

(4) عبارة عن مجموعة أحاديث مختره ضمنها المهدي كتابه (الطهارة) ـ المراكشي المعجب طبعة مصر 1949 ص 279 .

وكتاب أعز ما يطلب[1] بقراءة الكاتب أبي عبد الله بن عميرة[2]، وكان إذا قرا القارىء المذكور فصلاً مما ذكرته من العقائد شرح غامضها وفتح أقفالها على الطلبة وذلل لهم حتى يروض رايضها[3]، وكان يخصّني مع الطلبة بالسؤال، ويهتبل بي غاية الاهتبال، وإذا سمع بذكري نبه عليَّ بأحسن تنبيه، ونوه فيه غاية التنويه، مذهباً كريماً من مذهب العلماء، وغرضاً حليماً من حسن خلق الكرماء، توفي بحضرة مراكش. ومن فضله وجده أنه قصده أحد الطلبة راجياً منه أن يكلم له صاحب سجلماسة[4] أن يصرفه إذا لقيه فقال لغلامه في الحين: قرب الدابة! فركب ومشى إلى صاحب[5] سجلماسة الى داره وكلمه فيه وقضى حاجته فيه. وهذه شيم العلماء والفضلاء رضي الله عنه وعنهم.

(1) تبتديء أول رسالة من هذا الكتاب يقول المؤلف: أعز ما يطلب وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يدخر العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير. . . فلذلك سمي الكتاب (أعز ما يطلب) وقد نشر سنة 1903، وقدَّم له الأستاذ المجري جولدزيهر، هذا وكتاب أعز ما يطلب هو غير كتاب الموطا. الحلل الموشية ص 125.
GOLD ZIHER: Mohamad IBN TOUMERT - ALGER: 1903.
المنوني: العلوم والأداب والفنون على عهد الموحدين ص 29 جان وجيروم طاروا، أزهار البساتين، تعليق أحمد بلا فريج، ومحمد الفاسي، الرباط سنة 1349هـ ص 109-110.
الدكتور أحمد مختار العبادي، دراسة حول كتاب الحلل الموشية، مجلة تطوان العدد الخامس 1960 ص 157.

(2) هو محمد بن أبي القاسم بن عميرة الكاتب من أهل المرية يكنى أبا عبد الله، يروي عن ابن زغيبة وأبي بحر الأسدي وأبي محمد ابن السيد وأبي الحسن بن مغيث وغيرهم، ولم يذكر ابن الأبار تاريخاً لوفاته ولكنه ذكره بين ترجمة الاستجي المتوفى سنة 577 وترجمة ابن المؤذن المتوفى سنة 578 الأمر الذي يشير إلى أنه توفي خلال هذه السنة.

(3) يُعطينا ابن صاحب الصلاة وصفاً طريفاً للمجالس العلمية على عهد الموحدين فهي على نحو ما أدركناه نحن في جامعة القرويين مثلاً: يتلو السارد فقراتٍ من المتن فيتصدّى الأستاذ للشرح والتعليق. عبد الهادي التازي. جامعة القرويين. بيروت 1972. ثلاثة مجلدات.

(4) سجلماسة: مدينة عظيمة من أهم مدن المغرب، تقع على طرف الصحراء، يقول صاحب الاستبصار أنها بنيت سنة 140 أسسها مدرار بن عبدالله ولها إثنا عشر باباً وهي كثيرة النخل والأعناب وسائر الفواكه. وتحمل اليوم اسم الريماني الاستبصار ص 200-201-202-203.

(5) لم نعرف من كان صاحب سجلماسة على هذا العهد إلا أننا على علم من أن أمير المؤمنين عين سنة 571 أخاه أبا علي كوالٍ على سجلماسة.

ترجمة أبي محمد عبد الله المعروف بابن جبل

الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الله المعروف بابن جبل[1]، كان صاحب أبي الحسن بن الإشبيلي عند الخليفة رضي الله عنه يخطب بعده إذا خطب. ويحضر إذا حضر فيوري [86] الخطابة والفصاحة من كتب، وتتعجب الوفود من بلاغته غاية العجب، دام على التعرف والتنويه للغريب الى أن توفي رحمه الله.

ذكر خلافة أمير المؤمنين ابي يعقوب يوسف بن أمير المؤمنين

في الليلة التي توفي فيها أبوه رضي الله عنهما، وذلك ليلة الجمعة العاشر من جمدى الأخيرة عام ثمانية وخمسين وخمسمائة وما كان من عضد السيد الأعلى أبي حفص شقيقه إليه في ولايته وحمايته وترشيحه لخلافته وشهادته وشهادة الشيخ المرحوم أبي حفص بن يحيى وغَيْرهما من أشياخ الموحدين أعزهم الله بما أشهدهم به أمير المؤمنين من تقديمه الأمر العزيز عوضه وخلع محمد عن الأمر، ورضي محمد بخلعه، وتسليم الأمر له بجمعه، وأنبساط الآمال في أيامه، وكثرة الاغتباط من الأموال بسعادة أعلامه، وذكر بعوثه وغزواته، وغزر أفعاله وسيره الكريمة وفضائله العميمة، واسماء رجال مشاهير من رجاله، وكثرة البركات منه للموحدين والاجناد في أعطياته واتصال الإحسان بمواساته، وظفره بكلّ ما عانده في محارباته وتيسير الله له النفح في فتو [87] حاته، وما كان من توقف الأخوين أبي محمد، وأبي سعيد عن البدار ـ إليه، والعاقبة الجميلة بعد ذلك لديه، من بلوغ ما وعده الله به من تكميل عِداته وهباته، طول أيّامه وحياتِه.

قال الراوية: واستبدَّ السيد الأعلى أبو حفص بالأوامر العلية السلطانية على ما كان مع أبيه ووهبها لأخيه هبةً مرضية.. وأعلم الموحدين أعزهم الله

(1) انظر التعليق رقم 2 ص 95.

هو والشيخ المرحوم أبو حفص بخلافته وانفراده . وبما كان من الخليفة من تقديمه له باشهاده ، واجتمع الشيخ أبو حفص وجميع الموحدين أعزهم الله والجميع من أشياخ القبائل على الرضى به والتيمُّن بمذْهَبه ، والاستسعاد بفضائله الصادرة عنه ، الظاهرة عليه برتبه ، فنفذ الأمر منه بكل تأنيس للنَّاس ، وهدايات من العدل باديات الأنوار والاقتباس ، ووعظ الشيخ المرحوم أبو حفص الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكَّرهم بما يجب عليهم في دِينهم وصلاح يَقينهم وعُرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً من الناس بالوفاة[1] واشتدَّ عليهم في لُزُوم الصلاة وضرب بالسياط أهل الفسق والجُناة ، وشغلهم بأنفسهم من الأحاديث بالخُزَعبلات ، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة [88] الصبح الحزْب[2] ، واشتد عليهم في ملازمة ذلك باعظم الاشتداد واللزب .

ثم نفد الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخير العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم وإجتماعهم ، وكملت البيعة بأكمل خلوص السَّرائر ، وطيب الوفاء في الضَّمائر ، فتسمى لنفسه باسم الأمير واستقل بما سار اليه من العهد العزيز والتأمير ، وبعد كمال هذا الترتيب ، والفراغ من الأشغال بما ذكرته من التأديب ، انصرف الأمير الى حضرة مراكش مع أخيه والأشياخ من الموحدين أعزهم الله-فملك دار الخلافة ، وأنافت به السعادة أكرم إنافة ، وحاز المخازن والأموال وأضافها في مقر حقّ الدين والمسلمين أحسن مستقر وإضافة .

(1) تقليد يجري عليه دُهاة الحكام قبل أن يأخذوا بناصية الأمور ، فقد يكون اعلان «الوفاة» قبل الاحتياط فرصةً للفتانين والمتهزين بل أنت ترى كيف أنَّه لم يكتفِ باخفاء الوفاة ولكنه «شغل» الناس بأنفسهم عن «القيل والقال» . . .

(2) يعني تلاوة القرآن حزباً حزباً ، وقد عرفت قرءاة الحزب منذ أيام المهدي ، لكن الجزنائي نقل عن ابن صاحب الصلاة انها كانت بأمر من يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سائر البلاد . زهرة الآس ، طبعة الجزائر - نشر بيل 1923 ص 74. الحُلل ص 89.

الثناء على الأمير أبي يعقوب في شيمه الكريمة العظيمة مدة إمارته ومدة خلافته ملخصاً حتى أفسده في خلافته المستقيمة

قال الراوية : كان[1] الأمير أبو يعقوب يوسف رضي الله عنه كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً جزلاً مستظهراً للقرآن كتاب الله تعالى بشَرْحه في ناسِخِه ومنسوخه قارئاً لنصه ، حافظاً له على وقفه وابتدائه عالماً بحديث رسول الله صلى الله [89] عليه وسلم بصحيحه ومختلفه وحَسَنِه وغريبه وبإسناده متقناً في العلوم الشرعية والأصولية متقدماً في علم الإمام المهدي رضي الله عنه محكماً لأفانين علمه الذي أملاه وأخذ منه ، محباً لأهله ضابطاً على الأمر العلي ، باسطاً رعيه ، صادقاً رأيه للموحدين أعزهم الله بالفضل الجلي باتّصال المواساة في كل شهر وبالبركات في ممر الدهر ، صليباً على الأعداء أبياً عن الضيم ذائداً عن الأمن راغباً في العمارة ، مثابراً على الجهاد ، مشيعاً للعدل مقسطاً فيه ، يذهب في زهده وورعه ، وبسطه لعدله ، وسداده في فضله ، مذهب أبيه الخليفة رضي الله عنهم . نظر بنور الله تعالى فأصلح العدوة وأمنها ، وأنس شاردها وسكنها ، وقرَّب أشياخ طلبة الحضر وأحسن لعامتهم كفعل أبيه ، وأمرَّ عليهم فضله المستمر وخصَّ جزيرة الأندلس في إمارته وخلافته ببعوثه لها بالغزو فقمعوا عاصيها وعدوّها ، وافترعوا بالفتح قاصيها من الأرض ودنوها ، وأحسن لأجنادها وسبل عليهم الخيل لغزو الكفرة في امدادها بالمئين والآلاف في إعدادها ، وهو الذي مصَّر إشبيلية وأمر ببناء سورها من جهة الوادي[2] من ماله بعد هدْم السيل[3] العظيم له الخارج على جنباتها

(1) نقل ابن عذاري عن ابن صاحب الصلاة ملخصاً لهذه الترجمة ، ولكنه عوض أن يسوقه مقدمة لحياة الخليفة الحافلة ، عِوَضَ ذلك جعلها خاتمةً لأيامه.
راجع مخطوطة ابن عذاري ص 132-133 .

(2) يعني به الوادي الكبير ((Guadalquivir) وهو ينبع من شقورة من الجبال الوسطى في اسبانيا ويصب جهة قادس غير بعيد عن مصب وادي آنة .

(3) تستهدف اشبيلية على الدوام لسيول جارفة حكى عنها تاريخ الأندلس فمنها سيل سنة 574، وسيل 597. ابن عذاري ، البيان المغرب ص 105 ـ الروض المعطار ص 21.

وجهاتها في عام أربعة وستين وخمس مائة وبناه بالحصى والجِيَار من [90] الأرض إلى أن علاه على حاله الآن على يدي أمنائه الأخيار، فلما عقدت البيعة له بإجماع واصفاق، في النصف[1] من جمادي الآخرة عام ثلاثة وستين وخمس مائة واستوسقت له الآمال، وتحرك غازياً بعسكره الضخم الشهم مردفاً لأخيه السيد الأعلى أبي حفص في غزو ابن مردنيش واستقر بإشبيلية عام ستة وستين وخمس مائة وَعقد جسراً على واديها بالقنطرة العظيمة الهندسة، الممسوكة بالمراكز المؤسسة، لعبور الناس عليها من أهلها وأهل الشرف[2] إليها لعمارتهم وحاجاتهم ومرافقهم، ولإجازة العساكر للغزو عليها، تقدم له في ذلك من الأجر الجزيل، والذكر الحفيل، ما لم يتقدم قبله لملك في الأندلس منذ فتحهٔا موسى بن نصير وطارق بن زياد وتحصل له عند الله تعالى في ميزانه من الزلفى الكريمة ما يجده عنده بأوفر الحظ الأوفى فإنه سبّلها على المسلمين للعبور عليها في مصالحهم دون قَبالة[3]، ولا إجازة عمالة، وجلب الماء في الساقية لمشرب أهلها ولقصره، وابتنى فيها الجامع الكبير العتيق لاتّساع الناس فيه عن ضيقتهم في جامعها[4] فساوَى به جامع قرطبة في الاتّساع واستجلب في ابتنائه العُرَفاء والفعلة، فكمل في مدة قليلة من الأعوام على عظمه وسعته وجرمه وارتفاع سَمْكه، وابتنى قصبتَها [91] إلى نصفها بتأسيسها حتّى الى الماء، وابتنى الزلالقَ[5] لأبواب إشبيلية من جهة الوادي

(1) معلوم أنه تبوأ كرسي الخلافة منذ الليلة التي توفي والده: ليلة الجمعة العاشر من جمادى الأخيرة من سنة 558 لكن ابن صاحب الصلاة لا يقصد هنا البيعة ابتداء وإنما يقصد تجديد البيعة التي تمت سنة 563 بمناسبة التسمية لأول مرة بأمير المؤمنين.

(2) حول الشرف راجع التعليق رقم 5 ص 67.

(3) القبالة: هي في الأصل الضريبة التي تدفع لبيت المال، وقد أطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضي به الشرع، وكانت هذه الكلمة تستخدم في المغرب والأندلس للدّلالة على الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسية (أنظر دوزي: ملحق القواميس العربية 2 - 305 - 306.

(4) يعني به جامع أشبيلية القديم وهو جامع ابن عدبّس الذي يأتي الكلام عنه. انظر مجلة الأندلس. مجلد 11 سنة 1946 صفحة 425. ومجلد 12 سنة 1947 صفحة 145 .

(5) الزلالق جمع مزلاق: المزلاج يغلق به الباب، وكان القياس أن يكتب هكذا: الزلاليق بالياء.

احتياطاً من السيل الخارج عليها، وابتنى قصبتَها الداخلية والبرانية[1] خارج باب الكحل[2] والقصور المكرَّمة خارج باب جهور[3] والقناطر حول مدينة إشبيلية من كل جانب، وأسْكن الثغور القفرة من كلب النصارى عليها، وابتنى جميع أسوارها وأعادها للإسلام بالعمارة بعد قفارها وفدى من الأسرى من وجد من أهلها عند الرُّوم، وأنقذهم من ربْقه عبودية الكفر الى حرية الإسلام، وفدى عليّ بن وزير[4]، وغانم بن مردنيش[5] قائدَيْه من أسر النصارى بمال كبير وغزا الكفرة ببعوثه وعساكره المؤيدة براً وبحراً، وأذاقهم عيشاً مراً، حتى أذْعنوا للصلح معه حسب ما أذكره في محارباته[6]. وهو الذي حمى بطليوس[7] من الكُفر، وابتنى لها قصبتها الشاهقة المانعة وسرَّب الماء اليها من الوادي، فقطع العدو أمله عنها بما أشحنها من الآلات والعدد

(1) يعني الخارجية وهي عبارة معروفة الاستعمال. هذا ويظهر أن القصبتين اللتين كان القيصر بناهما في وسط المدينة واللتين تعرفان «بالأخوين» قد درستا. الروض المعطار ص 18.

(2) باب الكحل أحد أبواب اشبيلية، وتوجد أيضاً باب الكحل ضمن الأبواب القديمة بمدينة مراكش بالرغم من أنها لم تذكر في المصادر. Huici: 251 - 254- 500 - 529 - 564 .
عباس بن ابراهيم المراكشي: الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام أو ص 109 .
Allain et Deverdun: les portes anciennes de Marrakech Hesperis: 1957 P. 85 - 126 .

(3) تردد ذكر هذا الباب سيما عند القصور الموحدية. وقد حاولنا أن نقف على موقعه من مدينة أشبيلية، ومن التوافق أننا نجد المؤرخ المسيحي Ortiz De Zuniga في كتابه «الحوليات الكنسية لمدينة أشبيلية» (الجزء الأول 32 - 39) يتحدث عن باب يسميه Vib Ahoar كان موجوداً في حيّ اليهود بأشبيلية ولا يستبعد - كما يقول الأب ميلتشور - أن يكون هذا الاسمُ تحريفاً لباب جهور الذي يذكُره ابْنُ صاحِب الصَّلاة.
Melchor Antuna: Sevilla y monumentos arabus P. 61 - 87.

(4) هو أبو الحسن أخ سيّد رأي بن وزير من شيوخ الثوار بالأندلس الذين استناموا إلى الحكم الموحدي وقد فداه أمير المؤمنين بأربعة آلاف دينار. ابن عذاري 99.

(5) هو غانم بن محمد الذي أسندت إليه بعد ذلك قيادة الأسطول المرابطي. في سبتة وأسر سنة 576 على ما يذكر ابن عذاري في البيان المغرب. ص 109.
Melchor: Companas de los Almohades en Espana P. 43 Note 1.

(6) في السفر الثالث.

(7) بطليوس (Badàjoz) مدينة تقع شمال إشبيلية شرقي يابرة، بناها عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقي، وهي بقعة جليلة على ضفّة نهرها الكبير المسمى الغور، والذي ينتهي إلى حصن مارتلة. الروض المعطار ص 46.

من الأسلحة والرجال المنتخبة ، وهو الذي ابتنى المدينة المتصلة الثانية لمدينة مراكش على ما أذكره[1] في خلافته في موضعه . ونال الناس معه في إمارته وبعد ذلك في خلافته من جميع الطبقات من الكتّاب ، والعمّال ، والطلبة ، والقضاة ، والرعية بصلاح أحوالهم ونماء [92] أموالهم ما لم يُعْقَد مثلها في زمان حتى شبَّهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان بن عفان رضي الله عنه[2] وهو الذي غزا بجيوشه مدينة (وبذة)[3] ونازلها وحاصرها وأشرف على فتحها على ما ذكرته[4] .

الوفاء بالعهد

ولما كانت الوفاة للخليفة أظهر الشيخ المرحوم أبو حفص بن يحيى من بطانة النُصح بالوفاء، والدِّفاع بالحماية على أكمل الاستيفاء ، ما وطد الأحوال ، ومهَّد الآمال ، برأيه الموفق السديد ، وسعيه في الباطن والظاهر الحميد ، ولازم الجلوس والحضور بنفسه في المجلس العالي ، واقتدى الموحدون - أعانهم الله - به في حسِّه فثابروا البكور والالتزام على التوالي ، فاتصلت الحال واستقامت على الطريقة ، وثبتت الأعمال والآمال بالحقيقة ، ولم تزل الوفود من كل جانب يصلون ويوصلون فيرجعون مسرورين ، مقبولين في مسآيلهم شاكرين مشكورين . وتوالى استبداد السيد الأعلى أبي حفص

(1) صفحة 143 - 209 - 292 .

(2) ذكر المسعودي أن عثمان كان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد وفي أيامه اقْتنَى جماعة من الصحابة الدور والضياع : فمنهم الزبير بن العوام بنى داره بالبصرة وهي المعروفة في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . . . وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي . . . إلى أن قال : وهذا باب يتّسع ذكره ويكثر وصفه فيما تملك من الأموال في أيامه .
مروج الذهب، المجلد الرابع طبعة باريز ص252 - 253 - 254 - 255 .

(3) وبذة (Huete) حصن على وادي بقرب اقليش يقع في الشمال الغربي لمدينة فونكة جنوب مدينة شنتمرية .
الحميري : الروض المعطار ص 194 .

(4) ابتداء من 342 من المجلد الثاني .

على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ الأوامر السلطانية عن أمره ، على ما كان عليه عند أبيه من الوزارة في سرّه وجهره ، عن رضى من الأمير أبي يعقوب أخيه واتفاق وإجماعٍ قديم [93] لزيم من شيوخ الموحدين وأصفاق وأخوة موصولة ، ومساكنة في دار أبيهما بدار الحجر[1] على السلامة في النفوس من غيرة الأمر بالقبول مقبولة ، وعلى حب الإخاء مجبولة ، ووزر إدريس بن إبراهيم بن جامع[2] بين أيديهما ورأيهما لرفع المرفوعات والمسائل ، وتوصيل رغبة الوافد ومسئلة المسائل ، وكان هذا إدريس نشأة دار أمير المؤمنين ، وابن أمينهم الأمين ، ممَّن يؤمن على الحرمة ، وممَّن غذته النعمة ، فكان إذا أكمل الخدمة السلطانية في أوقاتها وانفصل الناس ، لازم الدخول على انفراد إليهما فيما يختص بهما ، ويحتاجان من مؤونتهما وأسبابهما ، بتوسط عقلي ، وصمت على السلامة بينهما مبنى أصلي ، مع عفاف في طبعه ، وكفاف في إذاية الناس في رفعه ، إذا وفد الوافد رحَّب وأرجاه في طلبه وأنزله وأسكنه ، وأنساه أهله ووطنه ، وسعى له في خير ، ووصله بكل خير . وسأذكره[3] وأذكر إخوته على حالهم ونصحهم في أشغالهم على ما يجب . فلنرجع الآن إلى ذكر الأخوة .

(1) يعني بها القصبة المعروفة بقصر الحجر أو دار الحجر وهو حصن حصين كما يذكر صاحب الحلل الموشية .
الادريسي : نزهة المشتاق ص 69، الحلل الموشية نشر علوش 1936 ص 114 .
Castan Deverduh: Marrakech des origines à 1912, page 196.

(2) ظل ادريس ابن جامع وأخوته وبنوه محل تجلة واحترام طيلة خمس عشرة سنة لكنهم سنة 573 على رأي ابن عذاري أو 577 على ما يقول المراكشي كانت السطوة بهم وأبعدوا إلى مدينة ماردة (Mérida) ستة أعوام إلى أن مات أبو يعقوب في غزوة شنترين ثم لما استخلف أبو يوسف عفا عنهم .
المعجب طبعة المغرب 1938 ص 148 طبعة القاهرة 1949 ص 244، ابن عذاري ص 104 ، راجع التعليق رقم 2 ص 157.

(3) دون شك في المجلد الثالث، وقد تولى ابن عذاري تلخيص ما يوجد هناك فانظر التعليق السابق .

(ذكر ما صار اليه أمر أخوة أبي يعقوب)

وكان السيد أبو الحسن علي بن أمير المؤمنين رضي الله عنه حاضراً ليلة الوفاة والبيعة فمشى إلى تينملل على ما ذكرته للمواراة بالجسم الكريم فرجع من عشيته وفي نفسه علة من دخل الحسد ، موذنة له في العاجل والآجل بطول الكمد ، فأقام [94] مكبوداً فريداً بما في نفسه ، يظهر إخاء وفي طيه حقوداً فلم تمهله علته ، ولا طالت[1] له مدته ، حتى فاضت نفسه في تلك الأيام ، وغابت شمسه قبل الحِمام ، وذلك في بقية عام ثمانية وخمسين وخمس مائة .

وأما السيد أبو محمد عبد الله فأقام ببجاية بعد الحال ، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويرى الرأي ويكرره مع مَن يختصه في الذكرى ، ويعزم على ما فيه الرضى لله تعالى ولمنصبه الكريم في الدنيا وفي الدار الأخرى ، ولم تزل مخاطبة الأمير اليه بالاستلطاف والاستدعاء ، والجواب منه بالعدة في النَّظر بالزماع الى ذلك الإخاء ، فمطل نحو سنة ونصف، واعتذر عن الوصول، ثم عزم وتحرك عن بجاية وظاهره إيصال الشمل الموصول ، وإن أمله خير مأمول ، فلما استقلّت به الرَّواحِل ، أدركته المنايا بما كانت في غيبتها تحاول ، فبان عنه الصاحب الآهل ، وأفل بشمسه الآمل ، وذلك في عام ستين وخمس مائة ، فوصل خبر نعيه الى الأمير أبي يعقوب بمراكش فتفجع له ، وآوى جملته وأهله ، ونظر في تثقيف بجاية وأنظارها ، ريثما يوجه لها مَن[2] اختاره لحماية ديارها وأقطارها ، ثم بعد ذلك كان الخبر بصفاء النفوس ، وابتهجت وجوه الآمال بعد العبوس ، وتنزلت الرحمة بتقليب القلوب ، وأجاب المتوقف الى البدار بتعجيل [95] المطلوب المرغوب .

وأما السيد أبو سعيد عثمان فتوجه اليه الى قرطبة عن الأمير الحافظ

(1) كذا بادخال لا على الفعل الماضي مع أن قصده النفي لا الدعاء . على خلاف القاعدة الأغلبية لدى النحاة .
(2) سيكون هو أبا زكرياء يحيى بن عبد المؤمن . انظر صفحة 145 .

المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم[1] ومعه الحافظ الأجل أبو يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص[2] ، والحافظ أبو الربيع سليمان بن داود[3] ، فتمارض عند وصولهم واعتل ، وأطال الالتواء واختل وارتبط لهم ثم انحل ، فرجعوا من عنده الى الأمير بمراكش بمواعيد . وقد تكلم الناس المرجفون ، وزخرف في حديثه المزخرفون ، وثبت الله الحق ، ثم أجاب الصدق، ولما التوت حال هذا السيد في الاعتذار، وتُلُوم له في الانتظار، بعد المدة التي ذكرتها عزم السيد الأعلى أبو حفص بالمشي إليه واستدعائه بالتأنيس والقدوم إلى جبل الفتح : جبل طارق عليه . وتسامع الشعراء فوصلوا .

وصول وفد الشعراء عند وصول خبر هذه البيعة السعيدة اليه بقصائدهم للتهنة عليها

فتقدمهم أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشِّلْبيّ[4] وقام منشداً ، وقال : الكامل)

عَهْدٌ أنـارَ بـه الهُـدَى والـدِّيـن ... واستُظهر التأييدُ والتّمكين
بُشرى الخلافة إذْ تقلَّد عهدَها ... البرُّ التقيُّ الطاهرُ المَيْمُون
[96] نجلُ الإمام ونشأةُ الخُلق الرضَى ... يَبدُو عليه هديُه ويبين
النـاصرُ المنصورُ أوضَح نهجةً ... في الصالحاتِ فنجْحُه مضمُون
يُنْمَى إليه ولادةً وسيادةً ... وكذاك تنمي للأصُول غُصُون
بالمنبت الزاكي تأصَّل واعتلَى ... وسقاه صَوبُ الفضل[5] هَتُون

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 93 .
(2) راجع التعليق رقم 6 ص 93 .
(3) لم نقف على ذكر لأبي الربيع فيما تتوفّر عليه من مصادر عن العهد الموحدي .
(4) هو بالذات المعروف بالشواس أنظر التعليق رقم 5 ص 142 .
(5) البيت غير موزون كما لا يخفى ، وقد حاولت أن أرقعه ببعض الكلمات ، وبعد وقوعي على عين المخطوط بالبودليان (اكسفورد) تبين لي أن التصوير لم يلتقط كلمتين على الطرة مقحمتين بين الفضل والهتون وهما : وَهْو . .

ريان من ذاك النَّعيم هَنَا له … وصفا له اليُنْبُوع وهو مَعِين

رضع الخِلافةَ ناشِئاً في حِجْرِها … وغدتْه حاملة الرضَاع لُبُون

وحنتْ عليه حانياتٌ لِلعُلَى … بمكانِه من عُلوْهِنَّ مكِين

ضَمِن السيادةَ في الطُّفولة وازْدهَت … بسُعُوده الأيام وهو جَنِين

عزّ ربيب ، والعُلُوم لِدَاتُه … والمشرفيُّ أخٌ له وخَدِين

ترك المهادَ لِسَرْج أجردَ سابحٍ … وصفَا عليه سرده الموضُون

شبلٍ غدته لحومُ آسادِ الوَغَى … في حيث ملتفُّ الوشيج عَرِين

وكأنما الهيجاءُ أمٌّ برَّةٌ … تحنُو عليه برفْقِهِ وتَلِين !

يا سيِّداً اعطَى السيادة حقَّها … واختصَّه التَّرجيحُ والتَّبْيِين !

شهدتْ بفضلك صادقاتُ وقائعٍ … لم تلتبس بشُهودهنَّ ظَنِين !

وتحدَّثت بيضُ الصَّوارم في الطُّلى … بحديثِ مَجْدِك والحديثُ شُجون !

لله دركَ والفوارسُ تدَّعي … والحربُ خاسِرةُ المتاع زَبُون !

واليومَ يظلم للعُيُون قتامه … فتثيرهُ لك غرةٌ وجَبِين !

في مأزق ضنكٍ تزِلُّ كماته … ومقامُكُمْ صدقٌ هُناك رَصِين !

ولرُبَّ صَوال الزَّئير حطمتَه … فغدَا لَهُ بَعْدَ الزَّئير أنين !

[97] هي بيعةُ رضِيَ الإلاه مقامَهَا … وأُتيح فيها اليُمن والتَّأمين

أُمنيةٌ للأولياء كريمةٌ … وعلى العُداةِ الأشقياء مَنُون

مُلِئت عيونُ الدِّين منها قُرَّة … وارتدَّ طَرفُ الكُفر وهو سَخِين

حسَدَتْ لنا زُهْر النُّجوم سُعُودَها … فتُقيم خِدْمة أمْرِها وتَدِين

أخذَ السِّماكُ لها بأهْبة حَازِم … فسِنَانُه متألِّقٌ مَسْنُون

وسرت إلى الأرماح بُشْرى بِسَعْدِها … فهفتْ مَعَاطفُ لدنةٌ ومُتُون

وجَلَتْ وُجُوه البيضِ فاعتقدت لَهَا … حسْنُ الجَلاَء صَياقِلٌ وقُيُون

حنَّت مطهمةُ الجيادِ ليَومِهَا … فَصهيلُها شَوْقٌ لَهَا وحَنِين

وحَنتْ مؤطَّرةُ القِسِيِّ سيَاتِها … وعَلاَ لَهَا إثْرَ الرِّماء رَنِين

شكراً لمولانا الخليفةِ إنَّهُ … بِمَقَامِه الأرْضَى يُحاط الدِّين

ولَّى الأمانةَ أهلَها وسمَا لَهَا … بِغَنَائِه رَحْبُ الذِّراع أمين

لم يعْدُه الرأيُ السَّديدُ وهدْيُه … بجميع أحْوال الصَّلاح ضمِين

خِدْنُ التُّقي وسَلِيل أنْوار الهُدَى … أدَّتْه عن خَيْر الظُّهُور بُطُون

جَازَ العُلاَ ، فكمَالُه وخِلالُه … تُتْلَى لَهنَّ مُعادةً ياسِين !

اسعد وليّ العَهْد واصعَد سامياً … والله ربُّك ناصِرٌ ومُعِين

واستخلص العِلْقَ الثَّمِين فأنتُمُ … عِلْقٌ نفيسٌ للعلاءِ ثَمِين !

وتهنأوا الحظَّ الجَسِيمَ ، ففضلُكُم … بوفور خَيْرات الإلاه قَمِين !

الأمرُ أمرُ الله وهو مؤيِّدٌ … والحَبْلُ حبْلُ الله وهو مَتِين

يرعاك مَن يُرعِيك عهد عِبادةٍ … ويقول للأشياء كن فتَكُون !

وقال الشيخُ المُسِنُّ أبو بكر المنخّل الشِّلبي(1) وأنشد : (كامل)

[98] تَهْنَ الخلافةُ أن جلوتَ صباحَها … ومددْتَ من نُور الهُدى أوضَاحها

وعقدتَ عقدَكَ في الوفاءِ وعَهْدَها … ووصلتَ راحَك في العَلاءِ وراحَها

ووفرتَ من حُسْنِ السِّياسةِ حظَّها … فحميتَ جانِبَها ورِشْتَ جَناحها

صدَقَتْ أميرُ المؤمنين فِراسَةٌ … لاحتْ كضوء الصُّبْح حين ألاحَها

ولاكنَّها عينُ اليَقين بأنَّها … قد أوقَدَتْ بكَ للهُدَى مصباحَها

لم تَحْوها حتَّى حَوَيْتَ فضائِلاً … شُدَّتْ إليكَ نِطاقَها ووِشاحَها

إنْ كانتْ النَّعْماء كن سحابها … أو كانت الهيجاء كنْ سلاحها

إنْ أهْلكَ الأعداء ربْحُ عَذابها … بعثَتْ لأحياء العُفاة رباحَها

شردتْ زماناً عن أكُفّ معاشِرٍ … نسيَتْ لديكَ شرُودَها وجماحَها

قامَتْ وقد حَمِدَتْ إليك مقامَهاً … وزكَتْ فلم تطلُب إليكَ سَراحَها

قامَتْ خلائقُكَ الكِرامُ بوصفِها … طورَ المديح فأفْحَمَتْ مُدَّاحَها

ردَّتْ على الخُطَباءِ والشُّعراءِ في … حَوْلِك الكلام فعطَّلتْ أمداحَها

فالبسْ محاسِنَها وجر ذُيولَها … فالله قدَّرها لكم وأتاحَها

سُنْتَ الزَّمانَ وأهلَهُ بشمائلٍ … ضمنَتْ لغايات الأمور صَلاحَها

(1) راجع ترجمته في التعليق رقم 5 صفحة 95.

إنَّ المعالي مُذْ نشأنَ سحائبٌ | تسقي ثَراكَ غدوَّها ورَوَاحَها
أخْضَلْتَ من ماءِ الحياةِ مرادَها | فغَدَتْ تُبَوِّىءُ في ذَراكَ مَراحَها
[99] وجَرى بذاكَ العَذْب، في شجَراتِها | فثنَتْ عليكَ غُصُونُها أمداحَها
فوضعتَ دِرَّتَها وقُتَّ زِمامَها | فتكسَّبتْ بكَ بشْرها وسَماحَها
والمأثُراتُ إذا اعتُبرنَ فإنَّما | طُبِعَتْ جُسوماً كنتُم أرواحَها
سَلسَلتُم راحَ المكارمِ لِلوَرى | فسَقيتُموه نميرَها وقَراحَها
مرحتْ جيادُك ليس يثنيها السُّرى | ولأمرِ غَيْبٍ ما تطيل مَراحَها
وشَرَتْ سيوفُك بالعلى أغمادَها | يَوْمَ الوَغا فاستجزَلَتْ أرباحَها
تَسْقي العُدَاةَ سِمامَها فكأنَّها | أيدٍ تُصفِّق للنَّدامى رَاحَها
بأكفِّ طائفةٍ ترى يومَ الوَغا | بفِنائها أن تستحدَّ فلاحَها
هجَرتْ لأطرافِ الرِّماح سهامُها | ونفَتْ لأشْفار الظُّبى أرماحَها
تختارُ من بِيضِ السُّيوفِ فليلَها | وتَذُمُّ من سُمْر الرِّماح صِحاحَها
وتظلُّ إن سفع الحديد وجوهَها | صبغت بتأمُور القُلوب صِفاحَها
وإذا دَعاهُم صارخٌ لكريهةٍ | طَاروا لها بِيضَ الوجُوهِ صِباحَها
متهلِّلينَ كأنَّ في قَسَماتِهم . . . | سُرُجاً تُبين تحتها ؟ أشباحَها
أنتَ الذي إنْ حلَّ ربْعك طارقٌ | ألفتْ لك الكُوم العِتاق رِماحَها
وتخاضَعَتْ ذُلُلاً إليك رقابُها | تُزْجي إليك هجانَها ولقاحَها
وإذا امْتطى ظَهْرَ الحصان رأيتَه | بدرَ الكتائبِ ليْثها جَحْجاحَها
وإذا امْتريتَ نوالَه ألفيْته | سمحُ الخلائق جزلها وضَّاحَها
يا رَوضةً للآملينَ وجنَّةً | تدْعو بحي على النَّدى مْناحَها
إنَّ الأعادي لا تزال كعَهدِها | تورى بشلب مَغارها وكفاحَها
[100] قد غيَّضت أنهارها وتحرَّقتْ | أشجارَها وتكفَّأت أقداحَها
كلِفتْ بها أعداؤها حتَّى لَقدْ | أخذوا عَليها نجدَها وبِطاحَها
ما ضرَّنا إنْ غلَّقوا ما حَوْلَها | إن كانَ سَيفُك بعَدْها مفتاحَها
وأنا الزَّعيمُ إذا أشرتَ بلحظةٍ | أن تَسْتردَّ عداءَها وطماحَها

فعَلى سيوفكَ أنْ تُبيد كماتَها | وعلى جُيوشكَ أن تروِّح ساحَها
أشكو اليكَ من اللَّيالي إنَّها | قد أبرَحَتْ بظَلامَتي أبراحَها
كم رُمتُ أن ألقاكمُ وتصدُّني | نُوَبٌ تنيخُ بساحتي أتْراحها
وتَضيق نفْسي ثم أجري ذكركُم | فتظلّ تَستذْني إلي نجاحَها
إن كان دَهري يَبْتغي إفسادَها | بجميل رأيك قدْ أسوْتَ جراحَها
قلِقتْ رِكابي من مُعاوَدة السُّرى | وحمدنَ رأيي حين كنتَ صباحَها
وصلتْ إلى ملِك الهُدى فأعادَها | ممَّا شكَتْه من السُّرى وأراحَها
والَيْكَها قد بيَّنتْ عن طاعةٍ | قصرتْ عليكُم محضَها وصُراحَها
وشَدَتْ بذكركُم الجميلِ فعطَّلت | زَهرُ الحدائِقِ وردَها وصباحَها

ووفد مع الشعراء أبو عمر بن حربون(1) فقال مهنئاً على هذه البيعة السعيدة ومادحاً وذكر الوقعة التي كانت على ابن همشك وابن مردنيش بجبل السُّبِكة بغرناطة في عام سبعة وخمسين قبل البيعة : (الطويل)

[101] لكم بعْدَ حمدِ الله تُهدى المحامِدُ | وفي وصْف علياكُم تُصَاغُ القلائِد
فإن لكم حقّاً عَلى كلِّ مُسْلِمٍ | ربَّتما تقضِي الحقوقَ القصائدُ !
إليكم سَرى من شِلب ركبٌ كأنهم | مَطارد أو هُمْ للخُطُوب طرائِدُ
سرَوْا فوقَ أعناقِ الشَّدائدِ نحْوَكُم | وفي طَلَبِ العَلْيا تَهُونُ الشَّدَائد
لعمرِ عُلاكم إنَّها لمليئَةٌ | بمَا ضمِنتْ عنْها العِتَاقُ الجَلاَعد
أتتْه بما أبقتْه منها ، ومنهُمُ | صروفُ اللّيالي والسُّرىَ والفَدافِدُ
تجُوبُ بهِم جلبابَ كلِّ دُجُنَّةٍ | تَكادُ تضلُّ القصدَ فيهَا الفَراقِدُ

(1) هو أبو عمر بن عبد الله بن حربون كان أولاً في جملة كتاب ابن قسي زعيم المريدين ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص وطلبة الحضر إلى أن مني بالحرمان، أورد له ابن صاحب الصلاة عدة قصائد في مناسبات مختلفة وممن روى عنه أدبه وأشعاره عبد الله القيسي وابن حربون هذا غير الشاعر ابن حزمون (بالزاي) المرسي. ابن الآبار، التكملة، عدد 1427، الحلة السيراء نشر دوزي ص 200، 201. صفوان بن ادريس، زاد المسافر ص 89 المراكشي، المعجب ص 293- 294- 295 ـ المن بالامامة 111- 213 ابن عذاري، البيان المغرب ص 46.

ولَـوْلَا خُـطوبٌ أخَّـرتْني لَـم يَفِـدْ ... عَلَى الحَضْـرَة العَلْيَـاءِ قبْلِيَ وَافِـدُ
فإنْ لم أكُنْ مِن شاهِدي بَيْعَةِ الـرضا ... فـإني بـإخـلاص الضَّمير لشاهِـدُ
فحَسْبُ الليَّـالـي أو فحَسْبِي أنـني ... مَدَى الدَّهر ساعٍ في رِضَاكُم مجاهد
رأيتُ العِدَى قـد أخلفتْهُم ظنـونُهم ... مُـذُ انتُجِزَتْ للدِّينِ هَـذِي المَواعِـد
فمـا زِلتُمُ تـرقُـون حتَّى انتهيْتُمُ ... إلى مُسْتَوى لا يَـرتقي فيه حَاسِـدُ
فَجَـاءَكَ بُـرهـانٌ من الله صـادِعٌ ... يُقـرِّبُـه من لَمْ يـزل وهـو جَـاحِـدُ
هِيَ البيعـة الغـرَّاء جـاءت يقـودُهـا ... إليـكَ من الأمْـر السَّمَـاويّ قـائِـدُ
تَسَـرْبَلهـا من سِـرّ قَيْسٍ[1] محبَّبٌ ... إلَى النَّـاس مَيْمُون النَّقِيبَـةِ زَاهِـد
وأبـيض فيَّـاض اليَـدَيْـنِ مُبَـارك ... على وَجْهِهِ من نُورِ ذي العَرشِ واقِدُ
فـإن قـلّد الأمـرَ العَـلِيَّ فـإنَّـه ... لأفْضَـلُ مَنْ تُلْقَى اليْـه المَقَـالِـد
مـلِيـكٌ إذا لاحَ الـنَّـهَـارُ مـعـظَّمٌ ... وأمَّـا إذا جنَّ الـظَّلام فـعَـابِـدُ !
يَـدِين لَـهُ مَن لـم يـدِنْ لخـلِيفَـةٍ ... ويقْضِي لَـهُ بـالفَضْـلِ غـاوٍ وَراشِـدُ
[102] ويكـتَسِـبُ الـرّعـدِيـدُ مِنْـه بَسَـالَـةً ... وتَـعْـرِفُ مِـن جَـدْوَى يـدَيْـه الـرَّواعِـد
فمـا يَدْفَـعُ المَوهُـوب إلا بيُمْنِهِ ... ولا تُـقْتَنَى إلا لـدَيْـهِ الـفَـرائِـدُ
فَيـرْجـع عنْـه جاهِـلٌ وهْـوَ عَـالِمٌ ... ويـرْجِعُ عنْـهُ مُعْـدِمٌ وهْـوَ واجِـدُ
لَـهُ راحـةٌ لـو أنَّ للمُـزْن جـودَهـا ... لما سَاريَبْغِي الخَصْبَ في الأرضِ رَائِدُ
وطبْـع تمنَّى الـرَّافِـدَان[2] لَـو أنَّـهُ ... يـمـدُّهُـمـا مِنْـهُ مُـعِـيّنٌ ورافِـدُ
إليـه انتَهَى النُّـور المُبِين الَّـذي بـه ... تـبـصَّـر ضـلِّـيـلٌ واذْعَـنَ مَـارِد
هُو المُصطَفى من صَفْـوةٍ بَعْدَ صفـوة ... وطِيبُ الفُـروع أن تَـطِيب المَحَـاتِـد
سَلِيـلُ الإمـامِ المـجْتَبَى وشَـبِيهُه ... فـإن حَـلَّ مـولـودٌ فقـد حَـلَّ والـد !

(1) يعني قيس، وقد علمت أن بعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن - وهو من كومية - إلى قيس عيلان بن مضر وإن المحققين على أنهم ينتهون إلى ضرى بن زحيك. أنظر التعليق رقم 6 ص 73. الاستقصاص 89.

(2) الرافدان: دجلة والفرات، وعن هذين النهرين أنظر: جغرافية العراق للدكتور جاسم محمد الخلف طبعة معهد الدراسات العربية 1961 ص 26 - 28 - 29.

مجـالسهُم رَوْضَاتُ نجـدٍ[1] يـزينهـا ... مـن الـنُّـور أجنـاسٌ تُـؤَامٌ وفَـارد
مجـالسُ لو تَـرْقَى الكَواكِب نحْـوَهَـا ... لقَـد بـاتَ تلميـذاً لـديهم عُـطَارد
لقَـد عَمرت بـالعِلْمِ حتَّى كـأنهـا ... لكثْـرةِ ذكْـر الله فيهـا مَسَـاجِـد
إذا نضَـدُ الـدّيبـاج مَـالَ بِمَعْشَـرٍ ... فـلَيْسَ لهـم إلَّا الـدُّرُوع نضَـائِـد
وإن مَـرِهتْ حـرْبٌ عـوانٌ فعنـدهم ... لَهَا مِن شَبَا السُّمْرِ الطِّوالِ مَراود[2]
بعَـدْلِ أبي يَعْقُـوب يَـأمَنُ خـائِفٌ ... ويُجْبَـرُ منْهَـاضٌ ويصْلح فـاسِـدُ
فَتًى تنْجَلِي الظَّلماءُ عَنْ نُـور وجْهِـهِ ... فَمَهْمـا بَـدَا لَمْ يفقـدِ البـدْر فـاقِـدُ
وسَـايلْ بـه تُخْبِـرْكَ عن عَـزَمَـاتِـهِ ... سَـوائِلُ من مَـاءِ الحَـدِيـدِ رواكِـدُ
عَلَيْهَـا لِـرَقْـرَاقِ السَّـرَاب غَـلَايِـلٌ ... عَلَيْهِنَّ من رَدْعِ الـدِّمَاءِ مَجَاسِـدُ
تَـجَمَّـعْـنَ مِـنْ مَـاءٍ ونَـارٍ تَـألَّـقـا ... فَلَا الماءُ مُنْسَـابٌ ولا الجَمْرُ هـامـد
وظنَّت مجـاجُ النَّحْـلِ مِنْهَـا بمـالَهَـا ... ومـا هُـو إلَّا مـا تمُـجُّ الأسَـاوِدُ[3]
[103] وسُمرٍ طِوالٍ من رماحٍ رُدَيْنَـةٍ ... تَـطولُ بهـا يـوم اللِّقـاءِ السَّـواعِـد
أبَـتْ أن تَـرى إلَّا ورَيـان صَـادر ... يـفيءُ دمـاً مـنهـا، وظـمْـئـآن وارِدُ
تمِيسُ كمـا مـاسَتْ قُـدودٌ نـواعِمٌ ... تـثـقَّـل أغـلامـاً ثُـديٌّ نـواهِـدُ
تـزَيَّتْ بـزَيِّ الحُبِّ فَهْيَ سَـواهِمٌ ... وأعيُنُهـا حُمْـرُ المَئـاقِي سَـواهِـدُ
وعُـوجٍ كـأمثـالِ السَّـراحين شـزَّبٍ ... قـريبٌ لـدَيْهـا النَّـازحُ المُتبـاعِـدُ
حِسـانٌ لـو أنَّ الحُسْنَ نِيـلَ بِمَـطلبٍ ... لأصْبَـحَ تَسْتمليـهِ منْهـا الخَـرائِـدُ
إذا ألجمَت لم يَعصم العُصمَ معقـلٌ ... ولم يحتـرمْ في البِيـدِ منهـا الأوابـدُ
فـمـا سَـوَّمَتْ مـن قبـلهن بَـوارقٌ ... ولا ملكتْ هُـوج الـرِّيـاحِ مَقـاودُ
إذا شـطْبَـةٌ منهـا بـدَتْ تحتَ فارسٍ ... بَـدا أسَـدٌ من فـوق فَتْخـاء قـاعِـدُ
تـراها كمـا ولَّى من الذُّعـر خـاضِبٌ ... وأقـبـل مـذعـورٌ من الأدم شـاردُ

(1) نجد: البلاد التي فوق العالية من جزيرة العرب بالنسبة لتهامة. ياقوت: معجم البلدان. تاريخ نجد (للشيخ ابن غنام) نشر الدكتور ناصر الدين الأسد 1961.

(2) العين المرهى: غير المكحولة، وشبا كل شيء: حدّ طرفه.

(3) جمع أسود: العظيم من الحيّات وفيه سواد.

لقد وردَتْ شِنّيل منهاا[1] مقانِبٌ   كما انحدَرتْ من رأس رَضوى[2] الجلامد
تجلَّل منها المَرْدَنيشيُّ خزْيَةً   تناغى بها بينَ البُيُوتِ الولائِدُ
وولّى بها شوْهاءَ قد فضحتْهُمْ   كما افتضَحَتْ بعدَ الأماني عامِدُ[3]
قريتم سِباع الأرض منها فأصبحتْ   كأنَّ رُباها للعَوافي[4] مَوائِدُ
لقد أيقَنوا أنَّ الحتُوفَ مصادِرٌ   غَداةَ رأوا أنَّ الشِّفارَ المَوارد !
فجاءوا كما جاءَتْ أُسُودٌ بَواسِلٌ   ووَلَّوْا كما ولتْ نَعَامٌ شوارد !
كَتائِبُ كالخاماتِ خامُوا ، فأصبَحوا   وهُم للسُّيوف المُراهَفاتِ حصائِدُ
نزَلْتَ عجاجَ الموتِ ثم تكشَّفَتْ   وقَدْ فازَ بالنَّصر الجَليدُ المجالِدُ
ولم يَغْنِ عنهُم يوم ذلك كَيْدُهُم   وهَل يَدْفع الحِين المُتاحَ المكائِدُ
[104] وما يَصْنَعُ السَّيفُ المصمم في الوغى   إذا لم تساعده على الضرب ساعد[5]
إذا كان صيُّور الملوك بحُكمكُم   فسيَّان منهم طائعٌ ومعانِدُ
وما المجدُ إلا من هِباتِ أكفِّكُم   فمَن نال حظاً منكُم فهوَ ماجِدُ
ودونكَمُوها من ثنائي فريدةً   عليها من النَّظم البَديعِ فرائدُ
تلاقى علْيها من لِساني شاكِرٌ   ومِن نِعَم المَولْى المعظَّم شاهدُ
وفي خَلدي إن كان في العُمْر مهلةٌ   عجائبُ يفنى الدَّهرُ وهي خوالِد !
قصائدُ أنّى سرتُ يوماً فإنَّها   الى ابْن أميرِ المؤمنينَ قواصِدُ .

---

(1) أنظر التعليق رقم 5 ص 132 .
(2) رضوى : اسم جبل بين المدينة والينبع : ومنه المثل العربي: «أثقل من رَضْوى وخاخ ، شيخ تشاب وشاب تشاخ».
(3) كذا في الأصل ولم نتبينَّ جيداً من معنى الشطر الثاني للبيت . .
(4) العوافي جمع عافٍ: كلّ طالب للرزق ، وقد قرئت لدى بعض الناس «العرافي» جمع عرفاء : الضبع وذلك لطول عرفها وكثرة شعرها قال الشنفري :

ولي دونكم أهلون سيد عملس   وارقط زهلول وعرفاء جيال

التَّازي : لامية العرب طبعة الرباط، 1953 ص 21.
(5) على يمين هذا البيت طرة باهتة لم نتبينها إلا في (أكسفورد) ، وقد كتب فيها باللَّفظ : «هذا ينظر إلى قول المتنبي : وما السَّيف إلا مستدار لزينة» . وقد حاولت عبثاً أن أجد له ذكراً بين شعر المتنبي ، وقد أفاد الأستاذ البحّاثة السيد عبد الكريم بن الحسني في رسالة مسهبة أن قائله هو البحتري وليس المتنبي من قصيدته في مدح الفتح ابن خاقان غير أنه عوض (مستدار) يوجد (بزّغاد) والبز : السلاح وليس بعيداً تحريف بزغاد إلى مستدار . أنظر مجلة (الأقلام) العراقية أكتوبر سنة 1964 . ص 178 .

رجع الخبر

ذكر حركة السيد الأعلى أبي حفص إلى أخيه السيد أبي سعيد على معنى التحامل والتعاون ، والتواصل والتعاون ، واجتماعهما بجبل الفتح جبل طارق

تحرك السيد الأعلى من حضرة مراكش في أول شهر ربيع الأول الموافق لبقية أيام[1] من شهر ينير العجمي من عام ستين وخمس مائة في جملة من أعيان رجال الموحدين - أعانهم الله - وأبناء الجماعة كأبي يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص[2] ، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت[3] ، وإسحاق بن أبي إسحاق بن جامع[4] . ومن أشياخ ثوار الأندلس المختصين به كأبي محمد سيد رأي [105] ابن وزير[5] ، وأخيه أبي الحسن[6] علي ، وصاحب لبْلَة[7] علي الفخار ، وزيد بن محبوب ، ومحمد بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي[8] ، ومن أشياخ مسُّوفة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدْر ، متوسطة العدد والذكر ، عددهم نحو الأربع مائة فارس ،

---

(1) الموافق 16 يناير 1165 .
(2) راجع تعليق رقم 6 صفحة 93 .
(3) من أبناء الجماعة ، وقد صحب السيد أبا حفص ابن الخليفة عبد المؤمن إلى غزو ابن مردنيش سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكذلك صحب الخليفة أبا يعقوب يوسف في موقعة وبْذة ، وذهب في مهمة إلى بطليوس . . . أنظر ص 279 من ابن صاحب الصلاة .
(4) من أعيان رجال الموحدين ، وأغلب الظن أنه أخ للوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق ابن جامع راجع التعليق رقم 2 صفحة 169 .
(5) هو صاحب يابرة . أنظر التعليق رقم 3 صفحة 67 . الاستقصا . الجزء 2 . ص 107 .
(6) انظر التعليق رقم 4 ص 167 .
(7) لبلة (NIBLA) : مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طريانة قريباً من إشبيلية . الروض المعطار ص 168 .
(8) من أسرة ابن سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcalà la Real) ويظهر أنه أخ لعبد الرحمن وزير المظالم لدى ابن مردنيش والمنضم للموحدين بعد ، وقد تولى كل منهما على التوالي الاشراف على أعمال البناء الجارية في المسجد الجامع باشبيلية . راجع صفحة 325 - 332 - 337 - 338 - 339 . ابن الخطيب : الاحاطة ، مخطوطة الأسكوريال ورقة 147 .

وصحبه بالأمر الكريم للغزو في هذه الحركة السعيدة الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين[1]، وأبو عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن وانودين[2] بعسكر مختار من أعيان العرب وأنجادهم كعلي بن محرز بن زياد[3]، وأخوته المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد، ومن قبيله وشيعه رجال فرسان أبطال زهاء أربعة آلاف فارس ليتقدَّما بهم بين يدي السيد الأعلى الى إشبيلية وقرطبة لحماية صيفتهما في مواسطهما وثغورهما ودفع الأعداء الرُّوم والأشقياء المنافقين عن معمورهما، فوصل السيد المذكور وجمعه الموفور الى مدينة سلى بالجميع، وأقام فيها نحو شهرٍ للنظر في المصالح، وتقدم الشيخ أبو سعيد وأبو عبد الله محمد بن يوسف، بالعرب الى البحر لـلأجازة على ما توعد معهما عليه، وفي أثناء هذه الإقامة خاطب السيد الأعلى أخاه إلى قرطبة يعلمه بالمشي إلى لقائه، وتنسّم ريح المواصلة من تلقائه، وان يكون المجتمع بجبل الفتح جبل طارق - عمّره الله - فوصل جوابه منعماً بذلك تحت وعد صادق، [106] وعهد مُوافق، فأعمل السيد الأعلى حركته الميمونة، ومشيته المصونة، بجملته الخاصة المذكورة المتعينة من سلَى الى طنجة.

قال المؤلف عبد الملك بن صاحب الصلاة: كنت[4] في جملة الواردين قاصداً التبرك بالسيد الأعلى، ولأحضر مع طلبة الحضر الوافدين، وأقصد قصد القاصدين. ولما وصل السيد الأعلى الى طنجة[5] بجملته المباركة ركب منها

(1) يخلف من شيوخ الموحدين الذين اعتمدهم البلاط الموحدي في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس، ولذلك فقد نال تنويهاً من قبل الخليفة يوسف في الرسائل الموحدية، وقد كان عين من قبل عبد المؤمن بن علي وزيراً في بجاية لولده عبد الله ثم بعث به يوسف كطليعة أولى عندما قرر الجواز إلى الأندلس سنة 566. البيذق ص 32 - 33. الاستقصا ثان ص 110.

(2) أنظر التعليق رقم 5 ص 117.

(3) هو ابن الثائر العربي محرز بن زياد أنظر تعليق رقم 6 ص 72.

(4) أمسى ابن صاحب الصلاة يتحدث عما رآه رؤيا عين وقد نزل بجبل طارق. راجع المقدمة.

(5) طنجة: مدينة أزلية كانت بها آثار كبيرة للأوَل ويعتبرها بعض الجغرافيين آخر حدود افريقية في المغرب، وكانت على الدوام دار مملكة الأمم الغابرة، ويذكر التاريخ أنه منها كان يمتد رصيف الاسكندر الذي بناه على بحر الزقاق إلى ساحل الأندلس. وكانت تمر القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى الأندلس، ويذكر أنه قبل =

البحر الزقاق في الغراب[1] طيار وعبر به إلى مدينة سبتة منفرداً مع خاصته الخاصّة به وكاتبه أبي الحسن عبد الملك بن عياش، وأمر بمشي الناس على خيلهم على البر إلى (قصر مصمودة)[2] ثم إلى سبتة، فنزلوا بها، تحت أمره بخير منزل، وانسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل بر مستعجل، فلما كان في اليوم الثاني من وصوله إلى سبتة، عبر غراب طيار في البحر من الجزيرة الخضراء يعلم مَن فيه بحلول السيد أبي سعيد مع خاصته وأشياخه بجبل الفتح جبل طارق، فعبر السيد الأعلى البحر في ذلك اليوم، ومعه جملة الناس في القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود، وقرع الطبول والسرور بالورود، وإيصال الشّمل بذلك الوصول، وكان يوماً شهيراً كلّه سرورٌ، وبرز أيضاً فيه السيِّد أبو سعيد في قطائعه بجبل الفتح براياته، وإنجاز عداته، وببشر ملاقاته، ما أبهت [107] الحاضرين، وسرَّ العابرين والنّاظرين، واجتمعا خير اجتماع، وارتفع الإرجاف أجمل ارتفاع، وعمَّ الخير والحُبور بجميع الجهات والأسْقاع ووفد أهل إشبيلية والفقيه ابن الجد، وقاضيهم أبو بكر الغافقي، وصاحب المخزن محمد بن المعلم[3] المستناب بإشبيلية، وأهل الغرب[4]، وأهل قرطبة وغرناطة والشعراء للتّهاني، باتصال البشارات والأماني، وجلس السيد الأعلى للناس

= الفتح الإسلامي بنحو مائتي سنة طغى ماء البحر المحيط إلى بحر الزقاق فضاعت القنطرة الاسكندرية. الادريسي ص 168 - الاستبصار ص 138 - معجم البلدان - المقري: نفح الطيب 1949 جزء أول ص - 132 133. راجع التعليق رقم 5 ص 72 والتعليق رقم 4 ص 90.

(1) الغُراب: Gurapus كلمة مرادفة لكلمة قطعة بمعنى السفينة القديمة التي تسير بالقلوع والمجاذيف، وقد ورد ذكرها هنا وكذا في البيذق ومصادر أخرى، واستمر لفظ (الغراب) معروفاً إلى أواسط القرن الثامن عشر ولذلك فإننا نجد له ذكراً في سفارة الغزال لاسبانيا، جمعه أغربة.
ابن صاحب الصلاة ص 108 البيذق، أخبار المهدي ص 107 النص العربي وص 176 والنص طبعة معهد مولاي الحسن، تطوان 1941 ص 11. الاستقصا 6: 75.
Dozy Sup. aux dictionnaires Arabe. T. 2. page 204 - 205.

(2) أنظر تعليق رقم 1 صفحة 128

(3) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 142

(4) يقصد الغَرْب (AL GARVE) من الأندلس.

للسلام في القصر المشيد في البنيان الرفيع الشان ، فدخل وفدٌ بعد وفد ، وخطبوا وأطنبوا ، وأُطعموا الطعام ، وأنيلوا المنزل الرحب والأنعام ، وأنشد الشعراء أشعارهم وقضوا فيما وفدوا به أوطارهم ، وحبا السيد الأعلى جميعهم بالأعطيات والبركات والكِسا على أتمّ الخيرات ، ودامت الإقامة في الجبل مدة خمسة عشر يوماً في مسرَّة متصلة ، ومبرَّة مشتملة ، وأنشد أبو عمر بن حَربون قصيدةً حسنة من أولها إلى آخرها : (بسيط)

قَدْ حَصْحَصَ الحقُّ لا ريبٌ ولا فَنَدُ   هَـذِي الفُتُوح التي كـانُوا بها وعدوا

خُـذوا بحظِّكم يـا أَهْلَ أنـدَلُسَ   فـليس لـغـاو بَـعْـدَهـا رشـد

واسْتَمْسكُوا بعُرَى الأمْر الذي بَهَرتْ   آيـاتُـه كـلَّ مَـن يَـغْـلُو ويَـقْـتَـصِـد

اليَوْمَ صُمَّ صَدَى الغاوِي بأرْضِكُم   والكْلبُ ينبَحُ ما لَمْ يـزأر الأسَـدُ !

هـذا الذِي وَعَـد الله العبـادَ بِـهِ   قَـد انجزَ الوعدُ حقّاً وانتهى الأمَـدُ

[108] هذا سَلِيل إمامِ الحقِّ بينكمُ   لا المالُ مذَّخَر عنكُم ولا الوَلَـد

فقَـدْ ظفِـرتُم بفيـاضٍ مـواهِبُـه   تُحْصى الحَصَى قَبْل أن يحصى لَهَا عدد

يغشـون منه إلى أنـوار ذِي فِطَن   يكـاد لَـوْلا نَـدَى كفَّيْـه يتَّقِـد

لا يقْبض العدم كفّاً عن أخي أدَبٍ   إلَّا إذا انبسَطت بالعُـرف منه يَـدُ

لما اعتضدتُم بِـهِ مستصرخين سَـرَى   إليكمُ وهـو بـالـرحَّمَـن مُعْتَضِـد

وجَاء في سَرَعان الجَيْش يقدُمُـه   جِبْـريـل والمـلأُ الأعْلَى لَـهُ مَـدد

تحـثُّـه من جُنُـودِ الله طـائـفـةٌ   لا ينهـد النَّصْـر إلا آيـةً نَـهَـدُوا

مُجَـرَّبـون مـراس الحَـرْب دأبُهم   فكلَّمَـا صَـدَروا عـن غَمْـرةٍ وَرَدُوا

قـد طـال مـا عَجَمتْهم كلُّ ملحمـةٍ   لَهَـا طـرائقُ في هَـامـاتِهِـم قِـدد

أنظرْ إلى مَجْمع البحرين[1] كيف حَوَى   من الفضـائـل مَـا لَم يَـحْـوِهِ بَلَدُ

(1) يقصد به جبل طارق، وبه فسر في قوله تعالى: ﴿**وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين**﴾. (السورة رقم 18 الآية 59) فراجع ما كتبه المفسرون.

لاقَى الكليمُ عَلَى الشَّاطيء به خضراً[1]   وفيـهِ لاقَى أخـاه السيِّـدَ السيِّـدُ

صنوان ما اجتَمَعَا في أرض أندلس   إلا ليُحْيـي فيهـا دينُـه الأحَـدُ

يا من رأى الفلكَ فوْق المَوْج طافيةً[2]   كما كفات[3] قباباً وسْطها العَمـد

ينسـابُ منهنَّ في أعلى غـواربـه   أسـاودٌ سَكنتْ أجـوافهـا أُسُـد

بحـرٌ كـأن أبـا حفص بصَهْـوتـه   لقمان والمركب الجَاري به لُبَد[4]

تعجَّبُوا من غُراب[5] فَوْق غاربـه   ثَهْلان ذُو الهضبات الشمِّ أو أُحُـد

وعـايَنَ البَحْـر منـه[6] لجتـه   بحْـراً خِضَمّاً لـه من فضَّـةٍ زَبَـد

فـالآن قُلْ لذوي الإلْحاد شـانكم   فَمَـا لَكُم دُونَ هذا الأمْـر ملتحَـدُ

وبشِّر العُجْم أنَّ العرب قَـدْ دلفت   على العِـراب وأن الملتَقَى صَـدَدُ

[109] هَـاتِيك ثـانية اليُرموكِ[7] قـد رَجَفَتْ   مـا إن لَكُـم صَـبَبٌ عَـنْـهَـا ولا صَـعَـدُ

(1) يذكر المفسرون ـ كما قلنا ـ أن مجمع البحرين عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط وبحر الأندلس، وأن في هذا المكان بالذّات تمَّ التقاء نبي الله موسى بالخضر عليه السلام. ابن جزي - كتاب التسهيل الأول جزء ثان طبعة 1355 ـ ص 191 - 192. عبد الوهاب النّجار: قصص الأنبياء طبعة 1936 ص 302.

(2) نظراً للمكانة الخاصة التي احتلَّها الأسطول المغربي على عهد الموحدين. والتي كانت الباعث الأوَّل لصلاح الدين الأيوبي على الاستنجاد بهذا الأسطول. فإن القطع الشعرية التي كانت تقدَّم للخلفاء الموحدين، كانت تشير في الغالب إلى هذه الظاهرة الحضارية التي كان المغرب يستأثر بها.

(3) المعنى على (نصبت) مثلاً، لكن المخطوط فيه كفات ولم أهتضم المعنى على هذا اللفظ.

(4) لعله يقصد لقمان صاحب النسور وتنسبه الشعراء إلى عاد (لسان العرب). وفي حياة الحيوان للدميري ص 301 جزء 2 في أمثال النسر: وقالوا ـ أتى الأبد على لُبَد، وهذا اللبد هو آخر نسور لقمان بن عاد، وكان قد سأل الله طول العمر فاختار النسور، فكان يأخذ الفرخ حين خروجه من البيضة فيربّيه فيعيش ثمانين سنة، هكذا حتى هلك منها ستة فسمى السابع لُبد، وذكر في لبد قولهم: أهزم من لبد وأنشد:

يـا بكـر حـواءكـم تـعـيش وَكَـمْ   تـسـحـب ذيـل الحـيـاة يـا لُـبَـدُ

(5) راجع التعليق رقم 5 ص 180.

(6) يظهر أن لفظة (فوق) سقطت هنا.

(7) اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة، كانت به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق. ياقوت معجم البلدان. دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، مجلد أول ص 225.

فالدِّينُ جَذْلانُ قد عزَّتْ جوانبُه … والكُفْر خَزْيانُ ما يَنفكُّ يُضْطَهَدُ
هَا إنَّها كالدَّبَا تَنْسَاغُ نَحوَكُمُ … فِيهَا الجِفَاظُ وفيهَا الصَّبْرُ والجَلَد
تَرى الكُماةَ الَّتي مَا شأنُها خَورَ … عَلَى الجِيَادِ التي قد زَانَها الجَيَدُ
شيبٌ ومُردٌ يُنادي البأسُ إن ركبوا : … أيْنَ الغواة الأولى قَدْ طال ما بَردُوا
ظنُّوا بهَا قد أتَتْ تُزْجي مقانِبَها … مثْلِ الرَّواعِد فيهَا البَرْقُ والبرد
وللذَّوابِلِ في أرْجَائِها نَغَمٌ … كأنَّ كلَّ سنان طائرٌ غَرِد
مِن كلِّ أزْرق آثارُ الدِّماء به … كأنَّه مقلةٌ قَدْ مَسَّها رَمَد
أطلعتُموها بآفاقِ الوَغى شُهُباً … منيرةً فِي دَياجِي نَقْعُها تقِدُ
فلَيْسَ يصْعَد شيطانُ النِّفاقِ بهَا … إلاَّ تلقَّاه من خرصانها رَصَد
مَن ذَا الذي يتعاطَى وصْف حالِكُمُ … والبَحْرُ في جنْب ما تُولونه ثَمَدُ!
فسوِّغوا عبْدكم عذراً ، فمجدكم … يقصُر المرء عَنْه وهو مُجْتَهِد
ودُونكم من قوافِي مَدْحِكم حَبرا … تَبْلى الليَّالي وهُنَّ الغضَّةُ الجُرُد
صَدَرْنَ منِّي بحُكم الوُدّ عَنْ كبِدٍ … لَوْلا رجاؤكُمُ قَدْ فتَّها الكَمَد
بعثتُ منهنَّ بالسِّحر الحلال ، فلَمْ … تعقد على نفْثٍ نفَّاث بهَا العُقَد !

وقال عنه ما أجاز البحر منصرفاً بمدينة سبتة في تاريخ ذلك : (طويل)

تجشَّمتُ هَوْلَ البحر في طَلَبِ البَحْر … ولم أشْكُ صَرْفَ الدَّهرِ إلاَّ إلى الدَّهْر
[110] فَقُلْ للدَّياجِي أغْدِقي أو تَكشَّفي … فَها أنَا قَدْ أمسيتُ في ذِمَّةِ البَدْر
لعَمْرُك ما ألقى أبا حفص الرِّضَى … وأشكُو اللَّيالي مَا تَطاول مِن عُمْر
هُمَامٌ إذَا مَا هَمَّ نَالَ مُرادَهُ … ولو أنه أمْسَى على قِمَّة النَّسْر
هو ابْنُ أمير المؤمنين وشبهُه … وحَسْبُكَ من فَرْعٍ وحَسْبُكَ من بَحْر

فاستحسن هذه الأبيات مع تقدم القصيد وما ذكر فيه من القصود ، ثم نفذ أمره الكريم بالانصراف ، وعبور البحر الى العدوة والانعطاف ، وسرح

أشياخ بلاد الأندلس الوافدين ، والعمال والأجناد القاصدين ، بعد ما ذكرته من الأنعام عليهم على أوفى التمام المقام ، وأجاز السيد الأعلى وأخوه السعيد[1] وأكثر الجملة الخاصّة به ولم تستكمل المراكب ولا القطائع النّاس في الإجازة في ذلك اليوم ، فأقام السيد في سبتة ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكب والقطائع بالعبور إليهم بالجبل ، وبالجزيرة الخضراء فأجاز الجميع إليه ، واستقروا في محلته بين يديه ، وكنت[2] مع الوافدين أولاً وأخيراً ورفعت شعراً مع الشعراء على رأي عمر بن الخطاب[3] رضي الله عنه استلطف فيه كرمه ، واستعطف به عدله ونعمه ، وأوصله إليه الكاتب أبو الحسن بن عياش وبيَّن عند السيد الأعلى مسألة وفودي وقصودي فوعد رضي الله عنه في جانبي بعدة جميلة ، وبآمال كفيلة .

(مرافقة ابن صاحب الصلاة لركب الخليفة ونزوله بالمغرب)

وصحبت [111] حَمْلته[4] حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كلِّ فضيلة، ووصلتها يوم وصوله ، وحللت فيها حين حلوله ، واستسعدت به حيث كان في إقامته ورحيله ، وكما قال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي[5] فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تأليفه في (كتاب

(1) هو بالذات أبو سعيد، ولعل الأصل هكذا أبو سعيد.
(2) يؤكد ابن صاحب الصلاة أنه كان في جملة الحاضرين إلى جبل طارق. وأنه كان ضمن الشعراء الذين أسهموا في تحية هذا اللقاء بل واستمر مرافقاً للركب. راجع المقدمة.
(3) يقصد فيما يتأكد أنه لم يتبع في شعره حوشي الكلام ولم يعاظل، وأنه لم يقل إلا ما يعرف ولم يمدح إلا بما هو موجود، وتلك المبادىء هي التي اعْتمدها عمر بن الخطاب في الحكم على ابن أبي سلمى بأنه أشعر الشعراء... الأصفهاني الأغاني جزء 9 طبعة بيروت 1955 ص 295.
(4) عوض هذه الورقة رقم 56 نجد في المخطوط المجلد ورقة تحمل خطأ رقم 56 بينما هي في الواقع رقم 61 وتبتدىء هكذا: «أبي عبد الله بن يوسف المتقدمين بالعرب إلى جزيرة الأندلس» راجع المقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ص 16.
(5) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ترجمه غير واحد في غير ما كتاب، وقد كان على رأس =

الرحلة)[1] له حين دخل بغداد وتعرف بسلطانها : « نعمت المعرفة التعرف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرُّب من الأوطان ، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان » . ونفذ أمر السيد الأعلى أبي حفص إلى أبي عُمَر بن حربون ، وأبي الحسن[2] . . . . الهوزني كاتب محمد بن المعلم أن

= الوفد الذي ورد على المغرب لتقديم طاعته للموحدين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة توفي على مقربة من مدينة فاس عند رجوعه من مراكش سنة 543، وفي عهد السلطان المولى اسماعيل حين وفد عليه للمغرب وفد المعافرة من الصحراء وتزوج منهم بالسيدة خناثة بنت بكار سيّدهم فسألت عن قبر ابن العربي وأمرتْ ببناءِ قبَّة عليه ما تزال معروفة مقصودة إلى الآن. الحلل الموشية ص 122 ـ المقري نفح الطيب طبعة 1949 جزء ثان ص 233 ـ الاعلام، لخير الدين الزركلي سابع ص 106 ـ العباس بن إبراهيم، الاعلام ثالث ص 11. الدُّرَر الفاخرة. . .

(1) كان القاضي أبو بكر بن العربي ذهب صحبة والده في مهمة رسمية إلى بغداد مبعوثاً من طرف يوسف بن تاشفين، فقد خاطب يوسف بواسطة هذا الوفد الخليفة ببغداد على عهده أبا العباس أحْمد المستظهر بالله ابن الخليفة العباسي المقتدي بالله في أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس. . . ولكن هذه الرحلة إلى المشرق لم تمر كسائر الرحلات اذْ أنها كانت فرصةً لابن العربي كما يأتي بما لم يأت به أحد، ولذلك فقد ذكر في أبرز مؤلفاته الفريدة (كتاب الرحلة).
ويوجد مخطوطٌ بالخزانة العامة بالرباط يظن أنه (ملخص) لكتاب الرحلة، وهو يبتدىء هكذا:
قال الإمام الحافظ القدوة المبارك الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي (رض): وقد شاهدت من طلب العلم بأفريقية ومصر والشام والساحل والعراقْ والحجاز وما لا يأتي عليه الاحصاء ولا ينال باستقصا. . . ولما سبق القضا برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتُها والعُمْر في عنفوانه، والغصن مايس بأفنانه، ونزلته في كتاب ترتيب الرحلة. . . إلى أن يقول: المرتبة الأولى لما وصلنا إلى مدينة السلام كتب أبي برد الله مثواه. . . إلى الخليفة رضوان الله عليه كتاباً في درج طويل على صفة ادراجهم في مخاطباتهم. . .
وتختم هذه الأوراق هكذا: انتهى ما لخص من هذه القصة. . . الخ . .
وابن صاحب الصلاة هنا ينقل مقطعاً من الرحلة المعافرية مما لم أجد له نصاً في المخطوط المشار إليه وإن كان قد أشار إلى الاتصال برجال الحكم. المخطوط رقم 1020. الخزانة العامة، الرباط ـ المقري نفح الطيب الجزء الثاني ص 235، أحمد الهواري، دليل الحج والسياحة طبعة 1935 ص 293، العباس بن إبراهيم جزء 3 ص 13. ابن خلدون، المجلد السادس ص 386. السيوطي: تاريخ الخلفاء 1959 صفحة 426 ـ الاستقصا ثان ص 53.

(2) هنا بياض وأغلب الظن أن اسم عليّ سقط للناسخ الذي لم يترك فراغاً عتد إيراد الاسم اثر هذا، وأبو الحسن الهوزني هذا هو علي بن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي حفص كان ـ فيما رواه ابن عذاري ـ من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة عند سرده لحوادث 575، وقد وردت تكنيته عند المراكشي وابن سعيد بأبي الحسين وذكره الأول على أنه من كتّاب الخليفة أبي=

يصحباه لكتابته في جملة كتابه ، فأما أبو الحسن الهوزني فرفعتْه أيامه بتدوينه في المحاسبة وبخطّه ، وأما أبو عُمَر بن حربون فطالبتْه معارفه ، وذنبته أفهامها وأقلامه وأشعاره حتى تمكنت من حرمانه وحطه حسبما أذكره في هذا التاريخ[1] .

وتحرّك السيد الأعلى من سبتة آخذاً في السير ، بالبِشر العام وبأوفى الخَيْر ، فاجتاز في مسيره على مدينة فاس[2] ، ثم أعمل الطريق إلى حضرة مراكش حرسها الله والسعد يقدمه ، والنّصر علمه ، والبشر مبتسمه ، إلى أن وصل فتلقّاه السيد المؤيد الأمير أبو يعقوب رضي الله عنه ، ومع السيد أبي حفص [112] أخوه السيد أبو سعيد خارج مراكش على أوفى الاستبشار ، والسرور البادي باجتماعهم ، والاستظهار ، وإقماع المنافقين والكفار ، وعلى أكمل غاية الظهور والبروز من قرع الطبول وخفْق البنود ، واجتماع النظارة وحضور الوفود بكمال العهود . ودخل السيد مراكش في أول رجب الفرد من عام ستين وخمس مائة ، وأطعم الموحدين الطعام وجميع الناس ، وظهر السرور في الابشار بأجمل الظاهر والإحساس . وأنشد الشعراء أشعارهم بالتهاني والمدائح فأجادوا وأحسنوا ، وخطب الخطباء فأتوا في ذلك بالسّحر الحلال وبيّنوا ، وقال الأستاذ أبو الوليد الشواش الشلبي في ذلك المجلس الكريم مادحاً مهنئاً الأمير أبا يعقوب بالقدوم الميمون المعلى بالسلامة والتسليم : (كامل)

= سعيد يعقوب والثاني على أنه من كتّاب منصور بني عبد المؤمن كما يذكر ابن عذاري. المعجب طبعة القاهرة ص 244 ـ ابن عذاري ص 106 و165 ـ المغرب في حلى المغرب أول ص 235.

(1) في السفر الثالث دون شك وانظر التعليق رقم 1 ص 175.

(2) لقد علمنا منذ قليل أن ابن صاحب الصلاة كان في جملة الوافدين على جبل طارق وأنه صحب موكب السيد أبي حفص إلى الحضرة العلية، وهكذا نجد ابن صاحب الصلاة يحل بمدينة فاس، ونحن نرجح ان تكون هذه هي زيارته الأولى لمدينة فاس، ونرجح أن يكون استمع في هذه المرة إلى الشيخ المسن الذي حدّثه عن رحلته لبغداد واتصاله بالإمام الغزالي. ودعاء هذا على أيام بني لمتونة بالبوار! الحلل الموشية ـ نشر علوش ص 85.

وضَحَتْ بـأنـوارِ الهُـدَى قَسماتُـه   وأبانَتِ الهَدْيَ القَويمَ سِمَاتُـه[1]
مَـلِكُ الـمُـلوكِ مـؤيَّـدٌ لـكـنَّـه   غَلَبَتْ عَلَيْـه مِنَ التُّقَى مَلكـاتُـه
دَانتْ لَـهُ الـدُّنيـا وكـافَّـة أهْلِهَـا   فَعَفَـا وعَفَّ وسامَحَتْ عـطفَـاتُـه
أبْـدَى لَنَـا بشبـابِـهِ وَمَنـابِـه   عجبَـاً وظاهـرَ حسنَـه حسنـاتُـه

[113] فـرعٌ مـن الـدَّوْح الألَـفِّ تـسـامـقَـتْ   أفْـنَـانُـه وتـقـابَـلتْ شَـعَـبَـاتُـه
سَامَى وطَاوَل في سمـاواتِ العُلَى   صَعداً وعاجَـلَ غرسَـه ثمراتُـه
غـرٌّ لـبِـيـبٌ والـعُـلُومِ لِـدَاتُـه   والـمـعـلوات كَـرائـمـاً دَايَـاتُـه
كثـرتْ فَضَـائلهُ فكـاثَـرتِ الحَصَى   عَـدّاً ، وقَـدْ قَـلَّت بِـه سَنَواتـه
ومضَتْ ببـرقِ غيُـومِـه صَفَحَاتُـه   ومضَتْ مضاءَ صِفاحِـه عَزمـاته
وأفـادَهُ دَهْـراً مُـفِيـداً مُنْـعـمـاً   وُصِلَتْ ببَـاهِـر خَيْـره خَيْـراتـه
نجْـل الخلِيفَـة يقتـدي بـرشَـادِهِ   وسَـدَادِهِ وتَبـينُ فِيـه سِمَـاتُـه
وَرَد الـزُّلَالَ العـذْبَ في ينْبُـوعِـهِ   صفْـواً مَعِينـاً لـم تشبْـه قَـذَاتُـه
فـهُـنـاك أسَّس بـالـتُّقَى بُنْـيـانَـه   وهُنـاك شُيِّـد بـالهُـدَى حُجُـراتِـه
ولاَّه مـرتـبـةَ الـفَـخَـار وُلاتُـه   وبَنَى لـه المَجْـدَ الـطَّموح بُنَـاتُـه
وتقيّـل الخُلُقَ الـرضي فـانْجحَت   أضْـحَـاؤهُ وتيـسَّـرَتْ طـلبـاتـه
صبٌّ يـوكَّـلُ بـالـوغَى أو بـالنَّـدَى   لا تُـرْتَـجى مـن وجْـده مسْلاَتُـه
ألِفَ الحُـرُوب فلم يُخِـلَّ بعَهْـدِهـا   والـخِـلُّ لا تُنْسَى لَـهُ حُـرِمَـاتـه
وإذا تَـذكَّـرهـا أجَـدَّ نِـزَاعُـه   وحـنِـيـنُـه وتـوَاصلَتْ ذِكْـراتـه
يُـلهـيـه رَوْضٌ والـقَـنـى دَوْحـاتـه   والبِيضُ زهـرٌ ، والـدِّمـا شُقْـرَاتُـه
والسَّـابغَـاتُ مـوارِدٌ يـشْفِـي بِهَـا   حَـرَّ الـصَّـدَى وظـلالُـهُ رَايـاتُـه
في حَيْثُ صوْتُ المَشْرَفِيّ مرجَّـعٌ   يشْـدُو فتطرب في الـطّلَى نَغَمـاتـه
ويهبُّ من رِيـح الجـلاد نَسِيمُهـا   فـتَـشُـوبُـه وتـهـدُّه هـبَّـاتـه

---

(1) أورد ابنُ عذاري عشرين بيتاً من قصيدة الشواش. البيان المغرب ص 47 - 48.

تَحْنُو عليه الحـربُ إذْ كَانَ ابْنَهـا   ربَّتْـه مِنْ حَمْس الـوَغَى ربَّـاتُـه
[114] فتَقِيهِ بادرةَ الغوائِل والرَّدى   وتـطيـح بـالمـوْتِ الـزُّؤام عِـداتُـه
يـا خَيرَ مَن ملكَ الـوَرى ودَعـاهُمُ   لله فـابـتـدرتْ لَـهُ دَعَـواتُـه
جُـوزيتَ بـالحُسْنَى إذا مَـا مُحْسِنٌ   في فِعْلِه جـزيتْ لَـه فَعَـلاتُـه
مَن يُصْفِ حبَّك أسْعدتْ أحْـوالـه   ومثـالُـه وتُـقُـبِّـلَتْ قُـرُبـاتُـه
مَنْ يَقتـدي بكَ يهْتـدي ، أو مَن يَرُم   سُبُـلَ النَّجـاة فـأنتُمُ مَنْجـاتُـه
وتَـهَنَّـأ الـبُشْـرى بـأوْبَـةِ سيِّـدٍ   قُـرِنَتْ بـأجْـزَل نعمـةٍ أوبـاتُـه
نَجْلُ الهُـدى وأخـوك عـزّت نسبـةً   والمجـدُ تقْصُرُ دونَهـا غـايـاتُـه
في الله اعمـل سعيُـه فحـوَتُ لَـهُ   جمْعُ الفضـائِـل والعُلى مَسْعـاتُـه
سيفٌ بكَفِّـك مُصْلَتٌ تسْـطو بـه   مـاضِي الشَّبـا لا تُتَّقى نشَـواتُـه
نَـدْبٌ أشمُّ الأنْف إن سُئِلَ الـذي   لا يَـرْتَـضي ثـارَتْ لَـهُ أنْفـاتُـه
سَهْـلُ الجَوانبِ راضيـاً ومـواليـاً   وإذا تـنكَّـر أحـزنتْ جَنبـاتُـه !
سـاسَ الأنـامَ فـأمِلَت نـعمـاؤه   ونَـوالُـه وتُـخُـوِّفَتْ نـقمـاتُـه
يَـرْعى بجَفْن كـلاءةٍ وحمـايـةٍ   مـوصـولـةٌ في رَعْيِـه يـقـظَاتُـه
أنتم لأهـل الأرض أوثـقُ عصمـةٍ   وبـأمـركم عُـطفَتْ عليه حَيـاتُـه
لا زلتُـم للمَكـرُمـاتِ ولِـلعُلى   شمْـلاً ، ولا يقضي عليه شَتـاتُـه
وأستقبلوا في الـدَّهـر عُمْـراً بـاقيـاً   مـا واصَـلَتْ غَـدَوَاتِـه رَوْحـاتُـه

وقال أبو عمر بن حربـون يهنيء بالإيـاب من جبل الفتـح ويمدح الأميـر
[115] أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط الأخوة بينهما : (وافر)

بِـأيْـمـنِ طـائـرٍ كـان الإيـابُ   وأنـجـح مـطلب بَـلَغ الـطَّلابُ
وكـانتْ وجهَـةً كَـرُمت مَنـابـاً   فـقـد شُكِـرَ الـتـوجُّـه والمثَـابُ
إذا قـضَّت مثـاربَكـم جـميـعـاً   فمـا في سعْـدِ طـالِعهـا ارتيـابُ
دلـفـتُـم بـالأسـودِ الـى بـلادٍ   ثَـوتْ حِجَجـاً تعِيثُ بهـا الـذِّئـابُ
أشْـبَـهُـهـا غـداةَ حَلَلْتُـمُـوهـا   بلاد الجذْب حـلَّ بهـا السَّحـابُ !

فلولاكُمْ لقَدْ أضْحَتْ مواتاً ... يُسَنُّ على ترائبها التُّرابُ !

فقد ألقى عَصا العِمران فيها ... وقوّض رحْلَه عنْها الخَرابُ

جَمعْتم من بَني قيْسٍ شُعوباً ... تَسيلُ بها المَحاني والشِّعابُ

تجانَسَ جيْشُهُم لفظاً ومَعْنىً ... فهُم عَرَبٌ وخَيْلُهُم عِرابُ

تعاهَدْتُم مواطِنَ خيْر أرْضٍ ... مكرَّمةٍ تشدُّ لَهَا الرِّكابُ

هو الجَبلُ الذي للفَتح فيه ... مخايلُ ما لصادِقِها كِذابُ

به من نُور سيِّدنا أبيكُم ... شعاعٌ ما يزال لَه التِهابُ

وشطْرَ المَغْرب الأقصى ثنيْتُم ... أعِنَّتها كما زخَرَ العُبابُ

وليس سموّكم كحبابِ ماءٍ ... ولكن مثل ما يسْمو الحبابُ

أتتْكُم كتبُهم مستصرخات ... فطيّر من كتائبكم جوابُ

يخطُّ من الصُّفوف به سُطورٌ ... فيصغرُ رقعةً عنه اليَبابُ

فكم من ماردٍ عاجَلتُموه ... كما ينقَضُّ في الجوِّ الشِّهابُ

خَبَيْتُم غاربَ الكفرانِ منه ... بأمر لا يطيرُ لَهُ غُرابُ

[116] وَلِيِّ العَهدِ أُنجِحَتِ المساعي ... بيُمنِكم وأصحبتِ الصِّعابُ

وأُحْكِمَتِ الأمور بما تَواصتْ ... به الألبابُ والحُسْب اللبابُ

نُصِرتم من أبي حفْص أخيكم ... بماضي الحدِّ تعرفه الرِّقابُ

وقبلكُم اصطفى مُوسى أخاه ... فشأنُهما وشأنُكما عُجابُ !

سَرى عنكم ببَحْر مكفهرٍّ ... يُصبُّ على العصاةِ به العَذابُ

تسير الشمسُ شيِّقةً إليه ... كأنَّ الطير بينهُما حِجابُ

تضمَّن رزْقها فترى عُقاباً ... من الرَّايات تتبعها عُقابُ

إذا رَكِع الوَشيجُ على الهَوادي ... فقد سجَدَت له الشُّمُّ الهِضابُ

عليه من سَراة بَني عَليٍّ(1) ... عَليٌّ لا يُضافُ اليه عَابُ

كَسُوب الحمد مِتلافٌ وَهُوبٌ ... كمثل البَحْر يُرجى أو يُهابُ

كأنَّ النَّاس من خَطإٍ وأنتمْ ... ـ أدام الله أمركم ـ صوابُ !

(1) يعني به علياً والد الخليفة عبد المؤمن، البيذق، أخبار المهدي ص 21 - 22 ابن عذاري ص 36.

وأنتم(1) في مشاهدكم كُهُولٌ ... وأنتم في موالدكم شَبابُ !

فمن يرجو بوَصفكم قِياماً ... وفضلُكم تضمَّنه الكِتابُ

فما يسطيع غايَتكم حسِيبٌ ... ولا يَحوي فضائلَكُم حِسابُ

أسيِّدنا أبا حفصٍ رِضاكُم ... بهِ يُرجى لدَى الله الثَّوابُ

وَلَوْلا ما أؤمِّلُ من رِضاكُم ... لَما سَاغَ الطَّعام ولا الشَّرابُ

أنا العبدُ الغريبُ وليْس يزري ... بمن آواه ظلُّكم اغْترابُ

بعيدٌ أن يسيءَ إليَّ دَهْرٌ ... نوائبُه بذكركُم تُنابُ

وقال أبو عمر أيضاً مرجعه من الجبل ، [117] يمدح السيد الأعلى أبا حفص وقد استكتبه على ما تقدم الذكر به(2) ويهنئه بزورة كعبة أخيه ويحثه :

(كامل)

حُثُّوا المطيَّ فقد قضتْ أوطارها ... واحْدُوا الى بابِ الأمير قطارها

وإن اشتكت(3) أيْناً فلا ترنو لها ... حتّى تُحدث عنده أخبارها

لا تعذروها أو تحلَّ فناءَه ... فإذا حَلَلْتُم فاقبلوا أعْذَارَها

واستوصلوا أعمالها وكلالَها ... فالنَّفعُ في أن تشتكي أضرارَها

حتّى تزوروا كعْبَة الفَضل الَّتي ... قد أحسنتْ بركاتها زوّارَها

فإذا استلمتم بالسَّلامة ركنَها ... فارموا بأخفاف المَطيِّ جِمارَها

هَا أنَّها صور اليكم نُزَّعٌ ... قدْ صارَها من حُبِّكم ما صارَها

بلغت رباطَ الفتح عُوجاً ظُلَّعاً ... قدْ كان يستوي السرى أمّارَها(4)

وستغتدي بَعْدَ الغُؤور جواحِظاً ... إن ملأت بسقاتكم أبْصارَها

فاستشرَفوها كالسِّهام سَواهِماً ... تطوي المهامِه ليْلَها ونهارَها

تطوي صحائف كل أرض صحصح ... رسَمَ السُّرى بحروفها أسطارَها

(1) في المخطوط : رأيتم وهو لا يستقيم.

(2) وذلك في صفحة 111 مع أبي الحسن الهوزني.

(3) في المخطوط اشتكيت وهو لا يستقيم ولا يسوغ ذلك.

(4) كذا في الأصل ولم نتبيَّن معناه.

ومتى شدَا الحادي لحُسن ثنائِكم   طارَتْ بأجنحة السُّرور مَطارَها
صدرَت عن الجبَل المُبارَك بَعْدَما   بثَّت بسَعْدِكُم هناك شِعارَها
واستقدمتْ للرُّعب كلَّ كتيبةٍ   شنَّت بأرْضِ المُشركين مَغارَها
وقضَتْ بأرض العدوتَيْن مشارباً   شكَرَ الأنامُ لفضلِكم آثارَها
[118] تَسْري مصالحُها بسنَّة صالح   إن لم ترع فرقَ العصاة قُدارَها[1]
جهَّزْتُم نحوَ الأعادي فيْلَقاً   سحَّاب أذيالِ القَنا جَرَّارَها
جَاؤوا تقدمها السُّعود طَلائِعاً   وتَرَى ملائكة العُلَى أنْصارها
لبستْ بها شمسُ الظَّهيرة حُلَّةً   خلط العجاج لجينَها ونُضَارها
فتطلَّعتْ منْه تطلُّعَ غادَةٍ   تبْدو وأحياناً تضمُّ خمارَها
فكأنَّ أرضَ الملحِدينَ لِبأسِكُم   ثَكْلى تمزِّقُ صَدْرَها وصِرارَها
فتهنَّؤوها دَوْلَةً « مهديَّةً »   رَفعَتْ لأبصار العِباد منارَها
أبْنا وذكركُم تعلَّةُ لَوْعَةٍ   قد أضرمَتْ بينَ الجوانِح نارَها
والشَّملُ متَّصلُ النِّظام بدَعْوَةٍ   ميمونةٍ تمَّمْتُم أنوارَها
فتنشَّقوا عَبَق التحيَّة نحوَكُم   تهدي اليكم وَرْدَها وعِرارَها
زارَتكُم منها عجالةُ قادِمٍ   نظَمَتْ ببشْر لقائِكم أشعارَها

وقال الكاتب أبو عبد الله الشاطبي[2] مهنئاً بالإياب مادحاً وهو كاتب مجيد، ورجل مجيد، إلا أن سبب توحشه عن الناس وهم استغلب عليه فاستولى عليه بذلك الخمول والقعود : (طويل)

(1) قدار: ابن سالف الذي عقر ناقة الله آية صالح عليه السلام.
(2) لم نطمئن لما وجدناه عند البحث عن هذه الشخصية وإن كنا لا نستبعد أن يكون هو محمد بن عبد الرحمن بن ياسين الذي كان معدوداً من الفقهاء والأدباء والذي كان له حظ من قرض الشعر والمتوفى سنة 590 وقد نقل من شعره يهجو بلدته شاطبة:
شاطبة قرية ضنينه   ليست لمن آمها مُعينة
تهتضم الطِّيب اهتضاما   وتألف الدَّهرَ أن تُعينه
والخبث المحض تصطفيه   ضِدّاً لِما جاء في المدينة!
زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد ص 95.

سلامٌ كعَرْف الرَّوض غبَّ قِطَاره   تَحية مشتاقِ الفُؤاد مُطاره
وبُشْرَى كما انشقَّ الدُّجى عن صَباحه   ولاحَ هِلالُ الفِطر بعد سِرَاره
يقر بعين الملك مِقدَم سادةٍ   يُسرُّ بمرآهم مَحَلُّ قَراره
[119] لتَهن أبَا يعقوب غبطةُ أوْبةٍ   بصنْويْه وافتْه لحين انتظاره
أميرَان سَلَّ الملك سيفيْه مِنْهُما   عَلَى ثقةٍ يرجُوهُما لانْتِصَاره
بحيثُ أبُو حَفْصٍ وعُثمنَ بعْدَهُ   تلقَّاهُما للبِشْر حِينَ بِدَاره
عَميداً سَناءٍ بَلْ شِهابَا سِيَادَةٍ   ومُلْكٍ أبُو يَعْقُوبَ قُطبُ مَدارِهِ
يُباحُ اخْتِيالُ الحُسْنِ مِن زهو خيلِهم   وليسَ بنُكْرٍ مُسْبَلٍ عن ازارِه
ومَا يرْهب الأعداء مِنْ حُسْنِ منظر   فمِنْ خُلُقِ الإيمانِ تَرْكُ اختصاره
لقَدْ صَدِيتْ من نَاصر الأمر مُقْلَةٌ   لعُثمانَ تَشْكُو منه شحْط مزارِه
فَنَادَتْ أبَا حَفْصٍ أخَاه لعَزْمَةٍ   كمِثْلِ اليَمَاني حُدَّ غربُ غِراره
يُواصِل ادْلاج السُّرى من ظلامِه   بتأويبِ سَيْرٍ في سَرَابِ نَهاره
وَجاءا ، كما سوَّى جناحَيْه طائِرٌ   إلى مُجْتَنَى الآمَال قصد مَطَاره
بحيثُ استقرَّ العِلْمُ والحِلْمُ والهُدى   وحلَّ به للدِّين حامي ذماره
بِه السَّعد ممتَدٌّ وهَديُ خلافَةٍ   هِيَ اللَّاحِبُ الهادي بضَوءِ مناره
قدِ اعتاضَهُ الرَّحمٰن للخَلْق رحمَةً   وأجْرى له الأقدارَ وفْق اختياره
حكتْ بيعةَ الرضْوان[1] بيعتُه التي   بِهَا غُزِي الإلحادُ في عُقْرِ داره
ألستَ ترى في الناكِثين وقائعاً   يمينُ الرَّدى فيها كمِثْل يَسَاره
تُنَسِّي هِلالاً حَرْب ؟ نِسَاره[2]   وينْسَى ابنُ مُرّ ؟ وقْع يوم حِفاره[3]
حَصَائِدُ سَيْفِ الحقّ صَرْعى بشاهق   به امِن المُغْتَرُّ وَقْع حِذاره

(1) يشير إلى البيعة التي تمت في صدر الإسلام على مقربة من مكة عند الحديبية فراجع ما كتبه المفسرون عن الآية الشريفة: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾. سورة الفتح الآية 18. ابن جزي: كتاب التسهيل، المجلد الرابع.
(2) لا شك أن هنا كلمة سقطت للناسخ توجد أثر كلمة هلال أو حرب.
(3) يعني أن تلك الوقائع تذهل هلالاً وابن مر. . . لكن مَن هو هلال؟ وابن مر؟ فهل هلال بن مردنيش؟ وهل الأصل ابن مريق؟ لم نهتد فعلاً للتأكد من قصد الشاعر.

لقد عَمِيتْ منها البصائر شقْوَةً   أحلتْهُم للهلك دارَ بَوارِه
ولوَ قَرعوا للصّفح أبواب تَوْبةٍ   لَهُ لم يخُوضُوا للرَّدى في غِمَاره
[120] هُوَ الملك المَيْمُون طائرهُ انتمى   إلى الشَّرَف الأعلى كريمُ نجاره
تُناديه للألباب مَوْرد حكمةٍ   يفجِّره للفهم سبْر اختِباره

ومنْها :

هو ابنُ أمير المؤمنين أقامَة   الى بثّ علم منذُ بدْءِ انتِشاره
كذا الفراغُ يزْكو مِن أرومة أصلِه   وللفرع ما يوتى الجنَى من ثماره
بكم حَسُنَ الشِّعر الذي راق نظمه   ولم يكُ إلا مدْحُكم من شِعاره
له خجَلُ التقصير في وَصف مجدِكم   ولكنْ عُلاكم قابلٌ لاعتِذاره
عسى الجُود يحظيه بصهْوة صافيٍ   يشق على ذي السَّبْق شق غباره
ودونكَها يا بنَ الإمام قصيدةً   من الأدب المنظوم بعد انتِشاره
كما قرَنَ الآتي الى البيت حجَّه   وشفْعَه في نيَّةٍ باعتِماره
وحسْبُكم هَذْياً ثناءً عليكُمُ   بصفو ضمير لم يُشَبْ بسمَاره
له كعبةٌ منكم تطوفُ بها المُنى   وحيثُ مُنى الإنشاد مرمى جماره !

ذكر العزم المؤيد من السيد الأعلى المجاهد الاسنى المرحوم أبي حفص بن الخليفة رضي الله عنهم بالحركة السعيدة المنصورة الى ابن مردنيش باتفاق ورأي الأمير ابي يعقوب رضي الله عنه ، واجازته البحر بعسكره المظفر ومنازلته بلاد ابن مردنيش مردفاً للشيخ أبي سعيد[1] بن الحسين والشيخ [121] أبي عبد الله[2] بن يوسف المتقدمين بالعرب الى جزيرة الأندلس لحمايتها في ربيع الأخر من عام ستين وخمس مائة على ما تقدم الذكر به في هذا التاريخ[3] وما دار في ذلك من الفتح

قال المؤلف : وأقام السيد الأعلى أبو حفص بمراكش بعد انصرافه من جبل الفتح ومعه أخوه أبو سعيد بقية شهر رجب الفرد وشهر شعبان كله ، وكان أبو سعيد بن الحسين وأبو عبد الله بن يوسف قد تقدما بعسكر العرب المذكور على ما تقدم[4] وبعثوا عند وصولهم إشبيلية منهم جملة مباركة نحو الخمس مائة فارس الى مدينة بطليوس لحماية صيْفتها فيسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة

(1) يعني أبا سعيد يخلف بن الحسين. راجع التعليق رقم 1 ص 180.
(2) عوض هذه الورقة رقم 61 نجد في المخطوط المجلّد ورقة تحمل رقم 62 بينما هي في الواقع رقم 56، وتبتدىء هكذا «جملة حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كل فضيلة. . .» راجع التعليق رقم 4 ص 185 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ثم أن الشيخ أبا عبد الله بن يوسف ممن لم نجد لهم ذكراً في البيذق ولا ضمن الرسائل الموحدية ولا في بقية المصادر الأخرى التي بين أيدينا فلعلّه ممن بقي ممن لم يوقف على أسمائهم. ابن عذاري ص 48 - 49.
(3) وذلك صفحة 105 .
(4) وذلك صفحة 121 .

كبيرة من النصارى أهل شنترين[1] أعادها الله وهزموهم وغنموهم واستأصلوهم قتلاً وسبياً ، فكان ذلك عنوان الفتح لما يذكر بعد في هذه الغزوة . ثم أبا سعيد وأبا عبد الله خرجوا من إشبيلية بالعسكر الميمون الى مدينة غرناطة لدفع المحاربين الأشقياء عن جهاتها وحماية صيفتها فعند خروجهم من قرطبة الى جهاتها التقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمع معد من عسكر ابن مردنيش بحصن لك[2] ، فكانت بينهم مدافعات عميمة، وكرات في معركة من الحرب عظيمة ، ظهر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسف ومن أعيان العرب وسائر العسكر ومن صبرهم ودفاعهم وقراعهم [122] ما لم يظهر مثله إلا في زمان الأبرار ، المجاهدين الأخيار، تواصلت الحرب بينهم طولَ يوم على شُرب الماء في وادي[3] لك المذكور ، وانفضت الحرب عن ظهورهم وثباتٍ من الموحدين وحيرة من المنافقين واستغراب منهم ، كيْفَ يوجد مثل هؤلاء في الموحدين ، فوصل كتاب أبي سعيد يخلف بن الحسين وابي عبد الله بن يوسف الى الأمير بمراكش مستغيثين معرّفين بهيئة حربهم ، وموافقتهم في طعنهم وضربهم ، وذلك في أول يومٍ من شهر رمضان المعظم من عام ستين وخمس مائة السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه لله غيرة عظيمة ، وعسكر في يومه ، وأمر بالنفير اليهم والإسراع بالموحدين من الصابرين ، ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين والأثبجيين[4] والزغبين ورجالهم . والنفوذ لديهم وخرج من الحضرة في العشر الأول من شهر رمضان المعظم

(1) شنترين (Santaren)، تقع شمال لشبونة، على جبل شاهق بينها وبين بطليوس كما يقول الحميري أربع مراحل.
الروض المعطار ص 113 - 114.
(2) حصن لك (El castillo luque) يقع جنوب غرناطة على مقربة منها.
ويسي: ص 225.
(3) الذي تقدم هو حصن لك ولعل به وادياً يحمل أيضاً اسم وادي لك.
(4) يعتبر الاثبج من الهلاليين ولكنهم أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان منهم المقدم، والعاصم ابنا مشرف بن اثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. والموحدون هم الذين نقلوهم من افريقية إلى المغرب.
ابن خلدون المجلد السادس ص 48 فما بعدها.

المؤرخ بالعالم المذكور ، وخرج معه أخوه أبو سعيد عثمان وهي غزوته الأولى إلى ابن مردنيش السعيدة الفاتحة للموحدين أعانهم في عدوهم فأزعج السير حتى أجاز البحر ووصل مدينة إشبيلية بجمعه الظاهر ، واجتمع بالموحدين المذكورين بها وتذاكَروا في الرأي ، واتَّفقوا وتشاوروا ووقفوا وخرجوا من إشبيلية غازين عازمين مصممين الى بلاد ابن مردنيش في أول ذي[1] القعدة من عام ستين [123] المؤرَّخ ، فأول مدينة نازلوها له مدينة (أندوجر)[2] لقربها من قرطبة وأنها شجى في حلقها ومشتركة في تربها ، إذ هي من بسائطها ومحارثها . وموضع مستغاثها من المرافق في قديمها وحديثها ، ففتحوها في يوم نزولهم في ساعة قتالها ونزالها عنوة ، وبادر أهل الحصون المجاورون بدخولهم في التوحيد ، القريب منها والبعيد ، وشن العسكر المنصور بأمر الأمير السيد الأعلى خَيْلَه بالغارة على نواحيها فاستاقت المغانم على القرب والبعد ، وامتلأت أيدي الموحدين أعزهم الله من السبي والفيء وازداد نعماً الى نعمهم ، وشفيت قلوبُهم من وجدها وأجسامهم. وهُم بالجميع من ألمهم وتيقنوا ان ذمة الله موصولة بذممهم . وأنعم السيد الأعلى - أعلى الله أمره، وخلد في الدهور فخره - عند كمال هذا الفتح الميسر على الموحدين أعانهم الله بزاد وبركة زادها لهم أحساناً منه وانصافاً ، فتألقوا في المواخاة على ما كانوا عليه أضعافاً، واستعدوا بعدة القلوب للحروب، وفي العدد آلافاً ، ونهض السيد رضي الله عنه في هذه الغزوة السعيدة النُهوض الذي لم يتقدم لغيره في هذا الأمر ، ولا سبقه سابقٌ في قديم الزمان من العُمْر فإنه نهض بنيةٍ لله صافية وعساكر بالنصر ضافية ، وأجناد من الله معه متلاقية ، ولما كان الفراغ من شغل فتح أندوجر [124] المذكورة وثقف من وجب تثقيفه ، وسبى من سبى وتحكمت في ذلك رماحه وسيوفه ، واصطفى فيها من

(1) موافق 8 شتنبر 1165 - Huici: 226.
(2) أندوجر (Andujar) بلدة من مقاطعة جيان وتقع شمال شرقي قرطبة، مشيدة بشط الوادي الكبير يعبر لها على قنطرة في غاية العلو.
الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 40 - 41.

رآه ، واستحسن مراءه ، أقلع منها قاصداً بلاد ابن مردنيش المذكورة وَالنَّصر بين يديه قديماً ، والظفر معه أينما حل ظاعناً ومقيماً ، وتسامع ابن مردنيش أن العزم اليه ، على ما نوى عليه ، فاحتشد جميع أهل شرق الأندلس ومن اليه تحت عطاء ورزق ! وشعيته من معتق ورق ! واستدْعَى أحلافه النصارى من طليطلة وأنظارها ، والعُصاة والجُناة من أقطارها ، فوصلوا اليه بجمع كبير ذميم حقير عند الله ، فرَّار عن الحق مهزوم معاند لأمر الله عن العصيان فاجتمع له جمْع ، وطَرَقَ لهم من الشيطان سمْع ، تسابقوا لاجابته ، وحماية غوايته ، فخرج بهم من مرسية مقره واعترض الموحدين أعانهم الله وهم بمدينة لورقة[1] وأقبل بجمعه اليهم وحبَس مضيقاً في الطريق عليهم لا يمكنهم الجواز فيه إلا بعد مقارعة ، فعدل الموحدون أيدهم الله عن ذلك المضيق الى الفحص المعروف بالفندون[2] في أوسع طريق وأيمن فريق وأتوا لورقة من غربها ، والشقي بعسكره بقربها ، ثم أنهم أقلعوا من منزلهم المبارك من نحوها ، وتوجَّهوا على طريقهم قاصدين مرسية ، فاقلع ابن مردنيش من موضعه بجمعه وتماشياً يومهم ذلك ، عسكر الموحدين أيدهم الله في جانب الجبل على ميمنة [125] الطريق ، وعسكر ابن مردنيش على يسرة الطريق في الجبل الآخر داما على ذلك في يومهم كله . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة من العام المؤرخ عام ستين وخمس مائة ، ووصلوا الفحص في وقت الزوال من شمس النهار المذكور أول فحص مرسية في الموضع المعروف بحامة بلقواد[3] ، وفحص الجلاب[4] على عشرة أميال من مرسية ،

(1) لورقة (Lorca) تقع جنوب مرسية بها يوجد فحص الفندودن تحيط بها بعض القرى لكن أهمها قرية (تازة). الحميري : الروض المعطار صفحة 171 - 172.

(2) الفندودن، يقع شرقي مدينة لورقة، جنوب قرطاجنة. هذا وقد أعطاها ويسي نفس الاسم: (Al Fundum. الادريسي: نزهة المشتاق ص 194. ويسي: الخريطة بين صفحة 228 - 229.

(3) كذا في الأصل: حامة بلقواد أو بلقوار، ويظهر من ابن صاحب الصلاة انه اسم ثان لفحص مرسية الذي يحمل أيضاً اسم فحص الجلاب، وقد تجنب ابن عذاري الاسمين معاً واكتفى بالقول بأنهم «وصلوا أول فحص مرسية على عشرة أميال منها . . ».

(4) راجع في هذه الموقعة الحلة السيراء ص 230 والدكتور أشباخ، تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 319.

ألح عسكر ابن مردنيش بالدفاع وطلب ، فعبَّى صفوفاً ، وتميزوا أجناساً وصنوفاً ، وتميزوا[1] بكلّ قبيل من طوائف الموحدين الصابرين الصادقين ، أهل هرغة[2] ، وأهل تينملل ، وهنتاتة[3] ، وقدميوه[4] ، وجنفيسة[5] وجميع القبائل على مراتبهم ، ومن قبائل العرب الهلاليين والرياحيين والجشميين والزغبيين ، وجميع العبيد للأمر العالي المرتسمين ، وتيسروا للِّقاء ، وتعاهدوا على الثبات والصبر في إقامة طاعة الله تعالى ودفاع اعدائه ، ودخول الجنة بذلك على طول البقاء . فدفع ابن مردنيش بعسكره فيهم بأصحابه النصارى أولاً ثلاث دفعات : أولى في العرب واثنين في الموحدين ، فانجد الله المؤمنين في ذلك وثبتهم ، وقوّى قلوبهم وعزمتهم ، فعظم بينهم غمام القتام ورجع شمس النهار في نهاية الظلام وترادف بالأظلام ، وتماشت الركب بالركب ، وعظم الطعن بالرماح [126] المداعس ؟ والضرب بالسيوف القضب المشارف المجرَّبة عند العرب ، الى أن فتح الله للمسلمين ، وولى الكفرة أدبارهم ، وكان بعون الله تعالى أدبارهم ، ومحا الله تعالى بسيفه آثارهم ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وخر أكثرهم صريعاً ، وفر ابنُ مردنيش مهزوماً قد عاين مصارع أصحابه وأحزابه الكفرة جميعاً ، واستند إلى جبل قريب من المعركة ضرب فيه قبة خباء على معنى خدعة الحرب أقام مع فله المهزوم ، في ذلك ساعة من بقية اليوم ، إلى أن ستره الليل ، وقد أحدق به الثكل

(1) جرت عادة الموحدين على «تمييز» الجيش عند كل مناسبة حتى يعرف كل قبيل وصنيعه، وهكذا فأهل المغرب بقبائلهم على حدة. وقبائل العرب كذلك، والموالي بدورهم يميزون. . البيذق، أخبار المهدي ص 245 وص 53 (الترجمة)، راجع ص 295 وما بعدها من كتاب المن بالإمامة. .

(2) هرغة: تقع شرقي مدينة تارودانت بين السوس الأدنى والسوس الأقصى (أنظر خريطة بروفنصال في أخبار المهدي).

(3) هنتاتة : تقع جنوب مدينة مراكش بين حصن كيك ومدينة تينملل (أنظر أخبار المهدي).

(4) قدميوه أو جدميوه: تقع غربي هنتاتة وتينملل. . .

(5) تقع قبيلة جنفيسة جنوب جدميوه، وتعتبر الطبقة العاشرة من أصحاب المهدي. . . راجع التعليق رقم 5 ص 68 .

والويل ، وركب في حينه وفرَّ الى مرسية وانحجَزَ فيها مهزوماً ، مفلولاً ذليلاً ملوماً ، ثم إن الموحدين أيدهم الله أقلعوا في بكرة غدهم من ليلة مبيتهم بموضع المعركة الى مرسية في أتباعه ، فنزلوا بساحتها ، وأقاموا فيها وعيّدوا عيد الأضحى بأباطحها وموضع راحتها ، من مقره ، في دار مفره ، على مرأىً منهم بظاهر مرسية المذكورة في تخريب بساتينه ، وإباحة الخطوب في مواضع منتزهاته من راحه ورياحينه، وتتبعوا تلك الأسقاع، بالتدمير في تدمير، والغارة على جنباتها بالاتساع، فاستاقوا نعم أهلها وتحكّموا فيما أملوه بالتطاول في سهلها وجبلها مدة أيام كثيرة بالأمن لهم في الإقامة، والتعقيب بالغارات في كلّ نظرٍ واستجلاب المغانِمِ على [127] أوفى السلامة، وانتهوا من الانتهاب إلى أقصى غاية، وبما زاد على الأمل والنّهاية، وخاطبوا من مضرب محلتهم بظاهر مرسية للخليفة الرضَى أبي يعقوب رضي الله عنه بوصف الفتح العظيم ، ونيل النجح الجسيم ، وشرح الحال ، فوردت البشرى بحضرة مراكش أدام الله حراستها صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من عام ستين المؤرخ ، على تاريخ ستة عشر يوماً من ظاهر مرسية الى مراكش ، وهذا غاية السير .

(وصول خبر الانتصار على ابن مردنيش لمراكش)

ومن عجائب الفال ، قال المؤلف : كنت صبيحة يوم الأحد الذي وصلت فيه هذه البشرى الفاتحة قد بكّرت على العادة الى « منتيقمّي »[1] دار الخليفة رضي الله عنه جالساً مع طلبة الحضر وأشياخ أهل الأندلس نتطلع

(1) لم يكن ابن صاحب الصلاة كالبيذق الذي استهلك في «أخبار المهدي» الكلمات البربرية بكثرة، ولكنه استعملها قليلاً في بعض الأحيان ولفظ «منتيقمي» أصله «أمي نتكمي» Emin - Tgêmmî ومعناه باب الدار، والقصد في الكتاب إلى «السقائف» كما يشرحه هو نفسه بنفسه ص 281 ورقة 141 وإذا ما رجعنا لما حكاه ابن سعيد عن مباني مراكش على عهد الموحدين سنجد أن باب الاسطوان أو باب السقائف منه كان الخليفة يخرج إلى سقائف أهل الجماعة وهي ذرية العشرة، وإلى سقائف أهل الخمسين وسقائف الطلبة وسقائف الحفاظ وسقائف أهل الدار الخ. البيذق =

الأخبار وقد بعد زمانها وتوقف الواصلين بها ، إذ رأيت قطّا على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه فقلت لمن كان معي من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هُزم والله ابنُ مردنيش ! فقالوا لي : بم تقول هذا؟ فقلت لهم : هذا القطَ شبه الأسد والأسد عدوي[1] ! والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدين العجم ، وافترسوهم كافتراس هذا القط الفرخ ! فما كان مقدار ما أكملنا الكلام في هذا الفال ، ودخل الفرسان الواصلون بالبُشْرَى في الحين بخيلهم في « مُنْتِيقِمِّي »[128] وبأيديهم علامات[2] ابن مردنيش مستورة ، على غير علم ولا مقدمة من وصولهم ، ففزع الناس أولاً لدخولهم بغير مقدمة ولا إذن، ثم علموا من صحيح صياحهم أنها بشرى بالفتح ، فقام التكبير والتهليل ، وضربت الطبول واتصل السرور ، وأمر الأمير في الحين بادخال مَن حضر من الطلبة والناس لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح وقرأهُ الفقيه أبو محمد المالقي على جميع من حضر ، ثم بعد قرىء في الجامع على جميع الكافة من الناس . وهذه نسخته الى حضرة الأمير بمراكش وإلى أهل إشبيلية من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش :

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على محمد وآله وسلم

من عُمَر وعُثمان ابني أمير المؤمنين الى الطّلبة والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه ،

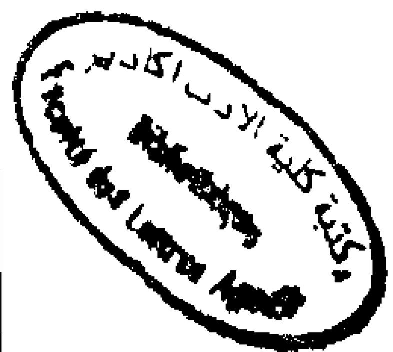
سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أمّا بعد فالحمد لله القاهر الغالب، ناصر جُنْده، ومنجزُ وعْده، في المشارقِ والمغارب، والصلاة على محمَّد المُبْتَعث وسيطاً في ذُؤابة لؤي بن غالب، وعلى آله وأصْحابه والماشين عَلَى سنَنه وسنَّته على

= أخبار المهدي ص 232 Laouste, mots et choses Berbèrses P. 1 محمد المنوني - الفنون على عهد الموحدين ص 138.

(1) بضم العين نسبة بلاد العدوة: المغرب ، ومن المعلوم أن الغاب المغربية كانت مأسدة. راجع التعليق 1 ص 203.

(2) هكذا يجمع العلم أو (العلاّم) في لغة المغاربة: علامات.

. Colin, Notes de dialectalogie arabe Hesp T. X. 1930 page 106



أوضَح المسلكِ الواجِب، والرّضا عن الإمام المَعْصُوم، المَهْدِي المَعْلُوم، النَّاهض بأمْر الله تَعالى قياماً بالواجب، للحادِّ المحادِّ والمجانِب، والدُّعا لمولانَا وسيّدنا أمير المؤمنين حامل لوائه [129] والمِلَّةِ على مِنْهاج الحق، النَّاسخ لمفترقاتِ المَذَاهِب، مُمْشِي الدَّعوة الإمامية، والكلمةِ الموحِدية، في شُعَاع نوره المجلِّي للغَيَاهِب، ثُم لِفَرعِه الأنْمَى، ونَجْله الأزكى، الأمير الأجل، الملك الأسعَد الأعْدل، أبو يعقوب ذُو الحَسَب المحلّى بالمَنَاقِب، المُسامي للنُّجوم الثَّواقِب، المُخْتار مذْخوراً لأمر الله تعالى المخصُوص بغَرائب الرَّغائب، فكتَبْنَاه - أكرمكم الله بتقواه، وأوزعنا وإياكم شُكْر نُعماه - من مَضْرب محلَّات المُوحّدين - أنْجَدَهم الله - بظاهِرِ مرْسِية يسَّرها الله، وصُنْع الله الجميل، وفتحه الجَزيل، قَدْ وضَح نهاراً، وفهق أنْهاراً، وعلَتْ كلمتُه العُليا جِهَازاً، وبركةُ الإمام المَهْدي، وسَعَادةُ سيِّدِنا، ويُمْن الأمير الأجَل - أيدهم الله قدْ يوَّغَت طائفَة الحَقّ نصراً وإظْهاراً، واعتضاداً في ذَات الله واسْتظهاراً. . والحمد لله رَبِّ العَالمين. وقد خَاطَبْناكُم قبلُ بِمَا كانَ من صُنع الله تعالى في فتح أنْدُوجر وتوحيد الحُصون التي تليها عمّرها الله، وتجدَّد بعد ذلك لكم من صُنع الله وحده من مطَّرد الفتح الموعود، المحفوف بالمناجع والسُّهود، ما جَلَّ عن نعتِ الناعت، وشذَّ عن الشاذ الفايتَ، وكبُر عن وصفِ الواصف، ونثر الناثر، ورصف الراصف، وأظهر من آيات الله تعالى ما فاق بيان ذوي المعارف، من صنعٍ لم يُرَ مثلُه في كثيرٍ من الحِقَب، ويومٍ كيوم ذي[1] قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم، ولمن [130] سارَ لهم في الزِّي والكلم، وتمسك منهم بسبب.

(فتْحُ الفُتوح تعالى أن يُحيطَ به نظْمٌ من الشِّعْر أو نثرٌ من الخُطب)[2]

---

(1) ذوقار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس. معجم البلدان - لسان العرب.

(2) البيت من قصيدة لأبي تمام يذكر فيها فتح عمُورية وهي ذات المطلع المشهور:

السيفُ أصدق أنْبَاءً من الكتب في حدِّه الفصل بين الجدِّ واللعب

ويقول بعد البيت المورد هنا:

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماءِ له وتبرز الأرضُ في أثْوابها القشب. . =

وذلك أن عساكر الموحدين استقبلت هذه البلاد الشرقية فتحها الله تتوغَّل في أرجائها ، وتحُول بحول الله بينها وبين رجائها ، فكلما مرٌ الموحدون بمدينة من مدائنه ، أو حصن من حصونه ، انحجَر الأشقياء الذين يضبطونها فيها انحجار الثَّعالب ، وانزواء المغلوب بعزة الغالب ، وأجال أولياء الله على الأرزاقِ الموجودة لَمي نواحيها ، ينتسفون رغدها ، ويُلحقون بيومها غدَها ، حتى كثُرت نِعمُ الله بالمحلات المؤيّدة من الأطعمة والأعناب وضروب الفواكه من الرَّطْبة واليابسة وفي كل ذلك لا تعرض لبلدة بقتال ، احتقاراً لها ولمن بها ! وتصميماً لغزو غيرها ! ولأنَّها الناظم لنثرها ، الى أن وصلت العساكر جهات بَسْطة[1] ، فنزلوا منزلاً يُصاقبها يسمّى وادي القشتالي[2] واقتضى النظر إقامة بعض الأيام هناك لانتظار العسكر والحشد والرُّماة الواصلين من أغرناطة . وفي خلال مقام تلك الأيام بُعِثت خيلُ مباركة من الموحدين والعرب لشنِّ الغارة في المَيْمنة والمَيْسرة من تلك الأقطار والجهات ، فاستاقوا من الغنائم من جهة غلّيرة[3] وقرباقة[4] ، وبسطة وجبال

= وقد سبق للكاتب ابن عطية أن استشهد بهذا البيت في رسالة موحدية بمناسبة انتصار الشيخ ابي حفص الهتاني على ابن هود الماسي في وادي ماسة سنة 542 في ذي الحجة. الاستقصا جزء ثان: ص 99 - 100.

(1) بسطة (Baza) مدينة تقع في الشمال الشرقي من غرناطة بالقرب من مدينة وادي آش حسنة الموضع.
الحميري: الروض المعطار ص 44 - 45. محمد الفاسي: الاعلام الجغرافية الاندلسية ص 24.

(2) وادي القشتالي (Rio de Castalla - Casala) ولم نستطع تحْديده بأكثر من أنه مكان يقرب من بسطة، والحروف في المخطوطة لا تحمل أية نقطة.
Huici: Historia Politica, page 226.

(3) غليرة (Galera)، تقع شمال مدينة بسطة جنوب قرباقة غربي (بلش) (Velez) Huici page 226 - 228.

(4) قرباقة (Caravaca)تقع شمال لُورقة وجنوب شقورة، يقول الحميري أن بها عيناً تولد الحصى وعين أخرى تفتته.
الروض المعطار 150.

شقُّـورة[1] عدداً جمّـاً وسوائم كثيـرة من الـدواب والبقـر وعشـرات الآلاف من الغنم . [131] فمـلأت الوادي ، واشتملت على كـريمتها الأيـادي ، وتقلّب الموحدون في نِعَم لا تحصى عدة تتناسق منها نِعم فنِعم ، والشكر لله على مـا أولاه . ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة أخذنا في الحركة الى أن انتهينا الى حصن قليـة[2] ، فساعـة الإطلال عليـه نزل أهله من ذروتـه تـائبين آبين ، موحدين مستجدين ، نظراً لأنفسهم ، وأخذاً لحظهم ، ثم حللنا بجهة بلس[3] عمَّرها الله من سَقع كثير القرى والعمائر ، ونظر معدوم النظائـر ، وفي حصون وقلاع سمتْ مبانيها بالبقاع ، وتناسقت الأعيان في الارتفاع ، فعندما عاينوا من أمر الله وجنوده مـا ضرَّ عيـونهم وملأ قلوبهم نـزل قائـدهم الشرقي[4] وأصحـابه الـرعية مستـأمنين مذعنين ، فـأمنوا تـأميناً ، وأضحـوا نـذراً لعشـائـرهم يسـاراً ويميناً ، وقدم في حصونهم من تقدَّم لضبطها ، وتشمَّـر بحول الله في حـوطها وهنـالك استُـوضح أن الشقي ابن مـردنيش وأصحابـه النَّصارى دمَّـرهم الله قد خـرج بجملته الـذميمة من مـرسية الى لـورقة خـائفاً عليهـا ، بعد أن استـوثق خروج أهل مرسية وشيوخها ، وأهل التعيُّن فيها مع كثير من لفيفها ، لمَّا أوقـع الله في قلبه من الرُّعب الذي تقدّم اليه جيشه ، حتى خفَّ به طيشه ، فلم يـزد أوليـاء الله إلا عزمـاً مجدّاً في التصميم الى جهتـه ، والتعويـل على غـزوه في عُقره [132] إذلالاً له ولفيئتـه ، وأقاربـه وحوزتـه ، الى أنْ قارَب المـوحدون جانب لورقة ، وأمّوا البسيط السهل المعروف بالفندون على مرأى من الأشقياء

(1) شقـورة (Segura) تقع شمـال قربـاقة، ومنهـا أبو بكـر بن مجبر شـاعر دولـة بني عبد المؤمن. ابن الخطيب أعمال الاعلام ص 145 . 228 - 226 Huici page .

(2) قلية (Cullar) ويرسمه ابن سعيد هكذا قولية يقع في الشمال الشرقي من مدينة بسـطة المعجب: ص 370. المغرب لابن سعيد ج 2 ص 87. 228 - 226 .Huici P .

(3) بلش: (Velez - Rubio) ولا يلتبس هذا ب: (Velez Malaga) فإن المقصـود ليس هذا، وقـد ضبط لدى ابن سعيد بكسر اللام وتنقيط الشين: (كتاب الترييش في حلى مدينة بليش).
الادريسي ص 186 ـ المعجب ص 670 ـ التكملة (كوديرا) ص 23 . Huici page 226 .

(4) لم يعط اسما صريحاً لهذا القائد الـذي استسلم أمام المـوحدين، أمـا الشرقي فـلا نعتقده إلا وصفـاً وليـس اسماً لأن هذه الناحية تقع فعلاً شرقي موسطة والأندلس.

والكفـرة ، واظهار آيـات أمر الله العـزيز وأعـداء الله لا ينبس لهم نـابس ، ولا يظهر منهم راجل ولا فارس ، وفي كل ذلك تخونهم آمالهم الخائبة ، وظنونهم الكاذبة ، أن الطريق تنِاكب عنهم تيامُناً الى الساحل[1] ، وتعـريجاً بـالمراحـل والرَّواحل ، الى أن استـوضحوا أن القصـد مرسيتهم مـرسى الوفـود والورود ، فسُقِط في أيديهم حيْرة وتبـاراً ، ثم أبْدوا قـرب بلدهـم تجلُّداً ، فأقلع الخـاسر عن لـورقة آخـر النهار ، إقـلاع الصَّغار ، آخِـذاً بحَزن الجبـل ، والموحّـدون بسهل البساط[2] . فسـاير المـوحّدين مـرحلتين ملاحـظاً ما نفـع فؤاده ، وحقَّر أعداده وأجناده ، وفي كل يوم من مسايرته تنتشر مواكب الموحدين على ترتبهم وتـأهبهم رجـاء أن يغـره العجب ، والأشـر المعـطب ، فينجـز فيــه وعـد الله المرتقب . فلما كـان يوم السـابع من ذي الحجـة في حين الزوال استخـار الله المـوحدون على أن يـأخذوا بينـه وبين الثنايـا التي تحول بينـه وبين مـرسيـة ، فتميّزوا شعوبـاً وقبائـل ، وصدقـوا ما عـاهـدوا الله عليـه من اخـلاص التـوبـة وأمحـاض النيَّة ، فـرأى الأعداء مـا هالهم وأهلهم وأحـال حالهم ، هـذا على احتداد شوكتهم ، وكثرة عدتهم ، وتردَّدوا [133] بسفح الجبل[3] زهاء ثمـانية آلاف فارس أكثرهم أرغون[4] ، وقفوا يتشاورون ويتنازعون ، ولم يجدوا محيداً عن الطريق التي ضمتهم ، ولا منفذاً إلا في السـاقات التي حفَّت محيـطة بهم

(1) لم يذكر أي ساحل يقصد ولعله يقصد ساحل وادي شقورة.

(2) لم يذكر اسم الجبل ولا كذلك اسم البساط، ونعتقـد انهما معا يقعـان في الشمال الشـرقي من لورقة في اتجاه مدينة مرسية.

(3) من هنا تبتدىء الورقتان الباقيتان من الكراسة السـابعة التي تقـدمت منها ست أوراق عن محلهـا. وهكذا يسترجع المخطوط صوابه، وتحمل الورقة هنا رقم 67 كما هو الـواقع. راجـع تعليق رقم 4 ص 185 والتعليق رقم 2 ص 195 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط.

(4) ارغون (Aragon) يعرفها الحميري ـ ومثله عند المقري ـ بانها بلاد غـرسية بن صانشو - Garcia) Sancho) وانها تشتمل على بلاد وأعمال ومنازل، ولا شك أن في ضمن هذه البلاد مدينة برشلونة التي تقع في الناحية الشرقية من أرغون، ولهذا نرى وسي يترجم برشلونة في ابن صاحب الصـلاة بأرغون. وانظر خريطة بروفنصال في الروض المعطار فقد وضعها شمال سرقسطة وغربي برشلونة.
ابن صاحب الصلاة ص 79 ـ الـروض المعطار ص 22 وص 55 عنـد الكلام عـلى بنبولـة ـ وسي صفحة 208.

وعمَّتهم ، وضربوا قليل أخبية في الجبل الذي به أبادهم ، وهو فيما دبَّروا مصادُهم ومعادُهم ، وعوَّلوا أن في مشارهم أن تكون ملجأ يأوي اليها الفل ، ويجدها منهم البعض إن لم يجدها الكلّ، فأبْدوها يعلوها القَتام، ويبدو عليها الذُل ، وصافَّهم جنود الله من ضحى النهار الى أن نُودي للصلاة من يوم الجمعة في أيام يقبل فيها التوب ، ويغفر فيها الذَّنب ، ويخشع القلب ، ويعبد الرب ، فلما كان وقتُ الصلاة اختار الله للموحدين أن ناشبوهم القِتال ، وقد كثر الذكر والإهلال ، فزحفت العساكر اليهم حتى دَنا السَّواد من السواد ، وتشوَّفه بالكلم والطراد ، وحملت الرُّوم حملتهم المعلومة المعهودة ، وصمدت جملتهم إذ صمدت قبيلُ رياح من الغرب فأقر جَوَّالهم والتفَّت عليهم قبائلُ الموحِّدين واحتدمتْ الحرب وَحَمِيَ الوطيس وثارت سماء النَّقع دون الجو كواكبُ الظُّبا والأسِنَّة ، وثبَّت الله أقدام الموحِّدين ، وزلزل الله أقدام الملحِدين ، وثبَّت الساقة التي فيها الأعلام كأنها الجبالُ الراسِيات والأعلام وانبرى الموحدون الأول من أهل تِينمْلَّل وهِنتاتة فصبروا صبر أمثالهم ، [134] وخوَّلهم الله اقبالاً في استقبالهم ، وأجفل الكَفَرَةُ منهزمين ، وولوا الأدبار مدْبرين ، والسَّيف يأخذُ منهم فوق ما يدع ، وحزْبُ الله يتقدم غالباً فيصرَع ويصدَع ، وقتل رجال الشقي(1) ومشاهيرُه ، والروم أكثر القَتْلَى فيهم فخرُّوا كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية ، وعجَّل الله بأرواحهم الى نارِه الحامية ، وسَقَطوا من مهواهم الى الهاوية ، ولاذَ الشقي الفَليل ، في العددِ القليل ، إلى الأخبية التي أعدَّها للفرار ، لا للقَرار ، وقد خَيَّر من حدّ السيوف وأنبائها ما أغناه عن الأخبار ، وشفَى الله صدورَ المؤمنين من أعدائهم الكفار ، وصاروا بين أيديهم جزراً ، قد افترشوا فناء في مقتلهم هذا وعقراً ، ونفَّل الله من خيلِهم ومطاياهم وإدراعهم وسائر أسلحتهم ما جلَّ قدرُه وعمَّ كثره ، والحمد لله رب العالمين ، جاعِل العاقبة للمتَّقين . وبعد ما تبعهم الحُسام الى الأصيل ، وصرعهم بكل مَسيل ، وقف الخاسر خائفاً يترقب وقوف الذليل ،

(1) يعني ابن مردنيش. . .

وسلب قتلاهم من ملابسهم بكل واد ومسيل ، بادر الموحدون في غدِهم على مَهلهم الى فناءِ مرْسية ، فضربت بساحتها المضارب والأبنية ، بإزاءِ حدائقها المعْرُوشة ، وبسائطها وبَسَاتِنها المشيَّدة المفروشة فكان سِبَاقُ الموحِدين إياه الى ناحِيتِها من أشق ما أَخزاه الله بهِ . ونقرت الطُّبُول تصُكُّ [135] أسْمَاعَهم فمكنت الزلازِلُ في جَوَانِبه ، وركِبَ الليْلُ جَمَلاً ، واحتلَّ البلد ـ ولم يكدْ ـ تسلُّلاً ، وانبسط تبَّاع الموحدين على تلك الحَدَائق محصِّلين لأنواع الفَواكِه ، وعادَتْ مَبَانِي تلك البَسَاتين وأعواد الأشْجَار والرياحِين ، مُحْتطِباً ومتاعاً للمُقْوين من الجنود، وصار سَعْدُ الأخبية سعْدَ السُّعود(1)! وأقامَ الموحدون للتَّعْييد، وقد جَمَع الله لهُم الأعيادَ في عيد، والله تعالى يُوزِّع شُكْرَ هَذا الفتح العَظِيم، ويفضي لناديه بأكرم عواقِب التَّميم، إنَّه منعم كريم.

وأعلمناكم ـ وصل الله سراكم ـ بهذه البشارة العظمى التي هي نادرة المَسارّ النُّعمى لتأخُذُوا بما وفر حظُّكم مِنْ شُكر الله عَلَيْها، وتتسوَّغوا آلاء الله السابغة باجتلاء ما لَدَيها، فهو فتحُ الأنْدَلس وإذلال عدوِّها المتمرِّد المتصحِّب، مُسلَّط الروم عَبَدة الأوثان والصُّلبان، على أهْلِ الإسلام والإيمان، والله يشْفَعَ ذلك بأمثاله، ولا يخلي من يَنْصُر الحق من عضده وإقباله، وقد بُهِتَ هَذَا العدوُّ الخَائِن محْصُوراً، ودُهِش مذمُوماً مدْحُوراً، ونَظَر بعين الحَسْرة حَسِيراً. وهَلَك بعَين الحَسْرةِ بالمَعْنَى المَحْسُوس إلاَّ يَسِيراً، عرَّفَ الله للموحدين بركة مقاصدِهم، وتولاَّهُم بمعْهُود إظْهارِهم في مصادرهم ومواردِهم، بعزَّتِه وقدْرته وطوله، لا ربَّ سِواه والسَّلام عليكم ورحمة الله [136] وبركاتُه. كُتب في العشر الوَسط من ذي الحجة عام ستين وخمس مائة.

(1) وصار سعد الأخبية سعد السعود: يعني آذن الله بتقليب الأحوال من غموض إلى وضوح ومن شؤم إلى يمن، فقد عرف عند المنجمين أن سعد السعود هو أحمد السعود ولذلك أضيف إليها وهو كوكب نير، كما عرف أن كواكب سعد الأخبية ليست مُضيئة ولا منيرة وأنه سمي كذلك لأنه إذا طلع خرجت حشرات الأرض وهوامها من حجراتها وأخبيتها. .

وبعث السيِّد الأعلى مع هذه الرسالة مدرجاً فيها قصيدة شعر[1] أولها :

(وافر)

لَقَدْ بَلَغَتْ جِيادُكم مَداها	ونالتْ ما أرادَتْ مِن عِداها
وهَا هي فاسْئَلوا الإصْباحَ عنها	بحَمْدِ الله قد حَمَدَتْ سُراها
تَعُدُّ رِضاكُم عزّاً وَجاهاً	فما تشْكو على حالٍ وجَاها
تهيمُ بحُبِّ طاعَتِكُم فتطوي	بِساطَ القَفر حتى قدْ طَواها
كأنَّ قَطا المفاوِز حين سارَتْ	تعَلَّمَتِ الهِدايةَ من قَطاها
لقدْ شنَّتْ بأرْضِ الشَّرْق حتى	أباحَتْ بعدَ مَنعتِها حِماها
أتيحَ بها لِتدْمير دَمَارٌ	فدُكَّ على ترائِبها رُباها
ولمَّا لمْ تَلُذْ بالعَفو مِنكُم	تَعاوَرَها الرَّدى حتى عَفاها
ألا لله أيُّ مَقام هَوْلٍ	تحُلُّ الرَّاسِيات له حُباها
إذا سَمِع القَنا عنهْ حَديثاً	ثَنى أعطافَهُ طَرَباً وتَاها
تراكَمت القَساطِلُ فيهِ حتى	جَلَت أنوار سَعْدِكُم دُجاها
ذَرَتْهُم فيه ريح النَّصر طِحْناً	غَداة أدارَتِ الهَيْجاء رَحاها
فقد نَهَلتْ سيوفكُم وعَلَّت	فما تشكو الصَّدا أبداً ظُباها
فإن يَنْجُ اللَّعينُ لغَير مَنْجى	لقد فغَرَتْ شعوبٌ عليه فاها
[137] تكتّم في غِمارٍ أو غُبارٍ	وعَينُ الحرْب لم تطْحَر قَذاها
وَوَلَّى يقْطعُ البَطْحاءَ شَرّاً	على شَوْهاءَ ما وِنَيتْ شَواها
ولو فاتَتْ وَميض البَرْق عَدْواً	لخَطّاها ولمْ يحْمَد خُطاها
وبَاتَ يُصارعُ الظَّلماءَ وَهْناً	ويحْسُدُ مِنْ كَواكبها سُهاها[2]
رَماهُم أمرُكم ببني حُروبٍ	إذا انتُدبوا لَها حَسُّوا لظاها

(1) اقتصر ابن عذاري على ذكر بعض الأبيات من الرسالة الشعرية معتذراً عن الاتيان بنصوص الرسالة النثرية ص 51.

(2) السهى والسها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى، ومنه المثل العربي: «أريها السهى وتريني القمر»!

صغارُهم لهُم همَمٌ كبارٌ	أبَتْ أن تقْتني بسِوى قَناها
إذا صُوَر الحَمام بَدَتْ أفاضوا	مضرَّجةَ الدِّماء على دِماها
فَبُورِكَ للخَلِيفة في رِجالٍ	أطاعوا الله فيمَن قد عَصاها
فأرْضَوا ربَّهُم برِضا مليك	يرى الدُّنيا بناظِر مُنْ قَلاها
ورُبَّ سريرةٍ لله فيه	تبَدَّى في أسِرَّتِه سَناها
فما يَنْفَكُّ يخْبِطُ في ضَلالٍ	غَويٌّ لا يُريعُ إلى هُداها
هَو النُّورُ الذي بَهَرت ولاحَتْ	(به)[1] شمسُ الهِداية في ضُحاها
حياهُ بهِ الخليفةُ عن إمامٍ	قد انتاشَ البرِية مِن عَماها
أبا يَعْقوب إنَّ بِنا إليكُمْ	كما بالحائِمات يُرى صَداها
إلى نُطَفٍ جَلَتْها الرِّيح حتَّى	غدَتْ زُرْقاً ترَقرقُ في حَصاها
فلو نفَحَتْ نواسِمُكُم نضَحْنا	على حَرِّ الجوانِحِ مِنْ نَداها
حَدا بالعِيس نحوكم اشْتياقٌ	أراها كيفَ تنفخُ في بُراها
فلولا أن يُلِمَّ خَيالٌ	لمَا التَذَّتْ ببُعْدِكُم كِراها
لوَتْ أعْناقَها طَرباً إليكُم	فهَلْ يَشْفِي التَّداني مِن صَداها
[138] سَيَقضي حَاجَها الرَّبُّ الذي لم	يدَعْ مِنْ حَاجةٍ إلاَّ قضاها
ودونَكُم تحيَّة مُسْتهامٍ	يَطيبُ الجوُّ من مَسْرى شَذاها
ولا عدِمَتكُم العَلْيا فَمْهمى	رعَاكُم ذُو الجَلال فقد رَعاها

وأمر الأميرُ الفقيهَ أبا محمد المالقي أن ينشد هذه القصيدة المدرجة في الكتاب الواصل بمحضر أشياخ الموحدين وشيوخ طلبة الحضر في مجلسه العالي فأنشدها ، فاستبشروا بها واستحسنوا أغراضها بالأخوة الموصولة ومقصدها ، وزادوا استبشاراً إلى البشرى بالكتاب ، ودعوا الى الله تعالى في تمادي النصر والعافية وتعجيل اللقاء بالإياب ، من الأخوة الأحباب ، وضربت الطبول فيها .

(1) هنا في أصل المخطوط شبه كشط ولعل مكانه «به».

(بقية أحداث سنة 560)

وفي هـذه السنة سنـة ستين المؤرخة بعـد مغيب السيد الأعلى في هـذه الغزوة توقف أهل جبل صنهاجة[1] ومن جوارهم عن أداء الطاعـة فعسكر إليهم الشيـخ المرحـوم أبو حفص بعـزم وفائـه ، وصحة إخـائـه ، ومعـه عسكـر من الموحدين أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم .

وفيهـا أيضاً اختص الأمير الأجل الأعـدل بوزارتـه أبـا العلي ادريس بن جامع وقرَّبه وأحبه ، وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقي في المسائل، ولازم رضي الله عنه المذاكـرة مع أبي الحسن بن الإشبيلي الخـطيب في المحـافـل [139] عند ورود البشائر ، وكذلك مع أشياخ طلبة الحضر واتَّدع فيهـا متوفـراً على تمهيد سلطانه وتألف خاصته من رجالـه ، والانتهاض الى الاستيـلاء على حاله ، وتفرَّغ للتحنث في عبادة ربه ، إذ كان نسيج وحدِه في الزهد والورع ، فـظهرت في هـذه المدة للنـاس في أحوالهم منـه وبه دلائـل اليُمْن ، واتصـال العدل والفضل والأمن ، يسير المراكب حيث شـاء من بلاد العـدوة في طرقهـا من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذيب ! وأحسن لمن وفد اليه واستغـاث به وبفضله من أجنـاد أهل الأنـدلس المضاعين المـأسورين عند النصارى ، ففـداهم بمالـه وسيل عليهم الخيـل بسروجهـا ولجمها وآلات الحرب لها وجبرهم وكساهم ، وواساهم وحباهم ، وأوصل البركـة للموحـدين

(1) يقع جبل صنهاجة في شمال المغرب وجنوب مدينة سبتة، وهو ـ كجبل غمارة ـ يجاور مـدينة نكـور التي امتـد منها الاسـلام إلى أهل صنهـاجة وغمـاره. وصنهاجة قسمان: صنهاجة الظل وصنهاجـة القبلة. الاستبصـار ـ نشر زغلول عبـد الحميـد ص 129 - 136 - 189 - 213 ـ أخبـار المهـدي بن تومرت ص 46.

Léon L'Africain Description de l'Afrique 1956 page 12 - 14.

Henri Terrasse:

Histoire du Maroc Tome 1 page 22 - 23.

196 - 197

211 - 260

والناس المقيمين معه بحضرته ، ولـطلبة الحضـر الوافـدين في كل شهـر على التوالي والاستمرار ، واستبان فضله وعدلـه نوراً من الأنـوار ، وأخذ الـزكاة من المـاشية والحـرث على حكم الكتاب والسنَّـة ، ووضعها في مـواضع حقهـا ، وتيمَّنت القلوب بـدعائـه ، وأصغت الأسماع الى نـدائه . فحـدثني أبو محمـد سيد راي بن وزير أنه ذكر له في مجلسه الكريم توقف صنهاجه ومن جاورهم عن الـطاعـة ، وأنـه قيـل لـه ادعُ الله عليهم ! فتـوقف ، ثم قـال : « الله تعـالى يهديهم ، ويصرفهم [140] عن تعـدِّيهم » ، فما كـان إلا قليل أيـام ووصلت البشـرى بهزيمـة ابن مردنيش وظهـور أمر المـوحدين ، واتصـل خبـر البشـرى بـالفتح في الجبـال ، ووجهوا في الحين بـالتوبـة راغبين ضارعين ، وكفى الله القتال للمؤمنين ، وانصرف الشيـخ المرحـوم أبو حفص وهم في طـوعه وتبعـه بأتمّ النجح ، وأتَّصل الفتح بالفتح ، وأنشد الشعراء الحـاضرون بـالحضرة في وصول الفتح البعيـد والقريب . وعيَّـد السيدان أبـو حفص وأبو سعيـد بالمحلة المؤيدة بظاهر مرسية عيد الأضحى على أسرِّ التعييد والظفر والنصـر على غلبة عـدوّهم ، ثم انعطفـا آخذين في الانصـراف ، الى الحضرة الإمـامية على أتمّ السرور بالنصر والأخرة والائتلاف ، وتركـا في البلاد المفتتحـة من الموحـدين والأمناء من ثقَّفها ، وضبطها لـلأمر العـزيز وشـرَّفها . ولـمَّـا وصلا قـرطبة أقـام السيد أبو سعيد فيها برأيٍ من الأمر ورأيٍ متقـدم واتفاق على حـالته الأولى ، وأنفصل السيـد الأعلى عنه إلى إشبيلية منصـرفاً الى الحضـرة وهو يجـرُّ الدُّنيـا خَلفه جرّاً ، ويقدمه النصر سراً وجهراً ، وقد سقى أعـداءه دعاقـاً مراً ، ورفـع الله له في الأمر والتوحيد ذكراً ، وجاز البحـر منصرفـاً مستعجلاً ، حتى وصـل قرية (مكول)[1] بعد انفصاله من[2] مدينة سلا فكتب الى الأمير أخيـه متشوقـاً

(1) قرية مكول: حصن كبير كانت بها سوق نافقة ـ على عهد الادريسي بما يجلب اليها وبها زرع كثيـر ومواشٍ وأنعام، وبالمقارنة نجد أن هـذه هي المرحلة الأولى في الـطريق الساحليـة إلى مراكش من مـدينة سـلا، وقريـة مكول هـذه التي تحمل اليـوم اسم مكون (Mekoun) بـين سيدي سليمـان والمذاكرة حيث توجد بعض آثار قصبة قديمة. Huici page 248 Com No 5 .

(2) يسوقُ ابن عذاري هـذه المقاطـع في إحداث سنـة إحدى وستين وخمـسمائـة وهو يتفق مـع تاريـخ الوصول إلى مراكش ـ انظر صفحة 52 من ابن عذاري وص 141 من المن بالامامة .

بشعر وهو من إنشاء [141] ابن حربون : (خفيف) .

عـلِّلُوا العِيسَ بـاقتـرابِ الـدِّيـارِ　　وانـظروا هَـلْ بَـدَا لَهـا من مَنـار
وارْفَعُوا للمدَى بـأيدي المَـطايَا　　لـمَّـةَ الليـلِ عـن جَبِين الـنَّـهَـار
واستـطِيلوا عـلى طِـوال اللَّيَـالـي　　واشتكُـوهَـا الى اللَّيَـالي القِصَـار !
لا تَقـولُـوا من بَـعْـدهِـا بغَلِيـل　　قـدْ دنَـوتُـم من الـمِيَـاه الـغِـزَارِ
هـذه كـعبـةُ الـعُـلَى فـأهِـلُّوا　　واقـرنـوا بيـن حجَّـةٍ واعْـتِمَـار
هَـذِه حـضـرةُ الإمـام فـحُـطُّوا　　وأنِـيـخُـوا مِـنْـهـا بِـدَار قَـرَار
فِي جَنَابٍ تُمْسِي السَّحاب وتُضْحِي　　سَاجِباتٍ عَـلَيـه فَـضْـلَ الإزَار
فَـبِهَـا أَسْفَـر الـصَّبَـاحُ عَـلَيْكُـم　　ووُقِـيتُـم وغْـشَـاءَ هَـذا الـسَّفَـار
فـاشْكُـروا للركـابِ أنْ جمعْتكُـم　　بـالأمِـيـر الأجَـلِّ فَـرْعِ نِـزَارِ[1]
بـمليـكٍ عنْـد المليـكِ مكيـنٍ　　قَـدْ كَسـاهُ ثـوبَ التُّقَى والـفَخَـارِ
نَـصَـر الله دينَـه مِـنْ لَـدُنْكُـم　　بجُيُـوشٍ جَـاسَتْ خِـلال الـدِّيَـار
بـجُيـوش تـسمـو الى كـلِّ نـارٍ　　فـي رِدَاءٍ من الـقَتَـام الـمُـثَـار
فـكـأنَّ الآفـاقَ في لـمَم شُـقْـ　　ـرٍ لَهَـا من شَبا الـرمـاح مَـدَاري
أي بُـرْدٍ مـن الـثـنـاءِ جَـمـيـلٍ　　ألبَسَتْهم تلك الـسُّيُـوف الـعَـواري
قَـدْ لـقينـا بيُـمنكُـم كـلَّ خَيْـرٍ　　غَيْـرَ مـا كـان مِنْ نُـزُوحِ المَـزَار
فـبعَثْنَـا هَـذِي القُلوبَ اليـكُـم　　وانـطوَيْنَـا عَلى الضُّلُوع الـحِـرَار
فعَسَى أن يُعَـار يـوم الـتَّـلاقـي　　وخُـذُونـا بـردِّ تِـلْك الـعـواري
إن يَـومـاً نـلقـاكُـمُـوهُ لأهْـلٌ　　أن يُـسمَّـى جَـبِـينَـةَ الأعْـصـار
[142] بلغتنا مكول أنضاءُ سَيْرٍ　　أكلتْهـا الـقِفـارُ بَعْـدَ القِفـار
فوجـدْنـا مِن ريح يُـوسفَ مـا لم　　نـتـوقَّـعْ عليـه تـفْنِيـدَ نـار
فكـان الـقـطار عـنكُـم تُـحـيي　　بـنَسِيم الـرِّيَـاضِ بَعْـدَ الـقِطَار
كَمْ كَتَمْنـا الجَـوَى فلَمَّـا دَنَـوْنـا　　بَـاحَ هَـذَا الـنَّسِيـمُ بـالأسْـرار

(1) تقدم التحقيق في نسب عبد المؤمن. فراجع التعليق رقم 6 ص 157 ورقم 1 وص 176 وانظر الاستقصا أول ص 62 .

فـإذا مَـا ذُكِـرتُـمُ فـي مَـكَـان　　لَـشَـمَـتْـه مَـبَـاسِـمُ الأزهَـار
فسَـلامٌ يَـغـارُ مـن طِيـب رَيَّـا　　هُ هَـبُّ كـل رَنْـدٍ وغـار[1]
يـتقَـرَّى الأنـوار حـتَّـى يُـحيِّي　　بـشـذَاهُـنَّ مَـطْلَعَ الأنـوار
عَـلَّهـا تَبْـرد الـحَشَـى بِنـدَاهُ　　إن زَنْـدَ الأوَارِ مِـنْـهُ لـوار
وعَـفَـا عـلى الـعـبـادِ فـإنَّـا　　قَـدْ أخـذْنـا للبُعْـدِ مِنْـه بثَـار !

وأعمـل السير متشـوقاً فكـان وروده حضرة مـراكش ضحـوة يـوم السبت الحادي عشر من ربيع الآخر الموافق للخامس عشر من ينايـر العجمي[2] من عام واحد وستين وخمس مائة .

(احتفال الامام أبي يعقوب في مراكش بمقدم أخيه السيد أبي حفص)

واحتفل الأمير الإمام أبو يعقوب رضي الله عنه بالبروز واللقاء إليه بنفسه بعد أن كتب كتائِبَه المنصورة الحاضرة معه بحضرة مـراكش ، وكسا العبيد بالثياب المصنَّعة الألوان[3] ، وصفف الفرسان الكمَّل المدرعين من الموحدين وغيرهم والرجال بالدَّرق والرماح صفوفاً ، وجعل الرايات والعلامات خلف ركابه ، والطبالين مع خاصة أصحابه ، وهو راكب[4] [143] علي جواده

(1) الرند: شجرة طيبة الرائحة مهدها الأصلي أوربا الجنوبية وآسيا الغربية، وجعل منها الأقدمون رمزاً للنصر. أما الغار فهو كذلك شجر طيب الرائحة، ورقه دائم الخضرة كانوا قديماً يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين.
(2) الموافقة هنا صحيحة : 15 يناير 1166 .
(3) نرى أن ابن صاحب الصلاة أحياناً يستأثر دون سائر المؤرخين بالتعرض لبعض الأشياء ، وهو هنا يتحدث عن أزياء بعض فرق الجيش وانها كانت مصنعة الألوان، وإن سكت عن إعطاء التفصيلات عن هذه الألوان. وقد قرأها بعض الباحثين «مصنفة» كما قرأها اخرون «مصبغة» Melchor: campanas de los Almohades en Espana P. 6 .
(4) وصف دقيق للموكب الخليفي، العبيد بثيابهم الملونة، والصفوف من الفرسان والرجالة وقد حملوا الرماح والدرق والرايات من خلف الامام والموسيقى مع خاصة أصحابه، ووزيره لصق ركابه يمشي على قدميه بينما يجعل أمير المؤمنين على كتفه رمحاً طويلاً قد غشى سنانه.

العتيق ، ووزيره أبو العلا إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً يحدثه ، ويأمر الأمير بالأوامر فينفذ إدريس المذكور فيها ثم يرجع اليه ، وعلى عاتق الأمير رمحٌ طويل قد غشى سنانه . فلما خرج عن الغشاء الذي كان يستره ، والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور المذكور في البراح الذي كان في ذلك التاريخ متسعاً في باب الشريعة[1] المتصل بالشريعة القديمة وهو اليوم مدينة ثانية[2] متصلة بمراكش القديمة ، ووقف العسكر مع السيد القادم أبي حفص

(1) باب الشريعة :
تعتبر باب الشريعة أحد أبواب مراكش التي عرفت منذ التاريخ المبكر، وكانت تنفذ إلى مصلى العيدين، وقد هدم معظمها عندما تقرر بناء ضريح الامام السهيلي، وكادت تختفي لولا جهود الذين تتبعوا آثارها بالبحث، ومعلوم أن موضع الشريعة في تعابير الفقهاء المسلمين يعني المصلى، أي مكان إقامة صلاة العيدين، التي تكون عادة ظاهر المدينة، وقد شوش هذا الاسم (الشريعة) على المستشرق الكبير دوزي فغدا يفترض بعض الفروض وورد في تعبير لصاحب الاستبصار: «وفي كل عدوة من فاس شريعة لخطبة العيدين».
المن بالامامة صفحة 291 ـ الاستبصار صفحة 181.
مخطوط ابن عذاري صفحة 120 ـ ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس صفحة 27 سنة 1309 هـ.
Dozy; Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, Tome Premier. page 383 - 384.
Provençale: Notes de toponomestique P. 223. le Tourneau: Fisavant le protoctor-at P. 110.

المنوني نقلاً عن ابن سعيد ص 251.
Allain et Deverdun:les portes Anciennes de Marrakech. Hespèris 1957 page 114 - 115 - 116. Caston Deverdun: Marrakech des Origines à 1912. Tomme 1 page 123.
(2) يدأب الولاة الجدد على طمس آثار الذين يسبقونهم، ولم يشذ الموحدون عن القاعدة، ولذلك تراهم يعرضون عن مباني المرابطين بما فيها المساجد، ونراهم يطمسون معالمهم في كل مكان، وها هم هنا يحدثون مراكش جديدة.
الادريسي ص 68 - 69: كتاب الاستبصار في عجائب الامصار: نشر سعد زغلول عبد الحميد طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ص 209 - 210؛ البيذق ص 105 - 120؛ محمد المنوني: الفنون على عهد الموحدين ص 249 - 250 نقلاً عن مسالك الابصار لابن فضل العمري، المعجب ص 360؛ الحلل الموشية ص 113 - 119؛ التازي ـ الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الأثار: المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية طبعة القاهرة 1961 ص 447.

بإزاء الشريعة ، ووقف عسكرُ الإمام معه في أول البراح المذكور ، وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجري واللعب والدفاع بالحملات والكرات والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى آذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه[1] في تلك الدفعات سروراً فأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجباً. ثم نزل الأمير عن فرسه ، ونزل السيد الواصل أيضاً والتقيا وتصافحا وسلما ، ثم سلم الناس الواصلون بعضهم على الأمير ، وعلى من حضر ، وركبوا وعادوا الى العساكر ودخلوا الى القصر العتيق : دار الحجر[2] في أعظم بروز وأحفل تمييز بعد صلاة العصر في أول العشية من اليوم ، واجتمعا خيْرَ اجتماع ، وكان من البروز الحافل ما أبهت الناظرين لغاية الإجماع . وفي اليوم الثاني من هذا الوصول [144] السَّعيد ، صُنع للموحدين الواصلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأطعمة الدارة ، والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة ، مدة خمسة عشر يوماً في نعيم وسرور مقيم ، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة من العمائم والغفاير[3] والبرانس والأكسية بأن حصل لكل فارس غفارة ، وعمامة وكسا ، وقبطية[4] وشقة . وأنعم على جميع الناس الغازين والقاطنين بذلك ، وعلى طلبة الحضر ، وأدرت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدراهم : لكل فارس عشرون ديناراً[5] ، ولأعيان

(1) ترى أن ابن صاحب الصلاة يسترسل في ذكر طرائفه، فهو يصف هنا «حملات الخيل» التي ما تزال تجري في المغرب إلى الآن وخاصة عند الأفراح والمواسم. والطريف هنا أن نرى الخليفة نفسه يندمج في شعبه فيأخذ بعنان فرسه ليقوم هو كذلك بدور الحملة «المصطنعة».
(2) حول دار الحجر راجع التعليق رقم 1 ص 169.
Dozy. Sup T. II p. 218.

(3) جمع غفارة: كساء يلبس فوق آخر، لسان العرب.
(4) ترى كيف جعل الاكسية التامة تتألف من العمائم والغفائر والبرانس والاكسية، ثم أعطى مفردات لجل هذه الكلمات عمامة، غفارة، كساء، وأضاف القبطية التي هي الثوب الأبيض الرقيق من الكتان، والشقة التي هي عبارة عما شق من الثياب على شكل مستطيل.
(5) يقصد في أغلب الظن الدينار اليعقوبي المنسوب إلى أبي يعقوب وبالرغم من أنه من الصعب اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار، فإنه من المفيد ـ اعتماداً على ما كتبه الأستاذ ماسينيون ـ أن نعلم أن وزن الدينار الموحدي بالذهب 4, 729 (غرام) (أعني بزيادة 704 على الدينار الشرعي)، وإن=



الموحدين وأشياخهم لكل واحد ماية دينار ، ولأشياخ العرب لكل واحد ماية دينار ، ولساير عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فارس ، فاجتمع لجميع الناس السُّرور ، والمال الحاضر الموفور ، وعادت الطبول بالنُّفر فيها مدة خمسة عشر يوماً . وبعد هذا الإنعام التام ، والإفضال العام ، رجع الناس الغازون الى قبائلهم للاستقرار ، بعد نيل الغزو السعيد ، والأجر المزيد ، في هذه الأسفار .

وخمدتْ نار الفتنة من ابن مردنيش مدة خمسة أعوام الى أن حدث بينه وبين صهره ابن همشك الشنئان الذي أذكره بعد أن شاء الله تعالى ، فنظر أمير المؤمنين في غزوه على ما يأتي ذكره(1) في هذا التَّاريخ مفسراً من تجهيز البعوث والعساكر الى جزيرة الأندلس [145] استعداداً لغزوه إلى أن غزى وحصر بمرسية قاعدته في عام ستة وستين وخمس مائة .

الابتداء بالولايات من الأمير لأخوته السادات . وللحفاظ النبهاء من أبناء شيوخ الجماعات على ما يذكر

قال المؤلف : ولما كمل شغل الأطعام والأنعام ، ميَّز الناس على جميع طبقاتهم ، على ما حضروا به من كساهم وهيئاتهم وخيلهم ورجلهم ، فكتبت

- قيمته بالفرنك الفرنسي كانت أوائل القرن العشرين 14,50، وهكذا تكون قيمة المبلغ المأخوذ مائتين وتسعين فرنكاً يعني فرنك أوائل القرن العشرين. . . ويقدر القدماء وزن الدينار بأربعة وعشرين قيراطاً، ويذكرون أن القيراط ثلاث حبات فيكون المجموع 72 حبة. الاستقصا ثان:

Luis Massignon: Le Maroc dans les premiers années du XVI siècle 1906 page 102 - 103:

Miles: ENCYCLOPEDIE de l'Islam T. II. Livraison 27 p. 305 Edition 1962.

Bréthes: Contrubution a l'histoire du Maroc 1939.

محمد الصبيحي : انبلاج الفجر، عن المسائل العشر، طبعة الرباط، 1940 ص 9 - 18 .

محمد الزغاري : معرض نقود اسلامية وقديمة 1962 ص 16 .

التازي : تاريخ جامع القرويين طبع دار الكتاب اللبناني : سنة 1972 الجزء 1 ص 76 .

(1) يعني صفحة 260 - 264 - 268 - 270 .

أسماؤهم على الاستيفاء ، وتكرار الأسماء ، والسمح لهم في تحيُّلهم للأقوياء منهم والضعفاء ، وخرجتْ لهم البركة على الذي كتبوه ورتَّبوه نظر الأمير أولاً بمشاورة أخيه السيد الأعلى أبي حفص في حديث بجاية وأنظارها إذ كانت دون والٍ ، وعلى حالة إغفال ، محتاجة للنظر لها بسيد يفتح لهم زهرة الآمال ، فاختاروا لها من الإخوة السيد أبا زكريا يحيى بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه ، فتوجَّه اليها من الحضرة غرة جمادى الأولى من عام واحدٍ وستين وخمس مائة في جملة متعينة من أبناء الجماعة والحفاظ ، والموحدين أهل الديانة والاحتفاظ ، ومن عسكر أهل بجاية وأنظارها على ما رأوه ، وأستخاروا الله عليه ونوره .

(الاحتفال بتنصيب أبي عبد الله بن أبي إبراهيم والياً على إشبيلية)

ثم نظروا [146] أيضاً في حديث إشبيلية إذ كانت أيضاً دون والٍ ينظر في عسكرها ، وأجنادها وثغرها ، فاختاروا لها من أبناء الجماعة النبهاء الفضلاء الفرسان الأنجاد من أهل الأديان الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم صاحب المهدي رضي الله عنه ، واتفقوا على ولايته عليها ، وأحضروه وأمروه بذلك ، وقدَّموه عليها يوم الجمعة بعد صلاة الظهر الحادي والعشرين من جمادى الأول بموافقة الخامس عشر من أبريل العجمي(1) من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة . وعقد له الأمير رايتين في مجلسه الكريم وميَّزوا له جملة وافرة متعينة من الحفاظ من أبناء أهل خمسين من الموحدين أعزهم الله من كل قبيلة من الموحدين ، وعين أن يزر له ، ويسوس أحواله ومسائله ، الشيخ الحافظ أبا يحيى زكريا بن يحيى بن سنان لثبات أبيه في أهل خمسين ، ولحفظه هو كتاب الموطا وعرضه عليه في مجلس(2) الخليفة أمير المؤمنين ، وظهور النجابة عليه من شبابه الى فتوَّته وما

(1) الموافق هو 25 مارس 1166 .

(2) كان اهتمام الموحدين بأمر التعّليم عظيماً، وكثيراً ما كان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على مباشرته والحض عليه . المنوني، ص 27 - 28 .

وصل الأربعين ، ولاختصاصه بالشَّيْخ الزاهد المجاهد المرحوم أبي يعقوب يوسف بن سليمان بتصريفه له في الأشغال ، وما جرَّ به فيه من الأمانة في الأعمال ، ولعقله الراجح ، وبما حباه الله به من عفاف الجوارح ، والاقتناع بالكفاف وسياسة النظر في المصالح . وممن أصحب معه من الحفَّاظ [147] عبد الله بن يعقوب ، وعمر بن تيمصلت ، ويعيش الجدميوي ، وعبد الوهاب ، وأبو العيش من أهل كومية وزيد بن عبد الرحيم من جدميوه ، وحمزة بن عبد الرحيم من صنهاجة ، ويحيى بن أبي بكر ، ومحمد بن عمران ، ومحمد بن عيسى ، ومحمد بن تَيفلشت . ووجهوا معه عسكراً من العرب لحماية إشبيلية وأنظارها ، وأمروا بأربعةٍ من الطبول بأربعة فرسان يضربونها له إعلاماً برفعته عنْدَهم من يوم خروجه من الحضرة واهتبلوا به وساووه في رتبه وخلطوه بأنفسهم وجعلوه في أبناء أشياخ الجماعة من أنفسهم رعاية لأبيه وللصهر المتصل بذويه ، فتحرك من حضرة مراكش في غرة جمادى الأخيرة من سنة إحدى وستين المؤرخة وقد عقدت له في مجلس الأمر العزيز رايتان برز بهما من دار الخلافة على وسط أسواق مراكش وديارهم وطرقها الى باب فاس[1] مستقبلاً طريق الأندلس ، أمر له ولجميع من صحبه من عسكر وسائر في جملته بالعلوفات والمواساة في المراحل ، والرفق بالرواحل ، حتى وصل البحر ، ووصل اليه في المجاز بقصر مصمودة الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي إسحاق بن[2] جامع صاحب سبتة في ذلك التاريخ بقطعتين من قطع البحر أجازوه هو فيها وأصحابه وحفاظه الى جزيرة طريف[3] برأيه وبما

(1) باب فاس: أحد أبواب مدينة مراكش وهي كما ترى تتجه نحو الأندلس كاشارة إلى أن المتجه للأندلس لا بد أن يأخذ طريقه على مدينة فاس. انظر التعليق رقم 3 ص 90 - ابن الزيات التشوف، ص 223 - 231 - 299.

(2) من أسرة ابن جامع الشهيرة، وهو أحد أخوة ادريس ابن جامع وقد علمنا انهم نكبوا في الأخير، وأقاموا مغربين بمدينة ماردة، راجع التعليق رقم 2 ص 157 ورقم 4 صفحة 179.

(3) طريف (TARIFA) أولُ نقطة من جزيرة الأندلس تسامت قصر مصمودة (القصر الصّغير أو قصر المجاز) وجزيرة طريف تقع في الجنوب الغربي من الجزيرة الخضراء.

Huici: 224 - 225.

نفذ له به الأمر العالي في حسن رتبة ، ثم صار الى مدينة إشبيلية على ذلك [148] الترتيب ، والظهور المصحوب ، الملتزم بالصلاة والآذان والتثْويب ، الى أن بات على مقربةٍ من إشبيلية ، فخرج اليه حفاظُها وأجنادها وبَرَزوا له ومعهم أبو داود يلول بن جلداسن[1] وأبو عبد الله بن أبي سعيد المعلم ، وأبو العلاء بن عزون شيخ القواد ، وأشياخ إشبيلية وأهلها والتقَوْا به ودخلوا معه مسرورين بقدومه ، متبركين به في حديثه وفي نديمه ، شاكِرين الله تعالى والأمير الأجل أبا يعقوب أن خصهم به وكرمهم بتكريمه ، وتدافعت الخيل أمامه ، واجتمعوا معه ووفوه سلامَه ، ووقروا مجلسه وكلامه ، ودخل إشبيلية ضحوة يوم الخميس مفتتح رجب الفرد من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة، وبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى إشبيلية سافر مع الحفاظ الواصلين معه الى قرطبة للقاء السيد الأسنى أبي سعيد بها والسلام عليه ، فكان ما أراده ، وأقام عنده ثمانية أيام تحت بر واكرام ، وودعه وانصرف إلى إشبيلية ، وضربت جملة ذميمة من نصارى شنترين - أعادها الله - على نظر طلياطة[2] فجهز في أتباعهم الحفاظ الواصلين معه وأبا العلاء بن عزون في جند إشبيلية وجملة من العرب الواصلين معه فادركوهم ، وأنفذوا الغنائم منهم وهزموهم وغزوهم واستاقوا من سلبهم مائة فرس وجملة أعلاج ، وعرف الأمير بهذا الفتح فشكر [149] اجتهاده وجهاده .

وصول السيد أبي إبراهيم إسماعيل الى إشبيلية والياً

وأقام على شغله بإشبيلية منفرداً الى أن وصل السيد الأسنى أبو إبراهيم إسماعيل بن الخليفة أمير المؤمنين والياً على إشبيلية في أول ذي الحجة من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة . وأمر السيد الأسنى أبو سعيد بنْ

(1) كتب في المخطوط جلدان باسقاط السين.

(2) طلياطة (Tejada - Tablada) تقع غرب إشبيلية على مقربة من طريانة وفي الجنوب الغربي لمدينة لبلة.

الروض المعطار ص 128 - 129 .Huici 164.

الخليفة أمير المؤمنين بالارتحال عن قرطبة في هذه الأيام والمشي الى الحضرة العليـة مراكش ، فخـرج من قرطبـة مُبادراً لـلأمْرِ الـذي أمر بـه ، وخـطر على إشبيلية في اليوم العاشر من ذي القعدة من سنة إحـدى وستين المؤرخة والتقى بأخيه السيد أبي إبراهيم بقْصر مصمودة ، وخرج الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبي إبـراهيم من إشبيلية في هـذه الأيام للقـاء السيد أبي إبـراهيم إلى جـزيـرة طريف فالتقى به فيه فانصرف في صُحْبته بها وشغل العسكريـة على يديـه جارٍ تقييده وتنفيذ الأمور بوسـاطته تـرتسم جنوده ، وهـو مؤمل ، ولكـل بشر ورفعـة مؤهل والسيد المذكور يختص به غاية الاختصاص ، ويشتمل عليه بالبرد والـود والاخلاص .

(ولاية أبي عبد الله بن إبراهيم بغرناطة وبقية أخباره)

إلى أن وصله الأمـر العزيـز بولايـة مدينـة [150] أغـرنـاطـة في العشـر الأواخـر من شعبان من سنـة تنتين وستين فنظر في الحـركة إليهـا مع أصحـابه وحفاظه الواصلين معه من الحضـرة، فخرج إليهـا من اشبيلية في اليـوم الثاني من شهـر رمضان المعـظم من سنة تنتين وستين وخمس مـائـة المؤرخـة وأقـام بـاغرنـاطة واليـاً سعيداً مجتهـداً. ونازل حصن (لبسـة)[1] على قرب من وادي اش[2] وفتحه في نزوله عليه في يومه، ونـزل جميع من كـان فيه في داخله من النصارى وانصرف إلى اغرناطة غازياً، وعرف بالفتح حضرة الأمير الأعـدل أبي يعقوب رضي الله عنه، فراجعه بالشكر على اجتهاده وجهاده واستمـرت إقامتـه باغرناطة والياً إلى شهر جمادى الأولى الموافق لشهر دجنبر العجمي[3] من عـام

(1) لبسة (Labas) تتوسط بين مدينة غرناطة ومدينة وادي آش كما يقول ابن صاحب الصلاة ص 182 وينسب إليها عدد من العلماء. ابن الآبار التكملة رقم 1597 - 1801 .Huici page 231 .

(2) وادي آش (Gaudix): مدينة تقع شمالي مدينة غرناطة قريبة منها تطرد حولها الأنهار والمياه ينحط نهرها من جبل شلير، وهو في شرقها وهي على ضفته.
الروض المعطار ص 192 - 193: شكيب ارسلان: الحلل السندسية أول ص 126 .

(3) جمادى الأولى توافق يناير - يبراير 1169 .

أربعـة وستين وخمس مائـة، ونهض بـالاستـدعـاء الكـريم هـو وجميـع الـولاة بالأندلس والسيدان أبو ابراهيم وأبو اسحق ابراهيم صاحبـا إشبيلية وقـرطبة إلى حضرة مراكش حرسها الله وأقام فيها بقية عام أربعة وستين المؤرخة وأمْهَـر إلى السيد الأعلى أبي حفص أدام الله تأييـده على ابنته، وتمـادت إقامتـه بمراكش إلى أول شهـر ذي القعدة منُ عـام خمسـة وستين، وسـافـر في صحبـة السيـد الأعلى أبي حفص غـازيـاً في الغـزوة المنَصـورة العـظيمـة المـظفـرة إلى ابن مردنيش بمرسية، ثم بعثه السيد المذكور إلى مدينـة بسطة مـع عسكر [151] موفور من الموحدين أعزَّهم الله، ففتح الله على يـديه بسـطة ومهدهـاوانصرف إلى السيـد ظافـراً وأقام معـه في هذه الغـزوة السعيـدة إلى أن انصـرف السيـد الأعلى وانصرف بانصرافه إلى إشبيلية وأمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه كما أجاز إلى الأنـدلس في عام ستةٍ وستين وخمس مائـة واستقر بـإشبيلية في حضرة الخليفة أميـر المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنـه. واغرنـاطة في هـذه المدة كلها تحت حكمه وبيده، فيها رجاله وعياله، وأبو محمـد بن يركـوكان[1] ينظر في أشغال المـوحدين بهـا ويمسك قصبتهـا بهم على أحسن حال، وحين استقراره باشبيلية نهض السيد الأسنى أبو سعيد إلى اغرناطة والياً عليهـا بالأمـر عوضه، ووصل رجاله وعماله منها إلى إشبيليـة. ثم قدمـه أمير المؤمنين رضي الله عنـه على تمْييز الحفـاظ أجمع أول شهـر ربيع الأول من عـام سبعة وستين وخمس مـائـة، وحضـر الغـزوة الكبـرى مـع أميـر المؤمنين إلى وبـذة بـبـلاد النصارى، وحضر غـزوة النصراني الـطاغي أبي بردع المسمى بشـان منوش[2]

(1) لم نهتد للتعريف بابي محمد هذا سيما ولم يرد ذكره عند ابن صاحب الصلاة إلا مرة واحدة، وقد يكون أصل الكلمة (يركان) ويكون من أولاد الشيخ أبي عمران بن موسى بن يركان البيذق ص 109 .

(2) يعرف أحياناً بالقومس الأحدب وأحياناً بأبي بردعة وأحياناً باسم شـان منوش، وقـد كثر الحـديث حـول التعريف بهـذا القائـد، وتحدثت بعض المخطوطات المسيحيـة عن قائـد من قـادة أبلة أيـام الموحدين كان يسمى (Sancho Jimeno) كان لقي مصرعه في كـركوى، ولقب الأحـدب إما أنـه كان كذلك أو من قبيل النبز بالألقاب، ولقب بأبي بردعة لأن له ـ على ما قيل ـ بـردعة من الحـرير منسوجة بالذهب مكللة بأصناف الجوهر. . .

في صحبة السادات والشيخ المرحوم أبي حفص، وناب في هذه الغزوات كلها المناب الحميد والجدّ السعيد ثم لازمته زمانه من الاعتلال طالت به مدة عام ونصف، فتوفي عفى الله عنه ورحمه في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من عام [152] تسعة وستين وخمس مائة، وصلى عليه أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه وشيّع جنازته السادات ودفن بروضة الأمراء خارج باب جهور من إشبيلية وله من السن ستة وثلاثون عاماً، وكان من أحد علية أبناء الجماعة في الرياسة والسياسة، يحفظ القرآن بروايات، و(موطا المهدي)[1]، وعقائده[2]، مع مشاركة في الأدب ومطالعة على كتب التواريخ وهمة عالية في الكتب واقتنائها وانتساخها حتى اجتمعتْ له منها خزانة عظيمة عالية الفنون، إلى ما كان عليه رحمه الله من وقار وهيبة ووفاء لأصحابه في الحضور منهم والغيبة، مع انبساط معهم في طعامه وانعامه عليهم بجمعهم، ومحافظة والتزام للطهارة والصلاة، وبدار لدفع الواجب من الزكاة في حين وجوبها دون تأخير. قال عبد الملك: وكان هذا الشيخ الحسيب الفاضل أبو عبد الله يخرج في بعض أيّام ولايته لغرناطة مع أصحابه الحفاظ النبهاء من الموحدين، أكرمهم الله، وفي خاصية، وينزل على ساقية، بقرب قرية بُزْقر[3]، من نظر غرناطة على ضفة مهر، أحسن من شاد[4] مهر، تحفها

ابن صاحب الصلاة، ص 151 - 317 ـ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب جزء ثان ص 187 ـ ابن خلدون، المجلد السادس ص 500 - 501.

(1) كتاب الموطا الذي صنفه ابن تومرت عبارة عن الأحاديث النبوية التي وردت في موطا مالك بن أنس برواية أبي زكريا يحيى بن عبد الله المخزومي، وذلك بعد حذف معظم الاسْناد منها للاختصار. وقد نشرت موطا المهدي بن تومرت مطبعة بالجزائر سنة 1903، وبالخزانة العامة بالرباط نسختان من هذا الكتاب راجع أيضاً التعليق رقم 1 ص 162.

(2) أنظر التعليق رقم 3 من صفحة 161.

(3) قرية بزقر: من نظر غرناطة، ولم ترد ضمن قُرى غرناطة التي ذكرها ابن الخطيب، كما لم ترد عند (Simonet) في كتابه (Desc. Del Reino de GRANADA) وقد ذكر لي الدكتور (Luis Seco de LUCENA) أن المكان يقصد به غالباً حش البكر (BUCOR)، الذي يقع شمال غربي غرناطة.

انظر الاحاطة في أخبار غرناطة ـ نشر عبد الله عنان صفحة 133.

(4) موضع بنسيابور أم بلاد خراسان. معجم البلدان، مجلد 3 ص 305.

جداول كالصلال، ولا تكاد ترمقها الشمس من تكاثف الظلال فيستريح فيها وقد أُحضر له من الشراب والطعام، ما كفا جملته وآنسهم بفرط الاكرام والانعام، وبسط نفوسهم بتقريبه لهم في ذلك [153] المقام، ثم ينصرفون معه وقد حازوا منه من المجالسة والموانسة خير حُرْمَةٍ وذِمَام، فلما مشى من غرناطة لزيارة أمير المؤمنين ابْن أمير المؤمنين على ما ذكرته خرجت إلى ذلك الموضع متطلّعاً، وشيّقاً إلى من كان فيه بالأمْس مجتمعاً، وتذكرت حسن المعاهدة، والتأنس بتلك المشاهد، فارتجلت[1] فيه: (طويل)

عَهِدْناك ياذَا المنزلَ الرحبَ منْزِلاً ... لسيّدنا بَلْ أفضل العَصْر أجْمَعا
تَحُطُّ بك الآمالُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... ونَشْرَبُ فيك الأنْسَ مثْنَى ومَربَعا
ويحضُرك الأفْضَالُ مدَّة يَوْمِنَا ... فلِلّه ذاك اليَومُ مرأى ومَسْمَعا
فها أنتَ هَذَا اليوم أوْحشُ منْزِلٍ ... رأيْناك بيداءً وقفراً وبلْقَعَا
طمِعْتُ بنَفْسِي أنْ أردَّ دُمُوعَها ... فَمَهْمَا زَجرتُ العَيْن أسبَلَتَا[2] مَعا
وقالتْ: دعِيني أُسْبِل الدَّمْعَ ساعةً ... ففِيه شِفَاءُ القَلْبِ إذْ كَان مُوجعَا
فامهلتُها حتَّى اشتَفَتْ من بُكَائِها ... وناجيتُ رَبّي معلنا ومُسَمِّعا
بأن يَعْطِف الأيام في وَصْلِ مَا مَضَى ... ويرجع لِي الواشِي خَديماً وطيّعا
ويصْبِح مَوْلاي الهُمَامُ مُمَلَّكاً ... بقَصْر ابن باديسٍ[3] صحيحاً مُمتَّعَا

(1) الشعر الوحيد الذي نعرفه ـ في هذا السفر ـ لابن صاحب الصلاة، وقد ذكر أنه كان في جملة من أنشدوا الشعر في جبل طارق وان كان لم يثبته، هذا وقد ساق له ابن عذاري قطعة شعر لا شك أنها كانت ضمن السفر الثالث. البيان المغرب ورقة 108.

(2) فيه التفات إلى قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة (باب النسيب)

بكتْ عيني اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجَهْلِ بعْدَ الحِلمْ أسبلتَا معا

ونبرات باقي القصيدة مأخوذة من قول الصمة أيضاً.

(3) هو باديس بن حبوس صاحب غرناطة سابقاً، وقد كان له بها قصر كان استقر به ـ فيما يظهر ـ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم أيام ولايته لغرناطة وفي أثناء زيارتي لغرناطة أوقفني الأستاذ بيرموديث (BERMUDEZ) مدير اثارها على المكان الذي يظن أنه كان قصر ابن باديس وهو جوار القصبة الحمراء، وبما أنه في منطقةٍ تقرر الآن القيام فيها بحفائر، فإن الأمل ان يعثروا فيها على بقايا هذا القصر...

وكان بعد ذلك رجوعه إلى غرناطة على ما دعوت وزجرت، وانصرف إِليها والياً في سفرة غزوة السيد الأعلى المجاهد المرحوم أبي حفص ابن الخليفة رضي الله عنه في عام خمسة وستين وخمس مائة على ما تقدم في التاريخ في هذا الكتاب. وكان حين وصل مدينة اشبيلية والياً عليها على ما تقدم [154] في التَّاريخ من هذا الكتاب الذكرُ به وشرحُه قد كتب له الكاتب أبو القاسم[1] المواعيني مهنئاً نثراً ونظماً وهو هذا:

مَحَلّ الشَّيخ الأجل، الحَبيب المبارك الأفضل، في ذُرَى السِّيادة، وفروع البركة المَقْرُونةِ بالسَّعادة، محلٌ لا يداني سموه الأسبَق ونُمُوُّه الأبْسَق، وكيف لا وشيخُ الموحدين، وطائفة الحق المهتدين، الأزْهَد الأورع، وعلمهُم الذي لِعِلْمِه النُّورُ الأسْطع، أبو إبراهيم أبوه: أضفى الله عليه ظلاله، وأوْسَع في منازل الزلفى مراتبه وجلالَه، هو قعدُدُه الشَّامخ، ومستنَده البادِخ وحق لكلِّ فائزٍ بدُعائه، أن يُهنأ بما فتح من استدعائه، فكيف ابنُه الأنجب الذي[2] تغيب عنه آثار بركاته ولا تحجب، وقد تعيَّن على كل متيمِّن بتلك المناجح حقها الأوجب. (وافر).

مُحمدُ يابن اسماعِيلَ انتُمْ لهذا الأمْرِ قطب أو عِمَاد
أخُ لبني الخِلافةِ صِنوُ صِدْقٍ ولو سكت الوَرَى نَطَقَ الجَمَادُ
وذُو الحسب الكَريم لَهُ فَعَالٌ يفُوقُ البَحْرَ ان نضبت ثِماد
وذُو الأمَلِ المغرَّب إذْ وليتم أنَاف لَهُ عَلَى الأملِ اعتِمَاد

▪ ابن الخطيب: اعمال الأعلام، ص 230 ـ الاحاطة ص 452.
دائرة المعارف الاسلامية (ثان) ص 267 ثامن 86.
راجع التعليق رقم 2 صفحة 125.

(1) هو محمد بن ابراهيم بن خيرة من أهل قرطبة وسكن اشبيلية يعرف بالمواعيني ويكنى ابا القاسم... وعني بالآداب وكتب للولاة وله تأليف منها الوشاح المفصل، وريعان الشباب وكتاب في الأمثال توفي في نحو السبعين وخمسمائة، ابن الآبار ـ التكملة لكتاب الصلة (نشر كوديرا) رقم 563.

(2) سقطت هنا دون شك كلمة (لا) من النسخة...

وقد احييتُمُ سَنَن المَعَالِي إذَا مَا كان لِلمَجْدِ انْهِمَاد

والسَّلام الأكرم الأدْوم على حضْرة الشيْخ الأجَل الموقر المعظم أبي عبد الله ورحمة الله تَعَالى وبركاتُه. مِنْ ملتزم أمْرِهِم، [155] ومعظم حقّهم رهين شُكْرهم: مُحمّد بن إبراهيم.

الاتفاق على أن يكتب الأمير الرضى أبو يعقوب يوسف بن امير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهما العلامة المباركة هي:

والحمد لله وحده بخط يده[1]، وتنفذ الأوامر العلية ببركتها عن أمره وجده

ولما كمل هذا الاتفاق المبارك من الموحدين ـ أعزهم الله ـ أمر الأمير الرضى بكتب رسالة إلى جميع البلاد بالعدوة والأندلس يأمر فيها بالعدل والنهي عن المنكر وكتب بها أولاً إلى أخيه السيد أبي سعيد وهو مقيم بقرطبة وتاريخها يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وستين وخمس مائة، وهذا نصها؛ وأمره أن يبعث منها نسخاً إلى البلاد. فوصلت نسخة منها إلى اشبيلية وهي هذه وهي أوّل[2] أوامره العالية من إنشاء أبي الحسن بن عياش:

بسم الله الرَّحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدَّهم بمعونته إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد وأصحابه الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله، وأدام كرامتهم بتقواه. سَلامٌ عليكُمْ [156] ورحْمَةُ الله تعالى وبركاتُه، أمَّا بعد فإنا نحمدُ إليكم الله الذِي لا إله إلاَّ هُو،

(1) راجع التعليق رقم 5 ص 78.

(2) رسالة هامة إذ تتضمن المسطرة التي ينبغي على القضاة والحكام أن يسلكوها في الأحوال الجنائية على عهد يوسف. راجع ص 151 من كتاب ابن القطان. نظم الجمان تحقيق الدكتور محمود علي مكي.

ونشكره على آلائِه ونعمِه، ونصلّي على مُحمّد نبيه المصطفى ورسوله، ورَضِي عن الامام المَعْصُوم، المهدي المعلوم، نجله وسليله، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والدَّاعي إلى سَبيله، وانا كتبناه إليكم ـ أكرمكم الله بتقواه وكلأ جانبكم وحماه ـ من حضرة مراكش، حرسها الله، والذي نُوصيكم بِه تَقْوَى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستِعانة به، والتوكُّلُ عليه، وموالاة شُكْره على ما هدى إليه أولياءَ أمْره وأنصار دَعْوَته وحُمَاة كَلِمَتِه من صرْفِ أعِنَّة المحبة والاهْتِمَام، وأحكام مَراير الأحكام فيما وكَّله إلَيْهم من أُمُور الإسْلام، إلى أنْ تَجرِيَ عَلَى السَّدَاد، وتتَّسِق على سَبِيل الرَّشاد وتَسْتَقِيم على المَهِيع، وتمضِي عَلَى المنهج، وتَسِير في الواضح، وتهدِي على اللاَّحب، ويسلك بها في الجَدَد الذي مَن سلكه أحمدت منه الآثار، وأمِن عليه العثار، وارتضى له الايراد والإصدار، فيكون العمل فيها على اليقين الهادِي إلى الصراط المستبين، المأمُون في سلوكه من المزلَّة والضّلال، المرجوّ في الاهتداء بِهِ حُسْن العاقبة وصلاحُ الحَال، فنسأله ـ تَعالى جَدُّه ـ عَوْناً من قبله على هذا الغَرَض العام الجدوى يصاحب، وتَوْفيقاً من لدنه في هذا النظر الشَّامِل المنفعةِ يجاوز ويصاقِب، وإنَّه ـ أَدَام الله [157] كرامتكم ـ لما كانتْ مباني هذا الأمر العزيز ـ أدامه الله على التقوى مُؤَسَّسة، وأوامره ونواهيه على أمْر الله ورسوله جارية مترتبة، واليها في الأخْذِ والتّرْك مستندة، وبمقتضياتِها في جميع الأحكام آخذة عاملة، إذ هِيَ نورُ الحقِّ وسِراجُه، وعَمُود الصّدق ومعراجُه، وسَبِيلُ الفَوْز ومنهاجُه، ورائدُ الثواب وبشيره، وقائدُ العقاب ونذيره، ممَّن ائتمَّ بكتاب الله الذي هو الإمامُ الهادِي، والحق الواضع البادِي، وسنَّة[1] رسوله صلى الله عليه وسلم التي جَعَلَ العَمَل بهَا كالعَمَل

(1) نستشف من الرسالة أن الاعتماد على الكتاب والسنة وحدهما ظل مشغلة الموحدين من الأب الى الابن الى الحفيد، ولا يخفى أن الأمر بتحريق كتب الفرع كان صدر من عبد المؤمن سنة 550 كما يقول صاحب القرطاس، أو من يعقوب المنصور كما يقول صاحب المعجب، ومن خلال هذه العبارة بل ومن ثنايا هذه الرسالة سنرى أن يوسف يهيب بالناس ألا يحكموا «ببادٍ من الرأي أو بما يظهر...».
الاستقصا ثان ص 112.

بكتابه، والوقُوف عند حدِّها كالوقوفِ عند حدِّه، أمِنَ مِن الغَوَايِلِ في العاجِل والآجِل، وبَلَغ من السّلامة في الحالَيْن إلى أقْصى أمَلِ الآمِل، ولم يُوجد للنَّاظر إليه سبيلاً ولم يتمكَّن للشيطان أنْ يجِدَ في تضليله واسْتِهدائِه صرفاً ولا حَوْلاً فتوفّرت الدّواعي على الدُّعَاء اليها، وحَمْل الكافَّةِ عَليْها، وأخذ الجَمِيع بما يقفُهم لدَيْها وقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعالى مَن أمر الناس بِطاعَتِه أن يحكُمُوا بالعَدْل، ويضعوا للعِباد مَوازين القِسْط فلم يكُنْ بُدٌّ من امتثال أمْره، والاستِناد إلى حُكْمِه، وكانت الوُجوه التي تُفْضي إلى الحقِّ في فصْل قَضَايا العِبَاد متنَقِّبة، والطرق المؤدية إلى مَعْنَى الصِّدق ومَعْناه ملتبسة متشعِّبة، فَخرجَ فيها بِنيات تخطِّي الصراط المستقيم وتضل الضَّلال البَعِيد، فَصَارَ [158] إمْضَاؤُها عَنْ غير استِنَاد إلى هَذْا الهدي المتبُوع، والعَلَم المرفوع، خطراً على ممضيها، وانفَاذُها على غيْر هذا السنن غَرراً على منفِّذيها. ولما كان الأمرُ كذلك تعيَّن ووجب، وثَبت وترتَّب، أن نخاطب جميعَ عُمال بلاد الموحدين أعزَّهم الله شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، خطاباً يَتَساوى فيه جميعُهم، ويتوازَى في العمل فيه كافَّتُهم، بالا يحكموا في الدماء حكماً من تِلقائهم، ولا يهريقوها ببادٍ أو برأيٍ من آرائهم، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم، ويتقرَّر فيما يرونه لديهم، إلا بعد أن ترفع إلينا النازلة على وجْهها، وتؤدَّى على كُنْهِها وتشرح حسب ما وقعت عليه، وتنهي بالتوثُّق والبَيان على ما انتهتْ إليه، وتقيّد بالشُّهود العُدُول، المعْرُوفين في مواضِعِهم بالعدل والرضى الموجبَيْن للقَبُول، وتكتَب أقوال المظلومين وحُجَجهم وإقرارهم واعترافُهم، وحجُجُ الطالبين في مقالاتِهم، واستظْهارهم في بيّناتهم، مُعْطي كل جانب حقه، مُوفي كل قائلٍ وقوله، فتكون مخاطبتكم ـ أعزكم الله ـ ومخاطبة مَن يتناوَلُه هذا الكتاب، وتوجَّه إليه هذا القصد، خطابَ من تحمل الشهادة، ويؤدي فيها الأمانة، على ما يجب من البَيان الذِي لا يعتَوره التباس، ولا يطمس وجهه إشكال، ويتوثقون في المطلوبين بالدماء بسجنهم وتَثْقيفِهم، ويتوكَّفون ما تَصِلكم به المخاطبة فتقفون [159] عند مقتضاه، ولا يعدِلون عن شَيء من معناه، مراقباً كلُّ منكم إلاهَه ومولاه، عالماً بأنه يعلم سره ونجواه، وانه يسمعه ويراه،

واعلمـوا ـ وفَّقكم الله وأسعدكم ـ أن هـذا الحكم عامٌ في سـائـر النـوازل التي أُطلقت السنَّـة فيها القتـل وسنَّته، وحكمت بـهِ وشَرَّعتـه، كمن قَتَل نفسـاً وأقرَّ بالقتل، أو شهد العدول عليه به، ومن بَدَّل دِيناً وارتدَّ عنه، ومن أتى الفـاحشة بعد الإحصان باعترافٍ أو دليل أو شهادة مقبـولة، ومـا خُيِّرَ الأيمةُ فيه من قَتْـل المحـاربين والسّـاعين في الأرض بـالفسـاد، والمتـأوِّلين أمْـر الله بـالاسْتهـزاء والعنـاد، سواء سن ذلـك كله، أو وقع فيـه ضرب بشكله، فمجـراه واحـدٌ في التوقف عن إمضائه، والتأخر عن تنفيذه إلَّا بَعْدَ المُطالعة، وتعرُّف وجْـه العمل من المُجَـاوبة، وكـذلكم ـ وفقكم الله ـ يكون التَّـوفيق فيما عَـدَا المـذكـور من النـوازل الَّتي تَكُون أحكـاماً دُون النفـوس من قتل الخـطأ وديات الشجـاج[1]، وعقـول[2] الأعضـاء وأروش[3] الجـراحـات، ووجـه القصـاص، والقـطع في السـرقـات، إلى غيـر ذلـك من القَضَـايـا المشكلة في الأمـوال واطـلاقهـا واسْتِحْقـاقِها، وفي الـرِّقاب وإعْتَـاقِهـا واستـرقـاقهـا، وملتبسـات المنـاكحـات والمعـاملات، ومـا أشبهها من الأمـور التي الإقـدامُ على الحكم فيهـا تهجُّم، والعملُ فيها بغير استِنَادٍ إلى ما يجبُ تسوُّر. فتـوقَّفُوا ـ أعـزَّكم الله ـ عن جميع ما فسّر لكم ولواحقه توقُّفَ السَّاعِي [160] في نَجَاتِه، العَامِلِ لدُنياه وآخـرته، فقـد وَردَ في كِتَاب الله تَعَـالى وسنة رسـوله عليـه السَّلام من الحَـظْر الوَكِيـد، والوعيد الشديد، في إراقَةِ الدِّماء، واسْتباحة الأموال، واستحلال المُحرَّمَـات، إلا بـوجْهٍ صحيـحٍ لا يسلم إلَّا من طريق العصمـة، ولا تهتدي إليـه إلا أنْـوارُ الحِكمـة، ما يَـزَعُ العُقـلاء، ويكف الألبـاء، ويحـذرهم من سـطو الله تعـالى وعقابه، ويخـوفهم من أليم عذَابـه، فعولـوا على مَا رسم في هَـذا الكتاب من التعـريف بمـا يَـطْرأ، وانْهَـاء كـلّ مـا ينْـزل، ليصلَكُم مِنَ التَّـوقيف، والبَيـان والتَّعريف، لما يـظهر لكم بِـهِ بركـة الاقْتِدَاء، وتُشـرق منه عليْكُم أنـوارُ الايتام

(1) الشجاج جمع شِجة: الجراحة في الوجه أو الرأس.
(2) عقـول جمع عقـل بمعنى الديـة تسمية بـالمصدر لأن الابـل كانت تعقـل بفنـاء ولي القتيـل ثم كـثر الاستعمال فأطلق العقل على الدية ابلا كانت أو نقداً.
(3) الارش: دية الجراحة وجمعها أروش وأصله الفساد يقال أرش بين القوم تاريشا إذا أفسد.

والاهْتِداء، ويَتَراءى لَكُم بِهِ الحقُّ في صُوَره الصَّادقة، ومُثُله المُطَابِقَة، ومناظره الموثقة، ومَطالِـعه المُشْرِقة، بفضل الله ورَحْمَتِهِ، ومـلاكُ ما يسـدِّد مقاصـدَكم في جَمِيع أحْوَالكم، ويوجِبُ لكم الرِّضَا في كافَّة أقوالكم وأفْعَالِكُم، تَقْوَى اللهِ في السِّـر والجهر، وخيفتُـه في الباطن والـظاهـر، وقمـع النَّفس عن هَـوَاهـا، وكبحهـا بلجام النَّهي عن الـرَّكْضِ في مَيْدان رداهـا، وطاعـة أمره ـ العـظيم، والجَـري على سننه المستقيم، فـذلك عصمـة مِنَ الزَّلَـل، وتوفيق في القَـوْلِ والعَمَل، بِفَضْل الله، وقد وَجَبَ ـ أكْرمكُم الله ـ لهـذا الكِتَاب بمَـا انْطَوى عَلَيْـهِ من الأغْرَاضِ الشَّامِلة المنْفَعة، العامَّة المَصْلَحَة، أنْ يُعـطَى حَقَّه من الإشـاعة والتَّشْهِيـر، ويَنْهَض مقتضَـاهُ [161] إلى الصَّغِيـر والكَبِيـر، ويُجْمـع النَّـاس لقراءته، وتَلَقِّي مُضَمَّنه، ويساوَى فيه بَيْن الغائب والشَّاهد، والبادِي والحَاضِر، باسماع مَن حَضَـر، ومخاطبـة مَنْ غاب، مِمَّن يَتَعَلَّقُ بنَـظركُمْ، ويدخُـل تحْت عَمَلِكم، فَتَوجَّهُوا بنُسَخٍ مِنْهُ إلى كُلِّ جِهَة مِنْ جِهَاتِكم، وعَمَلٍ من أعْمَالِكُم، لِيَاخذَ الجَمِيعُ بِقِسْطِه من المسرة به وتعرُّفِ بَرَكَتِـه، واسْتِشْعَار عَـائدتِـهِ، وأنْسه بِمَا أمَرَ بِهِ هَذَا الأمْرُ العَزِيز من إفاضَةِ العَدْل، وبَسْطِ الدَّعَة وَالأمْن، وإقامة أمْرِ الله تَعَـالَى عَلَى وَجْهِهِ المُتَعيِّن، وسننِه الـواضـح البيّن إنْ شـاء الله تعـالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كُتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمس مائة.

وامتثل السيد أوامر الكتاب الكريم، ورحل عن قرطبة بعد كمال شهرين من تاريخ الكتاب الواصل إلى مراكش على ما ذكرته[1].

وصل الأمير الأجل الأعدل أبـو يعقوب رضي الله عنـه بأمـره الكريم في هذه الرسالة العلية بالأمر والعدل الأمر الذي بدأه أولاً أبوه الخليفة الرضي أمير المؤمنين رضي الله عنهم في رسـالتـه **المشهـورة** بـالعـدل والنهي عن المنكـر المؤرخة بالسادس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة[2] التي

(1) وذلك صفحة ~~149~~. 219
(2) لم تتضمن الرسائل الموحدية التي نشرها الأستاذ بروفنصـال نص الرسالة المشـار اليها، وكـا ما =

«الرسـالـة المشهـورة»

كثر الحديث عن هذه الرسالة التي تعتبر بمثابة دستورٍ دأب الخلفاء على ترديده وهي في الواقع نموذجٌ لما كانت عليه «الرسائل البرنامج» - كما أسميها - مما يزود به الخلفاء أمراءهم على الأقطار...

وقد حررت هذه الرسالة في الحضرة العليّة (تينملَّل) جنوب المغرب بتاريخ 16 ربيع الأوّل 543 (4 غشت 1148) وهي الرسالة التي جعل عليها الخليفة الموحدي العلامَة بخطّ يده هكذا:



وتتضمن التحذير من المخالفات وترفع شعار المساواة والعدل بين الناس، وتحرم احتكار المراسي واستغلال ظروف المسافرين وتجعل حدّاً لتلاعب البعض بأمر الأسرى، ثم تتخلّص لِتحديد واجبات موزّعي البريد (الرقّاصين)، ما لهم وما عليهم...

«... وتخيَّروا لِرسائلكم إرسالاً، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالاً، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيء والإنصرف ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاف، وارسموا لهم أيّاماً معروفة العدد، معلومة الأمد، لينتهوا إليها إلى مواقف رسائلهم، ويوزّعوها على مسافات مراحلهم، وحذّروهم من تكليف أحدٍ من الناس ولو مثقال ذرة، وأوعدوا من تسبب منهم بمساءة أو مضرة...».

عن التاريخ الدبلوماسي للمغرب
تأليف: د. عبد الهادي التازي
المقدمة ج 2 ص 232-233-234 -
مطبعة فضالة 1406 هـ - 1986 م

كتبها في الحضرة العلية تين ملَّل(1) حين زيارته قبر المهدي رضي الله عنه إلى جميع الطلبة والأشياخ والعمال من الموحدين [162] ببلاد العدوة والأندلس فاقتفى رضي الله عنه في ذلك أثره، وورث أثره، رضي الله عنهم.

(القضاء على تمرد ابن منخفاد في جبال غماره)

وفي سنة ثنتين وستين وخمس مائة(2) تحركت في جبال العدوة فتنة بضلال جهّال من البربر(3) مفسدين ناعقين بالفتنة، وأعظمهم في جبال غمارة(4) المتصلة بسبتة، فإنه نعق فيها مفسد ضال غوى منهم اسمه سبع بن منخفاد(5) الشقي، فإنه شق عصا الطاعة، وفارق الجماعة، وقطع الطريق،

* وجدت أن رسالةً بتاريخ 27 ربيع الأول تشير إلى «الرسالة ذات الوصايا» فأين هي هذه الرسالة التاريخية؟ من الطريف أن نجدها في نظم الجمان (مخطوط) وان تكون هي الرسالة الوحيدة التي ذكرها ابن القطان في كتابه المذكور وقد كانت من تحرير وإنشاء أبي جعفر أحمد بن عطية في تينملل بتاريخ 16 ربيع الأول سنة 543. أنظر ص 150 إلى 167 من كتاب ابن القطان. نظم الجمان. نشر الدكتور محمود علي مكي وهي الرسالة التي ينعتونها بالرسالة المشهورة.

(1) يكتب هنا ابن صاحب الصلاة تين ملل كلمتين، وقد علمت أن الكلمة بربرية، راجع التعليق رقم 1 ص 149.

(2) ابتداء من هذه السنة سنة ثنتين وستين وخمس مائة أخذ ابن صاحب الصلاة يحاول أن يسلك منهج الطبري في سرده للأحداث تحت السنوات.

(3) حول نسب البربر وأصلهم انظر ابن خلدون المجلد السادس طبعة بيروت من صفحة 175 إلى 204 الاستقصا، طبعة البيضاء أول ص 60 - 73: دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثالث (عربي) ص 501: C. YVER.

(4) تقع جبال غمارة في شمال المغرب جنوب تطوان، وتعتبر جبال غمارة من أخصب جبال المغرب ومن الجبال المشهورة، تسكنها قبائل كثيرة من غمارة وبها بسائط كثيرة لا تحصى تستخدم للحرث وكذلك مدُن قديمة وآثار كثيرة تنبيء - كما يحكي صاحب الاستبصار - بأن عمارتها قديمة أزلية. الادريسي ص 170 - الاستبصار 190.

(5) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب جزء ثان ص 185.
Moulieras, le Maroc inconnu Tome I. page 352.

وفرق الفِرَق، وأدخل في قلوب الناس القاطنين بقصر كتامة[1] ونظره الروعَ والفرق، وتفاقم أمره، وتعاظم شره، وامتنع في جبل الكواكب[2] المسامتة للسحاب من غمارة. واستعْجَل فيه بالإذاية. وتمادى على الغواية، في بشر كثير من قبيله، هم من عدم الفهم، كسائمة[3] البُهُم، استصحبْتهم الجهالة والضلالة، وفشى ضرهم، وساء أثرهم فاتفق الرأيُ السَّعيد، والنَّظرُ الموفق الحميد، من الموحدين أعزهم الله، أن يحسموا شرَّ هؤلاء المارقين الناعقين في الجبال، وشواهق الأدغال، فنظروا في تجهيز عسكرٍ مبارك سعيد من الموحدين أعزَّهم الله، تجهز به الشيخ أبو سعيد يخلف بنُ الحسين أكرمه الله إلى بلاد صنهاجة[4] من جهة القلعة[5] [163] حَرَسها الله. وقد كان الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص تقدم قبله بمن كان معه مِنْ عَسَاكر الموحدين أعزهم الله في جهة أخرى من بلادهم المذكورة، فلما عظم شر هذا الشقي سبع بن منخفاد أهلكه الله كما فعل، تحرك الأمير الأجل، الرضى الأفضل، أبو يعقوب بنفسه وعساكره المؤيده، ومعه أخوه صفيُّهُ السيد الأعلى أبو حفص. وأخوهما السيد الأسنى أبو سعيد، رضي الله عن جميعهم، ونهدوا بعساكرهم المنصورة، المظفرة الموفورة إلى جبال غمارة المذكورة، فنازلوا

(1) قصر كتامة: هو الذي يحمل أيضاً اسم قصر صنهاجة أو القصر الكبير وربما عرف بقصر عبد الكريم تسميةً له بأحد أشياخ كتامة الذين بنوا هناك قصراً لأول مرة ويعتقد بعض البحاث أن هذه المدينة كانت قاعدة رومانية لكن المصادر العربية تذكر أنه في القرن الثاني للهجرة أسست بها قبائل كتامة. الاستبصار، نشر سعد زغلول ص 189 - 190. أحمد المكناسي: خريطة المغرب الاركيولوجية تطوان 1961 ص 20. دوكاستري. فرنسا السلسلة الأولى. المجلد 1 ص 174. تعليق 3.

(2) يسميه ابن أبي زرع جبل تيزيران، وهو محرف عن تازاران بمعنى جبل المنظر الجميل، ويسمى جبل الكواكب لأن قممه تناطح النجوم، يرتفع عن سطح البحر بألفي متر.
الأدريسي، نزهة المشتاق ص 64 - ابن أبي زرع 184 - 185 الاستقصا، جزء 2 ص 132.
. Moulieras, Le maroc inconnu Page 160

(3) اقتباس من الرسالة الموحدية الآتية ص 167.

(4) تقع صنهاجة شمال غمارة مجاورة لها. انظر التعليق رقم 1 ص 210.

(5) حول القلاع الموجودة بغمارة. انظر المصدر السابق ص 392 - 393 - 399.

فيها الشقيَّ الغوي سبع بن منخفاد في أعلاها، وأحاطوا على أعدائهم في ذراها، وسبوهم واستأصلوهم، وأخرجوهم عن صياصيهم بجبالهم وأجلوهم، وغزوهم غزواً شافياً وفتح الله لهم أرضهم، وأملكهم عقارهم وعرضهم، وقتلوا الشقيّ، وبلغهم الله في اعدائهم الأمانيا[1]، واتصل لهم وبهم الفتح في جبال صنهاجة بالطوع من أهلها والمتاب، وكان الانصراف من الجميع بالنجح وحسن الانقلاب، وسعيد الاياب. ولما كان الإياب من هذه الغزوة المُظفَّرة المذكورة أمر الأمير الأجل، الرضي الأعدل، بإعلام الفتح بها بهذه الرسالة، وخاطب جميع الموحدين والطلبة الأشياخ ببلاد العدوة والأندلس بكيفية الغزوة والفتح الشامل، الآتي بكُنْه أمل الآمل، ومقتل الشقيّ الغوي [164] سبع بن منخفاد الغماري وصَلْبه وهي من إنشاء[2] أبي الحسين بن عياش:

بِسْم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً والحمد لله وحده.

من الأمير يُوسف بن أمير المؤمنين أيَّدهم الله بنصْره وأمدَّهم بمعونته، إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة، أمدهم الله بتوفيقه، ووصل كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، أما بعد فإنا نحمَدُ الله الذي لا إله إلاَّ هُو إليكم، ونشكره على آلائه ونعمه، ونمتري بالمحافظة على ذلك سَنِيَّ عَطَاياه وجزيلَ قَسمه، ونعترف لَهُ بعوارفه الجميلة في إظهار أمره العزيز واعلاء قدمه، ونصْر لوائه في كل مقام ورفع عَلَمِه، وإن له مع كل متعرّض بالمحادة والشقاق، مُنْطَو على المداجاة والنفاق، من وَشيك أخذِه، وعاجِل نقمه، ما يُوطِّئه ممتطَّ أنْفه ومُمتدّ قِمَمه، ويقف به مما جَنَى من ثَمَرة غَرْسِه، وجنى بعَمَله الذَّمِيم على

(1) كذا في الأصل باثبات الألف.

(2) من أطول الرسائل الموحدية وأدقّها وصفاً، وهي سجل لتاريخ حوادث غمارة، تقع في خمس عشرة صفحة.

نفسِه ، مواقف حيرته ونَدَمِه ، كما أن مَن صَدَق في الاعتِلاقِ بَحَبْله والتمسُّك بِعصَمه ، وركَن إلى ذراه وآوى الى حرَمه ، فقد أخذ بالوثيقِ من عُهُود ذِمِمه ، وارْتقى في مرتقى فوزه في سَبَبِه المتين وسَلَّمه ، ونصلي على محمد رسوله ونبيّه الذي ابتعثه ببَاهر حكمه ، ومعجز كلمه ، فهدى الى نَهْجِ الحق وأممه ، ودلَّ على سَمْته وَلُقَمِه، وأنارَ برسالته [165] الجَامِعَة ما غطّى من غَيَاهب الضّلال وظلمه ، وأبلغها حنيفيةً سمْحةً الى عرب الأنام وعَجَمِه ، وتسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، شافي الدِّين من وَصَبه وألمه ، ومُبريه من عِدَدِ ذَائه وسَقَمِه ، وهادي كلّ حائر وسادم من حيْرته وسَدمه ، وتُوالي الدّعا لسيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين بمحكم ذلكم المبدأ الشريف ومبرمه، وضامّ شمله ومنتظمه ، ومكمله بما يَجبُ ومتممه ومنهى دعوته العالية إلى نجد العَالم وتِهَمه ، وواسع البَرايا بِعلمه وحلمه وكَرَمِه . والحمدُ لله عوداً بَعْد بَدء ، مولى أوليائه ما وعَدَهم من نَصْر وتأييد ، ومَولاهُم على الظّهور والاستيلاء ، في القرِيب والبعيد ، ومُؤويهم من مظاهرتِه الى الوزر المنيع ، والركْن الشَّديد ، حمداً ينال به من مواهبه كلّ خير عتيد ، ويُوفي على استعدَاد المستمِدّ ،واستزادة المستزيد ،وله الشكر على أن لم يَزَل ينهض حماة أمْره العزيز متَى حاولوا فَصْلَ قضية ، ونَهَضُوا في سَدَاد ثَغْر وسَدَاد رعية ، بعَزْمٍ لا يطرف طرفه بَذْء ، ولا يثْني يده يدُ مَشُوبَة ، تعريفاً بما لأمره العزيز الذي هو ذخيرة الوجود ، وسر البِنَاء المَقْصُود ، ومعْنَى المَقَام المَحْمُود ، ومفهوم الخَبَر المنتظر ، والوعْد الموعود ، والذي علم به التوْحيد والإيمان ، وعُرف منه العَدْل والأمَان ، وتَعلَّم من تعليمه في أي جانب الربح ، وفي أي جانب الخسران من الفلح ، [166] في كل مقام ، والظَّفَر بكلّ مَرام ، والتَّوفيق الى ما يعود بالانتظام والالتئام ، وحِفظ دِينَه من عَيْث المهج الطغَام ، وحماية سَرحه من ضُعَفاء العقول ، وسُفهاء الأحلام ، مِمَّن دَان بدِينه ، واستَبْصَر بيقينِه ، وأسرى بضَوءه ، واسْتَسقى بِنَوءه ، فقد فاز قِدْحه ، وأورى قَدحه ، واهتدى قايده ودليله ، وانتفَع صداه وابتل عَلِيلُه ، ومن ألْحد في آياته ، وكذَّب ببراهينه وبيناته ، فإلى التَّباب مثالُه ، وفي الخَيْبة

والخسار حالُه ، ومقالُه وفعالُه ، أعانَكُم الله على القيام بما له من واجب الحق ، ووهبكم الإقبال على قبول ما جاء به من الصدق ، بمنه ، وإنا كتبناه اليكم ، كتب الله لكم يسراً ونجحا ، وأسمعكم مدى الأيام نصراً لأولياء أمره العزيز فتحاً ـ من منزل الموحدين أعزهم الله بداخل جبل الكواكب ، والذي نُوصيكم به تقوى الله ، والعمل بطاعته ، والإستعانة به ، والتوكل عليه ، وقد كنَّا ، ـ وفقكم الله الى ما يرضاه ، وأسبغ عليكم نعماه ورحماه ـ بما لله علينا من عهد القيام بحقوق هذا الأمر العزيز ، والحياطة لأرجائه ، والذبّ عن جوانبه ، وتجْدِيد العناية لتصفية مشارعه من الأقْذَاء، وتحلية المحوِّمين عليها من أهْل الأهواء ، والقصد لما يراه من تَذْكير الغافل ، وتَبْصير الجاهل، وإقالة العاثر ، وهدَاية الحائر ، ـ توجَّهْنا لها بالحركة المباركة بنيةٍ خلص لله عقدها وصفا له ـ تعالى جَدُّه ـ مقصدها ، وارتبط [167] للجِهاد في سبيله ميثاقها المذكور وعَهْدُها ، وانبنت على حَسْم الأدْواء النَّازِلَة بهذا المغرب من هذه الفرق التي فارقت الجماعة ، فتفرقتْ بها السبُل والأهواء ، ورمتْ بها في مساقط الفتن الأفئدة الهَوَاء ، واستَولى عليها بعمى البصائر والأبصار التلدُّد والالتواء ، فظلَّت من عدم الفهم ، كسائمة البهم ، بشراً بدداً ، لا تميز من غَيٍّ رشْداً ولما صَدَقت لها العزائم وشدَّت اليها الحيازيم ، ووقَع عَلَى قَصْدها التَّعويل والتصميم ، قايسْنَا بين جهة المرتدين من صنهاجة وغمارة ، فرأينا غمارة ، أو في سراية ، وأبلغ نكاية ، وأفصَح عن استصحاب الجهالة والغَوَاية ، وأنَّهم قد فشا ضرُّهم ، وساء أثَرَهُم ، وتعدَّى أذاهم ، وسَرَتْ عَدْواهم ، وأنَّهم أوْلى من تُقدم إليهم واعتُزم عليه ، فنظرنا عِنْدَ ذلكم في تجْهِيز عسْكرٍ مبارك سعيد من الموحدين أعزَّهم الله صحبةَ الشَّيخ أبي سعيد يخلف بن الحسين ، أكْرمَه الله بتَقْوَاه ، يتوجه به إلى بلاد صنهاجة من جهة القلعة حرسها الله وكان الشيخ الأجل أبو حفص ـ أدام الله كرامته ـ بمَن معه من عساكر الموحدين ـ أعزهم الله ـ في جهة أخْرى من بلادهم ورسم لهم من العمل في تِلْك الجهَات ما يُدْرج في طيه بمشيئة الله تعالى من النصر والفتح ، والفلح والنجح، استخرنا الله تعالى على قصد بلاد غمارة لتوقل جبالهم ،

ودَوْس [168] منازلهم وحلالهم وجَوْس خلالَ دِيـارهم ، فنزلْنـا بالمـوحدين - أعزَّهم الله وسط بلادهم، فأجْلَى منه الذين يلونه لائذين بالأوعار، مستعصمـين بفنن الأحجار ، متوقّلين في الشِّعاب . وكنَّا عندَ وُصولنـا الى أوائل بـلادهم ، قدَّمنا اليهم من المكـاتبة مـا رجونـا به هـدايتَهم ، وأملنا فيـه فَيْئَتَهم الى الحَقّ وإنابتهم ، فلَمْ يعرجوا على نصيحة ، ولا أذعنوا لدَعوة ، ولا أرعوا سمْعـاً الى موعظة ، وحين قامتِ الحجة علَيْهم ، وسقط العذر عنهم ، استخرْنـا الله على قصْد الجَبَل المَعْرُوف بودَكه[1] لاحتلال مَن كان احتله من غمارة ، واثقين بـأنه عصمتهم المنجية ، وذروتهم المؤوية ، فتـركنا الحمـولة والأثقـال في المنزل الذي كنَّا فيه وهو المعروف بالمنزان[2] ، وسِرنـا اليهم بالمـوحدين أعـزهم الله متوكلين على الله تعالى ، مستعينين به ، مخلصين له ، فأجْرَى الله أوليـاءه من النصـر والتمكين ، على ما عـوَّدهم ، وعرفهم من عـونـه وإنْجَاده مـا لَمْ يـزل بعرفهم ، فاقتحموا عليهم في منعاتهم ، ودخلوا اليهم في موضع اعْتِصامهم ، فلم يكن إلا كلا ولا[3]، حتى خلصوا في الجبل إليهم ، واقتحموه - بحمد الله تعالى ومشيئته - في جملة واحدة عليهم ، فأُشْرب المرتدون ارتياعـاً ، وتفرَّقـوا

(1) جبل ودكة: يقع شمال بني زروال، ويرتفع عن سطح البحر بثمانمائة متر، تبلغ مساحة غـابته ثمانمائة ألف هكتار. تنبـع به عيـون عديـدة وتسكنه مختلف الـوحوش تكتسي قمتـه بالثلوج طيلة الشتاء، وتوجـد بالجبـل شعبة يخـرج من أسفلها دخـان يفسره العِلم بـأنه من آثـار بركـان غير أن السكان ينسبون ذلك الدخان إلى قبر ملكٍ خان شاباً في زوجه فهو يحترق داخل قبره.
Mouliers: Le maroc inconnu Page 67 - 68 - 75 - 89.
محمد البشير الفاسي الفهري: قبيلة بني زروال: نشر المركز الجامعي للبحث العلمي التابع لكلية الآداب الجزء الثاني والعشرون 1962 صفحة 15 - 16 - 17.
(2) المنزان، لم نهتد إلى تحقيقه من خلال كتب الجغرافية القدامى، ولا يوجد له ذكر عند مولييراس.
(3) يقصد: كالنطق بهما كنايةً عن السرعة، أي ما دخلوا معتصمهم حتى وصلوا إليهم في الجبل واقتحموه عليهم، وقد استعملها مهيار في قوله:

يـا مَـنْ رَأى بِـالـلِّوَى بُـرَيْـقـاً تَـقْـدح نِـيـرانَـه الجـنـوب
كَـلَا ولَا بـيْـنـهـا تـراه يـطلع أبْـصـرتـه يَـغـيـب

وفي قوله:

كَـيْـفَ رَأيْـتَ الإبـلا خَـوَاطـفـاً كَـلَا وَلا!

وَكذا الحريري في أواسط المقامة التاسعة والثلاثين بقوله «فلم يكن إلَّا كلا ولَا حتى برز» . . .

في تلك الأعـار شَعَـاعـاً ، لم تمنعهم حصـونُهم ولم تنفعهم معـاقلُهم الى أن استولى الموحِّدون أعزَّهُم [169] الله بأعْلَى كلمةِ الحقّ ، وأقبَلوا على جَمْـع الأنفـال ، وضمّ الغنـائم والأمـوال ، وتسنَّى فيـه من الفتح الميسَّـر ، والنَّصـر المؤزر ، وغزوا من غلَب عليه الشَّقاء واسْتَولى عليـه الحرمـان ، إلى ما نفلهم الله فيـه من الغَنائم الكثيـرة ، والأرزاق الواسِعـة ، مـا عـظُم مقـدارُه ، وجلت مواقعُه وآثاره ، وبشر بأنَّ الذي يتلوه ممَّـا في ضمن الوعـد ، وكفالـة السعد ، أبهى مـطلعاً وآنق مَـرْأى ومَسْمَعا ، وأقـام الموحـدون أعزَّهُم الله بـأعلى ذلـك الجَبَـل يومين يتقرَّون بقايـاهُم ، ويتتبَّعُـون قـلالهم ، ويجمعـون أسْلابهم ، وينكؤون فيهم متنسمين من عـوائـدِ الله الجَمِيلة نَـواسم تَكْميـل الفتـح ، ومستـروحين منها استـرواح تعميم النصر ، واثقين بـه ومستندين اليـه ، لا رَبَّ غيـرُه . وكان ذلـك كلُّه في الثالث من شهْـر رمضان المعـظم من سنة اثنتين[1] وستين وخمس مائة ، ولم نزل - بعدما فتح الله من هذا الفتح المذكور ، الذي أظهر الله فيه آياته المؤذنة بالتأييد ، القاضية بـاسْتِمرار النَّصْر الراهن العتيـد ، المـوقظة للنَّـائمين ، والمنَّبهة للغـافلين - نَسْتأنِي بـالضَّالين من غمـارة مواقيت اعْتبارِهم ، ومحالَّ تثبُّتهم وادكـارهم ، وإن يأخـذوا التحوُّب أمثـالها ، وتـرقب اختلالها ، أهْبَة حذَرهم واستشعارهم ، وأن يكونوا ممن اتَّعظَ بغَيْرهم ، فكانوا بنَجْـوَة [170] من سبلهم في الهلكـة ، وآثـارُهم مـع مـا آثـرنـاه من راحـة المـوحدين وأجمـاعهم ، وتفـرغهم لـوظـايف صيـامِهم وقيـامهم ، وأن يكـون غزوُهم بعد الفطر على قوة ووفرة ، ونشاط متمكن ، وتَنْتقل بهم مناقـلَ تَتخلَّلُ بهم تِلْك الأوعـار بالـرِّفق والهُـوَيْنَى ، وتتـدرَّجُ الى قـطعهـا وتَخْلِيقهـا بـالتؤدة والأنـاة ، وتتقدم الى حيْثُ ألْقَى الشيـطانُ بركـه وحطَّ رحله . وفي أثناء ذلـك كانت قبائلُ منْهم تُظْهِرُ المَتَاب ، وتبدي الفيئة والإيـاب ، وتلوُذ بأكناف العفـو ، وتستمسك بأسباب الصفح ، وتمدُّ يد الضراعة الي الاستقالة ، فنقابلهم بعوائد

(1) ترى أن الرسالة الرسمية تذكر سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وهو ما ينقله ابن عذاري وابن أبي زرع وابن خلدون، ويذكر صاحب الاستقصا أن تلك تم سنة 561 ولا ندري مصدره في ذلك. البيان المغرب صفحة 27 ـ القرطاس ثان 185 ـ العبر سادس 498.

هذا الأمر العزيز من إقالة العثرة ، وتجاوز الزلة والسقطة ، وتقريب الأسباب المؤدية الى الاستيلاف ، الآخذة بالأيدي بالتلافي عن مقاحم التّلاف . قد حلَّ منهم قبائل كثيرة في هذا الأمر العزيز ، وتداركهم من رحمته ما أمَّن خوفهم ، ومكن أمنهم ، وكان بنونال (1) وبَنُوبَال من قبائل غمارة المختصون بملكة الجبل المشهور بالمنعة ، المعروف بجبل الكواكب الذي هو أشْهَرُها جبلًا ، وأوعرُها مَرْقَى ، قد استحكم فيهم الفساد ، وتمكن منهم الارتداد واستَشْرى ذلك فيهم بغويٍّ منهم يعرف بسُبَيع بن مُنْخفاد ، أشرب وتمكن منه الإرتداد ، قلبُه وخالط إيثار السَّورة نفسه ، ثقةً بهذا الجَبَل الصعْب المَوَالِج ، المُبْهَم المَنَاهج المستغلق المداخِل والمخَارج ، الذي زَاحَم بمنكِبهِ [171] وتَطاول بأنْفِه ، فلمنكِبه العمم الذي لا يُفرع ، ولأنفه الشّمم الذي لا يُقْرع ولا يُقدع ، قد أغْواه هو واخْوتُه ، ولفَّ قومه مَن يليهم ، واستهوَوْا على مقاصدهم الغوية مُماميلهم ومُحاليفهم وحسبوا أن ما اعتصمُوا به يعصمهم ، وما امتنعوا به يمنعهم ، وأن باب الحوادث عنْهُم نَاب ، وطرْف الحوادث في محالّ التوصُّل اليهم كاب ، فلجُوا في طُغْيَانِهم ، واستمروا على غلوائِهم ، وقَرعوا مع ذلك أبواب المماكرة ، وسلكوا في سُبُل المُخَادعة . ولما تحققوا دُنُوَّنا إلَيْهم ومزاحمتَنا لهم ، أقبلوا يخلطون بالكدَر الصَّفْو ، ويُسرون في الارتغاء الحسْو ، ويتصفون في أقوال يمرون بها حبْل المُطَاولة ، ويرفعون بها أسْبَاب المراوغة ، ليحوزوا بها مأمولهم من الاسْتِبداد ، وغرضهم من الامتِراء بأقوال لا محصول لها ولا فائدة وراءها ، مكشوف فيها سرّهم ، متبيّن فيها مكرُهم ، ويظنُّون أن ذَلك يُقنع منهم ، ويصْرف عِنان العزيمة عنْهُم ، وما عَلِمُوا أن هذا الأمر العزيز لا يجوز على نقْدِه الزَّائف ، ولا يستقر على تقويم

(1) نال (بالنون) ويال (بالياء) أخوان من غمارة، تفرع يال إلى بني زيات وبني سلمان وبني منصور،.. وتفرغ نال إلى بني خالد وبني رزين.. وإلى نال ينتسب أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد الغماري النالي المتوفى سنة 951.
ابن القاضي: الجذوة صفحة 261 ـ محمد العربي الفاسي: مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، الكتاني: السلوة أول صفحة 111.

عدْله الجَاير الحَايف ، وأنه على ثقةٍ من الله تعالى بعقب الأيام ، وتيسر المرام ، وتوفيق النقض والإبرام، وإن من اضطَمر فيه على خَبِيئة ضَغَن ، أو انطوى فيه على كنِينة غش ، فالعصمة له من كلّ ذلك واقِية ، والعزة له دايمة باقية ، ومما أعملوه من حِيَل المخاتلة [172] أن سَعَى فِي الوصُول إلينا جملةٌ من أشياخهم مع أخٍ لغَويِّهم ، وموقد نارهم يعرف بعمران بن منخفاد(1) ، فوصلوا على تأمين يسر لهم مدركه ، وسُهِّل عليهم مسلَكُهُ ، فلقوا من التَّطمين والتسكين ، والتأنيس والتأمين ، وقبول التوبة ، والإغضاء عما فرط من الحوبة ، ما يعقل العقول بعقل وفائها ، ويوفِّر على الغرائر ماءَ حَيائها ، وعُرفِوا بما لهذا الأمر العزيز من إرادة الخَيْر التام ، والبر الشامل العام ، وأن يكون نهجُ البرية قاصداً ، وداعيهم الى النَّجاة والحياة واحداً ، لا تتفرَّقُ بهمُ السُّبل ، ولا تتطَّرق بهم الى بُنْياتها الطُّرق ، وضمَنوا عن مَن وَرَاءَهم من غويِّهم الشقي وأتباعه السلوك على مَدَارجهم ، والجري على مناهجهم ، وأنهم يقتادونهم بزمام الارتجاع ، الى الانقياد والانطباع ، فمضوا على ذلك ، وقد حَسُن فيهم التأويل، والظن الجميل، وعزائمهم على النكث مبْنِيةٌ، وضلُوعُهم على الغَدْر مطوية مَحْنية ، وكان انفصالُهم عَلَى أن يحضروا هُم وجميعُ من ورَاهُم من تابعٍ ومتبوع معنًا عيد الفطر بالمحَلاَّت المنصورة ، فكان وعدُهم كِذباً وبرقهم خلّباً، وانكشف بعد ذلك في الغَدْر قناعهم ، وأبدتْ ما تكنه من العداوة جوانحهم وضلاعهم ، واتَّضح عندنا ما كانت تمتدُّ اليه آمالهم ، وتُسرع نحوه أطماعهم . وعند ذلك ، في توجيه [173] الموحدين الى جهاتهم الجدّ ، ولم يك لنا من فَصْلِ هذه القضية فيهم بُدّ . فاستخْرنا الله على أن وجَّهنا لغزْوهم أخوينا أبا حفص وأبا سعيد ابني سيدنا أمير المؤمنين ـ أدام الله علاهم ـ مَعَ الموحدين ـ أعزهم الله ـ ، وسألناه جلّ وعلا أن ينجز لأوليائه ما وعدهم ، ويجويهم من الظَّفر باعدائهم على ما

(1) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر عمران بن منخفاد وتختله. القرطاس ثاني صفحة 185 ـ ابن خلدون سادس: 498 - 580 ـ الاستقصا ثان 132.

عوَّدهم ، وتوافقْنا مَعَهُم على الارتقاء اليهم لـذلكَ البـاذِخ الشاهِق ، والشَّـامخ السَّامق ، والمرتدُّون قد وثقوا به ، وبـرؤوا من حول الله وقـوته اليـه ، وأودعوه مع نُفُوسهم جملة أهْليهم وأمْـوالهم ، وبنَوا منـه - بما بَـدَا من أحْوالهم - أنَّهم يَجدُون في المُجَاولة ويصدقون في المكافحة ، ولا يبغون جهـداً في المكاثـرة والمكـابـرة ، كـاشفين قنـاعَ المبـاداة ، مُبْـدين صفحـة المعـاداة ، فـأجمـع الموحدون - أعزهم الله - أمره ، واخْلَصُوا الله سرَّهم وجهـرهم لا يجعلون ملجأ سنَدٍ ، الى كثرة عدد وعدد ، بَـلْ فوَّضُـوا أمرهم الى الله تعـالى الذي عـودهم الفتـح وعـوّدهم النَّصـر ، فـأنهـدنـاهم اليهم يـوم الأثنين الخـامس من شـوال يسلكـون اليهم في مسالـك حـرجـة ، لا يسلكهـا السـالـك إلى[1] بَيْن غَيْضَـة وحَـرَجَة ، قـد التفَّتْ بشعرائهـا ، واحتفَّت بشَجْرائهـا ، ذات حَـدَبٍ وآكـام ، لاثباتَ فيها للحـوافِر ولا لـلأقدام ، فـاتصل مشيُهم على مـا أخذوا من أهبَتِهم وأعـدُّوه من عدَّتهم وكتَّبـوه من كتائبهم ، ورتَّبـوه من رتبهم ، في هـذا السَّفـح [174] الموصوف ، والمرتدون قد أخذُوا عَلَيهم أعاليه ، وارتكبُـوا دونهم قُنَّته سادين لانقابه ، مُعَوّلين لمَسَالِكه مُخَلِّقين لـلانصبا[2] من ذُرَاه ، والانقضـاض من عُـلاه ، واستمر بـالموحـدين أعلاهم الله اليُـسْـر ونهضت بهم العَزيمـة ، واستقـل بهم التَّصْميم ، والتوكـل يقُـودهم ، والثِّقَـةُ بـالله تحـدوهم ، إلى أن شَـارفوا حـدَّ التسنُّم ، وأفْضُـوا الى بـاب التـوقـل ، وهنـاك تَقفُ الأقـدام عن الإقدام ، وقد اضطروا الى أوغار لا تمكن من تَرقِّيها ، ومقابلة أعداء لا يدري كيف تَـوقِّيهـا ، ومشـاهـدة أحْـوال على الجملة لا عَهْـدَ بتلقِّيهــا ، والأعـداء يتربصون بهم وقوعهم في مثل هذه الحال ، وحصولهم في مثل هـذا المقام ، ويرون أنَّهم بما حَازُوه من عُلوّ مكانِهم ، واستحقُّـوه من ذَوْرة وعرهم ، وأمَّلوه من التصـوب على مَنْ مدَّ اليهم يـدَ مُحَاولـة ، أورام منهم يَسِير مُنَاولة ، أنَّهم رابحـو الصفقة ، مُـرْتفقوا الخـطَّة ، ولله تَعـالـى من العنايـة بأمْره مـا يسهـل

(1) هكذا في الأصل والصواب الا .
(2) هنا كلمة لم نهتد لتحقيقها ويشبه أن تكون : «للانصباب» .

الصَّعب، ويذلّل الوَعْر ، ويلين الشـديد ، ويقـرّبُ البعيد ، ولمـا انتهى الأمر الى هذا المَوْقف ، ووصل الى هذا الموصول ، ورأوا صدقَ العزيمـة ، ومضا الصـريمة ، في الصُّعُـودِ إليهم ، والتَّرقي نحـوهم ، غير مترقب مكرهم ، ولا متخـوّف وعدهم ، جهـَد الأعداء في اللقـاء جهدهم ، وبـذلوا من المكـافحـة جميعَ ما عِنْدَهم ، ولم يُبقوا نكاية إلا أيدوها ، وَلا غايةً إلا استوفوها ، من كلِّ [175] فَنّ وعلى كـلِّ وجـه ، فـأفرغ الله على أوليـائـه الصبـر ، ومكَّن لهم العزم ، وثبت أقدامهم ، وربط على قلوبهم ، وحرَّف الفشل والـرُّعب عنهم ، وأيدهم بروحٍ منه أوطَاهُم بـه ، مَسَالِـكَ بَعِيدٌ في العـادةِ أن تَثْبُتَ بهَا قَـدَم، أو تسعى فيهـا رِجْل. وكـان من أغرب الآيـات أن صارت الخَيْـل فيهـا أنفـذ من الرجُل بل من الطَّير ، فأضحَـوا قلائـد في أجْيادِهـا ، وأطْواقـاً في أجْسَادِهـا ، وأهبَّ الله لهم ريح النَّصر ، ومنحهم أكتاف العدو ، وأخذهم الله هنالك أخذاً تنوع فيهم العذاب ، وتيقَّن به فيهم الانتقام ، فمِن بين مضرج بدمـه ، ومرتـدٍ في مـزلَّة قـدَمِـه ، وفـارٍّ الى حيث لا مُعْتَصم ولا ملجـأ ، الى حيثُ لا وزَر ، واستـولى الموحـدون - أعزَّهم الله - على الجَبَـل كلِّه ، واستحقُّوه على أهله ، وضربتْ به خيامُهم، ورُفِعَت في أعلاه أعلامُهم ، واقتفوا أثـر الفارين في كـلِّ شعب ، يقتلونَهم قتـلاً ، ويشلونهم شلاً ، لا نـاصر لهم ولا مـانع منهم ، قـد اسلمتْهم ذنـوبُهم ، وأخلفتهم ظنـونهم ، وافضـوا الى جميـع مـا أعـدوه فيـه معهُم ، وكان في العزَّة عليهم مثل أنفسِهم من حرمهم وفنون أموالهم ، إلى ما كان آوَى اليهم من حُرَم غيرهم وأمْوالهم ، ونفله الله أياهم مغنماً كريماً جليـلاً وعَطاءً جسيماً جزيلاً ، رحمة منْه وفضـلاً ، وإحسانـاً منه وطـولاً . وخلا هـذا الجبـل المذكـور من أهله ، وأضْحَى يبـابـاً بَلقعـاً كـأن لم يَغْنَ بـالأمس عبـرةً للمعتبرين [176] وذكرى للذَّاكرين ، وخاطبـونا - أعـزهُم الله - بهذه البُشْـرى لحين وقوعها ، مبادرين الى ذلك لقُرب المسافة التي كانت بيْنَنَا وبيْنَهم ، فإن مشيَهم الى هذا الغزو وحركتَهم له وتصرفهم فيه ، كان منّا بمرأىٍ ومطلع ، لم ينكتِمْ عن عياننا ، كيف كان ارتقاؤهم اليهم ، وتسنُّمهم نحـوهم ،وعَرَفوا أنهم في اليوم الثاني من هـذا الفتح الكـريم يُوالـون تفتيش زواياهم ؛ والتَّنقيب عن

خَبَاياهم ، ففعلوا ذلك وحَصَلُوا منه ما وجدوه ، وأضافوه الى ما غنموه ، ولم يسمع بعد هذا التعقيب في التنقيب دعاء داع هنالك ولا إجابة مجيب ، وهؤلاء القوم ومَن انضاف إليهم ممن وقعتْ به هذه الواقعَة ودارتْ عليه الدَّائرة ، هم مقدَّمو غمارة ومستتبعوها ، ومُغووها ومضلوها ، وهم كانوا شوكتَها الناكية ، وثورتها التازية[1] ، وكان قطب رحاهم ، ومدير حربهم ، وقائدهم في يومهم ، والذي انتهى اليه عنوانُ أمرهم ، ذلك الغويّ الشقيّ سُبَع بن منخفاد ، وهذا الجبل هو الذي كان أبلقهم الفرد[2] ، الممتنع على من رَامَه ، المستعصب قديماً على من كاده ، فقد استفتح مَمْنُوعه ، وخلَتْ من الظَّالِمين ربُوعه ، وهُدّت ـ بِفَضْلِ الله عزَّ وجلّ ، وبركة هذا الأميرِ العزيز ـ أصُوله وفروعُ ، كان فلهم وقلهم قد انحجزوا الى أحجار لا تستقل بمنعتهم ، ولا تفي بحمايتهم ، وكان هذا الشقيّ [177] المذكور يوم الفتح قدَ فَرَّ بِرَأسِه ، ناجياً من ذلك المأزق بحشاشة نفسه ، وقد استبيح أهله وماله ، فسلك سبيل الانجحار ، وأمعن في زوايا الاختفاء والاستتار ، ولما أتى أمر الله تعالى على هذا الجبل وأهله بما ذكرناه ، تنقَّلنَا بالموحدين ـ اعزهم الله ـ من المنزل الذي منه توجُّههم الى الفتح ، ونزلنا بهم المنزل الذي خاطبناكم منه ، واتَّصل تتبع هذا الفل ، وأخذ المراصِدِ عليهم ، وتمادَى ذلك وكل الجهات المجاورة لهذا الجَبَل المذكور ممن كانتْ أعيُنهم ناظرة . وآذانهم الى ما يقع مصيغة ، قد رغبوا في الإقالة . وأعلنوا في التوبة . وسعوا في إحراز دمائهم وأموالهم ، وتسويغ برد العافية لهم ، وكل من قرع هذا الباب فهو له مفتوح ، ومن استمنحه ، فهو على عوايده مبذول مَمْنُوح . وفي خلال ذلك وافَى من

(1) نكى : قتل وجرح ينكي نكاية وثورة تازية تازت السهام في الرمية: اهتزت فيها، ولعل الصواب: النازية، أي الواثبة.

(2) حصن السموال بن عادياً، وهو مشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب وفيه يقول السموأل:

هو الأبْلَقُ الفرد الذي شاع ذكره يعز على من رامَهُ ويطول

ياقوت، معجم البلدان ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية، أول ص 65.

صُنْع الله الجميل الذي لَمْ يزل يصاحبُ هذا الأمْرَ العزيز في كل مَقام ، ويتكفَّل له في كلّ مبدأ من مبادي ظهوره بأفْضَل خاتمة وأشْرف تمام ، ما جَعَله الله لهذا الفتح العَظِيم كمالاً ، واستوفى به مقاصده العلية استيفاء ، وذلك ان الشقيَّ الغوي لمَّا لم يجدْ نفقاً يُؤويه ، ولا مدخلاً يجنح اليه ، أوى الى بعض تلك الجبال ، واطمأن الى بطانة له من غمارة وثق بإيوائهم له ، واشتمالهم عليه ، مولياً عن أمر الله تعالى ، مكايداً له ، مصمماً على الأعراض عنه ومتربّصاً [178] به من الدوائر ما أوقعه الله به ، فلعناية الله بهذا الأمر العزيز وفق الله تلك البطانة ، وأراهم رشدهم بالتقرُّب الى هذا الأمر العزيز ، والتفادي منه ، والتعدي عن شومه ، والانتزاح عن شرِّه ، وما تحققوا من سوء عاقِبته ، فوثبُوا عَلَيْه واستوْثَقُوا منْهُ ووصلوا به مقتاداً برمته ، مشهراً بفضيحته ، مقلداً بعاره ، آيةً لمن أبصره ، وعبرةً لمن نظره ، ومكن الله الموحدين منه فغزى غَزْواً[1] شفى صدور المؤمنين ، وأقرَّ عُيون الموحدين ، وبتَّ في أعْضَاء المارقين ، وأطفأ الله به نار الفتنة ، وأخمدَ به ضَرَمَها ، فإنه كان الحاطبَ لها والمسعر لوقودها ، وكمل به هذا الفتح العظيم ، والصنع الجسيم ، ومقدار هذا الفتح المصنف والنصر المفنَّن إذا وفر عليه حقُّه وحقّق له قسطه ، وزن بميزانِه ما لاتقوم به أقوال القائلين ، ولا يبلغ حقيقتَه إطنابُ المطنبين ، لأنه جاء من نفحاتِ رحمة الله تعالى التي يُصيب بها مَن يَشاء من عباده ، والحمدُ لله الذي جَعَل أولياءه ممنُوحين من نَفَحاتِه ، وعظيم عنَايَاته ، بما يَعرفهم اختصاصهم بفَضْله ، وتميُّزهم بتأييدِه ونصْرِه ، ولَهُ الحمدُ كثيراً . وعرفناكُم بذلك مشروحاً لتحمدوا لله تعالى علَيه ، وتأخذوا بحظكم منه ، وتعطوه حقَّه من الإشاعةِ ، وتوفوه واجبَه من النشر والإذاعة ، فقد انحسمت به أدواء كانت في حد الإعضال ، [179] وأخمدت نيرانٌ كانت من الفتن في

(1) تذكر بعض المصادر أن رأس سُبَع بن منخفاد حمل إلى مراكش بينما تنقل أخرى أنه حمل إلى فاس، ويظهرُ أن الرواية الثانية نصَّت على فاس باعتبارها كانت الطريق لمراكش.
ابن أبي زرع : القرطاس جزء ثان ص 185.

Moulièras, le maroc inconnu 352.

اصطدام واشتعال ، وستكون آياتُها منبهةً ، وعبرها مذكرة ، يصلح بها الفاسد ، ويستقيم بها المائل ، ونَسألُ الله تعالى أن يوزع شكر آلائه ، وينهض بما حمل من أثقال أمره العزيز وأعبائه ، بفضله وكرمه . والذي نفَّل الله الموحدين أعزَّهم الله من ضروب المغانم والأنفال ، وذلك من البَقَر اثنا عشر ألفاً ، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة ، ومن السبي[1] ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون ، ومن الدوابّ ستمائة وسبعة[2]عشر وهي الآن متصلة متتابعة ، فله الحمد على ما أولَى أولياءه من الخَيْر الواسع ، والنَّصر الكريم المتتابع ، لا رَبَّ غيره ، والسلام العميمُ الكريمُ عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب في الرابع عشر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

وهذه الرسالة كافيةٌ بتاريخ فتنة غمارة والفتح فيها فاقرأها . وكتب السيد الأعلى أبو حفص عن نفسه ، صحبة هذا الكتاب الكريم ، معرفاً بالفتح أيضاً ، الى الشيخ الحَافظ الأجل المرحوم أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما [180] هذه نسختُه :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عمر بن أمير المؤمنين ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم ، أدام الله كرامتَه بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد رسوله وعلى آله ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، والدعا لسيِّدنا أمير المؤمنين ولوليّ عهده الأمير الأجل الملك الأسعد أبي يعقوب بدوام التمكين ، والفتح المبين ، فالكتابُ إليكم ، كتب الله لكم نعماً ثرَّة وأعمالاً برَّة ، ـ من مَنْزل الموحدين أعزّهم الله بجبَل الكواكب ، وفتوحُ الله لأوليائِه متصلةُ النظام ، مؤيَّدة الأعلام ، آخذةً بمجامع الكمال والتمام ، فإنه تبارك وتعالى يسر للموحدين هذه الجبال الصعْبة ،

(1) يعني من الاسرى.

(2) يلاحظ أن ابن صاحب الصلاة هنا يبدأ قراءةَ الاعداد من الأرقام الكبرى، بينما عهدت قراءتها من الأرقام الصغرى حتّى تنسجم مع العادة العربية من البدء بالقراءة من اليمين لليسار: ثلاثمائة وسبعة وعشرون ألفاً، وسبعة وأربعون وستمائة وثلاثة آلاف. . .

والمعاقل الأشِبَة ، التي كان أهلُها قَدْ بطروا وأشروا النِّعمة ، وشقُّوا عصا الجماعة ، وأجابونا عن الفتنة ، فَوصَل الموحدون اليهم واستأنوا بهم آخر الأجل في التَّبْصرة والتذكرة والاستِتَابة ، فكان منهم من راجَعَ الحقَّ وتلافاه الله وأخذ بحجزته عن النَّار ، فاولئك نَجحُوا وأحرزوا أموالهم وعيَالهم ، ومن يهد الله فهو المهتدي ، واستمر سايرهم على اللَّجاج والعناد ، وظنوا أن معاقلهم مانعتهم مِنْ أمْرِ الله ، ومن يُضْلِلِ الله فلن تجد له [181] سبيلاً ، وما زَالَ الموحدون يَسْتزلونهم من هِضابهم ، ويستخرجُونهم من شعابهم ، حتَّى أتوا عليهم قتلاً وسبْياً ، وكان مِنْ آخر ذلك هَذا الجَبَلُ العظيمُ الشان ، المنيف من هذه الأرض على كلّ مكان ، وكان فيه رأسُ غوايتهم ، وعميدُ ضلالتهم سُبَع بن منخفاد الشقّي مدارُ قوْمه ، ألْحَق الله به أمثالَه ، وكان قد ضم اليه أمَّةً عظيمةً من الأشقياء زَاعِمين أنَّهم يَعْتَصِمُون من الموحِّدين فيه ، ولا عاصِمَ مِنْ أمْرِ الله إلا مَن رحمَ ، فاسْتعان الموحدُون بالله وصَمَدوا اليهم وقاتَلُوهم على مَصْعدة قتالاً شديداً أجْهَض الأشقياء عنْه وردَّاهم منه ، وفرَّ الشقي المذكور ، وأفْلت مِنْ ذلك الهَوْل ، وآوَى الى بَعْض قبائل غمَارة ، فشَرَح الله صدُورَهم ببركةِ هَذا الأمر العزيز وسَعْده ، فأخذوا الشقي وجَاءُوا بهِ أسِيراً موثوقاً ، فغزي فيه ورُفع جذعُه ، وعفى أثرُه وكمل أمر الله في هذه الجهة ، وانجلت عنها غَيَابَةُ الكُفْر ، وفاض عليها نُورُ العَدْل وانسكَبَ فيها غمام الإحسان ، والحمدُ لله ربِّ العَالمين ، وهي نِعْمَةٌ عظمى وفتحٌ أعْظَم يَجب أن يُعرَف قَدْرُه ، ويوفي شُكْره ، فخُذوا حظَّكُم من المسرَّةِ بما مَنَح الله إخوانَكم الموحِّدين وخوَّلهم من الخيرات ، وأفاءَ عليهم من المغانِم التي جَلَّ قدرُها ، وعظُم خَطْرها ، حسب ما جرتْ به عوائد الله لِهَذا الأمْرِ وأهْله . جعلنا الله مِمَّن شَكَر [182] نُعْماه ، ونَصَر حِزبه بمنِّه وكَرَمه ، ووصلَ ـ أعزكم الله ـ كتابكم البر ووقفْنا عليه ، وشكرنا اهتبالَكُم ، واستعنَّا الله لكم ، واستوهبناه لكم الكرامة والإمداد بالتوفيق ، فكذلك توالون المُطالعة ، وتستمرون على أعمال الخَيْر والبر ، والله وليُّ عونكم ، والسلامُ الجزيل عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه . كتب في الرابع عَشَر من شوال سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

(منازلة أبي عبد الله بن أبي إبراهيم لحصن لبسة)

وفي أثناء هذه الغزوة المنصورة غزا الشيخ[1] الحافظ الأجل المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم حصن لَبَّسة المتوسط بين مدينة أغرناطة ووادي آش ، وكان هذا الحصن قد أسكن فيه محمد بن مردنيش جملةً ذميمة منكية من أحلافه النصارى أهلكهم الله ، أمرهم ان يفاتِنُوا مِنْه فحص مدينة أغرناطة المذكورة ، يوالوا الإذاية منه عليها ، فكانت شجى في حلقها أذاقتها من الإذاية مر ذَوْقها ، فعزم الشيخ المرحوم في نفسه عزيمةً أعانه الله تعالى عليها وطرق الله بعسكر أغرناطة ورجالها ، ونَازَلَه وفتحه غلبةً على النصارى الطاغين في يومه . [183] وغزا جميع مَن كمن في داخله ، ورفع الله بجهاده واجتهاده عظيمَ عُدوانه ، وهَدَمَه وخرَّبه في ساعة من زَمانه ، وانصرف الى أغرناطة ظاهراً مجاهداً ، ولله تعالى ناصراً ، فأعلم الحضرة العلية بفعله وغزوه وجدِّه ، فجاوبه الأمير الأجل الرضي الأعدل أبو يعقوب رضى الله بهذه الرسالة الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمد رسوله وعلى آله من الأمير يوسفَ بن أمير المؤمنين أيَّدهم الله بنَصْره ، وأمدهم بمعونته ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والطلبة الموحدين باغرناطة ، أكرمهم الله بتقواه ، ووفَّقهُم لما يرضاه ، سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه ، أمَّا بعد : فإنا نحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونِعمه ، ونصلي على محمد نبيّه ورسوله ، ونستَرْضيه عن الإمام المعصوم ، المهدي المَعلوم ، القائم بأمْرِ الله تعالى والداعي الى سبيله ، ونَصِلُ الدُّعاء لخليفة سيِّدنا أميرِ المُؤمنين المنتَهض بتَتْميم أمره تعالى وتكميله ، وكتبناه إليكم - أتمَّ الله نعمتَه عليكم - من حضرة مراكش ، حَرَسها الله ، والذي نُوصيكم به تقوَى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاسْتعانة به

(1) تحت كلمة الشيخ الحافظ يوجد إلحاق بأحرف صغيرة منعبة يشبه أن تكون: «دامت عصمته» أو دعاء من هذا القبيل.

والتوكل عليه وقد وصلت الينا مكاتباتُكم ووقفْنا منها على [184] ما ذكرتُم من اسْتبشاركُم بما منَّ الله تعالى لأولياء أمره من الفتح والنصر ، وبمَا سَنَّاه الله للموحدين هُناك من غزو المجسّمين[1] ، واستنقاذِ ما كانُوا اغتنموه وانتِظام أموركم كلّها على الخَيْر والصلاح ، وتمكّن أسْباب الأمن والدّعة ، والحمد لله على ما مَنَح من صُنعه الكَريم ، وفَضْله العَمِيم ، فجدّدُوا شكْرَ الله تعالى على آلائِه ، وتوكّلُوا عليه واسْتَمرُّوا بالشُّكر المزيد من فضله ، والمعتادَ من رحمتِه ، وهُوَ الكفِيل تعالى بإنجاد أوْليائه ، وإعزاز حزْبه وجنْدِه ، والَّذي ذكرتُمُوه من اخْتِلال أحوال المجسِّمين الشرقِيين وتبدُّد شمْلهم ، فتِلكم عادة الله تعالى فيمَن ناوَى أمرَه وأعْرَضَ عن جَانِبه ، والله يُنْجِزُ فِيهِم وَعْدَه ، لا ربَّ غيرهُ ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله . كتب في التّاسع من ذي الحجة سنة ثنتين وستين وخمس مائة .

ولما انصرف الأميرُ الأجل الأعدل من فتح جبال غُمارة غالباً منصوراً الى حضرة مراكش حرسها الله قال أبو عمر بن حربون قصيدةً حسنة يمدحه ويهنئه على استلائِه على أعدائه وقتْلِه لهم وهيَ هَذِهِ : (كامل)

[185] بَلَجَت[2] بِكُم حُجَجُ ، الكِتَاب المنزَلِ ... ونُصِرتُم نَصْرَ النبي المُرْسَلِ

وجلوتُم غمراتِ كلّ دَجُنَّةٍ ... لو أنَّ صُبْحاً رَاقها لم تَنْجَلِ

وجنبتُم هُوجَ الرِّياحِ جَنَائِبا ... وسَرَيْتُمْ إذْ نامَ لِيْلُ الهواجلِ

وسَحَبْتُم - واللّهُ يشْكُر سَعْيَكُم - ... في عَرْصَةِ الأعداء ذيلَ الجَحْفَلِ

(1) كان المهدي يسمي أصحابه بالموحدين ويسمي خصومه المرابطين بالمجسّمة لأنهم لمّا أخذوا بالعدول عن التأويل للمتشابه من القرآنِ والحديث فقد صاروا - في نظره - مجسمة وهذا كان يغالط في ذلك ويصرح بأن جهاد المرابطين أوجب من جهاد الكفار وتلك سفسطة من المهدي لم تلبث أن تكشفت للناس .
الاستقصا ثان ص 103. راجع صفحة 216.

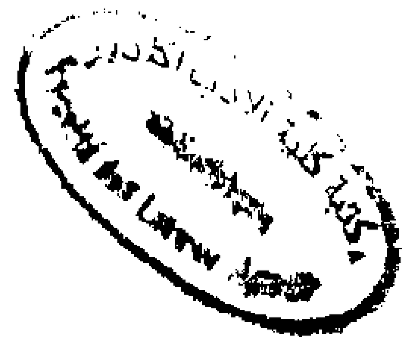
(2) رواها ابنُ عذاري بلقت أو بلغَتْ: البيان المغرب 57.

جيْشٌ يغُصّ بـه مـناديحُ الفَلَى ... فيحارُ مِنْها مُجْهَلٌ في مَجْهَلِ
طـابَتْ لكُم ريحُ الجـلادِ كـأنَّما ... يتعرَّفُون هُناك عَرْفَ المَنْدَل
مـا زلتُم تُقْرُون يَـوْمَ نـزالِها ... بـالصَّبْر أضياف الخُطُوب النُّزَّل
حتَّى تجَلَّتْ في منصَّةِ سَعْدِكم ... عذْرَاء ترفُل في رِداء القَسْطَل(1)
شَنْعَاء إن سَمِع العدوُّ بذِكْرِهَا ... دَبَّ الضراءُ لَهَا دَبيبَ الأقزَل(2)
حتَّى الذِي هو خَلفَ بَحْرٍ زَاخِرٍ ... ستصكُّ مسمَعه بهَذا الأزْمَل
لو تَسْتمدون النُّجُومَ على العِدَى ... جَيْشاً لَمَا دُعِي السِّمَاك بأعْزَل
أورَدْتُموهم للمهنَّدِ لُجَّةً ... جَمَعَت جَواهِرَها بنانُ الصَّيْقَل
لَمَّا أتَى الجبلَ المقدَّسَ مِنكُم ... خرَّتْ لسَطوتِهِ رَوَاسي الأجْبُل
مِنْ كُلِّ مُبَيَّضِ القَذَال كَأنَّمَا ... رَكِبُوا بِهِ مَتْنَ الحِصَانِ الأرحلَ
نَظْم النجوم قلادةً في نَحْرِهِ ... واجتابَ إيراد الغَمَام المُسْبَل
فَرَقِيتُمُ مِنْهَا مَراقي لم تَكَد ... تَرْقَى بِهَا قدم الصَّبا والشَّمْأل
ووطئتُم جَبَلَ الكواكب وطْأةً ... هُدَّتْ لصَعْقَتِها مناكِبُ يَذْبُل(3)
والتاجُ نورُ الله يُشْرِق فوقه ... من عِزَّةِ المُلْكِ الأجلِّ الأفضلِ
[186] فتبرَّأتْ تِلك المعاقِلُ مِنْهُم ... والعَقْلُ لَوْ رُزِقوه أمنعُ مَعْقِل
ما غرَّهُم بخَليفةِ اللهِ الذِي ... مَا لإمْرِىءٍ عَنْ أمْرِه من مَعْدل
ضَرَبَ الشقاءُ وجوهَهُم بضَلالةٍ ... تاهَتْ بِهِم في حَوز لَيْلٍ أليل
واستعجَلُوا أمْر الالاهِ فجاءَهُم ... والوَيْلُ كلّ الويل للمستعجِل
عَجَباً لَهَا من فتنةٍ قد سوَّلت ... لمُطوَّقاتِ الأيكِ صيدَ الأجْدَل
بَطِشَتْ بهم كفُّ الرَّدَى لَمَّا أبَوا ... أن يقبَلُوا عفوَ الصَّفُوح المُفْضِل
وغَدَا غويُّهم برأس مُنيفةٍ ... يَهْوي الى دَرْك الجَحِيمَ الأسفَلَ

(1) القسطل في الأصل الغُبار، ويكنى بها عن الحرب: قال الشنفري:
لئن تبتئس بالشنفري ام قسطل ... لما اغتبطت بالشنفري قبل اطول
(2) القزل: نوع من العرج.
(3) يذبل: جبل في بلاد نجد.

يُمسي ويصُبحُ في ذُؤابَةِ منْبَرٍ ... يَعِظُ العُظَاةَ ومَالَهُ من مِقْوَل
جَاءُوا بهِ بَابَ الرواق(1) يقادُ في ... بُرْد الهَوَان مقادةَ المُسْتَرْذَل
لله كفٌ طوحتْه بضَرْبَةٍ ... رفعَتْه عَنْ سِمَةِ الأخَسّ الأنْذَل
يا ذُلَّ شَقْي الأشقياء وخسرَهُم ... إذ حُلِّئُوا عن وِرْدِ هَذا المَنْهَل
نُورٌ أضاء بمغْربٍ وبمشْرِقٍ ... لَمْ تَعْمَ عَنْه غيرُ عَيْن مضلل
الأمْرُ أمْرُ الله قد حفَّتْ بِهِ ... في اللَّوح أقلامُ القَضَاء الفَيْصَل
صَدَعَ الهُدَى فيه بنصٍّ واضِحٍ ... يُعْشِي سَنَاهُ لواحظَ المتأوِّل
رَضِيَ الإلاهُ عن الإمامِ المصطفَى ... وسقَتْه أخلاف(2) السَّحَاب الهُطَّل
الْقَى لسيِّدِنا الخليفة عِبْئَها(3) ... فَزَع الشجاعِ الى الحُسَام المقصل
وقَضَى لنَجْلِهُم الكريم بحِفْظِها ... حتى إلَى اليَوْم العَمَاس الأهْوَل
فالآن قد هَدأت وقرَّ قرارُها ... عِنْدَ التَّقي الزَّاهِدِ المُتَبَتِّلِ
لم تُصبه الدُّنيا ببهْجَتِها وقد ... جعلَتْ تُغَازِلُهُ بعيني مُغْزِلِ
[187] قرَّتْ بِهِ عَيْنُ الخِلافَةِ إذْ رأت ... قسْطاً سَهَا بيَدِ الإمَام الأعْدَل
إن الخليفةَ إن تأخَّر عَصْرُه ... فقَدِ احْتوَى خلق الزَّمان الأول
شَرْخُ الشَّباب ودَوْلَةٌ قد أقبلتْ ... يا حسنَه من مُقبلٍ في مُقْبل
مُلْك تسحُّ على الوَرَى بَرَكاتُه ... فتعمُّ سائلَها ومَنْ لمْ يَسْألِ
أنَّى تُساجله البُحُور، وإنَّها ... في فَيْض جَدْوَاه كمِثْلِ الجَدْوَلِ
هنِّئت مولانا أبا يَعقُوب مَا ... خولت من فَتْح اغرَّ محجَّل
قلَّدت جيدَ المُلْك منه تَميمَةً ... ما إن يَبيت لَها بلَيْل الأوْجَل
قَدْ جَاءتِ الدُّنيا إلَيْك بوفْرِها(4) ... واستقبَلَتْك بوجْهِهَا المتهلِّلِ
والحضْرة العَلْيَاء يَرْقُبُ طرفُها ... منكم سَنَى البَدْرِ المُنِير الأكْمَل

(1) ويقصد دون شك باب القبة التي نَصَبها «الأميرُ الأعدل» في جبال غمارة.
(2) انواء، ابن عذاري ص 58.
(3) عهده، المصدر السابق.
(4) لم نتبينّ بالضبط هذه الكلمة، ولعلّها: بَوْفرها، أن بوفدْها.



حَصِـر اللِّسَـانُ وتَـاه في أوْصَـافِكُم   فـإليكُمــوهــا عِــذْرة المتحَمِّــلِ

وكان الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين قد توجه بالأمر العزيز أدامه الله ومعه عسكر مبارك من الموحدين أعزهم الله إلى جهة المرتدين من صنهاجة بجهة القلعة على ما تقدم الذِّكر به في الرسالة الكريمة المكتوبة في هذا التاريخ[1].

وكان الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص بمن معه من العسكر من الموحدين أعزهم الله قد تقدم بجهةٍ أخرى من بلاد صنهاجة المذكورين ورسم لهم من العمل ما وُدعوا عليه فنهضوا واجتمعوا وجدُّوا له في غزوهم وسعدوا ، فلما فتح الله جبال غُمارة ، واستُوصلوا سبياً وقتلاً ، وقتل شقيهم الغوي [188] على ما شرح في الرسالة الكريمة ، واتصل خبر ذلك الفتح العظيم بصنهاجة ومن جاورهم من أهل الجبال سُقِط ما في أيديهم ورغبوا بجميعهم ، وتطارحوا على الموحدين أعزهم الله في قبول التوبة ، وتضرعوا في الحَوْبة ، فقبل الشيخ الأجل أبو حفص رغبتهم ، واستقال حوبتهم ، وأعلم الأمر العزيز بذلك ، فصفح عنهم ، فحين انصرف الأمير الرضي الأعدلي إلى مراكش من غمارة انصرف الشيخ الأجل أبو حفص والشيخ أبو سعيد بمن كان معهم من العساكر المؤيدة ، واعلموا بما اتفق من الطوع والمتاب ، وبما كان من الظفر والبشر وحسن المناب ، وعرفوا بطوع المنتزي[2] بحصن أسمار[3] ونزوله عنه ، وتمكين الموحدين اعزهم الله عنه .

(1) راجع صفحة 162 من المن بالإمامة.

(2) كتبت كلمة المنتزي في المخطوط على شكل أوهم الأستاذ ويسي فقرأه: المنتي (Al Munti) وقد ملت إلى قراءته أول الأمر هكذا: «المفتري» على أنه منحدر من أسرة حاميم بن من الله الذي ادعى النبوة في جبال غمارة سنة 313، لكن بعد أن وقفت في (أكسفورد) على نفس المخطوط تأكدت من أنه «المنتزي» أي الواثب المتسلق إلى الحصن المذكور.
الاستبصار ص 191 ـ الاستقصا أول ص 192. Huici page 251.

(3) لم نعثر على تحقيق موقع هذا الحصن بالضبط (Asmar) ولم نجد له ذكراً بين الحصون المتصلة بجبال الكواكب التي ذكرها الادريسي من أمثال حصن مسطاسة، حصن أسلان... ويظهر أن هذا الحصن هو الذي يعْنيه ابن حربون في شعره:

وَلَقَلَّ مَا أعطى مقادَته الذي   أمْسَى سميرَ الفرقدين بسمَّرَا ▪

فقال أبو عمر بن حربون[1] قصيدة حسنة يمدح بها الأمير الأجل الأعدل ويهنئه وهي هذه : (كامل)

وجَدَ النَّسِيمُ ثناءكمْ فتعطَّرَا   ورأى الوشيحُ مضاءكم فتأطَّرا[2]

وتبسمتْ أيامُكُم عَنْ انعُمٍ   سمِعَ الغَمَام بذِكْرها فاسْتَعْبَرا

وجَرَى لَهَا مُلك السَّعادةِ بالَّتي   جَشِمت على كِسْرَى[3] وفلَّتْ قَيْصرا[4]

سلطان وضاحُ الجَبِين متوَّجٌ   بتقى نقيّ الجنْب أشْعَثَ أغْبَرا

[189] والدِّينُ والدُّنيا معاً قد ردَّيا   بردائِه الفاروقَ والإسكَنْدَرَا

جَمَعَ الإلاه بِهِ الوَرَى في وَاحِدٍ   فَتَبَارَكَ الرَّحْمَنُ مَاذَا قَدَّرَا

وأَتَى بِهِ الزَّمَنُ الأخِيرُ مُقَدَّماً   فَكَأنَّمَا الفَلَكُ المُدَارُ تَقَهْقَرَا

ملكٌ تضَعْضَعَتِ الهِضَابُ لبَأسِه   وغَدَا لهُ الزَّمَن العَنُود مسخَّراً

فالطَّودُ لَيْسَ ثباتُه عن جِبْلَةٍ   لكن لهيئتِه أزَمَّ ووقَّرا

لإمامِ عدلٍ بالعبادةِ ناشيءٍ   لم يصْبُ مُذْ عَقَدت يَداه المِئزَرا

فالماءُ لو القى طهارةَ ثَوْبِهِ   في مُزْنَةٍ لغَدَا بها متطهِّراً

يَجْلُو الظَّلامَ بنُور غرَّتِه الَّتي   فضحَتْ أشِعَّتُها الصَّباحَ الأنَورا

ضلَّت مَسَاعي مَعْشرٍ لم يَنصِبُوا   فيهم لدعوتِه العليةِ مِنْبَرا

لما دَعَاهُ الدِّينُ دعوةَ مُرهَقٍ   لَبَّاه منصورَ اللواء مظفَّرا

فاليكَ عن صنهاجةٍ ما قَدْرُها   في مُلك مَن يَغْزُو المسيحَ الأعْورَا[5]

▪ وقد يكونُ أيضاً مقصود ابن عبد الحَكَم حينما يقول:

أما كفتْهم بسمار وتادلةٍ   ومَا وراءَهُما تلك الأفاعيلِ .

انظر ص 189 - 287. Huici page 231.

(1) ابن عذاري في البيان يكنيه بأبي بكر ويذكر أنه حزبون بالزاي... ولا يخفى ما فيه... أنظر التعليق رقم 1 ص 175 ـ ابن عذاري ص 59.

(2) يرويه في البيان المغرب هكذا: الوسيج... فتفطرا. صفحة 59.

(3) كسرى Cosroes لقب لكل ملك من ملوك الفرس.

(4) قيصر Cesar لقب لكل ملك من ملوك الروم.

(5) المسيح الأعور هو الدجال الذي سيظهر في آخر الزمان.

عـادُوا بحِلْمٍ لـو عَـداهُم أصْبَحُوا ... عظةً لمَن سَمِع الحـديث وأبْصَـرا
وتبـرّأت منْـهُم ذُرى هـضبـاتِـهِـم ... وأبَى الحضيض بفلِّهم مُسْتَعْـذِرا
صُمُّوا عن الدَّاعي إلى أن أسْمِعُوا ... لـوقُوعِ بأسِكَ في غُمارة جَرْجَرا
فتقـدَّمُـوا مستسْلِمِين ولَـوْ أبَـوْا ... لم يَسْتَطِيعُوا عنكُمُ متـأخَّـرا
ولقـلَّ مَا أعْـطَى مقادتَـه الـذي ... أمْسَى سمير الفرقدين بسمَّرا[1]
لم يَنْجُ مِنْ سَطْواتِكم إلا امـرؤٌ ... قـد جـاءكم من ذَنْبِه مُسْتَغْفِـرا
أوْلَى لَهُم من بَـأس كـلّ غَضَنْفَـرٍ ... أقْصَى مُنـاه أنْ يَـزُورَ غَضَـنْفَـرا
يَهْـوى اللواء من العَجَاج مُمَسَّكـاً ... والسَّابريُّ من النجيـع مُزَعْفَـرا
[190]وتَـخَـالُ صَـفْـحَـة كـل نَـهْـرٍ مرهـفـاً
وتـودُّ كـلّ قَـضـيـب دَوح أسْـمَـرا
قـوْمٌ إذا سمتِ النُّفـوسُ لـقِنْيَـةٍ ... لـم يقتنـوا إلا قَنـا وسَنَـوَّرا
وَرَمَـوْا بـأنفسِهم مَـرامِيَ غـريـةً ... جَعَلُوا القِسِيَّ لهـا الجيـادَ الضُّمَّـرا
يـا مَن تـواضعَتِ المُلُوكُ لأمْـرِهِ ... وَكَفَى لَهـا عِـزّاً بـذاكَ ومَفْخَـرا
بيَّضْتَ وجـوه[2] الدّين منك بعَزْمَةٍ ... لبِسَ الحُسَـامُ لَهَا الـرِّداءَ الأحْمَرا
تُـلْفِي لَهـا أثـراً بكـلّ تَنُـوفَـةٍ ... وتَـرَى لَهـا في كُـلِّ أفْقٍ عَثْبَرَا
أشبهتَ والـدَك الرِّضَى في هَـدْيِهِ ... فقـرنْتَ بـالغَـزْوِ العُـرَاةِ والقِـرا
لَـوْلا المحبَّـةُ في الجِهَـادِ وأجْـرِهِ ... لَكَفَـاكَ سَعْدُكَ أنْ تجهّـز عَسْكَرا
أبْشِـر فكـلُّ صباح يـوم إنَّمَـا ... يـأتِيـكَ بـالفَتْحِ المُبينِ مُبَشِّـرا
وأصِخْ لـذكـرِ « اليـوسفيـة »[3] إنَّهَا ... مَنعت مَغَانِي الشعب من أن تُذْكَرا
دبَّجْتَهـا من حُسْنِ خلقِكَ جنَّـةً ... وسقيتَهـا مِنْ جُـودِ كفِّـك كوثـرا

(1) يظهر أن المقصود حصن أسمار المتقدم الذكر ص 250 ولعله هو نفس المقصود من (اسمار) راجع التعليق رقم 3 ص 250.
(2) كذا في الأصل، ولعل الصواب (وجه) حتى يستقيم الوزن.
(3) في ابن عذاري: واضح لذكر اليوسفية، لكن ماذا يقصد باليوسفية هل يعني بها مدينة مراكش وتكون النسبة إلى الخليفة نفسه. هذا وتوجد الآن بالمغرب قرية تحمل اسم «اليوسفية» لكنها حديثة.

فـإذا سَقِيطُ الطَلِّ رَفَّ بـزَهْـرِهَـا ... لَقَـطتْ بهَا كفُّ النَّسِيم الجَوْهَرا
لَـوْ أنَّهـا مِمَّـا تقـدَّم عَصْـرُه ... لَقَلَى الوليدُ الجَعْفَـريّ وجَعْفَرا[1]
كـانـتْ كـظهْرِ التُّـرس مَـرْيـاً صَحْصَحـاً
فنسجتَهـا لـلْجين روضاً أخْضَـرا
وتَخيَّـل الخـطِّيُّ حُسْنَ ثِمَـارِهَا ... فغـدا بـرأس دَعِيِّهِم قـدْ أثْمَـرا
جـاءت قـريحتُكُم بكُـلِّ عَجِيبَةٍ
أعْيَتْ عَلَى الألْبَابِ أن تَتَصَوَّرا
فـإذَا الَّـذي أدْركتُمـوه بَـدِيهَةً ... قَـدْ تـاه فيـه الألْمَعِيُّ مُفَكِّـرا
جلَّتْ عُـلالكُم أن يُحاطَ بوصْفِهَا ... حتَّى تَسَاوَى مَنْ أطَالَ وقَصَّرا !
فـاليكُمُـوهـا إن أُعيـرت لحظةً ... خجلت فـاغدقَتِ القِنَاع تَخَفُّـرا
[191] حجَّتْك جاعلةً يمينك رُكْنَها[2] ... وجنابَك الخَضِل المَريع المِشْعَرا[3]

وكـان السيـد الأعلى أبـو حفص رضي الله عنه قـد تحرّك من حضـرة مراكش الى غزوة المنافقين المرتدين بالجبل سنة ثنتين وستين وخمس مائة المؤرخة ففتح الله له شره وقطعه ، وسهل له وعره أجمعه ، وغزا المنافقين المرتدّين وانصرف منصوراً ، سالماً موفوراً .

(1) يعني بالجعفري قصر المتوكل العباسي قرب مدينة سر من رأى، وما تزال الى الآن بعض من أطلاله على ما رأيت، كما انه يعني بجعفر صاحب القصر المذكور الملقب بالمتوكل، أما الوليد فلم أهتد للقصد منه، وربما كان يعني به الصفة لا العلمية أي الطفل الوليد، والشاعر يهدف دون شك إلى القول بأن «اليوسفية» التي دُبِّجت من حسن خلف الخليفة وسقيت من كوثر كفه كانت تخجل مباني الأولين من ملوك بني العباس، ولذلك فإن الفرق بينها وبين تلك المباني واضحة للأطفال بله الرجال الذين يميِّزون . . . فَلَوْ رأى الوليد اليوسفية لأبغض قصور جعفر العباسي. إقرأ صفحة 209.
(2) تلميح الركن اليماني أحد أركان الكعبة، ويذكر أن رجلاً من اليَمَن كان هـو الذي بناه، وانشدوا لبعض أهل اليمن:
لنـا الـركن من بيْتِ الحـرام وراثـة ... بـقيـة مـا أبْقَـى أبَيُّ بـنُ سالم
(3) يعني المشعر الحرام وهو جبل بآخر المزدلفة واسمه قزح.

فقال أبو عمر أحمد بن حربون الشِّلبي المذكور يهنئه على ذلك ويمدحه: (وافر)

بسعدكُم دَنَا الأمَلُ القَصِيُّ   ولولاكُم لَمَا دان العَصِيُّ
هُوَ الفتحُ الَّذي جَلَّى الدَّيَاجِي   وَطَار بِذِكْرِهِ الخَبَرُ الجَلِيُّ
مَلأت الخافقَين[1] بِهِ سُرُوراً   وأنتَ بِمِثْله أبداً مَلِيُّ
فقدْ وَرِيتْ زِنَادُ الدِّين مَنْكُم   بماضي الغَرْب[2] لَيْسَ لَهُ كَفِيُّ :
وقرَّ خليفةُ الرَّحمنِ عيْناً   بِمَا سنَّاه سعْيكم الزَّكيُّ
نضى مِنْكُم لِنَصْر الدِّين سَيفاً   يفدِّيه الحُسَامُ المَشْرِفيُّ
اتيتَ بها مشهرة تهادى   كما برعت منصَّتها الهَدِيُّ
[192] فَقُدَّ من العَجاجِ لَهَا قَمِيصٌ   وصِيغ من الحَديد لَهَا حُلِيُّ
ولم يَبْعُدْ عليك مَدَى مُنِيفٌ   يُحلِّق دُونَ خَبْوته الحنيُّ
قليلُ مَنَابت السَّعَفات أصْغَى   الى الجَوْزاء فهْو لَها نَجِيُّ
سَمَوْتَ الى ذُؤابته بعزْمٍ   بمثل عِرَاره يفري الفَرِيُّ
ولم تَشْغَل بذاك الهَوْل بالاً   كأنَّ رماح عاصِيكم عِصِيُّ !
تبُتُّ وقد تخاذل كلُّ شَهْمٍ   فما عرف الجَبَانُ ولا الكَمِيُّ
فما سَمِعُوا بأربَط مِنْكَ جأشاً   وقد فنيت من العَلَق الفنيُّ
تَنَادَوا يوم مُعْضِلةٍ نادٍ   فلبَّ منك طبُّ أحْوَذِيُّ[3]
وألقتْ بركها أو حاولته   فجَلاَّهَا الهُمَامُ الهِبْرِزيُّ
رمُوا بشَرّ نَبْتِ الكفَّينْ أدْنَى   مخالبه السِّنَانُ الصلَّبيُّ
إذا لَمح الفريسة لَمْ يُهَجْهِجْ   بِهِ عَنْ أخذها إلاَّ شقيُّ
أسيِّدنا أبَا حَفْصٍ هَناكُم   ويَهْنَى الدِّين فتحكُم الهَنِيُّ

(1) الخافقان: المشرق والمغرب.
(2) غرب كل شيء: حده يعني حد السيف.
(3) سقطت بعض الحروف للناسخ ولذلك نلاحظ اختلال الوزن ولعل الأصل:
تنادوا يوم مُعْضِلةٍ بناد. . . .

ولا زَالتْ صَوَارِمُك المَوَاضِي   وفيها مِن دِمَاء عِداك رِيُّ
إذا الهَيْجَا بِبأسكم ادلَهمَّت   أنارَ بنُور بِشْركم النَّدِيُّ
تَغَايرُ فِيكُم هَذِي اللَّيالي   فيحسُد فيكم الصبحَ العَشِيُّ
إذا ما رامَ وصفَكُم بَلِيغٌ   أجرَّ لسانَه حَصَرٌ وعِيُّ
وكَيْفَ يَطُولُ بَاعُ الوَصْفِ فِيمَا   يقصِّر عَنْ مَدَاه الأعوجِيُّ
عَلَى ذَاكُم قَدُونَكُم مَديحاً   يَرِفُّ بِرَوضِه الزَّهْر الحَيِيُّ

[193] وكتب أبو عُمَر المذكور الى السيد الأعلى أبي حفص يَسْتأذنه في المشي الى بنيه بشِلب، وكان ملتزماً عنده يكتب له مع الكتاب: (البسيط)

يا خَيْرَ مَنْ عبد الرحمنَ ، عبدُكُم   يشْكو اليكم فراقَ الأهْلِ والولد
فإن أذِنْتُم لَهُ في أن يُطالِعَهم   فهذِه دَارُهم مِنْه عَلَى صَدَدِ
وَلَيْس ذلك ببِدع من مكارمِهِم   فكَم يَدٍ قَدْ شفعتُم عِنْدَها بِيَد
يا بنَ الخَليفةِ قَدْ ألبستني نِعماً   أذْكَتْ بقلب عدُوِّي جَمْرةَ الحَسَدَ
فإن آبْ والرِّضا مِنكم يُصَاحِبُني   فلستُ أرْهَبُ خَطْباً آخرَ الأبَدِ

وكتَب إليه أيضاً مع نَثْرٍ من الكلام: (بسيط)

هِنْبي نَبَتْ بي أوْطاني لبُعْدِكُم   أفي جِوَارِكُم ينْبُو بي الوَطَن ؟
وليْسَتْ لي حرمة دنْيا أمتُّ بهَا   إلاَّ الذي أوجبْتَه منكُم المِنَنُ

وفي هذه الغَزْوةِ السَّعيدة غزوة الجَبَل، أمَر السيد الأعلى أبو حفْص رضي الله عنه أبا عمر بن حربون أن يَصْنَع قصيدة شعر على لسانه يتشوق فيها إلى أخيه الأمير الأجل الأعدل أبي يعقوب رضي الله عنهم وذلك في سنة ثنتين وستين وخمس مائة [194] فقال أبو عمر المذكور: (وافر)

سَلامٌ أيها المَلِكُ الهُمَامُ   عَلى نَادِيك دَامَ له السَّلامُ
ولا زالتْ لكَ الأيامُ سِلْماً   وصبٌّ عَلَى أعاديك السَّلامُ
فأنتَ إمامُ هَذا الخَلْقِ طُرّاً   مَتَى مَا زال لا زال الإمَام

بكُم تتكشَّفُ الغمَّاءُ عَنْهُم ... وَيَنْقَعُ غلة الأرض الغَمَام
فلولاكُم لَكان الدَّهر ألْوَى ... جموعاً لا يُنَهْنِهُه لِجَامَ
ولَوْلاَ دولةٌ أيَّدْتُموها ... لما عُرِفَ الحَلاَل ولاَ الحَرام
ولا هَطَلتْ عَلَى الأرض الغَوادِي ... ولا سَجَعت على الدوح الحَمَام
سهِرتَ اللّيلَ في طَلَبِ المَعَالي ... ونام بِيُمْنِ دَعْوتِك الأنَام
يعُودُ بذكْرك الرعديدُ شَهْماً ... ويمضي باسْمِك السَّيْف الكَهَام
ويكسِبُ حمدُك الأفواه طيباً ... فتحسده الأراكة والبَشَام
أرى حجج الأعادي داحِضات ... وقد أدلى بحجَّتك الحُسام
ادلتُم كلَّ جبَّار عَنِيدٍ ... فقد ذهَب التخمُّطُ والعُرَام
ولِيّ الله أنجحتِ المَسَاعي ... بِسَعْدِكم وقرطستِ السِّهامَ
وحكّمتِ الأمُورُ عَلَى رِضَاكُم ... وتَمَّ لكم على الزَّمَنِ احْتِكَام
وسِيمَ الخَسْفُ كلَّ أخِي عِنَادٍ ... ودان لأمركم حَامٌ وسَامُ[1]
فقد بَسَمتْ ثغُورٌ عن ثُغُورٍ ... وحُقَّ لَهَا بدَعْوتِك ابْتِسَام
جلونَاهَا وُجُوهاً نيِّرَاتٍ ... وقد غطَّى سَنَى الشَّمْسِ القَتَام
وخَاصمْنا بألْسِنةِ العَوالي ... فكان الفَلْجُ وانْقَطَعَ الخِصَامُ
[195] فنَحْنُ لِمَن يُواليكم شهادٌ ... ونَحْن لمَن يُعاديكم سِمَام
سَلِ الجَبَل المكرَّم[2] حيثُ ضَاهَتْ ... عبابَ البَحْرِ أنعمُك الجِسامُ
تلقّتنا بأشواقٍ اليكُم ... مشاهِدُه المُقدَّسَةُ العِظَام
تطلع نحوكم حبّاً ووُدّاً ... كما يَتَطَلَّعُ البَلَدُ[3] الحَرَام
جنبناها بيُمنِكُم كِرَاماً ... على صَهَواتها عربٌ كِرَام
إذا انْتَاشُوا رماحَهم تدلَّى ... أحمُّ النَّقْعِ وانحطَّ الحِمَام

(1) حام وسام ابنان من بني نوح عليه السلام. ويُعتبر حام أباً للسُّود كما يعتبر سام أباً للبيض، فالقصدُ إذن أن البيض والسود جميعاً دانوا لحُكمه!.
ابن خلدون: العبر، سادس ص 185.
(2) يعني بالجبل المكرم: جبل الكواكب المتقدم الذكر.
(3) يعني بالبلد الحرام: مكة، والبلد يذكر ويؤنث كما لا يخفى..

أُبَاةُ الضَّيْمِ إن أمروا بأمْرٍ ... فكلُّ عَزِيزِ كفر مُسْتَضام
إذَا قَادَتْهُم أبْنَاءُ قَيسٍ ... فلا لخْمٌ تُعَدُّ ولا جُذَامُ[1]
لَهَامِيمُ العَطَايَا لَمْ يَزالُوا ... يُلَفُّ عَلَيهم الجَيْشُ اللُّهَام
ألا لله مِنهُم كُلُّ ذِمْرٍ ... يقبِّل سيفَه الموتُ الزُّؤامُ
يَهشُّ الى لِقَاءِ القِرْنِ حَتى ... كأنَّ الطَّعْنَ بينهُما ذِمَامُ
يضمُّ الى العشيرةِ كلَّ خَيْرٍ ... كما نجَّى عشيرتَه ضِمَام
قَفَلْنا شيِّقين الى سَنَاكُم ... تَبَارى في السموم بنا السَّمَام
إذا الصنَّير[2] عمَّم كلَّ هَضْبٍ ... ومال بأنفِه مِنْه رَغَامُ
حثثنَاهَا يجُوبُ بنَا المَوامِي ... لِكَي يُشْفَى بقُرْبكُم الأوَامُ
ولم نَذْكُرْك في الظَّلماء إلاَّ ... تَكشَّفَ عِنْدَ ذكرِكُم الظَّلامُ
يَطُولُ بنا الزَّمانُ فكلُّ يَوْمٍ ... يمُرُّ ولا نَرَاكم فهْوَ عَام !
تبسَّمُ عنكم هذِي اللّيَالي ... كما ابتسمتْ عَنِ الزَّهْرِ الكِمَامُ

[196] حدَّثني من حضر في مجلس الأمير الإمام أبي يعقوب رضي الله عنه قال: لما أنشدت هذه القصيدة الفريدة المُنْبِئة عن صفاء الضمائر، وخلوص الإخاء في السراير، من السيد الأعلى أبي حفص الى الحضرة العلية رأينا وجْه الأمير قد انشَرح مُحَيَّاه، وانصح عليها، وتهلَّل سروراً وبشراً، وتخيَّلنا وجهه من نوره بدْراً، فقام كلّ من كان في مجلسه العالي من الموحّدين أعزهم الله من طلبة الحضر، وقبَّلوا يده وبايعوه، وأجزل العطاء لقائلها، واشتملت عليه البركات من شمايلها، وانصرف السيد الأعلى ظافراً سالماً ناصراً.

(1) لخم: حي من اليمن، ومنهم كانت ملوك العرب في الجاهلية وهم آل عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، وجذام كذلك قبيلة من اليمن تَنْزِل بجبال حسمى.
عمررضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة أول 1949 ص 174 جزء ثالث ص 1011.
(2) لم نتبين من قراءة هذه الكلمة، فلعلها الصنبر، نوع من الشجر؟

سنة ثلاث وستين وخمس مائة

خبر تجديد البيعة فيها والاسمية بأمير المؤمنين[1] لسيدنا الإمام أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم [197] قال المؤلف : في أول هذه السنة جمع الله القلوب بخُلُوص الضمائر ، الموذنة بالسعود والفتوح البشائر ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة ، بتجديد البيعة والتَّسريح الإسمية المستحقة لسيِّدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين ـ أعزهم الله ـ استسعادِهم لـدَيْه، فنفذ الأمر أدامه الله بكتاب كريم الى السيد الأسنى أبي إبراهيم إسماعيل بن الخليفة رضي الله عنه بمدينة إشبيلية معلماً فيه من البشر اليُسْر ما أوْفَى على التَّكميل والتَّتميم بما اتفق من اجتماع الرأي السعيد ، الفعل السديد ، الذي اجتمعت عليه آراء الموحدين أعزهم الله وكانوا في ذلك من الله تعالى على يقين ، وحق مبين ، من تجديد ما ذكرته من البيعة

(1) كان التلقيب بأمير المؤمنين في صدْر الإسلام خاصاً بالخليفةِ في المشرق من عمر بن الخطاب الى بني أمية إلى بني العباس من بعدهم، فلما قام عُبَيْد الله المهدي أول ملوك العبيديين بأفريقية تسمى بامير المؤمنين لأنه كان يرى أنه أحقُّ بالخلافة من بني العباس المعاصرين له في المشرق، وتبع صاحبُ الأندلس عبد الرحمن الناصر الأموي عبيدَ الله المهدي ورَأى أنه ـ وسلفه كان بالمشرق ـ أحق بالخلافة، ومعلومٌ أن كلاّ من العبيدي والأموي ـ قريشي من عبد مناف على ما في فاطمية الأولين وعلويتهم من الكلام، وبَعْدَ هذا لم يجرؤ أحدٌ على أن يستحوذ على هذا اللقب سواء ملوك العجم بالمشرق، أو ملوك البربر بالمغرب اعتباراً للحديث: «الخلافة في قريش» فلما ظهر يوسف بن تاشفين وعظم سلطانه واتسعت مملكته بعث بوَفْدٍ لبغداد لدَى الخليفة وسمّى نَفْسه بأمير المسلمين، ولكنه ـ رعياً للخليفة ـ لم يتسوّر على التلقيب بأمير المؤمنين، فلما ظهر الموحدون رأوْا منْ حقّهم أن ينالوا هذا اللقب اتباعاً لما فَعَله الصحابة «كما تقول الرسالة الرسمية، أو لما يستحقه اعتباراً لفتوحاته، ومبانيه ورغَد العيش على أيامه»، وهكذا كان أول من فعل ذلك منهم عبد المؤمن منذ سنة 528 وتبعه على ذلك ابنه أبو يعقوب سنة 563 كما يقول ابن صاحب الصلاة وكما يقول ابن خلدون :

Ambrosio Huici: Un Fragmento inédito de Ibn Idari Hes Tamuda vol II 1961. p 61.

العبر ـ سادس ص 494 ـ الاستقصا ص 52 - 98 - 99 ـ انظر التعليق رقم 1 ص 186 .

الدكتور حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، المجلد الأول طبَعة خامسة ص 438 - 439. راجع صفحة 202 - 209 من المن بالإمامة.

الرضْوَانية ، والإسمية الإمامية ، للإمام أبي يعقوب سيدنا خَلَّد[1] الله ولعقبه السَّعْد والتمكين ، ويأمر في الكتاب الكريم أن يأخذ النَّاس بإشبيلية وجميع الموحدين من الذين بها وببلاد الأندلس التي تحت طاعة التوحيد أدامه الله كقرطبة وأغرناطة ومالقة وغرب الأندلس لعقْد البيعة الرضوانية التي بها يكمل دينُهم ويصْدُق يقينهم ، وبتَجْدِيدها على أوْفَى الشُّروط من عُقُودها ، فوجَّه السيد أبو إبراهيم إسماعيل نسخة الكتاب الواصل اليه من الحضرة الإمامية الى الشيخ الحافظ المرحوم : [198] أبي عبْد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم باغرناطة فجمع الحافظ أبو عبد الله الناس بها على الاستيفاء والاحتفال ، والوفور والكمال ، وقُري عليهم الكتاب الكريم بمحضرة فوق المنابر ، واتصل خبره عند الغائب والحاضر ، فبادروا الى البيعة الرضوانية وقَبولها والتَّسْريح بالإسمية الإمامية ،وتنسموا ريحَ السَّعادة من قبولها ، وصادف هذا النبأ السارُّ من جوانح الموحدين وجميع جوارح الصِّنْف الأندلسي أفئدةً تهوي اليه قبلاً ، وتوجد الى رضا الرحمن في التزامها صدقاً مخلصاً لهم وعملاً ، لمثابتها الواضحة ، وتجارتها الرابحة ، ولِمَا يُرْجَى عند الله تعالى من الجزاء على الأعمال الصالحة . وكتب أهل إشبيلية بيعتهم وفيها إشْهادهم على أنفسهم بخُطُوط أيْديهم وأسمائهم بما هذا نصُّه ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إسماعيل صحبة كتابه الى الحضرة العلية مع بعض أشياخ إشبيلية ، ونسخة البيعة هذه من إنشاء أحمد بن[2] محمد :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم ، الحمد لله الذي جعل الإمامة قواماً للحق ، ونظاماً للخلق ، وتماماً على الذي أحسن

(1) هنا فضاء ولعل كلمة: (له) أنسب به.
(2) لم يذكر ابن صاحب الصلاة نعتاً ولا نسباً ولا لقباً لأحمد هذا، ولم يردْ اسمه أكثر من هذه المرة، وأظن أنه يعني به أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن مقدام الرعيني الاشبيلي ممن كان صاحب أبا بكر ابن العربي في وُرُوده على مراكش لبيعة عبد المؤمن سنة 542، فقد ظل بعد عودته على صلةٍ بالسادة الموحدين وقد توفي أواخر سنة أربع وست مائة. ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص 72.

بـرعايـة العدل والـرفق ، وأَوْجَبَ الاعتِصـام بـطاعتهـا ، والانتـظام بجمـاعَتِهـا والصَّلاةُ على محمـد نبيِّـه المنبعث بنـور الحق السـاطـع الأضـواء ، المبلغ [199] عن الله سبحانه بـأكمل وجـوه التَّبليغ والإِنْهَـاء ، وعلى آله وأصحـابه الذين والوه بالنَّصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المَعْصُوم ، المهديّ المَعْلوم ، المخصوص باثرة الاصطِفَاء والاجْتِباء ، والدعاء لسيِّـدنا ومَـوْلانا أميـر المؤمنين الخَليفة المرتضى ، متمم أنـوار الهُدَى ، ومجلّي غيـاهِب الظلمـاء ، وللإمـام الأعـدَلِ الأهْدَى سيِّـدنا ومَـوْلانا أميـر المؤمنين أبي يعقـوب بن أميـر المؤمنين بدَاوِم النَّصر والاستيـلاء ، واستصحاب الـظُّهُور والاعتِـلاء ، أمّا بعـد فإنَّـه لما اجْتَمَعَتْ طَائفةُ التَّوحيد ، وهُمُ الـذِين تحَضُرهم من الله حـاضرةُ التَّـوفيق وينظر اليهم نَـظَر الاقتِـداء والاهتِـدَاء ، مَنْ وراءهم مِن أهـل الحقِّ والتَّحْقيق ، عَلَى تَجْـدِيد البَيْعـة المُبَارَكـة لسيِّـدنـا ومَـوْلانـا أميـر المؤمنين أبي يَعْقُـوب بن أميـر المؤمنين خَلَّد الله أمرهم ، واعزَّ نصرهم بالاسم المبارك الكريم الذي أول من دعـا به الفـاروق رضوان[1] الله تعـالى عليه ، فعـرف الله من يمنه مـا فتح لِمِلَّة الإسلام شرْقاً وغرباً ، وأحال الدَّلْوَ بيد ساقيهم فاسْتَحالت غرباً ، حتَّى ضَـرب الدِّين بجرانه ، والقى النَّاسُ بعَطَن[2] بَيْن يمنه وأمانِه ، فجدَّدنا من بيعتـه على الإسمية المباركة فرضاً أوجبَه الشَّرعُ وجوبَ الإلْـزَام ، واقتضَى الوفـاء شُرُوطـه المؤكَّدة على الكمال والتَّمام ، فبايَعْنا عَلَى السَّمْع والطَّاعة بيعَة إيمان وأمانة ، وعَـدْلٍ [200] وعبادة ، والتـزمْنَاهـا في اليُسْر والعسـر ، والمنشط والمكره ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا منها بالعُروة الوثقى والعصمة

(1) روى البلاذري أن بلالاً كـان يقف بباب رسـول الله ويقول السـلام عليك يـا رسول الله . . . فلما ولي أبو بكر كـان المؤذن يقف ببابـه ويقول: السـلام عليك يـا خليفة رسـول الله . . . وفي خلافـة عمر بن الخطاب كان المؤذن يقول: السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله لكنه منعاً لتكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكرٍ أَمَرَ عُمَرُ بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة: أمير المؤمنين.
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام أول ص 438 - 439.

(2) العَطَن: مبرك الابل حول الماء. وهذا إشارة إلى حديث الصحيحين عن ابن عمر وأبي هـريرة في الرؤيا النبوية: «حتى رَوَى الناس وضربوا بعَطَن» مثل يضرب لاتساع الحال وكثرة الفتوح.

التي مَن تعلَّق بحبهـا وآوى الى ظلها فقـد اعتصم بـالجـانب الأمنـع الأوْقَى ، علماً أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التي تتكفل بنصرها وإعلاء أمـرها العنـاية الربانية . عَلَيْنا بذلك عهـدُ الله الأوكد الألـزم وميثاقـه الأغلظ الأعظم ، وذمَّتـه التي لا يُقطع حبلُها عَلى مُرُور الزَّمـان ولا يُصْرَم ، مستبصـرين في هذه البيعـة الكريمة بنُور الاهتِدَاء ، سالكين في التزام الطَّاعة المحجَّـة البيضاء ، عـارفين مـا أمـر الله سبحـانـه من طـاعـة الخلفـاء ، والله سبحـانَـه يحفظ بهـا اكنـاف الإسلام ، ويجعلها كلمـةً باقيـةً على مرور الأيـام ، بفضل الله ويمنـه . وعلى مُضمَّن ما نص فوق هَذا التزمَ أهلُ إشبيلية كـافَّة . وكتبـوا على ذلك شهـادتَهم في النِّصف من جمادي الأخيرة سنة ثلاث وستين وخمس مائة .

وكـذلك كتَب أهـل أغرنـاطة بيعتَهم أيضـاً وفيها إشهـادُهم على أنفسهم بخطوط أيديهم وبمحضر الشيخ الأجل الحافظ المرحوم ابي عبـد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بما هذا نصه : [201] ووجهها الشيخ المرحوم المذكور مع بعض أشياخ أغرناطة الى الحضرة العالية ، وبكتابه الى أميـر المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه ونسختها ما يذكر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على محمـد وآله وسلم الحمـدُ لله الذي جَعَل الإمامة عصمةً للدِّين ، ونعمةً سابقةً منه تَعالى للمُسْلمين ، ورحمةً أراد بهـا ـ جلَّ جـلالـه ـ هـدي المهْتَـدين ، وقـوام المُؤمنين ، نَـظم بِهـا عقْـدَ الأنـام ، وتمَّـمَ بارتبـاطها عَقْـدَ الإسلام ، وأظهَـر بالتِزَامِها، بـركـةَ تمـامِهـا وانْتِظَامِها. والصَّلاة على محمَّدٍ نبيِّه ورسوله الذّي ابتَعَثَه برَحْمَتَه ، وأيَّده بقُدسِه وقدْرَته ، وأعانه على إعلاء أمره وكلمته ، وعلى آله وصحـابته الـذين آمنوا بِـه ونَصَروهُ ، وآزَروه وعززوه ، إذ اصطفوا إمامُهم ، وقدَّمُـوه وأخْلَصوا لله تعـالى في طـاعتـه ومنـاصَحتـه أفهـامهم ، وأعملوا في نصرتـه وحمـايتـه إقـدَامَهُم وأقـدامهم ، والرضـا عن الإمام المعصـوم ، المهـدي المعلوم ، الـذي أظهـر الحق بعد دُرُوسه ، وأطلع للإيمان ساطع أقمـاره وشموسـه ، والدعـاء لسيدنـا ومـولانا أميـر المؤمنين خليفته المـرتضى الذي أشْـرَقت أنواره ، وظهـرت على

يديه بركاته المكتوبة وأسراره ، وبمثله لسيدنا ومولانا الإمام الأعدل ، الخليفة الصَّالح الأتقى لله عزَّ وجلَّ ، أمير المؤمنين أبُو يَعْقُوب بن أمير المؤمنين [202] بنَصْرٍ تستقبل منه بركاته المَضْمونَة ، وتتمهد بسعده الأسعد حوزته المَصونَة ، وتنهض عزماته في الزلّاء[1] فما دونه .

أما بعد فإنه لما اختص الله تبرك وتعالى طائفة التوحيد ، بما هم عليه من العَمَل السَّديد ، والسَّبيل الحَميد ، والسَّعي السعيد الرشيد ، اجتمعت نفوسُهم بَعْد توفيق الله تعالى لَهُم ، ومستقبل سعد يدَّخرون فيه عمَلهم ، أن يجدِّدُوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين جدَّد الله لهم السعود ، وأمدَّ لأمرهم العزيز التأييد الكريم والخُلُود ، بالاسم المُبارك العظيم الذي أولُ مَن نَطقَ له فيه عُمَرُ بنُ الخطاب فأقر ذلك لنفسه لقباً واسماً ، وسمةً لمعنى الخلافة ورسماً ، حين علم تحقيقَ ما به خُوطِب وبه كوتب ، فحمد الله تعالى وشكَره ، واسْتَحسن لمخاطبه بذلك ما سمَّاه به وذكره ، جدَّدنا الآن من بيعة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين أدام الله تأييدَهم على الإسمية المباركة العظيمة الموسومة فرضاً أوجبه الدِّين والإسلام ، وحقّاً اقتضاه شرعُ محمَّد نبيِّنا عليه السلام ، واتباعاً لِمَا فعله أصحابه البَرَرة الخيار الأعلام الصحابَة العَشَرة ، فبايعْنا سيدنا ومولانا على السَّمْع والطاعة ، ومنهج الجماعة ، بيعة إيمان وأمانة ، وعَدْل وعبادة ، تبركاً بأمرِهم [203] واستنجاداً بالله تعالى على ما يجب فيها من طاعتهم ونصرهم ، اقتداء فيها ببيعة الشَّجرة ، وبأصحاب رَسُول الله المؤمنين البَررة ، التزمناه في كلّ الأحوال ، وأخلصْنا لها الضَّمائر في كافة الأعمال ، واعتقدناها شرعةً وديناً ، وبادرنا إليها حقيقة ويقيناً ، فهي ذخيرتنا في المعاد ، وزادنا الى يوم التناد ، وسعادتُنا ونجاتُنا يوم الوَعيد والإيعاد ، عَلَينا بالوفَاء بعُهُودها ، وكمال شُروطها

(1) لم نتمكن من التأكد من هذه الكلمة ولا من معناها فقد تقرأ «الزلاء»، لكنها في أقرب الاحتمالات البزلاء بمعنى الداهية العظيمة.

وعُقودها ، عهد الله الأصَح ، وعقدُه الأنصح ، وذمَّته التي لا تَضِيع ودايعُها ، ولا تبخس بضائعُها ، متمسِّكين فيها بحَبْل الله الوثيق ، وأمْره الحَقيق ، سالكين في التزامها ، وابرامها وتمامها ، ما يَجِب من شُروطها ، وصحة ربوطها ، عَارفين بِمَا فيها من مُبْهَمِها ومَبْسُوطها ، والله تعالى يُعينُنا على أداء واجباتها ومفرُوضَاتها بفَضل الله تعالى وعلى مضمن معناها ، والتزام مبناها ، التزم الطَّلبة والشيُوخ والكافَّة من الموحدين بقصبة أغرناطة ومدينتِهَا وكتبوا على ذلك بشَهاداتهم وخطُوط أيديهم على أنفسهم ، وذلك في النِّصف من جُمادى الآخرة من عام ثلاثة وستين وخمس مائة .

وهذه نسخةُ الرِّسالة الَّتي وجَّهها [204] الشيخُ الأجلُّ أبو عبد الله مع البيعة السعيدة :

بِسْم الله الرحمن الرحيم صلَّى الله على محمد وعلى آله وسلم ، الحضْرة السامية الإمامية حضرة سيِّدنا ومَوْلانا الإمام الأعْدل ، الخليفة الصَّالح المنصور بالله عزَّ وجل ، أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدَّهم بمعونته ، من ملتزم أوامرهم العلية ، المتبرك بَمعَالِيهم السَّنية ، الطالع السامع فيما يجب عليه من حقهم في كل ثنية ، محمد بن أبي إبراهيم : سلامٌ على حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبَعْد حمد الله على إعلاء هذا الأمر العزيز المكين ، وإجراء سره القائم على أفضل الأساليب والقوانين ، وإمضاء آراء أهله الموحدين في صوْب الإسعاد والتَّيمين ، والصلاة على محمَّد رسوله ونبيِّه الصفي الأمين ، المبلغ الرسالة على أكمل حالات البيان والتَّبيين، والرِّضَا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم لإقامة الحق في المفروض والمسنون ، ولصاحبه وخليفته أمير المؤمنين المؤيد لإظهار أسراره وأنواره بأتم التأييد المَضْمُون ، وللإمام الأعدل ، الخليفة الصَّالح المنصور بفضل الله عزَّ وجل ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين بنصر يختصُّه في كافة الأحوال والشؤون . فكتبه خديمكم من أغرناطة حرسها الله عن

[205] التزام أمركم الكريم ، والاعتلاق بحبلكم الذي هو حبل الله العظيم ، شاكراً لله تعالى وحامداً على ما أمضى به من أمره الى سيدنا أمير المؤمنين بخلافته ، واختصه في أرضه بفضل إمامته وحمل أمانته وحَباه بكرامته ، حين علم فيه الاستبداد بكفايته . فلله قِبل عبْدِكم في ذلك نعمٌ متظاهرة ، وآلاء مترادفة متكاثرة ، أرغب من الله تعالى أن يُلهمني حمدَها وشكرها ، وأعمالها ونشرها ، بعزَّتِهِ ، وأنه وصلني كتاب السيد الأسنى أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه ومعه نسخة الكتاب المبارك العزيز المُبْدي من البشائر ما أربى على التكميل والتتميم مما كان فيه إجماع الرأي السعيد ، والفعل السديد ، الذي اجتمعت(1) ، اراء الموحدين ، وكانوا من الله تعالى في ذلك على توفيق مبين ، من تجديد البيعة الكريمة والأسمية المباركة الموسومة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، أدام الله لهم السعد والتمكين ، والفتح المبين ، إلى ما اعلموا فيه مما أسبل الله أثرها على الموحدين وطائفة المؤمنين من توالي الفتوح ، واتصال الخير الممنوح وترادف الأمطار ، ورخص الأسعار ، مما يقل لذلك شكر الشاكر ، ووصف الواصف وذكر الذاكر ، وعند وصول الكتاب الكريم الى الخديم الطالع عليه بعجائب الفتوح والسرور ، بادَرْنا الى التيمن [206] بعقد البيعة الرضوانية التي هِيَ كَمالُ ديننا وذُخر معادِنا ، فعقدناها على ما يجب من مفروض البيعة لأمير المؤمنين ، على ألزمَ شروطها في الدّين ، وحمدنا الله تعالى على التزامها ، ودعونا الله في التوفيق بالعمل على نظامِها ، إنه القادرُ على ذَلِك لا إله سواه . وفي حين ذلك وَصَلنَا أيضاً على الخُصُوص كتابهُم الكريمُ الثاني ، المتمّم لتلكَ المَباني ، ممّا كانَ من أمرهم الحفِيل ، ونَظَرهم لهذه الجزيرة حماها الله على أتمّ الرأي الجَميل، بوُصُول العَسَاكِر المنصورة والأجناد الموفورة اليها وحمايتها، إلى ما خَصّصُوا به عبيدهم أدام الله أمرهم ، وأعز نصرهم ، من الأمر المفصل بالبركة التي ما زالت بركاتهم ونعمهم عَلَينا تترادف ، وتتوالى قبْلنا وتتعارف ،

(1) سقطت كلمة (عليه) هنا فيما يظهر.

مَعَ ما عُرفوا به من الخَيْر الذي يصلح بلادَهم ، ويخصُّ أجنادَهم ، والله تعالى نسأله أن يُعِين الكلَّ من عَبيدهم على أداء شُكْرهم ، والتزام أمرهم ، بعزّته وقدرته . والسَّلام الأجَزل الأحفل ، الأتمُّ الأعمُّ، على الحضرة السامِية ، الإمامية العَلية ، ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه . كُتِب في النّصف من جمادَى الأخيرة عام ثلاثة وستّين وخمس مائة .

جواب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين على هذه الرسالة الى الشيخ [207] الأجل ابي عبد الله بن أبي إبراهيم وذكر وصول البيعة اليه .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمدَّهُ بمعونته الى الطَّلبة الذين باغرناطة أكرمهم الله بتقواه ، سلام عليكم ورحْمة الله تعالى وبركاتُه أما بعد فإنا نحمُد إليكم الله الذي لا إله إلاّ هو ، ونشكره على آلائه ونعمِه ، ونصلّي على محمَّد نبيّه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهديّ المعلوم ، القائم بأمْر الله والدَّاعي الىَ سَبيله ، ونُوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، ممْشِي أمره العزيز الى غاية تتميمه وتكْميله . فإنا كتبناه اليكم أكرمكم الله بتَقواه من حَضْرة مراكش حَرَسَها الله . والَّذي نُوصيكم به تقْوى الله والعمل بطاعته ، والاسْتعَانة به والتوكل عَلَيه . وقَدْ وصلنَا كتابُكم من عند الشيوخ من غرناطة حَرَسها الله والموحِّدين وفق الله جميعهم ووفقنا عَلَيْه ، ورأينَا ما تحمَّلوهُ عَنِ المُوحِّدين باغرناطة وجيرانِهم من انعقاد إجْماعهم عَلَى ما أجمع عليه شيوخُ أهْل التَّوحيد وأعيانِهم ، من الأمرِ الَّذي أَوْجَبُوا على أنفُسِهم المُبَايعةَ عَلَيه ، وإعطاء صفقة اليَدِ فيه ، وقد وفقَّهم الله لمَا وفق إليه أهل أمْره وذَوي العصمة من طائفتِه ، والله تَعَالى يتقبَّل مِنْهُم [208] عَمَلَهُم ، ويعرِّفُهم بركةَ ما التزمُوه ، ويُعينُهم على القيَام بواجبه والوَفاء بحقّه ، وقد انْصَرف هؤلاء الأشياخ المذكُورون ،

بعد إقامَتِهم بهذِه الحَضْرة ونيلهم بركاتها، بِمَا يَجِدُون أثَرَه في أحْوَالهم، وسريان الانتِفاع بِهِ في أقْوالهم وأعمالهم، فاعْرِفُوا لهم حقَّ وفادتِهم، ومكان زيادتهم، واحملُوهم وكافّة جيرانِهم على الرّعاية المتصلة، والمبرَّة الحافِلة المُشتَمِلة إن شاء الله تعالى. والله ولي عونكم وصونكم لا ربَّ غيره والسلام الكريم العميمُ عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الثاني عشر من شوال عام ثلاثة وستين وخمس مائة.

العفو والإنعام من أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه بعد كمال هذه البيعة السعيدة على المسجونين في حقه وماله، وتسريحهم بأفضاله.

لما كملت على ما ذكرته من الإجماع عليها من الموحدين، وسرت البشائر بها في البلاد وتيمَّن بارتباطها بالعدوة والأندلس جميعُ العباد، عفا عن المسْجُونين وحط البقايا عن العمال الخاينين[1]، وأمنّهم من المخاوف فيما تقيد عليهم في الدَّواوين فزاد الانبساط، والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدْله، وزادتِ المَخازنُ إثر ذلك وفُوراً، ونمت الأرزاق، وعمرت [209] الأسواق، بالبَيع والتجارة الرابحة ودرَّت على النّاس الخَيْرات دروراً، واغتبط العالم به وبيبعته، وكثرُ المال في ايدي مِنْ توالي سَمْحِه وبركته، وابتَنَوْا بمراكش الدّيار العتِيقة، واغترسوا خارجها ايْنَع حَدِيقة[2] وامّنوا في كل طريقة، واتّصل فضْلُه عَلَى مَن ذكرتُه في جميع العدْوة والأندلُس، واشتمل الحبُّ له في جَميع القُلوب والأنفس، كقول أبي تمام:

وَلَقَدْ أراكِ فَهَلْ أراكِ بِغْبطَةً   والعَيْشُ غضٌّ والزَّمانُ غُلامَ[3]

(1) ابن عذاري: الخايفين، وسقطت في المخطوط نقطة الخاء، انظر ص 60 من البيان المغرب.
(2) ظلت مراكش محلّ عناية من الموحدين ولهذا ففي الوقت الذي كانوا يجهزون فيه على آثار المرابطين بها كانوا يعوّضون ذلك بالبحيرات والبساتين والمباني. انظر التعليق رقم 2 ص 214 ورقم 1 ص 253.
(3) من قصيدة لأبي تمام يمدح المأمون، مطلعها:
دِمَنٌ ألَمَّ بها فقال سَلاَمُ   كَمْ حَلَّ عقدةَ صبْره الالمام

أعوامُ وَصْلٍ كانَ يُنْسِي طُولَها   ذِكْرُ الهَوَى فكأنَّها أيامُ!

وأما مَن كان عليه دَينٌ من المسجُونين للغَيْر، أو حق مسلم في قصاص أو ضُر، فتركه لصاحِبه على مَهْيَع الشرع وواجِبه، فشكر الله والناس عدله وفضله. وقال أبو عمر بن حربون أيضاً يمدحه حين دُعِي بأمير المؤمنين، وصحَّت الإسمية له من الموحدين (كامل)[1]

جاءتْكَ تسْحَبُ ذيْلَهَا للموعِدِ   زهراءَ طالعةً بسَعْدِ الأسْعَدِ
فاصدَعْ أميرَ المُؤمنين بدَعْوةٍ   لم تَتْرُكْ صنَماً بسَمْعِ الجَلْمَدِ
يهني الخلافةَ أن لبستَ رداءها   وقعدْتَ منْها اليَوْمَ أشْرَفَ مَقعَدِ
ومن ارتقَى في سُلَّمِ التَّقْوَى رَأى   زُهْرَ الكَوَاكِبِ بالحَضِيض الأوْهَدِ
[210] ألقَتْ أزِمَّتَها إلى مَنْ هَمُّه   في مُرهَفٍ أو مُصْحَفٍ أو مَسْجِد!
علقتْه مَيْمُون النَّقِيةِ[2] زاهِداً   لَمْ يَشْتغِل بـدَدٍ ولا هُو مِن دَدِ!
أنظر اليه فإنَّ رؤيةَ وجْهِهِ   تجْلُوا الصَّدى عَنْ قلب كلِّ موحِّد
ما نام[3] قيام السَّموات العُلَى   عَنْ شأنِ قوَّامٍ له متهجِّد
الحقُّ حقُّكَ ما لَهُ مِنْ دَافِعٍ   واسْتَشْهد البيض الصَّوارمَ تَشْهَد
لقد اضْطَلعتَ بحَمْلِ أعبَاء الَّتي   حَدت الأنامَ على الطريق الأرْشَد
إنَّ الذِي قَدْ قمتَ تَنْصُرُ دِينَهُ   أعْطاكَ ميراثَ النَّبي مُحَمَّد!
لم تُصْبِكَ الدُّنيا غَداة تبرَّجَتْ   وغطتْ بسالفةِ الغَزَال[4] الأغْيَد
لله مشْهَدُ بَيعَةٍ بويعتَها   فالدِّينُ والدُّنيا بذاك المَشْهَد
في حَيْثُ تَرْتَدُّ العُيُونُ مهابَةً   عن سَاطِعٍ من نُورِكَ المتوقِّدِ
لا تثبُتُ الأبْصَار فيكَ لِمُلْتَقى   لألاءِ أنْوَار الهُدَى والسُّؤدَدِ
وكأنَّهم إذ بَايَعُوك تَمَسَّحُوا   بالقِبْلَةِ البَيْضاء ذَاتِ الأسْوَدِ[5]

(1) اختار ابن عذاري من هذه القصيدة سبعة وعشرين بيتاً... ص 61 - 62.
(2) في ابن عذاري ص 61: النقيبة عوض النقية وهو أدل على المراد.
(3) المصدر السابق ص 61: فأقام قيام....
(4) سَقط حرف الألف من المخطوط ويَظهر أنه عثرة قلم...
(5) يعني الحجر الأسود...

وكـأنَّمـا وقفـوا بحيثُ تَـرُوعُهُم ... رَجَفـاتُ ملتطِم الغَـوَارب مُزبِـد
وكـأنَّمـا وَلِجُـوا وليجـةَ ضَـيْغَـمٍ ... قـانِي السَّواعِـدِ بـالنَّجيـعِ مُـوَرَّد
هَـابُـوا، فـلولا زحـمـةٌ أدْنَـتْهُـمُ ... لم يَسْتـطِيعُـوا لَثْم هـاتيك اليَـدِ!
لـتـادَروا أمّ الـعـطاء كـأنَّـهـم ... عُصَب الظِّمـاء تـزاحمت بـالمَـورِدِ
إن وقَّـفُـوا فـلرهـبـةٍ وسَكِـينَـةٍ ... أو أوْجَـعُـوا فـلرغـبـة وتـوَدُّدِ
أليـوم نـامَ الـدينُ مـلء جُفُـونِـهِ ... عن حَـزْم يقـظانِ الجُفُـون مُسَهَّـدِ
وقَّـاد الـحـاظِ العَـزِيـمـة صَـارم ... والـشَّمسُ نـاظـرةٌ بـعَـيْن الأرمَـدِ
[211] ألِـفَ الـخَـوَانِـقَ والـقَـنَـا فـكـأنَّـهُ ... بَـيْـنَ الأزَاهِـرِ والـغُـصُـون الـمُـيَّـد
وإذا احْتَبَى ابصَـرت ركْن يلملم[1] ... يعتَمُّ طـوراً بـالغمَـام ويَـرْتَـدي
بَـطَشتْ يَـدَاه بـالأعـادِي بَـطْشَـةً ... خَضَعَتْ لَهَـا عُنُقُ الـزَّمـانِ الأصْيَـدِ
إنَّ الـشَّـريعـة أُيِّـدتْ أركـانُـهَـا ... بـمُـوفَّـق لـلصَّـالِـحـاتِ مُـؤَيَّـدِ
يَـجْلُو خـفيـات الأمُـورِ بِـفِـطْنَـةٍ ... قَـدْ أنبأَتْـه اليَوْمَ عمَّـا في الغَـد
عَـمِـرَت قُلُوبُ الـمُؤمِـنين بحُبِّـهِ ... واستَمْسَكُـوا بعُرى المَتِينِ المُحْصَد
فـاسلَمْ أميـرَ الـمؤمِـنينَ لِأمَّـةٍ ... مَـا شِرْبُهَـا[2] إذْ سُستهـا بمُصـرَّد !
أمَّـنتَهـا أهـوال كـلِّ مَـخُـوفَـةٍ ... شـرَّدْن شرب الأمْنِ كـلَّ مُشَرَّد[3]
لَـوْلَا مقـامُـك زُلـزلَت زِلـزالَهـا ... وَتَضَعْضَعَتْ شمُّ[4] الهضابِ الصُّخَّدِ
لَـوْلَا الـذي بَسَط الإلاهُ بفـضْـلِهِ ... في الأرضِ مِن سُلطانِكُم لم يُعْبد[5]
حطّ الأنـامُ الـى ذراك وأصـبحـوا ... من ظِلِّ عَـدْلِـكَ في النَّعيم الأبْـرِدِ
لـلحِلم فـيـكَ ولـلأنـاةِ مُـجَـمَّـعٌ ... لـمحبَّـةِ المعبُـودِ والـمتـعبّـدِ

(1) يلملم: موضع على مرحلتين من مكة وهو ميقات أهل اليمن وقال المرزوقي: هو جبل من الطائف على ليلتين أو ثلاث.
(2) ابن عذاري ص 61: (ما سرتها) وهو خطأ دون شك من الناسخ.
(3) يقصد فيما يلوح أن العدالة والصرامة المنتشرتين في البلاد جعلتا الأمن يشمل سائر البقاع.
(4) سقطت نقط الشين من المخطوط وفي ابن عذاري (لهم) عوض شُم، انظر ص 61.
(5) ابن عذاري 62 (سلطانهم لم يعتمد) ولا يخفى ما فيه.

صبَتِ النُّفُـوسُ إلَيْـكَ حَتَّـى أنَّهَـا ... لَـو سُمْتَهـا الأعْمَـار لـم تَتَـردَّدِ
غَـارَت معـطَّرة الثـنَّـاء وأنْجَـدَت ... فـرمَت إلَيْـكَ بمُتْهِمٍ وبمُنـجِـدٍ[1]
فـأهنَـأ بـرضـوانيـةٍ[2] ميمُـونـةٍ ... رمَتِ الأعـادي بـالمُقيمِ المُقْعـد
فَـهْي الـمعـدَّةُ لـلمَعَـادِ رَبيـبـهِ ... وهيَ العتـادُ لحَسْم داء المعتـدي
والـيكَـهـا تَبْغِـي رضـاكَ ذَخِيـرةً ... سَنَـداً ألـوذُ بِـهِ طـوال المُسْنَـد
لم تَنْتَهِـجْ سننَ المَديـح ، وإنَّمَـا ... قـامَتْ بفَـرْضٍ في عُـلَاك مؤكّـدِ
أخـذتْ بـأطـراف الثَّناء ولم تُـطِقْ ... إحصـاءَ أوصاف الجَمِيـع المفـرَد
[212] أنْبَـاءُ فَضْلك لا يُقام بحقِّهَـا ... ولَـوَ انَّهَـا كتبتْ بـذَوْبِ العَسْجَد !

وصنع الصنّاع لأمير المؤمنين ، أدام الله تأييدهم ، سنان رمح بسنانينِ اثنين ، متصلين في سعة السيف ، كلُّ واحد منهما ، فأعجب بذلك وأمر بالقول في وصْفِه فقال أبو عمر بن حربون يصفه: (كامل)

طَبَـع الإمـام من الأسنَّـة لَهْـذَمـاً ... لـم يعهُـدوه في أسنَّـة مَـعْـضَب
رمـحٌ تـمثَّـل لـلأعـادي شَـكْلُه ... رَأسَي شُجَـاعٍ أو زَبانـا[3] عَقْـرَب
إن هـزَّت الـهـيجـاءُ رَوْقَي ذَابِـلٍ ... يَـومـاً تـلقَّـاه الـعـدوُّ بـأغضَبِ
مَـاذَانِ إلا نـاظـرانِ تَـشَـوَّفـا ... نحْـوَ الجِهَـادِ تشـوُّف المُتـوَثِّب
أو مَـسْمَـعـان تَحَـسَّسَـا مـن نَبـأةٍ ... أوْفَى لهـا سَعْـدُ السُّعـود بمَـرقَبِ
أو كَـوكَبـان قَضَى على لُقْيـاهُمـا ... بـالسَّعْـد من هـو كـافرٌ بـالكوكب
فـدَعـوا القُـران[4] فـإنَّـه متـأثـرٌ ... عن سِـرِّ هَـذَا النَّيِّـر المتشـعِّب

(1) ابن عذاري 62: أهلاً وسهلاً بالمغير المنجد.
(2) البيت غير موزون كما يلاحظ.
(3) كذا في المخطوط برسم الألف عوض الياء: زباني، وزباني العقرب: ما تضرب به من طرف ذنبها.
(4) كذا في المخطوط ولم نتبين المعنَى عليه، سيما مع ضبط القاف بالضم ويظهر أنه مِنَ المكسور القاف، وهو عند المنجمين: اجتماع كوكبين سيَّارَيْن في نقطةٍ واحدة من فلك البروج، وقد ورد في شعر لأبي القاسم الرحوي:
عـرفت زمـاني حـين انكرت عـرفـاني ... وأيْقَنْتَ أن لا حـقَّ في كَـف كِيـوَان
.. وانْ لا اخـتـيـارٌ مُـقَـوَّمٍ ... وأنْ لا قِـراعُ بـالـقِـرَان لأقْـرَانِي =

هَا إنَّها بعْضُ العَلامَات الَّتي قد أطْلَعُوا أنوارَها بالمْغْرِبِ
نَبَأٌ عظِيم في الوَرَى وإثارةٌ من عِلمَ مَن جَاءت به بُشْرى النَّبي
هُوَ ذاكَ بعْض مفاتِحِ المَلَكُو ت في كف تَنُوب عن الغَمَام الصيِّب
للملكِ فيهِ سَريرةٌ سيُذيعُها بِلسانِ كلِّ مثقَّف ومشطّب
إنَّ الخلافَةَ لم تَبِن أسْرَارُها إلا لِهَذا النَّجلِ أو هَذا الأب
نُورٌ أرَاد اللَّهُ ألاَّ يَجْتَلي إلَّا بغُرَّةِ طيِّبٍ عَنْ طيِّبِ
[213] لَولاهُم لَغَدا[1] الوَرَى في حَيْرةٍ
تَرمي بِهِم مِن غَيهَبٍ في غَيْهَبِ
والآن قَدْ بان الصَّباح لناظِرٍ وإن تبيَّن عاقِلٌ لم يَرْتَب

وأمر أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه أن يكتب الصنَّاع في سَيْفه (لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين) .

فكتب ذلك فيه وقال في مجلسه الكريم للشيخ الفقيه أبي محمد المالقي : أخرج الى طلبة الحضر وأمرهم أن يضمن هذا المكتوب في بيتين من الشعر فخرج أبو محمد المالقي وقال للطلبة ذلك واستعجلهم فيه .

فقال ابنْ حربون مرتجلاً على لسان السيف : (رَمَل)

أنا إن جُردتُ يوماً كنتُ بالنَّصْر قمينا
لأمير المؤمنين بْنِ أبي المؤمنين

فاستحسن أميرُ المؤمنين ذلك واحْسَن إليه وأجزل العطاء لدَيه .

* ابن خلدون : ـ التعريف بابن خلدون (نشر ابن تاويت الطنجي) صَفحة 23.

(1) كتبت غدا بالياء هكذا: غذى.

البركة العامة النافذ بها الأمر العالي أدامه الله لجميع الموحدين ، والعرب القاطنين والأجناد الأندلسيين بالحضرة والمواسط[1] والثغور . [214]

قال الراوية : ولما كان البشر العام ، واليسر التام ، بتجديد البيعة الميمونة ، الرضوانية المأمونة ، على ما تقدم الذكر لها ، أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه ببركة تعمّ الناس بحضرة مراكش إيصالاً للعفو الذي تقدم ، وأفضالاً بتتميم منّه الذي به أنعم ، ونفذ أمره العزيز بمخاطباته الى السادات إخوته بالبلاد العدوية والأندلسية القاصية والدانية. بالإنعام بالبركة على ما ذكرته فعمَّ الناس فضله ورفدُه ، وثبت في القلوب حبُّه وعهده ، واستولى بهذا الإنعام المبارك سعده ، ونمت الجبايات والخراجات[2] حين نما كرمه ورغده ، وعزمت النفوس على الغزو وحرب المحاربين في الحضر لهم والبدو ، واتصلت الغبطة بالبيعة الرضوانية والأمان ، وقيل للزمان : « أنت خير زمان » ، وتجدد للعالم من حالهم الجديدان ، وطلب الجبان من طربه الطعن في الميدان ! وابتدأ أمير المؤمنين رضي الله عنه بالنظر لجزيرة الأندلس في بعث السيد الأسنى أبي إسحق أخيه الى قرطبة على ما أذكره .

(1) المواسط جمع موسطة : المدن التي تقع وسط البلاد.

(2) كان عبد المؤمن أول من أحدث الخراج بالمغرب، وكان ذلك سنة 555 حيث أمر بتكسير البلاد من أفريقية والمغرب بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً ثم أسقط من التكسير الثلث في مقابلة الجبال والأنهار والحزون والطّرقات وما بقي وظّف عليه الخراج والزم كل قبيلة بقسْطها من الزرع والورق.
القرطاس ثان ص 161 ـ الاستقصا ثان ص 124 .

ذكر بعث السيد الأسنى أبي إسحاق إبراهيم بن الخليفة أمير المؤمنين [215] رضي الله عنه الى قرطبة والياً عليها عوضاً ممن كان فيها بعسكر ضخم من الموحدين أعزهم الله لحمايتها من المحاربين المجاورين لها

قال : ولما كان ما تقدّم بشره من الخير ، اتّفق الرأي المبارك على النظر السعيد ، والاهتبال الحميد ، الى جزيرة الأندلس بصرف عنان الغزو الى أعدائها ، على قُرْبهم وبعدهم من أرجائها ، فكان أول بعثٍ بعْثُه هذا السيد المبارك اقتداءً من أمير المؤمنين بما فعله أبو بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] حين بعث يزيد بن أبي سفيان الى الشام في غزو الروم[2] أو بعثٍ بعث ، وجهاد منصور للمسلمين حثهم عليه وتأنّت ، ثُمَّ والاه بالبعوث والعساكر كما فعل أبو بكر رضي الله عنه حسب ما أذكره ، وخاطب الخليفة بهذا الرأي المتفق عليه المصفق ، بعد استخارة الله تعالى لديه ، الى أهل الأندلس .

وخصَّ أمير المؤمنين رضي الله عنه الشيخ الحافظ أبا عبد الله محمد بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم بالتّعريف بجميع ما ذكرته ، ومن التنبيه للجهاد ، وبما عزم عليه من النظر والاستعداد ، ونص الرسالة المعروفة له المبشرة هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلّم والحمد لله وحده من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم [216] الله بنَصْره ، وأَمدَّه

(1) في المخطوط: (حتى) وهو دون ريب خطأ والصواب (حين).

(2) لم يكد أبو بكر ينتهي من حروب الردة حتى أخذ يرسل الجيوش إلى دولتي الفرس والروم، وكان فيمن أمرهم لغزو الروم بالشام يزيد. المسعودي، مروج الذهب الرابع ص 186 - 187. ابن خلدون العبر المجلد الثاني ص 898 م . . .

بمَعونتِه ، الى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم والموحدين الذين بأغرناطة أدام الله كرامتَهم ، ووصل توفيقهم ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته : أما بعد فإنا نحمدُ اليكم الله الذي لا إله إلا هُو ، ونشكُره على الائِه ونعمه ، ونصلي على مَحمّد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضى عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله والدّاعي الى سبيله ، ونوالي الدُّعا لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ممشي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم آمالاً مُبَلّغة ، وأماني في صلاح أحوالكم مهنّأة مسوّغة ، من حضرة مراكش حَرَسَها الله ، والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعتِه والاستعانة به ، والتوكُّل عليه والثِّقة بأنّه تعالى ناصرُ هذا الأمرِ العزيز ومؤيِّده ، ومعينُه ومنجده ، ومتولّيه بما يظفره بكل جاحدٍ لحقّه ، عمٍ عن نُوره ، عادل عن سبيله ، معرض عن داعيه ، لتمضي سنةُ الله في انتشار دعوته ، وامتداد شعتِه[1] وظُهور كلمته ، وإنجازِ ما وَعَدَهُ من الاستيلاء على الأدنى والأبعدَ ، وضمِنَ له من البقاء الدائم السرمد ، وإنَّ أمْر تلكم الجزيرة مهَّدَها الله لَمِنْ آكَدِ ما توجَّه اليه نظرُنا ، وتوكل به اعتناؤنا واشتَغَلَ به فكرُنا ، لمُصاقبة الأعداء الرُّوميين والمجَسِّمِين [217] لبلاد الموحّدين بها وإلحاحهم على جنباته ، واسترسالهم في سُبُل الاغترار وطرق الانهمال عمَّا يدهمهم من أمر الله تعالى الذي يأخذ فيهم لدينه بحقّ الانتصاف ، ويكيل له من إدْراك الثّأر بالكَيل الواف . وقد اتفقنا في هذه الأيام على أن يتوجه اليها أخونا أبو إسحاق إبراهيم بن سيدنا أمير المؤمنين وفّقه الله في عسكر مبارك من الموحدين والعرب وفرهم الله ليكون بقرطبة مهَّدها الله ورجوْنا من تعاونه مع إخواته الذين بإشبيلية حرسها الله وتعاضدهم جميعاً ، وتوازرهم على الجهاد ، وحماية البلاد ، والنظر في المصالح ، وكافّة ما وصّيناهم به في هذه الأغراض ، وحماية البلاد ، والنظر في المصالح ، وكافّة ما وصّيناهم به في هذه الأغراض ، أن تظهر عليهم بركةُ سيدنا أمير المؤمنين

(1) كذا في المخطوط بالتاء المثناة ولعلَّ الأصل شعبته.

وآثاره، وما أخذنا عليهم من عُهود التقبُّل لها والاقتداء بها، وأن ينفع الله بهم، ويعرف عن اجتماعهم، وأن يسعدهم ويسعد بهم، وعلى ذلك فالنظر مستتب والغوثُ مطّرد، وهذه كلّها مقدماتٌ بين يدي ما ينوي من الغزو الأعَم، والجهاد الأتم، الذي يمحق الله به الباطل، ويعفي أثره ويعدم عينه، على ما وعد أنه لا يُخلف الميعاد، فاشكروا الله على ذلك، واستبشروا وبشّروا إخوانكم بجميع جهاتكم وأنظاركم بإقبال هذه الخبر، وتوالي النَّظر، وأنِّسوا به القلوب وسكِّنوا به النفوس وثبِّتوا به الأقدام، وأجدّوا في الجهات بنياتٍ خالصة، [218] وعزماتٍ صادقة، وكونوا على أتمّ التعاون، وأوفى التَّعاضد، واستشعروا الإقبال، وصلاح الأحوال، إن شاء الله . وقد خاطبنا الطلبة الذين بإشبيلية أن يدفعوا للموحدين الذين بأغرناطة من البركة مثل ما أخذه أهل قُرطبة، وكذلك خاطبنا كم أن يستمِر لكم النظر في الآلات والأسلِحة التي تحتاجون للقَصَبَة حَماها الله، فاعلموا ذلك، والله تعالى وليُّ عونكم بمِنّـِه والسَّلام العَميم الكريم عليكم ورحمة الله. كتب في الثاني والعشرين من جمادى الآخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة .

(اشتباك جيش الموحدين بخيل جرانده بين وادي آش وغرناطة)

وفي تاريخ وصول هذه الرسالة الكريمة إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن أبي ابراهيم خرجت من مدينة وادي آش[1] جملة ذميمة من خيل جرنده[2] من المحاربين وأصحابهم النصارى الكافرين ـ أهلكهم الله ـ مختلسين مختطفين الفساد في أنظار الموحدين، فأسْروا ليلَهم ونهارَهم حتى

(1) راجع تعليق رقم 2 ص 220.

(2) جرانده: (Giraldo) يرسمه ابن صاحب الصلاة هنا بدون ألف بعد الراء، ويظهر أنه هو نفس جرانده الجليقي الذي ينعته ابن صاحب الصلاة أحياناً بالكلب والمعروف تحت اسم (Giralda Sem pavor). هذا وعندما كان الأستاذ ويسي ينقل هنا ما ورد عن ابن صاحب الصلاة أعرض نهائياً عن ذكر (جرانده) وعوض العبارة على النحو التالي: من المسيحيين الذين كانوا في خدمة ابن مردنيش بوادي آش. . .) المن بالإمامة. 233 - Huici P. 232 .

وصلوا نظر مدينة رندة ـ كلأها الله ـ فغنِموا بعضَه، واكتسحوا سائمتَه وماشيته من الغنم والبقر والدواب والمتاع، وعلم الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بذلك بأغرناطة، فحزم في أمرهم وفي حسْم شرِّهم، وبعث في اتباعهم ودفاعهم جملةً مباركة من عسكر أغرناطة من الموحدين والجنْد الأندلسيين مع الرُّماة والرجَّالة وفَّرهم الله [219] فالتقوا بالأشقياء وهم منصرفون بالغنائم بين نظِر وادي آش وبين نظِر أغِرناطة، فحين عاينوا الموحدين ـ أنجدهم الله ـ آووا إلى جبل شاهق، فحمل الموحدون ـ أنجدهم الله ـ على الكافرين حملة صادقة طاردُوهم فيها من أول صلاة الظهر، إلى أن هبَّت عليهم ريح النصر خلال وقت العصر، وولى الكافرون أدْبارهم، وهزموهم في أعلى الجبل المذكور وأزعجوهم فيه حتى تردّوا من حافاتِه، وتكسَّرت أعضائهم وتمزَّقت أجسامهم، واستولى الموحدون ـ وفَّرهم الله ـ عليهم بالقَتْل والأسر والسبي وأنقذوا الغنائم، وحازوا أسلابهم ودوَّابهم، وسبوا من أعلاج النصارى ثلاثة وخمسين علجاً استاقوهم إلى غرناطة مع جملة الغنائم، فغزاهم الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بنفسه مع أصحابه المختصين به من الحفاظ، وضربوا رقابهم، وخمَّس الشيخ أسلابهم، وكان فتحاً جسيماً للموحدين، وبرحاً عظيماً مليماً على الكافرين، انبسطت به آمال أغرناطة في جهاتِهم، واتَّسعت الأحوال بالأمنة في جنباتهم. وعرَّف الشيخ الحافظ المرحوم أبو عبد الله بهذا الفتح حضرة أمير المؤمنين رضي الله عنه فجاوبه بما هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده مِن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم [220] الله بنَصْرِه، وأمدهم بمعونته، إلى الطلبة الذين باغرناطة، أكرمهم الله بتقواه، سلامٌ عليكم ورحمةُ الله تعالى وبركاتُه. أما بعدُ فإنا نحمدُ إليكم الله الذي لا إلاه إلا هو، ونشكُره على آلائه ونعمه، ونصلِّي على محمد نبيِّه المصطفَى ورسُوله. ونسألُه الرضى عنِ الإمام المعصُوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله تعالى والداعي إلى سبيله، ونوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفتِه الإمام أمير المؤمنين، مُمْشِي أمره

العزيز إلى غاية تتميمه وتكْميله، وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضْرةِ مراكش حرسَها الله، والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعتِهِ والإستعانةُ به، والتوكُّلُ علَيْه وإن تشكروه على ما يوالي بِهِ هذَا الأمرَ العزيز وأهْلَه من مواهبِ النَّصْر وموانح التأييد التي يعلي بها كَعْبته، ويظهر به حزْبه، إمْضاءً لسنته، وطرداً لعادته، والحمدِ لله وقد وصلنا كتابُكم من أغرناطة حَمَاها الله بما سنَّاه الله في الأعداء الكفرة الذين كانوا بوادي آش - فتحها الله -، من الفتح الذي عرَّفهم به قدْرَ اغتِرارهم ومكان جهْلِهم، وموضِع الإملاء لهم، بما كانوا اعتادوه من التسحُّب على أطراف تلكُم الجِهَات بالاختِلاس والاختطاف على ما ذكرتُم فيسَّر الله لكُم من أسْبَاب العَوْن عليهِمْ، ومكيفات الإنْجَادِ في الأخْذِ بالثأرِ منْهُم ما شرحتُموه في كتابِكُم، وبيَّنْتُمُوهُ [221] بإعلامكم ممَّا وقفْنا مِنه على مَا سرَّ موقعه، وحسُن مطلعُه، وجَرَى عَلَى مَعْلُوم هذا الأمر في نُصْرته وتأييدهِ، والصّنْع الجميل له، وإخزاءِ أعدائه، وادّحار مُعانديه، والَّذي منح الله الموحِّدين في هذه الغزوة المباركة خيرٌ كثِير، وأثَرٌ جَمِيل، وله في تمْهيد تلكم الجهات وتأنيس أهْلها وبسْطِ آمالهم وتسكين نفوسِهم، ومثابةٍ من فَتِّ أعضاد الكَفَرة وتوهين أمْرِهم، وإشعارهم الأدْبَار في أحْوَالهم، والارتِكاس في حَويلهم مواقعُ ظاهرةُ الآثار، بيِّنَةُ المنافع، مَعَ ما خيَّر الله في تلك الحالِ من الغَنَائم التي اغتصبُوها أهلَها، واقتطعُوها من أربابها، فأحَقَّ الله الحقَّ وأبطل الباطِل ولو كره المُجْرِمُون. فاشكروا الله تعالى على تَوْفيقه الذي يمَّن قصدَكم، وأنْهَض عزمكُم، وسدَّد رأيكم، وقابِلُوا ذلك بما يقْتضِي له المزيدَ من فَضْله والمضاعف من إحْسانِه. وبشّرُوا المُوَحِّدين والغُزَاة بنعْمَة اللهِ عليهم في الظُّهُور على أعدائِهم، والنَّصْر لدعْوتهم، وأن لهم عند الله مع هذِهِ العطيةِ الثواب المدَّخر، والأجر الأجْزَل الأوفر، وليسْتَدِيموا ذلِك بالأعمال الصَّالحة، والقُلُوب الطَّاهِرة، والأحْوَال المُسْتقيمة، والله وليُّ العَوْن على ما يقرِّبُ مِنْه ويزلف عبدَه بِمَنِّه، والسلامُ الكريم العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاتُه، وكتب في الثالث من شهْر رمضان المعظم سنة ثلاثة وستين وخمس [222] مائة.

وجاوَبه السيدُ الأعلى أبو حفص أيضاً في التَّاريخ المذكور بهذا:

بسْم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم من عُمَر بن أمير المؤمنين إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم أدام الله كرامته بتَقْواه. سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، أما بعد حمْدِ الله تَعَالى، والصلاةِ على محمَّدٍ عبده ورسوله المصطَفَى، والرِّضا عن الإمَام المعصوم، المهْدي المعلوم، المرتضى، والدّعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الأكرم الأهْدَى، وبمثله لأمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النَّصر الأحْفَل الأحْفَى، فكتبناه إليكم - أدام الله توفيقكم - من حَضْرةِ مراكش - حرسها الله - ولا جديد إلا نعَمُ الله المتوالية، وآلاؤه الرائحة والغادِية، وتعرف بركَةَ هَذَا الأمْر العزيز في كلّ ظَعَنٍ وإقامة، على أتم الأحوال المستدامَة، والحمدُ لله، وقد وصلَنا كتابُكم المبرور، مضمناً من البشائر بجهادِكُم في الكفرة، واجْتِهادِكم، ما أجرى الله به عادةَ هذا الأمْرِ في تيسُّر أسْبابها، وانفتاح أبْوابها، وإلمامها على الدَّوام وانتيابِها، واستوضحت من أعلامكم جلية، وأتتْ على وفق الإرادة حميدةً مرضية، فاشكُرُوا الله على ما سنَّاه لكم مِنْها [223] ومَنَحكم من أجْرِ التَّعريف بها، وامضُوا على ما أنتُم بسَبِيلِهِ من الاجتهادِ في أُمُوركم، والعُكُوفِ على أشْغَالكم، ووالُوا الإعلام بما يتجَدَّد عِنْدَكُم إنْ شَاء الله. والله وليُّ عونكم والسَّلام الكريمُ العَمِيم عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ.
كُتِبَ في الثَّالث من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث وستين وخمس مائة.

(تشغيب أهل جبل تاسررت)

وفي هذه السنة شغَب قوم من البرابر المرتدين في جهة جبل تاسررت(1) وحين صحَّ خبرُهم بتشغِيبهم وارتدادِهم، وعزمهم على عِنَادِهم، عسكر إليهم

(1) لم نهتد لمعرفة موقع جبل تاسررت (Tasart) بالضبط، فقد اختفى من النص كل دليل - باستثناء كلمة «البرابر» - قد يُرْشِد، ولم نعرف أكثر من أن هناك جهة تحمل نفس الاسم تقريباً (Tasrirt) كانت تمرَّدت وبعث لها بالقائد وسنار وقد فتحها المهدي سنة 521.
البيذق: أخبار المهدي ص 117 - 118 - ابن عذاري 64. 614 - Huici 76.

السيد الأعلى أبو حفص ـ رضي الله عنه ـ بجَمْعٍ وافرٍ من الموحدين ـ أعزَّهم الله ـ فغَزاهم وأَجْلاهم عن ذلك الجبل، وقتلهم فيه شرَّ مقتل، وأحْدَث فيهم حدث الزَّمان المعضل، وطعنهم فيه طعْنَة البطل الشجاع الحُوَّل، واستأصلهم سبياً ونفياً، ولم يدَع لهم في حيّهم حَيّاً، وانصرف على عادته التي عوَّده الله من النصرْ والظفر، والسرور ونيل الوطر، فقال أبو عمر بن حَرْبُون يمدَحُه ويهنئه بغَزْوتِه، ونَيْلِ بغْيتِه: (متقارب).

بيُمنِكُم أُنْجِحَ المطلبُ   وأعطَى مقادتَه المصعَب[1]
[224] وأشْرقتِ الأرض عن نُوركُم   فلم يَبْقَ في أُفُقٍ غَيْهَبُ
فلم تَدَعُوا غايةً تُنتَجَى   ولم تتركُوا شاغِباً يَشْغَبُ
فحسب عزائِمِكم حسبُها   فقد ذهَبَتْ حَيْثُ لا مَذْهَب
أطاعَك دهْرُك في العالَمِين   فيَرْضَى مَتَى شِئْتَ أو يَغْضَب
فسِقِدْحُكم فَايزٌ بالمُنَى   وقِدْحُ أَعَادِيكم الأخْيَب[2]
ومَاذَا تُؤمّلُ هذِي الرعَاع   وأنَّى لَهَا عنكُمُ مَهْرَب؟
ستَبْرأ إليك[3] مِنْهَا الشّعاب   ويُسْلِمُها البازِل الأصْهَب
وكيف يفوتُكُمُ هَارِبٌ. . . .   ولله مَطْلُوبُكُمْ يطلُب
لقَدْ ركبُوا مركبَ الجَاهِلين   والجَهْل من شَرٍّ ما يُرْكَب
أمَا عَلموا أنَّهَا طَاعَةٌ   بِهَا يُعْمَر العمر أو يُخْرَبُ
ولو أنَّهم وُفِّقُوا للرَّشَاد   لأغضَيْتَ عنْ بَعْضِ ما اسْتَوْجَبُوا
ولم يُحْرمُوا من رِضَاكُم ذُنُو   باً بِهَا يُرْحَضُ الدَّرن المُذْنِب

(1) اقتصر ابن عذاري على ايراد ستة أبيات منها، ص 64.
(2) يشير البيت لِقداح الميسر الفائزة وقداحه العاطلة، ويعتبر الحديث عن الميسر وتقاليده وعاداته من أمتع المواضيع وأطرفها، فإن الأسهم الرابحة: الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى. . . أمّا القداح الخائبة: المنيح والسَّفيح والوغد.
التازي: أداب لامية العرب (طبعة الرباط).
(3) يظهر أن الأصل تقديم لفظ (منها) على كلمة (إليك): ستبرأ مِنها إليك الشعاب، ليستقيم وزن البيت.

تَركْتُم دِيَارَهُم بَلْقعاً   فتَنْدُبُ مَنْ جَاءَها يَنْدُب
ولا غَرْوَ أنْ صَال لَيْثُ الشَّرَى   فرَاغَ مخافَته الثَّعْلَبُ. . . .
رَميتَ بِهَا الهَضَباتِ العُلَى   فخافَكَ فِي أوْجِهِ الكَوْكَبُ
فمزَّقْتُمُ شَمْلَهُم في البِلَادِ   ففَلُهُمُ جَمَلُ أجْرَب[1]
وقد ركَدَتْ نفَحاتُ الجَنُوب   غَدَاةَ أتَتْ نَحْوَهَا تَجْنُبُ
جِيَادٌ لو اختَلطَتْ بالظِّبَاء   لم يُدْرَ أيُّهُمَا الرَّبْرَبُ
جُيُوشٌ تسِير وقُدَّامَهَا   جُيُوشٌ مِنَ الرُّعْبِ لا تحسَبُ
[225] طلائعُها المَلا الأكْرَمُون   فلم يخْلُ منْ مَلَكٍ مَرْقَبُ
إذا أخذتْ للوَغى زَيَّها   ولاحَ لديكَ بها المَذْهَبُ
رأيتَ سبائِبَ رَوْض الرُّبا   يغصُّ بها الأفيحُ السَّبْسَبُ
تودُّ الكواكِبُ لوْ أنَّها   من بعْض جُنُودِهِم مَوْكِبُ
ألستَ الذِي بمقاماتِهِ   يَبْأى على المَشْرِقِ المَغْربُ!!
سَليلُ الخلافة صنْو الإمام   وسيفُهما المِقْصلُ المقضَبُ
فيهنِي الخلافةُ أن أصْبَحَتْ   بصارمِ سيفِكُم تَضْرِبُ
حميتُم حِماها فأنَّى تُرام   ومن دونِها البَاسِلُ الأغْلَبُ
ومن سَعْدِها أنَّها مِنْكُمُ   أُتيحَ لهَا الحُوَّلُ القُلَّبُ
ألمْ ترَ قَيْصرَ في مُلكِهِ   إلى السِّلْمِ من بأسِكُم يَهرَبُ
ولمَّا تنلْه سِوى عضَّةٍ   لَها بين أكتافِهِ مِخْلَبُ
لَقَدْ عمَّت الأرْضَ الأوْكُم   فكلُّ جديدٍ بكُم مُخْصِبُ
فلو أطلِقتْ دعوَةُ المُدَّعي   إذاً لادَّعاكَ الحَيا الصيِّبُ
رضاكَ أبا حفص المُرتَضى   فإنَّ بهِ الدَّهْرَ يسْتَعْتِبُ
تحير في كنْهِكَ الألمَعِيُّ   وقصَّر في مدْحِكَ المُسْهِبُ
فلا زلتَ يرجُوك من يَرْتَجي   ويرهب بأسَك من يَرْهبُ
أمولاي أخْرسَني فضلُكُم   فما لي لسان بهِ أعْربُ

(1) ابن عذاري ص 64: كأنهم جمل أجرب.

ولـو أنجـدتنـيَ لـم تـشْـفـنـي … مـعَـدُّ بن عـدنـان أو يَـعْـربُ![1]
فمـا لي سـوى حـزبكم شيعـةً … ولا غيـر مـشعبِكُم مَـشْعَـبُ
[226] وحسبي بـه شَـرَفاً أنّني … ولائي إلى مـجـدِكُم يُـنـسَـبُ
أمـنـتُ بـكُـم كـلَّ مـا أتَّـقـي … ونِـلتُ بـكُـم فـوْقَ مـا أرْغَـبُ

ووصـل إلى أمير المؤمنين أبي يعقـوب بن أميـر المؤمنين - رضي الله عنهم - فتحٌ بوقعةٍ كانت على المخالفين المرتدين بالمغرب فأمر أن يبتدئ الشعراء فيها بالحمد لله على طريق الكتابة.

فقال أبو عمر بن حربون في ذلك: (بسيط)

الحمـدُ لله مُـدْني شـاسع الأمَـل … وناظِم الشَّمل في سِلكٍ من الجَذَل[2]
ومَن أتـاحَ لنصـرِ الـدِّين طـائفـةً … تضمَّنت ريَّ[3] هيم البِيضِ والأسَل
تضاءلَ الضَّيْغَمُ العادي لصَوْلتهم … حتى اغتدى يتمشّى مشيةَ الوَعِل
ثم الصَّلاة معَ التَّسْليم يشفعُها … على الرَّسول الذي اسْتوفى مَدى الرُّسل
على الـذي تمَّمَتْ أحكـام ملَّتِـه … مكارماً لم تكنْ في سَـالِفِ المِلَل
ومَن رضـاه على المهـديّ أحفَلُه … كمـا هَدَى بسَنـاه أرشـدَ السُّبُـل
لمـا اجتبـاه لنصْـر الـدِّين أيَّـدَهُ … بعصمـةٍ أمَّنتْـه مـدحضَ الـزَّلَـل
ثمَّ الـدُّعـاء لمـولانـا وسيِّـدِنـا … خليفـةِ الله عبْـد المؤمن بـن عَلي
هـوَ الإمام الـذي كـادَتْ فضـائِلُه … تجـلُّ عن رُتْبَـة التَّشبيـه والمَثَـل
هـوَ الجـوادُ الـذي جاءَت مـواهبُهُ … بكـلِّ مـا لم يقعْ في خـاطِر الأمـل
[227] هُـمُ جـدَّدُوا مـن رُسُـوم الـدِّين دَارِسَـه … كـان الـوَرَى وقـفُـوا مِـنْـهَـا عـلى طَـلَل

(1) معد بن عدنان رأس قبائل العرب فمن (معد) كان نزار والد مضر وجدّ قيس عيلان أما عن يعرب فراجع التعليق رقم 1 ص 73. هذا وتذكّرنا هذه المبالغات في ادعاءات المتنبي وإضرابه، ولذلك فقد كتبت طرة يسرة هذين البيتين تقول: «تجاسُر عظيم».
عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب ثالث 1121 - 1266.
(2) اقتصر ابن عذاري على أحد عشر بيتاً من هذه اللاّمية على عادته في الاختصار.
(3) أي أن هذه الطائفة عهد إليها بارواء ظمأ البيض والاسل.

وجـرِّدوا لـلأعـادِي كـلَّ عـادِيـةٍ … يُمْسِي ويُصْبح منْها الدَّهْرُ في شُغُل
من معْشَرٍ كلَّما انتاشُوا عَـواملَهم … تجرَّعُوا الصَّابَ أو أمضوا إلى العَمَل
ولـلإمـامِ أبي يعقـوبَ مشبِهِهم … ومن تقيُّلِهم في القَـوْلِ والعَمَـلِ
مَـلكٌ تـظَلّ ملوكُ الأرْضِ تَـتْبَعُـه … مُسْتَبْشِرين بأن عُـدُّوا مِن الخَوَل
فيسحب النَّاسُ مِن مَعروفِـه حُلَلاً … ومـا لَـه غيـرُ تَقْـوَى الله من حُلَل
إذا دنـتْ دَارُهـم فـاعـطفْ أزِمَّـتَـهَـا … واحـطُطْ رِحـالَـك فِـيـهَـا مُـنْتَـهَـى الـرحـل
وانـزِلْ لَـدَى سـاحـةٍ ريَّـا مـبـارَكَـةٍ … واشـكُـر أيـاديَ أيْـدِي الـخَـيْـل والإبـل
قـد يـمَّـمَـتْـكُـم وحَـادِي الـشَّـوْقِ يـحفِـزُهَـا … والـرَّمْـلُ يـشْـكُـو الـذِي يَـشْكُـو مـن الـرِعَـل
وإن عَـلَـتْ سَـنَـداً أوْرَتْ بـه زَنَـدا … تـلقَـى الـقُلُوب بـمـا فِـيـهـا مِـن الـشُّـعَـل
لم تقـرب الـدارُ إلا أرزَمَتْ طَـرباً … قربُ المَواردِ يُـذْكي وقدةَ الغُلل!
لقَدْ براها السُّرى حتى لو انتسبَتْ … لما عدتْ منتهَى الخطيّةِ الذُّبُل
إن أسفر الصُّبْحُ مِنْ تِلقائكم سَفَرت … رسل الصبابة بَيْن القلب والمُقَل
وكـلَّمـا هـبَّـتِ الأرْواح وانـيـةً … سنَّت لِهَـذِي المَطايا سنَّةَ العجل
يـا خَيْر من يـدعي الأبطالُ باسْمِهم … والخَيْل من مستطير النَّقْع في ظلل
ومَن لَهُم راحـةٌ سَحَّاءُ مُـذْ خُلِقتْ … لم يحْفل النَّاسُ يا لو كَّافَةِ الهطل
ومَن أبَى الله أن تحصى مكارمُهُمْ … إلاَّ إذَا تـرك التفْصِيل لـلجُمَل
لَـوْ أنَّ لـيلهم ممـا يُـجَادُ بـه … تقسَّمتْه ظِباءُ القَفْر عن كَحَل
إنـا قـطعْنـا إليكم كـلَّ مـرحـلَةٍ … تَضِجُّ منْها ذَوَاتُ الأذرع الفُتُل
[228] حتَّى وردْنـا وُرُودَ الـحَـائِمَـاتِ وفِي … لـقـائِـكـم مَـا يـفِـي بـالـعَـلِّ والـنَّـهَـل
فـاسألْ بِهـا جَبَل الفتْح المُبِين فقد … أهْـدَى تحيتَـه منكُم إلى جَبَـل
فـمـا تعـذَّر من أوطـاركم وطَـرٌ … ولا تبقَّت لكم حَـوْجَـاء لم تُـنَـل

ولا تفتَّقَ فِي البـرَّيْنِ مِنْ خَلَلٍ — إلَّا وقَـدْ رتَقـتْـه ربَّـة الـخـلَل
بشـائـرٌ عمَّتِ الآفـاقِ قـاطِبَـةً — يـدْعُو لَهَا هُبَلُ[1] بـالـوَيْـل والهَبَل
لا شَـكَّ فـي أنَّ أمْـر الله أمـرُكُـم — مـؤلَّفٌ بَيْن بِيض الهِنْـدِ والقُلَل
أمـرٌ تـظَلُّ صُـروفُ الـدَّهْـرِ تَـخْـدُمُـه — مَـهْـمَـا يُـشر نـحـوَهـا بـالأمْـر تَمْـتَثِـل
لـو نـازعـتْـه سُيُـوفُ الـهِـنْـدِ مـا قـطَعـتْ — ولـو عـصَتْـهُ رِمـاحُ الـخَط[2] لـم تُـطل
هَـذِي فُـتـوحُـكـم بـالـغَـرْب قـد طَـلَعَـتْ — عَـلَى الأنَـامِ طُـلُوعَ الـشَّـمْسِ فِـي الـحَـمَـل[3]
وقـائعُ حـدقت بهـا القَنَى مُقَـلاً — بـلاَ جُفُونٍ وأجفـانـاً بـلا مُقَـل
أنَّـى عَـمُـوا عـن سَبِـيـل الـرُّشْـدِ ويـحَـهُـمْ — يـا ضُـلَّ مَـن ضَـلَّ فـي مَـهْـدِيـةِ الـدُّولِ
سَـرَوْا بعَـاقِبـةِ الإنـعـام عـاقبـةً — تَنُوسهُم بيْن سَهْلِ الأرض والجَبَل
فـاصْبَحُـوا عبـرةً تَبْـدُو لـمعتبِـرٍ — مجـدَّلِينَ بِمَـا رَامُـوه من جَـدَلِ
لَـمَّـا أتَـتْـهُـم جـنـودُ اللهِ أسْـلَمَـهُـم — شَـيْـطانُـهـم، وانْـثَـنَـى يَـثْـنِـي على الـحِـيَـل

(1) هبل: من ابرز الأصنام التي كانت في جوف الكعبة، وقد كان أمامه سبعة من القداح يستقسمون بها أمامه! تاريخ الإسلام ص 69 - 70 - 71.
(2) الخط: انظر التعليق رقم 3 صفحة 101.
(3) احد البروج الاثني عشر وهو من البروج الربيعية وللشمس في إبان الربيع بهاء كما لا يخفى لذلك نرى الشاعر يشبه بها فتوح الخليفة، فإذا حلت الشمس فيه حصل الاعتدال الربيعي كما قال أبو نواس:
أمـا تـرى الشمس فيـه حلَّت الحَمَـلا — وقـام وزن الـزمـان واعـتـدلا
وهو أشرف البروج كما قال بعضهم:
يـا أوحـد النـاس قـد شيـدت واحـدة — فحُـلَّ فيهـا حلول الشمس في الحمـل
وقال الطغرائي:
لـو كـان في شـرف المـأوى بلوغ منى — لم تبـرح الشمس يـومـاً دارة الحمـل!

لَـحَـاهُـم الله مـن بُـلْـهٍ زَعـانِـفَـةٍ — رامُـوا كـفـاحَ الـبُـزاةِ الـشُّـهْـب بـالـحَـجَـل!
ومن يحِدْ عن سَبِيل المؤمنين يُحَذ — بعـدْلِ كـلِّ أصَمِّ الكَعْبِ معتـدِلِ
لم يَبْقَ مِن بَعْـدِهَـا إلا لقـاؤُكُمُ — ثُمَّ الـذِي شـاءتِ الآمَـالُ من نِحَلِ
ودُونَـكُـم قَـبْـل هَـذَا مـن تـحـيَّـتِـنَـا — مـا يـفْضَـح الـرَّوض عَـبَّ الـعـارِضِ الـهَـطِل
لا زَالَ أمـركم حتْمـاً وحضْـرتُـكُم — معْمـورةَ الـرّكْن بـالإقْبَال والقُبَـل

[229] قال الفقيهُ الخطيب أبو محمد المالقي رحمه الله: استحسن الأمر - أدامه الله - لأبي عمر هذه القصيدة حين صاغ فيها المذهب المراد، وقصد فيها الاقتصاد، وسبق أصحابه الشعراء القصاد، وتقرب للأمر العزيز - أدامه الله - بأغراضِهِ النبيلة فعلى ذكره وشاد.

(محاصرة الجيش الموحدي لحصن طبيرة)

قال المؤلف: وفي هذه السنة لازم الموحدون أعزهم الله حصن طبيرة[1] بالحصار، وللغادر الثائر فيها عبد الله بن عُبَيْد الله[2] بالضيقة عليها والإسار، برّاً وبحراً، وسكنوا في حصن قسطلة[3] بعسكرهم المؤيّد يضربون عليها نهاراً

(1) طبيرة (Tavira) تقع على شاطىء البحر المتوسط في الشرق الجنوبي لمدينة شلب وقد نسب إليها جماعة من الأيمة، منهم أبو محمد عبد العزيز بن الحسين الطبيري المتوفى سنة 617، هذا وطبيرة غير طلبيرة (Talavera) التي تقع في الشمال الغربي لطليطلة، وقد تردَّد الحميري في الفرق بينهما.
المعجب (القاهرة) ص 374 الروض المعطار ص 123 - 127 - 128 - المعجم جزء 4 ص 21.
(2) لم نقف على ذكر لعبد الله بن عبيد الله هذا الذي ثار منذ سنة 546 ولعله كان ضمن الذين ذكروا في كتاب «ثورة المريدين» بيد أننا لم نجد صداه في الحلة السيراء التي نقلت عن هذا الكتاب..
Huici T II page 235.
(3) قسطلة (Cacella) تقع في غرب الأندلس في الشمال الشرقي من طبيرة على مقربة منها على شاطىء المحيط الأطلسي. هذا هو القصد هنا، وهناك مواضع أخرى من الأندلس تحمل اسم قسطلة.
الروض المعطار صفحة 160: الحلل السندسية أول 86. ديوان ابن دراج القسطلي: نشر محمود علي مكي صفحة 30 - 31 - 32.

وليلاً، وينالون من أعدائهم كل ساعة نيلاً، عزماً منهم عليها في دفع ضررها، ورفع شرها الذي استشرى فيها، من أول عام ستة وأربعين وخمس مائة إلى آخر عام ثلاثة وستين وخمس مائة باجتماع الفسقة في داخلها من أصناف الدايرين من أهل الشَّرف والسرف بالفسق والعصيان، وإذاية المسلمين في البر والبحر من كل البلدان، فكانت شجىً على أهل العدوة والأندلس في نَهْب أموال المسافرين والتُّجار في البراري والبحار. وقد كان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أيام إمارته العزيزة بإشبيلية نَازَلَها مرتين فعصت عليه، وامتنعت بفساقها لديه، حتى فتحها الله لو في خلافته بسعده ويمنه [230] عقب شهر ذي القعدة من السنة المؤرخة بعد ما كان إبعاد النجعة في نيلها، واليأس من إصباح ليلها، فيسرها الله تعالى بيمن أمير المؤمنين إذْ لكل أجلٍ كتاب، ولتمام المواعيد أقدار محتومة وأسباب، فسر أمير المؤمنين بارتفاع شغبها، وانقطاع نفاقها الطائل في السنين ونوبها، وقد شرحت حالها ومن نافق داخلها في (تاريخ المريدين).

(التجاء فرنانده للموحدين ومقامه مكرماً بمدينة مراكش)

وفي هذه السنة أيضاً سنة ثلاث المؤرخة وصل فرنانده [1] رايس النصراني - صاحب ترجالة [2] الشهير النسب والشهامة عند النصارى - أهلكهم الله - صهر أدفونش السليطن [3] صاحب طليطلة - فتحها الله - إلى

(1) فرنانده (Fernando Rodriguez) وقد ثبت في المخطوط بعد اسم فرنانده كلمة رايس ولعلها تحريف عن «روكيز» تتمة الكلمة الثانية، وقد أغفل ويسي الكلمة نهائياً.
Huici p. 234.

(2) ترجالة (Trujillo): تقع غرب طليطلة في الشَّمال الشرقي من بطليوس وفي الجنوب الشرقي من قاصرش. يقول الحميري أنه حصن منيع ذو أسوار وأسواق.
الروض المعطار ص 63 - الحلل السندسية أول ص 100.

(3) اذفونش السُّلَيْطن صاحب طليطلة هو بالذات الامبراطور الفونسو السابع صاحب طليطلة عاصمة قشتالة: (Alfonso VII cl Emperador) وهو الذي يحمل اسم رموندس، وقد نقلت المصادر المسيحية أنه توفي في مضيق مورادال (Muradal) في 21 غشت سنة 1157 (13 رجب 552) على أثر اشتباك مع الموحدين إلا أن هذه المصادر تتردد في سبب وفاته هل انها كانت تأثراً من الجراح =

إشبيلية - حرسها الله - في شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة بنفسه وإخوته راغباً أن يكون خديماً لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين - أيدهم الله - منابذاً لشيعته الكافرين، فاستأذن له الموحدون الذين بإشبيلية حضرة أمير المؤمنين بمراكش - أدام الله علاها - فأذن له في الوصول، فمشى إليها بأصحابه وإخوته الواصلين معه، وأقام في الحضرة العلية خمسة أشهر تحت إحسان من الأمر العالي وامتنان وعطاء جزيل، وإسكان كفيل، وألّف قلبه بالأنعام الحفيل، حتى كاد أن يسلم، وعاهد الله في نصح الأمر بالخدمة المجدة واستسلم، وضمن عن نفسه عن [1] ثغور بلاد الموحدين، وأن يكون [231] رِدْءاً لهم حليفاً للمسلمين، فانصرف تحت هذا الإحسان، والصلح التام منه بالإيمان، وأمر له الأمر العالي - أدامه الله وخلده - بمواساته إخوته وأصحابه مع الموحدين - أعزهم الله - في كل شهر فكان ذلك.

= التي نالته أم أنها موت طبيعي، وتؤكد المصادر العربية وفاة الفونسو السابع الذي تسميه «السُّلَيْطن» بهذا التاريخ، فقد احتفظ لنا التاريخ برسالة موحدية بليغة من إنشاء أبي عقيل عطية بن عطية تخبر بفتح المرية وبياسة وأبذة وموت السليطن وحررت هذه الرسالة في العشر الأول من شعبان 552 ستنبر 1157، لكنها أي المصادر العربية تؤكد أنه مات متأثراً لجراحه.
ابن عذاري 65 - ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص 331 - بروفنصال رسائل موحدية ص - 81 71. اشباخ: تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 231 - 255 - 258.
Huici Historia Politica page 179 - 138 - 234.
راجع التعليق رقم 3 ص 97 وراجع التعليق رقم 3 ص 153.
Dozy: Recherches 115.
Melchor Antuna: una version arabe comendiada de la Estoria de Espana de Alfonso el sobio.

(1) لعل لفظة عن زائدة.

(طلب فرنانده الببوج مهادنة الموحدين)

وفي هذه السنة أيضاً تابعه بالصلح صهره فرنانده الببوج[1] بن أدفونش المعروفِ بالسُّلَيطن[2] صاحب السبطاط[3] بعد ابتنائه لها[4]، ورغب في المهادنة وأن يكون مع الموحدين أيدهم الله ـ وعوناً لهم بعسكره على أعْدائهم، وذكر أن بينه وبين القمط نونه[5] ظِئر[6] ابن أخيه أدفونش الصغير[7]

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 97 ورقم 3 ص 153 ورقم 1 صفحة 284.

(2) السُّلَيطن نعت لأذفونش، وقد علمت أن السليطن وهو الفونسو السابع توفي في 13 رجب 552.

(3) صاحب السبطاط ينبغي قراءته بالرفع نعتاً ثانياً لفرنانده الببوج، وحول السبطاط راجع التعليق رقم 4 ص 153.

(4) لعله يريد بعد ابتنائه لمدينة السبطاط.

(5) يعني به القمط نونيه بيرير دولارا (Nuno Perez de Lara)، ويذكر التاريخ أن القيصر الفونسو السّابع (ريمندس) خلف من البنين صانشو الثالث وهو أكبر أولاده وكان ملكاً على طليطلة كما ترك فرنانده الثاني (الببوج) الذي كان ملكاً على ليون، وقد كان شانسو الثالث رشح في حياته طفلَه الصغير للحكم، ولكنه عوض أن يسند النيابة في الحكم لعم الطفل فرنانده (الببوج) جعلها لسليل من أسرة كاسترو، فحنقت أسرة دي لارا، والتجأت إلى عمه ليحمي ابن أخيه، وبالفعل احتل العم معظم قشتالة وأعلن توليه الوصاية على ابن أخيه سنة 554 (1159) لكنه كان شديداً في معاملة آ لارا، إذْ كان ـ في الحقيقة ـ يقصد إلى انتزاع الحكم من ابن أخيه. . . وهكذا طلب اليهم تسليم طليطلة عاصمة قشتالة. . . . ثم اتفق ـ حقنا للدماء ـ على تسليم الملك الطفل لأسرة لارا. . . لكن حرباً جديدة نشبت، هلك في أثنائها المانريش دي لارا سنة 560 (1164) وهنا أعلن أخوه (القمط) نونيه عن نفسه كوصي على عرش قشتالة واستولت أسرة لارا عنوةً على العاصمة ونادت بالملك الطفل el Rey chico وهو ابن إحدى عشرة سنة، وذلك في عام 562 ـ فالتجأ فرنانده (الببوج) إلى طَرْق أبواب الموحدين وغير الموحدين من أعداء قشتالة لمحاربة ابن أخيه، واخضاع نونه. أشباخ: ص 271.

O L A G U E: Histoire d'Espagne page 160 - 169.

(6) كذا في الأصل وهو نعتٌ للقمط وفي ابن عذاري ظهير. وقد استعمل ابن خلدون هذا اللفظ كذلك والمعنى حليف ونصير. انظر صفحة 103 من ابن عذاري وابن خلدون سادس 781.

(7) لفظ الصغير هنا في محله فنحن نعلم أنه بالفعل كان طفلاً، ولا يلتبسنَّ وصف الصغير بوصف «السليطن» الذي هو جدّه: الفونس السابع، هذا وإن هذا الصغير هو الذي سيحمل لقب الفونسو الثامن وهو الذي ملك نحواً من ثلاث وخمسين سنة. ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص 331. راجع التعليق رقم 3 ص 284.

Huici page 178 - 179.

صاحب طليطلة ـ خرَّبها الله ـ فتنة ملتحمة على منازعة ملكهم، وأكد الرغبة ـ مع صلحه ـ في عسكر من عساكر الموحدين ـ أعزهم الله ـ يبعث به إليه إلى مدينته بالسبطاط، ليقاتل بهم نونه القمط المنازع له عن ابن أخيه في بلاده، فأمر له أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ بعسكر إشبيلية، فمشى عليه مقدماً الشيخ الناصح الموحد أبو العلا بن عزون، والحافظ أبو علي بن تمصيلت[1]، والحافظ أبو عمران موسى بن حمو، ووصلوا إليه بالعسكر المؤيَّد إلى بلاده وقاتلوا أعداءه ببلاد قشتيلة[2] ووصلوا إلى أقصى نظره ببلدة أشتريش[3]، وغزوا من حاربه، وسالموا من سالمه، وأقاموا عنده [232] في هذه الغزوة خمسة أشهر، ثم انصرفوا عنه سالمين مأجورين، وقد اغتبط بنصرهم، وارتبط للصلح الذي ربطه بأمرهم، ووادعوه أنه متى سمع بعدو من النصارى يطرق بلاد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بغدر أو مكر أن يكون لذلك العدو معهم دافعاً، وحامياً لحماهم مَانِعاً، ويظهر من البدار ما يحوز به في ملته الوفاء في مذاكرة الأخبار، فأجاب إلى ذلك، وحلف في بيعة بلده بالإيمان من دينه هنالك؛ فوفَّى بما عاهد، وربط بإيمانه ولسانه وعاقد، ووصل بعسكره إلى مدينة بطليوس وقاتل فيهم صهره ابن الرنك[4] ـ لعنه الله ـ حين تملكها بغدر جرانده[5] اللعين وهزمه في داخلها وأخرجه عنها

(1) الحافظ ابن تيمصيلت من كبار قواد الموحدين، وقد ظل متنقلاً بين الأندلس والحضرة العلية في خدمة الدولة، ثم نصب والياً على مدينة باجة سنة 570 بعد أن رممت المدينة، وقد أسر صحبة ابن وزير واسْتشهد وهو يرسف في قيوده واغلاله سنة 574.

(2) قشتيلة (Castilla) وكما ترسم على نحو ما فعل ابن صاحب الصلاة فإنها ترسم هكذا قشتالة وقشتيلية وربما رسمت قشتلة، ويحددها الحميري قائلاً: ما خلف الجبل المسمى بالشّارات (شمال طليطلة وجنوب شقوبية) من جهة الجنوب يسمى إشبانيا، وما خلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة. ويفصل بين أجزائها نهر دويرو (Duero). الروض المعطار ص 161 تعليق بروفنصال ص 193 (بالفرنسية) انظر الخريطة.

(3) استريش: (Asturias) تقع شمال قشتالة القديمة وشمال ليون. خريطة بروفنصال في الروض المعطار.

(4) انظر التعليق رقم 1 ص 96.

(5) راجع التعليق رقم 2 ص 274.

حسب ما أذكره بعد هذا إن شاء الله، وكان فعله لطفاً من الله تعالى.

ذكر الأحداث من غدر العلج الجليقي جرانده لعنه الله البلاد والحصون بالغرب[1] والجوف[2]

قال المسعودي في كتابه المسمّى بمروج الذهب ومعادن الجوهر، في ذكره لأصناف الروم: «وأشد ما على أهل الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة على أن الافرنج حرب لهم غير أن الجلالقة أشد[3] بأساً». وكان ادفونش بن الرّنك الغادر الجليقي [233] صاحب قلمرية[4] لعنه الله قد عاين من نجدة هذا الكلب جرانده[5] وتيقظه لغدر البلاد والحصون ما أعانه على ذلك برجاله، وسلّطه على المسلمين في الثغور بأوجاله، فكان الكلب يتسلل في الليالي الممطرة الحالكة المظلمة الشديدة الريح والثلج إلى البلاد، وقد أعدّ آلات من السلالم من أطول العيدان تعلو سور المدينة التي يؤم ويروم، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج، ورقي عليها بنفسه أولاً إلى البرج وتقبّض على السامر، وقال له: «تكلّم على ما كانت عادتك ليلاً يتشعّر الناس به» فإذا استوفى طلوع جملته الذميمة في

(1) انظر التعليق رقم 3 صفحة 94. غرب الأندلس البرتغال الحالية.

(2) يعني الأقدمون بالجوف الناحية المقابلة للقبلة فهناك شرق وغرب، وهناك جنوب يعبر عنه بالقبلة وشمال يعبر عنه بالجوف.
القرطاس أول طبعة الرباط ص 79 - 84 - 86.
ابن الخطيب: اللمحة البدرية 1947 - 12.

(3) ساق ابن صاحب الصلاة نص المسعودي بالحرف الواحد باستثناء تغيير يسير في بعض الألفاظ، فقد كانت عبارة المسعودي، الأمم المجاورة وليس المحاربة وعوض الافرنج عبر بالافرنجة... المسعودي الباب الخامس والثلاثون، ذكر الافرنجة والجلالقة وملوكها وما يتصل بذلك، نشر دومينا رودوكورتي ص 72. نفح الطيب. المقري ثان مادة الجلالقة ص 145- 147.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 96 والتعليق رقم 2 ص 153.

(5) راجع التعليق رقم 5 ص 436.

أعلى سور المدينة صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة، ودخلوا المدينة وقتلوا من وجدوه واستلبوه، وأخذوا كل من فيها سبْياً وفيئاً. وقد كان النصارى أهل شنترين - أهلكهم الله - غدروا مدينة باجة[1] ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة الموافقة أول ليلة[2] دجنبر، من عام سبعة وخمسين وخمس مائة، سكنوها أربعة أشهر وثمانية أيام، ثم هدموا أسوارها وأقفروها وغدر جرانده - لعنه الله - أولاً من غدراته مدينة ترجالة في شهر جمادى الأخيرة عام ستين وخمس مائة، ثم غدر مدينة يابرة[3] في شهر ذي القعدة من عام ستين وخمس مائة وباعها من النصارى - أهلكهم الله -، وغدر مدينة [234] قاصرش[4] في صفر عام واحد وستين وخمس مائة، وغدر أيضاً حصن منتانجش[5] في جمادى الأولى من عام واحد وستين المؤرخ، ثم غدر حصن شيربة[6] في عقب جمادى الأول عام واحد وستين المؤرخ أيضاً، ثم غدر حصن جلمانية[7] على مقربة من بطليوس ومسكنه بجملته الذميمة يفاتن منه بطليوس، يؤذي

(1) باجة (BEJA) مدينة بالبرتغال تبعد عن لشبونة بـ 154 ك. م جنوبها، وهي من أقدم مدن الأندلس بنياناً وأولها اختطاطاً، منها أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف شارح الموطا، وإليها ينتسب عبد الملك بن صاحب الصلاة أنظر ص 13 من هذا الكتاب الروض المعطار: 36 - 37.
الفاسي: البينة يوليه 1162 صفحة 21.

(2) كان السبت حسب جداول كاطنوز يوم 21 من ذي الحجة وهو فعلاً يوافق فاتح دجنبر 1162.

(3) يابرة (Evora) تقع شمال باجة وهي مدينة قديمة إليها ينسب ابن عبدون اليابري الشاعر، وقد وردت في قصيدة عيسى ابن الوكيل التي مدح بها علياً ابن القاسم بن محمد بن عشرة قاضي سلا في قوله:

غـريب بـأرض الغـرب فُـرّق قـلبُـه　　　فـآوت سـلا فـرقـاً ويـابـرة فـرقـاً!

الروض المعطار 187 - 198.

(4) قاصرش (Caceres) يقع في شمال بطليوس، أنظر الحلل السندسية جزء أول ص 100.
Huici: p. 232.

(5) منتاجش (Montanchez) يقع شمال بطليوس وجنوب قاصرش وإليها ينسب أحمد بن محرز المتانجشي. الصلة: نشر بروفنصال ص 25. التكملة 1955 رقم 74.

(6) حصن شيربة (Serpa) ويقع جنوب بطليوس.

(7) (Jurumena) يقع أيضاً جنوب بطليوس ولكنه أقرب من شيربة، شمالي مدينة يابرة.

المسلمين فيها، حتى مكن الله سيف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منه على ما أذكره بعد هذا في موضع ذكره. ثم غدر مدينة بطليوس.

ذكر غيرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه لله وللدين العاجلة بالنظر لحماية المسلمين على العموم بتجهيز عساكر الموحدين أعزهم الله وبعثهم الى جزيرة الأندلس في حمايتها من صنفي المنافقين المحاربين والكافرين.

قال الراوية: وان أمير المؤمنين خلَّد الله أمره، وأبقى على الأيام فخره، تأثَّر وغارَ لله تعالى، وجرد نظره العزيز لغوث الأندلس والانتواء لنصرتها وحمايتها، وقصد العمل في ذلك من الجهاد لله عزَّ وجل في نفسه قصد المباشرة والمشاهدة، إشْفاقاً على المسلمين ودفاعاً عن الدّين، حين رأى العدو قد [235] فغَر عليها فماً، وأسال دموع أهلها دماً، حسب ما أذكره.

سنة أربع وستين وخمس مائة[1]

في أولها هدأت الفتن في العدوة وصلحت البلدان، وارتفعت الحروب ورخصت الأسعار، ودانت الأوطار، وانقطعت فتنة الضلَّال الجهَّال، أهل الجبال، وتابوا وأنابوا، ودُعوا للجهاد فأجابوا، وعاينوا الآيات البينات من لطائف الله تعالى بنَصْره المبين، ووصول النصارى الكافرين راغبين في الصلح والخدمة بأنفسهم ضارعين طائعين، فصفت لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه مشاربُ هذه الجبال من الفتن، وغسل الأمر العزيز والقهر

(1) بالرغم من أن ابن صاحب الصلاة دأبَ على تبويب الأحداث هكذا على طريقة السنوايات فقد ساق بعض الأخبار مما جرى سنة 564 - 565 - 566 - 567 - 568 - 569. قبل هذا التاريخ انظر صفحات 150 - 151 - 152.

بطاعتها ثيابها من دنس النفاق والدَّرَن، فنظر - خلد الله ذكره في الخلفاء المرضيين الراشدين المهتدين - في بعْث عسكر مبارك شهم اختاره من الموحدين - أعزَّهم الله - وميزهم، ووجّهه صحبة الشيخ الأجل المرحوم أبي حفص عمر بن يحيى إلى قرطبة لحماية الأندلس، تقدمةً لما أمله في نفسه - رضي الله عنه - من جواز الموحِّدين معه، فكان هذا الجيش أيمنَ جيش، أظهر على قلوب المنافقين والكافرين من الروع أعظم طيش، ونغَّص من لذَّات عيشهم أسوأ عيش، وتيمَّن أهل الأندلس بوصوله [236] وحُلوله، وكتب إلى أهل الأندلس هذه الرسالة الكريمة المعربة عنه بوعد نصره، ونظره العزيز وأمْره.

حدَّثني أبو محمد سيد رأي بن وزير قال: كان السببُ في تعجيل حركة الشيخ المرحوم أبي حفص إلى الأندلس بالعسكر المبارك من حضرة مراكش، وصول الخبر بغدر اللعين جرانده الجليقي بطليوس، وتملُّك ابن الرنك الغادر صاحب قلمرية لها، وحصر الموحدين الذين فيها قصبتها، مع حافظهم أبي علي عمر بن تمصيلت، وذلك في شهر رجب الفرد من عام أربعة وستين وخمس مائة المؤرخ به، وأنهم في ضيقة من الحصار، وتحت أجل من الكفار، فأمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بضرْب الطبول والخروج، وركب بنفسه من فوره غازياً، وخرج من مراكش ونزل في تانسفت[1] على مقربة من مراكش عازماً على الغزو إلى الأندلس، وأقام فيها ثلاثة أيام على هذه النية، فاجتمع رأي الموحّدين - أعزهم الله - على أن يتقدم

(1) تانسيفت: نهرٌ عظيم من أنهار المغرب تسقي مياهه حوز مراكش في طريقه إلى مصبه بالمحيط الأطلسي بين آسفي والصويرة يبلغ طوله نحو 250 كلم. ويصف الادريسي هذا النهر بالعبارة الآتية «وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت وليس بالكبير ولكنه دائم الجري، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر».
الادريسي: المغرب والسودان ومصر والأندلس ص 69 نشر وترجمة دوزي. ودي خويه ليدن 1866.
الصديق ابن العربي: كتاب المغرب ص 80: الطبعة الثانية.

الشيخ المرحوم أبو حفص بالعسكر المبارك، على ما ذكر في الرسالة وشرح فيها من الأحوال، المعربة عن الآمال، فكان انصراف أمير المؤمنين وتقدّم الشيخ على ما ذُكر، وهذا نص الرسالة الكريمة من إنشاء أبي الحسن بن عياش، وكانت الحركة منه في شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين [237] وخَمْس مائة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على محمَّد وآله وسلم والحمد لله وحده مِنْ أميرِ المؤمنين بن أمير المؤمنين أيَّده الله بنصرِه، وأمدَّه بمعونتِه، إلى الطلبة الموحدين من الذين بجزيرة الأندلس، أدام الله توفيقهم وكرامتهم. سلامٌ عليكُم ورحمةُ الله تعالى وبركاته، أمَّا بعد، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلّي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم القاضي بأمْرِ الله تعالى والداعي إلى سبيله، ونوالي الدُّعاء لصاحبه وخليفتِه الإمام أمير المؤمنين مُمْشي أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله، وإنا كتبناه إليكم - وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه - من حضرة مراكش - حرسها الله - والذي نُوصيكم به تقوى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه. وهذا الأمرُ العزيزُ بما وعدَه اللهُ من النَّصْر، وضَمِنَ لهُ من التأييد، وتكفَّل له من التمكين، وأراد من تبسُّطِه وامتِداد غلوائه، واتصال مِضماره، وخُلوصه إلى كافَّة الأرْجاء، وتغَلغُلِه في كلِّ الأنحاء، لإكمالِ دِينِه، وإتمامِ نوره، وبث دعوته، وتصديق دعوته لا تزالُ مَوا... [1] الحافظَةُ لصُورِه، المبقيةُ لأثرِه، المُثْبتةُ لأركانِهِ الممكّنة لقواعده، تُشيِع [238] من الأسبابِ المقويَة واللطائف المنهِضة، والمعاني المعينَة عَلَى سَريَانه، المزعِجة لتسربه وجريانه، بما يُؤذِن له بانجازِ مَوعوداتِه، وتَتبُّعِ مَضموناتِه، حتى يستولِي على مَداه الذي لا غايَة بَعدَه، ويقفُ على مُنتهاهُ الذي لا مَطلع وراءَه، يَقيناً اطمأنت بمقدِّمات العِلمِ به القلوب، وقرَّت عَلَى ظُهور براهينِه النفوس، وعضَّدته الآيات البيِّنة، ونطقت

(1) هنا كشط قد يقرأ هكذا (مواده).

به الآثارُ المفْصِحة، وناقدتْ[1] شواهد أحواله لمن ألقَى السَّمْعَ وهو شهيد، وما زلنا وفَّقكم الله على إتمام العِنايةِ بتلكُمُ الجزيرةِ مهَّدَها الله، والحِرْصِ على عَونها، والانتِواءِ لنُصرتِها، والعملِ على قَصْد ذلك بالمباشَرة والمشاهدة، إشفاقاً على ما استضام منها، جيرتها الأعداء، وأبناؤها الأعِقَّاء، مُجَسِّمين وروماً وما كادُوها به منَ التكلُّفِ والتحيُّف والتَّنقُّص وفَغْرِ الأفواه، وكشْر النُيوب والإرصاد لفيضِ ما فاضَ فيها من نورِ التوحيد، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر، والمناصبة للمنحاشين إليه، المتعلقين بأسبابه، المستذمِّين بذِمَّتِه، ممن صَحَّ ولاؤه، وصدَقت طاعَته وخلُص على السَّبكِ، ونَصَع على السَّبْر، ونجعل لها من الفكر حظّاً يَستحق الصَّدر، على ما سِواها[2] مِنَ الأفكار، ويأخذُ السَّبْقَ على غيرِه من معْنيات الأمور، ونراه مِنَ الأهمِّ الأعنَى، والأوّل الأولَى، قياماً بحقّ الله في جهاد أعدائها ومكابري [239] مناويها[3]، ومَن لمْ تنفعه العِبَر على مُرُورها عَلَى بَصَره، وتوارُدِها عَلَى مشاهَدَتِه وإهابتِها به، ولم يَرْعَ سمْعاً دعوةَ الحقّ الَّتي ملات الخافِقيْن وقَرَعَ صَوتُها مسامعَ الثَّقلين، ونمكّن أسبابَ التفرُّغ لِذَلك، والتوسُّع فيه والنَّظر في أحْكامِه، فتَعْترض مِنْ أهْل هَذه المغارب شَوَاغِبُ يُثيرُها الجُهَّال، ويَبْعَثُها النَّعَقَةُ الضُّلَّال، فلا يَسَعُ إهمالُها ولا يَسُوغ الإضْرَاب عنها، قياماً بحقِّ الدِّين، وتوقّياً من اسْتِشْرَاءِ الشرّ، وتوفّر اسْباب الفِتْنَة، فينصرفُ إليْها من الالتفات والقصْد لِحَسْمِ عِلَلِها وإبْراءِ أدْوائِها، ما يُقْشع غيابَاتِها ويُظَهِّرُ اقذاءَها، ويُفضِي إلى المقصود الأول من التفرُّغ للجزيرة - مهَّدها الله - والتوطئة لأمرها. وما فتِيء الاشتغالُ بهَذَا الغَرْبِ يلظ بأرْجائه، ويشتمل على جَوانبه ويتخلَّل زَواياه، وينظّم أوْعاره وسهولَه، حتَّى صفَّى الله مشاربَه، وخلَّص من الشَّوْب مَشارِعَه، ووقَف بأهْل الانتزاءِ من أصْناف مشاغبيه على تايب أنابَ بقَلْبِه، ونَدِمِ على ما فرط من ذَنبِه، وعَلَى شقيّ تمادَى في غُلَوائه. ولَجّ في تمرُّدِه،

(1) كذا في الأصل ويظهر أنه تحريف من (ناقلت).

(2) هنا سطر مكرر في أصل المخطوط ابتداءً من «ونصع».

(3) يوجد كشط أول الكلمة، ولعل الأصل مناويها.

فولى كلَّ ما اسْتحق، وسِيمَ حِطَّة ما رضي، ووجَدَ التايبُ بردَ الأمَان، وتبوأ كنف الإحْسان، وحقَّتْ على العَاصِي كلمةُ العَذَاب، وأَخْذِه التباب، والصّيْرُورة إلى سُوء المآل وشَرِّ المَئاب، وما ربُّك [240] بظَلَّامٍ للعَبِيد، ولَمَّا تولَّى الله هذه الجهات منَّة التَّمهيد، وبَسطَ لَهَا نِعْمَة التَّسْكِين والتَّوطيد، انعطَفَ النَّظرُ إلى محلِّ مثاره، وسَالَ سَيْلُ الاعتِنَاء إلى قراره، وتوجَّه حفْلُ الاشْتِغال إلى الجَزيرة ـ مهَّدَها الله ـ وتوفَّرت دَوَاعِي الاسْتِعدَاد لنُصرتها وجهَاد عدوِّها، ورأَيْنا في أَثناء ما نُحاولُه مِن مَرُوم هَذِه الغَزوة الميمَّنَة المباشر أَن نقدِّم بين أيدينا عسكراً مُباركاً من الموحدين ـ أعانَهُم الله ـ صحبة الشيخ الأجَلّ أبي حفص ـ أعزه الله ـ يكون تقْدِمَةً لجواز جمْهُور الموحدين ومُؤذِناً بمَا عَزَمْنَا عَلَيْه ـ والله المُسْتَعان ـ من التحرُّك بجُملة أهل التَّوْحِيد والقَصْد لِهَذا الغزو الميمون الذِي جَعَلناه نصبَ العين، وتجاه الخَاطِر! فتتعاونون مع اخوانكم، الواصلين على بركة الله إليكم، على جهادِ أعدائكم إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم، ويلمَّ بكم هذا القَصْد، ويعتمدكم هذه الحركة المُحكمَة أسبابُها، المبرمة أمراسها التي انعقدتْ بِها النيَّة، واحتدمت لها في ذات الله الحمية، واستعانَتْ بتَوْفيق الله في تأصيلِ أصُولها الفكرة الموجِّهة والرَّوية، وإنا لنَرْجُوا مِنَ المبلّغ لآمال القلوب، المتفضِّل بإدراك كلّ مَطْلوب، أن يَهِبَ فيها من العَوْن ما يُتَمِّم مَبْدَأهَا، ويكمل منشأهَا، وتُشْفَى بِه صُدورُ اوليائِه بالنِّقمة في أَعْدائه، وان فَضله تَعالى ليَسْمح بِبلوغ هذه الأمْنِيَة، والإطلال مِنها [241] على كل شرف وثَنِيَة وَمَا ذَلك على الله بعزيز، وإذا طالعتم ـ وفقكم الله ـ هذه الأنْبَاء واستعلمتُم مَا في ضِمنِها من البشَائر وعُنوانات الفُتُوح وآثار هذه القصود، وحملتم ذلك على الثِّقَةِ بما وَعَد الله هَذَا الأمْر والتلفُّت إلى مَا عوَّده، رأيتُمُوها نُعْمَى تخوَّلتْكُم، ورُحْمَى انتَحَتْكم وَأتَتْكُم وشرحتُم لَهَا صدوركُم وعمّرْتُم بِهَا أَحْناءكُم وشغلتم بِهَا مشاهِدَكم وسررتم بها غايبكم وشاهدَكم، وأذَعْتُموها إذاعةً تثلج بها صُدور الأولياء، وتحرج منها صدورُ الأعْداء، ويكونُ للمؤمِن منها مطلعُ أمل، وللكافِر مطلعُ هَوْل وَوَجَل، وعرَّفكُم الله شكرَ النعمةِ بها، وأعانكم على أداء واجبها، وبلَّغكم الفايدَة الجميلة منها، بمِنِّه ويُمنِه، وإذا

وصَلكم هذا الكِتابِ فأشيعوه قراءةً على مَن حضَركم مِن أصناف الناس، وإرسالاً بنسخِه إلى مَن نأى عَنكم، حتَّى يجد أثرُ الاستبشار به ويترقَّب بمودَعه الغائِب والشاهد، والحاضِرُ والبادِي إن شاء اللهّ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة.

(تحرير بطليوس بمساعدة فرنانده)

وكان من يُمْن هذا العسكر ـ المبارك أنه لما وصل إشبيلية سالماً صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص، بينما هو عازم على الحركة لغوث المُسلمين، ودفاع العدو الغادر ابن الرنك ـ لعنه الله ـ [242] عن غلبته على مدينة بطليوس، وحمايته للموحدين المحصورين بقصبتها، وهو قد أعدَّ واستعدَّ لذلك، وإذا البشير قد وصل معلماً ـ بلطف الله وتأييده لهذا الأمر العزيز ـ بأن فرنانده المعروف بالببوج بن أُذفونش السليطن[1] صاحب مدينة السبطاط وآبلة[2] وليون[3] وسمورة[4] فقد وصل بجمعه وحفله من الخيل والرجل حامياً للمسلمين دافعاً لصنفه الكافرين[5] عن مدينة بطليوس طاعة منه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، رضي الله عنه بلطف الله تعالى. وقال: إنه لما وصل إلى مقربة من بطليوس وجَّه منها رسوله إلى الحافظ أبي علي عمر بن

(1) غير خاف أن (السليطن) نعت لأذفونش لا لفرنانده وهو فعلاً والده. راجع التعليق رقم 3ص 284 ورقم 5 ص 286.

(2) ابلة (Avilla) وتقع شمالي مدريد الغربي بينهما 113 ك.م، وإليها ينسب الابلي شيخ ابن خلدون المتوفى سنة 757، الفاسي (البينة يولية 1962).

(3) ليون (Léon) تقع شمال سمورة وهي قاعدة من قواعد قشتالة. الروض المعطار ص 174.

(4) سمورة (Zamora) وتقع أيضاً في شمال الأندلس جنوب مدينة استريش وهي دار مملكة الخلافة على ضفَّة نهر دورو. الروض المعطار ص 98 - 99.

(5) ورد في عبارة المؤرخ الالماني يوسف أشباخ ما نصه: «واتيح عندئذ للمسلمين المنهزمين أن يشهدوا منظراً غريباً هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكين نصرانيين من أجل الاستيلاء على المدينة» انظر تاريخ الأندلس لأشباخ ترجمة عبد الله عنان الطبعة الثانية ص 280.

تيمصلت المحصور بالقصبة مع الموحدين، وأهل المدينة من الناس الأندلسيين يقول لهم «أثبتوا، فإني واصل لكم عدوكم عنكم، وانظروا في معاونتي كيف أدخل عليكم» فنقب الحافظ باباً في سور قصبة بطليوس من جهة خفية لا يعلمها النصارى أصحاب ابن الرنك لعنهم الله، فلما تحققوا وصول فرنانده الببوج ومناشبة الحرب بينه وبين ابن الرنك فتحوا ذلك النقب، وخرجوا بجمعهم منه إلى بابٍ قريب من أبواب المدينة وفتحوه، وأدخلوا منه عسكر فرنانده المذكور وهو معهم على ابن الرنك وعسكره، فتقاتلوا في المدينة بداخلها مع النصارى، والموحدون المحصورون يعينون أصحاب فرنانده [243] المذكورين، وهو قد سوُّوا صفوفهم ولبسوا الدروع المحكمات، واتلقت على رؤوسهم البَيْضات، وحصنت أعضادهم السواعد والساقات، ورأى ابن الرنك - لعنه الله - مع عسكره الذميم من تصميم الموحدين المؤمنين وأصحابهم في قصدهم، والإقدام عليهم وتوطينهم الأنفس على قراعهم، وصدْقهم، ما أيْأسه عن الحياة وعن بطليوس، وأصحاب فرنانده الببوج مجدون مع المسلمين على عسكر ابن الرنك حتى هزمهم الله تعالى بيُمن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وفرَّ ابن الرنك اللعين مدبراً مهزوماً، فلما أراد الخروج من باب مدينة بطليوس وهو مزعوج، وفي شدائد الخوف مدروج، كان عمود باب المدينة ممدوداً، وقد أعدَّه الله تعالى أن يكون من جنده معدوداً، فانضغط اللعين ابن الرنك في الخروج، والاستعجال بالفرار والنُّهوج، فكسر عمود الباب فخذه اليُمني، وسقط في الموضع مغشياً عليه، فاحتمله الكفرة أصحابه إلى الموضع المعروف بقاية[1] على قرب من بطليوس، فاتبعه قواد فرنانده الببوج المذكور، واستاقوه أسيراً إليه، وقيَّده في الحديد، ثم أطلقه برغبة النصارى وسرَّحه إلى قلمرية بلده مهزوماً ذميماً، ولم يركب من ذلك اليوم فرساً أبداً، إلى أن هلك لعنه الله وأدخله الله النار! وفرَّ جرانده الجليقي الغادر إلى موضعه [244] حتى مكَّن الله منه سيف أمير

(1) قاية (Caia) ويقع على مقربة من بطليوس غربيها.

المؤمنين بن أمير المؤمنين، على ما أذكره في موضعه بعد هذا[1] إن شاء الله تعالى، وفتح الله هذا الفتح العظيم الجسيم، وصرف بطليوس إلى الإسلام أحسن صرف، وكان في أمرها عناية من الله تعالى جلَّت عن النعت والوصف، ووفَّى فرنانده الببوج لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فيما عاهده عليه وصدق في إيمانه، ورأى بعد ذلك من الإحسان والإنعام جزاءً على حسن عهده ما لم يتخيله في نفسه وما استغربه في زمانه، حسب ما أذكره بعد في موضعه إن شاء الله[2]. وأُسلم مدينة بطليوس للحافظ[3] عمر بن تمصيلت المذكور، ورغب له الحافظ أن يدخل القصبة ويراها فأبى له عن دخولها، وقال بكلامه العجمي: «إنما هي دار أمير المؤمنين ولا أدخلها إلا بأمره، وقد فعلت ما أوجب عهدي وربطي وودي!» وكان خروج النصارى عنها في الثاني والعشرين من شعبان المبارك من عام أربعة وستين المؤرخ. ونفَّل الله الموحدين المحصورين وأهل بطليوس إخوانهم أنفال[4] النصارى: ابن الرنك لعنه الله وأزوادهم التي كانوا استكثروا منها لطول ترددهم وإقامتهم في داخل المدينة المذكورة ما اقتاتوه مدة طويلة، وكذلك أمتعتهم [245] وثيابهم، وولُّوا أدبارهم وقد أنزل الله بهم النقمة، وأحلَّ بهم الدبرة، ووكل بهم الحسرة

(1) هذه إحالة من ابن صاحب الصلاة على السفر الثالث المفقود، وبفضل (البيان المغرب) نقف على ما يعِد به ابن صاحب الصلاة هنا: فلقد ورد جرانده هذا على اشبيلية مستسلماً، وقد ساء هذا رئيسَه ابنَ الرنك فأرسل إليه سراً في أن يتحيل للغدر. وعلم الموحدون بذلك فبعثوا به مقيداً إلى سلجماسة... ثم طمحت نفسه مرة أخرى للفرار من إحدى المراسي. فقتل وحز رأسه. البيذق - 127 - ابن عذاري ص 94.

(2) كان فيما قدمه الخليفة للبابوج - بمناسبة مساعدته على إنقاذ بطليوس - هدايا ثمينة فيها (منت؟) منظوم بالجوهر... ولكنه أي الببوج - وهذا ما قد يكون تحدَّث به في السفر الثالث - نكث عهوده سنة 569 مما دفع بالموحدين لمهاجمته في عقر داره... البيان المغرب ص 95.

(3) يذكر المؤرخ أشباخ أن فرنانده هذا أقر - بعد النصر - حاكم المدينة المسلم (ابن حابل) على مدينة بطليوس، وقد ذكر الأستاذ عبد الله عنان أن اسم ابن حابل أو ابن هابل تحريف لاسم عربي لم تتضح حقيقته، قال ولعل الاسم الحقيقي هو ابن الحاج، لكن يتَّضح من نص ابن صاحب الصلاة ص 242 - 244 أنه تحريف لاسم (ابي علي) أو تحريف لكلمة «الحافظ» وهذا أقرب عندي. اشباخ ص 280 - 281.

(4) كذا في الاصل: النصارى ابن الرنك ولعل هنا كلمة ناقصة: أصحاب ابن الرنك.

والخيبة لا يلوي منهم الأخ على أخيه، ولا يعرج الابن على أبيه، والحمد لله على ذلك، وانصرف فرنانده بن أدفونش السليطن[1] المذكور إلى بلاده بأجناده سالماً موصوفاً عند المسلمين والنصارى بالوفاء، والانحياش إلى هذا الأمر العزيز والولاء، وقد ألقى الله بينه وبين ابن الرنك صهره العداوة والبغضاء، والفتنة المتصلة الشنعاء، والمقاطعة والشحناء، وأورثها الآباء منهم الأبناء.

وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بوصف هذا الفتح الإلاهي والبشر بالنصر المتناهي، فسر بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين سروراً شكراً لله فيه على صنعه الأجمل، ولطفه الأكمل. وقال أبو عمر[2] بن حربون يمدح[3] أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ويهنئه على صنع الله له في ذلك: (طويل)

---

(1) راجع تعليق رقم 1 ص 295 والاحالات المذكورة فيه.

(2) يكنّيه ابن عذاري أبا بكر ويذكر أنه حزمون بالزّاي ثم يسوق الأبيات الثلاثة وقد أثبت من نفس القصيدة أبياتاً أخرى ولكن في مناسبة تمت سنة ثلاثة وخمس مائة، ويكنيه في تلك المناسبة بأبي عمرو. ابن عذاري ص 63 - 70.

(3) كان في جملة من امتدح أمير المؤمنين بهذه المناسبة الشاعر أبو العباس الجراوي بقصيدة طويلة هذا مطلعها:

نصر بكل سعادة مقرُون ... نالتْ به الدنيا الهَنا والدين
تقديم من شهد الوجودُ بأنه ... ما زال بالتَّقديم فيه قمين

وهنا يحق السؤال عن السبب الذي من أجله أعرض ابن صاحب الصلاة عن إيراد القصيدة الجراوية مع أنه حريص فيما نعلم على استقصاء أبرز ما يقال من شعر، ونلاحظ أن هذه ليست المرة الأولى التي يتجاهل فيه شعر الجراوي، فقد أعرض عنه ابن صاحب الصلاة بمناسبة انتصار موحدي سنة ست وخمسين وخمسمائة يقول فيه في جملة ما يقول:

لو رَاءَ مُوسى ما فعلت وطارقُ ... زريا بما لَهُما من الآثارِ!
اتممت ما أمَّلوه ففاتهم ... من نصْر دين الواحدِ القهارِ!!

كما أعرض عنه في شعره له بمناسبة تحْقيق النصر في المهدية يقول فيه في جملة ما يقول:

إهنأ إمامَ الهُدَى فالعدلُ منبسط ... والدّين منتظم والكفر أشْتَات!

كما فعل أيضاً في مرةٍ رابعة في لامية من جملة ما يقول فيها:

جَهِل النصارى أنه الملك الذي ... يرث البلاد وعذرُهم مقبول!

ولعل ما أثِر عن الجراوي من لسان سليط، كان من بواعث تجاهل ابن صاحب الصلاة للاثارة وإلّا فكيف يفسر عدم اشتمال (المن بالإمامة) على أثرٍ من آثاره، ومن الغريب أن يجد الجراوي =

بسعدك أضْحى الدِّين جدلانَ باسِما ... وباسْمك أمْسَى الشركُ للشّرك هادِما
ألا إنَّها فيما وُعدت لآيةٌ ... يَدِين بِهَا من كان بالله عالِمَا
براهين صدقٍ ما تزالُ ولم تَزَلْ ... تُثَبِّتُ يَقْظاناً وتُوقظُ نائِمَا
[246] ألَيْسَ من الآياتِ أن بتَّ وادعاً ... وقيْصَرُ قد أمْسى لأمرك خَادِما؟
وَمَا هُوَ إلَّا أَنْ دَعا بشِعَاركم ... فجدَّد مَن قَد كان قِرْناً مُقاوما!
بخُلْقِكُم المَيْمُونِ أدْرَك ثَارَهُ ... فإنْ لم يَجِئْكُم مُسْلِماً فمُسالِمَا!
وأيَّدَهُ المقدارُ فِيهَا بآيَةٍ ... تُرسِّمُ للأمْرِ العَزِيز مَراسِمَا!
كَمَا وَقَمُوا كِسْرَى بفَضْل محمَّدٍ ... وكانَ لَهُم مِن قَبْلِ ذلِكَ واقِما
فشُكْراً بَني إسْحَاقَ لِلمَلِكِ الَّذِي ... شفيتُم بهِ تلك الظماءَ الحَوائِما
بيُمْنِ أميرِ المُؤمِنِيْن رفعْتُمُ ... لعزِّكُم تِلْكَ الذُّرَى والدَّعائِما
وكيف رأى ابنُ الرنكِ مركبَ بَغْيِهِ ... إذا اعْتَاضَ من دُهْمِ الجِيَاد الأداهِمَا!
وان يتسنَّمْها محارم عزَّةٍ ... فهَا هُوَ قدْ لاقَى عَلَيْهَا المَحَارِمَا
لَقَدْ رَامَ مِنْهَا سُهدةً مَا اسْتَسَاغَهَا ... ولا لاكَهَا حَتَّى اسْتَحَالتْ عَلاقِمَا
وَبَادَرَهَا لِلحِينِ وثْبَة هَاجِمٍ ... فصادَفَ وثَاباً لمَبْنَاهُ هَاجِمَا!
فسَعْدَكَ مَوْلانَا حَمِدْنَا، ولَمْ تَكُن ... لتحمدَ هذي العربُ تِلْكَ الاعَاجِمَا!
وكَمْ مِنْ عَدوٍ ردَّهُ يُمْنُ أمْرِكُمْ ... عَلَى عَقِبَيْهِ صَاغِرَ القَدْرِ رَاغِمَا!

= نفس الاهمال من عبد الواحد المراكشي الذي لم يتنازل لترديد صدى شعره مع ما اشتمل عليه من آثارٍ أدبية لغير هذا الشاعر الهجاء الذي جالس عبد المؤمن وابنه يوسف وولده يعقوب، وألف له كتابه صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب المعروف بـ (الحماسة المغربية).

عبد الكريم ابن الحسني: ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية عدد 9 بتاريخ 9 يونيه 1938 - ص 133 وعدد 10 بتاريخ 16. محمد الفاسي، شاعر الخلافة الموحدية، ص 8 - 9، راجع التعليق رقم 1 ص 76.

فـانـطقتُم بِـالشُّكْـرِ مَنْ كـانَ مفحمَاً	وجلَّيْتُم بـالنُّـورْ من كـان فـاحِمَـا!
وانــي لأرْجــو لِـلجَـزيـرةِ كَـرَّةً	تُعِيـدُ عليْهـا عهْـدهـا المُتقَـادِمـا!
بَـطْشـةِ غَيْـرانِ الحَفِيـظة مغضَبٍ	إن انتهـك الأعْـداءُ منهـا المَحـارِمـا
ولــو أسْعَف المقـدارُ منكم بـزَوْرَةٍ	لاحييْتُم تلك العِـظامَ الـرَّمـايِـمـا
وجَلَّيْتُـمْ عَـنْ أُفْـقِهـا بِسَنـاكُـمُ	غَـواشيَ كُفْـرٍ قـد أكبَّت غَـواشِمـا
وَلـوْلا الـذي نـرْجُـوهُ مِنْ بـرَكـاتكُم	أقـامَتْ على دِينِ النَّبي المَـآتِمَـا!
[247] وأنــت أمـيــنُ اللهِ تــجْـبُــرُ صَــدْعَــهــا	وإنْ قــالَ قَــوْمٌ إنَّــه قَــدْ تَــقَــادَمــا
وتُحيي رُسُـومَ التّـابعِينَ بـأرْضِهـا	فهـا هي تسْتَـدْعيـكَ غُبْـراً طَـواسِمـا
طُلولٌ بـذاك الثغر مـا انْفـكَّ هَـامُهـا	عَلى البُعْدِ تسْتسقي القَنى واللَّهاذِمـا
وعـمَّـا قليـلٍ تَـجْلُبـون لِفَتْـحِـهَـا	شَـوازِبَ أمثـالَ السّهـام سَـواهِمـا
كتـائِب مـا تخْتـلُّ بِيْـداً مجـاهِـلاً	مِنَ الأرْضِ إلَّا غـادَرَتْهـا مَعـالِمـا!
إذا مـا دَعَتْ قيْسُ بـدعـوة هـاشِمٍ[1]	ذَرتْ مِنْ رِمـاحِ المُعْتَدين هَشـائِمـا!
بَنو المَلِك المَرْهُوب في الأرْض كلِّها	وَمنْ مَـلأ الـدُّنيـا لُهىً ومَـلاحِمـا!
تَـلُوح عَلَيْـهـم مِـنـه آيُ مُـشـابِـهٍ	وهـل يلِدُ الضِّرْغـامُ إلَّا ضـراغِمـا؟!
كــرامٌ لهُمْ في الجُـود أرْفَـعَ هِمَّـةٍ	فمـا يَهُبـونَ المـالَ إلَّا كَـرائِـمـا
إذا مَـا انَخْتَ العِيسَ في عَـرْصـاتِهم	دَنَـوْتَ فصافحتَ العُـلا والمَكارِمـا!
هُمُ قيْسُ عَيْـلان[2] الـذِين تلبَّسـوا	بخُلْع الملوكِ السَّـاقيات القَـوائِمـا[3]

(1)هاشم بن عبد مناف أبو عبد المطلب جد النبي العربي عليه السلام.
(2)يرفع مؤرخو دولة الموحدين نسب بني عبد المؤمن إلى قيس بن عيلان (بالعين) ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهو ما نجد الشعراء يتواطأون عليه، بيد أن المحققين من المؤرخين لا يميلون إلى انتسابهم لقيس عيلان.
البيذق 21 البيان المغرب 36 ـ القرطاس جزء ثان ص 126 - 127 الحلل الموشية 117 ـ ابن خلدون السادس 187 - 258 ـ الاستقصا ثاني ص 89. محمد السائح، الغصن المهصور (مخطوط) ص 5.
راجع تعليق رقم 6 صفحة 173.
(3)لعل المعنى: أن عظماء قيس عيلان تقمصوا بحلى الملوك التي تتجلّى في مقابض السيوف التي تسقي هام المتمردين والعصاة؟.

فمـا مِنهُم إلا على الهَـوْلِ مُقْـدِمٍ	كـذَاك عظيمُ القَـوْم يَغْشى العَظَائِمـا
بَـهَـاليـلُ لـم يـلْقـوك إلَّا تـهـلَّلوا	إليـكَ بُـدوراً واسْتَهلُّوا غَمَـائِمـا!
لهُم هِيم[1] ذلَّ الـزَّمـان بحُكمِهـا	كـأنَّ على الأيـام مِنهـا خَـزائِمـا!
إذا حـارَبـوا قَـوْمـاً تـدلَّـوا عليْهِمُ	اجـادِلَ وانْسـابـوا إليـهم اراقِمـا
هُمُ القـومُ جابُـوا شمْسَ كـلِّ ظهيرةٍ	مـلاءً، ولاثُـوا كـلَّ ليـلٍ غمـائِما
وهم أدَّبوا الهَيْجاء فـالسيفُ قد غَـدا	بهم نـاثِراً، والـرُّمحُ قـد صار نـاظِما
إذا صـرَّحَتْ فيهـا المَنِيَّـةُ جَمْجَمـوا	بسرِّ الظُّبى فـاستودَعـوه الجَماجِمـا!
وإنْ أحْجَمَ الأبـطالُ عَنهـا رأيتَهُـم	قد اقتَحَموا منها إلى الموْت جاحِما
[248] لـهـم عـزَمـاتٌ لـو بَـدَتْ فـتـجَـسَّـدَتْ	لَـكـانـتْ سُـيـوفـاً مُـرْهَـفـا صَـوارِمـا؟
ومُـرْهفـة كـادَت تَسِيـل فَلَمْ تَسِلْ	أَنَّهـا سـالتْ لَكـانتْ عَـزائِمـا
وقـدْ ألِفوا الأرْمـاحَ حتى لأوْشكت	كُعُوب القَنا أنْ يحسِبوها مـراجِما!
مُدَثَّـرةً أطـرافُـهـا بـدِمـائِـهـا	وقـد نقـدَتْ قبْـلَ الـطِّعـان دَراهِمـا
بُعِثْتُمْ لهـذا الخَـلْق أمْنـاً ورَحـمـةً	على حين لم يَلقوا على الأرض راحِما!
وشيَّـدْتـم أرْكـانَ دِيـنِ مـحـمَّـدٍ	على حين لم تَهْدِم من الكُفر هـادِما
فـدُمْتَ أميـر المـؤمنيـن مـؤيَّـداً	على كـل من عاداك بـالقِسْطِ قائِمـا!
ورَثْتُم عن المَهْـديِّ نـوراً وحِكمـةً	بهـا اختارَكَ الـرَّحَمَنُ للناس حـاكِما
فَـلاَ زالتِ الآمـال من كـلِّ معشـرٍ	تحثّ إلَيْكَ الـواخِـدات الـرَّواسِمـا
ولا زِلـتُم تَـلْقـون في كـل شـارِقٍ	بشِيـراً عَلَيْكم بـالفُتـوحـاتِ قـادِمـا

(1)كذا في الأصل بالياء، ويظهر أن الصواب همم.

ذكر اقلاع الشيخ المرحوم أبي حفص بعسكره المبارك من اشبيلية الى قرطبة بعد تيسير الله تعالى مدينة بطليوس، واستقراره فيها بمن وصل معه مبتدئاً في معاونة السيد أبي اسحاق ابراهيم بن الخليفة أمير المؤمنين على جهاد المحاربين.

قال الراوية: وإن الشيخ المرحوم لما وصل قرطبة واستقر بها زادت صلاحاً ونجاحاً، واغتباطاً وفلاحاً، وروع الله تعالى قلوب المحاربين المجاورين لقرطبة وقدح في نفوسهم من زيادة [249] الغلبة عليهم قداحاً. وتجلّى لابراهيم بن همشك في هذه المدة من نور الهدى ما اسرج له مصباحاً، ابصر به التَّوحيد صراحا.

توحيد[1] ابن همشك

قال المؤلف: وقد كانت الشحناء والعداوة والبغضاء ببركة هذا الأمر العزيز قد نشأت بينه وبين صهره أميره محمد بن سعد بن مردنيش سراً وإعلاناً، وخافه ابراهيم على نفسه فانقطع عن مواصلته وزيارته أزماناً. وزاده روعاً منه وفزعاً، قتله لابني الجذع[2] وزيريه، وبناهما في الحائط بمرأى منه

(1) يذكر ابن الآبار أن أعلاه أبي إسحاق ابن همشك بالدعوة المهدية - وهو ما يعني بالتوحيد هنا - كان سنة 562 بعد الوقيعة العظمى بفحص الجلاب على مقربة من مرسية بينما نرى ابن صاحب الصلاة يعد هذه الأخبار في أحداث أربع وستين وخمس مائة ولعله كان يعني اقتناعه بصفة علنية بالعودة إلى حظيرة الجماعة. . الحلة السيراء ص 230.

(2) لم نهتد بعد البحث الطويل لاسم هذين الوزيرين اللذين تعرضا لهذا المصير الرهيب، وكل الذي عرفناه أن أعصاب ابن مردنيش طغت عليه فأخرج أهل بلنسية منها، وأسكنهم بظاهرها ثم شحنها بالروم واتباعهم، وأنه اعتزم على أن يقوم بنفس العمل في غيْر بلنسية، وكان في جملة الذين خافوا - أبو بكر أحمد بن سفيان الذي دعا للموحدين هو كذلك.
الحلة السيراء ص 236.

وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي[1] بالجُوع على ما ذكرته في التاريخ[2]. وطلّق ابن مردنيش في هذه المدة ابنة[3] ابراهيم بن همشك طلاقاً بتلا. وبانت عن عصمته بياناً. وطردها إلى أبيها مهانة مستهانة باكية بدموعها إصراره وهجرانه، فغشيه من حديثها الكرب[4]، واتصلت في نفسه له الحرب، وداجاه مداجاةً يتراءى فيها كيف ينجلب له الطعن منه والضرب، فعند ذلك تطارح إبراهيم بن همشك المذكور بإرساله إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بالتَّوحيد والتوبة، ورغب أن يصدق متابه بظهور النُّصح منه بتمكين الموحدين من بلاده بأوفى ود وطاعة ومحبة، وكرَّر خطابه بالوُصُول بنفسه [250] والانتاذ، من طاعة ابن مردنيش وموالات[5] الكفار، فوصل قرطبة إلى الشيخ المرحوم، وإلى السيد في شهر رمضان المعظم من عام أربعة وستين وخمس مائة والمؤرخ، فقبل في وصوله أحسن إقبول، ورحب به، وألف قلبه بكل وعْد صادق من الخير مَأمُول، واجتمع معه أسرّ اجتماع، وعاهد الله تعالى بالْتِزَام الأمْر العزيز المطاع، والدُّخول في حكم التَّوحيد بأكمل الإجماع، وأقر أنَّ الله تعالى هداه إلى المذهب الرشيد، وصحبة أهل التَّوحيد، وكتب إلى الخليفة

(1) هذا أبو عبد الله ابن صاحب الصلاة الغرناطي الذي كان في جملة العلماء المبرزين الذين تهافتت على إجازته في مروياته ومؤلفاته جماعة من أمثال عبد الله بن باديس الذي أخذ عن مشيخة اشبيلية قبل أن يأخذ العلم بمدينة فاس والذي كان في جملة شيوخ ابن الابار.
التكملة لكتاب الصلة - كوديرا - صفحة 513 رقم 1445.

(2) يقصد دون شك تاريخه المعنون بثورة المريدين، ونظراً لاختفاء هذا الكتاب الهام فقد حاولنا عبثاً أن نجد صدى لهذه الأخبار في الحلة السيراء التي اختصت - من بين سائر المؤلفات بنقولها عن ثورة المريدين، الحلة السيراء ص 230 - 236.

(3) يحكى أنها سئلت عن ولدها وإمكان صبرها عنه، فقالت: جرو كلب بن كلب لا حاجة لي به»!. ومن المعلوم أنَّ ابن همشكا التجأ أخيراً إلى مكناس وبها توفي.

(4) كان قد ندم على ذلك وإظهاراً لغضبه، وانتقاماً من أبي جعفر أحمد الوقشي الشاعر الكاتب، عمد إلى رحى للوقشي بولجة بلنسية فهدمها! مما دفع بالوقشي للقول:
ألا بلِّغا عنِّي الشُّرَيْق وأهلَه ... بأني لا اثْني عناناً عنِ الغَرْب!
لأجلبها خزْر العيون ضوامراً ... واوطنها اجسادَكم بدلَ الترب
الأبيات. الحلة السيراء ص 231.

(5) كثيراً ما نجد الناسخ يتساهل في هذه التاء فيكتبها موالات عوض موالاة. . . .

أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهم عن نفسه معلماً بمتابه، وأنه دخل في الطاعة رجاء العفو من الله تعالى وحسن ثوابه[1]، فجاوبه الأمر العالي[2] ـ أدامه الله ـ بتقريبه واستجلابه، والجزاء الأوفى على حسن منابه، واتصلت البلاد التي كانت بيده ببلاد الموحدين وأمنت من الفتنة الطرق والرفاق، وارتفع في تلك النواحي الفرق والنفاق. وكتب السيد أبو اسحق بن الخليفة ـ رضي الله عنه ـ إلى الأشياخ والحفاظ بالبلاد معلماً بحاله وإقباله، فمن ذلك ما خاطب به إلى الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم الوالي باغرناطة في ذلك التاريخ، وهي من إنشاء ابن مصادق[3]:

[251] بسم الله الرحمَن الرَّحيم صلَّى الله على محمَّد وآله وسلم الشيخُ الأجل الحافظ الأعلى وليُّنا في الله تعالى أبو عبد الله محمد بن أبي إبراهيم أدام الله عزّه وكرامته بتقواه، وليُّكم في الله تعالى إبراهيم بن أمير المؤمنين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بَعْدَ حمْدِ الله على ما أولى ومنح، والصلاةُ على محمد نبيه الذي تبيَّن به دينُ القيمة ووضح، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مُعيد دين الله بعْدَ ما عفَى رسمه ومصَحَ، والدُّعا لسيدِنا أمير المؤمنين خليفتِه الذي طهَّر بعَدْلِه البلاد

(1) لا شك أن رسوله إلى مراكش كان هو وزيره الأسبق أبا جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي، فلقد تحدث ابن الابار عن وفادة هذه الشخصية على مدينة مراكش في عيد الفطر من سنة 564، وأنه تقدم بقصيدة تهنئةٍ طويلة يقول فيها:

تَحِنُّ إلَيكم وافداتُ المواسمِ ... فتهدي إلى كفيكم ثغرَ باسِم
ومنهنَّ عيدُ الفطر جاء مسلماً ... عليْك فحيَّى منك افضلَ طاعم
ومن قبله وافى الصيامُ بشهْره ... على خيْر اواب وافْضَلِ صائم

إلى أن يقول:

تقبلت أخلاق الكهولة ناشِئاً ... فلم تدْرِ يوماً ما مَناط التَّمائم
ولو لم تشأ وطْءَ التُّراب باخمصٍ ... لسرت على هَامِ المُلوك الخَضارِم!

المصدر السابق...

(2) لا ننسى أن نذكر أن الخليفة الموحدي بعث في هذا التاريخ بالذات برسالة لابن مردنيش يطلب إليه أن يفيء هو كذلك إلى الله.. بروفنصال، رسائل موحدية الرسالة رقم 25 ص 141.

(3) ابن مصادق ورد ذكره لأول مرة وآخر مرة في هذا المجلد من كتاب المن بالإمامة.

وفَتَح، ولسيِّدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذي أثمر سعيُه وأنجَح، وكمَّل بيُمْن خلافته الأمُور الدينية وأصلح، فكتبناه إليكم أدام الله كرامَتكم بتَقْواه من قرطبة حرسَها الله ولا جَديد إلَّا ما عوَّد الله بركة هذا الأمْر العزيز من فتح لا تزال تُفتح أبوابه، وتتَّصل أسبابُه، وترفع قبابُه، ويتعرَّف مع كلِّ حِين انْهِلالُ مائِه وانسكابُه. والحمدُ لله على ذلك حمداً كثيراً يصفو به سربالُ إِحْسانِه وجلبابُه، وإنَّ من النعم الَّتي ببركة هذا الأمْرِ العزيز وَالَى جَديدَها، واقْتَضَى بسعادتِه مزيدَها، واتْبع بطريفِها تليدَها، وأَنْجَز فيها لأولياء الأمر العزيز المَوعُود، ووافقَهُم فيها الجد المصحب المسعَّد، وإن الشيخ أبا اسحاق ابراهيم بن همشك وفَّقه الله كُشِف له عن وجه هداه، وحُلِّي عن مَوارِدِ [252] رَدَاه، وتبيَّن له أن هذا الأمرَ العزيزَ هو المَركَبُ المُنْجِي، السَّائقُ إلى السعادةِ الباقية المُزجي، الذي لا يؤخِّر عِثَار من صدف عنه ولا يُرْجِي، فبادَرَ الى الدُّخول فيه بِدَارَ من خلُصَتْ سَرائِره، وطُويتْ على مودَّتِهِ ضمائرُه، ورَأى أنَّ ذلك تُمْحَى به خَطاياه، وتُغْفَر جَرايِرُه، وأَذاع الدَّعوةَ المهدية في جَميع بلادِه وأعلن بِهَا، وأبْدَى الاعتلاق بعِصمتِها، والتَّمسُّك بسببِها، ولَقِيَ الموحِّدين ـ أيَّدَهُم الله بتَقْواه ـ ملاقاةَ اللَّائِذِ بظِلِّهم، المُستَمسك بِحَبْلِهم، المُسْتَنيم المُسْتَسْلِم، المنطوي على الولاء الأَخْلَص والودّ الأَسلم، والحمدُ لله على ذلِك حمْداً تتوالى بِهِ فتوحُه، ويتَّصِل به مبذولُ إِحْسانِه ومَمْنُوحُه، وخاطبْناكُم بذلك، أدامَ الله كرامتَكم لتجدِّدوا شُكر الله تعالى على ما أَسْبغ من نعمِه وأَوْلى، وتسلكوا منه سبيلاً يكون أَحْرى بازْديادِها ما منَّ بها وَوالى، والله تعالى يُوَالي لدَيْكم الاءه، ويُسبغ عليْكم ظاهرةً وباطنةً نُعْماه والسلام الأتمُّ عليكم ورحمةُ الله تعالى وبَرَكاتُه. كُتِبَ في شهْر رمضانَ المعظَّم عامَ أَرْبعةٍ وستين وخمْس مائة.

تعيين الحافظ أبي يحيى والياً على مدينة بطليوس وحروبه مع جرانده

وفي هذه السنة، مدة إقامة الشيخ المرحوم أبي حفص بقرطبة، توجه ابنه الحافظ الأسنى أبو يحيى والياً إلى مدينة بطليوس، عن الأمر العالي ـ

أدامه الله ـ من حَافِظٍ عالي، ناظم لأشتات المعالي، غيث في النَّدى، ليث على العدى، حاتم قبيله، [253] وأَسَد الفوارس في غيله، مع انبساط وجه ونفس، وروضة يانعة في المجالسة، وأنس وعفاف ووقار، وحفْظٍ للحديث والعقائد باسْتِظهار. وأمره الأمر العزيز ـ أدامه الله ـ بحفر بئر في داخل قصبة مدينة بطليوس يسرب إليها ماء الوادي، استعداداً لما يخالف من الآفات والمنازلات، فمشى إليها في جملة نبيهة موفورة من الموحدين والأجناد الأندلسيين واستوطنها، وآنس أهلها من وحشتهم المتقدمة وأمنها، وجدَّ في حفر البئر المذكورة بالعدَّانين والفعلة في ذلك، وهي المعروفة عند العامة بالقوراجَّة[1]، وجلب الماء إليها، فتحصّنت القصبة وقويت بها النفوس الآمنة. وفي مدة إقامته فيها وانتدابه دارت بينه وبين اللعين العلج جرانده[2] الساكن بشرذمته في حصن جلمانية[3] حروبٌ صبر فيها الحافظ الأسنى أبو يحيى وظهر، واستبد بدفاع العلج اللعين وظفر، ودام على جهاده شهوراً، إلى أن تحيل العلج اللعين في خدعة من الحرب صنعها وأوقعها، واستدعى جملة ذميمة كبيرة من أهل شنترين النصارى وأتباعه، ووصل بهم إلى موضع أكمنهم فيه، ومشى هو في جملته المعلومة المذمومة، وأغار على لصق بطليوس فركب الحافظ أبو يحيى وأصحابه والأجناد معه مسترعين في اتباعه، وفرَّ أمامهم العلج مظهراً الروع وطلب النجاة [254] في إسْراعه حتى وصل إلى موضع الكمين اللعين، فمال المسلمون وانهزموا، فأسر العلج اللعين من المسلمين جماعة، ومن أصحاب الحافظ الأسنى أقواماً فيهم أبو عبد الله

(1) القوراجة (coracha) بالاسبانية أو القوراسة (Couraça) بالبرتغالية عبارة في الأصل عن ركن في الجدار يبرُزُ عن الحصن لحماية منطقة في حالة حصار يوجد فيها بئر يستمد ماءه من واد مجاور لاغاثة الذين قد يهدِّدهم التطويق، وسنرى أنه عند الاستيلاء على شِلب، كان الاستحواذ على القوراجة مما أرغم المطوقين على الاستسلام تحت ضغط العطش.

Huici: Historia Politica P. 240. Com 1.

(2) يسميه كايانكوس: فرنانده انظر صفحة 518 - 519.

(3) جلمانية (Julumena) على مقربة من بطليوس. Huici P. 238 - 242.

محمد بن الشيخ الشهير أبي حفص بن تيفرجين[1]، وعليٍّ بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي[2] أحد أصحابه المختصين به. ففدى أكثرهم من الأسر الذي كانوا فيه عند النصارى أهلكهم الله من مال نفسه، وأجبرهم إلى الإسلام، وانقذهم من ربقة الكفرة أهل الأصنام، وأما عليٌّ بن صاحب الصلاة ففداه بثلاث مائة دينار[3] جَشَمية[4] في أسرع مدة، وأعطاه كل ما سلب من فرس وآلةٍ وحلية وحالة، فشكر فعله أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وثبتت له هذه الفضائل المحمودة، والجلالات الموصوفة المسرودة، عند الموحدين أعزهم الله، وحاز أجْرها عند الله تعالى، ولم يزل ذكرها بالمحامد

(1) يذكر ابن صاحب الصلاة هنا أن كنية أبي حفص هي أبو عبدالله، وأن اسمه محمد وأظن أنه هو نفسه الذي ذكر بعد في مناسبات كثيرة بكنية (أبي محمد) واسم عبد الله وإن خطأ وقع فيه الناسخ هذه المرة، ويعتبر الشيخ أبو حفص من أهل خمسين من أهل تينملل وهو يحمل اسم تفراكين أو تافراجين في مصادر أخرى. ابن صاحب الصلاة ص 441 - 452 - 500 البيذق أخبار المهدي ص 33 - 34 - 35.

(2) لم نقف على ترجمة لابن صاحب الصلاة هذا في معاجم رجال الفترة الموحدية، وليس هو بالتأكيد عليا بن محمد بن عبد الودود الذي ترجم له ابن الابار في تكملته لأن هذا من أهل مرج بيطر وصاحب الصلاة والخطبة بها وقد توفي في سن متأخرة (633) أي سبعون سنة بعد الكمين، نعم يمكن أن تكون لعلي هذا صلة بابن صاحب الصلاة الذي ورد على مراكش لينظر في فك أسْر أهله من أيدي الروم، وقد ذكر كايانكوس احتمال أنه أخ للمؤلف عبد الملك ابن صاحب الصلاة. ابن الابار. التكملة كوديرا رقم 1904 ـ ابن الزيات، التشوف، ص 167.

(3) دأب الناسخ على كتابة الدينار بحذف الألف. وانظر التعليق رقم 5 ص 215.

(4) يصف ابن صاحب الصلاة العملة أحياناً بالجَشَمية، وهو ما نجده كذلك عند ابن عذاري في بعض المقاطع نقلاً عن صاحب المن بالإمامة، وعندما نستشير كتب اللغة نجد أنها أي الدراهم الجشمية تعني الدراهم الرديئة. ثم عندما يستشير المرء المصادر القليلة التي عنيت بالعملة أيام الموحدين نجد أن بعضها يؤكد أن بعض الخلفاء الموحدين كانوا فعلاً يصنعون من النحاس ما يعطونه ـ زيفاً ـ اسم الدينار الذهبي. وقد ترجم كايانكوس الجشمية (التي ساقها بالحاء بدل الجيم) بالذهبية (Gold Dinars).

راجع التعليق 1 ص 292. لسان العرب مادة جشم. ابن عذاري ص 2 ـ بروفنصال.

Provençal: Notes d'histoire almohade. hes. TX 1930 P. 51 — 90.

Bel: Contribution à l'etude des dirhems de l'Epoque almohade.

Hes. TXVI 1933 P. 7.

وحسن المشاهد يتوالى. وحمد له أبوه الشيخ المرحوم جهاده واجتهاده، ورعية أصحابه وأجناده، وبعد هذا انصرف عن بطليوس ودام على مكارم الأخلاق، الشايعة له في الآفاق، إلى أن توفي رحمة الله عليه.

رجع الخبر: وعندما اتصل إبراهيم بن همشك بمحمد بن مردنيش أميره قبل، سُقط في يده، وتحقق أن ساعده قد كسر مع عضده، فحملته الانفة والعجلة أن يأمر [255] قواده وأجناده المجاورين في بلاده لبلاد ابن همشك بالفتنة معهم، وأن يضيقوا عليهم متّسعهم، فامتثلوا ذلك فدامت الفتنة مدة أكثر من سنة كاملة وزادت بينهم الشحناء على الاستدامة، وألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، ولم يزل ابن همشك يستغيث إلى الموحدين - أيدهم الله - من عدوه، ويستنصر بهم عليه، ويستصرخهم إلى غزوه. وفي هذه السنة أيضاً استدعى سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أخويه السيدين أبا إبراهيم اسماعيل الوالي بإشبيلية وأبا اسحاق إبراهيم الوالي بقرطبة، واستدعى معهما الشيخ الحافظ أبا عبد الله ابن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم الوالي باغرناطة مع حفاظهم وعمال البلاد، ليصلوا إلى الحضرة مراكش حرسها الله. فأسرعوا إلى استدعائه العالي، وتحركوا من الأندلس في أول جمادى الأولى بموافقة شهر دجنبر [1] العجمي من السنة المؤرخة عام أربع وستين وأقاموا في الحضرة إلى أول عام خمسة وستين وخمس مائة.

وانصرف السيدان المذكوران وصحبهما أخوهما السيد أبو علي الحسن والياً على سبتة وأقام الحافظ أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم بالحضرة على ما ذكرته، وبقيت مدينة اغرناطة تحت حكمه وأمره وعياله فيها حتى أجاز [256] في صحبة السيد الأعلى أبي حفص على ما ذكرته[2] وأذكره

(1) أول جمادى من السنة يوافق 31 يناير 1169 حسب جداول الدكتور كاطنوز.
(2) عند ترجمة الشيخ بن أبي ابراهيم ص 152.

إن شاء الله[1]. وفي هذه السنة أيضاً اختلف الهواء بمراكش فمرض[2] أكثر السادات وكثير من الناس[3].

سنة خمس وستين وخمس مائة

(تعيينات جديدة في سلك الولاة)

في أول شهر صفر منها ولّى سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أخاه السيد الأجل الأسنى أبا علي الحسن مدينة سبتة وأنظارها، وجبال غمارة وأقطارها، وتحرك إليها من الحضرة الإمامية وانصرف السيدان الأجلان معه: أخواه أبو ابراهيم اسماعيل إلى إشبيلية وأبو أسحق إلى قرطبة على أولهما[4]. وصحبهم بالأمر العزيز أدامه الله الحافظ الأسنى أبو يحيى زكريا بن يحيى بن سنان أحد أبناء أشياخ خمسين[5] النبهاء، الحافظين المقدمين النجباء الأمناء، والياً عن الأمر العزيز على حصن طبيرة[6] وشنتمرية[7]، والعليا[8]،

(1) يعني بعد قليل.
(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر هذا «الاختلاف» الذي جرى سنة 564، هذا وقد استهدفت مراكش سنة 571 لطاعون ذهب ضحيته عدة سادة فيهم أبو عمران وأبو سعيد وأبو زكريا ثم الشيخ حفص جد الأمراء الحفصيين. ابن عذاري 101. ابن خلدون. السادس ص 501.
(3) لقد كان ابن صاحب الصلاة في هذه الأثناء في الأندلس، ولذلك فإنه لم يتمكن من إعطائنا وصفاً لحفلات عيد الفطر مثلاً لسنة أربع وستين وخمس مائة، وقد كان في جملة الشعراء الذين وردوا لتقديم التهاني أبو جعفر أحمد الوقشي الذي أنشد ميمية طويلة في الموضوع.
الحلة السيراء نشر دوزي ص 231 — 230.
(4) يعني على ما كانا عليه في بداية الأمر.
(5) راجع التعليق رقم 5 ص 68 .
(6) (Tavira) انظر التعليق رقم 1 ص 283.
(7) شنتمرية (Santa Maria) مدينة تقع على شاطىء البحر الأعظم المحيط وهي المعروف اليوم باسم (فارو) Faro إليها ينسب الأستاذ أبو الحجاج الشنتمري.
الادريسي 180 - الروض المعطار 114 - 115 - الحلل السندسية أول 77.
(8) العليا: تقع بين اشبيلية ومدينة شلب ومنها الأديب المشهور كثير العلياوي.
المراكشي، المعجب ص 374 - المغرب في حلى المغرب أول ص 380 - 398.

بغرب الأندلس، فَعلا ذكرُه في الحفاظ وتميز عند أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بحسن النظر والايقاظ والتحفظ من المشكلات والاحفاظ[1]، فوجهه لحفظ طبيرة المذكورة من كل مفاتن، وغادر منافق مباين، فوصلها في صحبة السيد أبي إبراهيم صاحب إشبيلية، واستقلّ بما به فيه تخيّل، وله أهل، وناب فيها المناب الحسن، [257] وعرض أهلها من خوفهم وفتنتهم الكَرى اللذيذ والوسن، وأقام فيها بحسن سياسة - وإن شئت فرياسة - مدة اثنتي عشرة سنة حتّى نقله الأمر العالي منها إلى أشغال مدينة مرسية على ما أشرحه في ذكره إن شاء الله[2]، وإنما اختار أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا الحافظ النبيه لهذا الحصن وخصه به من بعد فتنته وحربه لثقته عنده، ويقظته وذكائه، لضبطه وحزامته، ولأنه من أحد الطلبة المتفنين في العلوم المتطلبة على مذاهب الأيمة بالمعقول والمفهوم.

ذكر الأحداث في هذه السنة

(انتقام أدفونش، وانحباس المطر، وزلزال الأندلس)

وفيها خرج العدوّ النصراني القمط نونه ظِئْر ادفونش الصغير[3] ابن السُّلَيْطن لعنه الله من طليطلة دمَّرها الله بعسكره الذميم، وأغار على فحص رنده وجبالها، وفحص الجزيرة الخضراء وجبالها أيضاً، ووصل إلى البحر وقتل المسلمين في تلك الأقطار والأنظار، وأسرهم فيها واكتسح سائمتهم.

(1) التحفظ: التيقظ، والاحفاظ: الإغضاب لعله يقصد إغضاب الخصم.

(2) دون شك في السفر الثالث.

(3) أذفونش الصغير (AL Fonso VII) EL Rey chico. هُوَ في الحقيقة حفيده وليس ابنه وقد جرى المؤرخون على النسبة لأقوى رجل في الأسرة سيما ووالده صانشو لم يعمر لم يعمر أكثر من سنة. Dozy, Recherches page 387 — 388.
راجع التعليق رقم 1 صفحة 96 والتعليق رقم 5 صفحة 153. والتعليق رقم 3 صفحة 284 والتعليق رقم 2 صفحة 286 والتعليق رقم 1 صفحة 295.

وفيها توقف المطر للاحتراث بالأندلس حتى إلى شهر دجنبر العجمي ونزل وحرث الناس. وفيها حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها في الظهر من الأيام بتاريخ شهر جمادى الأولى من السنة المؤرخة وتوالت على مدينة [258] اندوجر مدَّة أيام حتى كادت أن تتحول وتغوص بها الأرض، واتصل بعد ذلك بمدينة قرطبة واغرناطة وإشبيلية، وجميع الأندلس فكان الرائي بعينه يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى إلى الأرض ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى، وتهدَّمت من ذلك مواضع ديار كثيرة في البلاد المذكورة وصوامع مساجد[1].

(تضييق جرانده على بَطليوس)

وفي شهر رجب الفرد من هذه السنة زاد ضعف مدينة بطليوس من عدم القوت فيها بإلحاح العلج اللعين (جرانده[2]) عليها بالفتنة وقطع الداخل بالمرافق إليها، فنظر لها الموحدون الذين كانوا بإشبيلية في ميرة موفورة من الطعام والآلات والمحلات للحمل إليها، فاجتمع في ذلك نحو خمسة آلاف دابّة موفورة بما ذكر، وتقدم عليها للتوصيل الحافظ أبو يحيى زكرياء بن[3] علي بعسكر إشبيلية وجهاتها من الموحدين والأجناد الأندلسيين، فوصل بالميرة المذكورة وبالعسكر معها إلى مقربة من بطليوس فخرج اللعين جرانده بجمعه الذميم من النصارى وأهل شنترين النصارى معه. فتحاربوا مدة طويلة من النهار، ثم انهزم المسلمون وقتلوا وأسروا وانتهبت الميرة وذهبت بكليتها وكان ذلك في يوم الخميس السادس[4] والعشرين من شعبان المبارك من سنة

(1) لم يتحدث المؤرخون عن هذا الزلزال العظيم الذي وصفه المؤلف وصفاً دقيقاً، نعم اهتم ابن أبي زرع بزلزال سنة 472 الذي كان من أعنف الرجات الأرضية التي عرفها المغرب. القرطاس ثان طبعة ص 96.

(2) انظر التعليق 2 صفحة 274.

(3) نفس ما ينقله ابن عذاري في البيان المغرب ص 73.

(4) Huici T.I page 241.

خمس [259] وستين المؤرخة، واستشهد في ذلك اليوم الحافظ زكريا المذكور، ووصل الخبر إلى الشيخ المرحوم أبي حفص بقرطبة وإلى الموحدين بإشبيلية فساءهم ذلك وعرفوا بذلك الحضرة العلية أدام الله تأييدها.

(مرض الخليفة واستصراخ ابن همشك بالموحدين ضد ابن مردنيش)

وفيها مرض أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه، وضعف عن الحركة للغزوة التي وعد بها جميع الموحدين بالأندلس من الوصول إليهم في كتابه الذي وجّهه إليهم في صحبة الشيخ المرحوم أبي حفص على ما ذكرته وقيدته، فتأخرت حركته بسبب ضعفه، لكنه رضي الله عنه لم يزل مع ضعفه في استدعاء العرب من أفريقية والموحدين من كل جهة وأعطاهم وكساهم وحين استقل انجز عدته على ما أذكره بعد هذا إن شاء الله[1]، وفيها أيضاً ألحّ محمد بن مردنيش بفتنته على جهة بلاد إبراهيم بن همشك واستكفى عليه بعسكره الشرقي وبالنصارى حلفائه، فاستغاث ابن همشك بالموحدين وكثر صراخه إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وشكا حاله وأوجاله. وكتب الشيخ المرحوم أبو حفص مِنْ قرطبة إلى حضرة الخلافة معيناً لابن همشك بكتابه ومصدقاً له فيما استغاث به من عدوّه، فاجتمع الرأي الموفق السعيد، والنظر الحميد، أن يتقدّم السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه بالخروج [260] من حضرة مراكش حرسها الله بعسكره الضخم اللَّهِمّ، المظفر الشهم، لتلافي جزيرة الأندلس، وغزوا بن مردنيش والنصارى معه وحصاره في مرسية قاعدته، ومقارعته في داره وحاضرته، فخرج من حضرة مراكش لذلك حسبما أذكره.

(1) راجع صفحة 272 الآتية وما بعدها...

ذكر الغزوة الثانية من السيد الأعلى أبي حفص بن الخليفة رضي الله عنهم وايدهم لمحمد بن مردنيش في عقر داره وحصارهم له في داخل مرسية وملازمتهم المنازلة له حتى فتحت اكثر بلاده بعد خمسة أعوام من المنازلة في الغزوة الاولى المذكورة.

وإنه لما كان ما ذكرتُه خرج السيد الأعلى المجاهد السعيد المرحوم أبو حفص من حضرة مراكش في أول شهر ذي القعدة، الموافق لشهر أغشت[1] العجمي من سنة خمس وستين المؤرخة مستعجلاً مسارعاً لنصر جزيرة الأندلس، ولمن استصرخ به ممَّن وحَّد واستَنَد، ولغزو من عاداه من عِدَاه. وصحبه في هذه الغزوة السعيدة على عادته أخوه السيد الأسنى أبو سعيد بن أبيه الخليفة رضي الله عنه وجماعة علية من أبناء أشياخ الجماعة رحمهم الله كأبي [261] عبد الله بن أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن تيجيت ومن يليهم من أمثالهم من نمطهم، ومن حُفَّاظ أهل خمسين كذلك. واختص من الصنف الأندلسي العاقل الداهية أبا محمد سيدراي بن وزير، وأخاه أبا الحسن علي بن وزير وأشياخاً فرساناً أبطالاً من الأجناد الساكنين بحضرة مراكش من أهل الأندلس، انتخبهم واستصحبهم مع نفسه لمعرفتهم بالأندلس وحروبها، ولمذاكرتهم في مشاورتهم في محاولة ما يحتاج إليه من الأمور، ومعرفة الثغور، واستخلص الدعاء لله في الاستخارة له في أمره، واستجلاب نصره، على أعداء الله وأعدائه، وصفّى نيته للجهاد في إعلاء دعوة الإيمان وندائه، فنهض والسعد أمامه، يقدم أعلامه، حتى أجاز بعسكره الشهم البحر إلى الأندلس. ووصل إلى مدينة إشبيلية في أول عام ستة وستين فأراح بها للنظر والاجتماع مع الشيخ المرحوم أبي حفص، فوصل إليه بها من قرطبة

(1) أول ذي القعدة من عام 565 يوافق اليوم 17 يوليه 1170 حسب جدول الدكتور كاطنوز.

وفي صحبته إبراهيم بن همشك بأصحابه المختصّين به، واجتمعوا خير مجتمع، بأحسن مرأى ومسمع وتشاوروا في الرأي، وتذاكروا إلى أين يكون أول الغزو بالمشي والسعي، فرأوا أن يتوجه السيد الأسنى أبو سعيد في سنة ست وستين وخمس مائة أولاً إلى مدينة بطليوس لإحياء إسمها بعد مماتها، وإخراج النصارى بالدّفاع [262] عن جهاتها، فتوجَّه إليها بعسكر مبارك من الموحدين - أنجدهم الله - ومن أهل الأندلس والعرب - وفرهم الله -، ومعهم من أشياخ رؤساء الأندلس أبو محمد سيد رأي بن وزير، وأبو العلا بن عزون لمعرفتهما بثغر بطليوس المذكورة، والثقة بهما في نصيحتهما المشهورة، فوصلها في أيمن طالع ووقت، وبأيمن حال في كل وجهة وأسعد بخت. وكان من الاتفاق الحسن ببركة هذا الأمر العزيز أن وافق وصوله خروج فرنانده الببوج بن ادفونش السليطن[1] المذكور في هذا التاريخ بعسكره قاصداً بطليوس ليسترجع ملكها وأخذها من أيدي المسلمين. لما رأى ابن الرنك عدوه قد قارب التغلب عليها مرة ثانية بإلحاح جرانده على إصرارها. وقال في نفسه: «إنه أولى بها دفاعاً لعدوه!» وصح خروجه عند السيد الأسنى، وانه قد وصل بعسكره وآلات سكناها بالفحص المعروف بالزلاقة[2] على . . . . .[3] من بطليوس، فوجه إليه السيد الأسنى أبا محمد بن وزير، وأبا العلا بن عزون، وأشياخ الأجناد العقلاء الأولياء للقائه وائتلافه على أوّله، واستفهامه عن خروجه، وهل هو باق على الصلح المربوط معه أم لا؟ فوصلوا إليه ورحَّب بهم وتكلموا معه فيما وفدوا فيه فقال: «إنما خرجتُ لحمايتها وإمساكها لأمير

(1) راجع صفحة 230 و 231 مع ما عليها من تعليقات.

(2) الزلاّقة (Sagrajas) وتقع في الشمال من بطليوس قريباً منها على ضفاف نهر كير يرُو (Guerrero) وفيه وقعت المعركة الشهيرة في الثاني عشر من رجب 479.
الروض المعطار ص 83 — 84 — 85 — 95.

(3) هنا بياض في أصل المخطوط ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يحدد بالأميال التي تفصل بطليوس عن الزلاقة، هذا وأن الزلاقة تقع على مسيرة ثمانية أميال تقريباً من بطليوس.
دائرة المعارف الإسلامية (عاشر) ص 370.

المؤمنين بن أمير المؤمنين[1] [263] أيدهم الله» فشكروه وعرضوا عليه الاجتماع مع السيد الأسنى وتجديد الصلح بينهما، فأجاب إلى ذلك فوصل إلى مقربة من بطليوس في جملته الخاصة به من أقماطه، ورجال مدينة سبطاطة، والتقى بالسيد الأسنى: هذا راكب على فرسه، وهذا راكبٌ على فرسه، وتكلم أبو محمد بن وزير[2] وأبو عزون مع ترجمانه بما يصلح من الصلح بينهما حتى كمل الغرض المراد، واتصل العهد والسداد، وانصرف فرنانده الببوج بعسكره إلى بلاده وكان تيسيراً من الله تعالى وفتحاً وتبشيراً من الله توالى. ونهد السيد من موضع اجتماعه بعسكره المبارك إلى حصن جلمانية ونازله وفتحه عنوة، وأجلى الله تعالى جرانده الكافر اللعين منه حتى أخذ بعد ذلك، وهدمه وانصرف وقد أحيا بطليوس وأجلى عنها كل بأس إلى إشبيلية مؤيداً مسدداً سالماً، وبالبشائر قادماً، وذلك في ربيع الأول من سنة ست وستين وخمس مائة، وكان أبو محمد بن وزير يحدث أصحابه بما عاين في هذه الغزوة من مكارم السيد الأسنى أبي سعيد ويطنب في وصفه، ومدحه ووصْفه، ويقول من بعض مكارمه واهتباله برجاله وجلب نفوسهم إلى حيّه: «إنه لما وجهني إلى فرنانده الببوج المذكور مع الارسال الماشين دخلت على الببوج في خبائه ومعه أقماطه وأشياخه [264] النصارى فتكلم معي بلسانه العجمي، فقلت لترجمانه: «لست أفهم العجمية!» وإنما قلت ذلك كتماناً مني وحيلة، لأفهم من كلامه ما يريده من خير وشر، فترجم له ترجمانه عني الغرض الذي وصلت فيه على ما تقدم، ولاطفته في الصلح حتى كمل. وفي أثناء الجلوس معه سرق أرذال النصارى المتصرفين في الخباء عمامة رأسي عند غفلة مني! فلما وصلت إلى السيد منصرفاً مع الببوج رأى رأسي دون عمامة، فسألوني عن ذلك فوصفت له الحال وأنا ضاحك من رجال النصارى وسرقاتهم فأخذ بفضله وسيادته عمامة رأسه ودفعها إليَّ واستدعى خديمه

(1) راجع ص 244 من الكتاب المخطوط أو صفحة 380 - 381 من المطبوع

(2) عبد الهادي التازي: تاريخ المغرب الديبلوماسي: المجلد السادس (المغرب في عهد الموحدين).

حماداً العصري[1] وأمره بسوق عمامة أخرى لرأسه فتبّلت يده وزاد حبه في قلبي وسؤدده.

ذكر حركة السيد الاعلى، المجاهد الاسنى، ابي حفص من اشبيلية الى غزوته المذكورة لابن مردنيش بعد انصراف السيد الاسنى ابي سعيد من مدينة بطليوس على البشر الذي صنع الله تعالى له.

ولما انصرف السيد المذكور وتجمع مع أخيه السيد الأعلى ومع الشيخ المرحوم أبي حفص أعادوا رأيهم وعزمهم [265] على غزو عدوهم ابن مردنيش، فتحركوا من اشبيلية بجمعهم الموفور المنصور إلى مدينة قرطبة، وفي صحبتهم ابراهيم بن همشك في أول شهر رجب الفرد من سنة ست وستين المؤرخة. فلما وصلوا إلى قرطبة أقاموا فيها أياماً ونهدوا على تصميم الخير بعزمهم في غزوهم فأول مدينة نزلوها من بلاد ابن مردنيش مدينة قيجاطة[2] ففتحها الله تعالى بعد قتال ونزال، وتقبض على قائدتها الشرقي فضربت رقبته برأي ابن همشك، ثم أقلعوا منها مغيرين على بسائط بلاد مردنيش في طريقهم، مستصحبين الظفر في عدوهم، مواصلين لمن بادر بالتوحيد والطوع وأمن بتصديقهم دون منع حتى وصلوا مدينة مرسية، فنازلوها واستغلبوا حصن الفرج[3] الذي كان منتزه ابن مردنيش واستباحوا المرباضات والبساتين وما اتصل من البسائط والقرى بالبلاد القريبة بتلك الموسط، وابن همشك مع الموحدين يدل على عورات عدُوّه، وينكيه في رواحه بالغزو وفي

(1) لم نجد ذكراً لحماد هذا في حاشية الخليفة الموحدي عند المراجع الأخرى.

(2) قيجاطة (Quesada) تقع في الشمال الشرقي لمدينة جيان شرقي قرباقة وقد تسمى قيشاطة. الروض المعطار ص 165. والترجمة بالفرنسية ص 198.

(3) حصن الفرج (Aznalfarache) وهو غير الحصن الذي جدده يعقوب على ضفة الوادي الكبير بعد عودته من غزاة شلب والذي سماه حصن الفرج. المراكشي ص. 280 ـ 292 ـ ابن عذاري 185 مخطوط.

غدوه، وظهرت الغلبة على ابن مردنيش وعلى عسكره بالحصار. وظهر الخور على أحلافه الكفار، وكل ما استدعى النصارى من بلادهم أفردوه وأسلموه وأخلفوا وعده، واستقلوا رفده، فلم يصل إليه منهم إلا نحو أربع مائة فارس وجههم إلى مدينة لورقة لضبط قصبتها مع قائده الأخص به الأمين عنده [266] أبي عثمان بن عيسى[1] فضبطها وحصنها بهم، فلما كانت هذه المنازلة وطالت، وظهر الخلل في حال ابن مردنيش واعتلت نفسه بالفكر والمرض، ورأى الناس أن حاله قد حالت وزالت، قامت العامة من أهل مدينة لورقة على النصارى وعلى من معهم من أصحابهم بدعوة الموحدين وقاتلوهم في المدينة، فاحتصنوا بجمعهم في قصبتها، ووثقوا بمنعتها، فخاطب الناس أهل لورقة حضرة السيد الأعلى المجاهد أبي حفص بمحلته على مرسية، يعلمونه بقيامهم بدعوة التوحيد، ويستصرخونه بنصره لهم على عدوهم الشديد، فاقلع السيد المؤيد عن مرسية قاصداً عونهم واحتل مدينة لورقة وملكها، واستوطن بعسكره المنصور أرباضها ورياضاتها وبسائطها، وبقيت القصبة بمن فيها من الكفرة وعليهم القائد أبو عثمان بن عيسى ضابطاً لها بهم، فكان من بركة هذا الأمر العزيز العلي أن خرجت سرية من المحلة المؤيدة من أجناد الموحدين للغزو في البسائط على عاداتهم، فاتفق لهم أخذ الابن محمد بن القائد أبي عثمان بن عيسى في غزوتهم، فاستاقوه برمته ممسوكاً إلى السيد الأعلى أبي حفص، فأمر أن يحمل إلى أبيه بقرب من القصبة وعساه يُراعيه، ويتخلى عن القصبة المضبوطة فيه، فامتنع من [267] الإجابة إلى[2] ذلك، وطال الحصار على النصارى في القصبة حتى نفذ لهم

(1) ابن عذاري: ابن عيسى، انظر صفحة 75 من البيان المغرب.

(2) كثر في التاريخ ترديد أحداث من هذا النوع وخاصة في تاريخ اسبانيا الإسلامية، فقد حكى التاريخ أنه لما ثار دون خوان (Don juan) شقيق الملك سانشو الرابع Sancho IV على أخيه وأخذ ينازعه عاهد العرب وهاجم طريفه بجيوش المسلمين، فتحصن فوسمان Guzman حاكم طريفة من قبل سانشو الرابع في حصنها وامتنع فَوَقَعَ ابنُه في يد ضُون خوان، وكان خارج الحصن فتهدده هذا قائلاً: «إما أن تسلم وأما قتلت ولدك» فأبى التسليم وقتل الولد! وقد سجل تاريخ =

الماء والقوت فتغلبوا على أبي عثمان بالقول والكلام حتى أذعن بالطوع لهم في رأيهم وتوسط ابن همشك لأبي عثمان في النزول عن القصبة بمن معه على الأمان والصفح في ذلك، حتى كمُل الحديث فنزل ابن عيسى المذكور عن القصبة مع النصارى وأصحابه وأجلوها على ما ذكر، ودخلها الموحدون أيدهم الله واحتووها، ودفع الابن محمد إلى أبيه مسلّماً محفوظاً مكرماً، ورجع أبو عثمان القائد مع أصحابه وابنه إلى مرسية: إلى ابن مردنيش وانصرف النصارى الذين كانوا بلورقة إلى بلادهم طالبين النجاة بنفوسهم بما عاينوه من بؤسه وبؤسهم. ولما كمل فتح لورقة على ما ذكرته ومنازلة مرسية، أعلم السيد الأعلى بذلك حضرة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوصله الجواب بكتاب كريم من أمير المؤمنين يأمره أن ينصرف بعسكره المؤيد إلى إعادة حصار مرسية ويشكره، فانصرف السيد الأعلى المذكور والموحدون أعزهم الله إليها ولازموا حصارها وحصار جنباتها وما قرب منها، واستولى على فتح ما جاورها من البلاد وثقف البلاد بالموحدين، وأمرهم في أعمالهم بإقامة الدين.

[268] الاستيلاء على البلاد التي بيد ابن مردنيش وطوعها للموحدين ايدهم الله بعد انصراف السيد الاعلى ابي حفص من لورقة الى حصار مرسية.

ولما انصرف السيد المؤيد المذكور من فتح لورقة إلى حصار مرسية طاع له أهل حصن إلج[1] ووحَّدوا، ووصلوا المحلة تائبين، ووصل معهم أكثر

= العرب حادثاً قريب بهذا، عندما أبى السموأل بن عاديا تسليم دروع امرىء. القيس إلى الحرث بن أبي شمر الغسّاني.

(1) حصن إلج (ELCHE) يقع غربي مرسية. الروض المعطار ص 31 أحمد الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 72 نشر الفريد البستاني، تطوان 1941 ـ خريطة. Huici 256.

أهل الحصون والمجاورين لهم المنضمين إليهم فعُفِي عنهم، وامنوا وأحسن اليهم، ثم إن السيد الأجل وجَّه عسكراً مباركاً من الموحدين أعزهم الله، ومن العرب والجند، وقدم عليهم الشيخ الحافظ أبا عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم إلى مدينة بسطة، ففتحَها الله على يده، ودخلت في طاعة الموحدين، وأمنوا أهلها مثل تأمين غيرهم، واتصل عند أهل الشرق هذا الفتح، والأمان لهم والصفح، فبادر أهل جزيرة شوقر[1] بالطاعة والتوحيد، وقاموا على النصارى الذين كانوا عندهم بدعوة التوحيد، وأخرجوهم عن بلدتهم، ووصلوا بأجمعهم إلى السيد الأعلى بالمحلة الوئيدة بمرسية، فوجه معهم والياً عليهم قائدهم قبل وكان قد وحَّد وبادر: أبو أيوب بن هلال الشرقي[2] فنهض معهم وضبطها للتوحيد، [269] ضبط الحازم الفارس المقدام الصنديد، فلما أقلع السيد عن مرسية على ما أذكره إن شاء الله، نازله ابن مردنيش في جزيرة شوقر بعسكره فما راعه نزاله، ولا هابه قتاله. ولمْ يزل ابن مردنيش في حصار في عقر داره، ونكبات تترادف عليه من انقلاب اخوته عن طاعته واصهاره، وهو مكبود مفؤود، قد أسلمه القريب والبعيد، وظهر من يوسف بن مردنيش لأخيه محمد في منازلته جزيرة شُوْقر التقصير به وعدم المعونة لمذهبه في قتال ابن هلال عدوه، وتحقق من أخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزادت كيده ألماً، واتصلت نفسه سقماً، فرجع إلى مرسية لغير طيه، ولازمته العلة المزمنة بأسباب المنية، على ما أذكرها بعد هذا. **رجع الخبر.**

(1) شوقر كذا يرسمها الناسخ في كتاب ابن صاحب الصلاة وان كانت في سائر الكتب التي بين أيدينا ـ وفيها نزهة المشتاق فيما يليها ـ تكتب بدون واو، وتضبط بضم الشين وتسكين القاف، وهي قريبة من شاطبة، يحيط بها الوادي، والمدخل إليها في الشتاء على المراكب وفي الصيف على مخاضة، وفي إحاطة الوادي الوادي بها ينشد ابن خفاجة وأبو المطرف بن عميرة بعض الأشعار، وقد كانت جزيرة شوقر تطلق أيام الدولة الإسلامية على الجزيرة الواقعة في نهر شوقر Rio Ucar قبل مصبه في البحر المتوسط جنوب بلنسية، وهو الإسم الذي استُعير فيما بعد لبلدة (Alcira).
الروض العطار ص 102 — 103 — 104. الحلل السندسية أول 109 ـ110 ـ الإحاطة لابن الخطيب نشر عبد الله عنان 185 ـ ويسي ص 157 ـ بروفنصال.

(2) هو محمد بن هلال، وقد نعته ابنُ الأبَّار بذي الوزارتين، انظر الحلة السيراء ص 237.

(فيئة صاحب البسيط إلى الموحدين)

وفي خلال هذه الغزوة المذكورة المنصورة والحصار قام بالمرية[1] محمد بن مردنيش[2] المعروف بابن صاحب البسيط [3] ابن عم محمد بن مردنيش [4] المذكور، نعم وصهره على أخته بدعوة الموحدين أيدهم الله وأعانه على قيامه محمد بن هلال[5] صاحبه، وتقبضا على الوالي بها من قبل ابن مردنيش: ابن مقدام[6] ووحَّدوا، وخاطبوا بذلك إلى السيد الأعلى أبي حفص بالمحلة المؤيدة، فوجه إليهم عسكراً من الموحدين أعزهم الله معيناً لهم، وبقبولهم والشكر [270] على فِعْلِهم، ونفذ الأمر بقتل ابن مقدام القائد المقبوض عليه فقتل. واتصل هذا الخبر بابن مردنيش فأمر بقتل أخت نفسه[7] زوج محمد بن عمه المعروف بابن صاحب البسيط المذكور، وبقتل بنيه منها، وقطعه رحمه عنها، فأخذهم ابن الراعي الموكل بالعذاب منه بالناس وحملهم الى البحيرة[8] المتصلة بالبحر بقرب بلنسية، وأدخلهم في قارب مع نفسه،

(1) المرية (Almeria) أنظر التعليق رقم 2ص 78 .

(2) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد، صاحب المرية، وقد ذكره ابن الأبار في الحلة السيراء إثناء ترجمة أبي بكر أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي، وذلك عندما استطرد بذكر ضعف أمر أبي عبد الله محمد بن سعد الأندلس وانسلاخ ابن همشك صهره بجيان وكذا ابنُ عمه أبي عبد الله بالمرية عن طاعته. الحلة السيراء، ص 236

(3) البسيط (Albacete) مقاطعة أو مدينة تقع في الجانب الشرقي من طليطلة ومدريد، وفيها المدينة القديمة والمدينة الجديدة، وبها يمر الطريق الحديدي الذي يربط بين مجريط والقنت على الساحل الشرقي من المتوسط.
مخطوط ابن عذاري ص 76 ـ الحلل السندسية ثان ص 48 ـ الغزال: نتيجة الاجتهاد ص 7 ـ 71.
Huici: P. 243 — 257

(4) يضيف ابن عذاري هنا قوله تأكيداً: ابن عم صاحب مرسية.

(5) هو أبو أيوب المتقدم تعليق رقم 2 ص 319.

(6) لم نقف على من ردد ذكر هذا القائد ولعل له صلة ببطن مقدام ابن ظريف، ابن خلدون، المجلد السادس ص 163.

(7) لم تفت البيذق الإشارة لمقتل أخت ابن مردنيش وتذكر بعض المصادر خطأ أن المقتولة هي ابنته. البيذق، أخبار المهدي ص 126 ـ ابن عذاري ص 76.

(8) يقصد بالبحيرة هنا: المكان العروف تحت اسم (la Albufera) بمرسية.

فلما توسط بهم البحيرة المذكورة غرقهم في البحر على أبشع حال، واشنَع مقال. واختل ذهن ابن مردنيش في أثر ذلك، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك، وعاد صبحه كالليل الحالك وفزع من اذايته اهلُه وقرابته، وشيعته وحامته[1] واختلت جبايته وحالته.

وعند اتصال هذا الفُتح واليمن الشِّامِل، والنصر والحصار المتواصل، أجاز الخليفة الأرض أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى جزيرة الأندلس عساكره الموفورة المؤيدة، منجزاً عدته التي كتب بها للموحدين ـ أعزهم الله ـ ومردفاً لأخيه في نصره وشد أواخيه على عدوه، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان من عام ستة وستين وخمس مائة. ووصل إلى إشبيلية يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بعد صلاة الجمعة على ما أذكره بعد[2] هذا مفسراً [271] إن شاء الله تعالى، فاتصل خبر اليمن بوصوله وحلوله بكتابه الكريم، المبشر العظيم، إلى السيد الأعلى بالمحلة المؤيدة، فتمادى على غزوته، وازدادت القلوب حبّاً في الغزو ثقة بهم من الله تعالى في نصرته، على عادته لأهل هذا الأمر العزيز وبركته، ثم أخذ السيد الأعلى في الانصراف عن هذه الغزوة إلى الحضرة العلية حضرة أخيه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وللقائه بعد الفتح الذي ذكرته. وكان انصرافه في آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة. ووصل إلى اشبيلية ظافراً منصوراً على أعدائه، واجتمع بالخليفة فيها على سرور كامل، وظهور حافل، وبروز للنظارة لم يعهد في الأزمان الأوائل، في شهر محرم في الخامس عشر من عام سبعة وستين وخمس مائة المؤرخ.

قال المؤلف لم أعرض لذكر أخبار ابن مردنيش في هذا التاريخ، ولا لذكر الثوار الأندلسيين، إذ قد شرحت ذلك في التأليف المسمى بتأليف (ثورة

(1) يعني اصدقاء الذين كانوا يحومون حواليه.

(2) صفحة ٢٠٣.

المريدين) فاغنى عن ذكرهم في هذا التاريخ وإنما ارخت غلبة الأمر عليه[1].

ولما اجتمع السيد الأعلى أبو حفص باشبيلية مع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أخيه بعد غزوته المؤيدة، ووصل معه عسكره من الموحدين والأجناد الأندلسيين، فأنعم عليهم أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه [272] ببركةٍ عظيمة العدد، وكسوة كاملة للرأس والجسد، وحفَّ بهم التقريب باللسان وبالجود باليد، والإحسان اليهم، وللأهل والولد، وأحسن الأمر لكل من وصل معه من الأجناد الأندلسيين الشرقيين المبادرين لهذا الأمر العزيز وسلموا وبايعوا ورُحب بهم وأنزلوا على ما أشرحه بعد هذا إن شاء الله تعالى.

(1) عندما كان ابن صاحب الصلاة يعتذر عن هذه الاستطرادات كان يعطينا تعريفاً واضحاً لموضوع كتابه (ثورة المريدين).

الخبر عن اقامة امير المؤمنين ابي يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بحضرة مراكش بنية الغزو مريضاً بعد تقدم السيد الاعلى اخيه ابي حفص بالعسكر المؤيد الى الأندلس، ونظره - مع ضعفه - فيما قلده الله تعالى من أمور المسلمين، وذكر ما اندرج في المدة المذكورة من استدعاء[1] العرب من افريقية والولاة بها ووصولهم اليه وفضائله وصدقاته واعطياته ومقدماته لهذه الغزوة الحافلة التي استولى فيها على ابن مردنيش واحيى الأندلس وامنها. وحمى مواسطها وثغورها واسكنها، وتَصّر اشبيلية واستوطنها.

قال الرَّاوية: وإن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه لم يزل ينظر في الغزوة التي وعد بها الموحدين على ما تقدم [273] ذكرها مع ضعفه، فإن مرضَه كان من أول سنة خمس وستين، واستقَلَّ وخرج إلى الصلاة يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وخمْس مائة، فكان غيبه[2] أربعة عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، لكنه كان يدخل إليه وزيره أبو العلا ادريس بن أبي اسحاق بن جامع يعلمهُ بالمخاطبات الواصلة، والأخبار المسلية السارة المتجاملة، ويحضر معه الأطباء الأولياء أبو مروان بن قاسم[3]،

(1) راجع التعليق رقم 3 ص 172.
(2) في ابن عذاري ص 77: كانت علته الخ.
(3) هو الوزير ابو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي من أهل التبريز في صناعة الطب وقد توفي سنة خمس وستين وخمسمائة. ابن أبي زرع، القرطاس ثاني ص 76.

وأبو بكر بن طفيل [1] وغيرهما [2] - ينظرون فيما يصلح به من الشراب والغذاء وجميع الأشياء، وكذلك يدخل معهم الفقيه أبو محمد عبد الله المالقي إذْ كان عنده في مسلاخ [3] وزير وأمين، بتشيُّخه على طلبة الحضر، يثق أمانته بعلمه منه حسن النصح والتدبير، ويتابعهم اشياخ الموحدين كالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر [4]، وأصحابه أعزهم الله يحققون الدُّعاء له بالشفاية [5] إذا جلسوا، ويقومون إلى الخروج وقد اقتبسوا اليمن في عيادته منه واختلسوا، فمتى طرأت مخاطبة من السيد الأعلى على أخيه في معنى الغزو أمر على حاله بالجواب عليها، وإذا وصلت شرح له ما اتَّصل لديها وغير ذلك عليه السكوت سائل [6] أهل الوفود يوعَدون عليها اللطف من الله والوقوت [7]، وفي هذه المرة استدعى العرب [274] وخاطَبَهم بهذه القصيدة على حالة المذكورة، يحرضهم فيها إلى الجهاد ويستدعيهم إلى الغزوة العظمى التي في نيته بأوفر الاستعداد، ويصفهم فيها بما هُم فيه من الشهامة والزعامة، ويستدنيهم غاية الاستدناء [8]، ويناديهم غاية النداء، ويستقربهم بالقربى التي تَجْمَعُهم في قيس عيلان وانهم السيف الماضي في نصر الدين وحمايته،

---

(1) من وادي آش، وهو من مشاهير الأطباء وأهل الحذق والنظر في العمليات الجراحية وقد توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، وهو مؤلف الكتاب الأشهر: «رسالة حي بن يقظان... المصدر السابق».

(2) كان في جملة أطباء يوسف بالإضافة إلى علي بن قاسم وابن طفيل، الوزير أبو بكر بن زهر الذي كان يتردد على الحضرة، كما كان من أطبائه بعد أبو الوليد بن رشد. القرطاس ص 176 - 177 - 178 - 179 - 180.

(3) يعني في رتبة وزير، وقد ورد في حديث عائشة: «ما رأيت امرأة أحبَّ إلى أن أكون في مسلاخها من سودة» كأنها تمنت أن تكون في مثل هديها وطريقتها. (لسان العرب).

(4) أظن أن هذا الذي ينعته البيذق بالشرقي ويعتبر من أهل دار المهدي وقد امتاز - من خلال الكتاب - بأنه الخطيب المقصع الذي يتحدث في الأوقات الصعبة، سواء باللسان العربي أو باللسان الغربي (بالغين). المن بالإمامة 384.

(5) كذا في الأصل، ولم نقف على مصدر هكذا لشفى، فيظهر أن الصواب الشفاء.

(6) هنا كشط لم نتبين حروفه في المخطوط ولعله: (ومسائل).

(7) كذا في الأصل ولم نهتد لمعناه كما يجب.

(8) راجع التعليق رقم 3 ص 111.

وقمع المارقين، ودفع الكافرين، وهي من قول ابن طفيل [1]: (طويل).

أقِيمُوا صدورَ الخَيْلِ نَحْوَ المَغارب
لغَزْوِ الأعادي واقْتِناء الرَّغائِب
وأذكوا المَذاكِي العادياتِ على العِدَى
فقد عرضَت للحرب جُرْدُ السَّلاهب
فلا تُقتنى الآمالُ إلّا مِنَ القَنا
ولا تُكتَب العَلْيا بغير الكتائِب
ولا يَبْلغُ الغاياتِ إلّا مصمِّمٌ
عَلى الهَوْلِ ركَّابٌ ظهورَ المصاعب
يَرى غَمْرةَ الهَيْجاء أعْذَبَ مَشْرَب
وان أعرضتْ زُرقاً جِمَام المَشَارِبِ
ويأنَفُ إلّا مكسَباً مِن حُسامه
ويُعْرِضُ عزّاً عن جميع المَكاسِب
ألا فابْعَثُوها هِمَّةً عربيَّةً
تَحُفُّ بأطْرافِ القَنا والقَواضِب

---

(1) عَرف الذين يهتمون بتاريخ أبي بكر بن طفيل طائفةً من آثاره الشعرية في التغزُّل والحكمة والزهد. والرثاء متناثرة في بعض في بعض معاجم الأدب الموحدي، كما عرفوا أرجوزته الخالدة في الأمراض وعوارضها وعلاجها، ولكن المصادر تخذل دائماً عندما يريد المرء أن يستقصي سائر شعره، ولكثرة ما قوي الاهتمام بآثار ابن طفيل الأدبية، حرصت على إرسال هذه القصيدة للمهرجان الذي أقيم ببيروت عن ابن طفيل في دجنبر 1961 وقلت آنذاك «أنها ظلت - فيما نعلم - سجينة الظلام» بيْدَ أن الزميل الدكتور عبد العزيز الأهواني أثناء تعريجي على القاهرة في حديثٍ عن الدكتور غريسه غوميس ذكر أن قصيدة ابن طفيل هذه كان ظفر بها الدكتور غوميس عندما كان ينوي أن يقوم بنشر كتاب ابن صاحب الصلاة وأنه قام بنشرها في مجلة المعهد المصري للدِّراسات الإسلامية وقد نقل كوتي ان كازيري (Casiri) تكلم عن شعر لابن الطفيل في الطب وقال أنه يوجد بالاسكوريال، هذا وتوجد هذه الأرجوزة في خزانة جامع القرويين المراكشي، المعجب، ص 240 - 241 - 242 - ابن عبد الملك، الذيل والتكملة عند ترجمة أبي العباس الصقر - أرجوزة ابن طفيل في الطب، مسجلة بخزانة جامعة القرويين بفاس تحت رقم 3158/50.
مخطوط ابن عذاري ص 107.
Leon Gautier; IBN Tofail sa vie ses Oeuvres P. 24 — 25.
مجلة المعهد المصري عدد 1953 ص 25 - 26 - ٧٢ - 28 - 29 - 32 راجع التعليق رقم 3 صفحة 433.
حي بن يقظان لابن طفيل دراسة وتحليل جميل صليبا وكامل عياد 1962 صفحة 18.

أفُرسانَ قَيْسٍ مِنْ هِلال بْنِ عامر
وما جَمَعتْ من طَاعنٍ ومُضارب
لكُم قبَّةٌ لِلمَجْدِ، شدُّوا عِمَادَها   بطاعةِ أمْر الله من كلٍّ جانب
وقُوموا لنَصْرِ الدِّين قومةَ ثائرٍ   وفيئُوا إلى التَّحْقيق فيئةَ راغِب
دَعوناكُمُ نَبْغِي خَلاص جَمِيعكم   دُعاءً بَريئاً مِنْ جميع الشَّوائب
نُريدُ لَكُم ما نبتغي لنُفوسِنَا   ونؤْثِركُم زُلْفى بأعلى المَرَاتِب
[275] فلا تَزْهَدُوا في نَيْلِ حظِّكم الَّذي
لكُم فِيهِ فوزٌ مِن جَمِيع المَعَاطب
بِكُم نُصِرَ الإسْلامُ بَدْأً، فنَصْرُهُ
عَلَيْكُم وهَذا عَوْدُه جِدٌّ واجِبِ
فقُومُوا بِما قَامَتْ أَوَائِلُكُم بِهِ   ولا تُغْفِلوا إحياءَ تِلْكَ المَنَاقِب!
وقَدْ جَعَلَ اللهُ النبيَّ والِه   ومهديَّه مِنْكُم بِلاَ عيْبِ عائِبِ
وفزْتُم بتَخْصِيص الخَلِيفَةِ بَعْدَهُ   ونسْبتِهِ الدُّنْيا بِزُلْفَى الأقارِبِ
وطائفة المَهْدِيّ منْكُم، وإنَّهَا   لتَحْنُو عَلَيْكُم باتِّصالِ المنَاسِب
ومَن ذَا الَّذِي يَسْمُو ليَبْلُغَ شأْوَكُم
إِذَا كُنْتُم فَوْقَ النُّجُومِ الثَّوَاقِبِ
نَصَحْنَاكُم والنُّصْحُ في الدِّينِ وَاجِبٌ
بِمَا لَكُمُ فِيهِ صَلاَحُ العَوَاقِب
وخَاطَبَكم عنَّا بَيانٌ مُحَصْحَصٌ[1]   يشُقُّ سَنَاه داجياتِ الغَياهِب
هُوَ الأمْرُ أمْرُ اللهِ مُنْجٍ ومُسْعِدٌ   لِكُلِّ منيب ناصِح الجَيْبِ تائِب
وفيه ذُعَافٌ للعُدَاةِ إذَا انْتَحى   تَمكَّنَ ماً بَيْن اللَّهى والتَّرائِبِ
وانتُمْ عَلَى التَّخْصِيص أجدرُ مَنْ بَنَى
بِذِرْوَتِه بَيْتاً رفيعَ الذَّوائب
فإنَّكُمُ قيسٌ، وفُرسانُ رَبِّنَا   عَلى الأرْضِ من قَيسٍ بغَيْر مُغَالِب

(1)قرأها غوميس محصص، مجلة المعهد المصري ص 31.

خُذُوا حَظَّكُم فالأمرُ جِدٌّ، وإنَّمَا   يَكُونُ بقَدْرِ الجِدّ قدْرُ المَناصِب
وقدْ فَازَ بالتَّقْدِيمِ مِنْكُم مَعاشِرٌ
بِما قدَّمُوهُ من حَمِيد المَذَاهِب
تحُثُّ بِهِم نَحْوَ البِدَارِ إلى الهُدَى   عتاقُ جِيَادٍ أو عِتاقُ نَجَائِب
فطارُوا إلى الدَّاعِي سِراعاً كأنَّهُمْ   قِداحٌ تَلقَّى الفَوْزَ مِنْ رَمْي ضارب
فخصُّوا مِنَ التَّكرِيم والبرّ بالَّذي   يَكُون جَدِيراً بالوَلِيّ المُصاقِب
فَنالُوا مَحَلَّ السَّبْقِ فانفسَحت لَهُم   رياضُ الأماني سائحاتِ المذانب
[276] وقَدْ شَاهَدُوا مِن حُرْمةِ الأمْرِ ما قَضَى
لَهُم بأمانٍ من جَمِيع النَّوَائِب
فما لكُم والنَّوْمَ عنْ خَيْرِ همَّةٍ   تقلّص أفْياءَ الشُّؤُونِ الجَواذِبِ
وتَعْطِفكم[1] بالمَشْرَفيةِ والقَنَا   مَنَادحُ عِزٍّ ساميات المَطالِب
وما هِيَ إلا دعوةٌ عزَّ ذِكْرُها   فعزَّ بِها في اللهِ كُلُّ مُصاحِب
حَذَارِ! فإعْراضُ الفَتَى عَنْ نَجاتِهِ   وتَضْيِيعُه للحَزْم إحْدَى المعايب
وما الحَزْمُ إلا طاعَةُ اللهِ إنَّها   هيَ الحَرَمُ المَنَّاعُ مِنْ كلِّ طالب
نَعُدُّكُمُ السَّيْفَ الَّذِي لَيْسَ يَنْثَنِي
إذا ما نَبا سَيْفٌ براحةِ ضارِبِ
ونَجْعَلُكُم صَدْرَ القَنَاةِ إذا غَدَتْ
تأطَّرُ ما بَيْنَ الحَشَى والتَّرائب
وقَدْ كَانَ مِنْ أَقْوالِكُم ما عَلِمْتُمُ
فإنْ كانَ فِعْلٌ فالرَّجا غَيْرُ خائِبِ!
ولَيْسَ خَطِيبُ الصِّدْقِ مَنْ قالَ فانْبَرَى
ولكنَّ فِعْلَ الحُرِّ أصْدقُ خَاطِب
وما خُلُقُ الأعْرابِ إخْلافُ مَوْعِدٍ
ولكنَّ صِدْقَ الوَعْدِ خُلْقُ الأعارِبِ

(1)كذا في الأصل وقد قرأها غوميس (وتعطيكم) عطفاً على تقلص، وضبط منادح (مفاوز) فتح الحاء.

سَنَعْلَمُ مَنْ أوْفَى ومَنْ خَاسَ عَهْدَهُ
ومَن كانَ مِن آتٍ إليْنا وذاهِبِ
وتظْهَر أحْوالٌ يَروقُ سَماعُها   فيَرْغَبُ فِي أمْثالِها كلُّ راغِب

وإن العرب تأخروا قليلاً، فخاطبهم يستعجلهم، ويذكر لهم نيته العازمَة على الجهاد ويسترحلهم، بهذه القصيدة أيضاً وهي من قول ابن عياش[1]: (طويل).

اقِيمُوا إلى العَلْياء عُوجَ[2] الرَّواحِلِ
وقُودُوا إلى الهَيْجَاءِ جُرْدَ الصَّواهِلِ
وقوموا لنَصْرِ الدِّين قومةَ ثائِرٍ   وشُدُّوا على الأعْداءِ شدَّةَ صائِلِ
[277] وأَسْرُوا بَني قَيْسٍ الى نَيْلِ غايَةٍ
مِنَ المَجْدِ تُجنى عِنْدَ بَرْدِ الأصائِل
فما العِزُّ إلا ظهرُ اجْرَدَ سابِحٍ   تموت[3] الصبا في شدِّه المُتَواصِل
وابيضُ مأثورٌ كأنَّ فِرَنْدَهُ   عَلى الماءِ مَحْبوكٌ[4] ولَيْسَ بسائِلِ
بَني العَمِّ من عَليَا هِلال بن عامرٍ   وما جَمَعَتْ من باسِلٍ وابنِ باسِل

---

(1) نسب المراكشي في المعجب هذه القصيدة للخليفة عبد المؤمن نفسه، وتبعه في هذه النسبة بعض الأدباء والمؤرخين ممن كتبوا عن الحياة الأدبية على عهد الموحدين، وهي كما ترى - حسب قول ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر - لابن عياش، ولستُ بهذا أنفي شاعريةِ عبد المؤمن فقد تضافرت النقول على ذلك، ولكنا نشك في نسبة المراكشي هذه المقطوعة له.
أنظر المن بالإمامة صفحة 5.
المراكشي، المعجب، ص 225 — 226 - الحلل الموشية 131 - عبد الله كنون، النبوغ المغربي المطبعة المهدية، تطوان - جزء ثان ص 266 - محمد المنوني - الآداب على عهد الموحدين نشر معهد مولاي الحسن - تطوان ص 159.
Pronvençal: Notes D'histoire Almohade Hesp. X 1930 p. 66.

(2) كذا في المخطوط جمع عوجاء، وفي المعجب (هوج) جمع هوجاء.

(3) في المعجب تفوت الصبا، وعلى كل فالمراد أن السابح يفوق ويطغى. على ريح الصبا بعدْوه المتواصل.

(4) في المعجب: منسوج.

تعَالَوا فقَدْ شُدَّتْ إلى الغَزْوِ نيةٌ   عَواقِبُها مَقْصُورةٌ[1] بالأوائِل
هِيَ الغزْوةُ الغَرَّاءُ والموعِدُ الَّذي   تنجز في أُفْق[2] المَدَى المتطاول
بِها تُفْتَح الدُّنْيا بِها تُبْلغ المُنَى   بِها ينصفُ التَّحْقِيقُ من كلِّ باطِل
عزْمنا وأمرُ اللهِ لا بدَّ واقِعٌ   عَلى وَقْعَةٍ تُودِي بدين الفَياصِل!
بجَيْش يضَلُّ الطَّيْرُ في حُجُراتِهِ   وتحجب عنه الشمسَ سُحْبُ القَساطِل
وتَحْسِر فيه الطَّرفَ من كلِّ جانِب   بُحُورٌ دلاصٌ عادماتُ السَّواحِل
ويُطْلِع ليلُ النَّقع فيه كواكباً   من البِيضِ أو مِنْ مُرهفات المناصِل
ويُضْحي به بَحْرُ الدِّماء مفجَّراً   باسْمَر عسَّالٍ وابْيَض ناصِل
بأيْدي رِجالٍ قَدْ وَفَوْا بِعُهودِهِم   وخاضوا لنصر الدين أمواجَ هايل
فما وَهَنُوا يَوْماً ولا فلَّ عزْمُهُمْ   ولا حَيَّرتْهم مُعضلاتُ النَّوازِلِ
فطِيروا إلَيها يا هِلالَ بنْ عامِرٍ   ثِقالاً خِفافاً بَيْن حافٍ وناعِل
ولا تخدَعُوا عن حَظِّكم من إجابَةٍ   تُبوِّئُكُمْ في المَجْدِ أسْنَى المَنازِل
وتُقْطِعكم صدْرَ النَّدى[3] اذا نَبَتْ
بمَن لَمْ يَكُن منكم صِدورَ المَحافِل
اهبْنا بكمُ للخَيْر واللهِ حسْبُنا   وحسْبُكُم واللهِ اعْدَلُ عادِل
فما همُّنا إلَّا صَلاحُ جَميعكُم   وتسريحكم في ظِلّ اخْضَر هاطِلِ

[278] وتَسْويغُكُم نُعْمَى يَرفُّ نَضِيرُها[4]
عَلَيْكُم بخيرٍ عاجِل غير آجِل
فلا تَتَوانَوْا فالبِدارُ غَنِيمَةٌ   وللمدلج السَّاري صفاءُ المَناهل!

---

(1) كذا في الأصل وفي المعجب: منصورة، والظاهر أن الصواب مقرونة.

(2) في المعجب (تنجز من بعد المدى).

(3) الندى: مجلس القوم، ويعني أن هذه الاستجابة ستمكن الضعاف منكم من احتلال صور المجالس.

(4) في المعجب: ترف ظلالها. أنظر ص 226.

الاجابة من العرب الى الامر العزيز بالوصول

ولما وصلت الى العرب بنظر افريقية والزاب[1] والقيروان هاتان القصيدتان واوضحوا قراتهما، وتبيَّنت لهم معانيهما وفصاحتهما، وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار، ودفاع المنافقين الفجار، وطهَّر الله قلوبهم ونوَّر أفئدتهم وعيونهم إلى فهم ما دُعوا إليه مِّن الدخول في مسالك الأبرار الأخيار، أجابوا إلى الطاعة، على حكم الاستطاعة، بأكمل البدار، وكان من اليُسْر في هذا الاستدعاء، والبشر الموافق لهذا النداء، أن شيخ بني رياح وزعيمهم[2] جبارة بن أبي العينيْن كان قد فرَّ بنفسه قديماً عن هذا الأمر العزيز إلى بلاد مصر والحجاز واليمن وجال في تلك الأسقاع، وطاف في تلك البلاد طمعاً في مُعين ـ بزعمه ـ على الامتناع، وسعد هذا الأمر العزيز يرده عن ردَّته وأمثاله، ويقتل أقياله، ويقبل به منكوصاً على عقبه، راغباً إقباله، ولما لم يجد عن هذا الأمر العزيز بداً، ولم يرَ في تلك الأسقاع من يرفد رفداً، ولا من عنده عضداً، أبْعد مذهب ردَّتِه [279] وقرَّب اقتياد راحلته إلى بلدته، ميمّماً هذا المغرب الأقصى الذي ظهر فيه نور العدل، وزكى فيه أهل الهدى والفضل، بهدي الإمام المهدي، ونور خليفته أمير المؤمنين الأعدل، سيدنا الإمام أبي يعقوب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنهم. وحين وصل بلاد أفريقية المذكورة، وجد أكثر بني عمه قد بادروا إلى طاعته هذا الأمر العظيم، والحركة الى الجهاد الكريم، أسرع بنفسه وإخوته قبل إسراعهم، وجَمَع قبيلَه الأخص قبل اجتماعهم، ولحق بهم أولاً الى السيد الأسنى أبي زكريا يحيى بن

---

(1) الزاب على طرف الصحراء الجزائرية وعاصمتها طبنة، وهو ثلاث مناطق: الشرقي والصحراوي والقبلي وفيها المياه والأنهار والعيون: الإدريسي صفحة 93 الاستبصار صفحة 171.
YVR: Ency. TIVp. 1246 — 47.

(2) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر محاولات زعيم بني رياح جبارة هذا في المشرق من أجل الحصول على عون الحكام هُناك، ولهذا لا نجد ذكراً له في الكتب التي عنيت ـ بصفة جدية ـ بهذه الحقبة من تاريخ المشرق.
ابن واصل: مفرج الكروب، أول نشر الدكتور جمال الدين الشيال 1953 ص 197 — 136.

الخليفة بمدينة بجاية مستقلياً عليه، مستعفياً لديه، فلقي عنده من الصّفح والعفو ما يوجد عند سيِّد كريم، على الصراط المستقيم. وأقام عنده إلى أن وصل قدَّاح[1] وأبوه وإخوته وأشياخ العرب بجمعهم، وتحركَ السيد الأسنى أبو زكرياء المذكور إلى الحضرة العلية مراكش، فأقبلوا تحت لوائه، متبركين بصحبته ودعائه، ووصل أيضاً العمال والأمناء بأفريقية: أبو محمد عبد الواحد اقوسقور[2] صاحب تونس وأنظارها، وأبو زكرياء يحيى أقصور الهنتاتيان[3] ومعهم[4]. . . النعمان بن . . . . . .[5] بهَؤلاء العرب والأموال والخيل العراب، العتاق الأحساب، المدرَّبة عند الأعراب، ولما وصلوا مدينة تلمسان صحبهم السيد أبو عمران موسى بن الخليفة[6] أيضاً بمن عنده من العساكر والعمال بالأموال مع عاملهم أبي الربيع بن عبد النور[7] وبالخيل المسوَّمة [280] الكثيرة الأعداد العوالي المعوّدة المقدمة القوادم، الرجَح الأكفال، واجتمع الجميع، وصحبهم السامع المطيع، فلما قاربوا الحضرة العلية أُمِرُوا بخطاب بر أن يأخذوا أنفسهم ومن معهم بالرفق في المشي واللحاق، والتؤدة في الوصول والارتفاق، والمحافظة على الخيل العتاق، فامتثلوا الأمر الواصل، وعملوا الرِّفق المتواصل. وكان عدد الخَيْل الواصلة من افريقية أربعة آلاف فرس، ومائة وخمسين حملاً من المال الصامت، وكان الذي وصل من تلمسان ونظرها ألف فرس، وخمسين حملاً من المال الصامت.

---

(1) لم نجد صدى لقداح هذا بالرغم من أن السياق يفيد أنه كان ذا منزلة مرموقة.

(2) يحذف ابن عذاري اسم اقوسقور. أنظر ص 80 من البيان المغرب.

(3) ذكر البيذق قليلاً من أهل هنتاتة ولكنه اعتذر عن ذكر من لم يقف على اسمائهم، ويظهر أن عبد الواحد اقوسقور ويحيى أقصور كانا في جملة من ناصر حركة الموحدين من أول الأمر.

(4) هنا بياض صغير. . . لكن ابن عذاري لم يأبه ـ أنظر صفحة 80 من مخطوط ابن عذاري.

(5) هنا بياض لكنه أوسع من الأول، ويظهر أن المؤلف كان يريد أن يتثبت من والد النعمان لكنه لم يتمكن من ذلك أما ابن عذاري فلم يكلف نفسه التعلق بذكر الوالد. . .

(6) لم يذكره ابن صاحب الصلاة ضمن أولاد الخليفة عندما كان يعددهم. راجع التعليق رقم 1. ص 156.

(7) اختصر ابن عذاري هنا فعدل عن ذكر أبي الربيع سليمان بن عبد النور. ابن عذاري ص 80.

لحاق الخبر السار بوفود السيدين والعرب

وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه قد استقَلَّ قبل وُصُول الخبر، فتمكَّن سروره واستقلالُه، وتضمن بفضل الله ولطفِه حبوره واستبلاله، وعزم أن يكون خروجه أولاً الى المسجد الجامع، وأن يؤدي فيه الفريضة يومَ الجمعة على أداء الراكع السَّاجِد الخاشع.

الخروج الى المسجد الجامع

[281] وخَرَج إلى المسجد بعد اتصال مرضه المشهور يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول عام ستة وستين وخمس مائة لحضور الصلاة الفريضة فيه. وخطب الفقيه ابو محمد المالقي الخطبة المعلومة، وأسرع فيها وفي الصلاة بالتخفيف على أمير المؤمنين، ففهم الناس من ذلك خروجه الى الصلاة، فاستبشروا وشكروا الله تعالى على شفايته(1) وتيقَّنوا اليُمْن وانتظروا، ودعوا إلى الله تعالى في دوام أيامه، ونصر أعلامه، وظهرت البشرى في تلك الساعة عند افتتاحه الصلاة وسلامه، وبعد فراغ الفريضة صاح الناس بالجامع بظلاماتهم(2) وأبْدوا الشكوى بطول مدتهم واقامتهم، فانصرف بعد الدعاء وقد أمر بكتب مسائلهم وفُهم من عدله قضاءُ وسائلهم.

فلما كان يوم السبت الثاني من خروجه، وهو السابع عشر من الشهر المذكور قدم النظر في إقامة الحدود على أهل التعدي، وأمر القاضي أبا يوسف حجاج بن يوسف(3) بتظلع أحوال المسجونين، وإنصاف المظلومين، ولما كان يوم الاثنين التاسع عشر من الشهر المذكور أمر بفتح الباب المغلق المعروف بباب الأسطوان(4) الذي كان من عادته الجلوس في داخله، واجتمع

(1) مرة أخرى يكتب الناسخ شفايته بدل شفائه. أنظر التعليق رقم 5 صفحة 324.

(2) عادة معروفة وما تزال إلى الآن.

(3) كان في أبرز قضاة الخليفة، ابن أبي زرع، جزء ثان ص 175.

(4) يستأثر ابن صاحب الصلاة بذكر هذا الباب. المنوني: ص 250.

الموحدون أعزهم الله لمشاهدة فتحه، ففتح وبُسط موضع الجلوس فيه. وقد كان أعد كسوة للسّقايف المسماة بمنتيقمي(1). [282]من الحصور، فبسطت فيها أحمال الحصى والرمل، وفرشت في وسط صحن الدار التي يمشي فيها الناس، وطبع الموضع على أتقن ما كان، وعلى أرتب هيبة تقدمت. وجلس رضي الله عنه ودخل عليه أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر والوزير أبو العلا ادريس بن أبي اسحق وأخوه أبو محمد عبد الله قائمان بترتيب الدخول بالناس، وسلَّموا عليه ودعوا له وهنَّوه على عافيته وشفايته. ثم إن الوزير استدعى أشياخ الناس من الأجناد وأهل الاعتقاد والخاصة من أهل الوفود والقُصَّاد، وأدخلهم للسلام، دون كلام. وقام الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر وخطب خطبةً فصيحةً باللسان الغربي للموحدين يشكر الله تعالى على العافية والشفاية، وخطب القاضي أبو يوسف خطبة بليغة في معنى الشكر لله تعالى والدعاء بالنصر والتأييد لأمير المؤمنين، وتلاه الفقيه أبو محمد المالقي بمثل ذلك على أوضح البيان والتبين، من وصف خيرات الله تعالى ونعمه بكمال الدين، وتخفَّفت الحال في الجلوس، وكان هذا اليوم من أسْعَد الأيام في التأنِيس.

الصدقة والحنان، والانعام والاحسان.

[283] وعندما كان الخير والبشر بما ذكرته تصدّق أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه على الضعفاء، والوافدين الغرباء، وجاد عليهم بجوده كالسحابة الوطفاء، وحاز بصدقته الأجر من الله وعند الناس بجميل الثناء، فمن رجل ترى بيده ثلاثين ديناراً صدقة! وآخر كذلك، إلى جميع من كتب اسمه من الصنف المسكين؛ الملحوظ بعين الدين، لم يعتقد ذلك في زمانه، بل صانه فضل الله تعالى بحسن صيانه، وسيق إليه الإنعام قبل رهانه، فهو مُبتهلٌ بالدعاء إلى الله تعالى في دوام الأمر العزيز بالنصر والعافية الشاملة على

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 200. 246 — Huici.

أوفى المزيد بالتَّمهيد، فعم الفضل والانعام، ورحل عن الضعفاء الفقر والإعْدام، وتخيّلوا الصدقة كأنها أحلام. وكان بحضرة مراكش حرسها الله في جملة الوافدين القاصدين الشاعر المسن أبو الحكم بن رضى البلنسي[1] ممن صحب أشياخ السيرات، ثم أخرجته الفتن والمحن من بلده وتردد في البلاد، فوصَل الحضرة العلية مسترفداً فضلها وعدلها، وأقام فيها مدة سنتين على حالة ضيقة، ونية لوطنه وأهله شيقة، ويتعرض للوزير أبي العلى بن جامع، وللفقيه أبي محمد المالقي في كلِّ يوم يَصِف لهما قصده، ويرغب من الله تعالى توسُّطهما رفده، فيعِدانه ويسليانه، فلما سنَّى الله الخير والبشر باستقلال الخليفة وجلوسه، وابتسام [284] وجه الزمان بعد عبوسه، رفعا مسئلته، ووصفا حالته وهيئته، وذكرا أنه من أهل الشعر وأنه صنع قصيدة يرغب وصولها إلى الموضع العالي، ليتشرف بقبولها على ممر الليالي، فأذن له بذلك فأدخلاه للسلام والانشاد، وسعيا له في الاسترفاد، فدخل وقبَّل اليد المباركة، وأنشد قصيدةً ذكر فيها ما تقدم من الفتوح، ولوح بحاجته وشوقه إلى بلده أكثر التلويح، وهي طويلة ليست في الغرض مقولة[2]: (بسيط).

مُسامِري وخَبيرُ القَوم مَسؤولُ   حدِّث فقولُك مَسْموعٌ ومقبُولُ
حدِّثْ فانكَ قدْ اسْمعتَنا حَسنَا   وعطَّرَ الافقَ ذاك القالُ والقِيلُ
ألستَ عن سِيَرِ المَهْديِّ تُخْبِرُنا   ومَن عنِ اللهِ نَبَّى عَنْهُ جِبْريلُ!
وعَنْ حَوارِيِّهِ الأسْنَى وصفوته   وسيفه حِينَ سيف الدِّين مَفْلُول
وعن بَنِيه مصابيحِ الهُدَى ظَهَرَتْ   في كُلِّ داجيةٍ مِنْهُم قَناديلُ
وسُقْ حَديثَ أبي يَعْقُوبَ مِنْ طُرقٍ   فَفِي سياقتِه المأمُول والسُّولُ
اعادَ وَالقَوْمُ قَدْ مَلُّوا السُّرى فهُمُ   مِنَ الدُّرُوبِ على أكْوارِهِم مِيل

(1) هو المنذر بن رضى من أهل سرقسطة وسكن بلنسية يكنى أبا الحكم، وكان أديباً شاعراً. ابن الأبار، التكملة الأول رقم 1107 ص 389.
(2) نلاحظ ابن صاحب الصلاة هنا ينتقد قصيدة أبي الحكم بأنها خارجة عن الموضوع وطويلة، وأنت ستشعر بشيء أكثر من هذا وأنت تقرأ القصيدة ستشعر أن نسجها مهلهل ولعل للتحريف أيضاً والتصحيف دخلاً في هذا.

فخلتُهم مِن عِقَالٍ أنْشِطوا[1] طَرَباً   والنَّفْسُ تَبْعَثُها هَذِي التَّعاليلُ
وخلتُ أنَّ الحَيا لما أعادَهُما   فالماءُ مطَّرِدٌ والزَّهْرُ مَطْلُولُ
مَلكٌ تودُّ مُلوكُ الأرْضِ لو غَنِيَتْ   وحظُّها مِنْهُ في يُمْناهُ تَقْبِيلُ
قادَ الجُيُوشَ يغصُّ المَشْرِقَانِ بِها   والمَغرِبانِ كما غصَّتْ خَلاليلُ[2]
[285] مِنْ كُلِّ مُعْتَقِلٍ سَمْراءَ لَهْذَمُها
أووجهُهُ في ظَلامِ الخَطْبِ قِنْديلُ[3]!
أو مُرْتَدٍ لِحُسامٍ مثلِه ذَرِبٍ   وغايةُ السَّيْفِ مسْنُونٌ ومَصْقولُ
أو مُحْتَبٍ فوق مِثْلِ النِّهْيِ سابغةٍ
وعضدُه تَحْتَ ثِنْيِ الدّرعِ مَحْلُول[4]
أو راكبٍ فوْقَ مَتْنِ الماءِ مُرْتَفِقٍ
كأنَّهُ قَيْصَرٌ والقِلْعُ إكْليلُ[5]
فالبرُّ كالبَحْرِ إذْ تُسْتَنُّ ادرُعُها
والبَحْرُ كالبَرِّ إذ يَصْطَفُّ اسْطول[6]
ولَمْ يُفِدْها[7] لمَن ناوَى مظاهرة   سِيان بالنَّصْرِ تكْثِيرٌ وتَقْلِيلُ
لكنَّها هِمَّةٌ أوْفَتْ على رَجُلٍ   ومقْتَضى الملْكِ تَرْهِيبٌ وتهويل
وقامَ بالأمْرِ مِنْهُ حاذِقٌ طَبِنٌ   مستجْمِعٌ حاسِرُ الكمِّين مَجْدُول

(1) أنشط العقال حله وفك أنشوطته.
(2) يقصد به في الظاهر جمع خَل بفتح الخاء، أي أنه غص المشرقين والمغربين كما يغص المرء بشرب الخل، ولا يخفى ما فيه من حموضة!
(3) يعني أن الملك قاد الجيوش المتألفة من الأبطال الذين يحملون القسي السمراء تخالهم وتخالها في ظلام الخطب قناديل مسرجة!!
(4) النِّهي: الغدير، أي... والمتألفة من الذين يحتبون فوق دروع سابغة تحاكي في صفائها صفحة النهر بينما سواعدهم تعمل عملها من تحت ثنايا الدروع...
(5) ومن الذين يركبون القطائع البحرية متكئين على مرافقهم كأنما هم قياصرة توّجتهم قلاع المراكب.
(6) استن الفرس: عدا إقبالاً وإدباراً أي إنه لا فرق لدى الجيش بين بر وبحر، فإن البر يمسي بحراً إذا تحركت الجياد، والبحر يغدو براً إذا أخذت الأساطيل ترتيبها...
(7) يعني - فيما يظهر - أن الجيوش لا تؤثر فيها مظاهرة المناوئين، وسيان لديها أكانت جحافلهم قليلة أو كثيرة...

تَثْبُتُ الجَنانِ ربيطُ الجَأشِ ذُو رِعَةٍ
إذا تعارضَ تأويلٌ وتأويلُ

عِلْماً بأنَّ الرَّعايا فِي كفالَتِهِ وأنَّه عنْهُمُ لا بُدَّ مَسْؤول

مِنْ قَيْسِ عَيْلان حيثُ المُلْك متَّسِقٌ
وحَيْثُ كلُّ فَعَالِ الخَيْرِ مَفْعُول

وحيْثُ لِلأمْرِ قُسْطاطٌ دَعَائِمُه قَنَا لِدَانٌ وأسْيَافٌ مَقَاصِيلُ

قومٌ إذا ما رَضُوا فالرَّوْضُ حَوْزَتُهُم
وانْ هُمُ غَضِبُوا فالحَوْزَةُ الغِيلُ

يسْتأثِرُونَ مِنَ البُؤسَى بشِدَّتِهَا فَيَبْخَلُونَ وما لِلْقَوْمِ تَبْخِيلُ

ويُؤثِرُون مِنَ النُّعْمَى بجلَّتِها فيَسْتَوي فاضِلٌ فِيهَا ومَفْضُولُ

لا يَطْعَمُون سِوَى ما انْضَجَتْ لَهُمُ
نَارُ الوَغَى وصَفَايَا الزَّادِ مَبْذُول[1]

القائِمِين بأمْرِ اللهِ لا رُهُنٌ ولا كُسَالَى ولا عُشْرٌ مَهَابِيلُ

والصَّابرين عَلَى البَأسَاءِ ما علِمُوا والنَّاصِرين ودِينُ اللهِ مخْذُولُ

راهُ أهْلاً أميرُ المُؤمِنين لَهَا والرأيُ مِنْهُ عَلى التَّوْفِيقِ مَجْبُولُ

[286] مِنْ بَعْدِ شُورَى وتبييتٍ لِرَأيِهِمُ
وصيْقَلُ الرَّأي تَخْمِيرٌ وتَنْخِيل

ومن تَكُونُ بنُورِ اللهِ نَظْرَتُهُ
رَأى الصَّوَابَ وسِتْرُ الغَيْبِ مَسْدُول

ما اخْتَارَ إلَّا مَنِ اخْتَارَ الإلاهُ لَهَا
وليسَ عَمَّا أرَادَ اللهُ تَحْوِيلُ

كَفَيْتَه فَوْقَ ما اسْتَكْفَاكَ مُضْطَلِعاً
ومُنْتَهَى السَّهْمِ قَبْلَ النَّزْعِ مَجْهُول[2]

---

(1) الصفايا: ما اختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة يعني أن الصفايا مبذولة للناس.

(2) لا يخفى ما في هذا الشطر من بركات!.

وحمَّلتْك اللَّيالي فَوْقَ ما احتَملتْ فنُؤتَ والعِبْءُ تَخْفِيفٌ وتَثْقيلُ

فانْهَضْ إلى حَيْثُ لا الأوْهَامُ تُدْرِكُهُ
فمركَبُ السَّعْدِ بالإدْراك مَرْجول[1]

وافاكُم[2] من كل أوبٍ وفدُه عنَقا جِيلٌ يُبَادِرُه من حبِّهِ جِيلُ

حتَّى تلاقَتْ عَلى أبْوابِ سُدَّتِكُم شَتَّى الوُفُودِ فتعظيمٌ وتَبْجِيل

بأنْفُسٍ خلُصَتْ منْها ضَوامِرُها فكُلُّ صدْرٍ من الشَّحْنَاءِ مَغْسُول

مُسْتَمْسِكِين عَلى هَدْيٍ بطاعتِكُم
وحَبْلُ طَاعتِكُم باللهِ مَوْصُول

مِنْ كلِّ مُوفٍ على قَوْداءَ ضَامِرَةٍ من الرَّجاء لَهَا نَصٌّ وتَبْغِيلُ[3]

إلى إمام الهُدَى أسْرَتْ بأرجُلِنَا ريحُ الشَّمال وإلا فالشَّماليل[4]

ولا حُدَاءَ سِوَى ذكراكُم .ومُنى كالأخْذِ بالكفِّ للرَّاجِي وتأمِيلُ

وغيْر شَوْقٍ إلى لقياكم سَدِكٍ بِبَعْضِه هو قلبُ الصبِّ مَتْبول[5]

حتَّى نَفُوزَ بذكراكُمْ ونجْعَلَهَا لقاءَةً هِيَ تشريفٌ وتَفْضِيلُ

وَيَالغَوْغاءِ مُغْتَرِّين في جَبَلٍ بناعقٍ شأنُه في النَّاس تَضْلِيل

يَرَى الغنيمةَ في يومٍ يَكُونُ لَهُ عَلَيْكُمُ فيه أهْلُ الأمْرِ تَطْفِيل

والمُلك ليسَ بشَيْءٍ يستقِلُّ بِهِ إلا ذَوُوه الصَّنادِيدُ البَهالِيلُ

[287] ولَوْ رَمَى بِيَدِ الإذْعانِ من كثَبٍ
قَبِلتُمُوه، فانَّ الثوبَ مقْبُول

أوْلَى لَهُم ثُمَّ أوْلَى أن تَحُلَّ بِهِمْ
- لَوْلَا تَشَبُّثُكُمْ - صمَّاءُ دُؤْلُولُ[6]

---

(1) مرجول: مقصود بالأرجل لعله يقصد أن مركب الإمام لا يبلغ... !

(2) كذا في المخطوط ولو حذفت من لاستقام الوزن.

(3) كثيراً ما تذكر بعض القوافي بقصيدة كعب بن زهير:
بانت سعاد فقلبي اليوم متبول...

(4) كذا في المخطوط ويظهر لي أن الأصل: كان هكذا: «وألْف شماليل» يعني جمال مؤنسة سريعة.

(5) سدك بالأمر أولع به ولم يفارقه ثم لا يخفى ما في قوله: ببعضه هو الخ من ركاكة واضحة.

(6) الصماء: الداهية والدؤلول: بالدال المهملة: البالغة..

لم تتركُوهم وقَدْ أعيَتْ مناجِذُهُمْ   وإنَّمـا هـو إعْـذَارٌ وتَـأجِيـلُ
وكـانَ فيمـا مَضَى ردعٌ ومـزدجَـرٌ   لـو كـانَ لِلقَـوْمِ تفكيـرٌ وتَحْصِيـل
أَمَـا كفتْـهُم بسمَّـارٍ[1] وتـادِلـةٍ[2]   ومـا وَراءهُـمـا تِـلْكَ الأفـاعِيـل
أمـا أتَـتْهُم أحـاديـثٌ بـأنـدَلُسٍ   وفي الأحـاديث تَجْمِيل وتفصيـلُ!
إن الأولى نـاصَبُوا جَهْـلاً بقَـدْرِهِمِ   وقَـدْرِ ذَا الأمْر قَـدْ غـالتهم غُـول
حـالَتْ عَلى ابن عُبَيـدٍ[3] بَعْـدَ اقـرعِـه[4]   بِـهَـا، فـأردتْـهـمـا رَجْـراجـةٌ جُـولُ[5]
ولَمْ تَـدَع مردنيشـاً عنـدَ جَـوْلَتِهـا   يـومَ العُـرُوبـةِ إلَّا وهْـو مـذْهـول
سائِل بغـرنـاطـةٍ عنْهُم ومرسيـةٍ   فعنْهُمُ خَبَـرٌ في النَّـاسِ مَنْقُـول
يـجـبْـك هـامٌ وأشـلاءٌ مـمـزَّقـةٌ   في كـلِّ قـاعٍ ومفـؤودٌ ومَشكُـولُ
كـأن أنصارَهـم أنـصـارُ أبـرهـةٍ   ومِنْ رِجـالاتِكُم طَيْـرٌ أبـابِيـلُ[6]
لا تـشـغَلنَّ بـهِـم بَـالاً فـإنَّـهُـمُ   لجـائِع المَوْتِ مَشْرُوبٌ ومأكُـولُ

---

(1) لم نعثر على موقع هذا المكان من خلال كتب الأقدمين ويظهر أنه هو (حصن اسمار) الذي حاول أن إليه ابن منخفاد في جبال غمارة، وهو الذي يشير ابن حربون في شعره:

وَلَقَـلَّ ما أعطـى مقادتـه الذي   أمْسَـى سمير الفرقـدين بسمَّرا

انظر تعليقنا رقم 3 ص 250 ورقم 1 ص 252.

(2) تادلة: مدينة قديمة كثيرة الخيرات والأرزاق، وقد بنى فيها الملثمون حصناً عظيماً منيفاً ثم كان الموحدون الذين اهتموا بالمدينة. ويظهر أن الشاعر يشير إلى غزوة تادلة التي تمت سنة 530 من طرف عبد المؤمن، وقد نقل ابن القطان عن ابن صاحب الصلاة أنها أول غزوة غزاها الخليفة بعد الإعلان بالبيعة.
الاستبصار ص 200 ـ نظم الجمان (مخطوط) معجم البلدان، جزء ثان ص 5.

(3) ابن عبيد الله صهر ابن مردنيش راجع التعليق رقم 4 ص 134.

(4) هو حفيد البرهانس ـ انظر التعليق رقم 2 ص 127.

(5) الرجراجة الجماعة الكثيرة في الحرب، والجول الكثيف من الخيل...

(6) تلميح لقصة أبرهة ملك الحبشة الذي بنى بيتاً باليمن، وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة فذهب أعرابي وأحدث في البيت فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة فاحتفل في جموعه وركب فيله (محمود) وقصد مكة فلما وصل قريباً منها فر أهلها إلى الجبال وأسلموا له الكعبة وأخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فكلمه فيها فقال له كيف تكلمني في الابل ولا تكلمني في الكعبة وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك؟ فقال له أنا رب الابل وأن للبيت رباً يحميه! فبرك الفيل ولم يتوجه إلى مكة... فبينماهم =

وَسوْفَ يأتِيكَ عَنْ قُربٍ زعيمُهُم[1]   قَسْراً على كلّ حَالٍ وهْوَ مذْهُول
وليهنِكم أن هَـذا العِيـدَ عـادَكُمُ   وحُسْنُـه بكمُ للنَّـاسِ مَـوْصُـولُ
بـرزتُمُ للمصلَّى نـاسكيـن لَـهُ   شعـارُكُم فيـه تَكْبِيـرٌ وتَـهْلِيـلُ
فكـلُّ قـولكم أو كـل فعـلِكُم   فَفِي كتـابٍ مع المَقْبُـولِ مَقْبُـول
مَـولايَ كَـمْ لِي أُمَـنِّـي الـنَّـفسَ مِـنْ سَـنَـةٍ   بِـذَا الـمـقـامِ وجـدّي فـيـه مَـمْـطُولُ!
هَـجـرتُ بـالـشَّـوْقِ دَارِي فـي مـحـبَّـتِـكُـمْ   لا الـعَـيْشُ ضـنْـكٌ ولا الـمـحْـبُـوبُ مَـمْـلُولُ
[288] وجيرةٍ لم يَزالوا مُهْطِعين إلى   داعِيكُم وحُسـامُ الخَـوْفِ مَسْلول
يسْـتَـبْـطِئـون (عَـسَـى) أو يَـرْقُـبـون (مَـتَـى)   وفـي (عَـسَـى) و(مَـتَـى) انسٌ وتَـعْـلِـيـلُ!
والآنَ واللهُ قَـدْ سَـنَّى لِـقـاءكُـمُ   فقَـدْ تَـأتَّى بحَمْـدِ اللهِ مـأمُـولُ
وقـد وهـبْـتُ لـدَهْـري مَـا جَـنَـا وجَـنَـا[2]   الـجُـرْحُ مـنـدَمِـلٌ والـذَّنْـبُ مَـحْـمُـول
والله يُـدْنـي - وهَذَا الأمـرُ عـن كَـثَـبٍ -   مـن داره الـحَـزْنُ مِـمَّـن دَاره صُـولُ[3]

وحين أكمل إنشاءها حسَّن أشياخ المجلس العالي فصولها ومعانيها، وصوبوا أغراضها ومبانيها، فأمر - رضي الله عنه - بأسهامٍ بمدينة مالقة وزادٍ،

= كذلك أرسل الله عليهم طيوراً أبابيل متجمعة تحمل الحجر وترمي به أنصار أبرهة. انظر كتب التفسير عند سورة الفيل.

(1) يعني به اذفونش الصغير فهو أبرز من كان - في الظروف الحالية - خصماً للموحدين.

(2) كذا في أصل المخطوط.

(3) اقتباس من قول حندج المري الحماسي في باب السير والنعاس من ديوان الحماسة:
في ليل صول تناهى العرض والطول
إلى أن يقول:

مـا اقـدر الله أن يُـدنـي على شـحط   من داره «الحـزن» مِمَّن داره «صـول»

وانصرف مملوءاً الحقائب، بيده ظهير كـريم بالتنويه بـه في البلاد، وبمـواساة مستمرة له في ديوان العمل بالغير العتاد [1].

(الانعام بظهير الولاء على ابن صاحب الصلاة)

وأنعم في إثر ذلك بالدخول عليه والسلام، والمثول بين يديه وبالكلام، على أبي العباس المجريطي القرطبي [2] من طلبة الحضر، وعلى أبي الأصبغ عبـد العزيـز بن عبـد العـزيـز الإشبيلي [3] من الـطلبـة أيضـاً. . وعليّ معهم [4] فاستدعانا الوزير ابو العلا إدريس بن أبي اسحاق بن جامع والفقيه ابـو محمد عبد الله المالقي، وأدخلانا على أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنـه وهو متّدع عند استقلاله من ضعفه، متكىء على مخاد كثيرة وثيرة، قد فـرشت تحتـه وحواليـه في مجلسه العـالي، تُعِينه على القعـود، وتُـدَمِّثُ لـه مـوضعـه المطلع له بالسعود، فسلمنا عليه بالخلافة، [289] وأنافت بنا فضائله وصدقته أكرم إنافة، وسألنا ـ بعدله ـ عن أحوالنا، وفهمنا منـه الحنان واستقبـال آمالنـا، فدعونا له بالنّصر والظفر، والتّمكين بطول العمر، وقبّلنا المباركة يده، واستنلْنا مشـربه العـذب ومورده، وارتـوينا غَمْره الدار وثمـده [5]، وخرجنـا من مجلسه العـالي وتشريفـه قد حف بنا من كل جـانب، واقتفينا على أعلى المـراتب، وبلغنا ما أملناه من الرغـائب، وأمر رضي الله عنـه لكل واحـد منا بمـا أمله من

(1) يظهر أن الأصل «بالغير المعتاد».
(2) لم نقف على ترجمة لأبي العباس هذا فيما بأيدينا من معاجم الأدباء الموحدين هذا إلى أنه لم يرد ذكره عند ابن صاحب الصلاة سوى في هذه المناسبة.
(3) ترجم ابن الابار في تكملته لرجال يحملون اسم عبد العزيز بن عبد العزيز. . . ويحملون لقب أبي الأصبغ لكني لم استطع الجزم بايهم كان صحبة ابن صاحب الصلاة في دخوله على العاهل الموحدي. انظر الترجمة رقم 1770.
(4) نلاحظ أن ابن صاحب الصلاة يمشي في مراكش فلعله ورد ضمن وفود المهنئين بالشفاء. . .
(5) الماء المحتفظ به، واستعاره لما ناله في رحال الخليفة من عطاء.

إنعـام، وخصني منهم [1] بظهيـر [2] كريم بـأسهام، ومـواساة معهـا أعانتني على الـزمان الـذَّميم وأغنتني عن اللئـام، ووسمتْني بميسم الأوليـاء لـلأمـر العـزيـز المنصـور الأعلام، جـازاه الله تعـالى أحسن مـا جُوزي بـه الأيمـة المهتـدون والخلفاء الراشدون، وخلد الأمر العـزيز في عقبـه، كما اثبت النسب الشـريف في نسبه ومنصبه، وأوضح الدين الحنيفيّ بمذهب، فحُقَّ على العبد تَـدْوين [3] سعـد أيامـه، وتعيين الزمـان بنصر أعـلامه وإمـامته، فقـد قـال رسـول الله ﷺ (جبلت القلوب على حب من أحسن اليهـا، وبغض من أسـاء إليهـا) [4]، خلَّد الله ملكه وجعل الأرضَ ـ بما وعده ـ ملكه فانه أَلبس الدنيا جمالاً وجدد لأهلها بخلافته آمالاً.

الامر بالنظر للتبريز للقاء السيدين [290] والعرب الوافدين من افريقية

ونفـذ إليهم الأمـر العـزيـز بمـوضـع قـربهم واستيـذانهم أن يصلوا إلى الحضرة مراكش في ضحوة يوم السبت الثـاني من شهر ربيـع الآخر سنـة ست وستين وخمس مائة المؤرخة. وكان الأمر قد تقدم لجميع الموحدين والعسكـر الباقين بالحضرة المذكورة أن يستعدوا وينظروا لأنفسهم في مراكبهم وهيأتهم، فقسمت عليهم الـدروع والبيضـات والـرمـاح والـدرق والأسلحـة والكســوات والعلامات والرايات. فلما كان في صبيحـة يوم السبت المـذكور المؤرخ بكَّـر جميع الناس من الحفـاظ والطلبـة من الموحـدين وجميع القبـائل من العسكـر

(1) يلوح ان ابن صاحب الصلاة كان يمتاز عن طلبة الحضر، وهي التفاتة من الخليفة تنم عما كان يتوفر عليه المؤلف من مزايا ومؤهلات.
(2) ظلت كلمة «الظهير» مستعملة إلى الآن في العرف المغربي بمعنى المرسوم الملكي.
(3) يتأكد من هذا الكلام أن الكتاب خصص أولاً وبالذات لتاريخ أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. وان الباعث كان هو هذا الاستقبال السعيد الذي أضفى فيه الخليفة على المؤلف من خيراته ومنح فيه ظهير الولاء.
(4) رواه أبو نعيم في الحيلة والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود.

المبارك إلى باب السدة[1] العظمى: سدة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين والوزير أبو العلا ادريس بن جامع مدير لهذه الحال الشريفة، الطالعة بالنصر المنيفة، لا يصدر شيءٌ إلا عن رأيه، ولا تنتجز عدة من أمر الخليفة إلا عن شفاعته وسعيه، وقد أحضرت الطبول السعيدة التي من أيام الإمام المهدي المربعة[2] الأشكال، السعيدة الأحوال، بالنصر والإقبال، وأضيف إليها من غيرها ما انكمل فيها مائة طبل، والموحدون يترادفون جُمَلاً جُمَلاً وزمراً زمراً حتى كمل الاجتماع، على ما أمر به الأمر المطاع، وأمير المؤمنين [291] ابن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في موضع جلوسه منتظرٌ اعلام أبي العلا الوزير بكمال ترتيب الحال الموصوفة، حتى وصل إليه أبو العلا المذكور وأعلمه بكمال الأشغال، وحضور جميع الناس، على أكمل الإيناس، فاستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغر، وخرج راكباً عليه وهي أول ركبة خرج فيها للقاء أحد أو تشييعه من حين مرضه المؤرخ المذكور، والوزير أبو العلا راجلاً على قدميه بين يديه لصق ركابه، على حجابه، مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوي اللبانات كلاماً أو إشارة خرج إليهم مستفهماً كلامه، موصلاً أعلامه، وفي ساقة أمير المؤمنين على قرب منه تابعاً له السيد أبو عبد الله محمد المخلوع، وإلى جانب سائر الإخوة الصغار، وبَني النبين أيدهم الله[3]، وفي ساقته أمام العسكرية ستة عشر علاماً

(1) باب السدة لعله يقصد (باب السادة) الذي كان مخصوصاً ببني عبد المؤمن والذي ينتهون اليه على خيلهم لكن الأقرب حسب سياق الكلام أنه يعني باب السقائف حيث مجلس الجماعة.
المنوني: ص 250.

(2) لم تتحدَّث المصادر التاريخية الموحدية ـ التي بين أيدينا ـ عن الطبول المهدية المربعة، ولكنها مع ذلك تحدثت عن تربيع السكة ولا يخفى أن المهدي كان معروفاً عند المؤرخين بصاحب الدينار المربع . . .
ابن خلدون العبر، طبعة بيروت المجلد الأول ص 470. المنوني، الفنون على عهد الموحدين ص 239.

(3) يلاحظ التعبير الدقيق الذي يمتاز به ابن صاحب الصلاة عند وصف التشريفات الخليفية بعد أن تبوأ وظيفته الجديدة ونال ظهير «الأمانة» راجع ص 147.

كباراً من البنود المصنوعة المعدة لهذا الشأن، وبيد كل رجل من أعيان الموحدين علام، وعليه درع سابغة، تلمع لمعان اللجين الخالص في شعاع الشمس، ومن معه يلبس درعاً سابغة وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد والجميع من الناس. فلما جاوز سيدُنا أمير المؤمنين باب الشريعة[1] وقف ينظر بعينه ويفكر في رأيه السعيد، الموفق السديد، [292] في أي موضعٍ يكون اللقاء والاجتماع، إذ كانت المواضع المتصلة بالمدينة قد ضاقت أفنيتها بسبب البحاير والجنّات المغروسات، فاتفق رأيه المبارك أن يتجاوز الشريعة إلى الفحص العريض هناك، فلما وصل الفحص المذكور وهو على هيئته المؤيدة والطبول قاصفة، والجيوش البارزة معه متكاثفة، أمر بقبَّة خباء فضربت له فيه ونزل فيها مع إخوته وبنيه، وأقبلت عساكر العرب من أهل افريقية والسيدين المذكورين، فأشار إليهم أن تحمل العساكر الوافدة والبارزة بعضها على بعض جرياً ولعباً، وفرحاً وطرباً[2]، ورأى الحاضرون والنظارون فيهم عجباً، ودام ذلك اللعب والطرب والطبول تضرب إلى أن مضى أكثرُ النهار، ثم أمر رضي الله عنه للوافدين بالنزول والسلام، فتقدم الأخوان السيدان: أبو زكريا وأبو عمران ثم أشياخ الموحدين ثم أشياخ العرب وجميع الوافدين من الناس، وفيهم علي بن منتصر[3] شيخ بجاية وأنظارها، وفي هذه الغزوة بدأ ظهوره إلى أن أدى به ذلك إلى مقتله حسبما أذكره، فلما أكمل الجميع السلام أمرهم بالانصراف إلى المدينة والدخول فيها، كل واحد إلى منزله قد نظر له، وانصرفت عامة العرب إلى مضرب محلتهم الذي حُد لهم النزول فيه، وكان في انصراف أمير المؤمنين بْن أمير المؤمنين [293] رضي الله عنه إلى داره بداخل الحضْرة للناظرين من المرأى الغريب العجيب ما

(1) حول باب الشريعة بمراكش، راجع التعليق رقم 1 صفحة 214.

(2) قد سلف له أن ذكر صاحب تونس عبد الواحد الهنتاتي، وعامل تلمسان سليمان بن عبد النور ويضيف هنا إلى المسؤولين عليا بن منتصر شيخ بجاية ـ راجع صفحة 269.

(3) يعني في السفر الثالث وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة، انظر ابن عذاري ص رقم 107

أبهت النـاس، وضيق الغبـار على النـاظرين الأنفـاس، وأذهب عن قلوبهم البأس، ورأوا في حالتهم عُرساً قد فاق الأعراس.

مبايعة اشياخ العرب الوافدين وعامتهم

ولما كان في اليوم الثاني من البروز المذكور وهو ثالث شهر ربيع الآخر المؤرخ أمر رضي الله عنه بدخول أشياخ العرب والـوفود للمبايعة وأخـذ العهد عليهم في ذلـك، فدخلوا في يـوم الاثنين الـرابـع من ربيـع الآخـر المـذكـور وتمـادت بيعتهم المذكـورة إلى يوم الأربعـاء الموفى عشـرين من ربيـع الآخـر المؤرخ وكملوا بالمبايعة.

خروج أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه الى البحيرة[1] لمعنى اطعامهم، والترحيب بالمامهم.

وخـرج أمير المؤمنين رضي الله عنـه يوم الجمعـة الثـاني والعشـرين من ربيـع المؤرخ بعد صـلاة الجمعة إلى البحيـرة خـارج حضـرة مـراكش فـأطعم العرب والنَّاس الوافدين [294] وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً، يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل وقد صنـع ما تقـدمت العادة بـه: نهر من رُبٍّ[2] ممزوج بالماء، كل مـا أكلت طائفـة وقامت مشت إلى مـوضع الخليفـة رضي الله عنه وسلمت عليه ودعا لها ونهضت إلى ساقية الرب تشرب وتطرب،

(1) عـرفت «البحيرة» في مـراكش منذ أواخـر أيام المـرابـطين فكـانت ملتقى لمعـركـة بـين عبـد المؤمن والمرابطين لكن الموحدين عُنـوا بها كـامل العنـاية واتخـذوا منها مكـاناً لتجمعهم وهي تعني فسيحاً يحتوي على بِركة مـائية واسعـة تحيط بها الخضـرة بالإضـافة إلى أروقـة يأوي إليهـا رجال الحكم، والبحيرة اليوم هي ـ فيما يقال ـ المكان المعروف باكدال في مـراكش والذي كـان (قصر المسرة) عـلى عهـد السعديـين. بروفنصـال ـ البيذق ص 199 ـ تعليق رقم 2 صفحـة 232 ـ 233 ـ المعجب ص 192 . Deverdunn: Marrakech p. 204.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 113.

وأرى الناس في هذا الاطعـام، ما أربى على مـا تقدم من الانعـام والاهتمام، وتمادى ذلك مدة الأيام المـذكورة المعـدودة. ولما كـان في أحد الأيـام حدث بين صبيان الموحدين الذين يمسكون دوابهم خارج البحيرة وبين أتباع العـرب كـلام ونزاع ودفـاع بهـوشـة وقعت بين الفـريقين أدت إلى اختـطاف الثيـاب، واستلاب الجلباب، وتحـزب الجهال من الاعـراب[1] بالأحـزاب، حتى وصل ذلك إلى الأمْر بباب الدار عند الحجاب، فخـرج إليهم طلبتهم من الموحـدين أعـزهم الله وأشياخهم من العـرب وفـرَّقـوا جمعَهم، وأزالـوا روعهم، وانجلت الحال عن سلبٍ كثيرٍ أخذوه للناس في الـطريق، ومن كل فـريق، ومات فيهـا أربعة أشخاص من عبيـد للناس، وبعض أحـرار من سائـر الأجناس، واتصـل الخبر بسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله فأقلقه التعـدي في باب سدته، ولصق حضرته، فأمر برفع الطعام مـدة ثلاثـة أيام، عتباً على العرب، بسبب جرأتهم على سوء الأدب. ثم إن العرب تطارحوا [295] على العفو من الأمر الكريم، من قبيح ما جناه أتباعهم وعبيدهم وأشياعهم، واعتذروا من فعل من لا خلاق له، فقبـل سيدنـا ومولانـا الإمام تـوبتهم، وصفح جـرأتهم، وأمر رضي الله عنـه بصـرف اطعـامهم والتمـادي على إكـرامهم حنـانـاً منـه بسبب قصـودهم والمامهم، وتمـادى ذلك الى اليـوم الخامس من جمـادى الأولى من سنـة ست وستين وخمس مائـة المؤرخة. ثم أمـر سيدنـا بكتب أسماء كـل من سلب له شيء، وما سلب لكـل رجل من الثيـاب والأسباب[2]، وبكتب أسمـاء العبيد الذين ماتوا، وأسمـاء الأحرار الـذين ذهبـت أرواحهم بالتعـدي وفاتـوا، وأمـر بجبر كـل ما مضى للنـاس من ثيـابهم، وقيمـة عبيـدهم ودوابهم، وودي الأحرار بدياتهم إلى قبائلهم، وهذه غاية العدل والكـرم، الذي لم يتقـدم لغيره في الزمان بالقِدم، رضي الله عنه وجعل الجنة مأواه.

(1) يلوح من بعض النصـوص شبـه «تـوريـك» عـلى أعـراب أفـريقيـة. راجـع صفحـة 297 ـ 304 ـ 507 ـ من المن بالإمامة.

(2) كذا في أصل المخطوط ولعل الأصل الأسلاب.

ذكر تمييز[1] العرب الوافدين ومن وصل معهم

ولما كان يوم الأحد الثامن من جمادى الأولى أمر سيدنا بتمييز العرب المذكورين، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره العتيق بدار الحجر[2] داخل حضرة مراكش، وأن يكون دخولهم إليه بحيث يراهم ويطلع هيئاتهم، ليكون احزم له في النظر لعساكره [296] واصلاح حالتهم لمطالعته ذلك، فابتدأوا بالدخول عليه في يوم الأحد المؤرخ على ترتيب توحيدهم أولاً في قبائلهم السابقة لهذا الأمر العزيز وعشائرهم، فكان الذي ابتدأ أول يوم قبيلة زغبة لتقدمهم في التوحيد، وأمروا أن يدخلوا في كل يوم بعددٍ معلوم من القبيل المأمور له، فتمادى تمييزهم على هذا الترتيب الغريب مدة خمسة عشر يوماً يدخلون غدوة حتى صلاة الظهر، ثم يرجعون بطائفةٍ أخرى من بعد صلاة الظهر إلى آخر النهار، على ترتيب القبائل المذكورة والعشائر. وسيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه جالسٌ في مجلسه الكريم مع أشياخ الموحدين أعزهم الله، وأشياخ طلبة الحضر، وأشياخ العرب: يحرض العرب والناس على الجهاد، ويأمرهم بالجد والاجتهاد، ويعلمهم من أدبه الديني الكريم بحيث يروه هيبة وتعظيماً، وتوقيراً وتكريماً. ولما كان يوم الأحد الثاني والعشرين من جمادى الأولى المؤرخ المذكور أحضر سيدنا أشياخهم وكبراهم وطلبتهم: أبا محمد عبد الواحد أقوسجور[3] الهنتاني، وأبا زكريا يحيى بن[4]. . . . المعروف باقصور،

(1) تميز الجيش قبيلةً وهيئة عادة عرفت من أيام المهدي سنة 515 وكان يقصد به علاوة على ما فيه من تنظيم ضروري لسير الأمور، الحرص على انسجام الكتائب وتنسيقها، وقد كان للتمييز ـ لما له من أهمية ـ ديوان خاص.

البيذق 29 — 32 — 33 — 35، راجع التعليق رقم 1 ص 199 إقرأ صفحة 297.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 169 ـ المنوني ص 331.

(3) أقوسجور هذا هو نفسه الذي رسمه الناسخ في صفحة 331أقوسقر.

(4) لعل المؤلف هنا كان يحاول أن يذكر والد يحيى هذا وقد سلف له صفحة 331 أن نعت يحيى هذا بالهنتاتي.

والنعمن بن[1]. . . . وأحضروا زمام تمييزهم في الطريق قبل وصولهم إلى حضرة مراكش حرسها الله فوجد بين تمييزهم الأول، وهذا التمييز [297] المشرف لهم زيادة كثيرة في العدد على ما سمح لهم، رفقاً بهم، فلقد رأيتهم في أيام التمييز المذكور ينزل الخارج من الدار المعظمة من تمييزه عن فرسه ويركبه آخر من الرجالة لهم ويدخل عليه ويغير بعض ثيابه وآلته، وكان العربي إذا دخل يأخذ عمامة صاحبه فيبدأ بتعميمها وهي في رأس الخارج، فلا يزال يعتمها في رأسه وهي تنحل من رأس صاحبه حتى تتم بأعجل الاستعجال بمرأىً يضحك الحاضرين، وكذلك في إعارة الثياب وآلات الركوب يجرد بعضهم بعضاً على مرأىً من الناس، لا يهابون أحداً ولا آمراً. وفضْلُ سيدنا الخليفة رضي الله عنه يغضي لهم على هذا كله لمعرفته بحاجتهم وضرورتهم ولبدارهم إلى طاعته وانقيادهم لخلافته ولما في نفسه من إرادة الجهاد بهم لأعداء الله تعالى فيتألف قلوبهم بذلك!

حدثني الكاتب أبو عبد الله بن محسن[2] كاتب ديوان التمييز لجميع العساكر المنفذ ـ بتجميله ـ البركات للموحدين ولساير الناس من الأجناد المرتزقين قال: «دخلت على سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه وفي يدي تلخيص زمام تمييز العساكر». فقلت له: يا سيدنا ومولانا وقفت على هذا التمييز ووجدت فيه زيادةً كثيرة على ما تقدم. فقال لي رضي الله عنه: نفذ لهم البركة على ذلك، إنما غرضنا الاحسان لأجنادنا وأن تظهر عليهم [298] الخيرات والبركات فامتثلت ذلك فجعل الله تبارك وتعالى البركة في جباياته، في جميع طاعته وجهاته، بسمحه في ذلك واحسانه وجزيل هباته، واتصال صدقاته.

(1) نفس البياض الذي سلف صفحة 331 لكنه هناك ترك أيضاً بياضاً قبيل النعمان.

(2) نعت ابن صاحب الصلاة وظيفة ابن محسن هذا بكاتب ديوان التمييز وسنرى صفحة 311 نعته بكاتب العسكرية، فهل التمييز يعني العسكرية؟ نحن نرى فعلاً أن التمييز يُلْجأ إليه عند العمليات الحربية.

ذكر تمييز الموحدين أعزهم الله لهذه الغزوة العظمى

ولما كان غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة أمر سيدنا الخليفة بتمييز للموحدين على عدد قبائلهم، ومنتهى مناولهم، وتربية صفانهم، فامتثل ذلك وتمادى تمييزهم مدة خمسة عشر يوماً، وقسم عليهم الخيل المسومة الجياد الروقة على أعدادها المذكورة، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرّماح والدروع، والبيض والسيوف، وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة، من الآلات المذكورة الكاملة، على أتم النظر المبارك حتى كمل على أتم العزم والحزم، ثم أمر لهم بإعطاء البركة، عن الزاد لهذه الغزاة الملكة.

الإنعام بالبركة وإخراجها إلى العرب الوافدين وجميع عسكرية الموحدين أعزهم الله وأنجدهم.

وجلس أمير المؤمنين [299] في مجلسه العالي وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر لوزيره أبي العلى ادريس المذكور أن يأمر الخزانين بإحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه وعلت أكداساً. وجنّسها من الذهب والفضة أجناساً، وقدّم الموحدين في تنفيذ البركة لهم، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير، ولغير الكامل ثمانية دنانير، وللراجل الكامل خمسة دنانير، ولغير الكامل ثلاثة دنانير. وأمر للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً، والراجل سبعة دنانير. وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً، ولكل رئيس منهم على قبيلة مايتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطي[1] والقمص والغفاير والعمائم، وأعطاهم السيوف المَحلاّة، والدروع السابغات، والبيض والقنا، من الرماح الطوال، وأمَرَ لهم بثلاثة آلاف فرس قسّموها على قبائلهم واتباعهم ورجالهم، وظهر على العرب والموحدين وعلى

(1) جمع قبطية، أنظر التعليق رقم 4 صفحة 215.

جميع العساكر السرور وتمكن لهم الاستبشار والنشاط، وتضاعف لديهم الاغتباط والارتباط، وأمر للموحدين أعزهم الله بحظهم من الخيل المسومة المجلوبة المذكورة فقسّموها على قبائلهم ورجالهم، وهذا كله من [300] سيدنا نظرٌ إلى جزيرة الأندلس في هذه الغرفة الحافلة خلّد الله أمره، وأعزَّ نصره.

خبر حركة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من حضرته مراكش في سنة ست وستين وخمس مائة التي كانت أول غزواته الى جزيرة الأندلس لاحياء رسمها، وضبط اسمها، ودفع النصارى الكافرين عن جهاتها والمنافقين المحاربين من جنباتها.

قال المؤلف عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة: قد ذكرت فيما تقدم احتفال أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لهذه الغزوة العظيمة الحافلة واستدعاءه العرب من أرض إفريقية والزاب، وجمعه للموحدين والناس من أرض العدوة واستنهاضه فيها صنوف الأجناد والمطوعة، وإعداده لها ضروب الآلات والعدة، واستظهاره عليها بأبلغ العتاد والقوة، واستعماله لها غرايب الجُنَن والأسلحة، أخذاً بالحزم واستطالةً على المنافقين من آل مردنيش، والنصارى الكافرين. فلنذكر الآن حركته السعيدة.

كانت من الحضرة مراكش [301] صبيحة يوم السبت الرابع من شهر رجب الفرد، بموافقة اليوم الثالث عشر[1] من شهر مارس العجمي، من سنة ست وستين وخمس مائة، وخرج على باب كالة[2] من المدينة المذكورة وقد

(1) الموافقة مضبوطة هنا.

(2) باب دكالة من أقدم أبواب مراكش.

ALLAIN et DEVERDUN: Les portes Anciennes de Marrakech

Hesperis. Tome. WLIV 1957 page 105'

اجتمع الناس لرؤيته، فكان في أحسن تعبية، قد ملأت العساكر الأرض كثرة، فسار أمامهم والعلام الأبيض قدامه مع الرجالة، على عادة الأمر العزيز من الترتيب في المشي، والعلامات والساقات والطبول وراءه، متربصاً في المشي وملتوياً فيه ليلحق الجمهور، ويتصل به من عسكره المنصور الصغير والكبير، وقد قدم أمامه مصحف صاحب[1] رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه على حمل مرتفع، وقدام هذا المصحف مصحف الإمام المهدي [2] رضي الله

(1) يعتبر ابن صاحب الصلاة من أبرز المصادر وأدقها وصفاً لمصحف عثمان بن عفان، وقد تحدث الشريف الإدريسي عن مصحف موجود بمسجد قرطبة فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه وفيه نقاط من دمه، وذكر ابن بشكوال أنه نقل من قرطبة أيام عبد المؤمن بن علي وبأمره وأكَّد ابن مرزوق أنه مصحف عثمان بن عفان باطباق أهل الأندلس، هذا وقد كان من خبر نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش بعد أن كان أولاً بمسجد دمشق ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكرياء يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور قال: وصل إلى عبد المؤمن ابناه السيدان: أبو سعيد وأبو يعقوب من الأندلس وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان فتلقَّى وصوله بالإجلال والإعظام، وقد تمنى عبد المؤمن في أعماق نفسه أن لو كان يملك هذا المصحف لكنه ـ وهو يقدر شعور القرطبيين إزاء المصحف ـ كان لا يفصح بذلك لكن الذي حدث أن أهل قرطبة قرروا بعد أن يتقدموا به هدية لعبد المؤمن.. وهكذا جمع الخليفة الصناع والمتقنين من سائر بلاد المغرب والأندلس من المهندسين والصواغين والنظامين، والجلائين النقاشين والزواقين والمرصعين والنجارين والرسامين المجلدين وعرفاءالبنائين... وصنع له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة، وحلاه بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع، وقد جمله معه لأول مرة لزيارة قبر المهدي سنة 553، وقد استمر عند عند الموحدين إلى أيام المعتضد بالله: على بن ادريس بن يعقوب المنصور حين توجه لتلمسان سنة 645 حيث قتل ثم عثر بنو عبد الواد على المصحف وملكه بعد أبو الحسن المريني إلى أن كانت حادثة البحر سنة 750 فضاع في جملة ما ضاع من فرائد. وينقل الاستقصاء أن مصحف عثمان خلص لابن الأحمر الذي أهداه للسلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 692.
الإدريسي: نزهة المشتاق ص 210، العمري: مسالك الأبصار، تحقيق أحمد زكي باشا ص 195 ـ ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن مخطوط بالاسكوريال تحت رقم 1666 ورقة 113 ـ 116 (ب). النفح 2 ـ ص 135. الاستقصا ثاني 112 ـ 113 ـ 115 ثالث. هـ 75. كلمة للفقيه محمد التطواني بمناسبة عيد العرش 1947 ص 11 ـ 12 ـ 13.

(2) تنقل بعض المصادر أنه كتب بخط ابن تومرت وإنه دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة مموهة بالذهب. المعجب ص 253.

عنه وعلى مصحف عثمان كلة حمراء تصونه، والمصحف المكرم منظم حول حفاظه بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر، والأصفر، والأخضر الغريب، والزمرد الأخضر النفيس العجيب، قد جلبت أحجار الياقوت والزمرد والجوهر إلى الخليفة الأول الرضي خليفة المهدي، ثم لابنه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، ونظم بها حفاظ هذا المصحف المكرم، وكلَّل بها جوانبه إكليلاً، واتخذه من عثمان صاحباً وخليلاً، يتبرك به بكرة وأصيلاً، لم يتقدم إلى هذا الأثر الكريم أحدٌ قبله من الملوك، ولا انتهض أن يدخل نفسه في هذا الفن المسلوك. [302] فلقد حدثني عمر بن مرجى الإشبيلي[1] أحد الناظمين له أن فيه جوهرة تشبه حافر الفرس، وذكر لي أنه حدث أنها الجوهرة التي كانت عند أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون[2] صاحب مصر ودمشق وافريقية والزاب[3]، وأن الأيام وانتقال أحوالها وعجائب اقبالها لهذا الأمر العزيز، جَلبتْ ذلك إلى ملك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين. وقال: إن الذي حوالي جوانب حفاظ هذا المصحف المكرم من الذخائر لا يأتي عليها في القيمة عدد، ولا يأخذها عدد، وحين رأى الناس والنظارة ما ذكرته رأوا عجباً، وأمراً مغرباً، تيقنوا في ذلك دين الخليفة ويقينه من اهتباله، بكتاب الله تعالى واهتمامه به وعظيم اقباله، وكان مع الرايات والطبول التي تقدم ذكرها وزيره أبو العلى ادريس بن أبي اسحاق بن جامع، والشيخ الزاهد ابو محمد عبد

(1) لم أقف على ترجمته لكن أبن الأبار في التكملة (نشر العطار) ترجم لأبيه رقم 1847.

(2) هو الأمير خمارويه جحد أبناء ابن طولون الثلاثة والثلاثين كان ملكاً لمصر والشام بعد موت أبيه بمبايعة الجند له يوم الأحد العاشر من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وقد توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين وقد كان معروفاً بتحفه النادرة سيما الجواهر التي خلفتها زوجته بوران.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ثالث طبعة دار الكتب المصرية صفحة 50 ـ 64.

(3) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أن ولاية أبي الجيش خمارويه ابن أحمد ابن طولون امتدت عملياً إلى الزاب، وإنْ كُنَّا نعرف أن أخاه العباس له مواقف بمدينة (لبدة Leptis) التي توجد بين مدينة طرابلس ومدينة مصراته على الطريق الساحلي.
ابن تغري: ـ النجوم الزاهرة ثالث، صفحة 21. ابن خلدون، المجلد الرابع صفحة 645، الزاوي: ـ تاريخ الفتح في ليبيا.

الواحد بن عمر صاحب المهدي[1] رضي الله عنه، والشيخ ابو سعيد يخلف بن الحسين[2]، وأبو محمد عبد الله بن ابي حفص بن تفريجين[3]، ومن أولاد الجماعة أبو عبد الله[4] محمد بن أبي علي أزناق وأخوه أبو يحيى[5] وأبو محمد عبد الله المالقي شيخ طلبة الحضر، والقاضي أبو موسى عيسى بن عمران[6] قاضي المحلة والجماعة. وعلى هذا الترتيب الشريف في الحركة السعيدة، فنزل في ذلك اليوم أولاً [303] في إحدى دوره المتخذة له على رسم والده في النزول فيها بوادي تانسفت[7]، على نحو ثلاثة أميال من حضرة مراكش، وعساكره محدقة به من كل جانب، وكان السعر[8] في هذه الأيام المحَلَّة المؤيدة في هذا اليوم رخيصاً على تكامل الخلق فيها، فالدقيق: الربع[9] الواحد منه بدرهمين، والشعير خمسة وعشرون مداً[10] بدرهم! واللحم ستون

(1) راجع التعليق رقم 4 صفحة 324.
(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 180.
(3) الشيخ أبو حفص هذا من أهل تينمل، وتفريجين تكتب في (أخبار المهدي) هكذا (تفراكين).
أنظر البيذق 33 — 34 — 35.
(4) نجد هذا الإسم هنا كاملاً باسمه وكنيته ولقبه، ولذا نرجع أن ذكره في صفحة 22 تحت اسم عبد الله وكنيته محمد خطأ مصدره التباس الذي وقع للناسخ بين هذا الشخص الذي استمر ذكره مع أخيه إلى هذا التاريخ 566، وبين الشيخ أبيْ محمد عبد الله بن أبي حفص بن علي الذي استشهد منذ سنة 557 بمرج الرقاد.
راجع التعليق رقم 3 صفحة 93 والتعليق رقم 3 صفحة 120.
(5) راجع التعليق رقم 4 صفحة 93.
(6) كان قاضياً للجماعة بحضرة مراكش، وقد كان فريد زمانه ديناً وعلماً وأدباً، توفي في الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وسبعين، ابن عذاري مخطوط 119.
(7) راجع التعليق رقم 1 صفحة 291.
(8) ولع ابن صاحب الصلاة بتتبع الأسعار طيلة تنقل الجيش، وهو انتباه هام منه لناحية من نواحي الحياة الاقتصادية في أثناء الظروف العَصِيبة، وكما فعل هذا هنا كان كأنه كذلك في غزوة وبْذَة، وكذا في غزوة شنترين كما ينقل عنه ابن عذاري، انظر البيان المغرب ص 128.
(9) الرُّبع (ج أرباع) ـ كما ورد في الكتب التي تناولت الحديث عن الحسبة ـ يزن 25 رطلاً، والرطل يساوي تقريباً 504 كرام بالوزن الحالي فالربع إذن يزن أثني عشر كيلو وستمائة كرام.
Colin et Lévi Provençal: un Hispanique de Hisba. Paris. page 27.
(10) لم يعين ابن صاحب الصلاة هل القصد إلى المد النبوي أو إلى مد اصطلاحي ،وبتتبع كلامه الآتي =

أوقية[1] بدرهم، وأمر لأهل المسائل بقضاء حاجاتهم، والافضال عليهم، وكتب الظهائر لهم، واتصلت المسار، وارتفعت المضار، والحمد لله على ذلك، ورحل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في جنوده من وادي تانسفت يوم الأحد الخامس من رجب الفرد المؤرخ، اليوم الثاني من حركته، سائراً وجهته، متنقلاً في محلاته، فنزل في داره بدشر الحطابة[2]، واحتلَّ فيها بمن حمل من عياله على رسم والده الخليفة رضي الله عنهم، ثم ارتحل يوم الاثنين إلى داره بتونين[3]، ثم الثلاثاء إلى توقطين[4]، ينزل في كل منزل في داره وعساكره محدقةٌ به، ثم تابع الحركة والانتقال على هذا الترتيب حتى

= نجد أنه دائماً ينعت المد بالمراكشي فلذلك نرجح أن القصد هنا كذلك إلى المد المراكشي، ومعلوم أن المد النبوي يعادل 400 كرام إذا كان من الشَّعير، و: 525 إذا كان من القمح، أما المد المراكشي فهو بالقطع شيء غير المد النبوي.
راجع صفحة 354 — 367 — 269 — 511
الصبيحي: إنبلاج الفجر، عن السائل العشر، الرباط 1940 ص 24.
(1) ست عشرة أوقية تعادل رطلاً، وهكذا فإن ستين أوقية تعني تعني أربعة أرطال إلا ربعاً (أي كيلو و890 غرام).
Colin et Levi Provençal. un manuel Hispanique Page 27.
(2) دشر الحطابة: اسم لمكان اندثرت معالمه الآن، ويظهر إنه كان للخليفة هنا قصر، وإن والده عبد المؤمن كان يعتاد كذلك النزول في هذا المكان، وقد نقل ويسي اللفظ بالحرف إلى الأحرف اللاتينية. (Dasral — Hataba).
(3) تونين (Tunin) يذكر الإدريسي في نزهة المشتاق أن مدينة مراكش إلى مدينة سلا على ساحل البحر مراحل أولها تونين... ومن تونين إلى قرية تيقطين مرحلة ثم مرحلة ثم قرية غفسيق ثم قرية أم ربيع... ومن قرية أم ربيع إلى قرية إيجيسل... ومن هذه إلى قرية إنقال ويقال لها دار المرابطين ومن انقال إلى قرية مكول... ومن مكول إلى قرية ايكسيس، ومن قرية ايكسيس إلى مدينة سلا وموضعها على ضفة نهر اسمير... ولم نستطع معرفة موقع تونين إلا أن ويسي يرجح أن تكون هي المكان المعروف حالياً باسم سيدي بو عثمان على بعد 35 كيلو متراً من شمال مراكش.
نزهة المشتاق ص 70.
(4) يذكر الإدريسي كما سلف أن المسافة بين تونين وتوقطين مرحلة. وهو يرسمها كذا (تيقطين) ويرسمها مخطوط ابن عذاري ص 124 (تواقطين) ويعتقد ويسي أن توقطين هي البقعة المعروفة تحت اسم «نزالت العدم» على بعد 23 كيلو ميتراً شمال تونين.

وصل وادي أم ربيع(1) وقد عقد عليه جسر(2) بقنطرة وثيقة من القوارب وآلات الخشب الماسكة لها في عباب الماء، فنزل في داره(3) المكرمة أيضاً على قرب من القنطرة المذكورة، وأمر لكلٍّ من الموحدين بيومٍ من الأيام، يجوزون فيه حذراً من الزحام، [304] فتغرق القنطرة المذكورة، فأجازوا عليها في أيام، وتزاحم العرب في الإجازة حتى تقاتلوا وقتل واحد منهم آخر، فعزموا على الفتنة بينهم، فارتفع الخبر إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فَوَدَاهُ من ماله، وسكنت فتنهُم، واحتل رضي الله عنه بداره بالجيسل(4)، فأمر بالمواساة من الشعير والدقيق واللحم عن زادٍ لجميع العساكر إلى أيام معلومة. ثم رحل عن هذا الموضع على الترتيب المذكور من المراحل المعلومة لأبيه رضي الله عنه حتى وصل داره بوادي وسنات(5) على مقربة من مكول(6) فأمر مرة ثانية بالمواساة من الشعير للعلف والدقيق واللحم للزَّاد لجميع العساكر، وتمادى

(1) ينعت الشريف الإدريسي وادي أم الربيع على وقته بأنه كان كبيراً وإنه كان يجاز بالمراكب. ولكنه لم يردد صدى الدار المكرمة التي نزل بها الموحدون فلعلها لم تكن قبلهم. نزهة المشتاق ص 70.

(2) قد يوجد فرقٌ بين الجسر والقنطرة لدى الموحدين، فالجسر متنقل وفي الاستطاعة تفكيكه عند الحاجة وعلى العكس من ذلك القنطرة التي تظل ثابتة... ويقصد هنا بالجسر ـ كما يلوح من ثنايا النص ـ القنطرة الموقتة.

(3) لم نعثر على أثر موحدي في هذه الناحية اللهم «رباط تيط» الذي يبعد عن مدينة الجديدة بنحو إثني عشر كيلو متراً، فهل كانت الدار المكرمة في ناحية هذا الرباط؟

Basset et Terrasse: Le Ribat de tit: Fes. TVII 1927p. 117.

العبدي الكانوني: آسفي وما إليه قديماً وحديثاً 1953 ص 44 — 45.

(4) ورد ذكرها لدى الشريف الإدريسي أيضاً وقد تردد الأستاذ دوزي ناشر النزهة في قراءة اسمها بين كلمة الجيسل أو الجبيل أو ايغيسل، وهذا المكان هو الذي يعرف اليوم بالجيسر (Guisser) بالشاوية.

Ricard: Maroc, Guide Bleu 112 — 113. Huici page 248.

(5) ذكر هذا الوادي إلى جانب بعض الأمكنة التي ظلت هي الأخرى مجهولة، وكل ما نعلم عنه أن الإدريسي كما سلف ذكر بين قرية مكول مكاناً أسماه (انقال) ويقال لها دار المرابطين وإنه ذكر بعد مغيلة وادياً أسماه وادي وسنات.

(6) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 211.

مشيئه على ترتيبه حتى قرب من المهدية(1) المجاورة لمدينة سلى(2). فنزل في موضع فصيح(3) من الأرض مع من تقدم ذكره من الوزراء والأشياخ من الموحدين والطلبة الكبراء، وأمر بإحضار أربع راياتٍ صغار، في أربعة رماح صغار، وفي أعلى كل رمح تفاحةٌ من ذهب تتلألأ ضياء وشعاعاً، والرايات ملونات بالخلدي(4) الأحمر، والأصفر والأبيض(5)، وجعل تلك الرايات الأربع

(1) مدينة المهدية يرادُ بها المدينة التي بناها عبد المؤمن منذ الأيام الأولى على مقربة من سلا وهي مدينة الرباط الحالية أو قصبة الوداية، وقد تُنوسي هذا الإسم التاريخي: (المهدية) اليوم كما تنوسي اسم المهدية «متاع ابن مليح». وقد سماها عبد المؤمن هكذا تيمناً باسم المهدي بن تومرت ولا يبعد أن يكون قصد إلى تقليد الفاطميين في تسميتهم للمهدية الشرقية، ولا ينبغي أن تلتبس المهدية هذه بالمعمورة التي تحمل هذا اللقب منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري فقط، هذا و(المهدية) أو رباط الفتح من أبرز آثار الموحدين التي صمدت إلى الآن وقد يكون في المؤرخين من أعطاها اسم قصبة تاشفين (؟) هذا وليس من (المهدية) «المدرسة» التي بجانبها فإنها من مؤسسات المولى الرشيد العلوي. البيذق ص 94 ـ 113.

معجم البلدان، صبح الأعشى جزء 5 ص 169 ـ الحلل الموشية ص 112.

Caillé la ville de Rabat 44.

Terrasse: L'art Hispano — Maresque, page 280 — 281 — 287 — 288.

Pérès: la poesie à fes Sous les Almoravides et les Almohades.

Hespéris 1934 page 30.

وانظر التعليق رقم 1 ص 70.

راجع التعليق رقم 3 صفحة 112 والتعليق رقم 2 صفحة 147.

(2) راجع التعليق رقم 3 صفحة 112.

(3) كذا في الأصل ويظهر أنه تحريف لكلمة فسيح.

(4) لم نعثر لهذه الكلمة على معنى في قواميسنا القديمة لكنه اسم معروف في بعض الكتب الأندلسية ومعناه النَّسيج الحريري الدقيق، وهكذا تكون الصفات الثلاثة الآتية كلها نعتاً للخلدي، أي أن هذه الراية الموحدية تتألف من نسيج أحمر وأصفر وأبيض.

Dozy: Sup T. I. page 390.

(5) يعطي ابن صاحب الصلاة هنا وصفاً دقيق ا لألوان الرايات الموحدية، فهي تعتمد ـ كما تقدم ـ على الأبيض والأصفر والأحمر، ونحن نعرف أن)العلام الأبيض) الخالص كان هو علم المهدي بن تومرت وعبد المؤمن أو بالأحرى هو علم الأمبراطورية الموحدية، كما نعلم أن اللون الأحمر كان هو اللون المحبب عند أشراف العرب هذا إلى أن اللون الأصفر يرمز عند الذين يهتمون بخصائص الألوان إلى الأرض وثروتها... فهل يكون هذا العلم الموحدي الإضافي يشير لوحدة البربر ـ ولون رايتهم بيضاء ـ مع العرب ولونهم هو الحمرة، كما يشير في اللون الثالث إلى =

في أركان تابوت المصحف المكرم: مصحف عثمان رضي الله عنه ثم استوى على صهوة فرسه، ومشى على الهيئة المتقدمة، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب [305] قد ملأوا بسيط الأرض، واتسعوا فيها بالطول والعرض، فلما قرب من المدينة أمر بتقديم الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفين[1] المذكورين مع الساقة، على خلاف العادة في المشي[2]، تنويهاً وتعظيماً للتبريز والترتيب، وهو رضي الله عنه متقدم والأشياخ من الموحدين، والوزير والكتاب والطلبة وراءه، حتى وصل باب مدينة المهدية، فرد وجهه إلى الناس واستقبلهم وهو راكب على فرسه وعالهم، وأمرهم بالنزول في تلك الأرض العريضة، ودخل إلى داره[3] بالمهدية المذكورة. وكان هذا التبريز للنظارة من احدى العجائب، وافخم الظهور والوفور للعساكر والكتائب، وكان دخوله المهدية المذكورة يوم الاثنين الموفى عشرين من رجب الفرد من سنة ست وستين المؤرخة. فالذي مشى في الطريق سبعة عشر يوماً.

ثروة الأرض؟ لسنا ندري، لكن الملاحظ أن معظم هذه الألوان ظل معروفاً إلى الآن في جل بلاد أفريقيا وقد حاول بعض المتبعين لدراسة العلم العربي أن يجد أثراً مضبوطاً لألوان الرايات المستعملة في المغرب قديماً لكن المصادر كانت تخذل رجال البحث.

الجراري: الغاية من رفع الراية ص 12 ـ

Debreuil: Les pavillons des états Musulmans.

Hespéris Tamuda 1960 T. I. page 548.

(1) في الأصل المصحف بالإفراد وهو خطأ من الناسخ بدليل السياق.

(2) لقد كانت العادة أن الطبول تقصف وراءه، وكانت الراية البيضاء وحْدها هي التي تتقدم الموكب. راجع ص 301.

(3) هذه الدار لا تزال آثارها ـ فيما يعتقد ـ داخل القصبة، ويظهر لي أن لهذه الدار صلة بالمنزل الذي يوجد في أقصى طريق الجامع في الزاوية التي تؤدي إلى الساحة المشرفة على المحيط، ذلك المنزل يحمل اليوم اسم (دار البركة) هذا الاسم المستوحى دون شك من لفظ (البركة) المعروف استعمالها لدى الموحدين. CAILLE: la ville de Rabat P. 255.

(تاريخ مدينة الرباط)

وموضع[1] هذه المدينة المسماة الآن بالمهدية وبرباط الفتح كان في أيام السيرات فيه برج[2] للسكنى، وما حواليه أرض محرثٍ براح ومسرح، متملَّك للمخزن ولأهل سلى[3] ولإبن وجاد[4] من أهل إشبيلية، فاشتراه الخلفاء من

---

(1) بفضل هذا الاستطراد الذي يذكره ابن صاحب الصلاة هنا اكتشفنا صفحة جديدة من تاريخ الرباط ظلت إلى الآن مجهولة من طرف الذين كتبوا عن الرباط فيما نعلم. راجع التعليق رقم 4 ص 112.

(2) في المؤرخين الافرنج من يرى أن هذا البرج كان أول الأمر من بناء الرومان لغرض الدفاع عن مدينة شالة العتيقة، وفي المؤرخين من يرى أنها قصبة تاشفين. . .

بوجندار: مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، الرباط 1345 ص 39 — 40.

Caille: la ville de Rabat. p. 35.

أنظر التعليق رقم 1 ص 355.

(3) لم يذكر ابن صاحب الصلاة لَمن في أهل سلا كان هذا النصيب؟ والواقع أنه كان ملكاً لبني القاسم والمعروفين ببني العشرة، ولعله كان ملكاً بالذات للقاضي علي بن القاسم بن محمد بن عشرة قاضي سلا الذي مدحه عيسى بن الوكيل مستجدياً بقصيدته التي يقول فيها:

سَلِ البرق إذْ يلتاح من جانبه البَرْقَا ... أقُرطي سُلَيْمَى أم فؤادي حَكى خَفْقا

غَريبٌ بأرض الغَرْب فُرقَ قلبُه ... فآوت سَلاَ فَرْقاً وبابُرةٌ فَرْقَا

حَيَاءٌ يغض الطرفَ إلاَّ عن العُلَى ... وعِرْضٌ كماءِ الْمُزْن في الحَزْن بل أنْقَى

بلغنَا بنُعْماك الأمانيْ كلَّهَا ... فما بقيتْ أمنيةٌ غَيْر أن تَبْقَى

وكان عيسى بن الوكيل مستعملاً في الدولة اللمتونية فحكى أنه انكسر عليه مال جليل يبلغ عشرة آلاف دينار فقبض عليه، وأشخص منكوباً إلى مراكش، فلما بلغ الموكلون به مدينة سلا وبها يومئذ بنو العشرة رباب السماح وأرباب الأمداح، قال هذه القصيدة يمدح القاضي أبا الحسن منهم. . . فلما وقف عليها قاضي سلا بادر إلى المخاطبة بتضمن المال وتحمله. . . فأسعف طلبه وعاد ابن الوكيل إلى غرناطة.

البيذق: أخبار المهدي ص 66.

الحميري: الروض العطار، نشر بروفنصال ص 197 ـ 198 ـ راجع صفحة 173.

السائح: الغصن المهصور (مخطوط). . .

(4) يظهر أن ابن وجاد هذا كان من أعيان إشبيلية على ذلك العهد، وأنه تاق لسكني العدوة فتملك نصيباً من الأرض على مقربة من سلا، وأن وجاد هذا هو بدون شك ـ الذي ترجمَ ابن الأبار =

أربابه وخلص لهم، وكان أهل الأثر يقولون في ذلك التاريخ: سيكون في هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة! فلما وصل أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه إلى سلى في عام[1] خمسة وأربعين وخمس [306] مائة لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس، واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين وثوارها الأندلسيين، على ما تقدم الذكر به في[2] هذا التاريخ، أمرَ ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا، وأقام بمحَلّاته المؤدية على عين غبولة[3]، والفعلة معه والمهندِسُون، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سَرب تحت[4] الأرض حتى إلى قصبة المهدية المذكورة، ودام اشتغال الأمر بذلك شهوراً وهو مقيمٌ بعسكره حتى وصل الماء المذكور إليها، فصنع له سقاية[5] لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات المغروسات، ثم اتصل الأمر العزيز بسكناها بالناس وبناء الديار

= لحفيده، وقد ورد في ترجمته هذا الحفيد أنه وجّاد ابن أحمد بن أحمد بن وجّاد الأزدي من أهل اشبيلية ويكنى أبا الحسن، وقد سمع من أبي عبد الله الفخار وغيره، وكان أديباً له حظ من قرض الشعر، وسَمّاه أبو الربيع بن سالم في مشيخته وهو في عداد أصحابه، وقد ترجم له أيضاً ابن الزبير في صلة الصلة.

ابن الأبار: التكملة: نشر كوديرا رقم 836 - ورقم 1991 - ونشر جونثاليث رقم 2733. ابن الزبير: صلة الصلة نشر بروفنصال الرباط 1938 رقم 335.

(1) البيذق ص 113 - القرطاس ثاني ص 145 — 146

(2) يعني في السفر الأول، وقد خذلنا ابن عذاري هنا فلم يردد صدى هذه الأخبار...

(3) أنظر التعليق رقم 1 ص 151. استقصاء 2. ص 198، القرطاس I. ص 162.

(4) امتاز المهندسون المغاربة بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية مدققة، وأن الذي يطالع ما ورد هنا أو ما يرد عندما تقرر إجراء الماء لسقي البحيرة بداخل اشبيلية. وكذا ما ورد في كتاب الاستبصار، عندما أمر الخليفة أبو يعقوب سنة 580 بجلب الماء إلى مدينة سبتة من قرية بليونش، وكذا ما ورد في القرطاس عندما تقرر جلب الماء لميضاة جامع القرويين من مدينة فاس، أواخر القرن السادس ليشهد بما لهؤلاء العرفاء المغاربة من باع في هذا الصدد.

الاستبصار نشر زغلول صفحة 137 - 138، كتاب المن بالإمامة صفحة 323 القرطاس طبعة الرباط صفحة 99 - 100 - 101.

(5) ما تزال إلى الآن آثار السقايا التي يتحدث عنها ابن صاحب الصلاة.

حواليها والأسواق، ولم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها بالاختصاص فيها والمقام، حتى غدت عراقا[1]! وتلاحق الناس بها لحاقاً، وأشرقت الآمال فيها إشراقاً، وأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا هو الذي مصَّرها ومهدها، وابتدأ بناءَ أسوارها من جهة الجوف والغرب.

فلنرجع الآن إلى ما كان من الأوامر العزيزة بعد الوصول إلى المهدية. ولما كان في ظهر يوم وصوله أمر بتتميم الصلاة إشعاراً بأن الإقامة[2] أياماً، [307] وفي اليوم الثاني من وصوله أمر بتمييز العساكر المؤيدة مرةً ثانية من التمييز الأول بحضرة مراكش وحضر على تمييز العرب السيد أبو زكريا، وأبو محمد عبد الله المالقي، لمعرفته بهم وبأنسابهم وأمانته، وسياسته وزكاته، فكمل تميُّزهم على أصح عمل، وكذلك تَميَّزَ الموحدون، فصح عددهم. وعند احتلاله بها ألفى الماء الجاري المسرب الذي جلبه أبوه رضي الله عنه في عام خمسة وأربعين المؤرخ، فسد جريه، وأسن ماؤه، وتعطَّل في البطاح والبحاير سقيه، فأمر بإعادته[3] إلى حالته الأولى، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجتمع فيه الماء، ثم يجري من ذلك الصهريج إلى السقاية المذكورة

(1) أصل كلمة عراق أيراه أي ساحل البحر، وقد عربته العرب، ولذا قال الخليل: العراق شاطيء البحر، وسمي كذلك لوقوعه على شاطيء دجلة، وقد ورد ذكره مقروناً بفهوم الثروة والرخاء:

(فتُغلل لكُم ما لا تُغلّ لأهلها قُرىً بالعراق من قفيز ودرهم)

هذا وقد جاء في ابن خلكان أن بناء الرباط على هيئة الاسكندرية، وهم كانوا يعنون دون شك أن تصبح إحدى عواصم الإسلام في الجناح الغربي، ولم يفت البروفيسور طيراس أن يتساءل عن وجود إسم الاسكندرية هنا دون وجود اسم بغداد أو دمشق؟ وأنت ترى هنا أن ابن صاحب الصلاة ظهر له أن يشبهها بالعراق أي ببغداد عاصمة العراق، لوقوعها على شاطيء وادي أبي رقراق ولما كان للعراق من مكانة...

المعجب صفحة 266. Terrasse: L'Art Hispoano — mauresque.

جاسم الخلف: جغرافية العراق صفحة 434.

(2) يظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ: (تطول) أو (تمتد).

(3) من هنا يتأكد أن المنصور - ولو أن أباه صاحب الرباط - يعيد للمهدية حياتها ويجعل منها مدينة حقيقية. ابن القاضي، الجذوة ص 349.

حيث شرب خيل العساكر ومواشيهم ومواشي الناس وشربهم، وكذلك ألفى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه رضي الله عنه ما بين سلا وبين المهدية المذكورة على البحر[1] لإجازة الناس عليه، قد خرّقته البحور، وهدمته الدهور، فأمر بنصب[2] جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء، وأساساً واعتلاء، من الحجر العادي والجيار الثابت لأمواج البحار، فصنع في أقرب مدة، بأعظم آلة وعدة، ووصله بالقوارب[3] والخشب، حتى جاء في أمن له من الأزمان والحقب، ثم تمّم رضي الله عنه إعطاء الكسوات للموحدين والأشياخ من كل قبيل ولطلبة الحضر والعرب، بأن أعطى كل واحد [308] ستة أثواب: عمامة وغفارة، وقبطية مبطنة، ومقطعين مهدويين[4] وكِساء، وخص كثيراً منهم بأخبية

(1) يُسمى بعض المؤرخين الوادي الذي يفصل بين سلا والرباط بحراً كما تسميه بذلك العامة الآن، وذلك على سبيل التجوز بيد أن فيهم من أعطاه اسماً خاصاً، لكنهم كانوا يختلفون في الاسم فبينما نجده عند البكري وادي وانسيفن نجده عند الإدريسي والفزازي يحمل وادي أسمير، ونجده عند المراكشي يحمل اسم وادي الرمان. ونجده عند ابن حوقل يسمى بوادي سلا وعند ابن عذاري (بحر سلا)، وسمعنا بتسميته بوركراك عند ليون الأفريقي والنّاصري كذلك، وقد حاولت أن أجد أصلاً لهذا الاسم الطاريء ويمكن أن يكون الوادي منسوباً إلى قبة لاله ركراكة التي توجد بأطلال مدينة شالة المشرفة على الوادي وقد أشار بعض الأدباء المغاربة إلى أن أصل التسمية من رقرقة الماء وصفائه. ولا ننسى أن نذكر أن صاحب الاستبصار يجعل وادي وانسيفن هو أم ربيع، كما لا ننسى أن نذكر أنه توجد قرب مدينة سلا إلى الآن عين تحمل اسم أسمير وهي تصب في بوركراك. هذا وإن وادي بورقراق ينحدر من الأطلس المتوسط ويصب في المحيط بين سلا والرباط وطوله 250 ك. م.
الإدريسي ـ نزهة المشتاق ابتداء من صفحة 7 ـ الاستبصار 141 ـ 185 ـ المراكشي ص 358 ـ التاصري، الاستبصار جزء 6 ص 12 ـ ابن عذاري ص 26.
Leon l'Africain: Description de l'Afrique Traduits par A. EPAULARD — page 543.
BASSET — Provençal: challa, Hes. 1922 T. II. P. 415.
(2) لعل هذا الجسر هو الذي كان يبتديء عند منحدر سيدي مخلوف، وقد أدرك القاضي السائح طرفاً منه ضارباً في الوادي قبل أن يقوض لتوسعة ساحل النهر. الغصن المهصور مخطوط ورقة 16.
(3) يذكر صاحب الاستبصار صفحة 141 أن القنطرة مركبة من 23 معدية.
(4) لم أتأكد من صفة المقطع المهدوي، بيد أن أغلب ظني إنه يعني بالمقطع القميص، فإن هذه الأنواع من الثياب كلها كما نرى تكون ـ عادة ـ فوق الثوب الذي يلي الجسد وهو القميص.

وخيل عتاق، إحساناً وإنعاماً وامتناناً، وتمم قضاء حوائج الناس ومسائلهم، وتصدّق على الضعفاء المأسورين. فلقد رأيت[1] شيخاً من بني الموصلي من أهل بطليوس رأسه كالنعامة بياضاً، قد تعرض له في هذه الغزوة السعيدة في طريقه وقال له: إنه أسر يوم دخول النصارى مدينة بطليوس وأن له ثلاث بنات، ليس له إليهن حيلة بما يسترهن! فأمر له بمائتي دينار في فديته، وبثلاث مائة مثقال عن جهاز لبناته! ولما كمل النّظر المذكور، والفضل المأثور، أمر بالحركة وعبور البحر على الجسر إلى سلى، إلى الغزوة الميممة، وذلك في عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان المبارك من سنة ست وستين المؤرخة، ولمّا كان صبيحة يوم السبت ـ الثاني من يوم الجمعة والعاشر من شعبان المؤرخ ـ تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين أعزهم الله وأجازوا، ثم تلاهم السيد أبو زكريا بالعرب، ودام هذا الجواز خمسة أيام، ثم تحرك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من المهدية يوم الخميس الخامس عَشَر من شعبان المؤرخ، وأجاز بالجميع الباقي: بالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر، ووزيره، وبني الجماعة، [309] والحفّاظ والطلبة من أهل الحضر والعبيد على ما تقدَّم من ترتيب المشي والحركة، ونزل بالموضع المعروف بالحمَّام[2] على مقربةٍ من وادي سبو بالمعمورة، فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس. وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس، دون المتطوعة من الناس والمجاهدين. وقد كان تقدم مع السيد الأعلى، المجاهد الأسنى، أبي حفص، وقبل ذلك مع الشيخ المرحوم أبي حفص أيضاً ـ من العساكر ما قد ذكرتهم، فاجتمع في الأندلس من العساكر عددٌ عظيم، وظهر بهم الفتح الجسيم، واتصل سير أمير المؤمنين

(1) الموصلي نسبة إلى موصل قرية بأشبونة، وإليها ينسب عبيد الله بن خليفة الذي ولي قضاء اشبيلية على عهد اللمتونيين. . . ونعتقد أن للشيخ هنا صلة بابن الموصلي القاضي. .
ابن الأبار التكملة «كوديرا» رقم 1511.
(2) الحمّام بتشديد الميم (EL — Hamâm) هو المكان المعروف بهذا الإسم إلى الآن على بعد أحد عشر كيلومتراً جنوب شرقي (مدينة القنيطرة). Huici page 249.

حتَّى إلى البحر بقصر مصمودة[1]، وابتدأت العساكر بالإجازة من أول شهر رمضان من السنة المؤرخة، وأجاز البحر هو مع خاصته في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم المذكور، وتلقاه أشياخ أهل إشبيلية وقرطبة وجميع أشياخ الأندلس بجزيرة طريف[2]، ثم تحرك رضي الله عنه بالوصول إلى حضرة إشبيلية، فدخلها يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بعد صلاة الجمعة من سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة، على مثل ما ذكرته من التبريز الحفيل، وخروج الناس إليه للتبرك به بالإسراع والتعجيل، بما دلَّ على طاعتهم له وسرورهم به أدل دليل، وأقام فيها عشرة أيام، ثم رحل إلى قرطبة في الثالث [310] والعشرين من شوال، ووصل قرطبة في غرة ذي القعدة، ووجه عسكراً مباركاً منها إلى طليطلة قدم عليه أبا محمد عبد الله بن أبي حفْص بن تفريجين، وأشياخاً من الموحدين، فأجاز وادي تاجه[3]، وغنم بطاحها وما حواليها وانصرف إلى قرطبة سالماً غانماً، واستقر العسكر بقرطبة في داخلها وفي خارجها على ضفتي الوادي مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بِهَا إلى آخر ذي الحجة من سنة ست وستين حين انصرافه إلى إشبيلية، ولم ينزل بإشبيلية من دُورها إلا نحو ستين داراً لأشياخ الموحدين خاصَّة، واشترى فيها مائة دار من مال نفسه لمَن وفد إليه، رفقاً منه بأهل إشبيلية رضِيَ الله عنه، وقسَّم الموحدين على البلاد وعلى الأنظار بالسكنى مدة إقامته بجزيرة الأندلس إلى أن انصرف عنها.

(1)أنظر التعليق رقم 1 صفحة 128.
(2)أنظر التعليق رقم 3 ص 218.
(3)وادي تاجة (Tajo) أحد الأنهار الأربعة التي تنحدر في المحيط: مينيو- ديرُو- يانة وهو ينبع من الجبل الذي يقع شمال شرقي قونْكة ويصب عند مدينة لشبونة وقد ورد في الروض المعطار عند وصفه أنه نهر عظيم يشق طليطلة، وأنه يخرج من بلاد الجلالقة ويصب في البحر الرومي. الحميري ص 62.

ذكر أوامره العزيزة عند احتلاله إشبيلية ووصوله من مراكش إليها

وعندما احتل بها أخَّر محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم[1] عن أعمال المخزن بإشبيلية والأندلس وعزله عنها، وأمره بالمشي إلى قرطبة لمحاسبته والوقوف على عمله، وقدَّم على أعمال إشبيلية أبا داود يلول بن[2] جلداسن، وهذا التأخير له [311] والعزل لنقد في أفعاله وأعماله منذ أعوام، لم يزل يتكرر عليه الفكر فيه، إلى أن أدى به إلى مقتله وميتته حسبما أذكره في هذا التاريخ[3] بعد هذا، وعندما وصل إلى قرطبة جُعل لمحاسبته أبو القاسم بن عساكر[4]، وأبو عبدالله بن محسن[5] كاتب العسكرية، وأُمِر بالحضور على تسطير عمله الفقيه أبو محمد المالقي والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز[6] يشهدان على كل ما يسطره، دام ذلك إلى آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة عند انفصال أمير المؤمنين من قرطبة إلى إشبيلية، ولما دخل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى إشبيلية على الهيئة الحافلة من السرور والتبريز العظيم الكريم، الذي لم يرَ الناس مثله في الأندلس في الحديث ولا في القديم، قال الأستاذ ابن سيد[7] يمدحه ويهنئه

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 142.
(2) راجع التعليق 1 ص 142.
(3)يعني في السفر الثالث وقد أفادنا هنا ابن عذاري نقلاً عن السفر الضائع أن ابن المعلم هذا انتقدت عليه أخبار شنيعة فأمر بسجنه وأخذ ما بيده فلم يبق له سبد ولا لبد وتفرقت جميع أمواله شذراً بذراً وضربت بعد محنة طويلة عنقه سنة وثلاث وسبعين وخمس مائة. راجع التعليق رقم 2 ص 142.
(4)راجع التعليق رقم 3 صفحة 138.
(5)ورد نعته أحياناً بكاتب ديوان التمييز. أنظر التعليق رقم 2 ص 347.
(6)لم نقف على الترجمة لهذا الكاتب في معاجم الأدباء الموحدين التي بين أيدينا.
(7)يذكر ابن صاحب الصلاة هنا (ابن سيد) دون أن يميز هل ما إذا كان يعني ابن سيد المالقي أو ابن سيد الأشبيلي لكنا - وقد عرفنا أن الأول توفي بعد سنة 560 بيسير، وأن الثاني لم يتوف إلا سنة 576 نرجح أنه قصد إلى ابن سيد الأشبيلي المعروف باللص. هذا وقد كان في من تحدَّث من الشعراء بهذه المناسبة الشاعر أبو العباس الجراوي الذي قال في إحدى قصائده يشير إلى الطوائف المتمردة:

تَـنَـالُ المـارِ قـين بـكـلِّ أرْضٍ   ولا طَـارَتْ ولا نـقـلـت خُـطَاهَـا =

ويذكر حال ابن مردنيش، ويصف بروز الناس إليه يوم وصوله: (كامل)

السَّعْدُ يقدُم والعزائمُ تصدُقُ — والنَّصْرُ بينهما يخبُّ ويعْنَق
وأمامَها ملكٌ أغرٌّ يحفُّهُ — جَيْشٌ تغصُّ به البلاد وتشْرقُ
مَلأَ البسيطةَ مِنْهُ بحْرٌ زاخِرٌ — في لجَّتَيْهِ كلُّ بحْرٍ يغْرَق
وجلا رياضاً للنَّواظِرِ أطْلَعَتْ — فيها الدِّمَاءُ أزاهراً لا تَعْبَق
راع المَمَالِك فاتَّقَتْ بمُلُوكِهَا — حتَّى كأنَّ بها حُبَالى تُطْلِق
[312] جُنَّ ابنُ سَعْدٍ[1] بالنفاقِ جنونُه — وطغى إلى أنْ بات فيه الأوْلَق[2]
نُظِمت له جرد العتاقِ تَمائماً — لَيْسَتْ على أهْل الجُنُون تُعَلَّق
فقَضَى حَصِيراً[3] إذْ تَيَقَّن أنَّهُ — إمَّا قَتِيلٌ أو أسِيرٌ مُوثَقُ
غُر الشَّقى بنأيكُم عن أرْضِهِ — جَهْلاً وظنَّ بأنَّهُ لا يُلْحَقُ
أوَما رأى شَمْسَ الضُّحَى في جوِّها — والمغرب الأقْصَى لها والمَشْرق
وإلى الذُّنوب فأوبقته كَثْرَةً — إن الذُّنوبَ إذا توالتْ تُوبِقُ
ولعَلَّه قَدْ كان يعتِقُ رقَّهُ[4] — مَلِكٌ إذا مَلَكَ البريَّةَ يُعْتِقُ
مَلِكٌ أفاضَ عَلى الجَزيرةِ رحمةً — أحْيَا الرجاءَ بِها حَياةَ المُغْرِقُ

ويقول في قصيدةٍ أخرى همزية:

لَوْ كانتِ الجوزاءُ من أعْدَائِهِ — لم تنجُ عْن غارَاتِهِ الجَوْزَاءُ

وعلى عادة ابن صاحب الصلاة فإنَّه لم يأبه بشعر الجراوي الذي ـ لولا صاحب البيان المغرب ـ لظلَّ في عداد المفقودات.

راجع التعليق رقم 1 صفحة 76 والتعليق رقم 1 صفحة 99 والتعليق رقم 3 صفحة 298 ابن عذاري: البيان المغرب (مخطوط) ص 83 ـ 84.

(1) يعني سعد ابن مردنيش، وفيه يقول الجراوي أيضاً بهذه المناسبة من قصيدة مرت الإشارة إليها:
خطوبٌ أذْ هلتْ عقلَ ابن سَعْدٍ — وزادتْ عن لواحِظه كراها!

(2) الأولق: المس من الجنون أي لدرجة أنه أمسى متلبساً بالجُنون! هكذا يظهر لي.

(3) من معاني الحصير السجين، ولا يبعد أن يكون الناسخ أبدل السين بالصاد كما فعل بالفسيح حيث جعله فصيحاً. أنظر التعليق رقم 3 صفحة 355.

(4) لم نهتد لصلة البيت هذا بالبيت قبله ولعل هنا بتراً لبيت رابط.

وَافَى لِيَرْتَقَ فَتْقَهَا لَمَّا رَأى — أنْ لا سِواهُ يَسدُّه أو يُرتَق
ولقَدْ تيقَّنَ أن سَتُفْتَح فارِسٌ — بجُنُودِه قَسْراً وتُفْتَح جلَّقُ[1]
وَلِيَ الخِلافَةَ فاستَقَلَّ بعِبْئِها — ولقَد تُهَدُّ بِهَا الحلالُ وتقْلَقُ
حسُنتْ وضاعَفَ حُسْنَها فكأنَّه — تاجٌ مُحَلًّى وهْيَ فِيه مَفْرِقُ
ما زالتِ الأيامُ خُرْساً قَبْلَهُ — فَرَجَعْنَ فُصْحاً عَنْ عُلاه تنطِق
مَنْ لِلمُلوكِ بأنْ يَنالُوا شَأوَهُ — وَلَهُمْ إذا جاروه باعٌ ضَيِّقُ
إن كانَ قصَّر كلُّ مَلْكٍ دونَه — فالرُّخُ قَصَّرَ عَنْ مَداه البَيْذَق[2]
عَمَّ البريةَ رِفْقُه فكأنَّه — لَهُمُ أبٌ حانٍ أو ابنٌ مُشْفِقُ
يُعْطِي الجزيلَ ووجهُه متهلِّلٌ — وكَذَا السَّحابُ إذا تبجَّسَ يُغرِق
أبداً يسحُّ بما تسحُّ بنانُه — ويُمِرُّها فوْقَ الهشيم فَيُورِقُ
كَرَمٌ يزيدُ ذُو الغِنَى فيهِ غنى — أبداً ويثْري إن عَرَاه المُمْلِقُ
[313] شَقِي العِدى منه ببَطْشَةِ محنَقٍ — عَجَباً وَهَل ينتابُه ما يُحْنِق؟
وَافَى فردٌ عَلى الزَّمان شَبابُهُ — وكَسا بِلاه جِدَّةً لا تَخلق
وجَلا مَراءِ الدَّهْر من صَدَإٍ بِهَا — فأعِيدَ فيها ماؤُها والرَّوْنَق!

(1) لفظة أعجمية اسم لدمشق، وقيل اسم لموضع بقرية من قراها... قال حسان بن ثابت الأنصاري:
لله در عصابة نادمتهم — يوماً بِجِلّق في الزَّمان الأول!

هذا وقد كان الموحدون ـ كما يتأكد من خلال آثارهم ـ يتوقون لأبعد من الرقعة التي عرفت لهم، فقد كان هؤلاء المغاربة يطمحون إلى (وحدة إسلامية) تربط بين سائر أجزاء العالم الإسلامي. وترى الشعراء ـ وهم لسان حال الدولة ـ يتحدَّثون عن فتح فارس ودمشق، أو عن المشرق والمغرب.
الدكتور أحمد مختار العبادي، الموحدون والوحدة الإسلامية، مجلة التربية الوطنية ـ مارس 1692 ص 16 ـ 22 ـ عدد ابريل ص 21 لـ 31 ـ راجع أشعار ص 9 و 13 من المن بالإمامة وص 118 من ابن عذاري.

(2) يعتبر الرخ في اصطلاح أهل الشطرنج برجاً من الأبراج وهو يتحرك أماماً وخلفاً بينما يعتبر البيذق جندياً يقتصر اتجاهه على الأمام.

أَوَ مـا تَـرَى الأَيَّـامَ تَـنْـدَى نَـضْـرَةً
مُـذْ حَـلَّ حِـمْـصـاً(1) والـلـيـالـي تُـشْـرِقُ!

وقَفُـوا على سُوقٍ لـرؤيـةِ وَجْهِـهِ — وبـودِّهِـمْ أَنَّ الـرؤوس الأَسْـوُقُ!
رمَقُـوا بـأبصـارٍ إِلَيْـه، وعِنْـدَهُ — أَنَّ الـقُـلُوبَ لَـهَـا عـيـونٌ تَـرْمُـقُ
بَـرزُوا لِيَوْمِ بُـرُوزِه فِيُ عـارِضٍ — يَعْيَى اللِّسـانُ لـوصْفِـه والمنـطِقُ
مِنْ كُلِّ ذِمْرٍ كـل مـا حَضَـر الـوَغى — بسَلَتْ(2) بـه حـوْمـاتُهـا والمَـأزِقُ
يسْعى إلى المَـوْت الـزُّؤام، ووجهُـهُ — طَلْقٌ وفـي دِرْعَيْـه أَفْعَـى مُـطْرِقُ
ولَـطالَمـا تَهْـدي الـدِّمَـاءُ لأَنْفِـهِ — زهـرَ الـرَّبيـع فمـا يَنِي يَسْتَنْشِقُ
[...]ـتْ بعَـزْمَتِـهِ فـلاةٌ وحْشَـةٌ — ومـطّهـم نَـهْـدٌ وعَنْسٌ خَيْـفَقُ

حضور أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (رض) عيد الأضحى بمدينة قرطبة وعسكره معه

ولما كان صبيحة يوم العيد خرج على عـادته من الـوقار والسكينة إلى الصلاة بموضع الشريعة(3)، وصلّى الخطيب أبـو محمد المـالقي به، وخـطب الخطبة المعلومة، ثم دعا أميـر المؤمنين للنس بـدعائه المبارك، وسلم عليه أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم، وذبح [314] الكبش بين [...]، وانصرف إلى دار الإمارة بقـرطبـة، وانصرفت العسـاكر والنـاس إلى [...]ـهم لترتيب عيدهم على مجرى السنة بانصرافه. وجلس في اليـوم الثاني من عيد الأضحى المذكـور عند الشـروق في مجلس اليمن من قصره بقـرطبة مجلس السلام عليه والتهنئة إليه في أبهته الشريفة، المنصورة الفخمة المنيفة. وأدخل الوزير أبو العلى إدريس بن أبي إسحاق بن جامـع إلى المجلس العالي

(1) حمص: اشبيلية.
(2) يـوجد في الأصـل غمـوض عنـد قراءة هـذه الكلمة إذْ أنها كتبت هكـذا (سات) لكن الـظاهـر أن الصواب (بسلت).
(3) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 214.

مَن تقدمت عادته بالدخول من أشياخ الموحـدين الكبراء وأبنـاء الجماعـة ومن يليهم على عادتهم بحسب منازلهم، وطلبة الحضر والفقهـاء والقضاة والكتـاب والأولياء وأهل الوفود ووجوه أهل قرطبة من ذوي الطلبة والتعين من أرباضهم، وسلم جميعهم واحـد بعد واحـد يعرّف بـاسمه، وإن كـان ممن يتميـز يعـرّف الـوزير والفقيـه أبو محمـد المالقي بـاسمه ونسبه وبلده، ويبـايـع ويقبِّل اليـد المباركة للبيعة له ويخرج.

ودخـل معهم الشعراء والأدبـاء بما صـاغـوه من أشعـارهم في المـديح والتهنئة. فقـام عبـدالله بن الشيخ الشـاعـر محمـد بن إبراهيم بن المنخـل الشلبي(1) منشداً هـذه القصيـدة والـوزيـر أبـو العلى واقف، والكـاتب أبـو الحسن بن عياش كذلك يحسن أبياتها؛ وقال: (كامل)

شَـرَفُ الخِـلافَـة أَنْ ملكتَ زِمـامَهَـا — وغَـدَوْتَ مِنْ عقب الإمام أمـامهـا!
وافَـتْـكَ تَبْـتَـدِر (وا)(2) الـرضـى إِذْ رُمْـتَـهَـا — ولَـشَـدَّ مَـا امْـتَـنَـعَـت عَـلى مَـنْ رَامَـهَـا!
[315] طَـبَـعَ الإلاهُ لَـهَـا حُـسَـامـاً صَـارِمـاً — يَـحْـمِـي جَـوَانِـبَـهـا فكُـنْـتَ حُـسَـامَـهَـا
ورأتْ عُـداةُ الله أَنَّ حِـمَـامَـهَـا — مِنْ قَيْسِ غيـلانٍ(3) فكنتَ حِمَـامَهـا
فعَلى رمـاحِـك أن تشُقَّ جُيُـوبَهَـا — وعَلى سُيُـوفِـك أَنْ تُفَلِّقَ هَـامَهَـا

(1) يكنيه ابن عذاري أبا محمد، ويتفق معه ابن صاحب الصلاة في أنَّ أباه هو محمد، وقد ترجم ابن الأبار لشاعر قد تكون له صلةٌ بهـذا: فهو أبو محمد عبد الله من أهل شلب صحب أبا بكر بن المنخل وأبا عمر بن حربـون، وكان أديبـاً نبيهاً من أهل الذكـاء والتَّيقظ يقرض أبيـاتاً من الشعـر. التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1427.
(2) كذا في الأصل وواضح أن زيادة الواو في غير محلها.
(3) يجعل الناسخ هنا نقطة واضحة فوق العين في أصل المخطوط ولم نكن لنعير هذا الصنيع التفاتا لولا ما وجدناه في البيان المغرب من نصه على ضبطه (بالغين المعجمة) مما يدعو إلى الشك في الناسخ. أنظر صفحة 35 من مخطوط ابن عذاري، أنظر التعليق رقم 2 صفحة 300 ـ البيذق 22 ـ لسان العرب ...

وعلى جُيُوشِك أَنْ تُـدَوّخ أرضَهَا   وتـدُوس في عرصاتها أصْنامَهَا
وَعلى الخِلافَةِ أن تَلُوذَ بسَيِّدٍ   يُجْرِي على سُبُل الهُدى أحْكامَها
ملكٌ يجيرُ على الزَّمانِ، فإن تُضِم   حرّاً بواديه اللّيالي، ضَامَهَا!
قسْطاسُ عَدْلٍ لا يَمِيلُ، فإنْ رَأى   مَيْلَ الشَّريعة أمَّها فأقامَهَا
يُطْفِي الحُروبَ إذَا توهَّجَ جمْرُهَا   ولرُبَّمَا خَمَدتْ فشبّ ضِرامُها
وإذا أُسُودُ الحَرْب هَاجَ عُرامُهَا   عَانَى بحَدِّ المَشْرَفي عُرامَهَا
وإذَا المَخَايِلُ أخْلَقَتْ أنْوَاؤهَا   أجْرَى عوارفَه فكنَّ غُمامَهَا
وإذَا بُرُوق المُزْن لُحْنَ كواذِباً   صَدَقَتْ بُرُوقُ نَوالِه مَن شَامَها
مَا الجُودُ إلَّا ما تُفيض بَنَانه   لا مَا تفيض العُرْب فيه سهامَها
ما البَأسُ إلا ما تضمَّن سَيْفُه   لا يضمن[1] بعضَها صمصامَها
ما الرِّجْزُ إلا ما يجرُّ خلافُه   ليْسَ الذي وسمتْ بِه أيامَهَا
ما السَّعْدُ إلا ما ينالُ وفُودُه   وذَرِ السُّعُودَ فقد عَزت خُدَّامَها
تَنْهَلُّ بِالآلاءَ منْهُ راحَة   لا يَنْزِفُونَ على السؤال جِمَامِها
طلْقٌ إذَا برقتْ أسِرَّةُ وجْهِهِ   شِمْتَ الأزاهِرَ والحياءَ كمامها
طلْقٌ كما اخْتار النَّدى، وبَسَالةٌ   تركتْ لهَا أسْدُ الشرى آجامَها!
حَاز المكارم قنيةً ووراثَةً   ورأى المحامدَ حليةً فاعْتامَها
[316] للهِ رعيُك في رعايةِ أمَّةٍ   ذَعَرتْ دِياتُ[2] المشركينَ سَوامَها
أسكنتَها أرْسَى محلٍّ بَعْدَمَا   كادتْ تقوّضُ للجلاءِ خِيَامَهَا!
لمَّا رأيتَ الدِّينَ أظلمَ جَوُّهُ   والحربَ قَدْ سَدَلَتْ عَلَيْه قَتَامَها
أقبلتَها شُعْثَ النَّواصِي شُزَّباً   جُرْداً تُبَاري فِي الفَلاَةِ سَمَامَها[3]
مِنْ كلِّ مُشْرِفة التَّلِيل[4]، كأنَّمَا   عَقَدُوا بِبَاسِقَةِ النَّخِيل لجَامَهَا

(1) كذا في الأصل ويظهر أن هنا كلمة (ما) محذوفة أي (لا ما يضمن بعضها صمصامها) وقد روى البيت في ابن عذاري بصورة مشبوهة. أنظر صفحة 183 من المخطوط.

(2) يعني أن العاهل لكثر ما يبذل من ديات للمشركين ـ إعزازاً لرعيته ـ فإن السوام ـ والديات كثيرة ـ يتملكها الفزع... لأن على حساب حياتها يكون الأداء...

(3) أقبلتها: جعلتها تلي قبالتك، والسمام: ضَرْبٌ من الطير دون القطا في الخلقة.

(4) التليل: العنق، يعني طويلة العنق.

وأغَرَّ وضَّاح الحجول مطهَّمٍ   يجْلُو إذا خاضَ الغمارَ ظَلاَمَهَا
تَسْري بخَيْر عِصَابة قَيْسِيةٍ   تَسْري الفُتُوح مشيحةً قدَّامَها
هُنَّ القِسِيّ ضَوَامراً فإذَا رَمى   عَنْ نَزْعِها الأعْدَاءَ كنَّ سِهَامَهَا
يَلقى العداة الرعبُ دُونَ لِقائِها   فيزلُّ قَبْلَ قِتالِها أقْدَامُها
قلَّدْتُمُ مِنْهَا الأهَاضِب حِلْيَةً   كادَتْ تُغَالِطُ فِي الفُرُوع حَمامَهَا
هي نِعْمَةٌ لا تستقِلُّ بشُكْرِهَا   إلا لسَانٌ ألهِمتْ إلهَامَهَا
فإذَا تَمَطَّى بالقَرِيحةِ وصْفُهَا   فضَحَ التَّمطِّي نَثْرَها ونِظَامَهَا
فَاهْنأ أمِيرَ المُؤمِنين بدَوْلَةٍ   عَقَدَ الإلاهُ ذِمَامَكُم وذمامَها
ورمَتْ برمَّتِها إلَيْكَ، وإنَّمَا   شَرَفُ الكَرائم أن تخُصَّ كِرامَهَا
فلرُبَّ نَابِيةِ السَّنَام منيعةٍ   ذلَّلْتَها حتَّى وطيتَ سِنَامَهَا
ومنِيعَةٍ صعُبَتْ وعزَّ مرامُها   سهَّلْتَ بالبِيضِ الرِّقاقِ مَرامَهَا
قُلْ لِلأقَاصِرَةِ الَّذِين تَمَرَّدُوا   وَافَى مُشم المَاردين رغامَهَا
أخذ الشعابَ على الشُّعوب فإن عَدت   سُبُلَ الهُدَى سدَّ الشعاب أمامَهَا
وأرَى الشَّقيَّ بن الشقيِّ تغُرُّه   فِئةٌ أضَلَّ ضلالُها إسْلاَمَهَا
[317] لَيْسَ ابنُ سَعْدٍ حلفَ سَعْدٍ إذْ غَدَا
حلفَ النّصارى عاضداً أحْكامَها
فلسَوفَ يُصْبِحُ بالفَضَاء مُجَدَّلاً   إنْ لم تُطَهّر نفسُه آثامَهَا
ويمدُّ للتَّوْحِيد كفَّ ضَرَاعةٍ   بعتَابِ نَفْسٍ رَاحضاً[1] أجْرامَها
أنَّى يفوتُك خَائنٌ ولو اعْتلى   دَارَ المجرَّةِ[2] وارْتقَى أعْلامَها
هَيْهَاتِ يُفلِت عزمَكم ولو امْتطى   زُهْرَ الكواكبِ واحْتذَى بَهْرامَها[3]
وإلَيْكُم وفدَ العَبِيدِ تَسُوقُهم   هِمَمٌ شفِيتُم هِيمَها وهُيامَها
يتقدَّمُون مَحَبَّة وتَعُوقُهُم   فِتَنٌ تَعُوقُ عَنِ الجُفون منامَها

(1) رحض الثوب: غسله، ومنه المرحاض.

(2) منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء.

(3) البهرام اسم المريخ، وإياه عنى حبيب بن أوس:

لَهُ كبرياء المُشْتَري وسعودِه   وسورةُ بهرام وظرْف عطارد

وتَمَلَّوُا الأزْمَانَ أعياداً كَمَا   حلِّيتُم بسَنِائِكُم أيَّامَهَا
وتقبَّلُوا قَصْدَ العَبِيدِ فقصدُكُم   عَمَلٌ يُطابق هَدْيَها وطعَامَهَا
وتكفَّلَ الرَّحْمنُ نصرةَ مُلكِكم   وأمدَّ مدَّةَ عُمْركم وأدامها

سنة سبع وستين وخمس مائة

انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين من قرطبة إلى إشبيلية واستيطانه فيها وذكر أوامر العزيزة في مصالحها ونواحيها

وأنه لما صح عنده أن أخاه السيد الأعلى المؤيد المجاهد الأسنى أبا حفص قد أخذ في الانصراف من غزوته، ومن حصار ابن مردنيش في مرسية واستيلائه على أكثر بلاده، وأن انصرافه إنما هو للتبرك بالاجتماع وللمذاكرة فيما فتح الله في غزوته من البلاد [318] والأسقاع، واستعجل هو بالانصراف فدخلها يوم الأحد الثاني من شهر المحرم من أول السنة المؤرخة، وقد كان أمره الكريم نفذ بعمل القنطرة[1] على الوادي[2] لمصالح الناس وإجازة العساكر عليها ومرافق أهل إشبيلية وأهل الشرف[3] والأنظار، فابتدأ العرفاء والصناع العمل فيها والنجارة والهندسة لوضعها على الوادي يوم السبت أول يوم من المحرم سنة سبع وستين المؤرخة - أمْس وصول سيدنا أمير المؤمنين - فاتصل العمل فيها وزاد بحضوره الاجتهاد، والنصح والاقتصاد، فكملت في اليوم السابع من صفر من سنة سبع وستين المؤرخة وحضر أمير المؤمنين يوم كمالها حتى عُقد الجسر منها ووضع على الوادي وكان يوماً حفيلاً من قرع

(1) أورد الأستاذ ميلتشور أنطونيا وصفاً دقيقاً لهذه القنطرة مأخوذة من كتاب تاريخ اشبيلية للمؤرخ المسيحي مورجادو و(ص 29) وهو وصف يتفق تماماً مع ما سيذكره ابن صاحب الصلاة وقد تحدثت عن هذه القنطرة (حوليات تاريخ اسبانيا) التي أمر بتأليفها الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (ص 760 - 762).

Melchor Antona: Sevilla y sus monumentos arabes. 1930 p. 61 — 83.

(2) هو وادي اشبيلية (Guadalquivir) راجع التعليق رقم 2 ص 165.

(3) أنظر التعليق رقم 5 صفحة 67.

الطبول، وكمال ما أمر فيها من المأمول، من حضور الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وفي الخامس عشر من المحرم من هذه السنة كان وصُول السيد الأعلى المؤيد أبي حَفْص بن الخليفة أمير المؤمنين من غزوته من مرسية إلى إشبيلية بجميع عساكره، وتلقاه أخوه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عن جميعهم على ميلين من إشبيلية بتبريز عظيم، وسُرُورٍ جسِيم ودخلوا إشبيلية خير دخول، وحلوا بها أسعد حلول، وانفردا في السلام والكلام والرأي أياماً، واتفقا على الخير الذي نظم الأمر العزيز نظاماً، [319] وأسكنا بالتّصافي بينهما الأرواح والأجساما[1]، وعزما أن يكون أمرهما في النظر لحماية جزيرة الأندلس الإسراج والإلجاما. فأول ما نظروا فيه تعجيل ميرة كبيرة إلى بطليوس من القمح والشعير والآلات المعينات والأقوات المقتوتات على أربعة آلاف بغل إليها في صحبة عسكر مبارك من الموحدين أنجدهم الله، والعرب يسيرون بالميرة والمرافق والمصالح إلى بطليوس المذكورة حماها الله فحضر العسكر المبارك عند الأمر العزيز إليهم، وجازوا على القنطرة المصنوعة الموضوعة على الوادي إلى اطريانة[2]، وذلك في اليوم الثالث من إكمال عملها الثامن من صفر سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة، وهذا العسكر أول عسكر جاز عليها، فأوصل الميرة إليها على أوفى الأمن وأحياها، وخصها بالنظر المتدارك عن الأمر العزيز وحياها، وانصرف بعد توصيل الميرة سالماً وغانماً ظافراً، وذلك أن أبا العلا بن عزون بنصحه للموحدين وحبه أمير المؤمنين حرَّضهم أن يجعلوا طريقهم على حصن لبيون[3]

(1) راجع التعليق رقم 4 ص 154.

(2) أطريانة أو طريانة (Triana) حاضرة من حواضر اشبيلية ينسب إليها الفقيه عبد العزيز الطرياني والشاعر الأديب أبو عمران موسى الطرياني، وجاء في دليل بيديكر أن إليها ينسب الفخار الطرياني المشهور وكان يصنع بها أحسن الزليج الأشبيلي، ويوجد إلى الآن زقاق بمدينة فاس يحمل اسم طريانة قرب المدرسة العنانية.

Baedeker: Espagne et portugal P. 441.

الحلل السندسية (أول) ص 219.

(3) حصن لبيون (Castillo de Lobon) يقع شرقي مدينة بطليوس قريباً منها، وقد سقط حرف الباء

المجاور لبطليوس، وكان فيه جملة ذميمة باقية من النصارى أصحاب جرانده اللعين(1) فنازلوا الحصن، وتغلبوا عليه في الحين، وعلى من كان باقياً فيه من الكافرين، فاجتمع لهم خيران وميران ونصران. وأن القنطرة المصنوعة مما تمصَّرت بها إشبيلية واطريانة وحصل للناس بتسهيل العبور عليها غبطة واتّصال [320] وأمنة وآل، كما حصل لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فيها من الأثر الجميل، والأجر الجزيل، على اتصال الأزمان، ومرور الحدثان، ما لم يتقدم قبله لملك من أهل الطوائف، ولا من الخلائف(2)، إذ سبق إلى هذه المنقبة الكريمة في مرافق جواز الناس عليها والعساكر بتيسير الإيناس إلى ما أنعم به، وتمم من عدله وفضله، بتسْبِيل المرور عليها للسابلة دون قبالةٍ(3) تؤخذ منهم فيها، أو جعل يستوفيها، فجعل الله هذه الحسنة الباقية إلى يوم القيامة في ميزانه، وأثبتها في الدنيا والآخرة في ديوانه، ورفع الله عن الجائزين قبل من أهل إشبيلية إلى الشرف وإلى الأنظار مشقة عظمى، وأنالهم بهذا النظر الدقيق الرحمة والرحمى. وفي هذا الشهر أيضاً من هذه السنة المؤرخة أمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيضاً ببناء قصوره المكرمة السعيدة المعروفة بالبحيرة(4) خارج باب جهور(5) من إشبيلية، في الموضع المعروف

* من المخطوط فالتبس لبيون بليون مع أن القصد إلى الأول لأن منطقة ليون في شمال اسبانيا
Huici page 232-233-252 T. I.

(1) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 274.

(2) اعتدنا من ابن صاحب الصلاة في أغلب أحاديثه عدم التعرض للماضين، ولكنه لم يسْلم أحياناً ـ تحت تأثير ظروفه ـ من أن ينخطى هذه العادة.

(3) أنظر التعليق رقم 3 ص 166.

(4) عرف الموحدون بالبحيرات سواء بمدينة مراكش، أو مدينة اشبيلية ويقول المؤرخ المسيحي Morgado في كتابه «تاريخ اشبيلية» ـ ص 48: أنه في الموضع الذي كانت فيه قصور الملوك المسلمين بضواحي المدينة يوجد هناك ميدان واسع كانت توجد فيه على أيامهم «بحيرة» أطلقوا عليها هذا الأسم لكثرة مياهها التي كانت تنصب إلى الوادي الكبير.
راجع التعليق رقم 4 صفحة 293.

(5) راجع التعليق رقم 3 ص 167.

عند الناس قديماً بلقم فرعون(1)، واختط بحيرته منه في الجنان المنسوب لابن مسلمة القرطبي(2)، بعد أن عوض عقبه منها بعوض صحيح من الجنات مثلها، فحل له البناء في الموضع المذكور، فابتنى فيه قصوراً(3) ودوراً للأمر

(1) (لقم فرعون) لم نستطع تحديد موقع هذا المكان واكتفى ميلتشور بترجمته هكذا:
Bocado de Faron.

(2) لم يرد ذكر مسلمة القرطبي أكثر من هذه المرة، ولذا لم نعرفه بغير هذا سيما ومعاجم رجال الموحدين تخذلنا أيضاً في الموضوع.

(3) اهتم المؤرخون والأثريون على السواء بقصور اشبيلية القديمة، وان المعلومات الهامة التي تضمنها تاريخ (المن بالإمامة) والتي استأثر بها سائر المصادر لمن شأنها أن تلقي الضوء على كثير من الجوانب الغامضة حول قصور اشبيلية، ومعلومٌ أنه كان في اشبيلية أواخر عصر الخلافة الأموية قصر كبير، وإنه عندما بدأ عصر ملوك الطوائف اتخذ من ذلك القصر مقر الاجتماع رجال الحكم ولدى سنة 414 كان يسكن في هذا القصر الخليفة الذي أقامه القاضي ابن عباد، ويتجلى كذلك من خلال المصادر المختلفة ان المعتمد بن عباد أنشأ في اشبيلية عدة قصور رفيعة:
(القصر المبارك) (والقصر المكرم)، وقصر الثريا والقصر الزاهي... وقد ظل شاخصاً إلى سنة 621 كما يقول المراكشي (ص 125)، الأمر الذي يؤكد أن قصور الموحدين لم تقم في نفس الموضع الذي كان يقوم قصر ابن عباد كما يرى بعض المؤرخين. وقد ورد أيضاً في مَنّ ابن صاحب الصلاة (136 — 163) أن الخليفة أنزل ابن مردنيش في قصر المعتمد بن عباد (صفحة 328) هذا إلى ما يلوح من خلال تاريخ المن بالإمامة مما يفيد أن قصر الخليفة الموحدي في أشبيلية هو الذي كان يجاور مباشرةً المسجد الجامع لا يفصل بينهما إلا الساباط (صفحة 332). هذا القصر الذي يحتفظ بجلّ معالمه حتى اليوم. أما قصور البحيرة التي يتحدث عنها ابن صاحب الصلاة فإنها كانت خارج أشبيلية محفّة بالبساتين والجنات، وكان العاهل الموحدي يختلف إليها من القصر المجاور للمسجد. (ص 322) ولم يشر مؤرخ عربي بما فيهم ابن صاحب الصلاة إلى أن منشيء ذلك القصر هو يوسف بن عبد المؤمن والظاهر أن هذا القصر أحد قصور المعتمد بن عباد ولعله (قصر المكرم)، ويفرق ابن صاحب الصلاة بين قصر يوسف داخل القصبة العتيقة من أشبيلية الذي كان تجري فيه الاستقبالات الرسمية ـ (ص 385)، وبين قصر المعتمد الذي قد يكون (قصر المبارك) والذي كان قصراً للضيافة، ويتلخص من كل هذا أن القصر المجاور للمسجد هو للمعتمد مع القصر المنسوب إليه صراحة في مَنّ ابن صاحب الصلاة، وأن قصور البحيرة خارج باب جهور هي التي كانت للموحدين، هذه القصور التي لم يبق منها أثر الآن، هذا ولا ينبغي أن نخلط بين القصر المباشر للمسجد وبين الحصن الذي جدده يعقوب على ضفة الوادي بعد عودته من غزاة شِلب والذي يعرف بحصن الفرج. (المراكشي ص 280 — 292). ومع كل هذا فإن قصر أشبيلية ما يزال محتاجاً لمزيد بحث يستوحي من عاملين اثنين: العامل التاريخي والعامل الفني.
المراكشي، المعجب ص 125 — 280 — 292، مخطوط ابن عذاري ص 185.

تُربي على مباني أخيه السيد الأعلى أبي حفص التي ابتناها محمد بن المعلم المشرف له، على وادي إشبيلية خارج باب الكحل منها، التي أوجبت النقد على محمد [321] بن المعلم المذكور، وأمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أبا القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي[1] وأبا بكر محمد بن يحيى بن الحذا[2] الإمام بمسجده الموثق، لأمانتهما وديانتهما ومعرفتهما بالمساحة، والتكسير والفلاحة، أن يختطا له ما يتصل بهذه القصور والمباني من الأرض البيضا حواليها من مال المخزن ما يحسِّن مسكنها لغرس الزيتون والأشجار والأعناب ولغرس الفواكه العجيبة من كلِّ الأنواع المستغربة العِذاب، فاختطا ما أُمِرَا به من ذلك، ودخل للناس من أهل إشبيلية في هذا الاختطاط أرضٌ من أملاكهم وجنات ومواضع مُعتبطات عَـوَّضهم أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منها أرضاً بأرض، وبقيمة وافية من العين الفرض، حتى رضُوا واغتبطوا، وأشهدوا برضاهم على أنفسهم وارتبطوا، وجرى أمرها على العدل التام، والنظر العام، وكان لمحمد بن منظور[3] في هذه الأرض

= ابن صاحب الصلاة صفحة 320 و 322 و 328 و 332 و 333.
Melchor Antona: Seville y sus monumen, tos àrabes (publiqados en Religion y cultura, El Escorial 1930, page 61-83.
راجع التعليق رقم 2 ص 40.

(1) هو أحمد بن محمد بن خلف بن عبد العزيز القلعي المعروف بالحوفي، الفقيه الأشبيلي المشهور وقد كان تلميذاً لابن العربي، تولى قضاء أشبيلية بعد أبي بكر الغافقي مرتين وتخصص في العقود والمواريث وكتب فيها كتاباً ممتازاً، توفي في شعبان سنة 588هـ.
التكملة (نشر ابن شنب) رقم 227 ـ التكملة نشر العطار رقم 592. ابن فرحون: الديباج المذهب ص 54. أنظر التعليق رقم 2 ص 69.

(2) هو محمد بن يحيى بن محمد بن متوكل التَّميمي من أهل أشبيلية وأصله من قرطبة ويعرف بابن الحذاء وهو من بيت أبي عمر القاضي يكنى أبا بكر. روى عن أبي محمد بن عتاب وكان موثقاً أخذ عنه أبو علي الشلوبين توفي سنة 600.
التكملة (كوديرا) رقم 881 ـ ابن فرحون ـ الديباج ص 302-303.

(3) لم نجد شيئاً عن ابن منظور هذا فيما نتوفر عليه من مصادر على أن بيت بني منظور مغمور بالنباهة، أثيل المجد المشهور بالأندلس، معروف بالعلم في أشبيلية ثم مالقة وغيرهما، وقد خصص بكتاب (الروض المنظور في أخبار بني منظور) ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد أبي عيسى قاضي المعتمد =

المحوزة أرض عدد مراجعها[1] نحو الثمان مائة مرجع قدَّرا قيمتها له، فعوضه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين منها أرضاً غبيطة بالموضع المعروف بجزيرة السباع[2] المتصل بجزيرة قبطيل[3]، على ضفَّة الوادي من جهة الشَّرف فباعها من إبراهيم بن رواحة[4] بثلاثة آلاف مثقال سكية[5]. ونفذ الأمر العالي إلى أهل الأنظار بالشوف بقلع أصول الزيتون المختارة من الألوان بمال المخزن أنماه الله واستجلابها إلى [322] البُحيرة المذكورة للاغتراس، فجلبوا منها عشرات الآلاف، وتعاون في ذلك أشياخ البوادي بالنظر بينهم: الآلاف منهم مع الآلاف، فغرست على نسق عاماً بعد عام، على خير وإنعام. وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين يخرج من قصره بإشبيلية راكباً مع أعيان الموحدين أعزهم الله للتطلع على الخدمة فيها وغرسها، وللتأنس برؤية ذلك من أنسها. وتفرَّد العريف أحمد بن باسه[6] عريف البنائين بالأندلس في ابتناء

= ابن عباد على قرطبة (تـ 464) وأما الجمال أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي بن منظور الأفريقي قاضي طرابلس (المصري، الوفاة ـ 630 ـ 711) مختصر الكتب المطولة المشهور بأكبرها (لسان العرب) فهو أنصاري ينتسب لرويفع بن ثابت.
عبد الكريم بن الحسني: بيُوت العلم (مخطوط).

(1) جمع مرجع اسم مقياس زراعي اختلف تقديره باختلاف النواحي، فقد نجده عبارة عن خمس خطوات وثمن الخطوة أو ثمانية أذرع وثلث الذراع، وقد يقدر بخمسمائة وعشرين متراً مربعاً، ومن هذه الكلمة وردت العبارة الغرناطية مرجال الذي يعني الجزء التاسع من (Fanega) في أرض، وفي غرناطة كان هناك مقياس يسمى المرجع العملي. Dozy T. I. page 503.

(2) (isla de los leones) هكذا فقط ترجمها الأب ميلتشور.

(3) لم يضف ميلتشور شيئاً على ترجمة الكلمة: (isla de captil) وهذ المكان هو المعروف في التاريخ تحت اسم (Captel)...

(4) لم نقف على التعريف بابن رواحة الذي لم يرد ذكره أكثر من هذه المرة في هذا السفر.
Dozy. T. I. page 665 — 666.

(5) نسبة إلى السكة بمعنى العُملة.

(6) ظل هذا المهندس الخبير عمدة الموحدين في مشاريعهم العمرانية سواء في جبل طارق أو قرطبة أو قصور البحيرة، ويضبط في المصادر الاسبانية بضم السين، وهذا الاسم ما تزال بعض الأسر تحمله بمدينة فاس وهي مشهورة بخبرتها في البناء، راجع التعليق رقم 1 ص 86.
راجع التعليق رقم 5 ص 85.

القصور المذكورة من البُحيرة حتى كملت فجاءت من الحسن يحار فيها الوصْف، ويشتغل بها عن الفرض الطرف! أربت على مباني الخورنق والسدير، وطلعت بباب جهور كالبدر المنير، وواصَل بالبناء حواليها بالحيطان المبنية بالجيار والرمل والحصى من جهاتها، وجميع جنباتها. وكان الملتزم للحفر في غرس البحيرة المذكورة الشيخ أبو داود يلول بن جلداسن مُشرف إشبيلية وأعمالها وأمين أمير المؤمنين، وتحت نظره وعمله تقييد الإنفاق في الاغتراس والبناء بالشَّهادة على ذلك في كل يوم، ودواب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وعبيده ينقلون عليها الأحجار والآجر والجيار، والثمار والأشجار. وقد تقدم الأمر العالي إلى العمال بأغرناطة ووادي آش أن يجلبوا إلى هذه البُحَيرة ضروب الإجاص المسمى عند الأطباء بالكمثري، والإجاص المسمى بالعَبقر، والأزرة(1) والتفاح، فكانت [323] تصل بذلك القطارُ إثْر القطار، بجميع الثمار المختارة للاغتراس وللإثمار، وأبو العلا إدريس الوزير وإبنه يحيى ملتزمان للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء، حتى كمل البناء والعمل وانتهى غاية الانتهاء، وأحدق البناء من جهاتها الأربع بالحيطان تحميها، وتكنفها من الإذاية في نواحيها، بحيطان عالية؛ ومبان سامية.

(1) يذكر ابن صاحب الصلاة ثلاثة أنواع من أنواع الإجاص الكمثرى والعبقر والأزد. وقد ذكر ابن العوام الأشبيلي أن الكمثري نوعان جبلي وبستاني قال: وهو أنواع منه السكري والذكري والقرعي والسراجسي، وغير ذلك. ويقول ابن الحشاء أن الإجاص هو المعروف بالمغرب بعين البقر ويسميه صاحب الاستبصار ص 212 بالغبقر بالغين ويترجم ميلتشور الأزرة بكلمة: Peruco وقد عثرت في بعض المصادر على أن الإجاص عند الأطباء يشمل البرقوق، هذا وليس ببعيد أن تكون كلمة العبقر محرفة عن عين البقر. ابن ليوه التجيبي: أصول الفلاحة (أرجوزة تعمل على نشرها الدكتورة أكواراس من جامعة غرناطة). Dosy: Sup T. I. p. 19. راجع التعليق رقم 4 ص 87.

النظر في اجراء الماء لسقي البحيرة ثم توصيله الى داخل اشبيلية لشرب الخاصي والعامي

وإن أمير المؤمنين لما أحكم له بناء ما أسسه، نظر في إجراء الماء لسقي ما غرسه، وكان خارج باب قرمونة في الفحص، على الطريق المسلوكة إلى قرمونة، أثر قديم قد غبر من بنيان ساقية قد علت الأرض عليها وصارت خيطاً في الأرض من حجارة لا يفهم أثره، فخرج إليها الحاج المهندس يعيش وحفر حوالي الأثر المذكور، فإذا به أثر سرب قد جلب فيه الماء قديماً إلى اشبيلية من عمل الأوائل الملوك من الروم الماضية، والقرون الخالية، والطوائف البائدة، والأجيال السالفة، فما زال المهندس يعيش يتتبعه بالحفر بالعدانين والفعلة بالمِئيين من الرجال والخدام معه حتى أوقعه الحَفْرُ في العَيْن القديمة [324] المسمّاة عند أهْل اشبيلية وأهل أنظارها بعين الغبَّار(1)، مضت الدهور بهده الاسمية لَهَا، وإذا بالماء في تلك العين ليست بعين، إنما كانت موضع فتق في طريق السَّرب القديم، فانقطع الماء عند وصول الحفر إلى العين المذكورة عند الناس، وعلم يعيش عند ذلك أن السرب قد تحققه، فتمادى في العمل حتى وجد السرب من الوادي بقرب قلعة جابر(2) . . . فوزن الأرض في ذلك الموضع وساقه على ما وزنه من الأرض حتى إلى البحيرة المذكورة، فسر أمير المؤمنين بذلك، ثم أمر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه بإجرائه وجلبه إلى داخل اشبيلية الى القصور(3)، ولشرب الناس

(1) اكتفى ميلتشور بترجمة اللفظ: (La fuente Al qapar).

(2) قلعة جابر - (Alcalà de Guadaira) تقع جابر جنوب إشبيلية، على مقربة من قرمونة، وإليها ينسب الشاعر عامر بن خدوش القلعي القائل:

ألا يا سَقَى الرحمان قلعةَ جابر ... فكم ليَ فيها من ليال زَواهر!

هذا وتوجد في الأصل على طرة الكتاب كلمة (هنا بياض) ويلاحظ أن مكان البياض يقرب من السطر فيظهر أن ابن صاحب الصلاة كان يريد تحديد قلعة جابر كان يقول على بعد كذا من إشبيلية. ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب نشر الدكتور شوقي ضيف أول ص 291.

(3) هل القصور التي كانت للمعتمد بن عباد؟ أنظر التعليق رقم 3 صفحة 373.

ومرافقهم على أوفى الفضل منه بكمال الهندسة والتدبير. وأمر ببناء محبس[1] للماء بداخل اشبيلية في حارة ميوربها[2] وجلب إليها الماء المذكور في يوم السبت الخامس عشر من جمادى الأخرة سنة سبع وستين وخمس مائة، وحضر أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه في عسكر من كبار الموحدين والفقهاء والطلبة، وضربت الطبول على إجرائه والسرور بوصوله إلى محبسه، وانتهائه بداخل اشبيلية بحارة ميور المذكورة.

رجع الخبر

وفي شهر المحرم أيضاً من هذه السنة المؤرخة وصل في عسكر السيد الأعلى أبي حفص بأمره أعيان [325] وفرسان من مرسية مهاجرين راغبين في البيعة والتوبة، فذكر حديثهم للسيد الأعلى، فأذن لهم في الدخول إلى المجلس العالي والسلام للمبايعة، فالتزموها على أتم حقوقها، وأمر لهم بظهائر كتبت لهم بتحرير أموالهم، وتقرير آمالهم، لتشهد لهم بهجرتهم، وبدارهم إلى هذا الأمر العزيز وارتحالهم، فتسامع أهل الشرق بما فعل معهم فجاءوا عند ذلك أفواجاً أفواجاً، وأفراداً وأزواجاً، حتى انفرد صاحبهم ابن سعد وتمادى به فكر إلى القبر واللحد!

(1) تختفي مع الأسف معالم هذا الخزان الذي أقامه الحاج يعيش، وينقل المؤرخ الاسباني موركادو في كتابه (تاريخ أشبيلية) ص 95 عن أن مسجد أشبيلية كان يتمتع بنظام دقيق لإجراء الماء وتوزيعه عليه في قنوات تجري تحت أرضه وأن الذي يشاهد هذا النظام العجيب المختفي تحت الأرض ليتعجب منه. هذا ولا يفوتنا أن نعلق على كلام موركادو هذا تعليقاً صغيراً، ذلك أنه نقل هذا الكلام عن ليون الأفريقي، ولعله نقله من غير كتابه (وصف أفريقيا)، فإن هذا الكتاب لا يتضمن شيئاً من هذا الوصف.

(2) يترجمها ميلتشور بالحرف (Mayor) وليس ببعيد في نظري أن يكون الأصل مأخوذاً من اسم صانشو الملقب بالميور (الكبير) Sancho el Mayor.

Olague: Histoire d'Espagne page 150.

ذكر العلة الملازمة له

قال الراوية: لما طال الحصار على محمد بن مردنيش من السيد الأعلى أبي حفص وقلّ من أصحابه عونه، اختلّ ذهنه، وأوقع بوزيريه ابني الجذع بمطالبة عبد الرحمن بن سعيد الغرناطي[1] صاحب المظالم له، عذّبه[2] وجعله في برج دون طعام ولا ماء حتى أكل ثيابه التي كانت عليه ومات! فأفرده أخوه وأصهاره، ومن ظن أنهم أنصاره، وخرج على علته من مرسية زاعماً أنه سيغلب جزيرة شُوْقر، ويأخذ ابن هلال[3] القائم بدعوة الموحدين فيها، فوصلها، واستدعى أخاه أبا الحجاج[4] ليعينه في منازلتها، فوصله وقصّر به، وعجزا جميعاً وأقلعا منها خاسرين خائبَيْن [326] ثم إن أبا الحجاج أخاه المذكور أظهر الإنابة والمبادرة إلى التوحيد، وتحقق محمد بذلك فزادت عِلّته بالذهول، وتوقف أخوه عن عيادته ومخاطبته، فاشتدت علته، وحضرت منيته، فتوفي في العاشر من رجب الفرد من سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة، وله ثمانيةٌ وأربعون سنة، فانقرضت أيامه، وبادر قواده وأشياخه بالطاعة إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وعزموا على ابنه هلال[5] بالمخاطبة بالطاعة، والبدار إلى التزام التوحيد مع الجماعة، فخاطب بذلك وقُبل أحسن قبول، وهبّت عليه من الأمر العزيز ريح الصبَا والقبول، وأخذ في الحركة إلى إشبيلية بالوصول.

(1) من أسرة بني سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcalà la Real)، وقد كان يشرف على أعمال البناء في المسجد الجامع هو وأخوه محمد. وكان ينتمي إلى حزب ابن مردنيش فلما مات ابن مردنيش انضم إلى الموحدين وقد ولد في سنة 518 وتوفي سنة 577.
ابن الخطيب الإحاطة مخطوطة الأسكوريال ـ ورقة 47، راجع التعليق رقم 8 صفحة 179.

(2) كذا في الأصل وهو تساهل من الناسخ فإن الصواب عذبهما أي عذب ابني الجذع . . . حتى أكلا ثيابهما الخ وهو كذلك في ابن عذاري ص 86. راجع الصفحة 388.

(3) راجع التعليق رقم 2 صفحة 319.

(4) هو أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش وقد تقدم في صفحة 195 حديث في هذا الموضوع.

(5) من الآن يظهر في الأفق السياسي هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش.

اتفاق الرأي المبارك أن يسير الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص إلى مدينة مرسية لثقافها وتأنيس اهلها عند طاعة هلال المذكور.

ونهض الشيخ الأجل المرحوم أبو حفص بعسكر مبارك من الموحدين إليها، فبادروا إلى الخروج إليه والتبرك به ودخلها، وأنّسهم ووعدهم بالخيرات، ورفع المضرّات، وأمّل لهم أنفسهم، وغسل ثيابهم من المآثم وأزال دنسهم، فاستقبلوه بالاقتداء لمذهبه ووعظهم في مجلسه معهم بخطبه وكلامه، [327] وأعلمهم أن تقوى الله تعالى وطاعة الخليفة جل ذمامه.

ذكر توحيد هلال بن مردنيش بعد موت أبيه مضطرا ووصوله الى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين باشبيلية.

وإنه لما مات ابن مردنيش المذكور بادر ابنه هلال بالوصول إلى الخليفة بعد استقرار الشيخ المرحوم أبي حفص بمرسية وتملكه لها، فوصل مع جميع اخوانه وأصحاب أبيه من القواد والكبراء من أهل الثغور الاجناد عقب شهر رمضان(1) المبارك من هذه السنة، فأخرج أمير المؤمنين الخليفة إلى لقائه أخاه السيد الأجل أبا زكرياء يحيا بن الخليفة رضي الله عنه صاحب بجاية وأخاه أيضاً أبا ابراهيم اسماعيل. مع علية أبناء أشياخ الجماعة من الموحدين أعزهم الله. وتلقوه على أميال من اشبيلية على تبريز جم، وجمع من عسكر الموحدين ضخم، ودخل في صحبتهم إلى القصبة العتيقة إلى مجلس الخليفة رضي الله عنه قرب صلاة المغرب من يوم وصوله، فطلع في الحين هلال رمضان المعظم من عام سبعة وستين المؤرخ، وسلم على الخليفة أبي يعقوب وبايعه وجميع السادات حضور: السيد الأعلى أبو حفص والأخوة كلهم وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر [328] فقال القاضي أبو موسى عيسى بن عمران(2)

(1) كذا في الأصل والصواب شعبان كما يبدو في القرائن الآتية.
(2) راجع التعليق رقم 6 صفحة 352.

بعد أن خطب وهنا الحضرة العلية بما وجب لها: يا سيدنا أمير المؤمنين طلع علينا في هذه الليلة هلالان: هلال شهر رمضان، وهلال هذا بالطاعة! فاستحسن أمير المؤمنين كلامه وتبسم له، وانفصل هلال بن مردنيش في ذلك الوقت مع أصحابه، وقد كان النظر له في موضعٍ لنزوله ونزول أصحابه، فأنزل في قصر(1) محمد بن عباد أمير اشبيلية الرفيع الشأن، العظيم البنيان، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به، وقد أعدت لهم الفرش والبُسُط والمطاعم والمكارم والمشارب والمثارب، وأفهموا أنهم الأقارب والأصاحب، ورحبت بهم المملكة الخلافية، والدولة الإمامية.

ذكر بيعة أجناد شرق الأندلس أصحاب ابن مردنيش الواصلين مع ابنه هلال.

ولما كان صبيحة أول يوم من شهر رمضان المؤرخ المذكور بكر أشياخ الموحدين أعزهم الله وجميع الناس وطلبة الحضر لحضور بيعة أهل الشرق المذكورين، فحين جلس الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه في مجلسه العالي الكريم خرج الوزير أبو العلا إدريس بن جامع، وأمرهم بالدخول عليه والمثول بين يدَيْه، فدخلوا وسلموا [329] سلام جماعة، ثم بايعوا واحداً بعد آخر وتقدَّمهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى(2) كبير الأجناد المذكورين وصاحب الثغر، والتزموا الطاعة. وواصلوا الجماعة، فلما أكملوا بيعتهم واطمأنوا(3) مجلسهم، رَغِبُوا إلى الخليـ[illegible] في غزو من جاورهم من بلاد النصارى وبينوا أن مدينة (وبذة)(4) أيسر البلاد للفتح، إذ هي حديثة البنيان قريبة الإسكان، وقالوا: إن سورها غير ممتنع. وإنها دون باب ولا حجاب،

(1) راجع التعليق رقم 3 صفحة 373.
(2) راجع التعليق رقم 3 صفحة 43.
(3) كذا في الأصل ولعل كلمة (في) محذوفة: اطمأنوا في مجلسهم.
(4) راجع التعليق رقم 3 ص 168.

فعزم رضي الله عنه في نفسه على قبول رأيهم ورغبتهم، ووعدهم في هذا المجلس العالي عند انقضاء شهر رمضان المعظم بالصوم بانجاز عدتهم ورأيهم. وقد كان هلال بن محمد انزل البارحة من هذا اليوم في مقر ابن عباد، وأنزلوا بقربه في الديار، فتوالت عليهم البركات مدرة غاية الإدرار، حتى نسوا ما كانوا عهدوه في رياستهم، وابهتوا بما عاينوه لأهل هذا الأمر العزيز من إحسانهم وسياستهم، فاغتبطوا غاية الاغتباط وظهر على وجوههم وهياتهم آية النشاط، واشرح الغزوة أثر هذا إن شاء الله تعالى[1].

خبر ابتداء بناء الجامع الكبير الجديد باشبيلية[2] ومساق الخبر على [330] اختلاف السنين.

وفي هذه السنة في شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين باختطاط موضع هذا الجامع العتيق الأنيق، فهدمت الديار في داخل القصبة له، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسه[3] وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل اشبيلية، وجميع عرفاء أهل الأندلس، ومعهم عرفاء البنائين من أهل

(1) ابتداء من صفحة 260.

(2) أراد الموحدون أن ينافسوا بهذا المسجد مسجد قرطبة العظيم الذي شيده عبد الرحمن الداخل.
دكتور أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها 1961 ص 242 ـ 244.

(3) اشتهر في كتب التاريخ الاسباني الحديث أن اسم المهندس الذي قام ببناء الخيرالدا بأشبيلية مجهول تماما! وظن بعض المؤرخين أن الذي اضطلع بمهمة بناء المسجد هو جابر بن أفلح الأشبيلي، ولكن ابن صاحب الصلاة وهو شاهد عيان يكشف النقاب عن المهندس العربي الكبير الذي قام ببناء جامع إشبيلية وإقامة الصومعة. إنه أحمد بن باسه الذي لم نر له ذكراً في غير ابن صاحب الصلاة، ونحن نعلم أن هذا المهندس كان مقيماً في أشبيلية ومنها توجه لجبل طارق سنة 555 ثم إلى قرطبة. هذا وأن التشابه الكثير الذي يوجد بين منار أشبيلية ومنارتي حسان في مدينة الرباط والكتبية في مدينة مراكش تحملنا على الاعتقاد بأن المهندس الذي أشرف على بناء كل تلك الصوامع شخص واحد وإن كان هذا الحكم يحتاج إلى كثير من البحث. وأن في أبرز العناصر التي يجب التوفر عليه للحكم الأخير هو الوقوف على ترجمة وافية لأحمد بن باسه.
شكيب أرسلان الحلل السندسية أول ص 240.
Melchor Antona: Sevilla y Sus monumentos arabes, 1930.



جامع اشبيلية

حضرة مراكش[1] ومدينة فاس وأهل العدوة، فاجتمع باشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد، من كل صنف صناعٌ مهرةٌ في كل فن من الأعمال أفراد وكان الذي دعا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لبنائه ما خصصه الله به من الدين والورع، وإن يخص اشبيلية بالتمصير والتسكين بأشرف مرأى ومسمع، ولان كان قد قطنها في مصيف ومربع، وكان الموحدون الفاتحون لها قد اتخذوا في قصبتهم بداخل اشبيلية جامعاً صغيراً لصلاتهم في أيامهم وجمعهم، فضاق عند استيطانهم عنهم لتناسلهم وترادف وفود الموحدين إليهم بالعساكر، وكان أيضاً جامع مدينة اشبيلية المعروفة بجامع العَدَبَّس[2] قد ضاق بأهلها، فيصلون في رحابه وافنيته، وفي جوانب الأسواق المتصلة به فيبعد عنهم التكبير بالفريضة، فربما فسدت صلاتهم، ولم تمتد قط فيما سلف من الأزمنة هِمم [331] ملوكهم وأمرائهم في السّيرات إلى توسعته والزِّيادة فيه، للذي كانوا عليه عاكفين من

(1) ترى كيف أن الفن الأندلسي كان لا يستغني بحال عن الفنانين والخبراء من أهل العدوة، ولذلك فقد أسهم هؤلاء بنصيبهم في الفنون المعمارية بالأندلس، وليست تصح الفكرة بأن الأندلس هي وحدها التي كانت تمد الغير. . . وإلا فكيف نفسّر استنفار عمالِ مدينتي مركش وفاس؟

(2) جامع العدبّس ينسب إلى القاضي عمر بن عدبس الذي كان يتولى قضاء إشبيلية في أيام عبد الرحمن بن الحكم، وقد انتقلت منه الخطبة إلى المسجد الكبير، الذي بناه الموحدون، وقد ظل المؤمنون متعلقين أشد التعلق بجامع ابن عدبس نظراً لما له من تاريخ يذكر، فقد نقل أن «المجوس» هاجموا (مسجد إشبيلية) وحاولوا إحراقه سنة 230 لكن فتى خرج عليهم من ناحية المحراب فحال بين النورمانديين وبين ماكانوا يريدون، وبالرغم من أن النقول لا تنص على أن المسجد الذي استهدف لهذا الهجوم هو بالذات جامع بن عدبس لكن القرائن تدل على انهما شيء واحد، وقد وهم بعض المؤرخين ورجال الآثار ممن تحدثوا عن جامع أشبيلية فذكروا أن هذا الجامع أقيم في نفس الموضع الذي كان فيه الجامع الأموي القديم ومع أن ابن صاحب الصلاة صريح ـ كما سنرى ـ في خلاف هذا، هذا وقد حرف عَدَبّس عند بروفنصال إلى العباس. ابن الآبار ـ التكملة رقم 777 ورقم 1908 ـ ابن الزبير صلة الصلة رقم 275 . المقري ، نفح الطيب سادس ص 40.

وانظر: مجلة الأندلس مجلد 11 سنة 1946 صفحة 425 ومجلد 12 سنة 1947 صفحة 145.

Terrasse La Grande mosquée Almohade de Seville (memorial Henri Basset) page 251.

Provençal: confereces sur l'Espagne Musulmane p. 110.

ميلشور ص 53 — 60.

تهالكهم في الإمارة وهويهم في ضلال الفتنة بينهم، وإهمال المسلمين بغير حماية، لعمارة في دار قراره إلى أن جمع الله تعالى الإسلام بهذا الأمر العزيز بالتَّوحيد بعد فترة، وبهذا الخليفة الإمام أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤسنين رضي الله عنهم الذي سمت به الخلافة، وأنافت به المعالم والديانة أعظم إناقة، ووصل لنصر جزيرة الأندلس بعساكره المنصورة، فحاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعةً للناس فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار، على أعظم البناء والاقتدار، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت الأرض أطول مما فوق الأرض، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة، بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله، فأعلى بنيته وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثيقه، وأنفذ أمره العالي ببنائه في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمس مائة[1] المؤرخة، لم يرفع البناءَ عنه قط في فصل من فصول السّنين مدة إقامته بإشبيلية إلى أن كمل بالتسقيف، وجاء في أَبْهَى المنظر الشريف، وأعجز في بنائه مَن تقدمه، وبقي في ميزانه ذخيرةً ورحمة له [332] مقدّمة، قارب به جامع قرطبة في السّعة، وليس في الأندلس جامع على قَدْره وسعته، وعدد بلاطاته. . .[2] وكان الناظر أبو داود يلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال، ومن

(1) هو نفس التاريخ الذي يذكره ابن ابي زرع في القرطاس (جزء ثاني) طبعة الرباط ص 186 والغريب أن صاحب الحلل الموشية يذكر أن ذلك تم سنة 572. أنظر الحلل ص 131 ـ 132.

(2) هنا بياض في الأصل، ويظهر أن ابن صاحب الصلاة كان يريد أن يعدد البلاطات لكنه لم يتمكن، وقد ضبط دال (عدد) بالضم الأمر الذي يدل على إنه استئناف وليس بعطف على (قدره وسعته) كما فهم الأب ميلتشور. ويعطينا رجال الآثار عدد هذه البلاطات وانها سبعة عشر بلاطة نفس العدد الذي يوجد في الكتبية، وقريباً مما يوجد في منار حسان بالرباط.

Melchor: Sevilla y sus momumentos arabes p. 104.

Terrasse: la grande mosquée de seville page 250.

Caillé: ville de Rabat p. 156.

الحفاز[1] على هذا البناء من أهل إشبيلية أبو بكر بن زهر[2]، وأبو بكر

(1) كذا بالزاي وهو ما يوجد في الأصل، وقد قرأه ميلشور (حفاظ).

(2) أسرة (ابن زهر) بالأندلس والمغرب أسرة وافرة تضم عدداً كبيراً من الأطباء والطبيبات علاوة على الفقه والأدب.

أولهم، أبو مروان عبد الملك (الأكبر) بن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الأيادي، وهذا هو الذي ترأس الطب في بغداد.

ثانيهم، أبو العلاء زهر بن أبي مروان السابق وقد كان في دولة الملثمين

ثالثهم، أبو مروان عبد الملك (الكبير) بن أبي العلاء، خدم الملثمين، وألف لعبد المؤمن بن علي.

رابعهم، (الجعيد) أبو بكر بن زهر، هو الذي ذكره ابن صاحب الصلاة... خدم الملثمين ثم الموحدين وقد كان يلعب الشطرنج، وكانت أخته وابنة أخته طبيبتين، وقد توفي سنة 595.

ويروى أنه توفي بشكل غريب إثر مفاجأة سارة، وقد أورد صاحب نفح الطيب قصة وفاته وفق ما يلي: ...

ولى واحد مثل فرخ القطاة   صغير تخلقت قلبي لديه
وأفردت عنه فيًا وحشتا   لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته   فيبكي عليّ وأبكي عليه
وقد تعب الشوق ما بيننا   فمنه إليّ ومني إليه

وأخبرني الطبيب الماهر الثقة العلامة سيدي أبو القاسم ابن محمد الوزير الغساني الأندلسي الأصل الفاسي المولد والنشأة، حكيم حضرة السلطان المنصور بالله الحسني صاحب رضي الله تعالى عنه أن ابن زهر لما قال هذه الأبيات سمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والاندلس أواخر المائة السادسة أرسل المهندسين إلى أشبيلية وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارتة ثم يبنوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه، وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع، فرآه أشبه شيء ببيته وحارته، فاحتار لذلك، وظن أنه نائم، وأن ذلك أحلام، فقيل له: أدخل البيت الذي يشبه بيتك فدخله، فإذا ولده الذي تشوق إليه يلعب في البيت فحمل له من السرور ما لا [مزيد عليه، ولا] يعبر عنه...» وقد توفى من جراء هذا الحدث السار... أنظر نفح الطيب للمقري. الجزء 2 ص 248 ـ 249.

(3) هو محمد بن عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي Avensoar من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر أخذ عن أبيه وعن جده علم الطب وانفرد بالإمامة فيه مع حظ وافر في الأدب واللغة وحفظ الشعر والمشاركة في سائر العلوم، وقد كان له بمراكش قصر وبها توفي في ذي الحجة سنة 595. ابن الأبار، التكملة رقم 855. راجع التعليق رقم 2 صفحة 324. أشباخ ص 501.

الييناقي[1]، ثم شركهم في النظر عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد العنسي الغرناطي[2] فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة، فعزل وعزلوا واستبدلوا، ورجع النظر إلى أبي داود واستبد به مع خاصته تحت أمره ابراهيم الدباغ[3] مع مشاركة ابن زهر المذكور، وكانت سُرُب المدينة تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع فنكِّبت عنه، وأخرجت بطريقها منه وصرفت إلى جهة الجوف منه على أوسع مجرى وواثق مَسْرَى على سَرَب واسع وعمل بأعداد من الرجال على أوثق البناء تحت الأرض جارٍ إلى الوادي تحت الأرض قاطع[4]. واهتبل العرفاء واستعرفوا، وتحدقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال، في العمل بصنعه الجبس[5] والاقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الاحتِفال، وأقبوا يسار المحراب سابَاطاً في الحائط يمشي في سعةٍ فيه الماشي معداً لخروج الخليفة عَلَيْه من [333] القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة يُنذر منه المنذر[6] على بابه الخاص الرفيع، وعلى يمين المحراب إقباء في حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند إخراجه للخطبة وإدخاله فيه، وصنع هذا المنبر من أغرب ما قَدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة، اتخذ من أكرم الخشب مفصّلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غَريب العمل، وعجيب الشكل والمثل، مرصعاً بالصندل، مجزعاً بالعاج والأبنوس، يتلألأ كالجمر بالشعل، وبصفائح من الذهب والفضة، وأشكال في عمله من الذهب الإبريز يتألق نوراً، ويحسبها

(1) لم نقف على ترجمة أبي بكر هذا ولم نهتد لمعلومات أكثر عنه سيما ولم يذكر أكثر من هذه المرة في كتاب ابن صاحب الصلاة.

(2) أفرد ابن الخطيب في الإحاطة لابن سعيد هذا ترجمة حدد فيها مدة اشتغاله في بناء جامع إشبيلية. نسخة الاسكوريال رقم 1674 ورقة 147. راجع التعليق رقم 1 صفحة 379.

(3) يلوح أن الدباغ اسم للعائلة لكن ميلشور ترجمه بالشخص الذي يقوم بعملية الدبغ.

(4) لا يخفى ما في هذا السجع المفتعل من ركاكة واضحة.

(5) صناعة الجبس تعني المقرنص أو المقربص في اصطلاح المغاربة «Les stalactites». التازي: مجلة كلية الآداب لجامعة الاسكندرية 1960 ص 65.

(6) يعني من هذا الساباط تنطلق الإشارات بخروج الخليفة، وقد قرأه ميلشور هكذا (النذر).

الناظر لها في الليل البهيم بدوراً، ثم أردفت له بالعمل المقصورة[1] من أحسن الخشب مختصرة من قضبه، وثيقة لحجبه، وكان الخليفة يطالع بناءه في أكثر الأيام بنفسه، فيصل لرؤيته ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص، مع أعلام اخوته وأشياخ مملكته، ووزيره ووجوه رجاله من طلبته وأهل دولته، ويشير لهم بالجد في البناء، والوثاقة فيه والاستعلاء، والعكوف بعمل الأمانة والديانة وترك الأهواء، ويعطيهم البركات، ويعدهم على ذلك العمل بالصِّلات، حتى انكملت جهاته الأربع بالبناء، وعقد الأقواس منه بالاقباء، وكمل التسقيف، ثم حان انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى حضرته مراكش في الرابع عشر [334] من شهر شعبان المبارك من عام أحد وسبعين وخمس مائة، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصباغ[2] إلى مواطنهم، فكانت المدة في بنائه ثلاثة أعوام وأحد عَشر شهراً قمرية وتحرك أمير المؤمنين إلى حركته المذكورة.

قال المؤلف: وفي المثل «الحديث شجون»[3] ولما ذكرت بناء هذا الجامع الكبير اندرج مع ذكره جامع إشبيلية المعروف بجامع عدَبَّس عند أهل إشبيلية فدامت الخطبة فيه على ما كانت في مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بالأندلس إلى ما أذكره.

ذكر الأمر بالخطبة يوم الجمعة في الجامع الجديد الكبير بالقصبة وانتقال الخطبة من الجامع المنسوب لعمر بن عدبّس باشبيلية.

قال المؤلف ولما انصرف السيد الوالي على اشبيلية: أبو اسحاق ابراهيم[4] بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله

(1) الحاجز الخشبي الذي اعتيد نصبه على باب المحراب لصلاة الخلفاء.
(2) كذا في الأصل وقد قرأه ميلشور الصناع.
(3) يشعر ابن صاحب الصلاة بمقتضيات «الموضوعية» ولذلك فهو يعتذر عن هذه الاستطرادات التي كانت بالنسبة إلينا جد مفيدة.
(4) ذكر أبي اسحاق ابراهيم والياً على أشبيلية تصرف من الناسخ فقد ظل أبو ابراهيم اسماعيل والي =

عنهم من زيارة أبيه من حضرة مراكش إلى اشبيلية يوم السبت الثامن عشر من ذي الحجة، بموافقه[1] الرابع والعشرين من ابريل العجمي، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة أنفذ [335] أمر أبيه الذي أمَرَ به من الزام الناس حضور صلاة الجمعة والخطبة في الجامع المذكور، فكانت أول خطبة خطب فيها على منبره الرفيع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجة، والموفي ثلاثين من ابريل العجمي[2] المؤرخ، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة، وكان أولُ خطيب خطب فيه السيد المذكُور وأقَامَ الصلاة للناس فيه أبا القاسم عبد الرحمن بن عفير اللبلي[3] أحد خدام السيد الناسخين له كتبه، وارتفعت في هذا اليوم الخطبة والجمعة من جامع عمر بن عدبّس المذكور باشبيلية وأزيل منبره من موضعه وَنُحِّيَ إلى جانب الحائط الغربي من الجامع المذكور. وكانت المقصورة قد أزيلت أيضاً من موضعها عنه قبل ذلك، وفرقت في بلاطات السقائف الجوفية والشرقية، وذلك يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان سنة سبعين وخمسمائة، وكان القاضي عمر بن عديّس قد ابتناه عام أربعة عشر ومئتين للهجرة. والحديث شجون يوجب ادخال ما تقدم مع ما تأخر: ووجد الناس في السارية التي في البلاط الثاني من جهة الشرق المقابل لمحراب الجامع: جامع بن عديّس مكتوباً في السارية المذكورة بخط قديم: يرحم الله الامام عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدي الآمر ببناء هذا المسجد على يدي عمر بن عدبَّس [336] قاضي أشبيلية سنة أربع عشر ومائتين.

= أشبيلية منذ سنة إحدى وستين وخمسمائة، أما أبو اسحاق ابراهيم فهو والي قرطبة.
المن بالإمامة صفحة 149.
ابن خلدون، المجلد السادس ص 497.
(1) يوافق الرابع والعشرين من ابريل بالضبط.
(2) الموافقة مضبوطة تماماً.
(3) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن عفير الأموي من أهل أشبيلية وأصله من لبلة أخذ عن صهره وعمه أبي الوليد، وابن بشكوال وابن خير بقرطبة وسمع قبل هذا بمدينة فاس من أبي الحسن بن حنين في سنة 568 أخذ عنه الشهاب وخطب بجامع إشبيلية القديم توفي قبل الثمانين وخمسمائة.
ابن الآبار - التكملة رقم 1608.

وكتب عبد البر بن[1] هرون. ووصل الأمر[2] أمير المؤمنين أبي يوسف بقراءة سورة إذا جاءك المنافقون في الركعة الثانية من صلاة الجمعة. فصلى بها الخطيب يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الأول عام أحدٍ وتسعين مائة.

ذكر بناء صومعة هذا الجامع

قال المؤلف: وهذه الصومعة الفايت وصفها للناطقين، السابق حديثها إلى المخبرين لا صَوْمَعَة[3] تعدلها في جميع مساجد الأندلس: سمو شخص ورسو أصل، ووثاقة عملٍ، وبنيان بالآجر، وغرابة صنعة، وبدائع ظاهرة، قد ارتفعت في الجو، وعلتْ في السماء، تظهر للعين على مرحلة[4] من اشبيلية مع كواكب الجوزاء أمر ببنائها أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عِندَ وصوله إلى اشبيلية في غزوته إلى شنترين في الثالث عشر من صفر من عام ثمانين وخمسمائة. ونزل خارج إشبيلية في البحيرة بمجشر ميلين[5]. فعندما تحرك من اشبيلية إلى الغزوة المذكورة أمر عامله أبا داود يلول بن جلداسن أن يشتغل مدة مغيبه في الغزوة ببناء سور حصين على قصبة إشبيلية يمر من مبدأ بنائه [337] مام رحبة ابن خلدون[6] داخل اشبيلية وببناء

(1) عبد البر بن هرون يظهر أنه عامل من عملة البناء.

(2) هنا كلمة أمر ساقطة وكان الأصل هكذا الأمر: أمر أمير المؤمنين.

(3) يوجد بالأصل (بالاصومعة) ويظهر أن (با) زائدة من الناسخ.

(4) المرحلة: المسافة التي يقطعها المسافر في يومه، وقد دأب المستشرقون على ترجمتها باليوم، وهو ما فعله هنا ميلتشور. ويفعله دوزي، ثم أن تعبير ابن صاحب الصلاة: «تظهر للعين على مرحلة...» هو نفس التعبير الذي ورد في حولية سان فرناندو «سلمنقة 1540 الفصل 53».
راجع التعليق رقم 1 ص 127.

(5) مجشر ميلين (Machar milayn) ويظهر هذا الاسم في مجموع الوثائق الأشبيلية حيث يمنح فيه الفونسو العاشر إلى مجلس المدينة عدة قرى بكرومها وأراضيها.
Memorial historico Espagnol I: 13 — 17.

(6) يكتفي ميلشور بترجمة هذا المكان ترجمة حرفية La Explanada de Aben jaldum وهو اسم - بالرغم من أننا لم نتمكن من تحديده بالضبط لكنه يدل على المكانة المرموقة التي كانت لبيت =

صومعة للجامع تكون في اتصال السور مع الجامع المذكور، وبناء دار صنعة[1] للقطائع تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع[2] إلى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل فابتدأ أبو داود بهدم الديار وحفر أساس السور أمام الرحبة المذكورة فلم ترم[3] الحال إلا نحو شهر ونصف وتوفي أبو داود، ثم توفي أثر ذلك الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في الغزوة المذكورة على حسب ما أشرحه[4] رضي الله عنه، فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف باشبيلية بعده أعرض عن بناء السور للقصبة وأمر العامل الذي ولي باشبيلية عوضاً من أبي داود: محمد بن أبي مروان الغرناطي[5] ببناء الصومعة المذكورة وامضاء أمر أبيه في بنائها والجد في عملها، وقد كان العريف أحمد بن باسه فتح أساسها لصق الجامع فوافق فيه بئراً معينة الماء فردمها بالأحجار والجيار، وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس المذكور. ونظر في تقييد الانفاق على بنائها العامل المشرف محمد بن سعيد المذكور. فابتدأ بناءها فبناها العريف بالحجر المسمى بالطجون[6] العادي المنقول من سور قصر ابن عباد! وصنعها بغير ادراج، انما يصعد إليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة[7] [338] ثم عزل ابن سعيد عن العمل بإشبيلية بعد شهور، وتعطل بناؤها إلى

= ابن خلدون في إشبيلية حيث أخذت الساحات تتحلى باسمه وقد قال ابن حيان: إن بيت ابن خلدون لم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية...
ابن خلدون، المجلد السابع ص 799.

(1) حول (دار الصنائع) راجع التعليق رقم 4 ص 90.

(2) باب القطائع أحد أبواب أشبيلية كباب قرمونة وباب جهور وباب الكحل.

(3) كذا في الأصل وهو وإن كان سائغاً لكن الأوضح تدم بالدال.

(4) يعني السفر الثالث، وإنه - حقيقة - لولا هذا الاستطراد لضاعت علينا فوائد جمة.

(5) راجع التعليق رقم 8 ص 179 والتعليق رقم 1 ص 379.

(6) لم نقف على مَدْلُول لكلمة الطاجون، ويشك الأب ميلشور في وجود تصحيف في الكلمة أي الأصل ربما كان الطحون بالحاء ويترجمها بأضراس السبع جاعلاً العادي بمعنى الضاري! ولا يظهر. فقد استعمل ابن صاحب الصلاة كلمة الحجر العادي كثيراً وكان يقصد فيما اعتقد الحجر المعتاد للناس، هذا وقد تكون الكلمة مترجمة عن لفظ اسباني بمعنى الحجر الصلد.

(7) نفس التصميم المتبع في منار حسان برباط الفتح والكتبية بمدينة مراكش.

أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في عام أربعة وثمانين وقد أمر بإعادة بناء الصومعة المذكورة، وبناء ما اختل في الجامع، فشرع فيها يعمل العريف علي الغماري[1] بالاجر الذي هو من بناء الحجر المذكور، وأصلح ما اختل في الثلاثة بلاطات في الجامع من جهة الشرق وجهة الغرب والجوف وأتقنها، وحصن بناءها، وعدّل الجامع بالأدراج من جهة الغرب، وسطح حواليه بالحجر الكدان[2]، وصنع في داخل المسقّف شمسيَّات من زجاج وسطحه بالآجر وفي خارجه. ودام في ذلك أعواماً يعمل في الصومعة أحياناً، ويسافر عن إشبيلية إلى الحضرة فيتعطل، ثم يعود البناء في الصومعة وفيه لازم الجلوس بنفسه على البنائين في المُدَد التي كان يعاود فيها البناء. فلما وصل أمير المؤمنين وهزم الله اذفونش الطاغية[3] أهلكه الله على ما ذكرته أمَرَ رضي الله عنه في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح[4] الغريبة الصّنعة، العظيمة الرفعة، الكبيرة الجرم، المذهبة الرسم، الرفيعة الإسم والجسم، فرفعت في منازلها بمحضره، وحضر المهندسون في إعلائها

---

(1) العريف علي الغماري هو الذي ناب هذه المرة عن المهندس أحمد بن باسه ولو أننا عثرنا على ترجمة وافية لحياة علي الغماري الذي قام باكمال بناء صومعة إشبيلية لكان في إمكاننا أن نحكم بصفة قاطعة على باني صومعة حسان، هذا ولا يبعد أن تكون هناك صلة بين هذا المهندس وبين الطبيب سعيد الغماري الاستقصا ثان ص 141.

(2) نوع من الحجر وسط بين الطوب والآجر، وقد اعتيد استعمال هذه الكلمة في تواريخ المغرب القديمة وبفاس إلى الآن حي يعرف بحي الكدان. القرطاس الأول ص 77 ـ دوزي المجلد الثاني ص 450.

(3) يعني بعد غزوة الأرك (Alarcos) الشهيرة التي جرت في شعبان 591.
أشباخ: تاريخ الأندلس ص 33 — 335 — 338.

(4) يقول ابن أبي زرع: « بلغت التفافيح من العظم ما لا يعرف قدره إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المنار حتى قلعت الرخامة من أسفله... قال ورفعها في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلي» والعجيب من ابن صاحب الصلاة حيث لم يذكر شيئاً عن أبي الليث هذا، ونحن لا نعرف عن ترجمته إلا ما نقله ميلشور عن فرنانديز في كتابه (المدجنون في قشتالة) من أن أبا الليث هذا هو الذي قام بترجمة كتاب «الشواهد» من الكلدانية إلى العربية وهو الكتاب الذي أمر الفونسو العاشر الملقب بالحكيم بترجمته إلى الاسبانية عن العربية... الناصري الاستقصاء ثاني 174.

على رأيه وبلوغ وطره مَرَكَّبه في عمود عظيم من الحديد مُرسَى [339] أصلُه في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها، زنة العمود مائة وأربعون[1]، ربعاً من حديد، موثقاً هناك فيَ تلاحك[2] البُنيان بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء، يكابد من زعازع الرياح وصدمات الأمطار ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته، وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقالاً كباراً يعقوبية[3] عملها الصناع بين يدي أمين أمير المؤمنين وحضوره، ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلّا ينالها الدنس من الأيْدي والغُبار، وحملت على العجل مجرورة إلى الصومعة بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت، ورفعت[4] بالهندسة حتى إلى أعلى صومعة الصومعة المذكورة ووضعت في العمود وحصلت فيه وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه، وبمحضر ابنه ولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر[5] لدين الله، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضي وطلبة الحضر وأهل الوجاهة من

---

(1) يذكر صاحب القرطاس أن زنة العمود أربعون ربعاً من الحديد وأنت ترى أن ابن صاحب الصلاة يقول مائة وأربعين.

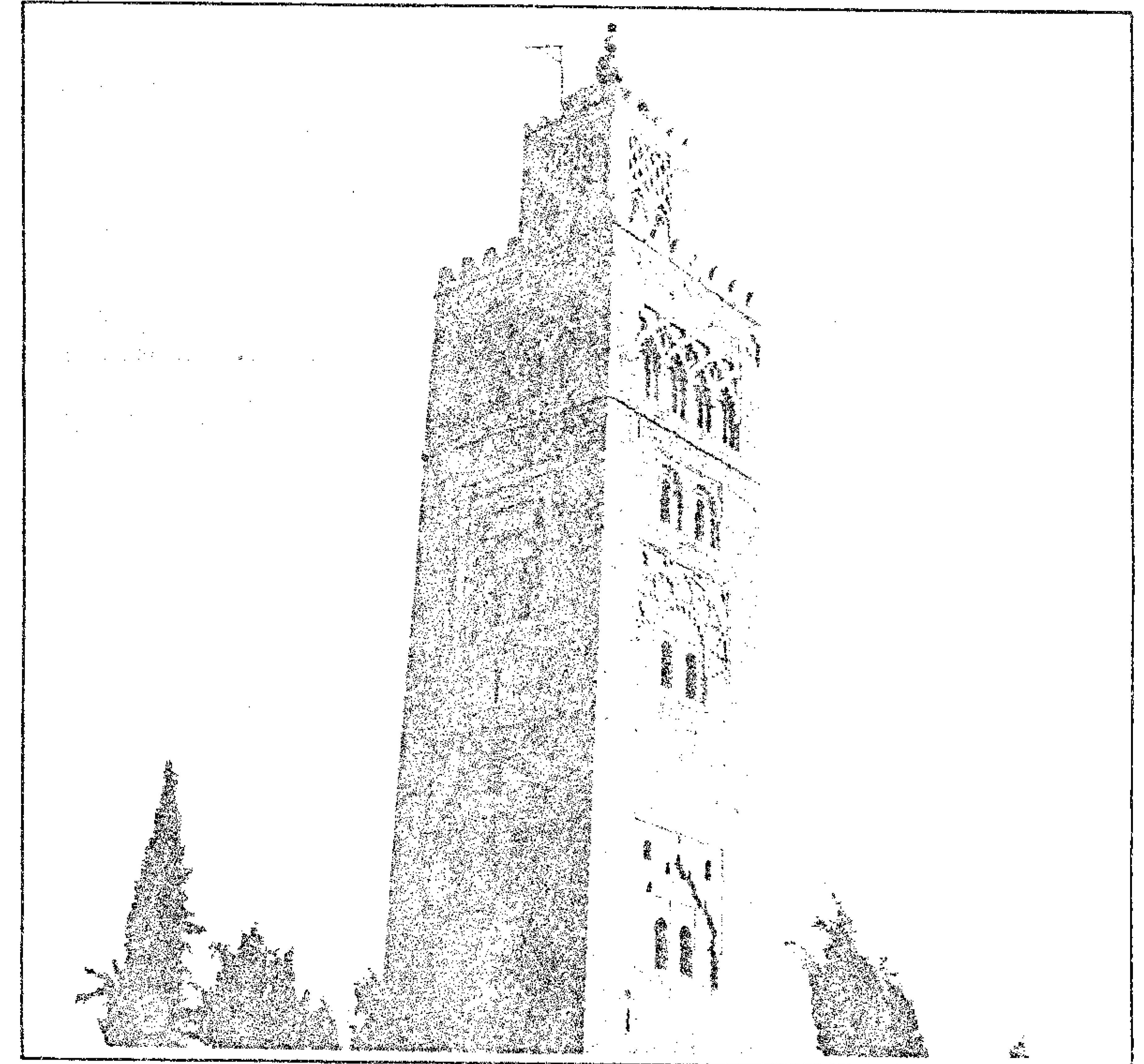
(2) تلاحك البناء: تلاءم.

(3) نسبة فيما يظهر إلى يعقوب المنصور كما اصطلح بعدُ على نسبة الدنانير إلى يوسف هذا وإن زنة المثقال المتعامل به كما يحرر ابن منظور هي درهم واحد وثلاثة أسباع الدرهم، وإذا عرفنا أن زنة الدرهم بالكرام تساوي 2/95 عرفنا أن وزن الذهب الذي طليت به هذه التفافيح (7000 مثقال) هو بالتقدير الحالي 29 كيلوو 505 كرام. ويبقى بعد هذا أن نتساءل هل أن ابن صاحب الصلاة يقصد بالتأكيد «المثقال» المعهود الذي حدده ابن منظور أم أنه يعني مثقالاً من نوع آخر؟ إننا إزاء نعته المثاقيل بأنها «كبار» وبأنها «يعقوبية» لا نجزم تمام الجزم بأن وزن المثقال هو أربعة كرامات و 215... راجع التعليق رقم 5 ص 215.
ابن منظور: لسان العرب مادة مثقال، الناصري، الاستقصا ثان ص 141.
الصبيحي: انبلاج الفجر ص 15 ـ 22.

(4) «رفعت» قد تقضي أنها رفعت في الهواء بآلة لكن نص ابن أبي زرع يؤكد أنها أدخلت من الباب.

(5) هو أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله بن يعقوب المنصور جددت له البيعة أثر وفاة والده سنة خمس وتسعين وخمسمائة وتوفي سنة عشر وستمائة.

الناس، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر[1]، بموافقة التاسع عشر من مارس العجمي، من عام أربعة وتسعين وخمس مائة، ثم كشفت عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألّقها بالذهب الخالص الإبريز [340] وبشعاع ،ه نقها، ويتداخل الخبر مع الخبر.

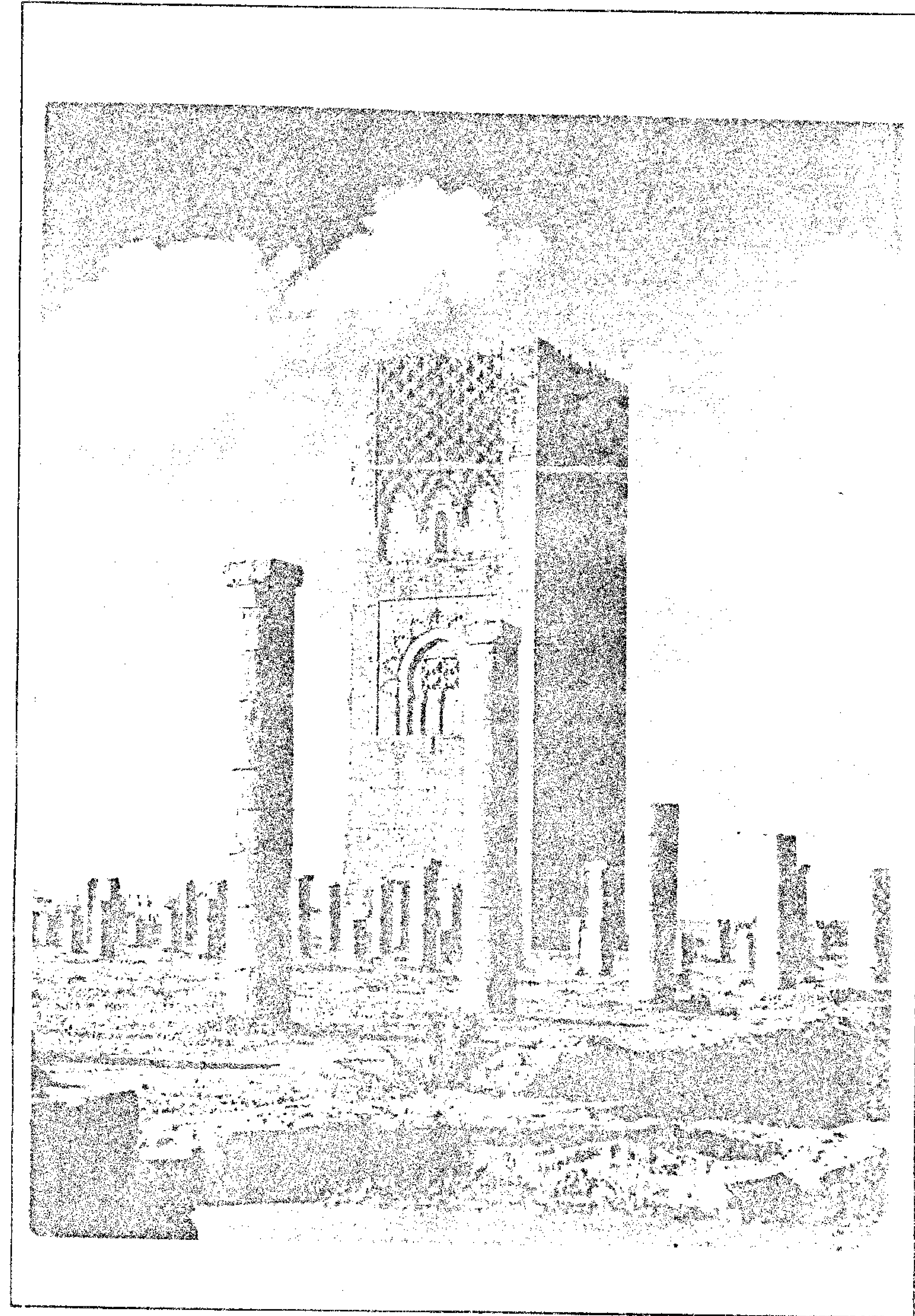


جامع الكُتْبية بمدينة مراكش

ثالث ثلاثة من مساجد الموحدين الكبرى: بنوها شكراً لله

على انتصارهم في وقعة الأرك

(1) آخر ربيع الآخر يوافق عاشر مارس 1198.



جامع حسان بالرباط

ذكر بنيان الأسواق حوالي الجامع المذكور وانتقالها من جانب جامع ابن عدبَّس اليه.

أمر أمير المؤمنين أبو يوسف رضي الله عنه بتوسعة رحاب للجامع حيث يصلي الناس ان احتاجوا إلى ذلك. فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه من السويقة المعروفة عند الناس باشبيلية بسويقة المسمار[1] قديماً، وابتدأ الهدم فيها يوم السبت السابع من ربيع الأول عام اثنين وتسعين وخمس مائة وأمر بتقدير قيم الدور المهدومة والرباع التي للناس فيها، فحضر المقدرون عن الأمر العالي من أهل اشبيلية لذلك، فمنهم من قدر بحسب ديانته وأمانته، ومنهم من قدر بشهواته، فأمضى الأمر تقديرهم، ودفع أمين المخزن عن الأمير القيم فيها لأصحابها على حسب ما ذكرته واتصل الهدم حتى إلى الروضات المتصلة بمسجد اليتيم[2]، فابتنيت الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان، وأحسن نوعٍ في ذلك الشان، عجيبة غريبة في الزمان، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها الأربع: أكبرها الباب القبلي والجوفي تقابلان باب الجامع الجوفي [341] منه، فلمّا كملت هذه الأسواق بحوانيتها بالبناء نقلت اليها سوق العطارين[3] وسوق التجار من البزازين وسوق المركطيين[4] والخياطين، وتزاحم الناس باعتباطهم في المزايدة في كرائها ونما الخراج في ذلك نمواً غالياً، واعتباطاً متمادياً. وعمر

(1) يترجمها ميلشور حرفياً هكذا: (plazuela del clavo).

(2) (مسجد اليتيم) ذُكر هذا المسجد ضمن ما يقرب من العشرين مسجداً كانت في أشبيلية.

(3) يترجم ميلشور العطارين ببائعي العطور مع أن الجاري عند المغاربة أن العطارين سوق لبائعي الأفاوه.

(4) سوق تباع فيه الثياب المستعملة، وأصل الكلمة باللأتينية: Mercatellum وما يزال معروفاً بمدينة فاس سوق المركطال الذي رددته أيضاً الحوالات الوقفية لجامع القرويين وقد ورد في بعض المصادر بالنون في الآخر عوض اللام.

Provençal: journal asiatique avril — juin 1934 page 294.

Provençal: conference sur l'Espagne Musulmane caire 1951p. 105

Le tourneau: Fès Avant le Protectorat. page 250 — 274.

الجامع بالصلوات الخمس فيه لزاماً، واستبق الناس إليه ركعاً وسجداً وقياماً، فضخم شأنه، وعظم مكانه، ومر أمير المؤمنين على هذه الأسواق عند انفتاله من صلاة إحدى الجمعات فسر بما رآه من عمارته، وبدار الناس إلى طاعة الله وطاعته، وشكر الله تعالى وحمده، واغتبط بما بناه لله تعالى وخلده.

والخبر يذكر بالخبر[1]، وفي أثر هذا البناء في مصالح الجامع، واتصال المنافع، رفع إلى أمير المؤمنين الرجل الصالح المريد أبو العباس المري[2] أن جامع إشبيلية القديم جامع ابن عَدَبّس قد اختل واعتل من داخله وخارجه، وإن

وثيقة التأسيس لجامع عمر بن عَدَبّس:

يرحم الله عبد الرحمان بن الحكم الأمير العدل المهتدي.. الأمر ببنيان هذا المسجد على يد عمر بن عَدَبّس قاضي إشبيلية في سنة أربع عشرة ومائتين، وكتب عبد البر بن هرون.

جوائز المسقف منه قد عفنت أطرافها الثابتة على بلاطاته في الحيطان وإن حيطانه من جهة الغرب قد مالت ويخاف على الجامع الهدم، فأشفق لذلك رضي الله عنه، وأمر البنائين والفعلة من أهل الصناع في تلافيه، فحضر العرفاء له وأدخلوا تحت أطراف الجوايز ركائز وكعوباً من الخشب، وطبقوا عليها بألواح الخشب حتى قويت أصول الجوايز المذكورة، وبنوا له أبراجاً [342] من الحجر العادي من جهة حائطه الغربي، وقايةً له من الميل المرئي فيه من الاندفاع، وتكون له أنفع انتفاع، سطحوا صحنه بالآجر المحكوك الحسن الصنعة، وتابعوا أقواسه بالجبس والجيار، وكشفوا عن سقفه وبنوا ما وهى فيها حتى ظهر للعيان الصلاح في أحواله، وجميع أعماله، وكان هذا النظر الفاضل من أمير المؤمنين رضي الله عنه في شهر جمادى الأولى من عام اثنتين وتسعين وخمس مائة.

(1) يشعر بها ابن صاحب الصلاة ويعتذر كلما جذبته مناسبة للاستطراد.

(2) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الملك بن المطرف التميمي من أهالي المرية، توفي بسبتة في صفر سنة 627.

المعجب ص 291 ـ ابن الأبار التكملة (نشر ابن شنب) رقم 296 ص 296.

راجع التعليق رقم 2 ص 384.

رجع الخبر :

خبر غزوة امير المؤمنين بن أمير المؤمنين الغزوة الأولى[1] من غزواته بجزيرة الأندلس الى مدينة وبذة[2] في السنة المذكورة سنة سبع وستين وخمس مائة وفتحه في مسيره المعقل الاشب حصن بلج القشيري[3] وحصن الكرس[4] وتدويخه نظر اقليس[5] وسرته[6]، ومنازلته وبذة المذكورة على ترتيب المراحل والحلول في المنازل.

خرج[7] سيدنا أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه من حضرته

---

(1) تحدث عن هذه الحملة كثير من المؤرخين المسلمين كالمراكشي في المعجب، وابن عذاري في البيان، وابن خلدون في العبر والناصري نقلاً عنهما في الاستقصا، ولكن في شيء من الإيجاز، وقد تعرضت لها كذلك المصادر المسيحية التي كان منها كتاب الحوليات الطليطلية فيما نقله عنها كوديرا في كتابه «انحلال دولة المرابطين» ص 321، والمدونة التاريخية الأولى :
(Primera Cronica General) وكتاب لويس دي مارمول (Luis de Marmol) وكتاب ويسي ميراندا (Huici miranda) وقبله ميلشور أنطونيا، وإن الروايات العربية وإن كانت تختلف أحياناً عن الروايات المسيحية، ولكنها لا تتعارض معها كلَّ التعارض، بيد أن ابن صاحب الصلاة له القدح المعلى في وصف هذه الوقعة سيما وقد كان شاهد عيان.
المعجب نشر محمد الفاسي ص 152 ـ 153 ـ العبر : المجلد السادس ص 500 ـ الاستقصاء ثان 134 ـ 135.

Melchor Antona: campanas de los Almohades en Espana (Religion y Culturap. 1-60

Ambrosio Huici Miranda, Historia politica del imperio AL — Mohdade 1957 -

I. p. 255 – 9.

(2) (Huete) وهو حصن قديم، سمّاه الرومان لما استولوا على اسبانيا Opta - Julia وقد حذف العرب صدر الكلمة، ويوجد في مقاطعة كونكة البرتغالية، وكان أول استيلاء المسيحيين عليه ـ بعد الفتح الإسلامي ـ في نحو سنة 472 (1080 م) عهد الفونسو السادس الذي فتحه قهراً ولم يكن في جملة القلاع التي يقول بعض المؤرخين إنما منحت للملك المسيحي مهراً عن الأميرة المسلمة زيدة، هذا واهتماماً بوبذة منحها الملك اسم مدينة الفونسو، وقد خلط بعض المؤرخين بين ويذة وابذة (Ubeda) ـ الحلل السندسية أول ص 404.

= Provençal: la mora Zaida Hesp TXVIII 1934 page 1-8.

اشبيلية غلس يوم الاثنين الحادي عشر من شوال، الموافق للخامس عشر[1] مايه العجمي من السّنة المؤرخة، وهي [343] سنة سبع وستين وخمس مائة. ووصل إلى قرطبة ودخلها يوْم الأحد السابع عشر من شوال المذكور أو نزل بمحلاته المؤيدة في جبل فحص السرادق[2] المطل على أبراج أرض الزاهرة[3]، وبات في ذلك المَوْضع ليلة الأثنين، ودخل في اليوم الثاني من وصوله إلى قصر قرطبة العتيق لما أمله من ترتيب أشغال الغزوة المباكرة وأقام فيها إلى ظهر يوم الاثنين الخامس والعشرون من شوال المذكور، وخرج في ذلك الحين مؤملاً جهاده، وقاصداً لله مراده، فبات على أميال من قرطبة،

= راجع التعليق رقم 3 ص 168 ورقم 1 ص 251 ـ محمد الفاسي ـ الأعلام الجغرافية الأندلسية ـ مجلة البينة عدد يوليه 1962 ص 19.

(3) يذكر دوزي في كتابه تاريخ المسلمين في إسبانيا إنه الحصن الذي يسمى الآن Velez Rubio بين بسطة ولورقة. ولكن ميلتشور يعتقد أنه الحصن الذي يحمل اليوم اسم (Viches) من أعمال جيان فهو الذي كان ينسب إلى بلج بن بشر القشيري.
أنظر ميلتشور ص 13 التعليق رقم 4.

(4) الكرس (Alcaraz).

(5) أقليس (Uclés).

(6) كذا ضبطها النَّاسخ، وهي كذلك في نزهة المشتاق، وقد أثبت الأمير شكيب ارسلان كترجمة لها: (Zarruta) بينما وجدتها في كتاب Huici : (Zorita).
الإدريسي ص 180 ـ الحلل السندسية أول Huici 77 ص 257 (تعليق) رقم 1.

(7) كان ذلك استجابة لاقتراح أصحاب هلال بن مردنيش لما وردوا مستسلمين. راجع ص 329 يعني من المتن.

---

(1) الموافق للحادي عشر من شوال السادس من شهر يونيه، لا الخامس عشر من مايه، ولم يفت الأستاذ Huici أن يصلح ابن صاحب الصلاة ـ Huici p. 256.

(2) فحص السرادق : سهل يقع في شرق قرطبة، وفي شمال نهر الوادي الكبير وكان مركز تجمع الجيوش الإسلامية في عهد الخلافة الأموية عند توجه حملاتهم إلى الشمال :

Provençal: l'Espagne musulmaneau xem siècle p. 141 — 225 — 234.

(3) هي المدينة المتصلة بقرطبة والتي بناها المنصور بن أبي عامر حاجب هشام بن الحكم.
الروض المعطار ص 80 ـ 81 ـ 82 ـ دائرة المعارف الإسلامية المجلد 3 ص 95.
Provençal: l'Espagne musulmane 230-231. ـ الحلل السندسية أول ص 300.

وسلك الطريق إلى القصَير[1]، إلى أندوجر[2] حتى وصل إلى مقربة من بياسة[3]، فتلقَّاه أبو اسحاق ابراهيم بن همشك وهو منصرف من حصار حصن بلج[4] العظيم الامتناع والشأن، الشاهق البنيان، وقد كان ابن مردنيش أعطاه للنصارى أهلكهم الله وكان السبب في إعطائه ابن مردنيش للنصارى الفتنة الواقعة بين ابن همشك وبين ابن مردنيش بسبب توحيد ابن همشك وطاعته للموحدين أيدهم الله، فأراد ابن مردنيش التضييق على ابن همشك بذلك، وعندما اجتمع ابن همشك بأمير المؤمنين حرَّضه على الحظور[5] على هذا الحصن وعلى حصاره، وأن الرأي الرحيل إليه في بقية اليوم الذي تلقاه فيه، فأمر سيدنا بالرحيل إليه في الحين. ووصل إليه عشية يوم الجمعة الخامس من خروجه من قرطبة، فعاين الناس من [344] منعة الحصن أكثر مما وصف، ونزل أمير المؤمنين بمحلَّاته على مقربة منه، وعاين الكفرة الذين كانوا فيه من كثرة أعداد المسلمين وعددهم ما هالهم، وقطع آمالهم، فلما كان صبيحة يوم السبت الموفي ثلاثين من شوال المذكور استعد الناس للقتال، ونظروا كيف يكون التوصُّل إلى ذلك المعقل بالطعن والنزال، فإذا بالأعداد الكفرة قد استدعوا أبا إسحاق ابراهيم بن همشك، ورغبوا منه أن يأخذ لهم الأمان من سيدنا في نفوسهم وما عندهم ويتركوا الحصن المذكور فوصل ابراهيم برغبتهم، وتوسط في طلبتهم، فرأى أمير المؤمنين رضي الله عنه ذلك رأياً

(1) القصير (Alcocer) يقع في الشمال الشرقي لأشبيلية، Huici page 256.

(2) راجع التعليق رقم 2 ص 197.

(3) بياسة (Baeza)، والظاهر أن الموحدين نزلوها، وإن كان ميلتشور لم يجزم بذلك، فإن ابن الخطيب في أعمال الأعلام ذكر أنها دخلت في طاعة ابن مردنيش سنة 544 ومعلوم أن هذا قد انتهى أمره، هذا وقد ذكر في الإحاطة أنه في سنة 553 كان في بياسة عالم غرناطي ويدعى عبد الله بن سهل كان يحضر دروسه جمع كبير من المسلمين والنصارى واليهود، وهناك يوسفَ البياسي الأندلسي (ت 653) الذي جمع بتونس سنة 646 كتاب الحماسة التونسية. أعمال الإعلام ص 261 ـ الإحاطة، مخطوط الأسكوريال رقم 1673 ورقة 222 عبد الكريم بن الحسني. الحماسة المغربية: ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية، 10 ـ 151 محمد الفاسي. الأعلام الجغرافية الأندلسية ص 24.

(4) راجع التعليق رقم 3 ص 399.

(5) كذا في الأصل والصواب حضور.

وفتحاً، وصنعاً جميلاً للمسلمين في أول حركتهم ونجحا، فنزلوا عن الحصن المذكور ضحوة يوم السبت المؤرخ، فلما كان بعد صلاة الظهر والفراغ من أداء فرضها ركب أميرَ المؤمنين بن أمير المؤمنين وطلع إلى الحصنَ المذكور وقد طهَّره الله من نجس الكفر، فأعجبه ما عاين فيه من المنعة الغريبة، وأمر في الحين بالنظر إليه في رجال من الموحدين يثقفونه ويمسكونه، وصرف أمره إلى أبي إسحاق بن همشك، وأقام يوم الأحد غرة ذي القعدة على معنى النظر للحصن المذكور. فلما كان يوم الاثنين من ذي القعدة رحل عنه قاصداً حصن الكرس[1] ليطهره أيضاً من [345] الكفر، إذ كان ابن مردنيش قد أعطاه للنصارى على حسب فعله بحصن بلج المذكور، فوصل إلى حصن الكرس[1] ضحوة يوم الجمعة السادس من ذي القعدة المذكور ونزل بعساكره المؤيدة قريباً منه، فعاين الناسُ منه حصناً مرتفعاً على بطاح كثير المنافع، كثير المياه لسَقْي المزارع، ينعطف حوله الوادي المسمى بوادي الأحمر[2]، فلما كان عشية اليوم المذكور رغب الكفار الذين كانوا فيه أن ينزلوا عنه على حَسب نزول اخوانهم ببلج المتقدم الذكر، فأجيبوا إلى ذلك ونزلوا منه عند صلاة المغرب من يوم الجمعة المؤرخ، وأمر أبو إسحاق بن همشك بالنظر في الحصن المذكور على حسب فعله فيما تقدم. فلما كان يوم السبت السابع من ذي القعدة رحل سيدنا أمير المؤمنين وقد أظهره الله وأظفره بالحصنين المذكورين، وسلك الجادة إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف[3] المتَّصل ببطاح مدينة جنحالة[4] في أول اللج[5] الفاصل بين بلاد المسلمين الآن[6]،

(1) راجع التعليق رقم 4 ص 399.

(2) لم نجد تعريفاً لهذا الوادي فيما بين أيدينا من مصادر، وكلُّ ما وقفت عليه أن هناك وادياً يدعى: Huici T. II page 455. Guadelhimar.

(3) بلاط الصوف (Balazote) ويقع غربي شاطبة.

(4) جنجالة (Chinchilla) وتقع شمالي الكرس تشتهر بصنع الزرابي.
الروض المعطار ص 67 ـ 70-257 — Huici page 256.
الفاسي: الأعلام الجغرافية الأندلسية 26.

(5) اللج قريب من جنجالة وفيه كان استشهد ابن هود سنه 540. أنظر الحلة السيراء ص 226.

(6) تحدث ابن صاحب الصلاة عن فتح حصن بلج وحصن الكرس ولكنه لم يعط إشارات كافية =

وبين بلاد النصارى أهلكهم الله، حتى وصل الموضع المعروف بـالغدر[1] يـوم السبت المذكور. وهـذا الموضـع هو رأس وادي آنـة[2] الجاري إلى بـطليوس وإلى ميرتلة[3] ونظر باجة، ونزل في بلاط صوف يوم الأحد وبات فيه وأقام فيه إلى الـظهر من يـوم الاثنين، وتزود النـاس الماء من ذلـك الموضـع إلى مـرج [346] البسيط المذكور، وأقام يوم الثلاثاء العاشر من ذي القعـدة فيه ووصـل وادي جزيرة شوقر[4]، فشرب الناس منه ودوابهم ومواشيهم وارتووا منه وأراحوا فيه يوم الأربعاء بعده، ولما كان يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة رحـل ونزل على وادي شُوقر بسبب الماء المذكور لشرب العساكر، وفي هذا المنـزل بالوادي المذكور أمر أخاه السيد الأسنى أبا سعيـد بن سيدنـا الخليفة رضي الله عنه بالتقدم بعسكر ضخم من الموحدين ومن العرب والأجناد والرجالة والرماة، في نحـو اثني عشر ألف فـارس، ليغيروا على أول بـلاد النصارى أهلكهم الله بجهة (وبذة) المذكورة، فتحرَّك على ما نفذ له الأمـر العزيـز أدامه الله، وأعـد السير بقية يومه وأسرى ليلة الجمعة، وفي صحبته أبو العـلاء بن عزون نـاصح الدولة المهدية بجملته، وأبو اسحاق بن همشك بجملته أيضاً، فأصبح الله لهم بالصباح وقد أطلوا على أول عمايـر بلاد النصـارى دمَّرهم الله بمـوضعٍ بمـرج خمـل[5]، وفيـه حصن سـاكن بـالنَّصـارى ففتحوه في حين إطـلالهم عليـه،

= للأمكنة الباقية: أقليس وسرتة...

(1) الغدر Algodor ويقع غربي بلاط صوف.

(2) وادي آنة (Cuadiana) وهو أحد الأنهر الأربعة التي تصب في المحيط، ينبع من قلعة رباح ويصب في المحيط بقسطلة دراج، ويفيد ابن صاحب الصلاة هنا أن الغدر هو رأس وادي آنة. راجع التعليق رقم 3 ص 362.

(3) ميرتلة (Mértola) قال عنها ياقوت: إنها أحمى حصون المغرب وأمنعها من الأبنية القديمة على نهر آنا، وإليها ينسب الأديب الشاعر محمد بن مندلة المتوفي سنة 533. المعجم.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 318.

(5) (مرج خمل) وضع عليه ويسي علامة استفهام ويظهر لي أن خمل نعت لمرج أي مرج كثير الخمائل أي ذي شجر ملتف، على حد قول شوقي في دمشق:

خميلة الله وشَّتها يداه لكم   فهل لها قيم منكم وجنانُ

ووصولهم إليه، وغزى جميع من كان فيه من الرجال وسبى نساؤهم وأبناؤهم، وهدم الحصن وأضحى قفراً يباباً، واتَّصل سير السيد والموحـدين أنجدهم الله يوم الجمعة المذكور وأعلم حضرة أمير المؤمنين بمـا اتفق [347] من الإسـراء والفتح. فلما كان يوم السبت وصـل إلى وبذة مـدينة الكفـرة فتحها الله، فعبى عسكـره تعبئة خـامرت نفـوس الكفـار رعبـاً، فخـرج الكفـار إليهم بشـرذمتهم وخيلهم ورجلهم، فكانت بين الموحدين وبينهم حرب عند عقر دارهـم ومحـل قرارهـم أذلهم الله فيه، إلا أن بعض العرب ظهر منهم رواح وميل عند التصرف في الحـرب فنفذ الأمـر عليهم ذلك، وانفصلت الحـرب عن ظهور الإسـلام. وبات العسكر والسيد في موضع نزولهم بالجبل المطل على مدينة وبذة فتحهـا الله. واتصل سير سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين حتى وصلها يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة.

منازلة وبذة فتحها الله

ولما وصل[1] على مقـربة منهـا أمر المـوحدين والعـرب وجميع القبـائل بالتأهب للحرب، والترقب لهيئة الطعن والضرب، فانحاز كل قبيـل إلى قبيلة، وتميز الناس على رتبهم وتقدمهم، وحضر الجميـع، فأمـروا بالمشي والصعـود إلى الجبل المطل عليهـا، حيث نزل السيـد أبو سعيـد بعسكره، ليكـون جمع العساكر واحداً، والأخذ للكفار قاصداً، فطلع الجميـع على الترتيب المـذكور بالرماح الطوال وغلايل الدروع والبيض [348] والدَّرَق والرايات والعلامات[2] على أتم السـلام وأعم الصلاح. وسيـدنا أمير المؤمنين في ساقتهم في كتيبتـه المنصـورة معه أبنـاء الجماعـة، وأبناء أهـل خمسين وأهـل الـدار[3]. والعبيـد

(1) يعني السيد أبا سعيد.

(2) هكذا يجمع العلم (العلام) في لغة المغاربة.

Colin Notes Espirés T. 10. 1930. page 106.

(3) نقل ابن القطان في نظم الجمان عن ابن صاحب الصلاة: «وكان له أي للمهدي رضي الله عنه رجال يخدمونه في داره يسمون أهل الدار من أصحابه يختصون به في ليله ونهاره وهم المعروفون =

أنجدهم الله وأعزهم، وخلفه السيد الأعلى أبو حفص أخوه وسائر السادات الأخوة، والرايات تتبعهم على عادتهم، ومن الطبول مائة طبل تضرب، وارتفعوا بجمعهم العظيم، ووفرهم العميم، في الجبل المذكور وكبّر المسلمون على المدينة بأصواتهم، رافعين أعلى ما يقدرون عليه بالتوحيد والتكبير والطبول مع ذلك تضرب، واتصل الحرب في ذلك الحين بين الكفرة والمسلمين، فغلبوا على ما كان لصق سورهم، وداخل ارباضهم ودورهم، وحرقت وهدمت، وكان هذا التبريز حافلا، ومنظر الكفار هائلاً، ونزل الموحدون أيدهم الله بأخبيتهم داخل جناتهم، وكرومهم المتصلة بمدينتهم، ومنعوا في الحين شرب الماء من واديهم، وقطعت عنهم حياتهم في ناديهم، ونزل سيدنا أمير المؤمنين في رأس الجبل المذكور وضربت له قبته الحمراء[1] وجميع العساكر حوله، ولما كان عشية اليوم يوم الثلاثاء السابع عشر المذكور جمع سيدنا أشياخ الموحدين أعزهم الله، وتذاكر معهم كيف يكون قتالهم في مدينتهم، فركب السيد الأعلى [349] أبو حفص ومعه اخوته وبنو الجماعة، وأشياخ الموحدين، وأشياخ أهل الأندلس أبو العلا بن عزون وأبو اسحق بن همشك، وتقدمهم السيد الأعلى أبو حفص في عسكر ضخم، وطاف بالمدينة من جميع جوانبها الأربع، وقسم الجهات منها على العساكر[2]، ومع كل عسكر سيد من الإخوة، فأمر السيد أبو سعيد أن يكون في جهة مع قبيل

= بأهل الدَّار، أخصهم به عبد الواحد بن عمر، وأبو محمد وسنار بن محمد، وأبو محمد عبد العزيز وأبو موسى عيسى وعبد الكريم أفغو».
مخطوط يستعد لنشره محمود علي مكي. راجع التعليق رقم 5 ص 98.

(1) حرص الموحدون على استعمال القبة الحمراء في سائر المناسبات العظيمة وسنرى أنهم لم يتركوها أيضاً في غزوة شنترين. ولا شك أنه منهم تقليد لفعل الرسول عليه السلام فقد وَرَد أنه نصب القبة لاستقبال وفد ثقيف في السنة التاسعة من الهجرة وتشير بعض المصادر إلى أن القبة كانت من ادم أحمر، هذا ولا يخفي ما في اللون الأحمر من البهجة ومن الرمز من للسلطة الدنيوية.
البيذق 102 ـ ابن عذاري ص 127 ـ السيرة الحلبية جزء ثان ص 338 ـ 339. ابن الحسني عبد الكريم: التعريف بقبة وفد ثقيف (مخطوط).

(2) يتألف الجند عند الموحدين من مرتزقة ويقيمون بمراكش وعموم وهم يدعون عند النفير العام. المعجب ص 341.

هنتانة، والسيد أبو زكرياء صاحب بجاية مع قبيل كومية، والسيد أبو علي الحسن مع غمارة، والسيد أبو اسحاق مع قبيل جدميوه، والسيد أبو ابراهيم مع قبيل جنفيسة، وكذلك أشياخ الموحدين أعزهم الله كل شيخ مع قبيلة في موضعه المرسوم له أن يقاتل منه ويدفع، والعرب بجميعهم في جانب متصل بالمدينة المذكورة. وكمل هذا التقسيم في تلك العشية على ما ذكرته. وكان النَّصارى دمَّرهم الله قد صنعوا حفيراً خارج ربض مدينتهم استعجلوا حفره في يومين، وصنعوا عليه زرباً من الخشب أضافوا إليه أبواب ديارهم وبيوتهم، وظنوا بسوء تدبيرهم أن ذلك الحفير والزرب يمنعهم من أمْر الله تعالى، فكان ذلك الحفير لهم قبراً، واستوصلوا فيه قتلاً وعقراً. وبات أمير المؤمنين ليلة الأربعاء الثاني عشر من ذي القعدة المذكور على النية الموصوفة، الخالصة بالجهاد لأعداء الله تعالى وبات الناس كذلك، فلما أصبح الله بصباح يوم الأربعاء المذكور وقضيت الفريضة وقرىء الحزب[1] [350] على حَسب العادة من السُّنَّة أخذ الناس في الاستعداد، والتأهب للجهاد، وركب سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، واستوى على صهوة فرسه الميمُون في جحفل جرَّار، كتائبه كالجبال إلا أنها سائرة! قد ملأ الملأ خَيْلاً ورجلا، وطَبَّق الفضاء وعْراً وَسهْلاً، تخفق راياته أسنته، وترعد طبوله، وتتوقَّد نُصُوله، وتتجاوب بالصّهيل خيوله، وتضم أقطاره من مساعير الرجال، ومشاهير الأبطال، كل نزَّال، وحربيّ مِرْقال، قد لبسوا على ما تقدم لهم السوابغَ والأبدان، وتقلدوا الصفائح والقضبان، وتنكبوا القسي والمُرَّان، ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص وأشياخ الموحدين، فاستدعى الفقيه الحافظ أبا بكر بن الجد، والفقيه أبا محمد المالقي والقاضي أبا موسى عيسى بن عمران والقاضي أبا محمد بن الصفار[2] والقاضي أبا الوليد بن رشد[3]، ومشى في ترتيب جحفله الجرار

(1) أنظر التعليق رقم 1 ص 164.

(2) ترجم ابن الأبار لأبي محمد عبد الله بن مغيث بن يونس بن محمد بن مغيث الأنصاري القرطبي المعروف بابن الصفار (516 — 576) وقال إنه أخذ عن جده وأبيه وعمه محمد وآخرين، وقد نقل التنبكي ترجمته في نيل الابتهاج عن الأبار. راجع ص 61.

(3) محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي الحفيد الطيب الفقيه الفيلسوف (Averroes) غُني بكلام =

حتى وصل إلى مقربة من الحفير الذي صنع عليه الزرب المذكور، ونزل على ربوة من الأرض مرتفعة، وضربت له فيها قبة خباء جلس فيها مع مَن ذكرته، ووصلت العساكر على رتبها، وعلى ما أمروا به من التزام كل عسكر في موضعه، وقد قسمت السهام على الرُّماة، وأحضرت بين يديه جميع الآلات. ووصل من أُمِرَ مِن الأخوة والأشياخ للمبايعة فبايع [351] الجميع منهم، وأخذوا بيد أمير المؤمنين تقبيلاً وتسليماً، وتيمناً وتعظيماً، وثبوتاً على الجهاد نصيحة وعزيما، ودعا لهم أمير المؤمنين وركبوا خيلهم، وقدموا رجلهم أمامهم، والتحم القتال والنزال، وقد أمرهم أمير المؤمنين أن لا يدفعوا على النصارى إلا عند ضرب الطبول وخفقها، وقد صفف منها مائة طبل، فعندما ضربت الطبول ودفعت العساكر صار النهار ليلاً، وحل بالكافرين ويلاً، انهزم في الحين جميعهم، وساء بهم صنيعهم. وقتلوا حتى إلى لصق سورهم، وفي داخل بيوتهم ودورهم، وكانت مدينتهم دون أبواب[1] ولا من يحميها، وبهتوا، ولم يبقَ على أسوارهم منهم كافر، واشتغلوا عن حمايتها بالتحصن في قصبتهم، ولم يبق من سورهم موضع فيه قتال إلا الركن من جهة الغرب[2]، قاتل فيه أبو العلاء بن عزون حتى عجز، ومشى إلى أمير المؤمنين وطلب منه العون، فلم يجاوبه لاشتغاله مع الطلبة[3] في المذاكرة. وهدمت بيعهم وأخذ

= أرسطو، وترجمه إلى العربية وزاد عليه زيادات كثيرة، وصنف نحو الخمسين كتاباً، هذا وإن حضوره في هذه الحملة جديد لم يكن معروفاً من ذي قبل لدى سائر المؤرخين، وقد توفي ابن رشد هذا في ربيع الأول سنة 595.
المعجب ص 242 ـ 243 ـ التكملة كوديرا رقم 853-20 .Melchor: campanas p.

(1) على نهج ما وصفه أصحاب ابن مردنيش. راجع صفحة 250.

(2) لم نستطع أن نعرف هل أن هذه الجهة كانت تحت مسؤولية هنتاتة، أو كومية أو جدميوه أوجنفسية أنظر ص 349.

(3) يخطىء بعض المستشرقين من الذين اتهموا ابن صاحب الصلاة بالتملق للموحدين والتزلف لهم، فأنت ترى كيف ينتقد على الخليفة موقفه من عدم الاستجابة لإشارة القائد ابن عزون، هذا ومعلوم أن المجلس الذي أخذ بلب الخليفة كان يتألف من شخصيات فذة، فعلاوة على أخيه أبي حفص يوجد أبو بكر بن الجد، وعبد الله المالقي وجده لام عيسى بن عمران والقاضي ابن الصفار والفيلسوف ابن رشد.

فيها تسعة نواقيس[1] قاتل عليها الكفرة حتى قتلوا عند كنائسهم، وأخلوا أسوارهم من كل جهة، وظهر الفتح ظهوراً غريباً بعدد المؤمنين، والاستيلاء في ذلك اليوم على الكافرين، لاكن عند ذلك كفّ الله أيدي المسلمين عن الغلبة على المدينة، ووصلوا إلى السور ووقفوا عنده [352] وقوف العاجز المقصر قد توركوا للراحة من الفضل والكسل، وبما فهموا أن المراد تعجيز الحال في ذلك النضال، وأما الرماة فرأيت الشيخ المقدم عليهم محمد بن تيفوت[2] يمنعهم من رمي النّصارى بالسهام فلم تقع الآلات ولا الرماح ولا الدروع السابغات ولا البيضات. حدثني أبو العلاء بن عزون قال لي: لما قاتلت النصارى في البرج الذي كان عمدة امتناعهم فيه بمدينة وبذة وأشرفتُ على الفتح والغلبة لهم، ولم أر أحداً من أهل الأجناد الأنجاد، ولا من الشيوخ والقواد من يعينني، مشيت بنفسي إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وهو جالس مع أخيه السيد الأعلى أبي حفص ومع طلبة الحضر يتكلم معهم في

(1) من حقنا أن نتساءل عن مصير هذه النواقيص التسعة التي حرص الخليفة أشد الحرص ـ كما سنرى ص 358 على حملها في صدر ما حمله؟
إن جامع القرويين بمدينة فاس ظل كعبة لكل الذين حكموا في المغرب، ولذلك فقد كانوا يتبارون في تأثيثها بكل أنواع المفاخر، وكان فيما نجده فيها إلى الآن ـ علاوة على الثريا الكبرى الموحدية ـ ستة نواقيس غنمها المسلمون في غزواتهم الأولى بالأندلس، وفيها ناقوس كبير يحمل إلى الآن جملة بالأحرف اللاَّتينية مؤداها: «على الروح الطيبة أن تزجي الشكر لله الذي أنقذها من الضلال» وتحكي كتب التاريخ أنه كان بها عشرة... وجميعها استحال ـ بعد الصنعة ـ إلى ثريات، لكنها مع هذا واضحة المعالم، فهل هذه النواقيس الموجودة في القرويين وردت كلها ـ أو بعضها على الأقل ـ من حصن وبذة؟ أن بعض المؤرخين يذكرون أن بعضها ألفي بجبل طارق حين افتتحه عبد الواحد المريني. لكنا ـ ونحن لم نعثر فيها على الجمل المنقوشة التي تحدثوا أنها توجد على نظامها ـ نرجح أن تكون هذه النواقيس وبْذِية جمَّل بها الموحدون جامع القرويين في نفس التاريخ الذي صنعوا فيه الثريا الكبرى بها وهو سنة ستمائة،
ابن القاضي، جذوة الاقتباس 42 ـ 43 ـ 46 ـ عبد الهادي التازي: الحروف المنقوشة بجامع القرويين (مجلة كلية الآداب المجلد 14 سنة 1960 ـ الاسكندرية) ص 66 ـ 68 ـ 69 ـ نفس المؤلف: أحد عشر قرناً في جامعة القرويين طبعة مدينة المحمدية 1960 ص 18 ـ 19 ـ 20.

(2) لم نقف على تعريف ما بقائد الرماة هذا، ولم يرد ذكره أكثر من هذه المرة في كتاب ابن صاحب الصلاة.

المسائل، فقلت يا سيدنا أمير المؤمنين «عسى عون فقد أشرفت على الفتح!» وإنما كنت طامعاً أن يركب فيراه الناس وجميع العساكر، فيدخلون المدينة في حينهم فلم يجاوبني، واشتغل عني بما كان فيه! ولا جاوبني السيد الأعلى أبو حفص فعلمت أن النية في الجهاد قد فسدت[1]! وإن الغزوة قد تنكدت! ورجعت يائساً من النصر، في غاية الهم والفكر! ودام القتال على انحلال، وضعف وملال، إلى بعد أذان الظهر وارتفع؛ وما نفع الجيش الكثير عديده ولا نجع، إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل، وانصرف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وانصرف [353] الناس إلى أخبيتهم وقد فهم الحال من فهمها، وسر بالتعجيز فيها من دبرها وعملها، وأمر أمير المؤمنين ليلة الخميس التاسع عشر من ذي القعدة من تحرس[2] الكفرة عن شرب الماء، ويسمرهم ليلاً يخرجوا في تلك الأرجاء، فلما أصبح الله بصباح يوم الخميس المذكور، وقضيت صلاة الصبح دعى أشياخ الموحدين ومزاورهم[3] وأشياخ القواد من أهل الأندلس وتذوكر معهم فيما يصنعون، فكان رأي أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر والقبائل لعمل الزرع وسوقه واختزان العلف والقوت لحصار هذه المدينة. فخرج الناس لذلك ورتبت العساكر على جهات المدينة لحصارهم ومنعهم شرب الماء من الوادي، وفيه أمر أمير المؤمنين بعمل آلات من الخشب عن سلالم[4] وابراج اقتال الكفرة في جوانب مدينتهم. ووصل فيه علج من النصارى راغباً في الامان عن اخوته، وينزلون عن المدينة ويملكونها للمسلمين، فصرف بغير جواب ولم يلتفت، ثم انصرف في عشية اليوم المذكور متكرراً بالرغبة في

(1) يؤيد ما قلناه سلفاً عن صراحة ابن صاحب الصلاة وإنه لا يتردد في النقد متى ما رأى ذلك [illegible] راجع التعليق رقم 2 ص 406.

(2) كذا في الاصل والأصوب يحرس كما قال بعد (ويسمرهم).

(3) جمع مزوار وهو لفظ بربري ومعناه رئيس فرقة وقد كان المهدي جعل على كل عشرة من أصحابه [illegible] DOZY: sup TIP. 613 بروفنصال، أخبار المهدي تعليق ص 244 الحلل ص 89.

(4) جمع سلم ويقال للمفرد في المغرب سلوم Colin Wotes de dialectologie arabe Hespes Fax I — 1930 Page I07.

الأمان فلم يجاوب[1] وبات الموحدون تلك الليلة على حذر وترتيب في منع الكفرة من الماء فلما كان في صبيحة يوم الجمعة الموفي عشرين من ذي القعدة المؤرخ هبّت ريح عاصف اكفأت القدور وقطعت الأخبية وكدّرت النفوس باذايتها والصدور، [354] وصنع لأمير المؤمنين حول قبته من الثمار زَرْب[2] يقيه من إذاية الريح، وصنع الناس كذلك حول أخبيتهم، وبات الناس في المحلة ليلة السبت الحادي والعشرين على حالهم ورخص السعر في تلك الليلة: الشعير مدان[3] ونصف بدرهم، والقمح خمسة أمداد بدرهم، وانصرف الموحدون بزاد وعلف. وفي يوم السبت المذكور سيق ستة أعلاج من النصارى وأحضروا بين يدي أمير المؤمنين واستنطقهم عن أخبار طاغيتهم لعنه الله فلم يخبروا بشيء فغزى منهم خمسة وأسلم واحد!

وصول الشيخ المرحوم أبي حفص الى المحلة المذكورة من مرسية بعسكر اهل الشرق، وفي صحبته ابو الحجاج يوسف بن مردنيش مع أهل اشبيلية واهل الثغر.

ولما قرب الشيخ المرحوم بمَن معه خرج إليه أمير المؤمنين وأخوه السيد الأعلى أبو حفص وجميع السادات الإخوة وأشياخ الموحدين أعزَّهم الله وأشياخ أجناد أهل الأندلس والطلبة أجمع في جَمْعٍ كبيرٍ والتقوا به في الفحص المتصل بمدينة وبذة في أوفر الهيئات، فلما قربوا نزل أمير المؤمنين عن فرسه واخوته كذلك، فلما رآهم الشيخُ أبو [355] حفص قد نزلوا نزل إليهم، والتقوا لقاءً مباركاً، ودام وقوفهم طويلاً في سلام وكلام، ثم دعا لهم أمير المؤمنين على حسب العادة وركب، وركبوا وانصرفوا إلى مضرب

(1) يظهر من النص أن الموحدين كانوا يعتمدون على نجاح الحصار لاقتحام المدينة عنوة لكن العاصفة أفسدت برنامجهم.

(2) يعني فيما يظهر أعدالاً وأكياساً من التمر نصبت حاجزاً بينه وبين إذاية الريح . . .

(3) راجع التعليق رقم 10 ص 352.

المحلة، وأمر أبو الحجاج بن مردنيش بالنزول بمحلة أهل الشرق بالجبل المجاور لوبذة، والنصارى أهلكهم الله ينظرون من أعلى مدينتهم فزاد روعهم وجزعهم، وزاد الاشتداد عليهم في الحصار. وضاقت حالهم وطلبوا الأمان فلم يجاوبوا! ولما كان المساء من يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة عادت ريح عاصف أشد ممّا هبت قبل ذلك، مزقت أيضاً الأخبية أكثر من تمزيقها قبل، ثم جاءت بمطر وابل ورعد قاصف وبرق خافق، وذلك في شهر يونيه[1] العجمي من السنة المؤرخة في أشد ما يكون من الحر، فكان للنصارى أهلكهم الله سقي «وإملاء» شربوا منه وشربت مواشيهم[2]. فلما كان صبيحة يوم الاثنين عزم أمير المؤمنين على قتالهم في سورهم، وركب وركبت العساكر وكل من كان في المحلة. وترتبت القبائل والرجال. والرماة للقتال والنزال، فبدأ المطر والرعد والبرق وجَادت السماء بماء كأفواه القرب. ففزع الناس وتعجبوا. ورغبوا في التوبة من الله تعالى![3] وانقلبوا. ولم يبق توب على أحد إلا رجع ماء وأسلم الناسُ الأمر [356] لله الواحد الصمد. وعجزوا عن القتال على كثرة العدة والعدد، وانصرف أمير المؤمنين والناس أجمع وقد حملت الأرض سيلاً، ودام ذلك إلى الظهر من اليوم المذكور، ثم انقشعت السماء، وارتفع الماء، فلما صلى الظهر من ذلك اليوم أمر أمير المؤمنين بالركوب والعودة إلى قتال الكفرة على مثل ما كان، فركبت الناس واصطف كل قبيل في موضعه المرتب فيه، ودام القتال من صلاة الظهر إلى عشية اليوم المذكور، وانصرف الناس وباتوا ليلة الثلاثاء الرابع والعشرين على حالهم، فلما أصبح الله بالصباح لم يخرج أمير المؤمنين من منزله ولا رآه أحد من وزرائه وخواصه مفكراً شغل البال بما عاينه من عدم الاجتهاد، والعجز عن

(1) يوم الأحد الثاني والعشرين القعدة يوافق 16 من يوليه 1172.
(2) راجع الاستقصاء ص 135.
(3) تذكر المصادر المسيحية «أن مدينة وبذة أوشكت على السقوط في يد سلطان المغرب إذ كادَ أهلها يهلكون عطشاً حتى كان يوم القديسة خوستا (Santa — Justa) فأرسل الله من السماء مطراً غزيراً اقتلع خيام السلطان وهدم معسكره».

الجهاد! ولما كان ليلة الأربعاء الخامس والعشرون من الشهر كانت بالليل حركة مفزعة من خروج النَّصارى على الموضع الذي كان فيه قبيل هسكورة[1] يحرسونه، ففروا منه وأدبروا عنه، فأمر أمير المؤمنين عند الصباح بضربهم بالسياط وعقابهم، وبات الناس ليلة الخميس السادس والعشرين من ذي القعدة المؤرخ على حالهم من الحذر والترتيب، وعند الصباح أمروا بالخروج عن العلف من الشعير والزاد، وأن يخرج الثلث من كل قبيل، وتقدم عليهم الحافظ أبو محمد[2] عبد الله بن أبي [357] تفريجين، وأبو اسحاق ابراهيم بن همشك، فخرجوا وباتوا ليلة واحدة وانصرفوا خائبين دون علف ولا زاد، فاشتد السعر وكاد أن يعدم، ولمّا كان يوم الجمعة السابع والعشرين من ذي القعدة جمعَ الناس على كثرتهم ووفورهم من كل قبيل، وقام فيهم الشيخ الزاهد المرحوم أبو محمد عبد الواحد بن عمر خطيباً باللسان العربي تارة، وباللسان الغربي[3] أُخْرى يحرضهم على قتال النصارى، ويعرفهم بما أوجب الله عليهم من الجهاد، وقال في كلامه لهم باللسان الغربي: قد كنتم بمراكش تقولون: لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا الله عَزَّ وجل واجتهدنا، فلما حضرتم معهم قصَّرتم وجنبتم الله عزَّ وجلَّ ونكلتم وما نصحتم! ما أنتم بمؤمنين ولا بموحِّدين إن تسمعوا النواقيس تضرب وتعاينوا الكفر ولا تدفعوا المنكر، إن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد، على كثرتكم من الأعداد، ثم ثَوَّبهم فقالوا: ثبنا! وفي هذا اليوم وجه عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي[4] إلى العلج ولد

(1) هسكورة تقع في السوس الأدنى جنوب تارودانت (المحمدية) القديمة، وقد ظلت في التشريفات الموحدية تحتل المرتبة الأولى ولكن الخليفة مع ذلك لم يتأخر عن عقابها. التازي: دعوة الحق، يوليه 1960 ص 91.
(2) أظن أن هذا هو الذي ذكر (ص 254) تحت كنية أبي عبد الله واسم محمد: ولا أدري لماذا يغير Huici لفظ ابن صاحب الصلاة هنا فيعبر عن هذا الحافظ بعبد الله، ولعله خطأ مطبعي وربما كان قصده أن يقول أبا عبد الله. Huici ص 260.
(3) يعني بالبربري. وقد يُعَبَّرُ عنها باللغة المرابطية.
(4) راجع التعليق رقم 1 ص 379.

مريق[1] ـ لعنه الله ـ الذي كان يملك مدينة وبذة، وقال له: [illegible] رغبت في الأمان فانزل على ما رغبت، واخرج أنت وجميع مَن في المدينة معك على ما طلبت! «فكان من جوابه أن قال: ليس عندي ثياب تصلح للباس [358] فالقى بها ملككم!!» ففهم منه الخداع، والجواب المضاع، وانصرف عنه، ولما كان بعد ذلك الوقت أعاد الرجوع إلى العلج المذكور وقال له: إنما جئتك لصحبة كانت بيني وبين أبيك، فأنا الذي أخرجته من سجن يحيى بن[2] غانية وأريد الآن أن أخرجك مما أنت فيه، فقَلِق ولدُ مَريق العلج من كلامه وردَّ عليه جواباً جافياً! ثم قال له: «لست أمشي معك فإن النصارى والأمير ادفونش الصغير[3] قد خاطبوني باجتماعهم[4] واحتشادهم ووصولهم إلي وليرفعوكم أو يُقَابِلُوكم!» «وانصرف ابْنُ سعيد عن غير ما مَشَى فيه وبهذا الخبر، وعرف بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فلما كان بعد صلاة العصر من هذا اليوم أمر أمير المؤمنين بحضور الشيوخ من كلّ صنف من الموحدين والأندلسيين والعرب، ودخلوا عنده في القبة الحمراء، وتكلموا معه بقية عشية اليوم المذكور فيما [illegible] من الرأي لهذا الخبر الطارىء، وانفصلوا عنه عند صلاة المغرب، فلما كان بعد مضي جزء من الليل ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة

(1) [illegible] به أحد أبناء ما نريك دي لارا (Manrique de Lara) الذي كان مربياً لملك قشتالة [illegible] الثامن والذي اغتاله فرنان رويث دي كاسترو، ونحن نعلم أن هناك قومساً من عائلة [illegible] كان يسمى: Pedro Manrique de Lara قام بفتح حصن الصفراء Zafara بأمر من [illegible] الثامن، ولعل بدرو هذا هو نفسه الذي يشير إليه ابن صاحب الصلاة. التازي تاريخ [illegible] الدبلوماسي. P. 33 Melchor.

(2) [illegible] هذا عميداً للمتونيين بدار ملكهم أشبيلية ثم حالف الموحدين بعد. [illegible] المعجب ص 267 - 273 - 275 — 276 أعمال الاعلام، ص 253 ـ 354.

(3) أدفونش الصغير EL REY chico هو الفونسو الثامن (Alfonso V111). راجع التعليقات رقم 1 ص 97 ورقم 5 ص 153 ورقم 3 ص 284 ورقم 2 ص 286 ورقم 7 ص 286 ورقم 1 ص 295 ورقم 3 ص 392.

(4) [illegible] بعض المصادر المسيحية أنَّ كاردينال روما كان في هذا الوقت بطليطلة ودعا الناس إلى [illegible] وتقاطر المحاربون من كل صوب لنجدة الوبْذيين. . .
Codera: Decadencia y desaparicion des los Almaravides En Espagne p 321

المؤرخ أمَرَ بحرق البرج المصنوع لقتال الكفَرة، وبحرق الآلات كلها المصنوعة مع البرج! وليس عند أحد من الناس خبر، وأمِرَ في الحين أبو الأصبع بن حكم القبطلي[1] المقدم على الدوابّ أن يسوق دوابَّ في ذلك الوقت على ما تحصل النّواقيس التي أخذت في الكنائس [359] وبات الناس بقية الليلة على روع وحذر وأقوالٍ مرجفة.

قلوع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عن مدينة وبذة

ولما أصبح الصباح من يوم الأحد التاسع والعشرين من ذي القعدة عام سبعة وستين المؤرخ تكلم بعض الناس بالرحيل أنه يكون في هذا اليوم، وضرب الطبل الكبير[2] اشعاراً للناس بذلك فكأن القيامة قد قامت! فمن رجل حائر لا يدري ما يصنع، وآخر حازم قد أخذ بما كان يسمع ويتوقع، وحين ما عاين النصارى حركة الناس وسمعوا الطبل وفهموا القلوع عنهم خرجوا في حينهم بخيلهم ورجلهم، ووصلوا إلى الوادي الذي كانوا قد منعوا الشرب منه من يوم حصارهم، وابتدأوا مع الناس بالقتال، واشعلت في البيوت والزروب النيران، وصار الناس في حرب وانزعاج إلى الرحيل، ولا أخ يسأل عن أخيه من حال الذهول، ووصل النصارى إلى السوق على قرب من المحلة، وقتلوا الضعفاء والمرضى، والتحم القتال بين النصارى وبين المسلمين، وأمر أمير المؤمنين لجميع العساكر بالوقوف حتى ترفع الأخبية فرفعت وتقدمت، وبقيت قبته واقفة [360] على حالها حتى رفع جميع الناس، والسيد الأعلى أبو حفص قد لبس درعه وهو راكب في قبيل أهل تينملل أنجدهم الله وأشياخ الموحدين مع قبائلهم وأشياخ أهل الأندلس مع أصحابهم، والعرب مع قبائلهم مستعدون في الجميع. ثم إن أمير المؤمنين أمر بقلع قبته الكريمة وهو راكب

(1) لم نقف على أثر لهذا القائد ويظهر أن الأصل أبو الأصبغ بالغين.

(2) يحكي المؤرخون أن من بين الطبول واحداً هو أكبرها إذا ضربت فيه ثلاث ضربات علم إنه طبل الرحيل ويسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه!!

والعساكر معه، وأمر بضرب الطبول والحركة والناس على ترتيبهم، والنصارى يقربون ثم يهربون، وتقدمت الرايات على طريق قونكة[1] أعادها الله على رفق ووفق، ومشى ثلاثة أميال، ونزل بالناس في موضع الماء الجاري المتصل بجبل مدينة وبذة المذكورة على ثلاثة أميال منها، وكانت حركته في هذا القلوع بعد أن ترك إخوته السادات بجمع كثير من العساكر في الساقة على مدينة النصارى يدفعونهم من اتباع الضعفاء من المجاهدين والمرضى، وفي صحبتهم يوسف بن مردنيش وابراهيم بن همشك وأبو العلا بن عزون بعسكر الأجناد الأندلسيين، فكان بين الموحدين المذكورين وبين الكفرة دفاع، وحرب ونزاع، على وادي المدينة المذكورة قتل فيه من النصارى ستون علجاً وأسر منهم عشرة. وظهر المسلمون في ذلك اليوم بنصر الله لهم، ثم أنهم وصلوا إلى المحلة في عشية اليوم وعرفوا بما كان من غزوهم وجهادهم وبات [361] الجميع في موضع النزول على حذر، وحُسْن نظر، وَلَّما أصبح الله يوم الاثنين عقب ذي القعدة رحل أمير المؤمنين بالمحلات من الماء المذكور رَحيلاً جزلا بترتيب العساكر والرجال والرماة في القدمة[2] والساقة ومشى بهم عشرة أميال ونزل بقرية كثيرة الزروع، خاوية الربوع، فامتلأت الأيدي من القمح والشعير، وعاثوا فيها وعفوا آثارها وثمارها، وأهل في تلك الليلة بهلال شهر ذي الحجة من العام المؤرخ، وبات الناس على خير عادة، ولما أصبح الله بيوم الثلاثاء غرة ذي الحجة رحل أمير المؤمنين من القرية المذمومة على الطريق الى مدينة قونكة على مثل الترتيب في اليوم المتقدم والطبول تضرب على كل شرف من الأرض، والعساكر قد ملأت ما بين الطول والعرض. حتى وصل الى وادي شُوقر على ميلين من قونكة المذكورة بالجبل الغربي منها، ونزل بالناس وخرجوا الى زروع النصارى بها بإباحة محمد بن مردنيش للنصارى أرض المسلمين وصلحه معهم بالجزية لهم منه، ولما كان بعد صلاة

(1) قونكة (Cuenca) مدينة تقع في الشمال الغربي من مدينة بلنسية بينهما 322 ك. م.
(2) كذا في الأصل والصواب المقدمة.

العصر من هذا اليوم ركب أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وركب معه أخوه السيد الأعلى أبو حفص وجميع إخوته السادات ووزيره ادريس بن أبي إسحاق ووجوه الموحدين أعزهم الله والحافظ الفقيه، أبو بكر بن الجد وقاضيه عيسى بن عمران والفقيه أبو محمد المالقي [362] شيخ طلبة الحضر ووجوه الناس من الأجناد والعرب ومن كل صنف ووصلوا في صحبته إلى مدينة قونكة ليعاينها.

(وصف مدينة قونكة)

وكنت في جملة من حضر في هذا الركب العظيم. فمشى أمير المؤمنين حتى دخل المدينة المذكورة وقصبتها الشهيقة المنيعة الرفيعة المتصل علوّها بالجو، تدل على آثار من الغبطة بها عند ملوك الإسلام، واهتبالهم للاحتضان فيها بحوادث الأيام، وقد أحدق بها من جهة[1] الغرب وادي شوقر المذكور باجراف وحافات لا يُمكن منها الوصول، ومن شرقها وادٍ آخر على مثاله في المنعة لها، يصبان الماء في بحيرة عظيمة لشربهم وهي لصق السور، ويدخل إلى المدينة على قنطرة عظيمة، في جانبيها برجان عظيمان مانعان على الواديين في حكم المدينة المذكورة، ومن جهة الجوف من المدينة حفير قد حفر في الحجر الصلد في عمقه نحو قامتين، عليه ستارة منيعة، وفي الحفير أدراج قد حفرت تحت الأرض ينزل فيها إلى الوادي لشرب الماء ولطحين القوت في الأرحى التي على الوادي، ويرجع في الأدراج على أمن، وعلى الستارة التي على الحفير برج عظيم من بناء الأوائل، وفي أسفل الأدراج عند الماء في الوادي باب مصفح بالحديد متملك من القصبة المذكورة، وليس لهذه المدينة موضع يقاتل منه إلا من جهة الحفير المذكور. وفي هذه

(1) يعترف المؤرخون المسيحيون بأن أقدم وصف لمدينة قونكة هو الذي يورده ابن صاحب الصلاة هنا. . .
Meichor: Campanas de los Almohades en Espana. page 7.

البحيرة(1) هي كرومهم وشجرهم من الجوز [363] وغير ذلك، والجوز أكثرها، تحت حماية المدينة كله، ومزارعها وأرضها متسعة في البطاح، والأرض الفساح، وعندما وصل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى المدينة والقصبة التي ذكرها خرج أهلها الضعفاء الغرباء إليه بجميعهم وعيالاتهم وبنيهم كبارهم وصغارهم إليه، وكان العدو قد حصرهم قبل ذلك بخمسة أشهر إلى أن سمع بحركة العساكر المؤيدة، فقلع عنهم وتركهم كأنهم قد نشروا من كفن وخرجوا من جدث، فسلموا على أمير المؤمنين وسألهم عن حالهم وَدَعا لَهُم ووعدهم بخير، ونظر جميل ونصر كفيل وَمَيْر، وأمَرَ في الحين للحافظ الناصح الأمين أبي موسى عيسى بن مخلوف الجد(2) ميوي أن يكتب أسماء جميع من فيها من الرجال والنساء والصبيان والأطفال ويحصي عددهم، فأحْصَاهم، وكان عددهم سبعة مائة نسمة بين رجل مقاتل وامرأة وصبي وطفل، فأمر للفارس منهم باثني عشر مثقالاً(3)، وللراجل بثمانية مثاقيل، وللمرأة بأربعة مثاقيل، وللطفل بأربعة مثاقيل، وأعطاهم سبعين بقرة لم يكن عنده في المحلّة سواها، وكثيراً من الرماح والقسي والسهام والترسة والأسلحة وفرض لهم على العساكر مدا(4) غير ربع من زرع قمح أو شعير صدقة عليهم فبادر النَّاس إلى ذلك. [364] فاجتمع لهم زَرْعٌ وضرع، وكذلك وجوه الموحدين أعزهم الله ووجوه الناس بادروا إلى الصدقة عليهم، وأعطاهم الشيخ المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم وقر حمل من قمح، وكذلك الحَافظ ابو يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت(5)، وأما الوزير ادريس بن أبي اسحاق فاشترى لهم زرْعاً بمائة دينار وكذلك ابنه

(1) الذي يظهر أن الأصل «توجد» عوض كلمة هي.
(2) لم نعثر على اسم هذا الحافظ ضمن لائحة الكدميوين في البيذق وقد يكون من أهل الدار راجع التعليق رقم 3 ص 403.
(3) راجع التعليق رقم 3 ص 393.
(4) راجع التعليق رقم 10 ص 352.
(5) راجع التعليق رقم 3 ص 179.

يحيى اشترى لهم زرعاً بمائة دينار، وتتابعت لهم من أعيان الناس الصدقات والعطيات والهبات وانصرف أمير المؤمنين تلك العشية بعد هذا النظر والعطية وبات الجميع من النّاس في موضع نزولهم. ولما أصبح يوم الأربعاء الثاني من ذي الحجة أمر النّاس بالخروج لدرس الزرع وسوقه من عمارة النصارى أهلكهم الله فامتثلوا ذلك وخرجوا، فحين وصولهم إلى البُورت(1) القريب من قونكة اجتمعوا بالنصارى في الشعْراء المتّصلة بذلك الموضع، وهم في عدد كبيرٍ ذميم(2) زَعَمَ المخبر عنهم أنه أذفونش الصغير(3) اللعين وقمطهُ نونة(4)، فرجعوا وأخبروا بذلك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فرأى من النظر للحرب القلوع بالمحلة من موضعه، ويجوز وداي شُوقر، فركب هو وأخوه في الحين وجاز الوادي المذكور ونزل في الجبل المتصل بمدينة قونكة لحصانته ومنعته، وأمر الناس [365] بالرَّحيل والقلوع، فكانت على العساكر قيامة أخرى مثل قلوعهم من وبذة وأخذ الناس في الانزعاج الى الوادي فلم يجدوا فيه إلا مخاضة(5) واحدة وهو عظيم الانحدار بسيْل وتيار، فكثر صياح الناس من حمله، وعظيم هوله، وهم قد ملئوا عبرَيْه وسلب أكثر ثياب الجائزين ولا أخ يقف على أخيه! ولا أب يصبر على بنيه، ودام هذا الهول في الجواز حتى إلى العصر من اليوم المذكور، واجتمعت العساكر في الموضع التي ذكرتُه، واتصل وصول النصارى حتى نزلوا على مقربة من موضع المحلة أمس هذا اليوم بجبلٍ يعرف بجبل تونبس(6) ملتف بالشعراء والوعورة وتراءت المحلتان للعين

(1) البورت: لا يوجد موضع بهذا الاسم الذي يظن أنه تعريب لكلمة Puerto الاسبانية اللهم إذا كان في مكان يبعد كثيراً عن قونكة، ولهذا يعتقد أنه قد يكون اسماً لموضع مندثر المعالم.
(2) راجع التعليق رقم 4 ص 412.
(3) راجع التعليق رقم 4 ص 412.
(4) يعني القمط نونيو دي لارا: Nunô de lara. راجع التعليق رقم 5 ص 286. Huici p. 263.
(5) المخاضة من النهر: الموضع الذي يتخضخض ماؤهُ عند العبور عليه أي المكان الذي يمكن العبور منه.
(6) جبل تونبس، ربما كانت هذه الكلمة تحريفاً للكلمة الاسبانية Tumbos أو Tumbas ويعتقد أن

والوادي[1] بينهما حاجز، وكلا العسكرين عاجز، وبات الناس ليلة الخميس على ما تقدم من الاحتراس والأخذ بالحذر من مكر الوسواس. فلما أصبح الصباح جمع أمير المؤمنين أشياخ الموحدين، وأهل الرأي الناصحين في الدين، على طبقاتهم من كل قبيل، وذاكرهم ما يرون من الرأي، فاجتمع رأي الموحدين أعزهم الله على مقابلة الكفرة غداً يوم الجمعة، وأما العرب فكفوا وجبنوا عن[2] اللقاء! وقالوا: إن حربهم تحتاج إلى انفساح في الأرض حيث يروحون ويتصرفون[3] [366] في الطول والعرض، وظهر الخور عليهم، واستبان الجبن لديهم، وقالوا: إن النصارى قد نزلوا في جبل وعر، ونظروا لأنفسهم في احتصان ومكر! وازدادت نيات الموحدين[4] والأجناد الأندلسيين صفاءً، ووفوا لله تعالى في جهاد الكفرة وفاء، وباتوا على هذه النية، وخلوص الطوية، ولما أصبح يوم الجمعة تأهب الموحدون لما باتوا عليه، ونظروا نظر ما تواعدوا إليه من الاستعداد للجهاد، فنهض منهم جمع مبارك ومن العساكر، وأبو العلا بن عزون بجملته معهم، ووصلوا إلى موضع محلّة النصارى فكانت بينهم وبين المسلمين مدافعات ومحاملات ظهر الإسلام فيها وتبيَّن للكفرة أهلكهم الله ما غالطوا نفوسهم من تلاقيها، ورجع الجمع المبارك عشية النهار سالماً ظاهراً، وبات الناس على أولهم، فلما أصبح يوم السبت الخامس من ذي الحجة أمر أمير المؤمنين بالتأهب للحرب، وأن يكون كل رجل من الموحدين ومع جميع القبائل مع قبيله متأهباً للطعن والضرب، وركب الناس

- الموضع المقصود هو Torcas الذي كان يسمى قديماً Monte de los Palancares
Melchor: Page 34. Huici page 263.

(1) عله يعني نهر موسكاس Moscas الذي يتفق في وضعه الجغرافي مع الوصْف المذكور.

(2) راجع التعليق رقم 1 ص 345.

(3) يذكر ابن خلدون: «أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط . . .» عبد العزيز الدوري: ابن خلدون والعرب مجلة الكتاب ص 9 عدد إبريل 1962.

(4) لا يخفي في هذه العبارات من تحامل على عرب أفريقية الذين كانوا فعلاً غير متعودين للحروب في الجبال. راجع التعليق رقم 1 ص 345.

وتدرعوا، واستلأموا الأسلحة وتصففوا للقاء وانتظروا ما يكون من العدو واستمعوا. وقد كان أمير المؤمنين رضي الله عنه وجَّه أبا العلا بن عزون في مقنب من الأجناد عند انصداع الفجر من اليوم المذكور [367] ليتطلع أمر النصارى في موضعهم على عادته، وأقام الناس في مواضعهم على مراتبهم وقبائلهم حتى إلى ضحوة النهار، فرجع أبو العلاء مع مقنبه، وأعلم أن النصارى قد قلعوا من محلتهم منصرفين إلى بلادهم، راحلين بأعدادهم فأخذ أمير المؤمنين في الرحيل وقرع الطبول، وتقدم أهل التقديم، على ما تعود من النظر العميم، فكأن القلوع بين الفريقين كان على ميعاد، مع عداوة بينهما في الدين وبعاد. واتّصل سيْر العساكر المؤيدة على التأهب المذكور والترتيب حتى وصلوا إلى الجبل المعروف بجبل الصومعة[1]، على عشرة أميال من قونكة، ونزلوا فيه على ماء طيب وسرح خصيب، واشتد السعر في هذه الليلة، فبلغ المد المراكشي[2] من الشعير درهمين، وكذلك من القمح، ورطل الدقيق بدرهم[3] واحد، وبات الناس على خير. ثم أقلع يوم الأحد السادس، ومشى

(1) Los Zonas، ويكتفي ويسي بترجمته هكذا (Monte del Alminar).

(2) ينعت ابن صاحب الصلاة هنا المد بالمراكشي، وكذا في صفحات 370 — 367 — 369 - وقد حاولنا أن نصل إلى نتيجة في تقويم المد المراكشي وكان في الامكان أن نحصل على «معيار» له لو أن الظروف التي يتحدث عنها المؤلف كانت عادية، ومع هذا فإنني على مثل اليقين من أنه غير المد النبوي الذي يزن 400 غرام إذا كان من الشعير و525 غرام إذا كان من القمح (ليس من المعقول أن يشيد المؤلف بتبرع الخليفة على المحتاجين بمد إلا ربعاً) - (ص 363) كما أنه غير المد الكبير المصطلح عليه الآن عندنا في سوق الحبوب والذي يصل تقريباً إلى ثلاثة وثلاثين كيلو. . . ولكنه أي المد المراكشي شيء ثالث فوق المد النبوي بقليل ودون المد الكبير بكثير وجدير بالباحث في هذا الموضوع أن لا يغيب عن ذهنه أن أسعار الأسفار والحروب لا يمكن أن تؤدي إلى حكم قد يتخذ قاعدة كما أشرنا إلى ذلك، وهكذا لا يستغرب أن يكون ثمن 25 رطلاً من الدقيق درهمين، وثمن 25 مداً من الشعير بدرهم فإن من الجائز أن تكون الرغبة تعلقت بالحصول على الدقيق دون الشعير (ص 303) كما لا يستغرب أن يكون مدان ونصف مد من الشعير بدرهم بينما خمسة أمداد من القمح بدرهم (ص 354) لأن الحاجة قد تكون أنذاك دعت للاحتفاظ بالشعير الذي يصلح للدواب أكثر من الاحتفاظ بالقمح الذي تتوفر الخزائن فيه على كمية أكثر. انظر التعليق رقم 10 ص 352.

(3) لدرهم جزء من عشرة تكون الدينار على العهد الموحدي وهو يعادل 60 سنتيماً تقريباً.

نحو ثمانية عشر ميلاً إلى وادي تامـطة(1)، ونزل في جبل [illegible] والناس معه دون حمولات ولا أخبية، لأن الناس ضعفوا عن المشي، وتأخرت الحمولات ومشت على طريق، ومشى الناس على طريق أخرى، فبات أكثر الناس دون علف ولا قوت، وعدم الشعير حتى بيع المد المراكشي بثلاثة دراهم. ولما أصبح يوم الاثنين أمر بالـرّحيل بسبب افتراق الناس والحُمُـولات. ومشى نحو اثني [368] عشر ميلاً ونزلوا على وداي برج(2) قبلة على طريق مدينة بلنسية، فمـاتت دواب الناس من التعب والنصب، وجـاع النـاس وكثـر فيهم المـوت، واجتمعـوا بحمولاتهم في هـذا الموضـع عشية اليـوم ولا قوت يـوجد إلا لحم جميل يؤذي، وشحم منه يـردي، ولما صلّى الـظهر من هـذا اليوم أمـر بجميع أشياخ الموحـدين أعزهم الله وأشيـاخ القبائـل والأجناد من كـل صنف، وأمروا عنـدَ اجتماعهم والالتقـاء بهم أن ينظروا في التمييـز، وأن يتميَّزوا عشيـة يـوم الثـلاثاء الثـامن من ذي الحجة. وبـات الناس فلمـا أصبح الله بيـوم الأربعـاء التاسع من ذي الحجة أمر النـاس بالتكبيـر والرَّحيـل بسبب العقبة الكؤود التي في الـطريق المعروفـة بعقبة الأبـاليس (3)، فتعجل النـاس بسبب الصعـود في العقبة المذكـورة إلى أن وصلوا إلى القنطرة المعـروفة بقنـطرة اغربـالة(4) على الوادي الجاري تحتها، فنال النـاس الضعف والجوع من عـدم القوت والعلف، ومات كثير من الخيل والبغال والجمال في العقبة المذكورة ونزل أمير المؤمنين بالناي في القَنْطرة المذكورة. ولما صلى الظهر أخـرج البركـة لجميع العسـاكر

Massignon: Le Maroc dans les premiéres années du XVIè siècle

1906 page 102. .292 ص vhphgjygde vel 1

(1) لم يكن في المستطاع التحقيق من النهر الذي يقابل هذا الاسم وقد ترجم ويسي اللفظ كما هو: . Rio — Tamata. P. 263

(2) [illegible] لعله يعني به المعروف اليوم باسم (Caraballa) واكتفى Huici بالاسم: (Biry — Qaballa)

(3) [illegible] الأباليس (Al — ameda de los Diablos) لعلها القائمة اليوم بين: del Gabriel Villagor وبين Minglanilla.

(4) [illegible] (Al Puente de Gabriel) أنظر خريطة Huici ص 226.

على تمييزهم، خمسة مثاقيل للفارس الكامل ولغيره كذلك، ومثقـالين للراجل الكامل ولغيره كذلك، وكان الإنعـام بهذه [369] البـركة على تـاريخ شهـرين اثنين من أول حـركاتهم. ووصـل السعر في هـذا اليوم ثـلاثة دراهم في المـد الواحد المراكشي من الشعير، وكذلك من القمح، ورطل الدقيق الواحد بثلاثة دراهم(1)، وبات أمير المؤمنين بموضع القنطرة المذكور بسبب العيد.

عيد الأضحى في هذه الغزوة

ولمـا أصبح يـوم الخميس العاشـر وهو اليـوم العيـد أَمَـرَ أميـر المؤمنين بالصلاة في الموضع، فاجتمع الناس، وخطب الخـطيب أبو زيـد بن عبدون(2) قاضي تلمسان الخطبة المعلومة، وصلّى بالناس ثم دعاه أمير المؤمنين، وسلَّم عليه إخوته وأشياخ المـوحدين ووجـوه دولته، وقسم عليهم كبـاشاً عن ضحـايا لهم. ولما توسط النهـار أقلع الناس، ورحـل خمسة عشـر ميلاً ونـزل بهم في مرج القبداق(3) على مقربة من حصن ركانة(4) من بطن بلنسية للمسلمين. ولما أصبح يوم الجمعة الحادي عشر رحل ونزل بحصن ركانـة المذكـور والمجاعـة عـظيمة، والشـدة من عدم القـوت عميمة، وأخطأ الأدلاء الـطريق، فـافْتـرقتْ العساكر في الجبـال والمضايق، والأوعـار والشواهق، وبـات أمير المؤمنين في موضع، وبات أخوه السيد الأعلى أبو حفص في موضع [370] دون حمـولة، وزاد بالناس الجوع والعدم، والضعف والألم، ثم رحـل ونزل بمـوضع يعـرف بمجمـع الأودية(5)، واجتمـع الناس بهـذا الموضـع وقد وصـل الـدقيق أربعة

(1) كذا كتب عوض دراهم. وقد علمت أن السعر في وقت الرخاء كان درهماً واحداً.

(2) لم نقف على ترجمة لابن عبدون هذا، ويظهر أنه من أسرة أندلسية، وأنه من الأنـدلس عين قـاضياً على تلمسان.

(3) القبداق: هو المرج الذي يسمى الآن Caudete في مقـاطعة بلنسيـة جنوب قـونكة. أنـظر Huici ص 256.

(4) اكتفى بأن دعاه: Requena.

(5) مجمـع الأوديـة أو ملتقى نهر (el Gabriel) ونهر (Jucar). وليس هـو المـوضـع المعـروف (بـالميـاه السبعة) كما يقول ميلشور. أنظر Huici ص 264 التعليق رقم 2.

درهم[1] الرطل الواحد منه، ومد الشعير المراكشي أربعة درهم، وكذلك القمح غير موجود. ثم رحل يوم الأحد الثالث عشر من ذي الحجة على طريق صعبة المسالك، ومَشَى سبعة أميال ونزل قريباً من حصن بنيول[2] من نظر بلنسية. وفي هذا اليوم سرح الحشود من أهل الشرف وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وافترق أكثر الناس إلى بلنسية وغيرها من الناس المجاهدين. وفي هذا اليوم وصلت رفقةً كبيرة من بلنسية بالدقيق والشعير والفواكه هدية من قبل أبي الحجاج يوسف بن مردنيش إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فاختصت بالخاصة منه والعامة، وعندما وصل الناس حصن بنيول المذكور تقدَّم مَن لم يكن له اسم في زمام ولا رَسْمٌ إلى مدينة بلنسية لطلب القوت والحياة بعد هذه الشدة، وكنت[3] فيمن تقدم إلى حصن بنيول فما وجد أحدٌ فيه شيئاً من قوت، إلا بعض حبات من تين أخضر في أول زمانه: الحبة الواحدة من ذلك بدرهم[4]! فاشتراها من اضطر إليها، وكنت واحداً من ممن اشتراها تقوَّت بها ثم وجدتُ فقدها إلى أن وصلتُ مدينةَ [371] بلنسية ودخلتها، فرأيتها فوق وصفها مطيب بساتين وروضة، مياهها جارية مطردة، ورياضها زاهية في الحسن منفردة، ووافيتُها والصبح قد ألبسها قميصه، والحسنٍ قد نشر فيها وبيضه، لكن الضعف عليها باد، والخوف بالفتن متماد! وتزودتُ منها ثم تلاحقت بعد ثلاثة أيام بالمحلة المؤيدة. وأقلع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين من منزله بقرب حصن بنيول المذكور مرحلةً بعد مرحلة على ترتيب حركته، فوصل مدينة شاطبة[5] يوم الخميس السابع عشر

(1) كذا في الأصل عوض دراهم.
(2) حصن بنيول: (Bunol).
(3) نستفيد من النص أن ابن صاحب الصلاة كان له اسم ورسم في الزمام.
(4) لم يفلت ابن صاحب الصلاة دائماً تسجيل هذه الانطباعات، وقد تحدث إلينا في غزوة شنترين من بعد أنه اشترى بقرة سمينة بثلاثة دراهم!
ابن عذاري (مخطوط) ص 128.
(5) شاطبة (Jativa). وتقع في الجنوب الغربي لبلنسية قريبة من الشاطيء وكانت تسمى عند الرومان Setabis ينتسب إليها علماء وأدباء مشهورون وكان يصنع بها أجود الورق. الفاسي: الاعلام الجغرافية الأندلسية مجلة «البينة» عدد يوليه 1962 ص 34.

من ذي الحجة ودخلها: قصابها الشاهقة المانعة، وأبراجها الشاسعة، وأقام فيها يوم الخميس ويوم الجمعة، ولما كان بعد الصلاة من يوم الجمعة حضر أشياخ الموحدين أعزهم الله في الجامع ومعهم أبو محمد المالقي والقاضي أبو موسى، وجمعوا الناس من أهل شاطبة ووعظوهم وأنَّسوهم وبشروهم بالخير المتَّصل من هذا الأمر العزيز، ثم بعد ذلك ضربت الطبول في القصاب[1] المذكورة ورفعت في أعلاها الرايات المنصورة، فلما كان بعد الصلاة من يوم الجمعة حضر أشياخ الموحدين أعزهم الله في الجامع، فلما كان صبيحة يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة رحل عنها ونزل على مقربة منها رفقاً بالعساكر ثم أقلع [372] يوم الأحد الموفي عشرين ونزل بحصن بُلْيَانة[2]. ثم رحل يوم الأثنين ونزل بحصن عَصْف[3]. ثم رحل يوم الثلاثاء ونزل بحصن إلج[4]، ثم رحل يوم الأربعاء ونزل بحصن[5] أوريولة.

دخول أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين لمرسية

ولما كان يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة المؤرخة رحل من أوريولة ونزل ضحوة النهار بحصن منت[6] أقوط على مقربة منها. ولما صلى الظهر تحرك في عسكره الهام وكتيبته التي حارت فيها من الضخامة خواطر الأوهام، وخرج إليه أهل مرسية بالتبرك به والابتسام، ودخل قصرها بنصر دائم وتحية وسلام، والطبول تضرب، والرايات بالسعود تخفق وتطرب، بأحسن الطلاقة والابتسام، وجميع أهل مرسية من خاصتهم وعامتهم وكبيرهم

(1) جمع قصبة... الحصن والبرج.
(2) يسمى اليوم هذا المكان: (Villena) ويقع شمال الش.
(3) حصن عصف يسمى اليوم Aspe في مقاطعة ألقنت 1licante pk,f fgdhkn'
(4) ألج (Alche) وهي قريبة من مدينة القنت، وكانت أيام العرب تعتبر من أقليم تدمير الفاسي: المصدر السابق ص 20.
(5) حصن أوريولة (Orihiela) بينه وبين الش 28 ميلاً، وهي مدينة أزلية قديمة معناها باللاتيني «الذهبية». الروض المعطار ص 34. الفاسي؛ المصدر السابق ص 21.
(6) حصن منت أقوط هي المسماة اليوم Monteagudo وهي تقع بقرب حدود فحص مرسية.

وصغيرهم يتكلمون لأنفسهم بالتيسير والتبشير، ويقولون بأعلى أصواتهم: (الحمد لله الذي جمع بيننا وبينكم على أحسن حال وأنعم حال، ورفع عنا الظلم والكفر). ونساؤهم يبدين أصواتهن بالفرح[1] وينطقن بألسنتهن بكل لفظ منشرح. ودخل أمير المؤمنين بن أمير [373] المؤمنين بقصر مرسية، وقد كان الأمر العزيز نفذ لهلال بن محمد[2] أن ينظر في إنزال الموحدين في الديار، والاشتغال ببرهم على أكمل الأوطار، فوجدوها معدة، مملوءة كسى وأرزاقاً عدة، وأهدى من الجواري الكعاب، والسراري ذوات الحسن والشباب، ما كان عند أبيه معدة لهذا الباب، وأضاف بأكمل التضييف، وعكف على الجود بما قدر عليه أحسن العكوف، وانجز ما وعد به دون مطل ولا تسويف، وقبل الخليفة رضي الله عنه هداياه، وحباه بالعطايا الجزيلة أكثر من عطاياه، وفي خلال هذه الأيام أهل هلال المحرم من سنة ثمان وستين وخمس مائة.

سنة ثمان وستين وخمس مائة

في أول يوم من شهر المحرم منها رغب أكثر الموحدين والعساكر من المرتزقين في السراح إلى بلادهم وأوطانهم عند ضيقة مرسية بهم، وغلاء السعر فيها بسببهم، فأذن لهم في ذلك، وارتحل أكثرهم، وأقام أشياخهم وكبراؤهم ومزاورهم، ودامت الإقامة حتى أهلّ بشهر صفر، فخرجت البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقين على عدد خروجها في الغزوة المذكورة للفارس الكامل خمسة [374] مثاقيل[3]، ولغيره أربعة مثاقيل وللراجل الكامل مثقالان ولغيره مثقال ونصف، وقبض كل شيخ قبيلة وافترق الناس طلباً للرفق والرزق وفي هذا الشهر عند استقرار أمير المؤمنين بمرسية من غزوته واستيلائه

(1) لا ننسى أن نلاحظ أن تعاليم المهدي مؤسس الدولة كانت لا ترتاح لظهور النساء ولا لسماع أصواتهن.

(2) هلال بن محمد يعني بن سعد بن مردنيش.

(3) يزن المثقال الموحدي أربعة كرامات و729 من الذهب.

راجع التعليق رقم5 ص 215.

عليها في سفرته، نظر في تثقيف معاقلها، وتوجيه الولاة إلى منازلها وحصونها، والعكوف لكتب نايلها، وفيه أحضر هلال بن مردنيش واخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف في مجلسه الكريم وأنسهم، وبسط لهم وجهه وعدله وفضله، وأولاهم من ذلك كل مستحسن سهل، ووعدهم من بشره وسره ما لم يبلغه مع المأمون الحسن بن سهل[1]! وأشار إليهم أنهم سيكونون من جملة الموحدين مع أهل الحظوة والأهل وأمرهم بالنظر في الارتحال معه وأن يسيروا بجميعهم إلى حضرته: مقره ومجتمعه، فأخذوا في النظر لذلك. والعزم إلى هنالك، وأقر العم أبا الحجاج يوسف بن مردنيش ببلنسية وأنظارها، وكتب له بالأمر على أقطارها، لما علم من صفاء طاعته وخلوصه، وولائه وخصوصه. وكذلك أبقى أبا عثمان بن[2] عيسى القائد على ما كان بيديه من حصن جنجالة وما إليه من الثغر وأبقى من رآه من القواد بالثغور وعمهم [375] بالخير والفضل منه حتى أنساهم ما تقدم لهم مع أميرهم، وعند ذلك أخذ في الانصراف.

ذكر انصرافه من مرسية الى اشبيلية بعد كمال بغيته، في غزوته

وفي أول شهر ربيع الأول من هذه السنة تحرك منها على ما ذكرته واجتاز في طريقه على مدينة اغرناطة، وترك فيها والياً أخاه السيد الأسنى أبا سعيد ووصل إلى اشبيلية يوم الخميس الثامن من ربيع الأول المذكور سنة ثمان وستين المؤرخة، ووصل معه أخوه السيد الأعلى أبو حفص، وجملة أشياخ الموحدين المتقدمين في هذا الأمر، ووجوه دولته وساير اخوته، فخرج

(1) ولاه المأمون عندما بويع ديوان الخراج، ثم بعثه إلى العراق وولاه على ما كان افتتحه طاهر بن الحسين بن مصعب ونال حظوة كبرى لدى المأمون.

ابن خلدون ـ العبر، الثالث طبعة دار الكتاب اللبناني ص 499 والتي تليها.

(2) هو القائد أبو عثمان سعيد بن عيسى الذي كان في أبرز قواد محمد بن سعد بن مردنيش، وكان ممن قدم الطاعة بعد انقراض ابن مردنيش وهو الآن يكافأ من قبل الخليفة.

راجع التعليق رقم 1 ص 317.

أهل اشبيلية إلى لقائه، والتبرك بدعائه، ومعهم الفقيه الحافظ أبو[1] بكر بن الجد فلقيهم مبتسماً ودعا لهم على عادته، وسأل الفقيه ابن الجد قبله من جميع صنفه، ودخل إشبيلية أوْقَر دُخُول، على أتم سلامة ومأمول، ووصل معه في هذا اليوم جميع أولاد محمد بن مردنيش بعيالاتهم، وعيال أبيهم واخوتهم، على ما أمر به أحفل وصول، فأنزلهم في قصر ابن عباد وفي الدور المتصلة به [376] واشترى لهم دوراً باشبيلية من أربابها لسكناهم، وبسطها لهم وملأها أرزاقاً وأرفاقاً. وخص منهم غانم[2] بن محمد بجمع جماعة من الجند الأندلسيين ومن أصحاب أبيه ومن أهل الثغور والأجناد بإشبيلية وأنظارها يكونون تحت تمييزه وتجويزه للغزو بهم وحماية الأنظار من العدو، في الحضر والبدو، والحق هلال أخا غانم والكبار من اخوته في جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة لحضور مجلسه العالي ومباشرة الأمر وما يدور من الآراء، تشريفاً لهم وتقريباً، وتأنيساً وتأديباً، فكان غانم يخرج بجمعه الذي جمع، واختاره من الأجناد يغزو مع الموحدين أعزهم الله جهات طليطلة وطلبيرة[3] وأنظارها، فظهرت منه في ذلك كفاية، وعلى العدّ ونكاية، يخرج بعدده غازياً ويرجع غانماً، وقد جعل على عسكره في مسلاخ أمير يميز ويصدق، ويستام[4] اليه ويوثق، والأموال تدفع إليه وإلى إخوته فيقسمونها على أتباعهم وفرسانهم، فظهرت عليهم النعمة والتقريب بأكمل الحرمة، ونال الأجناد معهم بركة عمَّتهم وخصتهم، وترتب غانم بهذا الترتيب على غزو بلاد النصارى مجتهداً، ناصحاً للأمر متجرداً وسلك مسلكه غزاة من الأجناد العرب حتى أقلق ذلك

(1) كان الحافظ ابن الجد ممن أسهم في حملة وبذة لكنه سبق الموكب الخليفي إلى أشبيلية عندما تقرر الاقلاع عن محاصرة وبذة، ولذلك نراه يخرج في أشبيلية لاستقبال الخليفة.

(2) غانم بن مردنيش هذا هو الذي أسندت إليه بعد هذا قيادة الأسطول المرابط في سبته على ما يذكره ابن عذاري في البيان المغرب ص 105.

(3) طلبيرة (Talavera) تقع في الشمال الغربي لطيلطلة على نهر تاجة تشتهر بزليجها الأزرق والأصفر وهي طبيرة. والعجب أن الحميري يتردد في الفرق بينهما. الروض المعطار ص 127 ـ 128. الفاسي الاعلام الجغرافية الأندلسية ص 28.

(4) كذا في الأصل والصواب (يستنام).

النصارى بآبلة[1] خربها الله، فاجتمع فيها جمع ذميم خرجوا مع زعيمهم [377] الضال المبين شان منوس[2] الذليل لعنه الله إلى جهة اشبيلية وقرطبة حسب ما أذكره بعد هذا. وعند وصوله إلى إشبيلية تأكد أمره العالي في بناء الجامع المذكور وكذلك في ابتناء البحيرة خارج باب جهو والقصور.

(وفد القيروان وتونس باشبيلية للتهنئة)

وفي هذه السنة المؤرخة وصل وفد أهل القيروان وفقهاء مدينة تونس وإفريقية إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بإشبيلية مهنئين على غزوته المذكورة وفيهم الفقيه عمر بن عبد السيد[3] من أهل تونس، فرحب بهم وأنزلهم وأكرمهم حتى انصرفوا إلى مواضعهم مسرورين، وكان الفقيه أبو بكر بن الجد، يثني على عمر بن السيد المذكور ويقول عنه: إنه فقيه القيروان!

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 295.

(2) راجع التعليق رقم 2 ص 221 حول شان منوس وانظر ميلشور ص 54 — 55 — 56 — 57.

(3) يعتبر بيت بني عبد السيد من أعرق الأسرات بتونس في القرنين الخامس والسادس الهجري، وقد ورد في المصادر التاريخية التونسية أن الخليفة لما نازل مدينة تونس في وجهته لافتكاك افريقية من النورمانديين المحتلين لسواحلها يوم السبت العاشر من جمادي الأول من سنة 554 (ماية 1159)، وعاين التونسيون ما عاينوا نزل منهم إلى عبد المؤمن أثني عشر شيخاً لطلب السلم منهم بنو عبد السيد، وفي صدر هؤلاء عمر الذي نعته ابن الجد هنا بفقيه القيروان... وقد أسعفهم عبد المؤمن بعد مكايدة شديدة...

التيجاني عبد الله: الرحلة تقديم حسن حسني عبد الوهاب طبعة تونس 1959.

الزركشي التونسي: تاريخ الدولتين تونس 1289هـ حسن حسني عبد الوهاب: كتاب العمر الرابع (مخطوط). التازي. تاريخ المغرب الديبلوماسي: قسم الموحدين.

(تحرش صاحب آبلة للموحدين ومصيره)

وفي شهر شعبان المبارك من هذه السنة[1] خرج من مدينة ابلة خربها الله القومس المسن الضال شان منوس المذكور المعروف عند أهل الثغور والمسلمين بالأحدب عظيم النصارى بآبلة، ومدير الحرب في الفتنة على المسلمين بالأندلس، فكم من فتكةٍ له في أيام السيرات مع الحشم وبعدها، في أيام فتوته وكهولته وشيوخته لعنه الله في شنّ غارات على المسلمين غرباً وشرقاً وقبلة [378] وجوفاً بجموع من الكفرة إخوته أهلكهم الله، يصل بهم إلى جزيرة طريف والجزيرة الخضراء[2]، ويسقي المسلمين من إذايته كأساً مراً، ولم يمنعه قطُّ نزول مطر، ولا اتصال قر ولا حر، ينالـه من ذلك بعض ضرر، فكان يهزم عساكر من تقدم من المسلمين، ويقفز بغاراته عمارة المؤمنين، إلى أن أذن الله تعالى بهلاكه وفناء شرذمته أهل آبلة في هذا التاريخ بسعد سيدنا ومولانا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، فخرج من آبلة يريد نظر إشبيلية على ما عهد في زمانه وحالة طغيانه في الشهر المؤرخ ووصل بجمعه الأشم إلى الوادي الكبير، وأجازه مع كفرته وشرذمته في المخاضة التي بين حصن بلمة[3] وحصن الجرف[4] فوق القبر المعروف بقبر الشهيد الغريب[5]،

(1) ... خروج شان منوس زعيم أبلة كان سنة 568، وقد سجل بروفنصال رسالة موحدية حول ... هذه الحملة ضد شان منوس غير أنها مجهولة التاريخ الأمر الذي أوقع الاستاذ المذكور في ... ضمن الرسائل الموحدية فيما بين تاريخ 555 و 556 فليصحح الخطأ رسائل موحدية 121 ـ 122 ـ 123 ـ 124 ـ 125.

Huici, Historia: page 269 — 270.

(2) Huici, T. I. page 269 — 270.

(3) هي المعروفة اليوم باسم Palma del Rio وتقع في شمال استجة على الوادي الكبير. .

(4) ... (Al ... Jarf) هو الذي يشير إليه الإدريسي في نزهة المشتاق ص 208 في الطريق بين ...

(5) ... هذا القبر.

وشن غاراته على جهات استجة[1] ماراً بها إلى قبلة قرطبة إلى القتبانية[2] فغنم في تلك الجهة من سايمة الغنم نحو خمسين ألف راس، ومن البقر نحو مائتي رأس، وأسر من المسلمين فوق مائة وخمسين رجلاً، وقصد في طريقه بعجبه إلى المخاضة التي فوق قرطبة المعروفة ببليارش[3] عند القصير[4] وأجاز غنائمه فيها، والأسرى من المسلمين في ثقافه مكتوفين مستغيثين إلى الله تعالى في نواحيها، وكان أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين [379] قد تقدم عنده خبر هذا الطاغية وخروجه واستعداده، وأمر عساكره المنصورة بالتأهب إليه وانتظاره بما يكون لديه، فلما كان ما ذكرته خرج إليه العسكر المنصور من إشبيلية يوم الخميس الثالث عشر من شعبان المبارك المؤرخ، وقدّم عليهم أمير المؤمنين أخاه السيد الأسنى أبا زكريا يحيى بن الخليفة رضي الله عنهم، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل، وبنو الجماعة كالحافظ المرحوم أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي ابراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت وأشياخ الموحدين أعزهم الله، وأشياخ العرب بنخبة قبائلهم، وأنجاد فرسانهم ورجالهم، فجدّوا بالإسراع إلى الجهاد، والاتباع لأعداء الله الكفار على وعد من الله ومرصاد. وجازوا الوادي الكبير في مخاضة حصن قطنيانة[5]، وأخذوا في طريقهم عدوة الوادي إلى قرطبة، فوصلوها ضحوة يوم الأحد السادس عشر من الشهر المذكور، والنّصارى أهلكهم الله قد جازوا أمس وصول الموحدين أعزهم الله في مخاضة القُصَير على ما ذكرته، فاجتمع الموحدون بالشيخ

(1) استجة (Ecija) مدينة قديمة وتقع جنوب شرقي أشبيلية قريبة منها. الروض المعطار ص 14 ـ 15. الفاسي: المصدر السابق.

(2) هي المكان المعروف باسم (La campina) وتسليمه رسائل موحدة: الكتبانية. الإدريسي: النزهة ص 173. بروفنصال: رسائل موحدية ص 113.

(3) اكتفى ويسي بنقلها هكذا Bulyaris ولكن من غير أن يحدد موقعها، وقد ورد ذكرها في كتاب «أخبار مجموعة» أقدم كتاب في تاريخ الأندلس. الحلل السندسية (ثان) ص 132.

(4) راجع التعليق رقم 1 ص 400.

(5) لم يهتد ميلشور إلى تحديد الموضع، أما ويسي فقد لفظه هكذا Cantinana.

المرحوم أبي حفص عمر بن يحيى، وتذاكروا معه في الرأي، فاتفق رأي الجميع على إتباع النصارى حيث انتهوا ولما وصلوا مدينة [380] آبلة في ذلك، وصفت نفوس الناس للغزو وخلُصت لله نياتهم، وطابت في طاعة الله مغيباتهم، وعزموا عزمة جِد وجَد وتحرك معهم في أولهم الشيخ المرحوم أبي حفص بجميع مَن كان معه من الموحدين بقرطبة، ونهدوا إلى أعداء الله عشية يوم الأحد المذكور، بعد أن استعدوا من الزاد لعلوفتهم وأكلهم ما يكفيهم في سفرتهم المنصورة، فمشوا على استعدادهم حتى وصلوا حصن بطروج[1] وهو قَفْرٌ لا أنيس فيه، ولحق بعض الناس الضعف من الإسراع في الاتباع، فاتفق الرأي على أن يقيم كل من ناله ضعف بالحصن المذكور. ويتجرد لهذا الاتباع أهل القوة والنجدة من الموحدين أعزهم الله ومن الأجناد والعرب فكان ذلك وتقدَّموا، وقدموا أمامهم طليعة في جملة من الأدلاء الحافظ أبا عمران موسى بن حمو الصنهاجي[2] صاحب يابرة قبل هذا، لشهامته بأخبار الثغور، لتُعْلِم كل ساعة برحيل النصارى ونزولهم ومبيتهم وترتيب مشيهم، ويتطلع على أسرارهم، فكل ما مشوا مرحلة تطلع عليهم، وأعلم الشيخ المرحوم والموحدين بما لَدَيْهم.

فلما كان صبيحة يوم الأربعاء التاسع عشر من شعبان المؤرخ تأخر النصارى وشيخهم الضال الطاغية عن الرحيل [381] من موضع مبيتهم، وذلك بموضع يعرف بفحص كركوى[3] على مقربة من قلعة رباح[4]، فاعلم

(1) حصن بطروج: (Pedroche) ويسميه الحميري بطروش ويقع شمال قرطبة.
الروض المعطار ص 45.

(2) كان هذا الحافظ في جملة الجند الذي أنجد به أمير المؤمنين فرنانده الببوج لما حالف الموحدين ضد ابن أخيه أذفونش الصغير. . . راجع ص 231 من المتن.

(3) فحص كركوى هو الذي يسمى الآن بـ: (Caracuel) ويقع جنوب السبطا (ريال) Cuidad Réal جنوب طليطلة.

(4) قلعة رباح (Calatrava la vieja) وتقع جنوبي طليطلة على وادي آنة، وقد ملكها «النصارى» بعد أن كانت بيد المسلمين إلى أن كانت وقعة الأرك فتملكها يعقوب.
الروض المعطار ص 163. بروفنصال ص ٦٩١.

الحافظ أبو عمران بن حَمُّو بما عاين من تأخرهم عن الرحيل في هذا اليوم فاعتقد الموحدون أيدهم الله أن تأخرهم لأنهم قد علموا باتباع الموحدين، وأنهم يريدون اللقاء في هذا الموضع المتسع، فتأهب الناس بأجمعهم ولبسوا غلايل الدروع، والبيض في رؤوسهم كالشمس في الشروق واللموع وأخذوا أسلحتهم في أيديهم، وإذا بالعدو الكافر في بلهينة[1] من اعتزازه، وعجب منه بكفاره، يظن أن لا مقارع له ولا من يقف قبله على ما تعود قديماً، ولم يعتقد أن الله تعالى قد أحاط به وهشمه هشيماً. وأعلم الحافظ أبو عمران بن حمو جميع العساكر بحاله، فعزموا في الحين على مقارعته، والبروز إليه في منازعته، فاستعجل الكافر حين ذلك بالرحيل، وقد تراءى الجمعان بكل فج ومسيل، فسلَّ الله عليهم سيفه، وحل بهم قلوبهم روعه وخوفه، وأحانهم في الحين حتفه، وانجازوا إلى جبل شاهق لا يصعد إليه إلا من طريق واحدة، في شعراء ملتفة غدقة اعتقدوا أنها منجاتهم، ولم يعلموا أن بها مضاجعهم ومصارعهم ومماتهم، تتخذ الولائم من لحومهم السباع، والطيور الجياع، فطلعوا[2] في ذلك الأسر والغنائم، والموحدون أيدهم الله قد رتبوا [382] عساكرهم، وتقدموا أمام راياتهم، فانضموا إليهم، وصعدوا في الجبل غلبة عليهم، والعدو الأحدب أبو برذع لعنه الله قد ضم شرذمته حوله، يحرضهم على القتال وقال لهم: «أنا قاعد في خبائي في رأس هذا الجبل بحيث أراكم وأنظر فعلكم» فتدافع الموحدون أيدهم الله مع النصارى المذكورين في ذلك الجبل الوعر الملتف بالشعراء والحجارة، في حيث لا ينفذ لفارس جري ولا مشي، فبعد نصف النهار في طعن وضرب، ومقارعة وحرب، هزم الله المشركين، وقطع دابر الكافرين، والحمد لله رب العالمين. ووصل الموحدون الى اللعين الأحدب الكافر وهو على سريره في خبائه، وقتل عليه، واحتز رأسه[3] من جسده لديه، وقتل جميع من كان معه. واتصلت الهزيمة على

(1) بلهينة العيش: رخاءه.

(2) كذا ولعل الأصل: فطلبوا.

(3) هكذا يعبّر ويسي بالاسباني) La cabeza del Giloso fué lle - vada.

النصارى في ذلك الجبل وفي الفحص المتصل به حتى حال الليل بين الموحدين وبينهم، ولم ينج من النصارى إلا قليل قدروا بنحو مائتي فارس. اختفوا في الشعارى[1] بالليل رجاله، دون فرس ولا درع ولا ترس، وفني في هذه الهزيمة ادلاء النصارى وشرارهم من أهل آبلة دمرها الله، ولم يكن لهم بعد هذه الهزيمة رأس يخُرجون معه ولا قام لهم علام أبداً إلى هذا التاريخ[2]، ونفل الله تعالى المسلمين أثقالهم وازوادهم التي كانوا استعدوا بها [383] لطول ترداده‌م على أرض المسلمين بزعيمهم ما أعجلوا[3] عنها. وصار ذلك في أيدي المسلمين، وولى أعداء الله أدبارهم، وقد أنزل الله تعالى بهم النقمة، وأحل بهم الدبرة، ووكل بهم حسرة الخيبة، لا يلوي الأخ على أخيه، ولا الابن على أبيه، والحمد لله رب العالمين، وانتقد الأسرى من المسلمين بأجمعهم، والغنائم كلها من البقر والغنم، وانصرفت بالأمر الكريم إلى أصحابها وأربابها، وامتلأت أيدي الموحدين من الدروع والبيض والخيل والبغال والحمر، ونالوا في ذلك الجهاد المبرور، والغنيمة والأجور، وجمعت رؤوس النصارى وسيقت إلى الشيخ المرحوم أبي حفص والسيدين الأجلين أبي زكريا، وأبي ابراهيم، وأحضر من أسرى النصارى من يميز الرؤوس المذكورة، فعين رأس اللعين الطاغية «الأحْدب» فيهم، فأمروا بحمله في الحين إلى حضرة سيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بإشبيلية. . وخص بحمله إلى الحضرة المذكورة يحيى بن الشيخ الوزير أبي العلى بن أبي اسحاق بن جامع، فخرج من المحلة المؤيدة من ساعته في اليوم المذكور، وأسرى بقية يومه وليلته وأصبح في قرطبة، وألفى فيها السيد الأسنى أبا سعيد عثمان بن الخليفة قد وصل من اغرناطة بعسكره، تابعاً في هذه الغزوة

(1) جمع شعراء: الأرض الكثيرة الشجر.
(2) تسمى هذه الموقعة في بعض المصادر العربية بغزوة السبطاط لكنها أي هذه المصادر تخطىء إذ تذكر أنها كانت في سنة 569 وأنت ترى أنها كانت في شعبان 568.
التكملة (كوديرا)، الترجمة رقم 66.
(3) كذا في النص وفيه ركاكة.

السعيدة، فاجتمع به ولم يعلمه بشيء [384] وخرج من قرطبة من فوره، وأسرى يومه كله، ووصل إشبيلية عشية يومه، وهذا غريب في السير[1]. ولقد رأيته[2] حين وصوله وهو من التعب حيران، يتمايل من عدم النوم كالنشوان، هو وأصحابه الواصلون معه. ودخلوا في الحين على أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، وانفرد يحيى بن أبي العلى بوصف الفتح على حاله، وشرح نصر الله على أوفى كماله. فكان في وصف هذه الوقيعة أفصح من عرار[3] حين بعثه الحجاج إلى عبد الملك بن مروان برأس عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وضربت الطبول واجتمع الناس للتهنئة إلى الخليفة رضي الله عنه ومبايعته وتقبيل يده المباركة على ذلك، وكان يوماً سعيداً مباركاً، وقام فيه الفقيه الحافظ أبو بكر بن الجد خطيباً فأجاد، وتكلم القاضي أبو موسى بن عمران تابعاً له أو كاد. وانتسب هذا الفتح العظيم، والبشر العميم، إلى الشيخ المرحوم أبي حفص فبحضوره كان هذا الفتح في الكفار، وبرأيه أعلى الله دينه

(1) ست وثلاثون ساعة من كركوى جنوب طليطلة إلى مدينة أشبيلية.
(2) مرة أخرى نجد ابن صاحب الصلاة في البلاط الموحدي بل إنه يصف هذه المرة المقابلة التي تمت بين أمير المؤمنين وبين يحيى بن أبي جامع.
(3) عرار هذا هو ابن أبي عمرو بن شأس عبيد بن ثعلبة ابن ذؤيبة بن مالك بن الحرث بن سعد بن ثعلب ابن داوود بن أسد بن خزيمة، وقد روت الرواة أن الحجاج لما أخذ برأس بن الأشعث وجه به إلى عبد الملك بن مروان مع عرار الأسدي وكان أسود ذميماً، فلما ورد عليه جعل عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقعة إلا أنبأه به عرار في أصح لفظ واشبع قول واجزل اختصار فشفاه من الخبر وملاء أذنه صواباً وعبد الملك لا يعرفه وقد احتقرته عينه حين رآه فقال عبد الملك متمثلاً:

أرادتْ عراراً بالهونِ ومن يُرِدْ — لعَمْري عراراً بالهوان فقَد ظِلَم
وان عراراً أن يكُن غَيْر واضِحٍ — فأني أحب الجوب ذا المنكب العَمَم

فقال له عراراً: أتعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، قال: فأنا والله عرار! فزاد سروره وأضعف له الجائزة.
والبيتان من قصيدة لوالد عمرو بن شأس من كلمة يعاتب بها زوجه أم حسان وكانت تؤذي ابنه عرار وتعيّره بالسواد يقول في مطلعها:

ديار ابنةِ السَّعدى هيه تكلَّمي — بدافقة الحومان فالسفح من رمَم

الكامل للمبرد. سيد بن علي المرصفي ـ جزء ثالث طبعة القاهرة 1928 ص 126.

بهذا القرار، بالسمر الطوال والسيوف الماضية الأشفار، فكم من دعي سفك دمه! وكم من شقي أباح حماه وأعدمه! وهو الذي نصح الأمر قديماً، وأقام أمره قويماً. وكان وصول هذه المسرة العظمى [385] يوم الجمعة الحادي والعشرين من شعبان المبارك، على ثلاثة أيام من تاريخ الوقيعة المذكورة، وجلس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين وأخوه السيد الأعلى أبو حفص معه يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان المؤرخ عند السيد الأعلى أبو حفص معه يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان المؤرخ عند شروق الشمس بمجلس اليمن من قصره بداخل قصبة إشبيلية مجلس التهنئة، وقد ترتب الموحدون أعزهم الله والأشياخ من طلبة الحضر والفقهاء والكتاب والخطباء فحضروا، وأذن لمن حضر بالباب من المهنئين بالدخول على مراتبهم من الأدباء والشعراء[1]، فأدخلهم الوزير أبو العلى ادريس بن جامع والفقيه أبو محمد المالقي شيخ الطلبة معه، فخطب الشيخ الزاهد أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولاً باللسان الغربي فأعرب فيه للموحدين في لسانهم وبيانهم، ثم شرح ذلك باللسان العربي لأهل شأنهم. ثم قام الفقيه أبو بكر بن الجد خطيباً وتلاه القاضي أبو موسى عيسى بن عمران، ثم قام الفقيه المذكور أبو محمد المالقي على مثالهم، وأنشد الشعراء ما صاغوه من أشعارهم فكان أولهم الكاتب أبو علي بن الأشيري[2] فاستحسن شعره، وحمد ذكره، ثم تلاه غيره من شعراء

(1) لم يحتفظ لنا التاريخ مع الأسف الشديد بتسجيل ما قيل في هذه الاحتفالات من شعر ونثر وإن كنا على يقين من أنها كانت مناسبة انطلق فيها الأدباء انطلاقتهم المعهودة، والعجب من ابن صاحب الصلاة فلقد اعتدنا منه استقصاء جل الأشعار، ولست أعتقد أن هذه الأشعار كانت من نصيب ـ السفر الثاني فإن الحديث عن هذا الموضوع انتهى بانتهاء هذا السفر، وقد افادنا عن طليعة السفر في آخر المجلد الذي بين أيدينا.

(2) هو حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب المعروف بابن الأشيري، ويكنى أبا علي وهو من أهل تلمسان نشأ بها وأخذ عن الأستاذ أبي الخرّاز، وأخذ بالمرية عن أبي الحجاج بن يسعون 540 وكان من أهل العلم بالقراءات واللغة وقد غلبت عليه صناعة الأدب، وكان ناظماً ناثراً في الوقت ذاته، وله مختصر في التاريخ سماه نظم اللآلي، وله قصيدة مستجادة في غزوة السبطاط التي كانت سنة 569، على ما يقول ابن الأبار في التكملة نشر كوديرا رقم 66. =

أهل العدوة وأهل إشبيلية، وطال الإنشاد فقام أبو محمد [380] المالقي المذكور، وقبض من سائر الشعراء بطايقهم بما صاغوه، ووضعها بين يدي أمير المؤمنين، وأمر رضي الله عنه بتعجيل جوائزهم؛ فخرج للطبقة الأولى خمسون ديناراً إلى أربعين إلى ثلاثين[1]. ثم بويع أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين على ذلك وقبل جميع الحاضرين يده المباركة، وكملت المسرة بذلك وترادفت الفتوح هنالك، ولما كانت هذه الوقيعة في الكفرة النصارى أهل آبلة أهلكهم الله، وقتل فيها زعيمهم الأحدب لعنه الله، سرى الخبر في بلادهم سرى الشمس، وتحدثوا في كنائسهم مع اقستهم وقواميسهم بما عاينوه من قتل أحزابهم بالأمس فخامرهم الروع والجزع، وظلت قلوبهم من مقتلهم تتصدع، ثم توالت عليهم في أثر ذلك البعوث من العساكر بالسرايا والمقانب فكان ما أذكره:

ذكر بعث أبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت وابي محمد عبد الله بن أبي اسحاق بن جامع بالميرة الى بطليوس، والأمر الكريم لهما بغزو النصارى أهلكهم الله.

وانهما لما تحركا من إشبيلية في أربعة آلاف فارس من [387] الموحدين أعزهم الله ومن الأجناد الأندلسيين ومن العرب، ومعهم الميرة المذكورة على ثلاثة آلاف دابة من القمح والشعير والدقيق والزيت والملح والآلات والمرافق، واستعداد الأرزاق لأهلها رفقاً بهم في المضايق، ووصلوا بها إلى بطليوس المذكورة، ودفعوها إلى شيخها القائد أبي غالب بن أبي الحسين بن الموصلي[2] واختزنها على ما أمر به، تحركوا إثر ذلك عائدين

= وأنت خبير بأن هذه الوقعة جرت في شعبان سنة 568. هذا وقد ذكر ابن عبد الملك في الذيل والتكملة أن أبا علي هذا كان من جملة رواة ابن صاحب الصلاة.

(1) كانت بالفعل من أهم المناسبات ويدلك تقسيم الإنتاج إلى طبقات ومراتب.

(2) اقترن اسم بني الموصلي ببطليوس نظراً ـ فيما يظهر ـ لصدارتهم فيها وقيادتهم. راجع صفحة 308.

ووصلوا نـظر طلبيرة، فـأغاروا عليهـا وعلى بسائطها فغنموا من سائمة البقر والغنم أكثر من ثلاثين[1] ألفاً مع ما وجدوه من سبي، وامتلأت أيدي المسلمين من ذلـك، وقتلوا من رجـال النصـارى من حـاربهم، وأسـروا من طـاوعهم، وانصرفوا موفورين سـالمين، ثم تمادى الأمـر الكريم إلى الأجنـاد مثل ذلـك، فغزوا أنظار طليطلة وما يليها واستاقوا منها الغنائم وأذاقوا الكفار شراً، وسقوهم من الغنيمة والإسار كأساً مراً، وتراموا بإرسالهم إلى السلم جانحين، ولأبـواب الصلح فاتحين، وللمهادنة طالبين، ولأسبابها راغبين.

(استسلام صاحب طليطلة وصاحب قلمرية)

فأول من أرسل القومس نونه[2] صاحب طليطلة، ظئر اذفـونش الصغير[3] لعنه الله، ثم تابعه اذفونش بن الرنك[4] صـاحب قلمريـة، وبعث ارسالـه راغباً بأعظم مما رغب فيه نونه، وذلك في ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمس مائة [388] فأسعفهم الأمر العزيز في رغبـاتهم وطلباتهم، لمـا كان في نفس أمير المؤمنين بن أميـر المؤمنين رضي الله عنـه من إسكـان البـلاد القفـرة في هـذه الجزيرة، وما كان من غدر جرانـده[5] اللعين العلج لها من ثغـورها المثغـورة،

---

(1) ينقل ويسي هذه المعلومات في كتابه بالحرف أنظر ص 270.

(2) نونيه Nuno. راجع التعليق رقم 5 ص 286.

(3) هو المعروف كـذلك في المصـادر المسيحية تحت اسم El Rey — Chico أنـظر التعليق رقم 3 ص 97.

(4) هو الملك الفونسو هنريكيز ملك قلمرية أي البرتغال (Alfonso Enriquez). راجع التعليق رقم 1 ص 96.

(5) يعني به جرانده الذي كان قائداً لابن الرنك، وصاحب جيوشه وقد كان غدر بمدينـة باجـة وبكثير من الحصون والمدن، وصل إلى أشبيلية مستسلماً طائعاً. . . وقد قبلت منه فيئته، بيدان ابن الرنك لم يزل يراسله فظهرت على جرانده إرادة في الانحراف. . . فبعث إلى سجلماسة. . . ثم حاول أن يفر، ولكنه قتل. وكذا في ابن عـذاري ص 94 ولا بدَّ لنـا هنا أن نقف قليـلاً لنذكـر بما ورد عن ال[illegible] من أنَّ أمير المؤمنين أجاز النصـراني المسمى بجرانـده إلى مراكش ثم صـرفـه إلى السـوس وأرسل الكتب من السوس إلى الأشبونة إلى ابن الرنك يعلمه بمكانه من السوس في ساحل البحر، وقال له: «لعلك تعمر القطائع لتأخذني. . . وعثر على هذه الكتب فوجه أمير المؤمنين لدرعة لموسى =

فـأقامـوا بإشبيليـة نحو شهـرين حتى كمـل السلم المـذكـور على اجتيـاز أمير المؤمنين، وبأوفى الربوط في حماية الدين، وأعطوا الكفرة صفقة الذل بأيديهم على إخوتهم الكافرين، وصرفوا على حد مرسوم، وإلى أجل معلوم.

كمل السفر الثاني من كتاب «تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أيمة وجعلهم الوارثين». وصلى الله على محمد وآله، يتلوه في الثالث بحول الله: سنة تسع وستين وخمس مائة خبر وصول العلج الطاغي.

= بن عبد الصمـد يذكره بما اكتشف من أسرار ويأمـر لكرانده بالمشي إلى درعـة مع أصحابه ـ وكـانوا ثـلاثمائـة وخمسـين فلما وصلوا فعـل بهم مـوسى مـا أمـر بـه من قتلهم وذلـك سنـة خمس وستـين وخمسمائة». سقنـا النص بكامله لنعـزز به الأخبـار المتعلقة بـالعلج الطاغي والتي نقلنـاها من ابن عذاري ولنذكر أن بروفنصال لم يطلع على ابن عذاري حينما علق بأن البيذق المصدر الموحيد الذي يتحدث عن تمرد جرانده (البيذق: 216)

النصوص التي نقلت عن

ابن صاحب الصلاة

في المؤلفات القديمة

ابن القطان في كتابه نظم الجمان

1

في معرض الحديث عن طبقات الموحدين

10 (ب) 11 (ب)

«... وأما الخمسون فهم: أما من قبيل هرغة فستة رجال: أبو مروان عبد الملك بن يحيى، وأبو زيد عبد الرحمن بن سليمان، وإسحاق ولم أجد اسم أبيه، وأبو زكريا يحيى بن يومور، ويعزى بن مخلوف، وأبو زيد عبد الرحمن بن داود.

وأما من قبيلة تينملل فأربعة عشر وهم: أبو عمران موسى بن سليمان القاضي، وأبو عبد الرحمن، وسواجات بن يحيى، وأبو بكر بن يزامارن، وأبو محمد عبد العزيز - لا أدري ابن من -، وعلي بن يامصل، والحاج موسى، ويحيى اغوات، وعبدالله بن ينساك، والقاسم بن محمد، ويوسف بن مخلوف وأبو علي يونس.

وأما من قبيلة هنتاتة فثلاثة: أبو يعقوب يوسف بن وانودين، وداود بن عاصم، وأبو محمد بن واحدان.

وأما من جدميوة فرجلان: أبو محمد يعيش، وأبو حرب.

وأما من جنفيسة فأربعة: أبو إسماعيل، وأبو زيد عبد الرحمن بن رجو، وعبدالله بن الحاج، وأبو سعيد يخلف بن الحسين. وأما من القبائل فرجل واحد: وهو عبد الرحمن بن [illegible].

وأما من هكسورة فثلاثة: إسحاق بن يونس، وعبدالله بن عبدالله وأبو عبدالله بن أبي بكر المعروف بابن يندوس.

وأما من صنهاجة فثلاثة: أبو محمد الجراوي، ويحيى بن وسنار، وإسحاق بن محمد.

وأما من الغرباء فخمسة: أبو يعقوب اللمطي، وأبو زكريا يحيى الدرعي، وعبيدالله بن يوسف الزناتي، وسليمان الجزولي، وإبراهيم بن جامع.

هكذا عدَّدهم ابن صاحب الصلاة في كتابه».

2

ورقة 12 (أ) «قال ابن صاحب الصلاة:

وكان له (أي للمهدي ابن تومرت) رضي الله تعالى عنه رجال يخدمونه في داره، يُسمون أهل الدار من أصحابه، يختصون به في ليله ونهاره، وهم المعروفون بأهل الدار، أخصهم به: عبد الواحد بن عمر، وأبو محمد وسنار بن محمد، وأبو محمد عبد العزيز، وأبو موسى عيسى، وعبد الكريم أفغو».

3

ورقة 44 (ب) ـ في معرض الكلام عن عبد المؤمن بن علي -:

قال ابن صاحب الصلاة:

«إنه ما لبس قط إلا ثياب الصوف عن قميص وعن سراويل وعن جبة تواضعاً لله تعالى وزهداً».

4

ورقة 78 (ب) (في الحديث عن غزوات عبد المؤمن بن علي في سنة 530 هـ.)

«وغزوة تادلا.

قال ابن صاحب الصلاة:

إنها أول غزوات سيدنا ومولانا الخليفة رضي الله تعالى عنه بعد الإعلان

(يقصد الإعلان ببيعته) في عام ثلاثين، فميز الجيش بتينملل، وقسم البركة، وتشاور مع الموحدين أعزهم الله تعالى في أي وجهة يقصد فأشاروا بتادلا، فأضمر ذلك في نفسه سراً، ثم نهض مورياً بوجهته حتى صبح تادلا وجهاتها، فقتل وسبى، وامتلأت أيدي الموحدين أعزهم الله تعالى، ففر عنه أصحابه وتركوه[1]، فكرّ منصرفاً، فكبا به فرسه وسقط عنه، فأدركه الموحدون أعزهم الله تعالى وقتلوه».

ابن الآبار: الحلة السيراء ص 14: (القرن السادس)

1

ترجمة أبي الوليد محمد بن عمر بن المنذر:

وذلك لما ذكر الصراع الذي شب بين ابن المنذر وبين ابن وزير وأن هذا الأخير هزم الأول وسجنه بمدينة باجة وأوعز بسمل عينيه، وبقي هذا رهن السجن إلى أن أنقذه الموحدون لما افتتحوا باجة فعاد إلى شلب. . . وكان من أمره أن أمسى والياً على شلب قائماً بالدعوة المهدية وذلك في جمادى سنة 49، ثم نقل إلى إشبيلية. قال ابن الآبار: في خبر ذكره ابن صاحب الصلاة في كتابه ثورة المريدين من تأليفه».

2

ص 208 - 209 من الحلة السيراء

«وذكر أبو محمد بن صاحب الصلاة: أن الذي قام عليه ابن أضحى من الملثمين هو علي بن أبي بكر المعروف بابن فنُّو. وهي (أي فنو) أخت علي بن يوسف بن تاشفين كان أميراً عليها (أي غرناطة) بعد أبي ذكرياء يحيى بن غانية قال: واستصرخ يعني ابن أضحى بابن حمدين بقرطبة وبابن جزي قاضي جيَّان فوجه إليه ابن حمدين ابن أخيه عليّ بن أبي القاسم أحمد المعروف بابن أم العماد في عسكر قرطبة وعلم بذلك سيف الدولة أحمد بن هود فعجل ودخل مدينة غرناطة وانصرف

(1) كذا في الأصل، ويبدو أن كلمات من النص سقطت قبل هذه الجملة إذ لم يسبق ذكر للقائد المرابطي الذي يبدو أن الضمير هنا يعود عليه.

ابن أم العماد خائباً وتعاون ابن هود مع ابن أضحى على قتال الملثمين وحصارهم بالقصبة أشهراً، وفي أثناء ذلك جرحوا ولد ابن هود وأسروه وأدخلوه القصبة فمات من جراحه فغسلوه وكفنوه وجعلوه في نعش ودفعوه إلى أبيه فدفنه، قال: ثم مات القاضي ابن جعفر قاضي مرسية الثائر بها جيّش لمعونة أهل غرناطة فلما وصل إلى ما يقرب منها وهو في ألفي فارس من أهل الشرق، خرج الملثمون إليه فهزموه وقتلوه وكثيراً ممن كان معه، ودفن هو بغرناطة، وعجز ابن هود ففر إلى جيان وكان قد ترك بها ابن عمه نائباً عنه وابن مشرف البراجلي فوفَيا له وتغلب الملثمون على مدينته غرناطة، وفر محمد بن أضحى إلى المنكب ثم منها إلى حصن بني بشير».

3

ص 214 من الحلة السيراء

. . . فلم يرع ابن عبد العزيز إلا إحداق الجند بقصره يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شهر جمادى الأولى المذكور (يعني سنة 40) وحكى ابن صاحب الصلاة «إن ذلك كان في الخامس والعشرين منه».

4

ص 217 - 218 من الحلة السيراء

وذكر ابن صاحب الصلاة أن عبدالله الثغري كان قائداً بكونكة، فلما سمع بقيام ابن حمدين خرج إليه وقام لديه واتفق أن وصلته مخاطبة أهل مرسية يذكرون تقديمهم أبا محمد بن الحاج وأنه استعفى من ذلك فأنفذ إليهم الثغري والياً وقدم أبا جعفر بن أبي جعفر قاضياً. قال: فورد يوم الثلاثاء منتصف شوال سنة 39 وظهر من أبي جعفر حب الرياسة فحشد الناس لقتال الملثمين باوريولة وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم ثم داخل أهل بلده مرسية في أن يأمّروه ويتقدم للقضاء أبو العباس بن الحلّال ولقيادة الخيل عبدالله الثغري فلم يخالفوه، وبعد انعقاد البيعة له نبذ طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه واقتصر في لقبه على الأمير الناصر لدين الله وأسقط منه الداعي لأمير المسلمين وقبض على الثغري فسجنه وصهريه ابني مسلوقة وصيَّر قيادة الخيل لزعنون أحد وجوه الجند ثم توجه إلى شاطبة معيناً لابن عبد العزيز في

حصار الملثمين الممتنعين بقصبتها ورئيسهم إذ ذاك عبدالله بن محمد بن غانية فثارت العامة بمرسية عند مغيب ابن أبي جعفر عنها وسرّحوا الثغري وصهريه من معتقلهم فلحق بها وأطفأ تلك الثائرة وهرب الثغري إلى كونكة وعاد هو إلى حصار شاطبة إلى أن هرب عبدالله بن غانية منها فاتبعه ابن أبي جعفر خيلاً سلبت ما تحمّل من المال وأفلت هو فلحق بالمرية ولما تغلب ابن عبد العزيز على شاطبة عاد ابن أبي جعفر إلى مرسية وذلك في صفر سنة 40 ثم توجه بعد ذلك إلى غرناطة مغيثاً أهلها فلقيه الملثمون بخارجها فهزموا جموعه وقتلوه وعند انصراف الفلّ إلى مرسية أجمع أهلها على تأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر هذا وذلك في أواخر شهر ربيع الأول من السنة المذكورة فانتقل إلى القصر ودعا لابن هود ثم لنفسه بعده وقدم أخاه أبا بكر على الخيل وكان ابن حمدين قد وجه ابن أخيه وهو المعروف بابن أم العماد بعسكر، فردَّ خائباً ثم أعاد توجيه عسكر آخر مع ابنْ عمه المعروف بالفلفلي صحبة أبي محمد بن الحاج وابن سوار وغيرهما من الواصلين من أهل مرسية إليه فصدّ عن دخولها وطولب المائلون إليه، وأقام ابن طاهر في إمارته أياماً ريثما خوطب أبو محمد بن عياض بتعجيل الوصول إليهم فعجل المسير نحوهم وتلقاه زعنون وهو والٍ على اوريولة فرمى بها إليه وملكه إياها ولحق به الذين خاطبوه من مرسية يحرضونه على قصدها ولا علم لابن طاهر بذلك بل تمادى على تحسين الظن بالذين قدموا من لقاء ابن عياض وقد برز الناس إلى لقائه ثم دخل القصر الكبير لا يدافعه عنه أحد وذلك في العاشر من جمادى الأولى من السنة وانتقل ابن طاهر إلى الدار الصغرى ثم. . . فتركها وانتقل إلى داره وعف ابن عياض عن دمه لعلمه بضعفه وكان مع شهامته حسن السيرة. وفي هذا الشهر خلع الجند مروان بن عبد العزيز ببلنسية واستدعوا ابن عياض فأمروه وأقام على شرق الأندلس داعياً لابن هود إلى أن قتل بالبسيط، وداعياً بعد ذلك لنفسه وخالفه عبدالله الثغري إلى مرسية في بعض أسفاره منها فدخلها وانتزى فيها وكان قد أنفذه رسولاً إلى الطاغية اذفونش ليعقد معه السلم ويمالئه على صاحب برشلونة فعاد من سفارته هذه وزعم أن اذفونش أمّره على مرسية واستعان على دخولها بطائفة من أهل الفساد كانوا يشايعونه فتم ذلك وهرب محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض فيها، فلحق بألقنت وذلك في أوائل ذي الحجة من سنة ٤٠ ثم قتل الثغري سابع رجب سنة 41 واستولى ابن عياض ثانية على مرسية وسائر بلاد الشرق إلى أن قضى نحبه من سهم رُمي به في بعض حروبه مع الروم يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة 42

فكانت ولايته عاماً وتسعة أشهر وعشرين يوماً وحمل إلى بلنسية فدفن بها ومحمد بن سعد إذ ذاك والٍ عليها فقام بمواراته وعلم أهلها بعهد ابن عياض إليه بالإمارة من بعده فبايعوا له ويقال بل نصَّبه أهلها لذلك دون عهد، وأما أهل مرسية فامضوا نيابة على بن عبيد عن ابن عياض بعد وفاته إلى أن تخلى هو في أواخر جمادى الأولى من السنة عما بيده لأبي عبدالله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي ابن مردنيش وجده هو المعروف بذلك فقوي سلطانه وعظم شأنه واشتد حذر ابن طاهر هذا منه لما كان يسمع ويبصر من شهامته وحزامته وربما عرض له ابن سعد بما يزيده حذراً منه وانقباضاً عنه فأخذ في التلون وأقبل على الانهماك والإدمان. . . . طلب السلامة من غائلتها وقطع معه مدته. . . . إلى أن توفي ابن سعد منسلخ رجب سنة 567 فأفْرج روعه ورسخ بالدخول في الدعوة المهدية أمنه، وتوفي بمراكش سنة 574 أكثر هذا الخبر المَسوق عن ابن صاحب الصلاة.

5

ص 229 من الحلة السيراء

. . . ثم سكن ابن حمدين هذا مراكش مجاوراً لأبي عبد الملك بن عبد العزيز [illegible] . . ابن وزير رؤساء المغرب قاله « ابن صاحب الصلاة وحكي أنهم باتوا ليلة في [illegible] جمعهم فيها انقلاب الزمان وابن حمدين غائب عنهم فلما حضر كتبوا اليه معرفين [illegible] فجاوب ابن وزير منهم بأبيات منها :

[illegible] واحد الفَضْلِ والسَّماحِ   ويا فَتَى الجدِّ والمزاح
[illegible] مُستَفَهِماً رسولاً   فهزَّ مني عَطْفَ ارتياح
[illegible] الأنسِ لو أعِيدَتْ   أصبح عندي مِنَ الصباح
[illegible] فيها السُّرورَ صِرْفاً   وأنتَ ريحانَتِي وراحِي
[illegible] [illegible]بِّي ولَذَّ شُرْبِي   بغَيْر إثْمٍ ولا جَناح
[illegible] [illegible]م في وَصْف ظَبْي   يبسم عن وردٍ وعَنْ أقَاح
[illegible] [illegible] خصيب رِدْف   ينهض عن مثقَل ودَاجِي
[illegible] [illegible]ـتُهُ ورُبَّ شكْوى   أليمة من هَوى المِلاح
[illegible] [illegible] الليْث في محَلٍّ   يقودُه جَائِل الوشَاح

يا فارسَ الخَيْلِ إذْ تلاقَى   في مأزقِ البَاسِ والكِفَاح
إن صِفَاحَ الحِسَانِ أنْكَى   في القَلْبِ قُرْحاً من الصِّفاح
أشْفارُ ألحَاظِها شِفَارٌ   تندقُّ منها سُمْرُ الرِّمَاح
أيُّ القُلوبِ الصِّحَاحِ يَبْقَى   على جُفُونٍ مَرْضَى صِحَاح
أفْديك من عَاشِقٍ عفيفٍ   غيرَ مُبيح سِوى المُباح
ينقادُ للبرِّ والمراضي   وهْوَ عَنِ النُّكرِ ذُو جِمَاح
فانْعَم هنيئاً قريرَ العَيْنْ   ما اعتزَّتِ القضبُ بالرِيَاح

6

ص 235 من الحلة السيراء

في معرض الحديث عن بيتين من الشعر لأبي جعفر الوقشي هما :

وزنجيٍّ ألَمَّ بغصن نورٍ   وقد زُفَّت لنا بنتُ الكروم
فقال فتى من النُّدَمَاءِ : صِفْهُ   فقلت : اللَّيلُ أقْبَل بالنُّجُوم

« وغلط أبو مروان بن صاحب الصلاة الإشبيلي فنسبها في تاريخه الى بعض. الأمراء وزعم أنه قالها في حبشيٍّ بيده شمعة . . . »

7

ابن الأبار التكملة (كوديرا) رقم 1394

« وقال ابن صاحب الصلاة : توفي (يعني عبد الله المالقي : سنة ثلاث وسبعين . . »

8

ابن الابار التكملة (العطار) رقم 162

عند ترجمة أبي مروان أحمد بن عبد الملك الأنصاري . .

وقال أبو مروان ابن صاحب الصلاة: كان ذلك (يعني استشهاد أحمد ابن عبد الملك بليلة) يوم الخميس الرابع عشر من شعبان المذكور (يعني سنة تسع وأربعين وخمسمائة).

9

ابن الابار التكملة (كوديرا) رقم 1394

عند ترجمة نُجبَة بن يحيى الرعيني .

وقال ابن صاحب الصلاة: «توفي ليلة الخميس السابع والعشرين من جمادى الأخيرة، وكانت وفاته بالموضع المعروف بعطف جزيرة قبطيل ـ وهو واصل صحبة المنصور مقدمة لغزو الروم ـ وسيق الى أشبيلية فدفن بمقبرة الفخارين لصلاة الظهر من يوم الخميس المذكور (يعني سنة 591)

ابن عناري: البيان المغرب ص12 (نشر ويسي)

1

صفحة 12:

الموضوع: الخبر عن حركة عبد المؤمن الطويلة الأعوام ومقتل تاشفين أمير أهل اللثام. من سنة أربع وثلاثين الى سنة أربعين.

في معرض الحديث عما أصاب تاشفين من برد وقر حتى ألجأته الضرورة لحرق أوتاد الأخبية للاستدفاء بها.

«. . ولقد أخبر ابن صاحب الصلاة بسند ذكره عمن أخبره أن امرأة بعثت لتاشفين بطبق كبير عليه سَبْنِيَة فظن أنه فاكهة وإذا فيه فحم فسر به. . .»

2

صفحة 16

الموضوع : ذكر مقتل الروبيرتير (Roverter) وأكثر أصحابه :

قال ابن صاحب الصلاة: «كان هذا الرومي الروبيرتير من أكبر الطغاة بالأندلس نجدة وظهوراً متصلة. . فتردى في حافة عظيمة. . . . وتغلب الموحدون على. . . . من قدر الله بوفاته من اللمتونيين، فلما أصبح الله بالصباح هبطوا في

الحافة المذكورة فوجدوا تاشفين بها على تلك الصورة في ليلة سبع وعشرين من رمضان من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة فقطعوا رأسه ووجهه الأمير عبد المؤمن إلى تينملل فعلق في عضن الشجرة التي عند مسجد المهدي».

3

صفحة 19

الموضوع : ذكر منازلة تلمسان وفتح تاجرت وما اتصل بذلك . .

وقال ابن صاحب الصلاة : « لما استقر عبد المؤمن بتلمسان بعد استشهاد مَن استشهد امتنعت قصبتها منه بمن فيها ممن خاف على نفسه ، فأقام مدة عليها ثم رحل الى فاس وترك عسكراً يحاصرها » .

4

صفحة 20

الموضوع : فتح مدينة فاس .

وذكر ابن صاحب الصلاة أن الصحراوي كان تعرس بامرأة من قبيلة في ليلة الثاني عشر لذي القعدة فتمكن الجياني من ماله وبعث اليه بطعام وشراب ليشغله به تلك (الليلة) فلما كان صبيحة اليوم المذكور أدخل الموحدين المدينة وفر الصحراوي الى طنجة ثم جاز الى الأندلس واتصل فتح فاس بالأمير عبد المؤمن وهو بمكناسة فوصل اليها وأقر أهلها إبقاء الجياني على أشرافها وذلك سنة أربعين .

5

صفحة 22

الموضوع : منازلة عبد المؤمن لمدينة مراكش سنة 541 .

« . . . وكان اللمتونيون بداخل مراكش في عدة من كبارهم وبقية من أحشادهم

وأميرهم إسحاق بن علي بن يوسف وكان صبياً فأمرهم بالخروج الى [illegible] النازلين عليهم فعزموا على قتالهم وخرجوا اليهم بخيلهم ورجلهم في نحو خمسة الاف وخمسمائة من الفرسان ومن الرجال ما لا يحصى عددهم كثرة ، ووصلوا بجمعهم الى محلة الموحدين وكان عبد المؤمن أمر أصاحبه ان يكمنوا لهم ولا يظهر احد منهم فلما استحر النهار وعم عسكر اللمتونيين الاعتزاز خرجت الكمائن فانهزموا في الحين وولوا أدبارهم والسيف يصفح رقائبهم ويمحو آثارهم وأتبعهم عسكر الموحدين الى باب دكاكة وأخذوا من خيلهم نحو ثلاثة آلاف وقتلوا من فرسانهم ورجالهم ما لا يحصى كثرة ، هكذا ذكر ابن صاحب الصلاة ، وقال : فلما ضاق عليهم الحصار تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً هلكوا جوعاً طول هذه المدة وضاقوا حتى أكلوا الجيف وأكل أهل السجن بعضهم بعضاً وعدمت الحيوانات وعدمت الحنطة بأسرها وطلب إسحاق مخازن أبيه فلم يجد فيه شيئاً . . »

6

صفحة 25

الموضوع : فتح مراكش .

قال ابن صاحب الصلاة : « لما كان فتح مراكش ودخلها أبو محمد عبد المؤمن [illegible] منها الى مخلته وجعل الأمناء على أبوابها مدة شهرين اثنين فاجتمع فيها مالها ثم [illegible] ديارها على الموحدين وتوالت الفتوح إثر ذلك من كل مكان ، منها دخول قصبة [illegible] وذلك في الخامس عشر لشوال من السنة المؤرخة في الشهر الذي دخلت فيه [illegible] كان بينهما ثلاثة أيام . . . »

7

صفحة 109 - 110

الموضوع : الوباء الذي أستهدفت له مراكش سنة 571 .

« وأما ما كان في دورهم وقصورهم (أي السادة) من الخدم والعبيد

وغيرهم فأخبر أبو مروان ابن صاحب الصلاة قال : حدثني الشيخ الحافظ أبو بكر بن الجد قال : حدثني السيد أبو علي الحسين ابن الخليفة عبد المؤمن رحمه الله أنه كان يموت في كل يوم في دورهم ثلاثون شخصاً حتى فنى أكثر من كان في قصورهم ودورهم . . . » .

8

صفحة 112

الموضوع : وفيات .

« . . . وفيها (أي في سنة 574) توفي أبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضرة بمراكش وكان من أهل العلم والدين والحفظ لحديث رسول الله (ص) ولم يزل عند الخليفة أبي محمد عبد المؤمن في حظوة مكينة ، وكذلك عند الخليفة أبي يعقوب ، وكان يرفع له المسائل ويتناول توصيل الرسائل ، ويرفع أشعار الشعراء وإخراج الجزاء وتقدم للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين وإذا وصل كتاب فتحٍ أو غيره قرأه الى غير ذلك ، وكان له أدب غض وشعر في الزهد ومكفرات ولم يزل في عز وتمكين الى أن توفي رحمه الله . . . »

ملاحظة : « سقت هذا النص من ابن عذاري بالرغم من أنه لم يردد فيه ذكراً لأبن صاحب الصلاة ، وذلك لأن هذا الثناء على أبي محمد المالقي منقول عن ابن صاحب الصلاة في التكملة لابن الأبار (كوديرا رقم 1394) » . و(العطار رقم 1879) .

9

صفحة 113 - 114

الموضوع : حركة الخليفة الى أفريقية وغزوته مدينة قفصة سنة 575 .

« . . . وذكر ابن صاحب الصلاة قال : حدثني أبو الحسن الهنوزني أنه (أي الخليفة) كان يعطي البركة لعساكره في غزوته الى قفصه الف الف دينار تمادى ذلك

مدة غزوته الى أن انصرف ، سوى العلوفات والمواساة والمرافق في كل منزل » .

10

صفحة 115

الموضوع : قصيدة قالها بمناسبة فتح الخليفة لمدينة قفصة سنة 575 .

« . . . وأنشد أبو مروان عبد الملك بن محمد في معنى قصيدة أولها :

فَتْحٌ يفوتُ مداركَ الأوْهَامِ ... ويعجِّزُ الإحْصَاء بالأقْلام
صدعَ الدجى صَدَعَ الرداء بنُوره ... فأرَى الغوات تقضي الأحلام ؟
خيْرِ البَشائر صوّغت حْمل المُنَى ... بقُفُول خيْر خليفةٍ وإِمَام
وافتْ كما ابتَسَم الأمانُ لخائفٍ ... وأنهَلَّ أثر المحل سكبُ غمَام
لما طَوى طَي السِّجل مَشارقاً ... أمَّ المغَارب نَاصِرُ الإسلام
يا أيُّها المَلِك الذي في ظلِّه ... أمِن المروعُ حوادِثَ الأيام
وسَطا وجَادَ وما تباطأ شأوُهُ ... أسْد العَرين ولا العمام الهَام ؟
وجَرَى على نهج الخلافةِ تابعاً ... آثارها في النَقْض والإبرام
هنتّنَا نُعَمى تجل عن المُنى ... قَدْراً و . . التي كالأقْسَام »

11

صفحة 112 - 121

الموضوع : حركة الخليفة لبلاد السوس لحماية المعدن سنة 578 .

« فلما أكمل غرضه أقلع بمحلاته وسلك على مسالك المهدي وزار قبره وقبر أبيه عبد المؤمن . .

وأمر وفود الأندلس أن يسيروا من مراكش الى زيارتها . . قال أبو مروان عبد الملك بن محمد في تاريخه :

وكنت في وفد إشبيلية فزرت القبرين الملازمين بتملل مع أبي بكر بن زهر وأبي

الوليد بن رشد ، وأمر طلبة الحضر أن يرثوهما ويذكروا عن فضائلها ومآثرهما فقال الناس في ذلك وأطنبوا فحباهم عليه بالعطاء الكثير . . »

12

صفحة 132

الموضوع : وصول الخليفة أبي يعقوب لإشبيلية وغزوته لشنترين سنة 580 .

« . . ثم سار من جبل الفتح الى جزيرة الخضراء الى أن برز بعساكره على إشبيلية في يوم الجمعة الثالث عشر لصفر وخرج جميع أهل إشبيلية الى لقائه . . قال أبو مروان بن صاحب الصلاة : وكنت حاضراً في يوم هذا اللقاء فسلمت عليه مع من تقدم من الطلبة اليه وتزاحم الناس للسلام فلم أقدر على الكلام ونزل رضي الله عنه داخل البحيرة التي له بخارج باب قرمونة . . فلما كان في اليوم الثاني أمر بتمييز العساكر والعدد ، وقسم عليهم جميع الأسلحة المذكورة وقسّم الف فرس من العتاق الجياد على أشياخ الموحدين والعرب الأجناد . . . »

13

صفحة 134

الموضوع : غزوة شنترين 580 .

« . . . وضربت له القبة الحمراء (على أبواب شنترين) والخيرات كثيرة بكل جهة ومكان . . وقال أبو مروان بن صاحب الصلاة : لقد رأيت في هذا اليوم ثوراً بيد عربي باعه بدرهم واحد ، ولقد اشتريت مع أصحابي بقرة سمينة بثلاثة دراهم وامتلأت المحلات على كثرتها وكبرها من البقر والغنم . . . »

ابن عبد الملك : **الذيل والتكملة** :

الموضوع : وفاة ابن عياش .

قال عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة في تاريخه « إن وفاة ابن عياش كانت

بإشبيلية في ليلة الأربعاء غرة جمادي الأخيرة من سنة ثمان المذكورة ، وزعم أنه قال البيتين المذكورين . أولاً لما كبر وصار يشرب الرُّب ويطرب ، وأنه كان قبل ذلك في فتوته لا يشرب ولا يطرب ، والله تعالى أعلم ، وقال : أنه صلى عليه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، وإن جنازته كانت مشهورة رحمه الله .

السفر الرابع من المخطوط ، الخزانة العامة - الرباط 2046 طرة الورقة رقم 15 .

راجع النقل الثامن عن ابن عذاري المنقول في هذا الباب .

(ملاحظة) : يشير هذا النقل الى البيتين -

عصيتَ هوى نفسي صغيراً فعندما رمتْني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعتُ الهوى عكس القضية ليتني خلقت كبيراً وأنتقلت الى الصغر !

أنظر التعليق رقم 1 ص 30

الجزنائي : زهرة الآس (طبعة الجزائر) ص 74 :

(نقل عن ابن صاحب الصلاة « إن قراءة الحزب بعد صلاة الصبح والمغرب كانت بأمر من يوسف بن عبد المؤمن بن علي في سائر بلاده »).

ابن أبي زرع : **الأنيس المطرب طبعة فاس صفحة ١٢٧ :**

والصحيح في بيعته ووفاته (أي المهدي) ما ذكره ابن صاحب الصلاة في كتاب المن بالإمامة « أنه بويع يوم السبت غرّة محرم مفتتح عام ست عشرة وخمسمائة وتوفي يوم الأربعاء الثالث عشر لشهر رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة » .

صفحة 138

. . . وقال ابن صاحب الصلاة : « كان فتح غرناطة وقتل الأقرع النصراني عام سبعة وخمسين » (يعني وخمسمائة) .

* * *

مؤرخ مجهول : الحلل الموشية :

1

صفحة 84 عند الكلام على نسب المهدي

وقال : أثبت هذا النسب أبو علي بن رشيق ، وحققه ابن القطان واختصره ابن صاحب الصلاة .

2

صفحة 85 عند الكلام على ابتداء أمر المهدي

حكى ابن صاحب الصلاة عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي شيخ مسن من سكان فاس قال : كنت ببغداد بمدرسة الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي فجاءه رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف فدخل المدرسة وأقبل على الشيخ أبي حامد مسلماً عليه فقال : ممَّن الرجل ؟ فقال من أهل المغرب ، فقال : أدخلت قرطبة ؟ قال نعم . قال كيف فقهاؤها ؟ قال بخير ، قال : هل بلغهم كتاب الأحياء ؟ قال نعم ، قال فماذا قالوا فيه ؟ فصمت الرجل حياءً فعزم عليه ليَقُولنّ ! فأطرق رأسه وأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت ، قال فتغير وجهه ومد يده للدعاء والطلبة يؤمنون عليه ، مزق الله ملكهم كما مزقوه وأذهب دولتهم كما أحرقوه! فقال أبو عبد الله بن تومرت السوسي الملقب بالمهدي : أيها الإمام : أدع الله أن يجعل ذلك على يدي ، فتغافل عنه فلما كان بعد أيام أتى الحلقة شيخ آخر على شكل الأول فسأله الشيخ أبو حامد فأخبره بصحة الخبر المتقدم فدعا بمثل دعائه الأول فقال له المهدي : على يدي إن شاء الله فقال : « اللهم اجعله على يده » فقبل الله دعاءه فخرج أبو عبد الله بن تومرت من بغداد وصار الى المغرب وقد علم أن دعوة الشيخ لا ترد فكان من أمره ما يأتي ذكره إن شاء الله .

صفحة 95 في معرض حديثه عن حصار الموحدين لمدينة مراكش :

« . . . وقتل منهم (الموحدين) في ذلك اليوم أزيد من أربعين ألفاً ولم يسلم منهم إلا نحو أربعمائة ما بين فارس وراجل ، وقتل المقدم على العسكر من الموحدين وهو الشيخ أبو محمد البشير أحد العشرة من أصحاب المهدي ، وكان لعبد المؤمن بن علي في ذلك اليوم ظهور دب فيه على المنهزمين وحمى حوزة المفلولين . . ولما وصل الفل الى المهدي وفيهم أربعة من أصحابه وعبد المؤمن معهم وجدوه بتينملل مريضاً فقال لهم : أسلم عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم قال : « منذ عاش عبد المؤمن بقي الأمر » .

ذكر ذلك ابن صاحب الصلاة وغيره وذكر أنه كان لطائفة المهدي من الموحدين على المرابطين في الحروب التي كانت بينهم نحو أربعين هزيمة حتى كانت هذه عليهم قتلوا فيها أجمعين ولم ينح منهم إلا نفر يسير ، غزا المهدي منها بنفسه أربع غزوات فتح الله فيها عليه وعلى الموحدين الذي كانوا معه ولم يزل يرجع الى مستقره بتينملل ظاهراً ظافراً من غزوه » .

ابن الخطيب : الأحاطة مخطوط الأسكوريال رقم 1673 ورقة 158 :

سمي محمد بن عبد الملك بن سعيد وقال : ذكره ابن صاحب الصلاة في تاريخه في الموحدين » .

المقري : نفح الطيب (ثالث) 1949 ص 100

وذكره ـ (أي أبا عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد صاحب المغرب) ـ ابن صاحب الصلاة في كتابه (تاريخ الموحدين) ونبه على مكانته منهم في الخطوة والأخذ في أمور الناس وأثنى عليه .

المراجع العربية

الكتب المطبوعة :

- **ابن الأبار** : التكملة لكتاب الصلاة ، نشر كوديرا ـ طبع مجريط 1887 ونشر ماكسيميليانو الأركون ، وجو نثالث بالنثيا ، مدريد 1915 ونشر بيل وابن أبي شنب الجزائر 1920 ، ونشر العطار ـ القاهرة 1955 .
- **ابن الآبار** : الحلة السيراء ـ نشر دوزي ـ ليدن 1851 .
- **ابن الآبار** : أعتاب الكتاب ـ نشر صالح الاشتر ـ دمشق سنة 1961 .
- **ابن الأثير** : الكامل في التاريخ ـ بيروت 1955 .
- **الادريسي** : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب (نزهة المشتاق في أختراق الآفاق) طبعة ليدن 1894 .
- **ارسلان شكيب** : الحلل السندسية ، في الأخبار والآثار الأندلسية ، نشر محمد المهدي الحبابي ، مصر 1936 .
- **ارشيبالد لويس** : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريف أحمد عيسى ـ القاهرة 1960 .
- **اسماعيل أبو الفداء** : المختصر ، في أخبار البشر ، مصر 1325 .
- **أشباخ يوسف** : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تعريب محمد عبد الله عنان ـ القاهرة 1158 .
- **الأصبهاني أبو الفرج** : كتاب الأغاني ـ بيروت 1955 .
- **آنخل جوثالث بالنثيا** : تاريخ الفكر الأندلسي ، تعريب حسين مؤنس ـ القاهرة 1955 .

- أ لافي بروفنصال : مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المؤمنية ـ رباط الفتح 1941 .
- بروكلمان (كارل) : تاريخ الأدب العربي ، تعريب عبد الحليم النجار ـ نشر دار المعارف ـ مصر 1961 .
- البستاني (أفرام): دائرة المعارف ـ بيروت 1956 .
- ابن بشكوال : كتاب الصلة ـ نشري السيد عزت العطار الحسيني ـ القاهرة 1955 .
- البكري : المغرب ، في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ـ نشر البارون دوسلان ـ الجزائر 1857 .
- البلاذري : فتوح البلدان ـ مصر 1319 .
- بلافريج أحمد وعبد الجليل خليفة : الأدب الأندلسي ـ تطوان 1941 .
- بوجندار محمد : مقدمة الفتح ، من تاريخ رباط الفتح ـ الرباط 1345 هـ .
- البيذق أبو بكر الصنهاجي : كتاب أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ـ نشر ليفي بروفنصال باريز1928 .
- التازي عبد الهادي : تاريخ جامع القرويين، 3 مجلدات ، بيروت 1972 .
- التجيبي أبو بحر صفوان بن أدريس ـ زاد المسافر وغرة الأدب السافر . نشر عبد القادر محداد ـ بيروت 1939 .
- التطواني محمد : الذكرى العشرينية لجلوس صاحب الجلالة سيدي محمد بن يوسف على عرش أسلافه المقدسين ـ الرباط ـ 1947 .
- أبو تمام : ديوان الحماسة (شرح التبريزي) 8 القاهرة 1296 .
- التنبكي أحمد بابا : نيل الابتهاج ـ طبعة 1330 .
- ابن تومرت محمد : كتاب أعز ما يطلب ، تقديم جولد زيهر ـ الجزائر 1903 .
- التيجاني عبد الله : رحلة التيجاني ـ تونس 1985 .
ابن تغري بردي أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ـ القاهرة 1959 .
الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس ـ نشر الفريد بيل ـ الجزائر 1922 .

- ابن جزي : كتاب التسهيل ، لعلوم التنزيل ـ مصر 1355 .
- جودت الركابي : في الأدب الاندلسي ـ مصر 1960 .
- حاجي خليفة : كشف الظنون ـ استانبول 1942 .
- حاجي ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ـ القاهرة 1959 .
- حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ـ القاهرة 1957 .
- حسين بن غنام : تاريخ نجد ـ نشر ناصر الدين الأسد ـ القاهرة 1961 .
- ابن الحشاء : مفيد العلوم ومبيد الهموم ـ نشر جورج كولان ورونو ـ الرباط 1941 .
- الحلبي برهان الدين : السيرة الحلبية ـ مصر 1349 .
- ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد ـ الجزائر 1927 .
- الحموي ياقوت : معجم البلدان ـ بيروت 1955 .
- الحميدي : جذوة المقتبس ، في ذكر ولاة الأندلس ـ نشر محمد بن تاويت الطنجي ـ القاهرة 1592 .
- الحميري : الروض المعطار ـ نشر بروفنصال ـ القاهرة 1937 .
- ابن حوقل : المسالك والممالك ـ ليدن 1873 .
- ابن حيان : المقتبس ، في تاريخ الأندلس ـ نشر ميلتشور انطونيا ـ باريز 1937 .
- ابن الخطيب : الإحاطة ـ نشره محمد عبد الله عنان ـ القاهرة .
- ابن الخيب : أعمال الأعلام ـ نشر بروفنصال ـ بيروت 1956 .
- ابن الخطيب : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ـ نشر محب الدين الخطيب .
- ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ بيروت 1956 .
- ابن خلدون : التعريف بابن خلدون شرقاً وغرباً ـ نشر ابن تاويت الطنجي .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ـ امستردام 1845 .
- ابن دراج القسطلي : الديوان ـ نشر محمود علي مكي ـ دمشق 1961 .
- الدميري كمال الدين : حياة الحيوان الكبرى .
- الزاوي الطرابلسي الطاهر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ مصر 1954 .

- **ابن الزبير** : صلة الصلة ـ نشر بروفنصال ـ الرباط 1938 .
- **ابن أبي زرع** : الأنيس المطرب ـ نشر محمد الهاشمي الفيلالي ـ الرباط 1936 .
- **الزركشي التونسي** : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ـ تونس 1289 هـ .
- **الزركلي خير الدين** : الأعلام ـ القاهرة 1959 .

الزغاري محمد : معرض نقود قديمة ـ الدار البيضاء 1926 .

- **الزقاق** : الزقاقية .
- **ابن الزيات** : التشوف الى رجال التصوف ـ نشر ادولف فور ـ الرباط 1958 .
- **ابن زيدان** : العز والصولة في معالم نظام الدولة ـ نشر عبد الوهاب بن منصور ـ الرباط 1961 .
- **ابن سعيد وآخرون** : المغرب ، في حلى المغرب ـ نشر شوقي ضيف ـ القاهرة 1953 .
- **ابن سعيد المغربي** : كتاب بسط الأرض في الطول والعرض ـ تحقيق جوان فرنيط جِينس ـ تطوان 1958 .
- **سكيرج** : أرشاد المتعلم والناسي ، في أشكال القلم الفاسي ـ فاس 1316 .
- **ابن سودة عبد السلام** : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ـ طبعة دار الكتاب (البيضاء) .
- **السوسي محمد المختار** : سوس العالمة فضالة 1379 .
- **السيوطي** : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ـ مصر 1326 هـ .
- **السيوطي** : أخبار الخلفاء ـ طبعة 1959 .
- **الشبيبي محمد رضا** : أديب المغاربة والأندلسيين ـ القاهرة 1916 .
- **الصبحي محمد** : انبلاج الفجر ، عن المسائل العشر ـ الرباط 1940 .
- **طاروجان وجيروم** : أزهار البساتين ، في أخبار الأندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين ـ تعريب أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي ـ الرباط 1349 .
- **الطباع عبد الله** : كتاب الحلة السيراء لابن الآبار ـ بيروت 1962 .
- **الطبري** : تاريخ الرسل والملوك ـ ليدن 1860 .

- **ابن طفيل** : حي بن يقظان تقديم جميل صليبا وكامل عواد ـ دمشق 1963 .
- **العباس بن إبراهيم** : الأعلام ، بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ـ فاس 1936 .
- **ابن عبد الله عبد العزيز** : الطب والأطباء بالمغرب ـ الرباط 1959 .
- **عبد الوهاب النجار** : قصص الأنبياء ـ مصر 1936 .
- **العقيلي** : سلك فرائد اليواقيت .
- **عمر رضا كحالة** : معجم قبائل العرب ـ دمشق 1949 .
- **العمري بن فضل الله** : مسالك الأبصار ، في ممالك الأمصار ـ مصر 1943 .
- **ابن العوام الإشبيلي** : كتاب الفلاحة ـ مدريد 1802 .
- **الغزال أحمد بن المهدي** :نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد ـ نشر الفريد البستاني ـ تطوان 1941 .
- **الفاسي محمد** : شاعر الخلافة الموحدية ـ الرباط 1958 .
- **الفاسي الفهري محمد البشير** : قبيلة بني زورال ـ الرباط 1962 .
- **الفاسي محمد العابد** : الخزانة العلمية بالمغرب ـ الرباط 1960 .
- **ابن فرحون** : الديباج المذهَّب ، في معرفة أعيان علماء المذهب ـ فاس 1316 .
- **ابن الفرضي** : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ـ نشر السيد عزت العطار الحسيني ـ القاهرة 1954 .

فكري أحمد : مساجد القاهرة ومدارسها ـ القاهرة 1961 .

- **ابن القاضي** : جذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام مدينة فاس ـ فاس 1309 .
- **القلقشندي** : صبح الأعشى ـ مصر 1918 .
- **الكانوني العبدي محمد** : أسفى وما إليه قديماً وحديثاً ـ مصر 1353 .
- **الكتاني محمد بن جعفر** : سلوة الأنفاس ـ فاس 1316 .
- **كنون عبد الله** : النبوغ المغربي ، في الأدب العربي ـ طبعة تطوان 1357 .
- **كنون عبد الله** : أبو الحسن المسفر ـ بحث ظهر ضمن كتاب (فلاسفة الإسلام في المغرب العربي) الذي أصدرته جمعية نبراس الفكر ـ تطوان 1916 .

— المبرد : الكامل : القاهرة ـ 1928 .

— المراكشي عبد الواحد : المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب ـ نشر محمد الفاسي ـ سلا 1938 ، ثم نشر محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـ القاهرة 1949 .

— المرير محمد : الأبحاث السامية ، في المحاكم الإسلامية ـ تطوان 1955 .

— المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ نشر وترجمة دي منيار ودي كورتيل ـ باريس 1909 .

— المقري : نفح الطيب ـ نشر محمد محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة 1949 .

— المكناسي أحمد : خريطة المغرب الأركيولوجية ـ تطوان 1961 .

— ملين محمد الرشيد : عصر المنصور الموحدي ـ الرباط 1946 .

— ابن منظور : لسان العرب ـ بيروت 1955 .

— المنوني محمد : العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين ـ تطوان 1950

— مارتينو ماريومورينو : المسلمون في صقلية ـ بيروت 1957 .

— محمد بن الموقت : الأنبساط ، بتلخيص الاغتباط ـ مصر 1347 .

— مؤلف مجهول الأسم : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـ نشر ي . س علوش ـ الرباط 1936 .

— مؤلف مجهول الأسم : الاستبصار في عجائب الأمصار ـ نشر سعد زغلول عبد الحميد ـ مصر 1958 .

— الناصري أحمد أبو العباس : الاستقصاء ، لأخبار المغرب الأقصى ـ تحقيق ولدي الناصري جعفر ومحمد ـ الدار البيضاء ـ 1954 .

— [illegible] محمد بك : قاموس فرنساوي عربي ـ الاسكندرية 1903 .

— [illegible] أحمد : دليل الحج والسياحة ـ الرباط 1935 .

— ابن واصل : مفرج الكروب ، في أخبار بني أيوب ـ تحقيق الدكتور جمال الدين [illegible] ـ الاسكندرية 1960 .

— وزارة التهذيب الوطني والشبيبة والرياضة : قائمة لنوادر المخطوطات العربية [illegible] جامعة القرويين بفاس بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس [illegible] ـ الرباط 1960 .

— اليازجي : العرف الطيب ، في شرح ديوان أبي الطيب ـ بيروت 1955 .

ـ المجلات ـ

— امبرتوريزيتانو : بعض المصادر العربية غير المعروفة عن تاريخ مسلمي صقلية ـ مجلة المشرق (روما) شتنبر 1961 .

— بلا فريج أحمد : عبد المؤمن وتأسيس الدولة الموحدية ـ مجلة السلام (تطوان) نونبر ـ دجنبر 1933 .

— التازي عبد الهادي : الأرقام العربية ـ مجلة التربية الوطنية (الرباط) ـ ابريل 1961 .

— التازي عبد الهادي : الحروف المنقوشة في خدمة الآثار ـ مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية 1960 .

— التازي عبد الهادي : المحمدية القديمة والمحمدية الحديثة ـ مجلة دعوة الحق ـ الرباط يوليه 1960 .

— الجراري عباس : ابن حبوس ـ مجلة دعوة الحق ـ مارس 1961 .

— ابن الحسني عبد الكريم : الحماسة المغربية ـ ملحق جريدة المغرب للثقافة المغربية ـ 9 يونيه 1938 .

— الدوري عبد العزيز : ابن خلدون والعرب ـ مجلة الكتاب ـ ابريل 1962 .

— العبادي أحمد مختار : الموحدون والوحدة الإسلامية ـ مجلة التربية الوطنية ـ مارس ـ ابريل 1961 .

— العبادي أحمد مختار : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ـ مجلة تطوان ـ عدد 1960 .

— غرسية عوميس : قصيدة لابن طفيل ـ مجلة المعهد المصري ـ عدد 1953 .

— الفاسي محمد : الشاعر الكبير ابن حبوس ـ مجلة الثقافة المغربية ـ عدد نونبر ـ دجنبر 1941 .

— الفاسي محمد : أصول الأعلام الجغرافية المغربية ـ مجلة البينة ـ مايه 1962 .

— الفاسي محمد : الأعلام الجغرافية الأندلسية ـ مجلة البينة ـ يوليه 1962 .

الكتب المخطوطة

ـ بوجندار : الأغتباط (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 1287 / د .

ـ التجيبي ابن ليون : كتاب إبداء الملاحة وإنهاء الرجاحة في أصول الفلاحة (مخطوط) بمكتبة جامعة غرناطة .

ـ ابن الحسني عبد الكريم : التعريف ، بقية وفد ثقيف (مخطوط) خزانة مؤلفه .

ـ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (مخطوط) بالأسكوريال رقم 1673 .

ـ الزهراوي : تقويم الأدوية فيما اشتهر من الأعشاب والعقاقير والأغذية (مخطوط) بالخزانة العامة ـ الرباط رقم 449 / د .

ـ السائح محمد بن عبد السلام : الغصن المهصور في تاريخ مدينة المنصور (مخطوط) بمكتبة المرحوم القاضي السائح

ـ الصمادحي حسن حسني عبد الوهاب : كتاب العمر (مخطوط) مكتبة حسن حسني عبد الوهاب .

ـ ابن طفيل : الأرجوزة في الطب (مخطوط) بخزانة جامعة القرويين تحت رقم 3158 / 50 ل .

ـ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (مخطوط) بالخزانة العامة ـ الرباط رقم 2646 / د .

ـ ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار ملوك المغرب (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 200 / ق .

ـ ابن العربي : جزء من تلخيص الرحلة (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 1020 / د .

ـ عياض : الغنية ، مكتبة الأستاذ أبي الحسني . الرباط
ـ الغساني الوزير : حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار (مخطوط) بالخزانة العامة رقم 1684 / د .
ـ الفاسي محمد العربي : مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (مخطوط) بخزانة سيدي مُحمد السراج .
ـ ابن القطان : نظم الجمان ـ نسخة (مخطوطة) في ملك الدكتور محمود علي مكي وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .
ـ ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن في آثر مولانا ابي الحسن (مخطوط) بالاسكوريال رقم 1666 .
ـ نظارة الأحباس : حوالة أحباس القرويين بفاس (مخطوط) المكتبة العامة رقم 23 .

المراجع غير العربية

ـ الكتب ـ

Alfonso El Sabio : Primera Cronica general - Madrid 1943 .

Ambrosio Huici Miranda : Historica politica del imperio Almohade Tetuan 1956 .

Asin Palacios : Aben Massarra y su escuela - Madrid .

Baëdeker : Espagne et portugal - 1900 .

Brethes : Contribution a l'histoire du Maroc 1939 .

Brochlemen : G . A. L. Suppl . I .

Cailé : La ville de Rabat - Paris 1945 .

Cattenoz : Tables de concordance des éres chretiennes et hegiriennes - Rabat 1954 .

Codera : Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana 1899 .

Coindreau : La casbah de Mehdia - Rabat 1946 .

Colin et Levi : As - Sakati de Malaga (un manuel hispanique de

Provençal : hisba) ' Paris .

Deverdun : Marrakech - Rabat 1959 .

Dozy : Sup . aux dictionnaires arabes . Leyde 1881 .

Dozy : Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen age - Paris 1881 .

Galiego Burin : Grenade , Granada 1954 .

Gauthier Léon : Ibn Thofall , sa vie et ses oeuvres - Paris 1909 .

Gayangos (Pascuale De) : The History of the Mohammedan dynasty in Spain (Nafhu T Tib) - London 1840 - 43 .

G . Yvr : Az - Zab (Ensyclopedie T IX P . 1246 - 147) .

Kasimirski : Description de l'Afrique - Paris 1956 .

Laouste : Mots et choses berbères - Paris 1920 .

Léon l'Africain

Le Tourneau : Fes avant le protectorat - Casablanca 1949 .

Marmol : L'afrique - Paris 1667 .

Massignon : Le Maroc dans les premières années du XVI siecles Alger 1906 .

Miles : Dinar (Encyclopédie de l'Islam - Paris 1960) .

Moulieras : Le Maroc inconu - Paris 1895 .

Olaguë : Histoire d'espagne - Paris 1957 .

Provençal : Documents inédits d'histoire Almohade - Paris 1928 .

Provençal : L'Espagne Musulmane - Paris 1932 .

Provencal : La fondation de Marrakech (Melange d'histoire et d'archéologie de l'Occident Musulman) II - Alger 1957 .

Provençal : Conferences sur l'espagne Musulman . Caire 1950 .

Pons Boingues : Ensayo biobibliografio sobre los historia dores y geografos arabigo espanoles - Madride 1898 .

Ficard : Le Maroc - Paris 1925 .

Richard Bagwell : Marsh (Dictionary of national biography) .

Schaade : Alhambra (Encyclopédie de L'islam) .

Simonet : Description del reino de granada .

Seybold : Gibraltar (Encyclopédie de L'islam P. 1137)

Terrasse : La grande mosquée Almohade de sevilla - Paris 1928 .

Terrasse : La grande mosquée de TAZA - Paris 1943 .

Terrasse : L'Art hispagno maresque - Paris 1932 .

Terrasse : Histoire du Maroc .

S . Montou : Meunerie (La grande Encyclopédie T 23) .

Viala : La Mécanisme du parage des successions en droit muslman - Algar 1917 .

W . M . C . Juynboll : Zeventiende - Eeuwse Beoefenaars Arabish in Nederland .

Alain et Deverdun : Les portes anciennes de Marrakech (hésperis T XLIV 1957) .

Ambrosio Huici Miranda : (Un Fragmento inédito de Ibn idari sobre los Almoravides) , (Hes , Tamuda vol . II 1 fas 1961 p. 43 - 111) .

Balbas Le - Opoldo Torres : Gibraltar llave y guada de Espana . (Al - Andalus vol . VII 1942) .

Basset et Provençal : Challa (Hes 1922 T II 4 Tri p. 415) .

Basset et Terrasse : Tinmel (Hes T. IV 1924) .

Basset et Terrasse : Sancturaires à l'étude des dirhams de l'éoque Al Mohade (Hes T XVI 1933) .

Celeries : L'Atlas et la circulation au Maroc (Hes . 1927 T. VII p. 447) .

Colin : Notes de dialectalogie arabe (Hes . T. X 1930) .

Debreuil : Les pavillions des états musulmans (Hes Tamuda vol . I 1960) .

Di Giacomo : Une poetesse andalouse du temps almohade (Hes, T. XXIV 1947) .

Marcy : Les aît Jellidasen (Hes 1929 T IX Tri I) .

Melchor Antuna : Campanas de los almohades en Espana Sevilla y sus monumentos arabes « Religion y cultural » El Escroial 1930) .

Norris : The early islamic settlement in Gibraltar 1960 .

Peres : La poésie à Fes sous les almoravides et les Almohades (Hesperis T XVIII 1934) .

Provençal Provencal : La « Moro Zaida » (Hes . T XVIII 1934) .

Provençal : Le traité d'ibn Abdun (Journal asiatique Avril Juin 1934) .

Renaud : Trois études de la medecine arabe en occident (Hes . 1931) . T X II Fas 2 p. 219) .

Renaud : L'Enseignemet des Sciences exactes au Maroc (Hes . XIV 1932) .

Seco De Lucene : Notas Sobre toponimia arabigo - Granadina (Al Andalus 1944) .

الفهـــارس

1 ـ فهرس الآيات القرآنية.
2 ـ فهرس الأحاديث النبوية.
3 ـ فهرس أسماء الأعلام.
4 ـ فهرس أسماء القبائل والعشائر والأجناس.
5 ـ فهرس للأعلام الجغرافية.
6 ـ فهرس القطع الشعرية الواردة في المخطوط.
7 ـ فهرس الرسائل الموحدية الواردة في المخطوط.
8 ـ فهرس الأمثال العربية.
9 ـ فهرس الكلمات الأجنبية أو التي لها دلالة خاصة.
10 ـ فهرس أسماء الكتب الوارد ذكرها في المخطوط.
11 ـ فهرس فصول الكتاب والموضوعات المستطردة فيه.

فهرس الآيات القرآنية

الآيــة	الصفحة	السورة	رقم الآيــة
واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري	166	طـه	29
صدقوا ما عاهدوا الله عليه	205	الأحـزاب	23
كأنهم أعجاز نخل خاوية	206	الحاقـة	7
من يضلل الله فلن تجد له سبيلاً	245	النساء	88
لكل أجل كتاب	284	الرعـد	38
وما ربك بظلام للعبيد	294	فصلت	46
وما ذلك على الله بعزيز	294	إبراهيـم	20
إذا جاءك المنافقون	390	المنافقون	1

فهرس الأحاديث النبوية

جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، صفحة 341 يروى مرفوعاً وموقوفاً عن ابن مسعود، ابن الديبع: تمييز الطيب من الخبيث فيا يروى على ألسنة الناس من الحديث. الطبعة الثانية ـ مصر. حرف الجيم.

فهرس أسماء الأعلام

تنبيه: ١ - رتبت هذه الفهارس وفقاً لحروف الهجاء.

٢ - هذا ولم نراع ألفاظ ابن أو أبو أو عبد عند الترتيب

٣ - حرف الحاء (ح) يرمز إلى الحاشية.

حرف الألف

حرف الباء

حـرف التـاء

حـرف الثـاء

حـرف الجيم

حـرف الحـاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

[illegible]رف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس أسماء القبائل والعشائر والأجناس

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حـرف الخاء

حـرف الـدال

حـرف الـراء

حـرف الـزاي

حـرف السيـن

حـرف الشيـن

حـرف الصـاد

حـرف الضـاد

حـرف الطـاء

حـرف العين

حـرف الغيـن

حـرف الفـاء

حـرف القـاف

حـرف الكـاف

حـرف الـلام

حـرف الميـم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأعلام الجغرافية

حرف الألف

حـــرف البـاء

حـــرف التـاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين



حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حـرف الكـاف

حـرف الـلام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حــرف اليـاء

فهرس للقصائد والقطع الشعرية الواردة في المخطوط

الصفحة	موضوع الشعر
	موقعة السبيكة، وهي تتألف من ثمانية وثلاثين بيتاً هذا مطلعها (بحر الكامل) عـزمـات مـنصـور الـعـزائم غـالـب ضـمـت فـتـوح مشـارق ومـغـارب
146 - 144	قصيدة أخرى لأبي الوليد هذا يهنئه بعيد الفطر من سنة 557 بعد الوقيعة المذكورة، من أربعة وأربعين بيتاً هذا مطلعها (بحر الوافر) بـأمـرك اسـمـع الـداعي المهـيـب وسـعـدك بشر الـفـتـح الـقـريـب
158	قطعة من ثلاثة أبيات لإبراهيم بن المسفر يهجو أخيل بن إدريس يقول في أولها: (المتقارب) تخـيـلت أخـيـل ذا عـفـة فبـان التخيـل عـين الغبن
159	ثلاثة أبيات لأبي بكر بن ميمون متغزلاً في فتى من أغمات يقول في أولها: (بحر المتقارب) أبـا قـاسـم والهـوى جنـة وهـا أنـا من مسهـا لم أفق!
160	بيتان للشاعر اليكي في هجاء ابن ميمون مطلعها: (بحر البسيط) قـالـوا: هجـاك ابن ميمـون! فقلت لهم يـا ليت شعـري من الهـاجي؟ فـادريـه
173 - 171	قصيدة أيضاً لأبي الوليد إسماعيل مهنئاً ببيعة أبي يعقوب بعد وفاة عبد المؤمن، من أربعين بيتاً، وقد قال في مطلعها (بحر الكامل) عـهـد أنـار بـه الهـدى والـديـن واسـتـظهـر الـتـأيـيـد والـتـمـكـين
175 - 173	قصيدة للشيخ المسن أبي بكر بن المنخل الشلبي في موضوع التهنئة بالبيعة، من ثمانية وأربعين بيتاً، هذا مطلعها (بحر الكامل) تهنَ الخـلافـة إن جلوت صبـاحـهـا ومـددت من نـور الهـدى أوضـاحـهـا
178 - 175	قصيدة للشاعر أبي عمر بن حربون في موضوع التهنئة كذلك وقد تعرض فيها للنصر الذي حصل عليه الموحدون في موقعة جبل

الصفحة	موضوع الشعر
	السبيكة، من أربعة وستين بيتاً، هذا مطلعها (بحر الطويل) لكم بـعـد حمـد الله تهـدى المحـامـد وفي وصف عليـاكم تصـاغ الـقـلائـد
184 - 182	قصيدة أخرى لأبي عمر بن حربون بمناسبة اجتماع الأخوين أبي حفص وأبي سعيد بجبل طارق تشتمل على تسعة وثلاثين بيتاً يقول في مطلعها: (بحر البسيط) قـد حصحص الحق لا ريب ولا فنـد هـذي الفتوح التي كـانوا بهـا وعـدوا
184	قطعة أيضاً لابن حربون يمدح أبا حفص عندما كان منصرفاً بمدينة سبتة من جبل طارق، من خمسة أبيات، هذا مطلعها: (بحر الطويل) تجشمت هـول البحـر في طلب البحـر ولم أشـك صـرف الـدهـر إلّا إلى الـدهـر
189 - 188	قصيدة لأبي الوليد إسماعيل الشلبي الشواش يهنىء الأمير أبا يعقوب بمقدم أخويه أبي حفص وأبي سعد إلى مراكش من جبل طارق، من تسعة وثلاثين بيتاً، هذا مطلعها: (بحر الكامل) وضحت بأنوار الهدى قسماته وأبانت الهدي القويم سماته
191 - 189	قصيدة لأبي عمر بن حربون يهنىء كذلك بالإياب من جبل الفتح ويمدح الأمير أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط بالاخوة بينهما من ستة وثلاثين بيتاً، هذا مطلعها (بحر الوافر) بـأيمـن طـائر كان الإياب وأنجح مطلب بـلغ الطلاب
192 - 191	قصيدة أخرى لابن حربون عند مرجع السيد أبي حفص من الجبل يمدحه، وقد أصبح كاتباً له، من ستة وعشرين بيتاً هذا مطلعها: (بحر الكامل) حـثـوا المـطى فـقـد قـضـت أوطـارهـا واحـدوا إلى بـاب الأمـير قـطارهـا

الصفحة	موضوع الشعر
	المؤمنين بمناسبة الأسمية الجديدة من خمسة عشر بيتاً، هذا مطلعها: (بحر الكامل) طبع الإمام من الأسنة لهذما لم يعهدوه في أسنة معضب
270	قطعة لابن حربون على لسان السيف من بيتين، يقول في أولهما (بحر مجزوء الرمل) أنا إن جردت يوماً كنت بالنصر قمينا
280 - 278	قصيدة لابن حربون كذلك يمدح السيد أبا حفص ويهنئه بالانتصار الذي أحرزه على المشغبين في جبل تاسررت، من واحد وأربعين بيتاً هذا مطلعها (بحر المتقارب) بينكم أنجح المطلب وأعطى مقادته المصعب
283 - 280	قصيدة لابن حربون أيضاً نزولاً عند رغبة أمير المؤمنين في أن يبتدىء الشعراء قصائدهم بالحمد لله على طريقة الكتابة، وذلك بمناسبة النصر الذي حصل عليه الموحدون، وهي من ثمانية وأربعين بيتاً هذا مطلعها (بحر البسيط) الحمد لله مدني شاسع الأمل وناظم الشمل في سلك من الجذل
301 - 299	قصيدة لأبي عمر بن حربون يمدح أمير المؤمنين مهنئاً بما صنع الله للموحدين في تيسير بطليوس، وهي من واحد وخمسين بيتاً هذا مطلعها (بحر الطويل) بسعدك أضحى الدين جذلان باسماً وباسمك أمسى الشرك للشرك هادماً!
328 - 325	قصيدة لابن طفيل خاطب بها أمير المؤمنين عرب إفريقية لحثهم على الغزو والجهاد، وهي من أربعة وأربعين بيتاً هذا مطلعها (بحر الطويل) أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب

الصفحة	موضوع الشعر
329 - 328	قصيدة لابن عياش يسترحل بها الملك عرب إفريقية ويستدنيهم إليه وهي من ثلاثة وعشرين بيتاً هذا مطلعها: (بحر الطويل) أقيموا إلى العليا في عوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
339 - 334	قصيدة لأبي الحكم البلنسي يذكر بعض الفتوح ويلوح فيها بحاجته إلى أمير المؤمنين بمراكش وهي من أربعة وسبعين بيتاً يقول في مطلعها (بحر البسيط) مسامري وخبير القوم مسؤول حدث فقولك مسموع ومقبول
366 - 364	قصيدة للأستاذ ابن سيد بمناسبة دخول أمير المؤمنين لإشبيلية وهو يمدحه فيها ويهنئه ويصف بروز الناس إليه يوم وصوله، وهي من خمسة وثلاثين بيتاً هذا مطلعها: (بحر الكامل) السعد يقدم والعزائم تصدق والنصر بينهما يخب ويعنق
370 - 367	قصيدة لعبد الله بن الشيخ الشاعر أبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنخل الشلبي بمناسبة عيد الأضحى بمدينة قرطبة، وهي من خمسين بيتاً هذا مطلعها: (بحرالكامل) شرف الخلافة إن ملكت زمامها وغدوت من عقب الإمام أمامها
202	الأبيات الشعرية (غير المغربية) المستشهد بها في أثناء الكلام وهي لأبي تمام: فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
266	ولقد أراك فهل أراك بغبطة والعيش غض والزمان غلام
267	أعوام وصل كان ينسى طولها ذكر الهوى فكأنها أيام!

فهرس للرسائل الموحدية التي يتضمنها الكتاب

الأمثال الوارد ذكرها في الكتاب

فهرس الكلمات الأجنبية أو التي لها دلالة خاصة مما يحتويها المخطوط

فهرس للكتب الوارد ذكرها ضمن المخطوط

فهرس الموضوعات التي احتوى عليها الكتاب

(العناوين الموجودة بين هلالين في المتن هي عناوين إضافية)

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

كتب للمحقق

1 ـ آداب لامية العرب طبع بالرباط 1953
2 ـ أحد عشر قرناً في جامعة القرويين (بالعربية والفرنسية والانجليزية) طبعة فضالة 1960 .
3 ـ أعراس فاس، مطبعة فضالة 1961 .
4 ـ معرض لتاريخ المغرب الدبلوماسي، طرابلس 1967 .
5 ـ تاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة (تحقيق) طبع بيروت 1964 وبغداد 1979 وبيروت 1986 .
6 ـ جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، مطبعة فضالة 1967 .
7 ـ تاريخ العلاقات الامريكية المغربية (بالانجليزية) مطبعة فضالة 1967 .
8 ـ جامع القرويين المسجد الجامعة بمدينة فاس، ثلاث مجلدات، مطبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972
9 ـ ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي (تحقيق) مطبعة فضالة 1976 .
10 ـ قصر البديع بمراكش من عجائب الدنيا، مطبعة المحمدية (فضالة 1976) .
11 ـ في ظلال العقيدة، دار الثقافة، البيضاء 1397 — 1977 .
12 ـ صقلية في مذكرات السفير ابن عثمان، المحمدية (فضالة) 1977 .
13 ـ التعليم في الدول العربية (طبعة اليونيسكو)في ثلاثة لغات 1977 .
14 ـ رسائل مخزنية (القسم الأول) مطبعة اكدال، الرباط 1979 .
15 ـ العلاقات المغربية الإيرانية ـ مطبة أكدال، الرباط 1979 .

16 ـ القنص بالصقر بين المشرق والمغرب، مطبعة [illegible] 1980

17 ـ الحماية الفرنسية بدءها ـ نهايتها، طبع الدار البيضاء 1980

18 ـ أوقاف المغاربة في القدس، طبع المحمدية 1981

19 ـ النصوص الظاهرة في إجلاء اليهود الفاجرة لابن أبي الرجال (تحقيق) صنعاء اليمن، نشر مركز الدراسات والبحوث اليمني 1400 [illegible] 1980 .

20 ـ دفاعاً عن الوحدة الترابية، مطبعة أكدال 1982 .

21 ـ الرموز السرية في المراسلات المغربية عبر التاريخ، مطبعة المعارف، الرباط 1983 .

22 ـ الفريد في تقييد الشريد لأبي القاسم الفجيجي (تحقيق) طبع الدار البيضاء 1983 .

23 ـ إيران بين الأمس واليوم، طبع الدار البيضاء 1983 .

24 ـ تفسير سورة النور 1984 الرباط .

25 ـ الموجز في تاريخ العلاقات الدولية الرباط 1985 .

26 ـ تاريخ المغرب الدبلوماسي (في عشر مجلدات) تحت الطبع .

د. عبد الهادي التازي

* من مواليد مدينة فاس (المغرب) 7 شوال 1339 = 15 — 6 — 1921 .

* أسهم منذ صغره في الحركة الوطنية للإستقلال، فاستهدف للنفي والاعتقال .

* نال شهادة العالمية عن جامعة القرويين 1947 وأحرز دبلوم الدراسات العليا من جامعة محمد الخامس ودكتوراه في الآداب من جامعة الاسكندرية .

* بروفي في اللغة الفرنسية من معهد الدراسات العليا، وشهادة في الإنجليزية عن معهد اللغات .

* مارس الأستاذية بجامعة القرويين (فاس) وجامعة محمد الخامس (الرباط) والمدرسة الإدارية .

* وعضو المجمع العلمي ببغداد، 1966، ومجمع اللغة بالقاهرة، 1976، ومجمع اللغة العربية بالأردن، 1980، وعضو أكاديمية المملكة المغربية 1980 .

* نشر عدة بحوث وحقق بعض المخطططات، وألف مجموعة من الكتب وترجم عن الفرنسية والانجليزية طائفةً من الدراسات والمقالات .

* أشرف بعد استقلال المغرب على قسم الشؤون الثقافية بالعاصمة وعمل كاتباً عاماً لمركز التنسيق بين اللجان الوطنية لليونيسكو.

* شارك في عدة مؤتمرات دولية كان منها مؤتمرات القمة . .

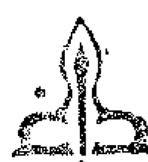
* سفير للمملكة المغربية منذ 13 — 5 — 1963 لدى عدد من الدول العربية والاسلامية .

* مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي . . .

* محرز على وسام العرش (المغرب) زالاستقلال (ليبيا) والرافدين (العراق) .

* قلادة الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة (المغرب) .

* عضو المجمع العلمي العربي بدمشق .



دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 - ص . ب . 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113 - 5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1987/1/2000/96
التنضيد : دار قدموس - بيروت
الطباعة : مؤسسة جواد للطباعة والتصوير - بيروت